د. سعد بوفلاقة

شِعرُ النِّساء

في صدر الإسلام والعصر الأمويّ



شعر النساء

في صدر الإسلام والعصر الأموي


بسم الله الرحمن الرحيم

د. سعد بوفلاقة

شعر النساء
في صدر الإسلام والعصر الأموي





دار المناهل



للطباعة والنشر والتوزيع

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9953 - 448 - 35 - 0

الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

عنوان الكتاب: شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي

تأليف: الدكتور سعد بو فلاقة

عدد الصفحات : ٤٣٢

قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤

تصميم الغلاف : هوساك كومبيوتر برس

الخطوط : حسين ماجد

التنفيذ الطباعي : هادي برس

الناشر: دار المناهل- بيروت -لبنان

هاتف: ٠٠٩٦١ ٣ ٧٠١٠٣٦

٠٠٩٦١ ١ ٣٤٩٤٢٤

فاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣١٤٢٢٠

E- mail: daralmanahel75@hotmail.com

طبع في لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

[سورة الممتحنة: 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حين درستُ «الشعر النسوي الأندلسي» في الماجستير، اتصلتُ بشعر النساء، بعامة، اتّصالاً وثيقاً، ووقفتُ عليه وقوفاً دقيقاً، من خلال المصادر والمراجع التي توافرت لديَّ في الموضوع. ولم ألبث أن شُغِفْتُ بما أبدعته المرأة في مختلف العصور. فطَفِقْتُ أقرؤُه وأستجليه مأخوذاً برقة عاطفته وصدق فنّه. وقد وقع في يدي أثناء ذلك كتاب الدكتور أحمد الحوفي الموسوم بـ «المرأة في الشعر الجاهلي» وقد خصّص فصلاً منه للمرأة الشاعرة، وهو أوّلُ من درس شعر النّساء في العصر الجاهلي بتوسع. وقد اقترح في ختام بحثه أن يدرس آخرون شعر النّساء في العصرين: الإسلامي والعباسي.

وتناولت الدكتورة واجدة مجيد في كتابها «المرأة في أدب العصر العباسي» دراسة أدب المرأة في العصر العباسي في بحث موسع مستقل، وسارت فيه على النهج نفسه الذي سار عليه الدكتور الحوفي في كتابه السالف الذكر.

أمّا شعر النّساء في صدر الإسلام والعصر الأمويّ فلمْ يَحْظَ باهتمام الدارسين والباحثين، ولم تُفْرَدْ له دراسةٌ مستقلّةٌ من قبل - فيما أعلم - وإنْ وردت إشارات إليه في بعض الكتب التي تناولت الشعر النسوي بعامة[1]. ونظراً لسعة الفترة الزمنية التي كان الدارسون يتحرّكون فيها، فقد أولوا اهتماماً بالجمع والتوثيقِ وابتعدوا عن البحث والتحليل إلا نادراً.

---

(1) انظر ما ألف عن النساء قديماً وحديثاً في المدخل.

لكن بحثنا يحاول أن يتجاوز تلك الدراسات، فيدرسُ «شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي دراسة موضوعية فنية» مستقلة، ويتناوله بالدّرس والتحليل والاستنتاج، ويكشفُ النّقابَ عن أغراضِهِ، ويحدّد ظواهِرَه الفنية المتميزة على مستوى الأساليب والألفاظ، والصور والأخيلة.

ويُعدُّ بحثنا هذا امتداداً للدّراستين اللتين قام بهما كلّ من الدكتور أحمد الحوفي والدكتورة واجدة مجيد المشار إليهما سابقا.

وقد كان من بواعث اختيارنا لهذا الموضوع إيمانُنا بضرورة الاهتمام بشعر النساء في الأدبِ العربي القديم الذي ظلَّ زمَناً طويلاً وهو لا يحظى إلاّ بالنَّزْرِ اليسير من جهودِ الباحثين العرب، ولم يَلْقَ العناية العِلْميةَ الكافية حتَّى الآن.

مما سبق تتضّح أهمية هذه الدراسة لاستكمال صورة الشعر النسوي في القديم.

وكانت الأهدافُ من البحث هي: جمع شتات الشعر النسوي، في هذه الفترة، المتناثر هنا وهناك في المصادر القديمة، ودراسته، ومحاولة الكشف عن أغراضه ومميزاته. وقد استطاعَ البحثُ أنْ يكشفَ القناع عن كثير منها في فصوله، ولا سيما في فصله الفني الأخير.

ولمعالجة هذا الموضوع، قَسّمتُ البحث إلى مقدّمة، ومدخل، وخمسة فصول، وخاتمة.

ففي المقدمة تحدّثتُ عن الأسباب التي جعلتني أختار شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي موضوعاً لبحثي، وقد بينت فيها أهدافه، وأقسامه، ومنهجه، ومصادره، ثم العقبات والصعوبات التي اعترضته.

أمّا في المدخل فقد حاولتُ أن أقدم صورة سريعة عن مشكلة البحث التي يعالجها من خلال محاولة الإجابة عن ثلاثة أسئلة مهمة تراود الباحث هي:

1 - لمن يكتب الشاعر؟

2 - ماهية الشعر الذي يكتبه؟

3 - ما وقع الشعر الذي يكتبه على أبناء عصره؟

ثم عرّجتُ على العوامل التي ساعدت على إهمال شعر النساء من قبل المؤرخين العرب القدماء، والأسباب التي أدت إلى قلة المروي من شعرهن. واستعرضتُ بإيجاز المصنفات والدراسات التي أُنجزت في القديم والحديث في باب النساء بعامة، وشعر النساء بخاصة.

وفي الفصل الأول، تحدثت عن المرأة العربية والشعر بعامة، وقد تتبعتُ ذلك في عدة مباحث رصدتُ فيها مكانة المرأة العربية بعد الإسلام.

أما الفصل الثاني، فخصّصْتُهُ للحديث عن الخلفية السياسية والاجتماعية والثقافية لشعر المرأة، لعلاقتها المتينة بالموضوع، فقد شاركت المرأةُ مشاركة فعالة في الحياة الاجتماعية والأحداث السياسية والحربية، وقد أثر ذلك كُلّهُ في شعرها تأثيراً واضحاً في جوانب متعددة، لأن عصر الشاعر وبيئته من أهمّ مصادر شعره. والغرض من هذا الفصل هو المساعدة على فهم النصوص الشعرية، والسير على هدى في دراستها.

وفي الفصل الثالث، درستُ أغراض شعر النساء في صدر الإسلام دراسة مستقصية، وقد بدأت الفصل بتمهيد عرّفتُ به وبمادته ثم قمتُ بعملية استقراء لنتاجهنّ في هذه المرحلة، فوجدتُ أنّ الرثاء يحتل المرتبة الأولى لدى الشواعر، يليه الفخر، فالغزل، فالهجاء، فالمدح على ندرة وإيجاز لأنّ مدح المرأة للرّجل ممّا يُعاف. كما طرقن أبواباً أخرى كالحكمة، والنقائض، والشكوى والاستعطاف، وإثارة الحماس والتحريض على القتال، وغيرها. وقد تناولتُ هذه الأغراض بالدّراسة والتحليل مبتدئًا بالرثاء لأنه الغرض الذي حظي باهتمام أغلب الشواعر. وختمتُ الفصل بخلاصة سجّلت فيها أهمّ مميزات شعرهن في هذا العصر.

وجعلت الفصل الرابع لدراسة أغراض شعرهن في العصر الأموي، وقد أوضحتُ في تمهيدي لهذا الفصل النهج الذي سرتُ عليه في دراسة تلك الأغراض. ثم عرضتُ نماذج من شعرهن في مختلف الأبواب ودرستها معتمداً على النصوص، ومنتهياً إلى النتيجة التي تتيحها تلك النّصوص في التعرف على مميزات شعرهن، وكنت أثناء الدراسة أنقد أحياناً مبيناً ما أراه جيداً وما أراه غير ذلك. وقد تبين أنّ الشواعر طرقن فنونًا شعرية شتى، وسايرن الشعراء في معظم

الأبواب المعروفة آنذاك، كالرثاء والغزل والهجاء والفخر والمدح والحكمة والحنين إلى الأوطان، وسواها. وبدأتُ بدرس الرثاء، لأنه الفن الذي دار عليه أكثر شعرهنّ، ومنه استمدَدْن شُهرتهن. وخلص الفصل إلى تبيان سمات الشعر النسوي في هذه الفترة.

أمّا الفصل الخامس، فقد جعلتُه لدراسة الخصائص الفنية، تلك الخصائص التي أكسبتْ شعرَهُنَّ الجمال والخلود، وجعلته ذا سمات بارزة، تكاد تكون هي خلاصة ما وصلت إليه الدراسةُ، فتناولتُ بناء القصيدة النسوية، وما يتصل بها من مقدمة، ووحدة الغرض. وبدا لي أن شعرهن يتميز بخصائص فنية أحدثتها الشواعر، فقد جدَّدْنَ في مقدمة القصيدة، فتخلّصن من المقدمة الطللية والغزلية، كما جدّدنَ في وحدة القصيدة، فقصائدهُن، في الغالب، تتناول موضوعاً واحداً لا تتعداه إلى غيره، بعكس ما هو معروف في القصيدة القديمة التي كانت متعددة الأغراض. ثم درستُ الأوزان، وعلاقتها بالأغراض، كما عرضتُ للقافية، وعلاقتها بالمعاني، وأتبعتها بدراسة الأساليب والمصطلحات، والصور والأخيلة. وبذلك أرجو أنْ يكون هذا الفصل قد كشف النقاب عن كثير من النواحي الفنية لشعر النساء في هذا العصر.

وأتممتُ البحث بخاتمة سجلتُ فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها.

أمّا المنهج الذي وجدتُه يتلاءم مع طبيعة هذه الدراسة، فهو المنهج التاريخي الذي يعتمد على الترتيب الزمني في تتبع الظواهر الأدبية وتفسيرها. ولكنني لم أكتفِ بهذا المنهج، وإنما استخدمت مناهج بحث مختلفة، كالمنهج النقدي، والمنهج الوَصْفي، إذْ إنَّ بعض جوانب البحث تختلف في طبيعة معالجتها، وهي لذلك تحتاج إلى مناهج متعددة بحسب طبيعتها. وقد استَقَيْتُ أيضًا في فصل الخصائص الفنية من المنهج النصّاني[1] الذي يتزعمه (رولان بارط).

---

(1) النصانية اسم جامع يطلق على نظريات ومناهج شتى تشترك كلها في مبدأ أساسي، وهو أن النص الأدبي يكتفي بنفسه في شبه استقلال تام عن المؤلف، وقد تبلورت النصانية في منتصف الستينيات، وكان لرولان بارط (Ronald Barthes) تـ 1948 دور هام في بعث تيار هذا المنهج.

أما مصادر البحث، ومراجعه فكثيرة، ومتنوعة تنوع فصوله، وهي على ثلاثة أصناف:

1 - كتب التاريخ القديمة والحديثة، وعُدتُ إليها في كلّ ما يتعلق بعصر الشاعرات، كتاريخ الطبري، وفتوح البلدان للبلاذري، وتاريخ اليعقوبي، والفخري لابن طباطبا، وغيرها.

2 - كتب التراجم والسير، والحماسات، والطبقات، وقد استفدتُ منها فيما يتعلق بحياة الشواعر وشعرهنّ، كالأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وهو أوفى المصادر القديمة التي تحدّثت عن الشواعر، فقد ترجم لعددٍ هام منهنّ، والسيرة النّبوية لابن هشام، والطبقات الكبرى لابن سعد، وحماسة أبي تمام، وأشعار النساء للمرزباني، وغيرها.

3 - كتب الدراسات الحديثة والنقد وعلم العروض، وقد استفدتُ منها في فصل الخصائص الفنية، كالأسلوب في الشوقيات لمحمد الطرابلسي، والأسلوب لأحمد الشايب، وفي النقد الأدبي لعبد العزيز عتيق، وموسيقى الشعر لإبراهيم أنيس، والمتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي لموسى الأحمدي، وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره هنا. وقد أشرتُ إلى هذه المصادر والمراجع في الهوامش، كما وضعت لها ثبتاً في آخر الرسالة.

وعلى أيّ حال فإنَّ الأمانة العلمية تستوجب الاعتراف بأنني استعنتُ بالدّراسات السابقة وأفدتُ منها في بحثي هذا، في جوانب متعددة، وبدرجات متفاوتة في تأكيد كثير من آرائي واستنتاجاتي التي اهتديتُ إليها، وقد أشرت إليها كلّها في مواطنها من البحث.

هذا وقد واجهتني عقبات في الحصول على بعض المصادر والمراجع التي تتّصل بهذا البحث، وقد ذللتُ بعضها، بالمحاولة والإصرار، فقمتُ برحلات دراسية إلى الخارج إذ سافرت إلى القاهرة وطرابلس الغرب، وتونس، والمغرب الأقصى الذي انتدبتني إليه وزارة التعليم العالي والبحث العلمي لإنجاز هذه الرسالة، وقد مكثت فيه عدة سنوات، حيث اهتديتُ إلى كثير من المصادر التي

تخدم موضوعي، كما اتّصلت ببعض رجالات الفكر والأدب المهتمين بالأدب العربي القديم، وأفدت منهم. ولكن تلك السنين حملت إليَّ في طياتها شجوناً عائلية، مما جعل البحث يتوقف فترة لم تكن بالقصيرة.

ولا يسعني آخر الأمر، إلاَّ أنْ أتوجّه بالشكر الجزيل إلى كلّ من ساعدني على إنجاز هذه الرسالة، وأخص بالذكر أستاذي الفاضل الدكتور عبد السلام الهراس الذي أشرف على هذا البحث، ورافقه في جميع مراحله وأطواره، وكان له دور كبير في توجيهه وتهذيبه، وذلك من خلال ملاحظاته السديدة، وإرشاداته الصائبة وآرائه المشرقة التي هدتني سواء السبيل. كما أخصُّ بالشكر أيضاً أستاذي الجليل: الدكتور علي لغزيوي الذي قرأ هذه الرسالة وقدم إلي إرشادات وتوجيهات قيمة أفدت منها كثيرا.

وبعد، فتلك قصة هذا البحث، وقد بذلتُ فيه ما استطعتُ، وأرجو أن أكون قد وفقتُ، فإنْ لم يكن فحسبي أنّي بذَلتُ غاية الجُهد، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيب.

سعد بوفلاقة

مدخل

لبحث أيّ إنتاج أدبي ثمة أسئلة ثلاثة تراود الباحث تتركز على:

1 - لمن يكتب الشاعر؟

2 - ماهية الشعر الذي يكتبُه؟

3 - ما وقع الشعر الذي يكتبه على أبناء عصره؟

من المؤكد أنّ الشاعر حتى لو كتب لنفسه وحده، فهو محكوم عليه أنْ يطلع عليه الآخرون ويقرأوه ثم يتخذوا موقفاً نحوه شكلاً ومضموناً. ولا شك أنّ الشعر يخاطب الذات، أي: الضمير الفردي والجماعي. ويهدف أخيراً إلى إحداث تغيير في هذا المضمار. فالقارئ بعد أنْ يقرأ الشّعر تتغلغل آثاره في ذاته - ضميره - وتحدث تغييراً ما يمكن دراسته وتحليله.

إنّ هذه القضية من القضايا الهامة لدى تناولنا الشعر النسوي بالبحث؛ فمن المعلوم أنّ المجتمع العربي (مثل المجتمعات الإنسانية الأخرى) يتكوّن من فئتين: الذكور والإناث، ويمكن القول بيقين كبير إنّ المجتمع العربي هو مجتمعٌ ذكوري، فيه يهيمن الرجل، وإنْ كانت هذه الهيمنة ليست متساوية في كلّ الفئات الاجتماعية، وتتفاوت في حدتها حسب الطبقة الاجتماعية ومكوّنات الفئات المختلفة.

ولقد اعتدنا خلال قرون طويلة أنْ نتذكر من الشعراء «الرجال» (امرؤ القيس، وجرير، وحسان بن ثابت، وأبو تمام، والمتنبي، وابن زيدون، إلخ...) ونقوم بتدريس هؤلاء وتحليل أشعارهم ونعتبرها ضِمْنياً هي الشعر العربي وإذا حدث أنْ عرّج باحث إلى أشعار امرأة، فهو يعرّجُ «رفعاً للعتب» أو رغبة منه في رفع التهمة عن هيمنة الذكور.

وعليه فإنّ القيام بدراسة حول الشواعر هي محاولة غريبة بعض الشيء. وتوجد فئات محافظة في المجتمعات العربية التي تعترض بأشكال مختلفة على أنْ تكون المرأة شاعرة، وقد تعتري الكثير من الآباء والأزواج (مع وجود استثناءات) قشعريرة من تصوّر أن تصبح ابنته أو زوجته أو أُخته شاعرة، مثل ليلى الأخيلية أوْ مثل ولادة بنت المستكفي.

إنّي أؤكّد على هذه الأفكار بادئ ذي بدء، في محاولة لتبيان أنّ المراحل السابقة لعصر الانحطاط وما تلاه حتى عصر النهضة الحديثة، كانت المرأة فيها تحمل بين جنباتها ضميراً اجتماعياً واضحاً تعبّر عنه في أشعارها، ويتلقّاها المجتمع (الذكوري) بكثير من الترحيب، والتقبل والإيجابية، بعبارة أدق، فقد كان للمرأة كيان اجتماعي واضح، وكانت عُنصراً أساسياً معترفاً به في العصر الإسلامي والأموي والعباسي والأندلسي، على غير ما عهدناه في عصر الانحطاط، وعصر الحكم التركي.

يمكن القول، بناء على ما تقدّم، إنَّ الأشعار التي قالتها المرأة العربية، هي جزء من رؤية أنثوية إلى مجتمع ذكوري، فما هي خصائص هذه الرؤية؟ ويُقصد بالخصائص، ميل الشواعر إلى انتقاء كلمات وعبارات وتراكيب خاصة بهنَّ، قد لا نجدها عند الشعراء، وهل يمكن أن نجد تفسيراً معقولاً لمثل هذه الخصائص؟

هذه إحدى الأسئلة التي نتناولها بالتمحيص خلال هذا البحث. وكلّ تفسير لظاهرة أدبية يتمُّ بظواهر أخرى، منها مثلاً، عوامل تكوينية تعود إلى طبقة المرأة ذاتها، وعوامل اجتماعية: إمّا رادعة بمعنى أنَّ بعض الألفاظ غير مستحب استخدامها من لدن المرأة، أوْ دافعة بمعنى أنّه يستحبُّ من المرأة أنْ تقول كذا وكذا... فالتعبير عن الحب أو الشوق خاص بالرجل، فهو الذي ينبغي له أن يتقدّم ويعبّر والمرأة (الفتاة) تجيب بالصمت الذي يعني القبول. هذا متعارف عليه ومقبول دينياً واجتماعياً في أنحاء الوطن العربي والإسلامي. إذن ما الذي يجعل (فلانة) ستيرة العصبية مثلاً (وهي شاعرة غزلة متحررة في العصر الأموي) تعبّر بوضوح عن إعجابها بالرجل في أشعارها، وتتقرّبُ منه ناشرة أعماق هواها في كلمات عاطفية وعبارات مثيرة؟

تصعُب الإجابة على هذا السؤال ولكنِ في الواقع ليس المجتمع الإنساني موحّداً دائماً في عاداته وتقاليده ومطالبه وعقوباته.

فهناك دوماً فئات (أفراد)، التي تخلُّ بوحدة المعيار الخلقي. وستيرة العصبية هي من هذا النوع. أما رابعة العدوية فتتبع طريقاً آخر: العشق الإلٰهي. ومع ذلك يوجد من القراء من يتقبل هذا، ويوجد من يعبس لسماع ذلك.

باختصار، فالأسئلة الثلاثة التي طُرحت في بداية هذا البحث تحمل إشكالاً خاصاً نحاول بحثه.

4 - قلة المروي من شعر النساء

لقد حقّقت المرأة العربية وجودها الأدبي عبر العصور، ومردُّ قلة المروي من شعرها إلى أنّ بعض المؤرخين لم يكونوا يَحْفِلون بشعر المرأة، فضاع منه الكثير، ولم يصل إلينا إلا النّزر القليل وإلاّ فكيف نفسر قول أبي نواس: «ما قلتُ الشعر حتى رويتُ لستين امرأة منهنّ الخنساء وليلى الأخيلية». وقول أبي تمام: «لم أنظم شعراً حتى حفظتُ سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة»[1]. وها نحن أولاء لم يصلنا ديوان واحد معتمدٌ لهنَّ؛ وإنّ ما وصلنا هو بعض المقطعات كتلك التي جُمعت للخنساء[2]، ولليلى الأخيلية[3]، وللخرنق[4].

ويبدو أن المؤرخين قد سيطرت عليهم فكرة خاطئة، صورت لهم أنّ الشاعرة العربية لا تحسن غير الرثاء، ولذلك حدّدوا مجالها الفني بالرثاء وحده، وأهملوا شعرها في غيره، فابن سلام في طبقات الشعراء لم يذكر من النساء الشاعرات

---

(1) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 73.

(2) جمع ديوان الخنساء ونشره الآباء اليسوعيون بعنوان «أنيس الجلساء في ديوان الخنساء» سنة 1888، ببيروت، وطبعه الأب لويس شيخو للمرة الثانية، سنة 1895، في بيروت أيضاً، ثم طبعته دار التراث، بيروت، سنة 1968.

(3) جُمع ديوان ليلى الأخيلية في 46 صفحة، قام بجمعه وتحقيقه: خليل العطية، وجليل العطية، وطبع ببغداد سنة 1967.

(4) حقق ديوانها يسري عبدالله، وطبعته دار الكتب العلمية ببيروت في حوالي 30 صفحة.

غير الخنساء، وحدد مكانها في طبقة شعراء المراثي[1]. وكذلك البُحتري في حماسته إذ أفرد الباب الأخير لمختارات من الرّثاء لعشر شاعرات[2]، وفي المفضليات[3] مرثية واحدة في خمسة أبيات لامرأة من بني حنيفة مجهولة الاسم والعصر.

أمّا غير الرثاء فلا اهتمام به، وكأنّ المرأة لم تقل الشعر إلاّ في الرثاء، فابن سلام لم يجد مكاناً للشاعرة (ليلى الأخيلية) بين شعراء طبقاته العشر من الإسلاميين، ولم يذكرها إلاّ عرضاً عند حديثه عن النابغة الجعدي حين قرّر «بأنّ ليلى الأخيلية غلبت عليه»[4]؛ وكذلك «سكينة بنت الحسين» التي كانت شاعرة وناقدة قلّ أن يعترف بها مؤرخو الأدب.

وهكذا لا نجد في المصادر العربية القديمة التي جمعت الشعر إلاّ قليلاً من شعر النّساء، فالآمدي في «المؤتلف والمختلف» لم يذكر إلا بِضْعَ شواعر، ولم يورد القرشي في «جمهرته» شاعرة واحدة، وكذلك فعل المرزباني في معجم الشعراء فلم يذكر امرأة.

ومهما يكن من أمر فإهمال المرأة العربية من قبل المؤرخين القدماء، وضياع أكثر شعرها، يعود إلى أسباب اجتماعية قاهرة تحكمها فيها، وكذلك إلى أسباب تاريخية، منها:

1 - إن حركة الجمع والتدوين في العصر العباسي «قد نشطت على أيدي رجال عاشوا بعقلية مجتمع وأد المرأة معنوياً، وعزلها عن الحياة العامة»[5]، ومن ثم لم يكن لها في تصورهم أن تتحدث عن عواطفها... ولذا حصروا مجالها الفني في الرثاء.

---

(1) ابن سلام: طبقات الشعراء، ص: 51.

(2) البحتري: الحماسة، ص 269.

(3) الضبي: المفضليات، ص: 273.

(4) طبقات الشعراء، ص: 27.

(5) الدكتورة عائشة عبد الرحمن: الشاعرة المعاصرة، ص: 18.

2 - التعصب من قبل الرجال، وعدم اعترافهم بشاعرية المرأة، إذْ كان شعرها تظرُّفاً[1].

3 - كان الرواة في عصر الجمع والتحصيل حراصاً على الغريب، فكانوا يأخذون عن الأعراب، لأنهم كانوا يقدّرون في الشعر قيمته اللغوية، ولأنّ شعر النساء قليل الغريب، فلم يحفل الرواة بروايته. . . وكذلك وجدوا في شعر الرجال جزالة ورصانة فاحْتَفَوا به، ووجدوا في شعر النساء رقةً وليِنًا. . . . فلم يحفلوا به[2].

وقد يكون في بعض الأسباب السالفة الذكر مبالغة، لأننا نجد مقابل ذلك جمعاً آخر من القدماء قد اهتمُّوا بالنّساء وأشعارهنّ فصنّفوا تآليف خاصة بهنّ، وسأذكر بعضاً منها فيما يُستقبل من حديث.

5 - ما أُلِّف عن النساء قديماً وحديثاً:

أ - ما أُلِّف عنهنّ قديماً:

ألّف بعض العلماء والرواة كتُباً في أخبار النّساء، تناولوا فيها أحوالهنّ وطبائعهنّ وحياتهنّ وأشعارهنّ منها:

1 - كتاب النساء للهيثم بن عدي، المتوفى سنة 207هـ[3].

2 - أخبار النساء للمدائني، المتوفى سنة 215هـ[4].

3 - كتاب أدب النساء لعبد الملك بن حبيب، المتوفى سنة 238هـ[5].

4 - كتاب النساء للجاحظ، المتوفى سنة 255هـ[6].

---

(1) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 73.

(2) الدكتور أحمد الحوفي: أشعار النساء للمرزباني، مقالة منشورة بمجلة مجمع اللغة العربية، ص: 183-184 الجزء الرابع والعشرون: 1969م. وانظر كتابه: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 605-606.

(3) انظر ابن النديم: الفهرست، ص: 449-450.

(4) انظر ابن النديم: المصدر نفسه، ص: 453 وما بعدها.

(5) نشرته دار الغرب الإسلامي: ببيروت، سنة 1992.

(6) انظر الأصبهاني: الإماء الشواعر، ص 8.

5 - كتاب بلاغات النساء لابن طيفور، المتوفى سنة 280هـ[1].

6 - كتاب النساء والغزل لمحمد بن خلف، المتوفى سنة 309هـ[2].

7 - طبائع النساء لابن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة 338هـ[3].

8 - كتاب أخبار النساء لهارون بن علي المنجم، المتوفى سنة 376هـ[4].

9 - أحكام النساء لابن الجَوزي المتوفى سنة 597هـ[5].

10 - أخبار النساء لابن قيم الجوزية، المتوفى سنة 751هـ[6].

ولم يقتصر التأليف على أخبار النساء بشكل عام، وإنما أفردوا للقيان كتباً كثيرة، منها:

1 - كتاب القيان ليونس الكاتب المعروف بيونس المغنّي، وهو فارسي الأصل، أدرك الدولة العباسية، وكان مولى للزبير بن العوام[7].

2 - كتاب القينات للمدائني، المتوفى سنة 215هـ[8].

3 - كتاب القيان لاسحاق الموصلي، المتوفى سنة 235هـ[9].

4 - كتاب القيان للجاحظ المتوفى سنة 255هـ[10].

5 - كتاب القيان للوشاء، المتوفى نسة 325هـ[11].

---

(1) نشرته دار النهضة الحديثة ببيروت، سنة 1972.

(2) انظر ابن النديم: المصدر السابق ص 655-656.

(3) حققه محمد سليم، ونشرته مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة، سنة 1985.

(4) انظر الأصبهاني: المصدر نفسه، ص: 8. وابن النديم: المصدر السابق، ص: 633.

(5) انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، مج1، ص: 21.

(6) نشرته دار مكتبة الحياة ببيروت، سنة 1979.

(7) انظر ابن النديم: المصدر السابق، ص: 635.

(8) انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، ج22، ص: 43، **طبعة استانبول، 1931.**

(9) انظر ابن النديم: المصدر السابق، 635.

(10) نشره أول مرة يوشع فنكل ضمن مجموع ثلاث رسائل بالقاهرة، سنة 1344هـ. وأعاد نشره عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ، بالقاهرة، سنة 1964.

(11) ذكَرهُ الوشاء في كتابه الموشى أو الظرف والظرفاء. قال في باب صفة ذم القيان: وقد أفردنا =

6 - كتاب القيان لأبي الفرج الأصبهاني، المتوفى سنة 356هـ[1].

7 - كتاب القيان لابن حاجب النعمان[2]. وغيرها[3].

وامتدت حركة التأليف لتشمل أشعار النساء، فكان:

1 - كتاب أشعار الجواري للمفجّع الشاعر الشيعي، المتوفى سنة 327هـ[4].

2 - كتاب الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصبهاني، المتوفى سنة 356هـ[5].

3 - كتاب أشعار النساء للمرزباني، المتوفى سنة 384هـ[6].

4 - كتاب الحدائق الغناء في أخبار النساء لأبي الحسن بن محمد المعافري المالقي، المتوفى سنة 605هـ، وقد اشتمل على مجموعة من شواعر العرب في صدر الإسلام والعصر الأموي.[7]

5 - كتاب النساء الشواعر لابن الطراح، المتوفى سنة 720هـ، وهو في عدة مجلدات رأى السيوطي السادس منه، وليس بآخره[8].

= كتاب القيان لذمّ عُظم القيان، فأغنى ما في ذلك الكتاب عن تكثير هذا الباب... إلخ. (انظر ص. 158). وهو مفقود اليوم.

(1) حققه جليل العطية، ونشرته دار رياض الريس للكتب والنشر بلندن (د.ت.).

(2) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، مج2، ص 1451. وهو مفقود اليوم.

(3) تراجع في هذا الموضوع مقالة الدكتور صلاح الدين المنجد المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد السادس عشر لسنة 1941، ص: 212 وما بعدها - تحت عنوان: ما ألّف عن النساء، فقد ذكر في مقالته أكثر من سبعين كتاباً. غير أنّ أكثر تلك الكتب قد ضاعت فيما ضاع من تراث السلف.

(4) انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج17، ص: 194، طبعة دار المأمون، 1936.

(5) حققه الدكتور يونس السامرائي ونوري القيسي، ونشرته دار عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ببيروت، سنة 1984.

(6) حققه الدكتور سامي العاني وهلال ناجي، ونشرته دار الرسالة للطباعة ببغداد سنة 1976.

(7) حققته الدكتورة عائدة الطيبي. ونشرته الدار العربية للكتاب.

(8) انظر حاجي خليفة: المصدر السابق، مج2، صص: 1466. والسيوطي: نزهة الجلساء، ص: 8. وهو مفقود اليوم، لكن توجد نقولٌ منه في مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس رقم (3066) عربيات.

6 - كتاب نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي المتوفى سنة 911هـ[1].

أما الكتب التي صنّفها الأقدمون في الأدب، والتاريخ، والسير، والتراجم، والحماسات، والاختيارات، والمعاجم اللغوية والجغرافية، وغيرها. . . واهتموا فيها بتراجم الشعراء وأخبارهم، كما اهتمّوا بعض الشيء بتراجم النساء وأشعارهنّ، فهي كثيرةٌ، نذكر أهمّها فيما يأتي:

1 - كتاب السيرة النبوية لابن هشام، المتوفى سنة 218هـ. وقد ذكر فيه عدداً مُهمّاً من شواعر الجاهلية وصدر الإسلام.

2 - كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، المتوفى سنة 230هـ. وقد اشتمل على عدد مُهمّ من شواعر العرب في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي.

3 - كتاب الحماسة لأبي تمام، المتوفى سنة 231هـ. وقد اختار صاحبه لثماني وأربعين شاعرة ممّن عِشْن في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي.

4 - كتاب الحماسة للبحتري، المتوفى سنة 254هـ. وقد ذكر فيه أشعار ست عشرة شاعرة.

5 - كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان للجاحظ، المتوفى سنة 255هـ، وقد ذكر فيهما أخباراً وأشعاراً لعددٍ من شهيرات النساء من العصر الجاهلي إلى زمنه.

6 - كتاب الكامل للمبرد، المتوفى سنة 286هـ. وضمّنه صاحبه نصوصاً شعرية لشواعر من الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي.

7 - كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري، المتوفى سنة 310هـ. وقد أورد فيه مجموعة من الأشعار لشواعر من العصر الجاهلي إلى زمنه.

8 - كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، المتوفى سنة 328هـ. وقد اشتمل على نصوص شعرية هامة لشواعر جاهليات وإسلاميات. . .

(1) حقّقه الدكتور صلاح الدين المنجد، ونشرته دار المكشوف، بيروت، سنة 1958.

9 - كتاب مروج الذّهب للمسعودي، المتوفّى سنة 346هـ. وقد ذكر فيه صاحبُه نصوصاً شعرية لا بأس بها من أشعار النساء...

10 - كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، المتوفى سنة 356هـ. وهو أكثر كتب الأدب اهتماماً بالشّعر النّسوي في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي...

11 - كتاب الأمالي لأبي علي القالي، المتوفّى سنة 356هـ. وضمّنه صاحبُه نصوصاً شعرية مُهمّةً لشواعر جاهليات وإسلاميات..

12 - كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، المتوفى سنة 463هـ. وقد خصص القسم الأخير منه للصحابيات وسماه: كتاب النساء. وقد بلغ عدد من ذكَرَهُ من الصحابيات أزيد من ألف، ومنهن صحابيات شاعرات.

13 - كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، المتوفى سنة 571هـ. فقد خص شهيرات النساء بكتاب في نهاية مؤلفه، وجمع فيه أخباراً وأشعاراً لزهاء ثلاثين شاعرة.

14 - كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، المتوفى سنة 626هـ. وقد اشتمل على نصوص شعرية مهمة لشواعر العرب في الجاهلية والإسلام.

15 - كتاب الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن الحسن البصري، المتوفى سنة 656هـ. وقد انتقى صاحبُها لخمس وأربعين شاعرة من شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام. وتعد الحماسة البصرية أكثر الحماسات اهتماماً بالشعر النسوي بعد حماسة أبي تمام.

16 - كتاب المذاكرة في ألقاب الشعراء للمجد النُّشابي الإبلي[1]، المتوفى سنة 657هـ. وقد جعل الفصل الأول منه لذكر الإماء من شواعر النساء، وانتقى فيه أشعاراً لثلاث عشرة شاعرة أغلبهن من العصر العباسي.

---

(1) حقّقَ الدكتور شاكر العاشور، فصلين من الكتاب، ونشرهما في مجلة معهد المخطوطات العربية التي تصدر بالكويت (المجلد 31. يوليو - ديسمبر 1987).

17- كتاب السيرة النبوية، والبداية والنهاية لابن كثير، المتوفى سنة 774هـ، وقد ضمّا نصوصاً شعرية مهمة لشواعر العرب في الجاهلية والإسلام.

18 - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852هـ. وقد خص النّساء بكتاب مَفْصول عن الرجال سماه كتاب النساء، وجعله ضمن الجزء الأخير من كتابه، وضمّنه شعر بعض الصحابيات. وقد بلغ عدد من ذكره من الصحابيات 1551.

19 - كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرّي التلمساني، المتوفى سنة 1041هـ. وقد خصص المؤلف حيزاً مهماً من كتابه لشواعر العرب في الأندلس، فذكر منهن أربعاً وعشرين شاعرة.

وهناك كتب أخرى روت أشعار النساء أيضاً وبنسب متفاوتة ككتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (تـ 276هـ)، وكتاب طبقات الشعراء لابن المعتز (تـ 296هـ)، وكتاب الموشى أو الظرف والظرفاء للوشاء (تـ 325هـ)، وكتاب حماسة الظرفاء لعبدالله الكناني الزوزني (431هـ)، وكتاب زهر الآداب للحصري القيرواني (تـ 488هـ)، وكتاب حماسة ابن الشجري (تـ543هـ)، وكتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (تـ630هـ)، وكتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (تـ 656هـ)، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (تـ 681هـ)، وكتاب لسان العرب لابن منظور (تـ 711هـ)، وكتاب منح المدح لابن سيّد الناس (634هـ)، وكتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي (تـ 850 هـ)، وكتاب تزيين الأسواق للأنطاكي (تـ 1008 هـ)، وكتاب تاج العروس للزبيدي (تـ 1205 هـ)، وغيرها.

نستطيع القول بعد هذا إنّ هذه المادة المتوفرة في المصادر القديمة حول الشواعر هي التي كانت مصدرنا في بحثنا هذا، ومصدر الذين قاموا بدراسات حديثة في هذا الموضوع. وسنذكر بعض هذه الدراسات فيما يأتي.

ب - ما ألِّف عنهنّ حديثاً:

لم أكن أوّل من درس الشعر النسوي في العصر الحديث، فقد ألّف في هذا

الموضوع عدد من الدارسين المحدثين؛ ولكنّي أوّل من درس «شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي دراسة موضوعية فنية» مستقلة.

والدّراسات الجادة في الشعر النسوي، بشكل عام، قليلة ونادرة، وهي في الغالب مجرد محاولات لجمع وتوثيق كمّ معيّن من هذا الشّعر في فترة زمنية معينة دون تناوله بالدّرس والتحليل. وفيما يأتي ذكر عدد من هذه المؤلفات:

1 - كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب بنت يوسف فواز، نشر بالقاهرة، سنة 1312هـ. ولقد ذكرت المُصنّفة عدداً مُهماً من أسماء النساء الشواعر وغير الشواعر من العربيات والأجنبيات في القديم والحديث، ويبدو أنّ زينب فواز أول من تناول موضوع الشعر النسوي في العصر الحديث، ولكنّها مزجت الأخبار والتراجم بالأشعار، فكان عملها مجرد جمع لا غير.

2 - كتاب المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها لعبد الله عفيفي، نشر بالمدينة المنورة، عام 1932. وقد ذكر فيه نصوصاً شعرية في أغراض شتى لشواعر من مختلف العصور.

3 - كتاب شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام لبشير يموت، نشرته المكتبة الأهلية ببيروت عام 1934. وقد جمع فيه قصائد ومقطعات لشواعر من الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي والأندلسي.

4 - كتاب شهيرات التونسيات لحسن حُسني عبد الوهاب، نشر بتونس سنة 1353هـ. وهو بحث تاريخي أدبيّ في حياة النساء الشواعر والنوابغ بالقطر التونسي، من الفتح الإسلامي إلى العصر الحاضر.

5 - كتاب شهيرات المغرب للفقيه الكانوني، ويشتمل على ما يقرب من مئتي ترجمة من تراجم نساء المغرب الشهيرات، منهنّ الشاعرات وغير الشاعرات، ومن عصر الدولة الإدريسية إلى عصر الدولة العلوية. وهو مخطوط مفقود قد ذكره السيد الحمداوي في مقال منشور بجريدة المغرب[1].

---

(1) جريدة المغرب عدد 106 سنة 1939. اقتبسه الدكتور محمد بن شريفة في بحث عن المرأة في كتب التراجم الأندلسية منشور بمجلة المناهل المغربية، العدد 44، سنة 1994.

6 - كتاب غزل النساء لعيسى ميخائيل سابا، نشر ببيروت عام 1953، وهو بحث أدبي في غزل النساء في مختلف العصور، ولكنه اهتم بجمع النصوص دون تحليلها ودراستها دراسة علمية.

7 - كتاب المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي، نشر بالقاهرة عام 1954. وهو بحث جيد، وقد خصص الباحث فصلاً لشعر النساء في الجاهلية.

8 - كتاب أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحالة، نُشر في دمشق عام 1959 في خمسة أجزاء. وقد اشتمل على أخبار وتراجم لنساء وشواعر عربيات ومسلمات غير عربيات.

9 - كتاب شاعرات العرب لعبد البديع صقر، أصدره عام 1967. وقد حذا حذو بشير يموت في تأليفه فجمع قصائد ومقطعات لشواعر من الجاهلية، وصدر الإسلام، والعصر الأموي، والعباسي، والأندلسي. ولكنه أضاف نصوصاً شعرية لم ترد في كتاب بشير يموت، وجعل كتَابَه على حروف المعجم ليسهل تناوله. وقد بلغ عدد من ذكر من الشاعرات ثلاثاً وأربعين ومئتين.

10 - كتاب المرأة في أدب العصر العباسي للدكتورة واجدة مجيد عبدالله الأطرقجي، نشر ببغداد عام 1981. وقد أفردت الباب الأخير من الكتاب لأدب المرأة في العصر العباسي. . وسارت فيه على النهج نفسه الذي سار عليه الدكتور أحمد الحوفي في كتابه المرأة في الشعر الجاهلي.

11 - كتاب أدب النساء «النثر»، وأشعار النّساء في الجاهلية والإسلام للدكتور محمد بدر معبدي، نُشرا بالقاهرة، الأول سنة 1983، والثاني سنة 1986. وقد تناول فيهما أدب النساء عبر مراحله المختلفة.

12 - كتاب شاعرات العرب في الجاهلية، وشاعرات العرب في الإسلام لجورج غريب، نُشرا ببيروت، الأول عام 1984، والثاني عام 1985. والكتابان لا يختلفان كثيراً عن مؤلفي بشير يموت وعبد البديع صقر. بيد أنه فصل بين الجاهليات والإسلاميات فجعل لكل عصر كتاباً، وكان يحلل الأبيات والقصائد أحياناً ويعلق عليها.

13 - كتاب الشاعرات من النساء - أعلام وطرائف - لسليم التّنير، نشر بدمشق سنة 1988. وقد ذكر فيه أخبار نيف ومئة من شهيرات النّساء الشواعر في المشرق والمغرب من الجاهلية إلى العصر الأندلسي.

14 - كتاب الشعر النسائي في أدبنا القديم للدكتورة مي يوسف خليف، نُشر عام 1991 بالقاهرة. وقد شملت دراستها الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي والأندلسي.

15 - كتاب المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي لعبد الهادي التازي، نشر بالمغرب عام 1992. وقد ذكر المُصنّفُ مئتين واثنين وخمسين من أسماء النساء، ولكن كثيراً منهنّ لسن شواعر، فيهن المتصوفات والمقرئات، والقانتات، والمحدثات، والمفسرات، والفقيهات، والطبيبات، والأديبات، والشاعرات، وغيرهنّ.

16 - كتاب الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية لسعد بو فلاقة، نشر بالجزائر عام 1995.

17 - شعر النساء في الأدب العربي من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي لمحمد وراوي. رسالة مودعة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، المغرب.

نخلص مما سبق للتدليل على أهمية دراسة هذا الموضوع الذي لم تُفرد له دراسة مستقلة من قبل. وإن وردتْ إشارات إليه في بعض المراجع السالفة الذكر التي تناولت الشعر النسوي بعامة.

وبعد، فالشعر النسوي هو واقع وجزء لا يتجزأ من التراث العربي الشعري أُغْمِطَ حقُّه، وكما أن المجتمع لا يتكامل إلاّ برجاله ونسائه. فكذلك الشعر العربي، لا يتكامل إلاّ بتحليل دقيق لهذا التراث الضخم من الشعر النسوي.

إنّ القارئ مدعُوٌّ، من خلال هذا البحث إلى أن يعي حقيقة بسيطة وهامة هي أنّ ثمّة امرأة بعواطفها وانفعالاتها ورؤيتها للعالم تُعبّر عن واقع بما تحدّده هي. لعلّ هذه الدّعوة تثير فينا توجّهاً نحو النصف الآخر للإنسان الذي كان يوأد وهو وليد، ويحتقر وهو شاب، ويؤبن وهو أم. فرسول الله عليه الصلاة والسلام

يقول: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات». والأمّهات هنّ نساء إناث في الحقيقة أصبحن أمّهات، ومهما يُغيّر وضع الأمومة في المرأة، فتبقى امرأة. وهذا يؤدي إلى إشكال اجتماعي ليس له حل مطلق، وإن كانت المجتمعات الأوربية اتبعت حلاً خاصاً بها، لكن المجتمعات الإسلامية ما زالت بين قطبي الأصالة والمعاصرة بالرّغم من كلّ الغموض الذي يكتنفُ هذين المفهومين، ولا ريب أنّ الشواعر اللّواتي يعرضن في هذا البحث، سيُنْظر إليهِنَّ من خلال هذين المِنْظارين دوماً، ومع وجود إمكانية لمزجهما معاً.

الفصل الأول

المرأة العربية والشعر بعامة

تمهيد

إنّ ظاهرة الاستمرارية في الشعر العربي يمكن اعتبارها من أبرز الظواهر وأكثرها أصالة، فخصائص الشعر الجاهلي نجدها تتسرب وتخترق مختلف العصور بدءاً من عصر صدر الإسلام حتى العصور الحديثة، وهذه الخصائص ليستْ ثابتة جامدة، بل غالباً ما أنّها تتكامل مع خصائص العصور التالية المستجدة، فتأتينا صور وأنماط فريدة تدمج القديم بالحديث في هيئة جديدة.

بناءً على هذه المصادرة، ارتأينا أن نمهّد لدراسة شعر المرأة العربية في هذا العصر بلمحة موجزة عن المرأة العربية وشعرها في فترة ما قبل الإسلام، نتْبعُها بلمحة أخرى تماثلها في المعالجة لوضع المرأة بعد ظهور الإسلام.

أولاً: المرأة العربية قبل الإسلام:

1 - مكانتها:

أ - صفات المرأة الجاهلية جملة:

كان للمرأة العربية في الجاهلية مكانة مرموقة، ومنزلة عالية لدى كثير من القبائل العربية، وفي كثير من المجالات، فقد كانت تتصف بجملة من الصفات الأخلاقية، كالأنفة والعفاف، والكرم، والجرأة والشجاعة ونجدة الملهوف، كما كان لها رأي وإرادة. ويبدو أن هذا لم يقع إلا بعد أن شاع في بعض القبائل في زمن مُتقادم امتهان المرأة وقتًا يسيراً[1]. فكانت يُنظر إليها نظرة ازدراء، وكان

---

(1) سعيد الأفغاني: الإسلام والمرأة، ص: 14.

كثير من أهل الجاهلية يتشاءمون من المرأة ويمتهنونها، ويعدّونها أداة شر، وكان بعضهم يئدون بناتهم خشية إملاق أو خشية أن يجلبن لهم العار إذا سبين في الحرب أو غير الحرب[1].

فمكانة المرأة في المجتمع الجاهلي، تختلف باختلاف القبائل والبيئات التي تعيش في كنفها، فالجاهليون يحترمون المرأة في نواح، ويمتهنونها في نواح أخرى، لأن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم موقف موحد من المرأة.

على أي حال فلنحاول البحث في هذا المضمار معتمدين على شواهد شعرية تؤيد هذا الموقف تارة، والموقف الآخر تارة أخرى.

عفتها وأنفتها:

لقد اشتهرت المرأة الجاهلية بالأنفة والعفاف - كما أسلفت - وما قصة «ليلى بنت لكيز» الملقبة بالعفيفة[2] إلا مثال حي مجسم لعظيم الأنفة وكامل العفة لدى المرأة الجاهلية[3]؛ وها هي تصف ابتذال الأعداء لعفافها بهذه الأبيات البديعة:

لَيْتَ لِلْبرّاقِ عيْنًا فَتَرَى ... ما أقاسي مِنْ بلاءٍ وعَنَا

يا كُلَيْبًا وعُقَيْلاً إخوتي ... يا جُنَيدًا أسْعِدُوني بالبُكا

عُذِّبَتْ أخْتُكُمْ يا وَيْلَكُمْ ... بعَذابِ النُّكْرِ صُبْحًا ومَسَا

---

(1) أحمد عبد العزيز الحصين: المرأة ومكانتها في الإسلام، ص: 11.

(2) هي ليلى بنت لكيز بن مرة بن أسد، من ربيعة بن نزار، الملقبة بالعفيفة، شاعرة جاهلية، قيل: إنّ أباها نزل في ناحية من بلاد الفرس ومعه ابنته وكانت من أجمل نساء زمانها ولما علم ملك الفرس ما هي عليه من جمال ساحر، اغتصبها من أبيها، وحاول الزواج بها، فامتنعت عليه، وعرض عليها جميع المشتهيات والمرغبات، وخوّفها بجميع العقوبات، وعاملها بالتعذيب ليرى وجهها، فأبت، وخيرته بين أنْ يقتلها أو يعيدها إلى أبيها... وكان لليلى ابن عم من بني بكر، فارس شجاع، يقال له البرّاق بن روحان، وكان قد خطبها، فاحتال حتى أنقذها، ثم تزوجها، ومن شعر ليلى في تلك المناسبة الأليمة قصيدة، منها الأبيات المذكورة أعلاه (انظر: الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 249. وبشير يموت: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص: 32،

(3) عبد الحميد فايد: المرأة وأثرها في الحياة العربية، ص: 27.

غـلَّـلُـونـي قـيَّـدونـي ضـرَبـوا   مَـلْـمسَ الـعِـفَّـةِ مِـنّـي بِـالـعَـصـا
فـــأنـــا كـــارِهَـــةٌ بَـــغْـــيَـــكُـــمُ   ويـقـيـنُ الـمَـوْتِ شـيءٌ يُـرْتَـجـى[1]

وقد امتاز شعرها بصدق العاطفة، وحسن السبك، والقدرة على إثارة العواطف وتحريك النفوس؛ فها هي ذي تكنّي أجمل كناية لا يفنى التعجب من بلاغتها، ومن حسن التعبير فيها، في البيت ما قبل الأخير[2].

وكان حرصُ المرأة العربية على شرفها واعتدادها بكرامتها في الجاهلية من الأمور التي استفاضت بها المصادر التي عنيت بحوادث ذلك العصر.

ذكر صاحب الأغاني أن فاطمة بنت الخُرْشُب كانت إحدى ثلاث عرفن «بالمُنْجبات» وكان لها سبعة أبناء، ثلاثة منهم يسمون «الكَمَلة» وهم الربيع وعُمارة وأنس، وذات يوم أغار حمل بن بدر الفزّاري على قبيلة بني عبس التي تنتمي إليها فاطمة، فأسرها. فلما ابتعد بها عن الحي وأهله، صاحت به: أيْ رجل، ضلّ حلمك، والله لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك التي أمامنا وراءنا، لا يكون بينك وبين بني زياد صلح أبداً، لأنّ الناس في هذه الحال يقولون ما شاءوا، وحسبك من شرّ سماعه، قال: إنّي ذاهب بكِ حتّى ترعيْ إبلي، فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمتْ بنفسها على رأسها من البعير فماتت خوْفاً من أنْ يلحق بنيها عارٌ منها[3].

والحوادث الدالة على أنفتها وعفتها كثيرة. منها أن الفاكه بن المغيرة شك في زوجته هند بنت عتبة، وكانت عفيفة، وقد برأها الكاهن، فأراد الفاكهُ على أن تعود إليه فرفضته، وتزوجها أبو سفيان فولدت منه معاوية الخليفة الأموي المعروف[4].

---

(1) بشير يموت: المصدر نفسه، ص: 32-33. وانظر القصيدة كاملة هناك.

(2) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 68.

(3) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، مج17، ص: 116 و119.

(4) الأبشيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد): المستطرف في كل فن مستظرف، ج2، ص: 182-183. وانظر ترجمة هند بنت عتبة وشعرها في الفصل الثالث من هذا البحث.

وقصتها مع الرسول ﷺ معروفة، لمّا أخذ البيعة على النساء واشترط عليهن ألّا يسرقن ولا يزنين، فقالت له هند: وهل تزني الحرة وتسرق يا رسول الله[1]؟.

كرمها:

وقد اشتهر العرب منذ الجاهلية بالكرم وحسن الضيافة «وأجواد العرب في الجاهلية ثلاثة: حاتم الطائي، وهرم بن سنان، وكعب بن مَامَة، وحاتم أشهرهم ذكراً»[2]. ولم يتفرد حاتم بالكرم دون عائلته، فقد كانت أمُّه غنية بنت عفيف من أجود النساء، وأقراهنّ للضيف، وكانت لا تمسك شيئاً تملكه، فلما رأى إخوتُها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها دهرًا، يطعمونها قوتها لعلّها تكفُّ عما تصنع، ثم أعطوها صِرْمةً[3]، من إبلها، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كلّ سنة تسألها، فقالت لها: دونك هذه الصّرمة فخذيها، فقَدْ والله ذقتُ من الفقر ما آليْتُ أنْ لا أمْنع سائلاً أبداً[4]، ثم أنشدت تقول:

لعَمْرِي لَقِدْماً عضّني الجُوعُ عضّةً	فـآليـتُ ألّا أمْـنَـعَ الـدّهْـرَ جـائـعـا
فقُولا لِهذا اللائمِي ليومَ أعْفِني	فإنْ أنْتَ لَمْ تَفْعلْ فعضَّ الأصَابِعا
فمَاذا عسَاكُمْ أنْ تقُولوا لأخْتِكُمْ	سِوى عذْلِكُمْ أوْ عَذْلِ منْ كانَ مانِعا
ومـا إنْ تـرَوْنَ الـيـوْمَ إلّا طبـائـعـاً	فكَيف بترْكي يابْنَ أمِّ الطَّبائعا[5]

---

(1) القرطبي المالكي (363-463هـ): الاستيعاب في أسماء الأصحاب (بهامش الإصابة)، ج4، ص: 411، ونرمز له بـ: القرطبي: الاستيعاب. وابن حجر العسقلاني (773-852هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، ج4، ص: 409، ونرمز له بـ: ابن حجر: الإصابة... وابن سعد: الطبقات الكبرى، مج8، ص: 237.

(2) ابن نباتة المصري (ت 768هـ): سرح العيون، شرح رسالة ابن زيدون، ص: 61.

(3) الصّرْمة: القطعة.

(4) الأصبهاني: الأغاني، مج17، ص: 280 ... وابن نباتة المصري: المصدر نفسه، ص: 62-63.. وابن قتيبة الدّينوري (213-276هـ): الشعر والشعراء، ص: 148. والقالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم - 288-356هـ): ذيل الأمالي والنوادر، ص: 23، طبعة دار الكتب - مصر. (مع اختلاف يسير بينهما).

(5) الأصبهاني: المصدر السابق، مج17، ص: 280. وانظر أيضاً: القالي: المصدر السابق، ص: 23، وابن قتيبة: المصدر السابق، ص: 148. والبيت الثالث لا وجود له فيه.

وكانت سفّانة ابنة حاتم كأبيها وكجدّتها في الكرم، فكان أبوها يعطيها الصّرمة من الإبل، فتعطيها الناس، فقال لها ذات يوم: يا بنية إنّ القويّين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإمّا أن أعطي وتمسكي، أو أمسك وتُعْطي، فإنّه لا يُبقى على هذا شيء، فقالت: والله لا أمسك أبداً: فقال: وأنا والله ما أمسك أبداً، قالت: فلا نتجاور، فقاسمها ماله وتباينا[1].

وكانت بثينة ابنة مرداس من شاعرات العرب وكُرمائهنّ، وكان زوجها كريماً لم يوجد أكرم منه في زمانه، قيل إنّه أتاهُ أخو امرأته يوماً، فأعطاه بعيراً من إبله، وقال لامرأته: هاتي حبلاً يقرن به ما أعطيناه إلى بعيره، ثم أعطاه بعيراً آخر وقال: هاتي حبلاً، ثم أعطاه ثالثاً، فقال: هاتي حبلاً، فقالت: ما بقي عندي حبل، فقال: علي الجمال وعليك الحبال، فرمت إليه خمارها، وقالت: اجعله حبلاً لبعضها، وأنشدت تردّ على بعض أشعاره:

حلفتُ يميناً يا بنَ قُحْفانَ بالذي ... تَكَفَّلَ بالأرْزاقِ في السّهل والجَبَلْ
تـزالُ حِبـالٌ مُـحْـصَـداتٌ أعِـدُّهـا ... لَهَا مَا مَشَى منْها على خُفِّهِ جَمَلْ
فأعْطِ ولا تَبْخَلْ لِمَنْ جاء طالبًا ... فعِنْدي لَهَا خُطمٌ[2] وقَدْ زالَتِ العِلَل[3]

وفي الجملة فإنّ المرأة الجاهلية قد شاركت الرجل في الكرم والضيافة، وإن كانت الأنباء التي وصلتنا عن كرمها قليلة بالقياس إلى ما وصلنا عن كرم الرجل، لأنها أقصر باعاً منه في هذا المجال، ذلك لأنّ مالها أقل، وهي في أغلب الأحيان لا مال لها إلا مال الزوج أو الأب، ثم إنّ اختلاطها بالرجال محدود، وهذا لا يمهّد لها الطريق إلى الشهرة بالكرم[4].

---

(1) القالي: المصدر السابق، ص: 23 وانظر: الأصبهاني: المصدر السابق، مج17، ص: 280.

(2) خُطمٌ: جمع خطام: كل ما وضع في أنف البعير ليقاد به.

(3) أبو تمام: ديوان الحماسة، شرح التبريزي، ج4، ص: 67، عالم الكتب، بيروت، وزينب فواز: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ص: 117. (الخبر والأبيات).

(4) الدكتور أحمد محمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 363.

شجاعتها ومشاركتها في الحرب:

وقدْ شاركته أيضاً في الشجاعة والجرأة والإقدام ونجدة الملهوف، فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالبسالة كثيرات، منهن: رقاش، فقد كانت في طيّء، وكانت تغزو بقومها دهراً طويلاً، ويعتزون بقوتها، ويتيمّنون برأيها، ويطالعون النّجح من خفقات سيفها، ووميض عزيمتها، وقد أغارت طيء بزعامتها وقيادتها على إياد ابن نزار يوم رحى جابر، فهزمتهم وغنمت وسبت[1]. وفي معركة أُحُد وقع لواء قريش في ساحة القتال، فلم يقدم رجل على حمله، حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لهم، فلاذوا بها[2]؛ وفي المعركة نفسها حرّضت هند بنت عتبة وصواحبها الرجال على الاستبسال[3] وكان وجود النساء مع الرجال في الحرب يحول دون الفرار والتراجع، وقد كنّ يحضضن على الثبات والإقدام، وهذا ما فعلته بنتا الفِنْد الزِّمَانيّ[4] يوم معركة «تحلاق اللّمم» أحد أيام حرب البسوس، فإنّهما لما احتدمت المعركة، ورأتا تردّد النصر، تقدّمت إحداهما فخلعت ثيابها ورمتها وسط المعمعة، وتقدّمت بين الصفوف عارية تنشد مقطوعة محمّسة، ولم تلبث أختها أن اقتدت بها، لتبثّا بعملهما هذا الحماسة والإقدام في رجال قبيلتهما بني بكر، فقاتلوا مستميتين، حتى انتصروا على أعدائهم بني تغلب[5]. وفي هذه الحرب أيضاً، رفع عوف بن مالك أحد البكريين، ابنته على جمل، وسيره وسط مضيق ثَنِيَّةَ قِضّة، حتى إذا توسطها ضرب عرقوبي الجمل،

---

(1) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، على هامش مجمع الأمثال للميداني، ج1، ص: 313. **المطبعة الخيرية. بمصر، 1310.** والميداني: مجمع الأمثال، ج1، ص: 263، وعبدالله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ج1، ص: 100.

(2) الأصبهاني: المصدر السابق، مج15، ص: 148. وانظر أيضاً: جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ص: 34.

(3) الأصبهاني: المصدر السابق مج15، ص: 147.

(4) هو سهل بن شيبان أحد شعراء الجاهلية وفرسان ربيعة المشهورين، شهد حرب بكر وتغلب، وقد قارب المائة سنة (الأصبهاني: المصدر السابق، مج23، ص: 253، وانظر ما بعدها).

(5) الأصبهاني: المصدر السابق، مج23، ص: 254. وكرم البستاني: النساء العربيات، ص: 138.

وأقسم ألّا يمرّ هارِبٌ من بكر بن وائل إلّا ضربه بسيفه[1].

وفي حرب «ذي قار» أمر سيد العرب حَنْظلة بن ثعلبة أن تضرب قبة الصنم وسط المعركة، فضربت، وكان النساء يتبِعنها، ثم قام إلى جمل امرأته فقطع حزامه، ثم قطع حُزَمَ سائر الظّعْن لكي لا يدع سبيلاً لهرب النساء، فيجتمعن حول قبة الصّنم، وتثبت الرجال في ساحة الوغى[2]. وهكذا كان النساء يرافقن الرجال في الحرب يحمّسن الفرسان على القتال، ويشدّدن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية، ويقرّعن المعوّقين والجبناء، وإليهنّ تعود مهمة رثاء القتلى، والحض على الأخذ بثأرهم والانتقام من قتلتهم[3].

المرأة والثأر:

«وكنّ يستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية، حقناً للدماء»[4]، ومما يُروى في ذلك أنّ كبشة بنت معد يكرب[5] استفزّت أخاها عمراً وأهلها للأخذ بثأر أخيها عبدالله، لمّا قتله بنو مازن ثأراً بمالك بن مازن، وجاؤوا يعرضون الدية على عمرو. وقد جعلت كلامها على لسان القتيل ليكون مؤثراً أكثر، فقالت:

وأرسَـلَ عَبْـدُ اللهِ، إذْ حـانَ يَـوْمُـهُ ... إلَى قَوْمِهِ: لَا تَـعْـقُـلُـوا[6] لَـهُـمْ دَمي

ودَعْ عَنْكَ عَمْرًا، إنَّ عمْرًا مُسالِمٌ ... وهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

---

(1) الأصبهاني: المصدر السابق، مج23، ص: 255. والدكتور علي إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص: 113.

(2) الأصبهاني: المصدر السابق، مج23، ص: 232. وكرم البستاني: المرجع السابق، ص: 138.

(3) الدكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي - ص: 73. والدكتور رجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص: 45.

(4) الدكتور شوقي ضيف: المرجع نفسه، ص: 73.

(5) كبشة بنت معد يكرب: شاعرة جاهلية ولعلّها أدركت الإسلام، كانت مشهورة بين نساء زمانها بالشجاعة والإقدام، ويغلب على شعرها الحماسة، رثت أخاها عبدالله الذي قتله بنو مازن في الجاهلية وعاتبت أخاها عمرًا الذي همّ بقبول الديّة . (انظر: الأصبهاني: المصدر السابق، مج15، ص: 179. وزينب فواز: المصدر السابق، ص: 458 . . .).

(6) لا تعقلوا: أي لا تأخذوا العقل، أي الدّية.

فـإِنْ أَنْـتُـمُ لـمْ تـثْـأروا واتَّـديـتُـمُ فَـمُـشّـوا بِـآذانِ الـنّـعـامِ الـمُـصَـلَّـمِ[1]

وكانت النساء يستعملن ألفاظاً جارحة، وتهكماً مؤلماً في استفزازهن الرجال لإدراك الثأر، فِعْل كبشة فيما تقدّم من شعرها، وفعل أم عمران بنت وقدان في قولها تعاتب عشيرتها، وقد فكّرت في أخذ دية أخ لها:

إنْ أنـتُـمُ لـمْ تـطـلُـبـوا بـأخـيـكُـمُ فـذَروا الـسِّـلاحَ ووَحّـشُـوا بِـالأبْـرَقِ

وخُذُوا المَكَاحِلَ والمجاسِدَ والْبَسُوا نُقَبَ النّسَاءِ فَبئسَ رَهْطُ المُرْهَقِ[2]

وكذلك فعلت ابنة حكيم العبدية في قولها تخاطب قومها وتحمسهم على أن يأخذوا الثأر من ربيع قاتل أبيها:

فإنْ كُنْتُمُ قَوْمًا كِرامًا، فعجّلُوا لَهُ جُرْأَةً مِنْ بَأسِكُم ذاتَ مِصْدَقِ

فإنْ لَمْ تَنالوا نَيْلَكُمْ بِسُيُوفِكُم فكونُوا نِسَاءً في المُلاءِ المُخَلَّقِ[3]

المرأة تجير الهارب:

وكانت المرأة الجاهلية أيضاً تُنجد الملهوف، وتُجير الهارب، كما فعلتْ فكيهة بنت قتادة مع السُّلَيْك بن السلكة[4] الذي غزا بكر بن وائل ولمّا شعروا به وطاردوه، دخل بيت فكيهة مستجيراً، فأجارته، وقامت دونه في وجه قومها، واخترطت السيف، وظلت تناضل دونه، فكاثروها، فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها، فأقبلوا ودافعوا عنه، حتى نجا، فقال يشيد ببطولتها وحسن جوارها:

---

(1) الأصبهاني: المصدر السابق، مج15، ص: 179. وياقوت الحموي: معجم البلدان، مج3، ص: 406-407. واتديتم: أخدتم الدية. مُشّوا: امسحوا أيديكم لتزيلوا عنها دسم اللحم الذي تأكلونه. المصلم: المقطوع الأذن.

(2) زينب فواز: المصدر السابق، ص: 61 (الخبر والشعر). والمجاسد: جمع مجسد وهو الثوب المشبع صبغة. والنُّقب: جمع نقبة: وهي إزارٌ للمرأة.

(3) البحتري: الحماسة، ص: 35، طبعة الرحمانية بالقاهرة، 1929.

(4) السليك بن السلكة: هو السُّليك بن عمير بن يثربي، السعدي التميمي، والسُّلكةُ أمُّه، شاعر جاهلي، عداء أسود، صعلوك، وكان فتاكاً من شياطين العرب، له وقائع وأخبار كثيرة... =

لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ والأنْـبـاءُ تُـنـمـي لـنـعْـمَ الـجـارُ أخْـتُ بـنـي عُـوارا

مِنَ الـخَـفـراتِ لـمْ تَـفْـضـحْ أباهَـا ولـمْ تَـرْفـعْ لإخـوتـهـا شـنـارَا[1]

ومـا عَـجَـزَتْ فُـكَـيْـهـةُ يـومَ قـامَـتْ بنصْلِ السّيْفِ واستلبُوا الخِمارا[2]

وأجارت خُماعةُ بنتُ عَوف بن مُحلّم مروان القَرَظ بن زنباع الذي غزا بكر ابن وائل فأسَروه، وكان قد أساء إلى عمرو بن هند[3] ملك العرب وطاغية الحيرة، فأراد أن ينتقم منه، ولكنّه اضطر إلى العفو عنه، وما كان ليفعل لولا أن أجارته خماعة[4]. وفي حرب الفجار بين كنانة وقيس جعل مسعود بن مالك الثقفي[5] خباء زوجه سُبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف القرشية، حرماً، من دخلهُ من أعدائه قريش فهو آمن، فلمّا انهزمت قيس وغُلب مسعود زوجُها، قال لها ابن أخيها حرب بن أمية: من تمسّك بأطناب خِبائكِ فهو آمن، ومَنْ دار حوله فهو آمن، فلم يبقَ قيسيٌّ إلّا اعتصم بها، ودار حول خبائها[6].

= (الأصبهاني: المصدر السابق، مج20، ص: 346 وانظر ما بعدها، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 235 وانظر ما بعدها).

(1) الخفرات: جمع الخَفِرَةُ: الحيية، والخفر: الحياء. الشنار: العار، أو الأمر المشهور بالشنعة والقبح.

(2) الأصفهاني: المصدر السابق، مج20، ص: 354-355 (الخبر والشعر). ومحمد بن حبيب: المحبر، ص: 433-434، طبعة حيدر آباد، وطبعة المكتب التجاري، بيروت (الخبر والشعر) - مع اختلاف يسير بينهما.

(3) عمرو بن هند: هو عمرو بن المنذر اللخمي، ملك الحيرة في الجاهلية، عُرف بنسبته إلى أمّه هند عمة امرئ القيس الشاعر، تمييزاً له عن أخيه عمرو الأصغر (ابن أمامة)، وهو من بني لخم - من كهلان، ملك بعد أبيه المنذر الثالث، وله وقائع مشهورة مع الرّوم والغسانيين، كان شديد البأس، كثير الفتْك، واستمر ملكه خمسة عشر عاماً، قتله عمرو بن كلثوم، الشاعر المعروف صاحب المعلقة، أنفة وغضباً لأمه التي أراد عمرو بن هند إهانتها. . . (الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 86-87. وانظر: قصة مقتله في: الأصبهاني: المصدر السابق، مج11، ص: 47-48).

(4) عبدالله عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 29-30. وانظر الخبر بالتفصيل هناك.

(5) مسعود بن مالك الثقفي سيّدُ ثقيف، وثقيف بطن من قيس. أمّا زوجه سبيعة فقرشية، وقريش نبتة من كنانة، وبين القومين ثارت الحرب. . .

(6) الأصبهاني: المصدر السابق، مج22، ص: 73-74-75.

الشهيرات في الرأي والسّلام:

كما كان لها كثير من الحرية والرأي والسّلطان، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء، وقصة اتجار الرسول ﷺ في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة، وكذلك قصة سفانة ابنة حاتم الطائي التي كانت كريمة كأبيها، فقاسمها ماله، وترك لها حرية التصرف في مالها. وكان للمرأة رأيُها النافذ، من ذلك أنّ النعمان بن المنذر لمّا هرب من كسرى استشار زوجته المتجردة، فأشارت عليه أن يذهب لكسرى ويطلب العفو[1]، وقد كانت في الغالب، تستشار في اختيار زوجها، فالخنساء الشاعرة المعروفة، رفضت أن تتزوج بدُريد بن الصمّة لمّا خطبها، لأنّها تبيّنت أنّه هرم، ولم يثنها أبوها عن رفضها[2]، وكانت بعض النسوة في الجاهلية، إذا تزوجت الواحدة منهنّ رجلاً وأصبحت عنده كان أمرُها إليها، وتكون علامة ارتضائها للزّوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح[3]، وهناك الكثير من الحكايات التي تشير إلى المصلحات ذوات الرأي الثاقب والكلمة النافذة؛ من ذلك ما ذكره صاحب الأغاني عن بُهيسة بنت أوس زوجة الحارث بن عوف لمّا دخل عليها في اليوم الأول من زواجهما، فقالت له: أتفرُغُ لنكاح النساء، والعرب تقتلُ بعضها؟! - وكان ذلك في أيّام حرب عَبس وذُبيان - فقال لها: فيكون ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم. فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القبيلتين، وحملا عنهما الديات، فانصرفا بأجمل الذكر، ومدحهما زهير بن أبي سلمى[4]، وهكذا كانت المرأة رسول سلام.

توليها الملك:

وممّا يدلّ على علو مكانة المرأة في الجاهلية أنّ العرب ملّكوها عليهم، ولم

---

(1) عبد الهادي عباس: المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها، ج1، ص: 362.

(2) الأصبهاني: الأغاني، مج15، ص: 61 وانظر ما بعدها. وشرح ديوان الخنساء، ص: 5 وما بعدها.

(3) عبدالله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها.

(4) الأصبهاني: المصدر نفسه، مج10، ص: 306. والأبشيهي: المستطرف... ج2، ص: 486.

يروا في ذلك غضاضة، فقد ذكرت المصادر القديمة أنّ كثيرات من النساء وصلن إلى الملك والرئاسة، ومنهنّ:

بلقيس:

بلقيس ملكة سبإ التي وردت قصّتها في القرآن الكريم حيث ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النّمل: الآية 23] .

كما وردت قصتها في التوراة والإنجيل، وفي كتب المؤرخين وأساطير الأقدمين[1]، فكانت ملكة جليلة، ذات عقل راجح ورأي سديد، أدارت شؤون مملكتها بشجاعة وحكمة وتبصّر، وكانت ديموقراطية تستشير قومها في كُلّ معضلة، وتأخذ رأيهم في كلّ أمر فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: 32].

أما قومها فأخذتهم العزة والعنفوان، وأرادوها أن تحارب سلميان، ولا تخضع له، ولكنهم نزلوا تحت أمرها، فقالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: 33].

وكانت تتصرف بالحكمة والدهاء، فأرسلت هدية إلى سليمان لتختبره، وتُجنِّب قومها حرباً قد تنشب بينها وبينه، لكنَّهُ لمْ يقبل الهدية، فأدركتْ عظمته، فقرّرت الذهاب إليه، وبدّلتْ بدين آبائها دين الله «وكان ذلك سبيلاً إلى طمس دين المجوسية بين أرجاء اليمن»[2].

زينب ملكة سبا:

ومن ملكات العرب قبل الإسلام زينب أو الزباء بنت عمرو بن الظّرب بن حسان بن أذينة ملكة تدمر، وهي عربية من بني السميدع، وقد تربعت على عرش الجزيرة والشام حقبة من الزمن من بعد مقتل أبيها عمرو لعدم الولد وأحسنت

---

(1) انظر أخبارها بالتفصيل في المسعودي: مروج الذهب، ج: 2، ص: 61-62. وابن نباتة المصري: المصدر السابق، ص: 43-44. وياسين الخطيب العمري: الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، ص: 122 إلى 137.

(2) عبدالله عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 36.

السياسة، وسعت إلى الأخذ بثأر أبيها الذي قتله جذيمة الأبرش ملك العرب، ومنافسه في تلك الدّيار، فبعثتْ إليه توهمه الخِطْبة وأنّها تريد الزواج به، ودعته إليها كي يجمع ملكه إلى ملكها، فطمع في ذلك، ووافقها، وشخص إليها على الرغم من نهي قصير بن سعد له وتحذيره إياه غدرها به، ولما دخل أرضها استقبلته الكتائب، ثم أدْخِل على الزَبَاء، فسقته خمراً حتى ثمل، ثم فصدته فمات. وخلف جذيمة على الملك، عمرو بن عدي، ابن أخته، فقال له قصير: تهيأ واستعد ولا تطل دم خالك، فقال: وكيف لي بها؟ فنصحه بالانتقام منها عن طريق الحيلة والدهاء وأن يترك الأمر له، ثم جذع قصير أنفه وانطلق إلى الزباء مظهراً أن عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة، قد صنع به ذلك، وأنه إليها هارب، فوثقت به وطفقت تبعثه في تجارتها فيأتيها بالأموال، ولما عَلِمَ خفايا قصرها وأنفاقه رجع سراً إلى عمرو بن عدي وحرّضه على البطش بالزّباء، فركب عمرو في ألفي دارع على ألف بعير في الغرائر، وعندما اقترب الركب من المدينة التي تقيم فيها الزباء، تقدّم قصير وبشّرها بما أحضره من مال وتحف، ودخلت الإبل المدينة، فثار الرجال من الغرائر، وأخذوا يقتلون وينهبون من في المدينة، فخرجت الزباء هاربة إلى النفق الذي أعدته من قبل، فأبصرت قصيراً عند بابه واقفاً شاهراً سيفه، فارتدت راجعة فتقاها عمرو بسيفه، فمصّت خاتمها، وكان فيه سُمّ، وقالت: بيدي لا بيد عمرو، فماتت[1].

❊ ❊ ❊

ومن ملكات العرب أيضاً في الجاهلية الفارغة زوجة عمرو وأخْت الهدهاد، وقد حكمت سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة 330 إلى 345م[2]. وقد

---

(1) الأصفهاني: الأغاني، مج15، ص: 250 وما بعدها. ابن نباتة: المصدر السابق، ص: 44. وكرم البستاني: النساء العربيات، ص: 180 وما بعدها. ويزعم الرومان أن شمس الزباء أو زنّوبيا كما يسمونها قد أفلت في روما، لأنهم أسروها ونقلوها إلى هناك، ولكن هذا الزّعم باطل.. انظر: نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص: 15 وما بعدها.

(2) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص: 123، اقتبسه الدكتور الحوفي في كتابة «المرأة في الشعر الجاهلي»، ص: 529-530.

ملكت نساء كثيرات غيرهن في اليمن وكندة وبلاد الأنباط، وغيرها[1].

ب - عملُها:

1 - الأعمال المنزلية:

كانت المرأة الجاهلية تقوم بالأعمال المنزلية، من: تربية أطفال، وطهي الطعام، وجلب الماء والحطب، ورعي الماشية وحلبها، وهنء الإبل[2]، وإصلاح الخباء، ونسج الثياب، ولا تعفى من هذه الأعمال إلا إذا كانت من الشريفات المخدومات، ففي هذه الحالة يقوم لها العبيد بهذه الأعمال.

2 - أعمال الارتزاق:

وأمّا أعمال الارتزاق فالمرأة فيها شريكة الرجل، وتكاد شهرتها فيها تتمشى مع شهرته[3].

التطبيب:

من أهم أعمال المرأة تضميد الجراح، فهي الطبيبة بالوراثة، تداوي الجرحى والمرضى في الحرب وفي السلم، فقد اشتهرت في الجاهلية زينب طبيبة بني عواد التي كانت تعالج الأبدان، وتطب العيون، وتداوي الجراح. كما اشتهر بعدها عدد من الطبيبات[4]، وكُنّ يُسَمَّين بالأواسي[5]. وكان محمد بن الجهم يقول: «لا تتهاونوا بكثير ممّا ترون من علاج القوابل والعجائز، فإن كثيراً من ذلك وقع إليهن من قدماء الأطبّاء»[6].

ويرجع سرّ مهارة المرأة العربية في الطب إلى تنقلها مع الرّجال في الحروب

(1) انظر: صلاح البكري اليفعي: تاريخ حضرموت السياسي، ص: 74، المطبعة السلفية بمصر، 1354هـ.

(2) هَنَأت المرأة البعير: طلته بالهِناء - بكسر الهاء - وهو القطران ليبرأ من الجرب.

(3) عبدالله عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 88.

(4) انظر الدكتور الحوفي: المرجع السابق، ص: 398-399.

(5) عبدالله عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 84.

(6) الجاحظ: الحيوان، ج3، ص: 322.

تعالج الجرحى، وعنايتها بشؤون أطفالها، الأمر الذي جعلها تعرف الحالات المرضية، وتفقه في طبيعة الظواهر والتغييرات التي تصيب الإنسان[1]؛ بالإضافة إلى ما ذكره ابن الجهم سلفاً.

صناعة الرّماح:

واشتهرت بصناعة الرماح، فكانت الرُّدينية تقوّم الرّماح، ويُعرف عنها أنها صانعة رماح البحرين، وإليها تُنسب الرماح الرُّدينية، وهي من أجود الرّماح[2]. . .

التجارة:

وكانت المرأة تمارس التجارة، فقد كانت السيدة خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، ذات متاجر واسعة يتنقّل بها عمالُها بين الحجاز والشّام، ولما سمعت بشهرة الرسول ﷺ - قبل الدعوة - بالأمانة وكرم الأخلاق بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، فلما أفلح في تجارته عرضت عليه الزواج، فتزوجها، وهي أوّل من أسلم. ومثلها في معاناة التجارة هند بنت عُتبة زوج أبي سفيان[3]، وغيرهما.

جمع الكماة:

«وكانت تقوم بجمع الكمأة[4] من الأدوية وبيعها، ودبغ الجلود، وتنميق الحصير، وانتجاع الأسواق، وارتياد مختلف الأحياء، لابتياع التمر والعسل والسّمن، أو بيعها، أو استبدالها بأمثالها. . .

ومن النساء من اتخذن النياحة على الموتى عملاً ومهنة، ومن أمثال العرب في ذلك: «ليست النائحة الثّكلى كالمستأجرة[5]».

---

(1) الدكتور: محمد بدر بدوي: أدب النساء في الجاهلية والإسلام - النثر - ص: 595.

(2) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، مادة: سمهر. وعبدالله عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 88.

(3) عبدالله عفيفي: المرجع السابق، والصفحة نفسها.

(4) الكمأةُ: جمع كمء: نبت أبيض حلو.

(5) عبدالله عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 89.

الإرضاع:

وبعضهن احترفن الإرضاع، فكان نساء من البادية يأتين المدائن والقُرى يبحثن عن أبناء الأغنياء لإرضاعهم، ومن هؤلاء المراضع سلمى بنت ظالم التي أرضعت ابن النّعمان بن المنذر[1]، والسيدة حليمة التي أرضعت النّبي ﷺ[2]، ويبدو أن الإرضاع كان عيباً عند بعضهم، لذلك فهم يقولون: في أمثالهم: «تجوعُ الحُرّة ولا تأكُلْ بثَديَيْها».

الكهانة:

وكان منهنّ الكواهن، والكِهانة (بكسر الكاف) حرفة الكاهن، (وبفتحها) مصدر الفعل كَهَنَ، والكهانة: «ضرب من العلوم الغيبية التي يزعمُ مزاولوها أنّهم يعرفون ما خَفِي من أمور الكون والمخلوقات»[3]، وتزعم أساطير العرب: أن مرجع هذا العلم إلى الملائكة لأنّ لكل كاهن أو كاهنة جنّياً، يسمّونه رئيًا، أي تابعًا، وهذا الجنّيّ يسترق السّمع لمتبوعه من كلام الملائكة الذين كان العرب يتوهّمون أنّهم يسكنون في السماء[4]. وقد كان العرب يثقون بالكاهنات أكثر مما يثقون بالكهان من الرجال، لأنّ أخبارهنّ أصدق، ورفاقهنّ من الجن أدق وأوثق[5]. وقد عرف العرب كُهّانًا وكاهنات كثيرين، إذ كان في كلّ قبيلة كاهن أو كاهنة، فمن الكُهَّان المشهورين: شق[6] وسطيح[7]، وكلاهما فسر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي بهبوط الحبش أرض اليمن[8]. وعزّى سلمة وهو أكْهَنُ العرب

---

(1) الأصبهاني: المصدر السابق، مج11، ص: 96.

(2) ابن قتيبة: المعارف، ص: 126.

(3) كرم البستاني: النساء العربيات، ص: 197. والمعجم الوسيط، مادة: كَهَن.

(4) عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 91. وكرم البستاني: المرجع السابق، ص: 199.

(5) عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 91.

(6) انظر عنه بالتفصيل: المسعودي: أخبار الزمان، ص: 122-123. والأبشيهي: المستطرف ج2، ص: 181-182.

(7) انظر عنه بالتفصيل: المسعودي: المصدر نفسه، ص: 117 وما بعدها. والأبشيهي: المصدر نفسه، ج2، ص: 180 وما بعدها.

(8) المسعودي: المصدر نفسه، ص: 118 و123. والأبشيهي: المصدر نفسه، ج2، ص: 181.

وأسجعهم[1]. وغيرهم.

بعض الكواهن:

أمّا الكواهن فكُنَّ أكثر عددًا من الكُهّان، لأنّ حسّهنّ في تقصّي الأخبار أدق، وأتباعهنّ من الجان ألطف وأظرف من أتباع الكُهّان[2].

ونذكر منهنّ الشهيرات، وهنّ عُفيرة الكاهنة الحميرية، وهي التي فسّرت رؤيا مرْثَدْ بن عبد كُلال بعد أن عجز الكُهّان عن تفسيرها، ومما قالته له بأسلوب سجع الكُهان: «رأيْتَ أعاصيرَ زوابع، بعضُها لبعض تابع، فيها لهبٌ لامعٌ، ولها دُخانٌ ساطعٌ، يقْفُوها نهْرٌ مُتدافِعٌ، وسمِعْتَ فيما أنْتَ سامِعٌ، دُعاء ذي جَرْسٍ صادعٍ...»[3].

وطريفة الكاهنة، وهي التي أنذرت عمرو بن عامر، أحد ملوك اليمن، بزوال مُلْكه، وخراب سد مأرب، فخرج هو وقومه من اليمن، وتفرّقوا شذر مذر[4].

وزبراء كاهنة بني رئام، وقد أنذرت قومها بغارة بني ناعب وبني داهن عليهم، فكذبوها، فطرقتهم بنو ناعب وبنو داهن، وقتلوهم أبرح قتل[5].

ومنهُنّ سلمى الهمذانية[6]، وفاطمة بنت مُرٍّ الخثعمية[7]، والزرقاء بنت زهير[8]، وغيرهنّ.

كانت هذه أهم الصفات الحميدة والأعمال الرفيعة التي اتصفت بها بعض نساء الجاهلية، والتي شاركت فيها الرجل، وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص: 181 طبعة فوزي عطوي.

(2) عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 91. وكرم البستاني: المرجع السابق، ص: 205-206.

(3) عفيفي: المرجع السابق، ج1، ص: 92.

(4) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص: 196 وما بعدها.

(5) أبو علي القالي: الأمالي، ج1، ص: 126.

(6) القالي: المصدر نفسه، ج2، ص: 121.

(7) الميداني: مجمع الأمثال، ج2، ص: 46.

(8) الأصبهاني: الأغاني: مج13، ص: 78.

المرأة في العصر الجاهلي كانت تتمتع بكثير من الحرية والرفعة، ولكن ذلك في بعض القبائل فقط، لأنّ مقام المرأة كان يختلف باختلاف الأصقاع والقبائل، ويتأثر بعوامل مختلفة، ويبدو أنّ وضْعَها الاجتماعي كان في جملته وضعًا متدنيًا، وأنّ مظالم الجاهلية للمرأة كثيرة نذكُر بعضها.

ج - مظالم الجاهلية للمرأة:

جملة من المظالم:

كانت المرأة الجاهلية تعاني جملة من المظالم في بعض القبائل العربية، كحرمانها من الإرث[1]، واعتبارها كالسائمة، تورث مع سوائم زوجها، وتصبح ملكًا خاصًا لورثته أو لولده يتمتع بها كما كان يتمتع أبوه، والجمع بينها وبين أختها عند زوج واحد، بالإضافة إلى تعدد الزوجات الذي كان بلا حدود، ولا شك في أنّ الزوجات اللائي يصل عددهنّ إلى العشرات والمئات أحيانًا زوجات تعيسات جدًا[2].

وفي بعض القبائل يمنع على المرأة الحائض الاتصال بزوجها أو غيره من الرجال أثناء مدة الحيض، والسبب في احتجابها هو اعتقادهم في أنها تكون في حالة نجاسة شعائرية تنطوي على مخاطر لمن يتصل بها[3].

وأد البنات:

أما ظاهرة وأد البنات عند العرب في الجاهلية، فكانت منتشرة عند بعض القبائل بصورة بشعة تشمئز منها النفوس وتدمى القلوب، والوأد هو دفن الأب لابنته وهي حية عن طريق دسها في التراب، وكان الوأد يجري مباشرة بعد الولادة، وربما انتظر والدها حتى تغدو سديسية فيطلب من والدتها تطييبها وتزيينها، ثم يأخذها معه فيدفعُها في حُفرة أعدّها لها في الصحراء، ويهيل عليها

---

(1) لكن يبدو أن المرأة كانت ترث أحياناً... (انظر: الدكتور الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 333 وما بعدها، وعبد الهادي عباس: المرأة والأسرة، ج1، ص: 408).

(2) باسمة كيال: تطور المرأة عبر التاريخ، ص: 55.

(3) باسمة كيال: المرجع السابق، ص: 60.

التراب، وقد يُؤجّل وأدها حتّى سنّ البلوغ؛ وكانت قريش تئد بناتها في جبل أبي دلامة بمكة[1].

ويبدو أنّ عادة وأد البنات لم تكن متفشية في كلّ قبائل العرب، وإنّما كانت مقصورة على بعض القبائل فقط، منها: ربيعة، وكندة، وطيء، وتميم، وبكر بن وائل، وكنانة، وقريش، وغيرها[2]، وإن كانت بعض المصادر ذكرت بأنّ الوأد كان في عامة قبائل العرب وأنّه «يستعمله واحدٌ ويتركه عشرة». وفي كلتا الحالتين فإنّ وأد البنات لم يكن متبعًا عند جميع العرب في الجاهلية وإلّا لكان اندثر وجود الإنسان العربي على مرّ العصور.

وقد عزا الله سبحانه وتعالى هذه العادة إلى الفقر، فنهى عن ذلك بالآية الكريمة:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ **[الإسراء: 31]**.

وذكر بعض الباحثين «أنّ من العرب من كان يئد البنت لشدة الغيرة ومخافة العار إذا سبيت أو انتهكت حرمتها، وهم بنو تميم وقبائل أخرى؛ منهم من كان يئدها إذا كانت زرقاء العينين أو سوداء اللون أو برشاء أو كسحاء أو عرجاء تشاؤمًا بها؛ ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله، فالحقوا البنات به، ويقتلونهن، وهم خزاعة وكنانة»[3].

ويبدو أنّ هذا العمل البشع بقساوته وشناعته - ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنۢبٍ

---

(1) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص: 89، ط بغداد، 1951. وانظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة: دلم. وعبد الهادي عباس: المرأة والأسرة، ج1، ص: 361.

(2) أحمد عبد العزيز الحصين: المرأة ومكانتها في الإسلام، ص: 11. وسعيد الأفغاني: الإسلام والمرأة، ص: 22. وباسمة كيال: تطور المرأة عبر التاريخ، ص: 61. وانظر جواد علي: المرجع نفسه ج5، ص: 91.

(3) بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ج1، ص: 22. وانظر الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 294 وما بعدها.

قُتِلَتْ﴾ - كان مستهجنًا لدى سادة العرب وأشرافهم فنهض الكثير منهم إلى محاربته والتخفيف من آثاره، بما بذلوا من مال جم، وسعي حميد لافتداء البنات من القتل، ومن بين هؤلاء صعصعة جدّ الفرزدق، وزيد بن عمرو بن نُفيل[1].

السّبي:

وإلى جانب هذه العادة القبيحة، عادة الوأد، تبرز عادة أخرى وهي عادة السّبي، والسَّبْيُ: معناه: النّهب وأخذ الناس عبيدًا وإماء، والسّبية: المرأة المنهوبة[2]؛ والأَمَةُ: المرأةُ المملوكة، أي الجارية المسترقة، خِلاف الحرّة[3].

وكان السّبي من أكبر موارد الرقيق عند العرب في الجاهلية، فقد كانت القبائل العربية تشنّ الحروب والغارات على بعضها البعض، فتُسبى النّساء ويسترقّ الرجال[4]، وكان للعرب أيضًا غارات على الفرس والرّوم يستلبون فيها كثيرًا من السبايا، بالإضافة إلى الجواري التي كان يمنحها أكاسرة الفرس، وأباطرة الروم على سبيل الهدايا إلى بعض الوفود العربية التي كانت تزور فارس والروم[5].

ولمّا كان وجود أعداد كبيرة من الرقيق في المجتمع الجاهلي - سواء أكان ذلك من سبي العرب في حروبهم وغاراتهم، أم كان ممن يجلبه، النخاسون[6] من خارج بلاد العرب، من الهند، وفارس، وبلاد الروم، ومصر، والحبشة، وزنوج إفريقية[7] - يتطلب إقامة أسواق خاصة للنخاسة، فقد فتحت لها أسواق منظمة، وكانت مكة من أهم هذه الأسواق، وكذلك سوق عكاظ[8]، وسوق دُومة

---

(1) عفيفي: المرأة العربية... ج1، ص: 45.

(2) ابن منظور: لسان العر، مادة: سبى.

(3) ابن منظور: المصدر نفسه، مادة: أما.

(4) الدكتور ناصر الدين الأسد: القيان والغناء في العصر الجاهلي، ص: 31.

(5) فايد العمروسي: الجواري المغنيات، ص: 44.

(6) النخاسون: الواحد نخاس، وهو تاجر الرقيق، أي: المملوك المستعبد.

(7) الأسد: القيان والغناء... ص: 34.

(8) عُكاظ: سوق من أسواق العرب في الجاهلية كانوا يجتمعون فيها في كلّ سنة ويتناشدون الشعر... =

الجندَل[1]، وكان لكلب فيها قِنٌّ كثير في بيوت شعر، يُكرهون فيها الإماء على البغاء[2].

وكانت تجارة الرقيق، ولا سيما الجواري، صناعة رائجة تدر كسبًا باهظًا لأصحابها، فاحترفها كثير من النخاسين.

أمّا أعمال الإماء فكان منهنّ جوارٍ يخدمن الشريفات، وقد يرعين الإبل والأغنام، ويقمن على شؤون منازلهنّ، ورعاية أمورهنّ، وأن يكنّ في الوقت نفسه سراري[3] يتمتع بهنّ سادتهنّ، «وإذا استولدوهنّ لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهنّ، إلّا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد، فإن أباه لَمْ يلحَقهُ بنسبه إلّا بعد أنْ أثبت شجاعة فائقة ردّت إليه اعتباره»[4]. وكان بعضهم يُكرهُ الإماء على البغاء في أماكن معروفة ويأخذ أجورهنّ[5]، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَيْكُمْ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وكان منهنّ القيان[6] اللائي كانت تموج بهنّ قصور المناذرة والغساسنة وبيوت أشرافها، يضربن على المزهر وغيره، وكُنّ منتشرات بكثرة في حانات الحيرة التي كان يؤُمُّها طلاب اللذة وعشاق اللّهو لينعموا بسماع الغناء[7]...

***

= تقع بين الطائف ومكة... (الحموي: معجم البلدان، مج4، ص: 142، طبعة بيروت 1984.).

(1) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّء.. (الحموي: المصدر نفسه، مج2، ص: 487).

(2) الأسد: المرجع نفسه، ص: 35.

(3) السراري: جمعُ سُريّة: وهي الأمة التي بوأتها بيتا منسوبة إلى السرّ بالكسر للجماع. أما الجواري: فجمع جارية، وهي كل امرأة أخذت أسيرة في الحرب (انظر: د. علي السيد محمود: الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، ص: 7. وانظر ما بعدها).

(4) الدكتور شوقي ضيف: المرجع السابق، ص: 72.

(5) الأسد: المرجع السابق، ص: 39-40.

(6) القيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية، وللتوسع في معاني القينة لغوياً واصطلاحاً، انظر: الأسد: القيان والغناء، ص: 15 وما بعدها.

(7) الأسد: القيان والغناء، ص: 45، وللتوسع انظر ما بعدها.

كانت هذه لمحة سريعة عن المرأة العربية قبل الإسلام، ألممنا فيها بجملة من الصفات التي عُرفتْ بها آنذاك كالعفّة، والكرم، والشّجاعة، وحسن الرأي، والكهانة، وغيرها، على أنّ واقعها في الجملة كان مريراً، فقد كانت تعاني جملة من المظالم كالوأد، والسبي، وحرمانها من الميراث، بل هي حصة من الميراث تنقل من الآباء إلى الأبناء، وتباع وترهن في قضاء المنافع وسداد الديون.

خلاصة:

هذه خلاصات لبعض الدراسات حول وضع المرأة، ولا يمكن البت في مدى صدق هذه الخلاصات ودقتها بصورة تامة، لكن كلها تشير إلى احتمال أنّ العرب قبل الإسلام لمْ يَكُنْ لَهُم مَوْقِفٌ موحّدٌ من المرأة.

على أيّ فلنحاول البحث في هذا المضمار معتمدين على شواهد شعرية تؤيّد هذا الرّأي تارة، والموقف الآخر تارة أخرى.

2 – شعرها:

قيل: «الشعر ديوان العرب»، وقال ابن أبي داود: «ليس أحد من العرب إلّا وهو يقدر على قول الشعر، طبعٌ رُكِّب فيهم، قلَّ قوله أو كثر، فإن صدق هذا على رجالهم، صدق على نسائهم، إذ الطبع واحد واللغة متفقة والغريزة لا تختلف...»[1].

ويبدُو أنَّ النص يحتوي على شيء من المبالغة، لكنّه لا ينفي صحة الدليل، وقد يصدّق ذلك من يتَصَفّح تاريخ الأدب العربي، فإنّه يحدّثنا عن نساء شاعرات في جميع العصور، وقدْ مارست المرأة العربية نشاطها الفني منذ أن كان للعرب وجود أدبي[2].

ففي العصر الجاهلي نجد أسماء شاعرات كثيرات، وإن كان ما وصلنا من شعرهنّ قليل، وذلك لأنّ المؤرخين العرب ألقوا به في منطقة الظل، ولكنّا في

(1) اقتبسه مصطفى صادق الرافعي في كتابه: تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 64.

(2) الدكتورة عائشة عبد الرحمن: الشاعرة العربية المعاصرة، ص: 15.

لمح خاطف نذكر بعضًا منهنّ، وبعضًا مما قلن من الشعر.

وأول ما يلفتُ النظر من شعر النساء في الجاهلية، القصيدة المشهورة التي رثت بها جليلة بنت مرّة الشيبانية زوجها كليبًا، الذي قتله أخوها جساس، فلما اجتمع نساء الحيّ يندُبنه، أخرجْنها وحسبنها شامتة، لأنّها أخت القاتل، فبلغ ذلك إليها، فقالت قصيدة من أبدع الشعر، منها:

يابنة الأقوامِ إنْ لُمْتِ، فلا	تعجلي باللّوْمِ حتّى تَسْألي
فإذا أنتِ تبيّنتِ الذي	يُوجبُ اللوْمَ، فَلُومي واعْذُلي
إنْ تَكُنْ أخْتُ امرئٍ لِيمَتْ على	شَفَقٍ مِنْها عَليهِ، فَافْعلي
جلّ عندي فِعْلُ جَسّاسٍ، فيا	حَسْرتي عمّا انْجَلتْ أو تَنْجلي
لَوْ بِعيْنٍ فُدِيَتْ عَيْني سِوى	أخْتِها، فانْفَقَأتْ لَمْ أحْفِلِ
يا قَتيلًا قَوّضَ الدّهْرُ بِهِ	سَقْفَ بيْتَيَّ جَميعًا من علِ
هَدَمَ البيْتَ الّذي اسْتَحْدَثْتُهُ	وانْثَنى في هَدْمِ بيْتِ الأوّلِ
يشْتفي المُدْرِكُ بالثّأرِ، وفي	دركَيَ ثأْريَ ثُكْلُ المثْكلِ
إنّني قاتِلَةٌ مقْتولَةٌ	ولعلَّ اللهَ أنْ يَرْتاح لي[1]

نلاحظ أنّ هذه القصيدة، في مجملها، جميلة الصياغة، عذبة الأسلوب، وقد سيطر عليها الوضوح والسهولة، إذ تكاد تخلو من وعورة الألفاظ وخشونتها، خلافًا لما عرف عن الشعر الجاهلي، كما سيطرت عليها العاطفة الصادقة، المملوءة بلوعة النفس، والإحساس المتدفق، والشعور بالفيجعة.

وهذه زرقاء اليمامة (عنز) التي كانت شاعرة وعرافة[2]، وهي التي تقول تحذرُ قومها من عدوّ يبيت لهم:

---

(1) المرزباني: أشعار النساء، ص: 185-186-187. والأصبهاني: المصدر السابق، مج5، ص: 54-55. وانظر القصيدة كاملة هناك. وأبو تمام: الوحشيات (الحماسة الصغرى)، ص: 128-129.

(2) زرقاء اليمامة: من بني جديس من أهل اليمامة، يضرب بها المثل في حدة النظر وجودة البصر، كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام أو أكثر كما زعموا (المسعودي: أخبار الزمن: ص: 124 =

خذُوا حِذارَكُمْ يا قَوْمُ يَنْفَعُكُمْ فلَيْسَ ما قَدْ أرى بالأمْرِ يُحْتَقَرُ

إنّي أرى شَجَرًا مِنْ خَلْفِها بشَرٌ وكَيْفَ تَجْتَمِعُ الأشْجَارُ والبَشَرُ[1]؟

لكنّهم كذّبوها، ولم يستعدوا للحرب، ففاجأهم عدوّهم، وقتّلهم أبرح قتل، وشتّت شملهم، وقتل اليمامة، وقلع عينيها.

وهذه الخِرْنق بِنْت بدر أخت طرفة بن العبد لأمّه (توفيت سنة 570م) فعندما تقرأ شعرها تجد منه ما يساير شعر أخيها في طبقته من البلاغة والجزالة[2]. ومن شعرها قولها ترثيه حين قُتل بأمر عمرو بن هند:

عَدَدْنا لَهُ خَمْسًا وعِشْرين حِجّةً فلمّا توفّاها اسْتوى سَيِّدًا ضَخْمًا

فُجِعْنا بِهِ لمّا انتظَرْنا إيّابَهُ على خَيْرِ حالٍ لا وَليدًا ولا قَحْمًا[3]

ويتناول شعر النساء في العصر الجاهلي أغراض الشعر في تلك الفترة كالمدح، والرثاء، والهجاء، والفخر، والغزل، وإثارة الحماس... وغيرها، غير أنّ أهم الفنون الشعرية التي نظمت فيها المرأة الجاهلية هو الرثاء، وذلك لأنّ «ندب الميت والتفجع عليه كان من مهماتها»[4]. وكانت الخنساء (تماضر بنت الشريد)[5] أرثى شواعر العرب، وأغزرهنّ شعرًا، وديوانها يكاد يقتصر على

= وما بعدها وياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص: 446. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج3، ص: 71-72).

(1) ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج5، ص: 446. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 222 وروز غريّب: نسمات وأعاصير في الشعر النسائي... ص: 12. وعبد البديع صقر: شاعرات العرب، ص: 139. (مع اختلاف يسير في رواية الشعر).

(2) بشير يموت: شاعرات العرب... ص: 5.

(3) الخِرْنق: الديوان، ص: 32. وأبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، ص: 77. والمرزباني: أشعار النساء، ص: 170 (مع اختلاف يسير...).

(4) روز غريّب: نسمات وأعاصير في الشعر النسائي، ص: 13.

(5) هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، من بني سليم، من قيس عيلان، من مضر، أشهر شواعر العرب، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية، وأدركت الإسلام، فأسلمت، وقد أبدعت في شعر الرثاء، ولا سيما في رثاء أخيها صخر... توفيت نحو سنة 24هـ. ولم أدرس شعرها =

الرثاء. ومن عيون شعرها في رثاء أخيها صخر قولها:

يُذَكِّرُني طُلوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُروبِ شَمْسِ[1]

ولَوْلا كَثْرَةُ الباكينَ حَوْلي ... علَى إخْوانِهِمْ لقَتَلْتُ نَفْسي

وما يَبْكُون مِثْلَ أخي ولَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأَسِّي

فلا واللهِ لا أنْساكَ حتّى ... أفارِقَ مُهْجَتي ويُشَقَّ رَمْسي[2]

فهذه كلمات حزينة دامعة تثير المشاعر، فهي تتذكر أخاها صخرًا في الصباح، وتتذكره في المساء، ولولا كثرة الباكين حولها لقتلت نفسها حزنًا عليه...

ومن جيد شعر النساء في الجاهلية، هذه الأبيات لصفية الباهلية[3] في رثاء أخيها الوحيد الذي مات شابًا، وكانت تحبُّه ويحبّها، قالت:

كُنّا كغصنين في جُرْثومةٍ سَمقَا ... حينًا بأحسنَ ما تسمُو لَهُ الشّجرُ[4]

حتّى إذا قيل قد طَالتْ فُروعُهما ... وطابَ فيْآهُما واستُنظِرَ الثّمَرُ[5]

= مع شواعر صدر الإسلام لأنّ حياتها الفنية اكتملت في الجاهلية، وكذلك لكثرة الدراسات التي تناولتها. (انظر: ابن سلام: طبقات الشعراء، ص: 48 وما بعدها. وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 218 وما بعدها، والأصفهاني: الأغاني مج15، ص: 60 وما بعدها، وعائشة عبد الرحمن: الخنساء، وغيرها).

(1) قيل: إنّ الأصمعي خرج على أصحابه، فقال لهم: ما معنى قول الخنساء: «يذكّرني طلوعُ الشمس...» لِمَ خصّت هذين الوقتين؟ فلم يعرفوا، فقال: أرادت بطلوع الشمس: الغارة، وبمغيبها: القِرى، يغير على أعدائه عند طلوع الشمس، ويجلس إلى الضيفان عند الغروب، تصفه بالشجاعة والكرم. (انظر ديوان الخنساء، ص: 50).

(2) ديوان الخنساء، ص: 50.

(3) هي صفية بنت خالد المازني: كانت شاعرة قومها، محبوبة عندهم، وكان لها أخ تحبُّه ويحبُّها محبّة شديدة، ومرة غزا في قومه حيًّا من أحياء العرب، فقتل، ولما بلغ صفية الخبر، حزنت عليه حزناً شديداً، ورثته بمراثٍ كثيرة، ومنها المقطوعة المذكورة أعلاه (زينب فواز: الدر المنثور، ص: 363).

(4) الجرثومة: الأصل. وسمق: طال.

(5) استنظر: انتظر، ورواه بعضهم: استنصر بالضاد، أي: وجد ناضراً، والأول أجود.

أخنى عَلَى واحِدِي رَيْبُ الزّمانِ وما ... يُبقِي الزّمانُ على شَيءٍ ولا يَذَرُ[1]
كُنّا كأنْجُمِ لَيْلٍ بيْنَهَا قمرٌ ... يَجْلُو الدُّجى فَهَوى مِنْ بَيْنِها القمَرُ[2]

وكذلك السلكة أمُّ السّليك[3] السعدي - أحد عدائي العرب، وهو من الشعراء الصعاليك - كان لها شعر مؤثّر في رثاء ابنها الذي قتله أحد أعدائه، ومنه قولها:

طافَ يَبْغِي نجْوَةً ... مِنْ هَلاكٍ فهلَكْ
ليْتَ شعْرِي ضَلَّةً ... أيُّ شيْءٍ قَتَلَكْ؟
أمَرِيضٌ لَمْ تُعَدْ ... أمْ عَدُوٌّ خَتَلَكْ؟
أمْ تَوَلّى بِكَ مَا ... غَالَ في الدّهْرِ السُّلَكْ؟
والمَنَايا رَصَدٌ ... لِلْفَتى حيثُ سَلَكْ
أيُّ شيْءٍ حَسَنٍ ... لِفَتًى لَمْ يكُ لكْ
كُلُّ شيْءٍ قاتِلٌ ... حينَ تَلْقى أجَلَكْ
طَالمَا قدْ نِلْتَ في ... غيْرِ كَدٍّ أمَلَكْ
إنَّ أمْرًا فادِحًا ... عنْ جَوابِي شغَلَكْ
ليْتَ نَفْسِي قُدِّمَتْ ... لِلْمَنايا بَدَلَكْ[4]

وتلك هي دختنُوس بنت لقيط بن زرارة بن عُدُس الدرامي، من تميم، شاعرة جاهلية، تزوّجها عمرو بن عمرو بن عُدُس، وكانت ابنة عمه، فلم تزل تُسمعه ما يكره وتهجوه حتّى طلّقها، فتزوّجها من بعده ابنُ عمّها عمير بن معبد بن زرارة،

---

(1) أخنى عليه: أي أفسد عليه.

(2) ذيل ديوان الخنساء، ص: 160. وأبو تمام: الحماسة بشرح التبريزي، ج3، ص: 7، وانظر: البحتري: الحماسة، ص: 273- 274، وفيه: وقالت: طيبة الباهلية، ويبدو أنّ ذلك كان سهواً منه.

(3) السُّلكة أمّ السليك: شاعرة جاهلية وكانت سوداء، وهي أمّ الشاعر المعروف السليك بن السُّلكة، ينسب إلى أمه، وكان أحد الشعراء الصعاليك العدائين... (أبو تمام: الحماسة، ج2، ص: 191، والشعر والشعراء، ص: 235 وما بعدها...).

(4) أبو تمام: الحماسة، ج2، ص: 191، وبشير يموت: شاعرات العرب... ص: 63.

وحضرت يوم «شعب جبلة»[1] مع أبيها لقيط الذي قُتل في هذا اليوم وكان من رؤساء بني تميم. ولِدَختنوس أشعار كثيرة في المدح والهجاء، والرثاء، ومما قالته في رثاء أبيها الذي قتلته بنو عبس، وجعلوا يضربونه وهو ميت:

أَلَا يا لها الوَيْلاتُ ويْلَةَ مَنْ بَكَى ... لِضَرْبِ بني عَبْسٍ لَقيطًا وقَدْ قضى

لقَدْ ضرَبوا وجْهًا عَليْهِ مَهَابةٌ ... ولا تَحفِلُ الصُّمُّ الجَنادِلُ مَنْ ثَوَى[2]

فَلوْ انّكُمْ كُنْتُمْ غداةَ لقيتُمُ ... لقيطًا صبَرْتُمْ لِلأسِنّةِ والقَنَا

غَدَرْتُمْ ولكِنْ كُنتُمُ مِثلَ خُضَّب ... أضَاءتْ لها القُنّاصُ مِنْ جانِبِ الشَّرَى[3]

فمَا ثَأرُهُ فيكُمْ ولكِنْ ثأرَهُ ... شُرَيْحٌ أرادتْهُ الأسِنّة والقَنَا[4]

فإنْ تُعْقبِ الأيّامُ مِنْ عَامِرٍ يَكُنْ ... علَيْهِمْ حرِيقًا لا يُرامُ إذَا سمَا

لِيُجْزِيَهُمْ بالقَتْلِ قَتْلًا مُضَعّفًا ... وما في دِمَاءِ الحُمْسِ يا مَالُ مِنْ بَوا[5]

هذه نماذج من شعر المرأة العربية في الجاهلية، وهناك شاعرات كثيرات، كانت لهن أشعار بديعة، لا سيما في الرثاء، لم أذكرهنّ، لأنّ المجال لا يتسع لذلك، ويمكن مراجعتها في بعض المصادر والمراجع التي جمعت أدب النّساء[6].

---

(1) شعب جبلة: الموضع الذي كانت فيه الوقعة المشهورة بين بني عامر وتميم وعبس وذبيان، فانهزمت ذبيان وتميم، وقُتل لقيط والد دختنوس، وأسر أخوه حاجب. وجبلة هذه هضبة حمراء بنجد بين الشّريف والشّرَف؛ والشريف: ماء لبني نمير. والشرف: ماء لبني كلاب. (الحموي: معجم البلدان، مج 2، ص: 104. والجاحظ: الحيوان، ج5، ص: 293).

(2) تحفل: تضم. والصم الجنادل: الصخور العظيمة. وثوى: مات. تريد أنّ الصخور التي تغطي جسمه في قبره لا تكادُ تضمّه لعلوّ شأنه.

(3) الخُضّب: النعام. والظليم الخاضب: الذي احْمرّتْ ساقاه من أكل الربيع. والشرى: موضع.

(4) تقول ليس لكم الفخر يا بني عبس، فإنّما قاتله والمطلوب بدمه، هو شريح بن الأحوص العامري.

(5) الأصبهاني: الأغاني، مج11، ص: 137- 138. وذيل ديوان الخنساء، ص: 149. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 190- 191. وتريد بالحُمْسِ: أشراف بني تميم الذين قتلوا. ومال: ترخيم: مالك. والبواء: السواء والكفء.

(6) انظر طيفور: بلاغات النساء. والمرزباني: أشعار النّساء. وذيل ديوان الخنساء... وغيرها.

ويمكن أن نقول باختصار إنَّ هناك أكثر من ثلاثين ومئة شاعرة ينتمين إلى الجاهلية؛ وهذا يجعلنا نحكم على أنّ الشعر لم يكن وقفًا على الرجال، وإنّما شاركت فيه النّساء، ثم إنّا نطالع في هذا الشعر النسائي كل الأغراض التي عرفت. . . وإنْ كُنّا نرى أنَّ الغرض الذي غلب عليهنّ إنّما هو غرض الرثاء، رثاء الآباء والأبناء والإخوة، والعشيرة، والأزواج. . . وقد ذُيّل ديوان الخنساء بمراثي ستين شاعرة ينتمين إلى الجاهلية وصدر الإسلام فقط، وذلك لأنّ المرأة بطبيعتها تجيد الرثاء، وتستثار مشاعرها المرهفة أمام صدمة الموت[1].

3 – نقدها:

ولم تكن المرأة الجاهلية شاعرة فحسب، فقد كانت ناقدة كذلك، وأوّل ما وصل إلينا نقد أمّ جُندُب زوجة امرئ القيس[2] لشعره وشعر علقمة الفحل[3]؛ وذلك أنّ امرأ القيس وعلقمة الفحل تنازعا الشعر، فقال علقمة لصاحبه: قد حَكّمتُ بيني وبينك امرأتك أم جندب. قال: قد رضيتُ. فقالت لهما: قولا شعرًا، تصفان فيه فرسيكما. فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها:

خَليلَيَّ مُرّا بي علَى أمِّ جُنْدُبِ   نُقَضِّ لُباناتِ[4] الفُؤادِ المعذّبِ[5]

---

(1) الدكتورة عائشة عبد الرحمن: الشاعرة المعاصرة... ص: 15.

(2) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المُرار، وأمّه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث، أخت كُليب ومهلهل، يماني الأصل، ومولده بنجد، وهو من أشهر شعراء العرب في الجاهلية... وللتوسع في أخباره انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 52 وما بعدها. والأصبهاني: الأغاني، مج 9، ص: 76 وما بعدها، والقرشي: جمهرة أشعار العرب، ص: 89 وما بعدها. وغيرها.

(3) هو علقمة بن عَبَدَة بن النعمان بن قيس، من بني تميم، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس، وله معه مساجلات، ويعرف بعلقمة الفحل... (انظر: ابن سلام: طبقات الشعراء، ص: 30- 31. وابن قتيبة: المصدر نفسه، ص: 130 وما بعدها، والأصفهاني: المصدر نفسه، مج 21، ص: 224 وما بعده.

(4) اللّبانات: جمع لبانة: وهي الحاجة.

(5) امرؤ القيس: الديوان، ص: 41، دار المعارف، 1985. والمرزباني: الموشّح، ص: 28.

وقال علقمةُ قصيدته التي مطلعها:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرانِ في غيرِ مَذْهَبِ ولَمْ يكُ حقًا كلُّ هذا التّجنُّبِ[1]

فحكمت لعلقمة، فقال لها زوجها: بأيّ شيء غلّبته؟ فقالت: لأنّك قلتَ:

فلِلسّوْطِ ألْهُوبٌ؛ ولِلسّاقِ دِرَّةٌ ولِلزّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أهْوَجَ مِنْعَبِ[2]

فجهدتَ فرسك بسوطك، ومريته[3] بساقك، وأتعبته بجهدك.

وقال علقمة:

فأدركَهنَّ ثانيًا مِنْ عِنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرّائحِ المُتَحَلّبِ[4]

فلم يضرب فرسه بسوط، ولمْ يمْرِه بساق، ولم يتعبه بزجر.

فغضب من قولها، وطلّقها، فخلفه عليها علقمة[5].

وكذلك نقدت الخنساء شعر حسان بن ثابت الذي عرضه على النابغة في سوق عكاظ.

وكانت تضرب للنابغة الذبياني[6] قُبّة حمراء في سوق عكاظ فيجلس لشعراء العرب على كرسي وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها فيفضّل منْ يرى تفضيله،

---

(1) المرزباني: المصدر نفسه، ص: 28، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 130. وابن سلام: م. ن. ، ص: 31.

(2) ديوانه، ص: 51. والأصبهاني: الأغاني، مج 8، ص: 196. والألهوب والدرّة: شدة جري الفرس حتى يثير الغبار. والأهوج: الأحمق. والمنعب: الذي يمدّ عنقه في العلوّ.

(3) مرى الفرس: استخرج ما عنده من الجري بسوط ونحوه.

(4) المرزباني: الموشح، ص: 29. وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 130.

(5) الأصبهاني: المصدر نفسه، مج 8، ص: 196- 197. ومج 21، ص: 227. وابن قتيبة: المصدر نفسه، ص: 130. وفيه: فسمي بذلك علقمة الفحل؛ ويقال: بل كان في قومه رجل يقال له علقمة الخصي، ففرقوا بينهما بهذا الاسم. وانظر أيضاً: الجاحظ: الحيوان، ج 1، ص: 120- 121.

(6) النابغة الذبياني: هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة، أحد الشعراء المشهورين في الجاهلية (انظر ترجمته في: ابن قتيبة: المصدر نفسه، ص: 87 وما بعدها. والأصبهاني: المصدر نفسه، مج 11، ص: 3 وما بعدها).

فأنشدته الخنساء في بعض المواسم قصيدتها الرائية التي رثت بها صخرًا، فأعجبه شعرها، وقال لها: اذهبي فأنت أشعر من كلّ ذات ثديين، ولولا أنّ أبا بَصير (يعني الأعشى الأكبر) أنشدني قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم.

وكان ممّن عرض شعره في ذلك الموسم حسان بن ثابت، فغضب وقال: أنا أشعر منك ومنها، فقال النابغة: ليس الأمر كما ظننت. ثم التفت إلى الخنساء، وقال: خاطبيه يا خناس، فقالت له:

ما أجود بيت في قصيدتك هذه التي عرضتها آنفًا؟، قال: قولي فيها:

لنَا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى وأسْيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دمَا[1]

فقالت: ضَعَّفتَ افتخارك وأنْزَرْتَه[2] في ثمانية مواضع في بيتك هذا، قال: وكيف ذلك؟ قالت: قلت: الجفنات، والجفنات ما دون العشرة ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت الغُرُّ: والغُرة بياض في الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر اتّساعًا، وقلت: يلمعن، واللمع: يأتي شيء بعد شيء، ولو قلت: يشرقن لكان أكثر، لأنّ الإشراق أدوَمُ من اللمعان: وقلتَ: بالضّحى، ولو قلت: بالدُّجى، لكان أكثر طُرّاقًا[3]، وقلتَ: أسياف، والأسياف ما دون العشرة، ولو قلتَ: سيوف لكان أكثر، وقُلتَ يقطُرْنَ، ولو قُلتَ: يَسِلْنَ لكَانَ أكْثر، وقلت: دما، والدماء أكثر من الدم، فسكت حسان ولم يُجِر جوابًا[4].

هكذا كانت المرأة الجاهلية تتذوّق الشّعر وتنقده، وتتبينُ مواضع الجودة والرداءة فيه.

---

(1) ديوانه، ص: 371، المطبعة الرحمانية بالقاهرة، 1929. والمرزباني: الموشح، ص: 82. والجفنات: القصاع الكبيرة؛ مفردها: جفنة. والغرُّ: البيض. والنجدة: القتال والشجاعة والبأس.

(2) أنْزَرْتَه: قلّلته.

(3) طُرَّاقاً: أي ضيوفاً.

(4) ديوان الخنساء، ص: 9- 10. وعبد الله عفيفي: المرأة العربية. ج1، ص: 152- 151 وفي رواية أخرى أنّ النابغة هو الذي نقد بيت حسان، انظر: المرزباني: المصدر السابق، ص: 82 وما بعدها.

ثانيًا: المرأة العربية بعد الإسلام:

جاء الإسلام حاملًا معه كلّ تقدير واحترام للمرأة، فرفع مكانتها وأعلى من شأنها في عديد من المجالات الاجتماعية، وأحاطها بسياج من الحماية، وأنصفها فأبعد عنها مظالم الجاهلية، وأقرّ لها حقوقها كاملة، واستنكر بعض العادات الجاهلية التي تسيء إليها فحرّمها، كوأد البنات، جاء في القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] **[النحل: 58 - 59]**. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ **[التكوير: 8 - 9]**. ومثل هذا في القرآن الكريم كثير.

وساوى القرآن الكريم بين المرأة والرجل في الإنسانية، قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ **[الأعراف: 188]**.

وقال جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ﴾ **[النساء:1]**.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ **[النحل: 72]**.

كما أنّ القرآن الكريم قد أكّد هذه المساواة بين المرأة والرجل، في الدنيا والآخرة لأنهما من نفس واحدة قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ **[الزخرف: 70]** وقوله أيضًا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ **[النحل: 97]** وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ

---

(1) الكظيم: الممتلئ غيظاً وأصل الكظم: مخرج النفس، يقال أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه، ومنه كظم الغيظ لإخفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه صافحاً أو مغيظاً، فهو كاظم؛ وكظيم؛ ومكظوم.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

وهكذا أعلن الإسلام أنّ لا فرق بين المرأة والرجل إلا بالعمل الصالح.

ولعلّ من أعظم الحقوق التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرّة أنّه رفع عنها لعنة الأبدية، ووصمة الجسد المرذول[1]، فمنحها كما منح زوجها التوبة والغفران عندما وسوس لهما الشيطان، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20]، وقال أيضًا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: الآية 36].

وسوّى الإسلام بين دمِ الرّجل ودم المرأة، فصار يُقتل قاتِلُها، كما سوّى بينهما في حدّ القذف[2].

وأوصى الدينُ بإكرام المرأة أمًّا وبنتاً وزوجةً، والإحسان إليها، فحضَّ كثيرًا على إكرام الأم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: 15]. وهكذا تتساوى رعاية الإنسان لوالديه كليهما، على السواء، وقد خصّ القرآن الكريم الأمهات بالتنويه في هذا المقام لما يعانينه من آلام الحمل والوضع، وخصّهنّ بالذكر تارة أخرى، فمن ذلك ما وَرَدَ أنَّهُ جاءَ رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحُسن صحابتي؟ قال: أمُّك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أبوك[3].

ويُرْوى أنّ رَجُلًا جاء النبيّ ﷺ وقال: أريد الجهاد في سبيل الله، فقال رسول الله: أأمُّك حيَّة؟ قال: نعم، قال: الزمْ رِجْلها فثمَّ الجَنَّة[4].

---

(1) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، ص: 53.

(2) سعيد الأفغاني: الإسلام والمرأة، ص: 32.

(3) ابن الجوزي: أحكام النساء، ص: 53.

(4) الدكتور صبحي الصالح: النّظم الإسلامية، نشأتها وتطوّرها، ص: 447. (اقتبسه عن الطبراني).

وإذا كان الإسلام قد أوصى بالمرأة أمًا وبنتًا، فقد أوصى بها زوجة أيضًا، فأمر بمعاشرتها بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [النساء: الآية 19]، وقال الرسول ﷺ: «خيركم لنسائه، وأنا خيرُكم لنسائي»[1]، وكان تعدّد الزوجات معروفًا عند العرب، ولم يكن محدودًا ولا مُقَيّدًا، فقد يجمع الرجل بين عشر نساء أو أكثر، فلمّا جاء الإسلام حدّده ونظّمه، قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: الآية 3]، فجعل البقاء على واحدة فرضًا محتومًا عند توقع الجور، وإيثار واحدة على أخرى، وجميع الناس يخافون ذلك[2]، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ [النساء: الآية 129].

فالإسلام لم ينشئ تعدد الزوجات، ولم يوجبه، ولم يستحسنه، ولكنّه أباحه في حالات يشترط فيها العدل والقدرة على الإنفاق[3].

وحرّم أنواعًا قبيحة، كانت معروفة في المجتمع الجاهلي، كنكاح المَقْت[4]، ونكاح الشغار[5]، والجمع بين الأختين، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 22] وقال: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 23].

وكان بعض أهل الجاهلية إذا مات الرجل عندهم، وله زوجة ورثها من يرث ماله، وقد يعضلها ويضيق عنها، ويمنعها من الزواج حتى تفتدي نفسها بمال، أو تموت فيرثها، فجاء الإسلام فحرّم ذلك إنصافًا للمرأة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(1) عبد الملك بن حبيب (ت 238هـ): أدب النساء، ص: 253. ومحمد بيهم: المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية، ص: 60.

(2) عبد الله عفيفي: المرأة العربية... ج2 56.

(3) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، ص: 69.

(4) نكاح المقت: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه بعده... (انظر المعجم الوسيط: مقت).

(5) نكاح الشغار: هو أن ينكح الرجل وليته رجلاً، وينكح هو ولية ذلك الرجل بلا مهر (انظر: النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج2، ص: 245).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: 19]. كما كفل لها حقوقها في الميراث، فاختصها بنصيب مما ترك الوالدان والأقربون، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7]، فجعل نصيب الذكر من الميراث ضعف نصيب الأنثى يتناسب مع التبعات الملقاة على كل منهما: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11].

وجعل الإسلام المهر حقًا للمرأة ونهى عن مسه بأيّ شكل من الأشكال؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 20 - 21][1]؛ وقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: الآية 4].

وحضّ الإسلام على بقاء الحياة الزوجية إذا كان في بقائها الخير والسعادة، لأنّ الزواج في الإسلام عقد مؤبد، به يرتبط الرجل بالمرأة ارتباطًا مقدّسًا كلُّهُ حب وحنان ومودّة لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]. وكرّه الطلاق إلى الناس وبغّضهُ وشدّدَ فيه، لأنّه «أبغض الحلال إلى الله» كما قال رسول الله ﷺ، وأمر القرآن الرجل أنْ يعاشر زَوجته بالمعروف وأنْ يصبر حتى حين تشتدّ كراهيته لها، عسى أن يكون في الصبر على هذه النفرة العارضة خير كثير لا يعلمه، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

---

(1) ذكر ابن الجوزي في كتابه في سيرة عمر بن الخطاب: أنّ عمراً في إحدى خطبه نهى الناس عن زيادة المهور على أربعمائة درهم... وقال: فمن زاد ألقيتُ الزيادة في بيت المال، ثم نزل فقامت امرأة من صف النساء وقالت: ما ذاك لك، قال: ولِمَ؟ قالت: لأنّ الله تعالى قال: ﴿... وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾. فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ... (اقتبسه سعيد الأفغاني في كتابه: الإسلام والمرأة، ص: 34).

وحرص الإسلام على استمرار الحياة الزوجية، فنصح الزوج بإصلاح الأمور عندما يحصل نشوزٌ أو إعراض من الزوجة، وذلك بالوعظ، ثم الهجر، وأخيرًا الضرب غير المبرح عند الضرورة لتأديبها وتقويمها، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34].

أما إذا لم تفلح هذه الوسائل، واشتد النزاع بين الطرفين ليصبح شقاقًا، ففي هذه الحالة نصح الإسلام أهل الزوج والزوجة بالتدخّل والتحكيم بينهما، أي: يختار الطرفان حكمين من أهل الزوج ومن أهل الزوجة ليصلحا بينهما، قال جلّ شأنه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: 35].

فإذا عجزت كلّ الوسائل عن إيجاد الصلح والمودة، ولم يكن ثمة من الفراق بد، كان الواجب على الزوج إذا اعتزم الطلاق: ﴿تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: الآية 229]، ولا يتعجل بالطلاق البائن، وليبدأ بطلقة واحدة عسى أن يراجعها بعد أن تهدأ فورة الغضب دون عقد أو مهر جديدين ما دامت في عدتها وهي أربعة أشهر...

قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229].

قال الأستاذ عباس محمود العقاد في تفسيرهذه الآية: تحفظ للمرأة حقّها في المال وفي الحريّة، فلا يحلُّ للرجل أن يمسك عنها شيئاً من صداقها، ويحق لها هي أن تأبى العودة إليه إذا راجعها قبل الطلقة البائنة، وعليها إذن أن تنزل عن الصداق المتأخر، لأنّها خليقة أن تعفيه من واجب الزوج وهي تعفي نفسها من واجبها[1].

فإن طلّقها بعد ذلك، أي الطلقة الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ

(1) المرأة في القرآن، ص: 94.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ [البقرة: 230].

ومتى تمّ الطلاق تكفّلت الشّريعةُ للزوجة المطلَّقة بكل ما يلزم من حقوقها ومصالحها، ومن حقوق أبنائها وأبنائه[1]...

خلاصة

وخلاصة القول إنّ الإسلام قد انتشل المرأة من الهوة المظلمة التي كانت تتردى فيها في الجاهلية، فأكرمها وأوجب العناية بها، والعطف عليها، وكفل لها حقوقها، فسنّ لها تشريعها مفصّلا في الإرث والزواج والطلاق، وغير ذلك مما جاء به الإسلام تعزيزاً لِمَكانتها، واحتفاء بها.

---

(1) عباس محمود العقّاد: المرجع نفسه، ص: 96 وانظر ما بعدها.

الفصل الثاني

الخلفية السياسية والاجتماعية والثقافية لشعر النساء

أولًا: - الأوضاع السياسية:

1 - عصر صدر الإسلام:

تعريفه:

هو العصر الثاني من عصور التاريخ الأدبي[1]، يبدأ ببعثة النبي ﷺ في مكة المكرمة عام 610م؛ وينتهي بتنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ ـ 661م، أي أن هذا العصر يشمل عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

---

(1) أغلب من أرّخوا للأدب العربي، قسّموه إلى خمسة أو ستة عصور أساسية هي: (1) عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام. (2) عصر صدر الإسلام، من بعثة الرسول ﷺ سنة 610م إلى ظهور الدولة الأموية سنة 41هـ. (3) العصر الأموي، ويبدأ من سنة 41هـ- 661م حتى سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ- 750م (وهناك من يجمع عصر صدر الإسلام وبني أمية في عصر واحد...). (4) العصر العباسي من سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ حتى سقوط بغداد في يد المغول عام 656هـ- 1258م. (وتقسم المرحلة العباسية إلى أربعة أعصر ثانوية...). (5) عصر الانحطاط، من عام 656هـ- حتى ظهور محمد علي عام: 1805م أو حملة بونابرت على مصر عام 1798هـ. (6) العصر الحديث، من ظهور محمد علي، عام 1805م. حتى العصر الحاضر... (الدكتور جبور عبد النور: المعجم الأدبي، ص: 174 وما بعدها، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984. والدكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، ص:14- 15، وانظر: الدكتور عطية عامر: دراسات في الأدب العربي الحديث، ص: 26- 27- 28 وفيه أورد تقسيمات المستشرقين: بروكلمان ونالينو ونيكلسون وعبد الجليل وشارل بيلا وبلاشير، وانظر أيضاً: جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، ص: 24- 25).

ومن المؤرخين من يجعل الفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ عصرًا أدبيًا واحدًا، ويطلقون عليه عصر صدر الإسلام[1] أو العصر الإسلامي[2].

غير أنّني أوثر الفصل بين الفترتين للخلاف الواضح بين هذين العصرين في مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية[3] كما سنبين بعد حين.

ظهور الإسلام وأهم الأحداث في حياة الرسول ﷺ:

ولد رسول الله ﷺ، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي في مكة في عام الفيل[4] سنة 570م؛ وأمه آمنة بنت وَهَبْ بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب[5]. . .، وكانت حاملًا به لما توفي والده، ثم توفيت والدته آمنة وهو في السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، ومات جده بعد سنتين، فكفله عمه أبو طالب والد علي رضي الله عنه، وكان به رفيقًا، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره[6] تزوج خديجة بنت خُوَيْلِدٍ، وهي في الأربعين من عمرها[7]، وكانت غنية أرسلته قبل الزواج في تجارة إلى الشام فأفلح وربح ربحًا عظيمًا، وأصبح موسِرًا، وهي أول امرأة تزوجها ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت[8]؛ وقد ولدت له أولاده جميعًا إلا إبراهيم[9].

---

(1) انظر: بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ج1، ص: 257.

(2) الدكتور زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج1، ص: 57.

(3) ويرى الرأي نفسه الدكتور صلاح الدين الهادي في كتابه: الأدب في عصر النبوّة والراشدين، ص: 5.

(4) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص: 158. وابن قيّم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد ج1، ص: 17.

(5) أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت 245هـ): المحبر، ص: 9. وأبو عبد الله محمد بن يزيد (ت 240هـ): تاريخ الخلفاء، ص: 21.

(6) البغدادي: المصدر نفسه، ص: 9 - 10 و79. وابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص: 187.

(7) البغدادي: المصدر نفسه، ص: 10 و79. وابن هشام: المصدر نفسه، ج1، ص: 187 (هامش 2).

(8) ابن هشام: المصدر نفسه، ج1، ص: 190.

(9) ابن هشام: المصدر نفسه، والصفحة نفسها، وانظر أسماء أبناء الرسول من خديجة هناك، أما إبراهيم فكان من زوجته مارية القبطية.

وكان ﷺ يميل إلى العزلة، ويتردد على غار حراء قرب مكة، فيخلو لنفسه شهرًا من كل سنة[1]، يفكر في الكون وصانعه، ويستغرق في التأمل والتعبد، وبينما هو نائم ذات ليلة في الغار، نزل عليه الوحي، وكان قد بلغ الأربعين من عمره[2]، فاختصه الله تعالى بكرامته، فبعثه رحمة للعالمين سنة 13 قبل الهجرة، 610م، فأخبر زَوْجَهُ خديجة بما رأى، فآمنت به، واستجابت لدعوته، ثم تبعه بعدها ابن عمه علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة، وأبو بكر الصديق، ثم عثمان ابن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم[3]. ثم جهر بالرسالة الإلٰهية بعدما كان يدعو الناس للإسلام سرًا، وظل يدعو قومه في مكة إلى توحيد الله ونبذ الوثنية ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً من غير أن يزيد المسلمون فيها عن سبعين شخصًا، كانوا يعيشون في ضيق واضطهاد[4]، فقد لاقت دعوته معارضة شديدة من قريش، فأنكروها، وسخروا منه وقالوا: «ساحر أو مجنون» فلما يئس منهم... أمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى يَثْرِبَ[5]، فهاجر إليها هو ومن معه سنة 622م فلقي من أهلها، قبيلتي الأوس والخزرج، أتباعاً ناصروه، ودخلوا في الإسلام، فسموا الأنصار وسمي الذين هاجروا معه المهاجرين، وسميت يثرب المدينة أي: مدينة الرسول، ومن ذلك التاريخ يبتدئ التاريخ الهجري، أي: منذ سنة 622م[6].

---

(1) ابن هشام: المصدر السابق، ص: 235.

(2) ابن حزم: جوامع السيرة النبوية، ص: 6. والمحبّر، ص: 10.

(3) انظر: ابن هشام، المصدر السابق، ج1، ص: 240 وما بعدها. والطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص: 306 وما بعدها.

(4) عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ج1، ص: 237.

(5) وكانت أول هجرة في الإسلام هي هجرة أصحاب الرسول ﷺ إلى الحبشة بإيعاز منه في رجب من السنة الخامسة للدعوة (الثامنة قبل الهجرة 615م). مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم (ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص: 321- 322. وانظر ما بعدها. والطبري: المصدر السابق، ج2، ص: 329).

(6) بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ج1، ص: 258- 259 وانظر =

ما كاد المسلمون يستقرون في المدينة حتى ازداد طغيان مشركي أهل مكة، فأخرجوا المسلمين من ديارهم، وساءهم أن ينجو الرسول ﷺ ويحتمي في المدينة، ويجد هناك أنصارًا، فحاولوا بالاتفاق مع يهود المدينة أن يحاربوا المسلمين في المدينة، فكانوا يقصدونهم لقتالهم فيها، فنزلت آيات الإذن بالقتال للمسلمين، مبينة سببه ووجه الحاجة إليه، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: 39-40]. وكانت غزوة «وَدَّان»[1] وهي غزوة «الأبواء»[2] أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ في شهر صفر على رأس اثني عشر شهرًا من مَقْدَمِهِ المدينة، يريد قريشًا وبني ضمرة، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة[3]، فصالحه بنو ضمرة على ألا يغزوه ولا يغزوهم. . . وكتب بينه وبينهم كتابًا، ثم عاد النبي ﷺ إلى المدينة[4]، وتوالت الغزوات والسرايا[5]، وكان النصر في أكثرها حليف المسلمين، وأشهرها غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة[6]، وتلتها غزوة «بني قَيْنُقَاع» وهم قبيلة من اليهود كان النبي ﷺ قد عاهدهم، وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم، وحرية دينهم، فنقضوا العهد، فسار إليهم رسول الله ﷺ في أواخر سنة 2هـ، بعد غزوة بدر، فحاصرهم خَمْسَ عَشْرَةَ ليلةً ثم أجلاهم عن المدينة[7].

= بالتفصيل عن هجرة الرسول ﷺ ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص: 480 وما بعدها.

(1) وَدّان (بفتح الواو وشد الدال المهملة فألِف فَنُون): قرية جامعة من أعمال الفرع تقع بين مكة والمدينة، بينها وبين الأبواء نحو ثمانية أميال... (الحموي معجم البلدان، مج5، ص: 365).

(2) الأبواء: قرية من أعمال الفرع، بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً (الحموي، المصدر نفسه، مج5، ص: 79).

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص: 591. والطبري: المصدر السابق، ج2، ص: 403.

(4) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج2، ص: 83.

(5) وقد كانت المعركة التي يحضرها الرسول ﷺ تسمى غزوة، أمّا المعركة التي لم يحضرها فقد كانت تسمى سرية (الدكتور عمر فرّوخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص: 61).

(6) انظر: ابن حزم: جوامع السيرة النبوية، ص: 81. وابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب... ج1، ص: 9. وبدر: اسم بئر حفرها رجل اسمه بدر أو ماء، وقيل: إن بدراً اسم رجل كانت له بدر، وهي على أربعة مراحل من المدينة (الحموي: المصدر السابق، مج1، ص: 357).

(7) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 47، وما بعدها. وابن حزم: جوامع السيرة النبوية، =

وفي شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة (625) كانت غزوة «أُحُد» في الجبل المشرف على المدينة المسمى بهذا الاسم[1]، وفي السنة الرابعة غزوة «ذات الرقاع»[2] وفي الخامسة غزوة «الخندق»[3] وتعرف باسم غزوة الأحزاب أيضًا لأن جميع الأحزاب في الحجاز ونجد، من الوثنيين واليهود، قد اشتركوا فيها، وفي السنة نفسها غزا الرسول «بني قُريظَةَ اليهود»[4]، وفي السادسة كان صلح الحُدَيْبِيَة[5] وفي السنة السابعة كانت غزوة «خَيْبَرْ»[6]، وفي الثامنة غزوة «مُؤتة»[7]، و«حنين»[8] وفيها وقبل غزوة حنين، فتح المسلمون «مكة»[9]، وكانت معقل المشركين من قريش، وغيرهم، وعمَّ الإسلام شبه جزيرة العرب.

وفي السنة التاسعة غزوة «تبوك»[10] في بلاد الشام، وقد كانت خاضعة لنفوذ الروم، فوقعت في يد المسلمين. وبعد عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة أقبلت عليه وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة العربية فأسلمت، فسمي هذا العام: (عام الوفود)[11]، وفيه نزل قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ

= ص: 121، وما بعدها. والدكتور رشيد عبد الله الجميلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ص: 140.

(1) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 60 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 12 وما بعدها.

(2) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 203 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 145- 146.

(3) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 214 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 147 وما بعدها.

(4) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 233 وما بعدها. والحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 11.

(5) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 308 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 164 وما بعدها.

(6) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 328 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 167 وما بعدها.

(7) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 373 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 174 وما بعدها.

(8) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 437 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 187 وما بعدها.

(9) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 389 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 177 وما بعدها.

(10) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج3، ص: 515 وما بعدها. وابن حزم: م.ن.، ص: 198 وما بعدها.

(11) سنة 9هـ وقد ذكر ابن هشام الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ، وأسلمت على يده (انظر السيرة، ج4، ص: 559 وما بعدها. وانظر أيضاً ابن حزم: المصدر السابق، ص: 206- 207).

وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:1 - 3].

وفي السنة العاشرة خرج الرسول ﷺ في جمع غفير من المسلمين إلى الحج، فحج بالناس، وخطب هناك خطبته المشهورة التي عرفت باسم «خطبة الوداع»، وسميت هذه الحِجة «حِجة الوداع» أيضًا، لأنها آخر حجة حجّها الرسول.

وفي أواخر صَفَرَ سنة 11هـ حُمّ، ثم تُوُفِيَ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من سنة 11 للهجرة بالمدينة[1] وعمره ثلاث وستون سنة[2] قضى منها ثلاثًا وعشرين سنة يؤدي رسالة ربه.

الخلفاء الراشدون:

فلما توفي الرسول ﷺ، اختلفت الصحابة فيمن يبايعون بالخلافة، فانقسموا إلى ثلاث كتل، وكان لكل كتلة مرشحها، فالكتلة الأولى من الهاشميين (وعلى رأسهم العباس)، وبعض الأمويين، وطلحة والزبير، تؤيد عليًّا، وترى حقه طبيعيًا في الخلافة، لقرابته من رسول الله، ثم لسابقته في الإسلام، بالإضافة إلى علمه وعدله وتقواه، ثم زواجه بفاطمة بنت محمد ﷺ. والكتلة الثانية، وتشمل أكثر الأنصار وهي التي اجتمعت في سقيفة بني ساعدة تؤيد ترشيح سعد بني عبادة سيد الخزرج. والكتلة الثالثة مالت إلى أبي بكر، وكانت نشيطة تشمل أكثر المهاجرين[3].

---

(1) انظر: ابن هشام، م.ن.، ج4، ص: 652- 653. وابن حزم: م.ن.، ص: 211. والحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 14. ومحمد بن يزيد: تاريخ الخلفاء، ص: 21. ومحمد بن حبيب: المحبر، ص: 12.

(2) انظر: محمد بن يزيد: م.ن.، ص: 20. ومحمد بن حبيب: م.ن.، والصفحة نفسها. والحنبلي: م.ن.، والصفحة نفسها. والمسعودي، مروج الذهب، ج2، ص: 331 وفيه في مكان آخر، ص: 332، توفي وهو ابن ستين، غير أن المتفق عليه في أغلب المصادر أنه ﷺ توفي وله ثلاث وستون سنة.

(3) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 8 وما بعدها. وابن هشام: السيرة، ج4، ص: 656 وانظر ما بعدها. وانظر أيضاً: الدكتور عبد العزيز الدوري مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص: 47- 48. وابن العربي: العواصم من القواصم، ص: 40- 43.

واشتد النزاع بين المهاجرين والأنصار حتى كادت تقع الفتنة، ثم بايعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

أبو بكر الصديق (عبدالله بن أبي قحافة): 11-13هـ (632-634)

بويع أبو بكر الصديق، في سقيفة بني ساعدة، في يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ سنة 11هـ، ثم بويع بيعة العامة في اليوم التالي للبيعة الخاصة وقد اجتمعت عدة أسباب أدت إلى انتخابه فهو صديق الرسول من قبل الإسلام، ومن أوائل الذين دخلوا في الإسلام، وصحب الرسول في هجرته إلى المدينة، فهو ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: 40]، وصلى بالمسلمين بتفويض من الرسول في مرضه الأخير، بالإضافة إلى سنه وخبرته وخدمته للإسلام.

وقد حارب المرتدين والممتنعين من دفع الزكاة، وافتُتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق، وفي عهده جمع القرآن الكريم في مصحف واحدٍ. وتوفي أبو بكر الصديق وجيوش المسلمين تحارب الروم في الْيَرْمُوك[1] من أرض فلسطين بقيادة خالد بن الوليد. وكانت وفاته بالمدينة حتف أنفه[2] سنة ثلاث عشرة بعد أن عهد إلى عمر بن الخطاب واستخلفه على الأمة بعده[3].

عُمَرُ بن الخطاب: 13-23هـ (634-644م):

بويع عمر بن الخطاب بالخلافة سنة ثلاث عشرة للهجرة، وهو ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، وكان صحابيًا جليلًا، وشجاعًا وحازمًا

---

(1) انظر عن موقعة اليرموك: الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص 96 وما بعدها.

(2) وقيل: مات مسموماً، سمّه اليهود في شيء من الطعام (المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص: 356).

(3) محمد بن يزيد (ت 240هـ): تاريخ الخلفاء، ص: 22. ومحمد بن حبيب (ت 245هـ): المحبّر، ص: 12.وابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 27 وما بعدها. ومحمد بن علي ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص: 96، (ونرمز له بابن الطقطقا: الفخري...) والشيخ عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين (بهامش فتوح الشام للواقدي)، ج1، ص: 103. (ونرمز له بالشرقاوي: تحفة الناظرين).

يضرب بعدله المثل، وفي خلافته فُتِحت مصر ودمشق واليرموك والقدس وفارس وبعلبك وحمص، وغيرها[1].

وفي عهده اتسعت الدولة الإسلامية توسعًا كبيرًا بسبب هذه الفتوحات وشيدت المدن الجديدة كالبصرة والكوفة والفسطاط، كما تم في عهده إرساء الأسس الإدارية والتنظيمية في الدولة، ومناقبه عديدة وهي أكثر من أن تحصر[2].

أما وفاته فقد كانت سنة ثلاث وعشرين من الهجرة (23هـ) على أثر طعنة غادرة سددها إليه أبو لؤلؤة الفارسي، غلام المغيرة بن شعبة، وهو قائم يصلي بالمسجد الجامع في المدينة، ودفن في حجرة «عائشة» مع رسول الله ﷺ وأبي بكر[3]. وكان قبل وفاته قد عهد إلى ستة من الصحابة باختيار خليفة للمسلمين من بينم، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص؛ وعقد مجلس الشورى عدة اجتماعات، وطالت المناقشات حتى اتفق على أن يختار عبد الرحمن بن عوف واحدًا منهم بعد أن تنازل عن حقه، وقام باستشارات كثيرة، ثم اختار عثمان[4].

عثمان بن عفان: 23 - 35 هـ (644 - 655م).

بويع عثمان بن عفان سنة 23هـ[5] أو 24هـ[6]، وكان اختياره لجملة أسباب

---

(1) انظر: ابن قتيبة: المعارف، ص: 182- 183. والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 26 وما بعدها. والشرقاوي: تحفة الناظرين، ج1، ص: 105- 106.

(2) العماد الحنبلي: م.ن.، ج1، ص: 33 والدكتور نبيه عاقل: تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ص: 263 وانظر ما بعدها.

(3) انظر: محمد بن يزيد: تاريخ الخلفاء، ص: 22. وابن قتيبة: المعارف، ص: 183. والإمامة والسياسة، ج1، ص: 32 وما بعدها. ومحمد بن حبيب: المحبر، ص: 14، وابن الطقطقا: الفخري، ص: 96.

(4) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 35 وما بعدها. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 96- 97. والدكتور عبد العزيز الدوري: مقدمة في تأريخ صدر الإسلام، ص: 49.

(5) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص: 359. والدكتور نبيه عاقل: المرجع السابق، ص: 270.

(6) محمد بن يزيد: تاريخ الخلفاء، ص: 23. ومحمد بن حبيب: المحبر، ص: 15. والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص: 34 وغيرها.

منها: سابقته في الإسلام، فقد كان أول الناس إسلامًا من الرجال بعد أبي بكر وزيد ابن حارثة[1]، وهاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، وتزوج الابنتين: رقية ثم أم كلثوم، فهو صهر الرسول ﷺ، ولذلك سمي بذي النّورين، وهو الذي جهز جيش العسرة (حملة تبوك) بماله، وحفر بئر رومة وجعله وقفًا على المسلمين[2]، وله فضائل كثيرة. وفي خلافته فتحت إفريقية وقبرص وخراسان وسجستان، وغيرها، وأعاد عثمان جمع القرآن الكريم ورتب سوره على النحو الذي هو في المصاحف اليوم. ثم إن ناسًا من المسلمين نقموا عليه تجاوزه لطريقة صاحبيه أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، من التقلل والكف عن أموال المسلمين، ورموه بالضعف السياسي والإداري، وانتقدوه لمحاباته لبني أمية وإثرائه وإثراء أقربائه على حساب مال المسلمين... ولأن قومه تسلطوا على الدولة، فطلب منه الثائرون أن يعتزل فأبى، فحاصروه في بيته أربعين يومًا، ثم قتلوه سنة 35 (655م)[3].

علي بن أبي طالب 35–40هـ (665–661م):

ثم بويع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بعد مقتل عثمان، وكان علي قد رفض الخلافة في بداية الأمر حين عرضها عليه الثائرون، ثم قبلها حين ألح عليه المهاجرون والأنصار، ولكن نفرًا أبوا أن يبايعوه، ومنهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وقد أكره الثائرون طلحة والزبير عن البيعة، ولم يتركهما علي وشأنهما كما ترك سعدًا... لأنهما كانا يطمحان في الخلافة. وكان أول شيء فكر فيه علي بعد توليه الخلافة هو عزل عمال عثمان وتعيين عماله على الأقاليم، فأرسل إلى البصرة عثمان بن

---

(1) كان أول المصدّقين برسالة النبيّ ﷺ زوجته خديجة، ثم ابن عمّه عليّ بن أبي طالب، وكان صبيًّا في العاشرة من عمره، ثم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر الصدّيق، فعثمان بن عفّان... (انظر: ابن هشام: السيرة، ج1، ص: 240 وما بعدها).

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص: 37. والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 34.

(3) ابن قتيبة: م.ن.، ج1، ص: 48 وما بعدها. والحنبلي: م.ن.، ج1، ص: 40. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 97 وما بعدها.

حنيف، وأرسل أخاه سهل بن حنيف إلى الشام، وأرسل قيس بن سعد إلى مصر. . . أما الكوفة فقد أرسل إليها عمارة بن شهاب، ولكن أهل الكوفة منعوه وبايعوا أبا موسى الأشعري، وأرسل أبو موسى بيعته، وبيعة أهل الكوفة. . . وذهب سهل بن حنيف إلى الشام، فلم يكد يصل إليها حتى لقيته خيل لمعاوية الذي كان عاملًا على الشام منذ عهد عثمان، فأرجعوه من حيث أتى، وتمرد معاوية على علي، وقد قرر أهل الشام أن يثأروا لعثمان واتهموا عليًا بقتله، وجعلوا يلتفون حول قميصه ويبكون.

فأخبر علي أهل المدينة بأمر الشام ومنهم طلحة والزبير، لكن طلحة والزبير طلبا منه أن يخرجا إلى مكة، وبدأ علي يتجهز للإغارة على الشام قبل أن يغيروا عليه، وبينما هو في ذلك جاءته أخبار مقلقة من مكة فغيرت خطته، أن عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير يستعدون للخروج إلى البصرة ونصب الحرب ضدّه، وقد كفاهم معاوية أمر الشام، فتحول علي عن قتال أهل الشام ليرد هؤلاء الثائرين، وكانت حجته عليهم أن طلحة والزبير قد بايعاه، والحق عليهما أن يفيا بعهدهما، أما عائشة فقد أمر الله فيمن أمر من نساء النبي ﷺ أن يقرن في بيوتهن[1].

وقعة الجمل[2] (سنة 36هـ):

وسار علي إلى البصرة سنة ستة وثلاثين من الهجرة، وقد خرج الناس معه من المدينة، وهم كارهون لملاقاة طلحة والزبير وعائشة، وأرسل علي رسولًا إلى الكوفة يستنفر أهلها، وكان أميرها أبو موسى الأشعري راغبًا عن الفتنة كارهًا للقتال، فعزله علي وأرسل واليًا جديدًا، هو (قرظة بن كعب الأنصاري)؛ ونفر

(1) للتوسّع انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 69 وما بعدها. والمسعودي: مروج الذهب، ج2، ص: 419- 420. والحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 42- 43. وعمر فرّوخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص: 120- 121. والدكتور رشيد عبد الله الجميلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ص: 211 وما بعدها. وكتاب طه حسين: الفتنة الكبرى - علي وبنوه- ج2.

(2) سُمّيت بذلك لأن السيّدة عائشة كانت تركب جملاً.

أهل الكوفة لنصرة إمامهم، أما أهل البصرة فقد اختلفوا بين مؤيد لطلحة والزبير وعائشة ومعارض، ومعتزل للفتنة، وكان علي يريد أن يناظر القوم على الحق، ويعرض عليهم الصلح، ولكن دعوته لم تفلح، والتقى الجمعان على تعبئة ذات صباح، واستمر القتال يومًا واحدًا وانتهى بانتصار الإمام علي، وقتل الزبير، وجرح طلحة جُرْحًا لم يلبث أن مات به، ودفن علي القتلى جميعًا من شيعته ومن خصمه في قبر واحد، ومكث مدة في البصرة حتى استتب الأمر، ثم رحل إلى الكوفة بعد أن ردّ عائشة إلى المدينة لتقرّ في بيتها كما أمرها الله - ليستعد لحرب أهل الشام بعد أن صرفته عن حربهم فتنة هؤلاء الذين كان يسميهم الناكثين لأنهم نقضوا البيعة[1].

وقعة صفين[2] (سنة 37هـ):

لما انصرف علي، رضي الله عنه، من وقعة الجمل، أرسل إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة، لكن معاوية رفض أن يبايعه، وطلب منه أن يسلمه قتلة عثمان وإلّا فالحرب بينهما، وهكذا كان أهل الشام يطالبون بالثأر للخليفة المظلوم، وكان أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار يطالبون أهل الشام بالبيعة والطاعة قبل كل شيء، وسار علي بجيشه نحو الشام حتى انتهت طلائعه إلى صفين، ووصل معاوية على رأس جيشه إلى صفين قبل علي، وأنزل جيشه أحسن منزل وأقربه إلى الماء، وحاول علي الصلح لكنه أخفق، فنشبت الحرب بين الطرفين في صفر سنة 37هـ، وبعد عدة أيام من القتال ظهر الضعف في جيش معاوية، وكاد النصر يتم لعلي، لولا الحيلة التي لجأ إليها عمرو بن العاص، فأشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح، والدعاء إلى ما فيها من أمر

---

(1) انظر ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 78 وما بعدها. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 84 وما بعدها. والحنبلي: المصدر السابق، ج1، ص: 42 وما بعدها. والمسعودي: المصدر السابق، ج2، ص: 419- 420. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص: 313 وما بعدها. وكتاب طه حسين: الفتنة الكبرى، ج2، - علي وبنوه.

(2) صِفِّين: موضع بقرب الرقّة على شواطئ الفرات من الجانب الغربي (الحموي: معجم البلدان، مج3، ص: 414. وانظر أيضاً الحنبلي: المصدر السابق، ج1، ص: 44).

الله، ويرى أصحاب علي هذه المصاحف وإذا الأيدي تكف عن الحرب، ويأبى علي وقف القتال، ويخبرهم بأن القوم رفعوا المصاحف كائدين، فانقسم أصحابه، منهم من رأى رأيه وهم الأقلية ومنهم من طلب منه الاستجابة لما يدعى إليه من كتاب الله، فاضطر علي إلى أن يقبل بوقف القتال وبالتحكيم، وهو يعرف أنها مكيدة[1].

التحكيم:

واتفق الطرفان على أن يحكموا رجلين، فاختار معاوية عمرو بن العاص، واختار علي عبدالله بن عباس، ولكن أصحابه أبوا ذلك، واقترحوا أبا موسى الأشعري «وكان شيخًا مغفلًا فلم يستصلحه أمير المؤمنين للتحكيم[2]».

واجتمع الحكمان، واتفقا سرًا على أن يخلعا عليًا ومعاوية من الخلافة ويتركا الأمر شورى بين المسلمين، يولون على أنفسهم من يشاءون، ثم قدّم عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري ليبدأ بإعلان ما اتفق عليه، فتقدم أبو موسى وأخبر الناس أنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين، ثم قام عمرو فقال: إن هذا قد خلع صاحبه، وأنا أخلعه مثله، ولكني أثبت صاحبي معاوية، فأنكر أبو موسى على عمرو ذلك، وعدّه خدعة، وراح الحكمان يتخاصمان أمام الناس، وانصرف أنصار الإمام علي ناقمين على أبي موسى، ومضى أهل الشام فرحين إلى معاوية يسلمون عليه بالخلافة، وكان الظافر معاوية حيث ورط أصحاب علي في الخلاف والفتنة بينهم[3].

---

(1) انظر ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 123 وما بعدها. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 89 وما بعدها. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص: 337 وما بعدها. والمسعودي: =

= مروج الذهب، ج2، ص: 420 وما بعدها. والحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 44 وما بعدها. وانظر أيضاً كتاب طه حسين: الفتنة الكبرى، ج2 - علي وبنوه.

(2) ابن الطقطقا: المصدر السابق، ص: 91.

(3) انظر: ابن قتيبة: م.ن.، ج1، ص: 200 وما بعدها. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 91 وما بعدها. والمسعودي: م.ن.، ج2، ص: 420. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص: 346.

الخوارج[1]:

وبعد ذلك بعث عليّ إلى الخوارج يدعوهم للخروج معه إلى الشام للقتال، لكنهم رفضوا وقالوا له: دعوناك قبل التحكيم فأبيت، والآن فإنك لا تقاتل لله، ولكنك تقاتل لنفسك، «وطلبوا منه أن يقرّ على نفسه بالخطإ بل بالكفر لقبوله التحكيم، ويرجع عمَّا أبرم مع معاوية من شروط، فإن فعل عادوا إليه وقاتلوا معه، فأبى عليّ»[2]. فراحوا يفسدون في الأرض، فكره أن يخرج إلى الشام ويتركهم، فسار بأصحابه إلى النهروان[3] حيث الخوارج، فطلبهم بقتلة عبدالله بن خباب الصحابي الذي قتلوه من قبل، فقالوا: «كلنا هؤلاء القتلة» وهجموا على علي وأصحابه، فأبادهم عليّ عن آخرهم إلا من انسل منهم إلى الكوفة واعتزل الحرب، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين للهجرة[4].

مقتله:

ثم عاد عليّ إلى الكوفة يتهيأ لقتال معاوية ثانية، ولكن الموت لم يمهله، ففي سنة أربعين للهجرة اجتمع بمكة جماعة من الخوارج، فتذاكروا أمر المسلمين، وما هم فيه من الاختلاف والفتنة، واتفقوا أن يريحوا الأمة من هذا الاختلاف، وذلك بقتل هؤلاء الثلاثة الذين هم مصدر هذا الاختلاف: علي،

---

(1) يُسَمّون الخوارج لخروجهم على الإمام عليّ بن أبي طالب حين قَبِل التحكيم فيمن يلي أمر المسلمين، ويسمّون المحكّمة لقولهم: «لا حكم إلا لله»، أو الحرورية نسبة إلى «حَرُوراء» بجوار الكوفة، التي خرجوا إليها أوّل الأمر كما أطلقوا على أنفسهم «الشُّراة» تعبيراً عن شرائهم الآخرة بالدنيا. (للتوسّع انظر المبرّد: الكامل في اللغة والأدب، ج2، ص: 121 وما بعدها. والدكتور محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، ص: 13 وما بعدها. ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي: أيام العرب في الإسلام، ص: 388 وما بعدها).

(2) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 256.

(3) النهروان: ثلاث قرى بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي (الحموي: معجم البلدان، مج5، ص: 324- 325).

(4) ابن قتيبة: م.ن.، ح1، ص: 218 وما بعدها. والمسعودي: م.ن.، ج2، ص: 487 وانظر ما بعدها. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 93- 94.

ومعاوية، وعمرو بن العاص، فاختاروا عبدالرحمن بن ملجم الحميري لقتل علي، والحجاج بن عبدالله التميمي لقتل معاوية، وعمرو بن بكر التميمي لقتل عمرو بن العاص، واتفقوا على ساعة الخروج لصلاة الصبح من اليوم السابع عشر من رمضان سنة 40هـ لتنفيذ خطتهم ولم يصب الهدف إلا عبدالرحمن بن ملجم، وخفق الآخران، وهكذا كانت نهاية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وله من العمر ثلاث وستون سنة[1].

ثم بويع الحسن بن علي بالكوفة بعد مقتل أبيه، ولكنه لم يمكث إلا قليلًا وتصالح مع معاوية، فدخل الكوفة، وارتحل الحسن إلى المدينة، وكانت مدة خلافته خمسة أشهر، من سنة 40-41هـ (661م)[2].

2 - العصر الأموي:

تعريفه:

هو العصر الثالث من عصور التاريخ الأدبي، تولّى الحكم فيه بنو أمية من عام 41 إلى عام 132 للهجرة (661-750م) وتعاقب على السلطة منهم أربعةَ عَشَرَ خليفة، أولهم معاوية وآخرهم مروان بن محمد.

خلفاء بني أمية:

بويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة سنة 41هـ، وسمي هذا العام عام الجماعة لاجتماع المسلمين تحت حكم خليفة واحد، وجعل دمشق عاصمة ملكه بدلاً من المدينة، لأن أنصاره فيها، وقد دام ملكه عشرين حولاً من سنة 41هـ إلى سنة 60هـ (661-680م) وطد الملك في أثنائها لبني أمية، وجعل الملك وراثياً في عقبه، باستخلاف يزيد ابنه من بعده على سلطان المسلمين بعد أن كان يدافع عن الشورى قبل أن يستقيم له الأمر، وقد سخط على هذه السياسة كل من الخوارج والشيعة والصالحين من الناس، وبخاصة في الحجاز وفي العراق، غير

---

(1) ابن قتيبة: م.ن.، ج1، ص: 235- 236. والمسعودي: م.ن.، ج2، ص: 497. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 100- 101- 103. والأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص: 17.

(2) ابن قتيبة: ج1، ص: 240. والمسعودي: ج2، ص: 517. وابن الطقطقا: ص: 103.

أن معاوية استطاع أن يرهب الخوارج، ويسكت الشيعة، وأن يقوم ببعض الفتوح في المشرق والمغرب، وكان عبدالله ابن الزبير من أقوى المعارضين في الحجاز، وقد ظهر عملياً على أثر وفاة معاوية، وكان يبسط نفوذه على الحجاز كلّه وعلى جانب من العراق.

وكان معاوية أعظم ملوك بني أمية وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار، توفي في رجب من سنة 60هـ (680م)[1].

انتقلت الخلافة بعد معاوية إلى ابنه يزيد، ولم يكن داهية كأبيه ولم تكن سيرته مرضية، فقد كان ينزع إلى اللهو والقنص والخمر والنساء[2].

وكان الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير قد امتنعا عن مبايعته، ولم يتركهما يزيد وشأنهما، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يشدد عليهما في أخذ البيعة، ففرا إلى مكة، ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته، فخرج من مكة متوجهاً إلى الكوفة، وأخذ معه آل بيته، وفيهم النساء والصبيان، فلما بلغ كربلاء لقيه عمرو بن سعد بن أبي وقاص بجيش جرار وقاتله، بينما لم يكن مع الحسين إلا حوالي تسعين من أقاربه[3]، فقاتل الحسين وأصحابه قتال الأبطال حتى استشهدوا جميعاً، وكان ذلك في يوم عاشوراء (10 من المحرم سنة 61هـ[4]).

ثم كانت في أيامه وقعة الحرة، وذلك أن أهل المدينة كرهوا خلافة يزيد

---

(1) انظر محمد بن يزيد: تاريخ الخفاء، ص: 27. وابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 240 وما بعدها. والمسعودي: مروج الذهب، ج3، ص: 1 وما بعدها. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 103 وما بعدها. ومحمد بن حبيب: المحبر، ص: 19- 20- 21. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص: 362 وما بعدها. والدكتور عبد الله الجميلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ص: 220 وما بعدها. والدكتور عمر فرّوخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص: 125 وما بعدها.

(2) ابن الطقطقا: الفخري... ص: 113. والمسعودي: مروج الذهب، ج3، ص: 79- 80.

(3) انظر: ابن قتيبة: م.ن.، ج2، ص: 5- 6. وابن عبد ربه: م.ن.، ج4، ص: 379.

(4) انظر: ابن قتيبة: م.ن.، ج2، ص: 3 وما بعدها. والمسعودي: م.ن.، ج3، ص: 63 وما بعدها. وابن الطقطقا: المصدر السابق، ص: 113 وما بعدها.

فخلعوه، وبايعوا عبدالله بن الزبير، وأخرجوا بني أمية من المدينة، وعزموا على قتال يزيد؛ فأرسل يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري لإخضاعهم ووصلت قواته المدينة فنزلت في مكان يدعى الحرة شرق المدينة، سنة 63هـ، ونشب القتال، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس، ثم تمكن مسلم بن عقبة من دخول المدينة، وأباحها ثلاثاً، فقتل ونهب وسبى.

ثم سار إلى مكة لقتال عبدالله بن الزبير، ولكنه مات في الطريق، فتولى قيادة الجيش الحصين بن النّمَيْر، فمضى بالجيش إلى مكة، ووصلها في المحرم سنة 64هـ فحاصرها ورماها بالمنجنيق، وأحرق أستار الكعبة، ثم وصل خبر وفاة يزيد في ربيع الأول سنة 64هـ، فعاد إلى دمشق[1].

ولما مات يزيد آلت الخلافة إلى ولده معاوية، وكان صبياً ضعيفاً، ملك أربعين يوماً، وقيل ثلاثة أشهر ثم خشي الفتنة فاعتزل الخلافة وكان مريضاً فلم يلبث أن توفي وقيل إنه مات مسموماً، وترك الأمر بعده فوضى[2].

واختلف الناس بعد موت معاوية بن يزيد، فيمن يولون الخلافة ثم بايعوا مروان بن الحكم شيخ بني أمية آنذاك في شهر ذي الحجة من سنة أربع وستين (64هـ)، وانتقل الملك من بيت سفيان إلى بيت مروان، لكن بعض الولاة لم يرضوا بمروان فاستبدُّوا بما تحت أيديهم من البلدان، وأعلنوا الطاعة لابن الزبير الذي بويع في الحجاز ومصر والعراق وخراسان، كما بايعه القيسية بزعامة الضحاك بن قيس عامل مدينة دمشق الذي جمع جيشاً جراراً من القيسية وخرج لقتال مروان حين علم بتوليته، فلقيه في مرج راهط على مقربة من دمشق، في آخر سنة 64 للهجرة، وكان معظم جيش مروان من اليمانية فانتصر مروان، وقتل الضحاك، وهزم جيشه، ثم سار إلى مصر فاستولى عليها، وولى عليها ابنه

---

(1) ابن قتيبة: م.ن.. ج2، ص: 13- 15. م.ن.، السابق، ج3، ص: 84- 85. وابن الطقطقا: م.ن.، ص: 117.

(2) ابن قتيبة: م.ن.، ج2، ص: 15- 16. والمسعودي: م.ن.، ج3، ص: 87 وما بعدها. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 118.

عبدالعزيز في أوائل سنة 65هـ، وعاد إلى دمشق، وتوفي فيها بالطاعون وقيل: قتلته زوجته أم خالد بن يزيد، في شهر رمضان من سنة خمس وستين للهجرة 65هـ) بعد أن حكم حوالي عشرة أشهر[1].

ثم خلفه ابنه عبدالملك، وقد دام ملكه واحداً وعشرين حولاً من سنة 65هـ إلى سنة 86هـ (685-705م). وكان داهية ضبط أمور الخلافة، وكان قوي الهيبة، جباراً على معانديه، «ويقال له: أبو الأملاك، وذلك أنه وُلِّيَ الخلافة أربعة من ولده: الوليد وسليمان ويزيد وهشام[2]». وقد سمحت له مدة ملكه الطويلة أن يؤمن لسياسته نوعاً من الاستقرار، فولّى عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي الحجاز، ليقضي به على ابن الزبير، فحاصر الحجاج مكة، ورمى الكعبة بالمنجنيق، وقتل عبد الله بن الزبير سنة 73هـ[3]، ونهض عبد الملك قبل ذلك بنفسه لقتال مصعب بن الزبير بالعراق، فقتله سنة 72هـ[4]، ثم ندب الحجاج لقتال الخوارج في العراق وفارس، فقاتلهم هو والمهلب ابن أبي صُفرة حتى أضعفهم[5]، وبالرغم من هذه الاضطرابات الداخلية فإن الغزوات لم تنقطع، فقد أرسل عبد الملك الجيوش إلى المشرق، فوسع الفتوح في خرسان وبلاد الترك وفي السِّند، وكذلك اتسعت فتوح العرب في المغرب، وكانت وفاته في سنة ست وثمانين للهجرة (86هـ)[6].

وتداول الملك من بعده أبناؤه وأحفاده، هم: الوليد بن عبد الملك (86-96هـ) الذي حكم عشر سنوات أتم في خلالها فتح المغرب والأندلس، وسليمان

---

(1) ابن قتيبة: م.ن.، ج2، ص: 43. وابن الطقطقا: م.ن.، ص: 119- 121. وعمر فرّوخ: المرجع السابق، ص: 142.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ح4، ص: 398- 399.

(3) ابن قتيبة: م.ن.، ج2، ص: 43. والمسعودي: م.ن.، ج3، ص: 139.

(4) المسعودي: م.ن.، ج3، ص: 130.

(5) انظر المسعودي: م.ن.، ج3، ص: 154- 170- 171.

(6) محمد بن يزيد: تاريخ الخلفاء ، ص: 30. ومحمد بن حبيب: المحبر، ص: 25. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 126.

ابن عبد الملك (96-99هـ) وعمر بن عبد العزيز (99-101هـ)، ويزيد بن عبد الملك (101-105هـ) وهشام بن عبد الملك (105-125هـ) والوليد بن يزيد بن عبد الملك (125-126هـ) ويزيد بن الوليد بن عبد الملك (رجب 126 - ذي الحجة 126هـ) وأخوه إبراهيم بن الوليد (126-127هـ) ومروان بن محمد (127-132هـ) الذي كان آخر خلفاء بني أمية في المشرق، وقد دام ملكهم نحو تسعين سنة استطاع بعدها بنو العباس قهرهم والاستيلاء على الحكم ومبايعة أبي العباس السفاح[1].

مشاركة المرأة في الأحداث السياسية والحربية

وقد شاركت المرأة في هذه الأحداث السياسية والحربية، مشاركة فعالة ولعبت دوراً هاماً في مسألة الخلافة، فاشتهر منهن غير واحدة، نذكر منهن: فاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ، فقد كانت ذات نفوذ واسع وتأثير قوي في سياسة الدولة الإسلامية، بعد وفاة أبيها، فلم تبايع أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، وطالبت بإسناد الخلافة إلى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، زوجها وابن عم رسول الله، ولم يبايع علي أيضاً حتى توفيت فاطمة[2].

والسيدة عائشة أم المؤمنين، فقد كان لها عقل راجح، وكانت مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوي، حتى كان الأئمة يقولون عنها: حدَّثتني الصديقة بنت الصديق البريئة، وكان لها أثر بارز في الأحداث السياسية التي وقعت بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ورأست حزب المطالبين بدمه، وحرّضت الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ضد علي، واشتركت بنفسها في وقعة الجمل[3]. . .

---

(1) كان بعض خلفاء بني أميّة ضعافاً جداً أمثال معاوية بن يزيد والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد وغيرهم. وللتوسّع في أخبار خلفاء بني أميّة انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ج2، والمسعودي: مروج الذهب، ج3. وابن الطقطقا: الفخري. (انظر فهارسها).

(2) انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 18 وما بعدها. وابن العربي: العواصم من القواصم، ص: 37- 38 و48 وما بعدها.

(3) انظر ابن قتيبة: المصدر نفسه، ج1، ص: 78 وما بعدها. والدينوري: الأخبار الطوال، =

ونائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان بن عفان فقد كان لها شأن في الأحداث السياسية في عهد عثمان وبعده، وكانت خطيبة من ذوات الرأي والشجاعة، والعقل والأدب، أقامت مع زوجها في المدينة تناصره، وكانت له محبة وعليه حدبة، حتى أنه لما قُتل اتقت سَيفَ ضاربه بيدها فقطع أناملها، وكتبت إلى معاوية - وهو في الشام - تصف له مقتل عثمان، وأرسلت إليه قميصه مضرجاً بالدم ممزقاً، وبعض أصابعها المقطوعة، وأوحت إليه أن يعلق كل ذلك في المسجد الجامع بدمشق، وأن يقرأ على المجتمعين كتابها.

واجتمع لسماع كتابها خمسون ألف شيخ من شيوخ الشام يصيحون ويعجون بالبكاء تحت قميص عثمان، وأصابع نائلة، ويتقاسمون فيما بينهم ألا يمسوا غسلاً حتى يقتلوا علياً أو تفنى أرواحهم[1].

المناصرات لعلي:

وبرغم خصومة تينيك المرأتين لعلي، كرم الله وجهه، فإن عدة نساء تشيّعْنَ له، وناصرنه وأعنَّه نذكر منهن: الزرقاء بنت عدي[2]، وبكارة الهلالية[3]، وسودة بنت عمارة[4]، وأم سنان بنت خيثمة[5]، وآمنة بنت الشريد[6]، وعكرشة بنت

= ص: 14 وما بعدها. والطبري: تاريخ الأمم والملوك، في أماكن متعددة - انظر فهرس الأعلام. وابن الطقطقا: الفخري، ص: 48 وما بعدها.

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص: 300- 301، وانظر كتاب نائلة إلى معاوية كاملاً هناك. وانظر أيضاً عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج2، ص: 117 وما بعدها.

(2) الزرقاء بينت عدي الهمدانية: خطيبة من ذوات الشجاعة، من أهل الكوفة شهدت مع قومها واقعة «صفّين» في صف علي، وخطبت مرّات تحرّض الناس على قتال معاوية. (الزركلي: الأعلام، مج3، ص: 44 وانظر أخبارها بالتفصيل في العباس بن بكار الضبي (129- 222هـ): أخبار الوافدات على معاوية، ص: 63 وما بعدها، وطيفور: بلاغات النساء، ص: 50 وما بعدها).

(3) سنفصّل الحديث عنها في الفصل الثالث.

(4) سنفصّل الحديث عنها في الفصل الثالث.

(5) سنفصّل الحديث عنها في الفصل الثالث.

(6) انظر خبرها مع معاوية في العباس بن بكار الضبّي: م. ن.، ص: 52 وما بعدها. وطيفور: م. ن.، ص: 87 وما بعدها.

الأطرش بن رواحة[1]، وأم الخير بنت الحريش[2] وهند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية[3]، والسيدة زينب بنت علي[4]، وغيرهن، وكلهن شاركن في الحياة السياسية، وكن من المتعصبات أو المناصرات للإمام علي كرم الله وجهه، ولما تبدلت الأيام وصار معاوية أميراً للمؤمنين دعاهن إلى دمشق فوفدن عليه، وواجهنه بجرأة نادرة، وصارحنه بحبهن لعلي في حياته، ووفائهن له بعد موته[5].

اِمرأتان من غلاة الشيعة:

وكان في الكوفة بيتان لامرأتين يأوي إليهما غلاة الشيعة، فيتسامرون ويتآمرون، وهاتان المرأتان هما هند بنت المتكلفة الناعطية، وليلى بنت قمامة المدنية، وكانت ليلى تنفق بسخاء من مالها في سبيل نشر دعوتها[6].

نساء الخوارج:

أما نساء الخوارج فقد اشتهرن بالشجاعة والثبات ورباطة الجأش جرت بذكرهن الأمثال، منهن: الشجاء الخارجية، فقد ذكرها الجاحظ عن أبان بن عثمان، قال: «سمعت أبا بلال[7] في جنازة وهو يقول: كل مِيتةٍ ظَنون[8] إلا ميتة الشجاء. قالوا: وما ميتة الشجاء؟ قال: أخذها زياد فقطع يديها ورجليها، فقيل لها: كيف ترين يا شجاء؟ فقالت: قد شغلني هول المطلع عن بَرْدِ حديدكم هذا»[9].

---

(1) انظر خبرها في الضبّي: م. ن.، ص 37 وما بعدها. وطيفور: م. ن.، ص: 74 وما بعدها.

(2) انظر خبرها في الضبّي: م. ن.، ص 27 وما بعدها. وطيفور: م. ن.، ص: 55 وما بعدها.

(3) سنفصّل الحديث عنها في الفصل الثالث.

(4) انظر خبرها في زينب فواز: الدُّرُّ المنثور ص: 233- 234.

(5) انظر خبرها بالتفصيل في الضبّي: أخبار الوافدات... على معاوية.

(6) عبد الله عفيفي: المرأة في جاهليتها وإسلامها، ج2، ص: 121.

(7) هو أبو بلال مرداس بن أدية، أحد الخوارج، خرج في أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عُبَيْد الله بن زياد، فبعث إليه زُرعة بن مسلم العامري فهزم زُرعة، ثم وجّه إليه عبّاد بن علقمة، فهزمه وقتله سنة 61هـ (الجاحظ: الحيوان، ج5، ص: 25 «هامش2»).

(8) الظنون: المتهم وكل ما لا يوثق به.

(9) الجاحظ: م. ن.، ج5، ص: 588- 589 وانظر خبرها مع زياد في أبي علي القالي: ذيل الآمالي والنوادر، ص: 174. وفي لسان العرب «وفي حديث عمر بن الخطاب أنه قال عند =

والبلجاء وهي امرأة خارجية من بني تميم، كانت تثير الخوارج في العراق، وتؤلبهم على عبيد الله بن زياد، فنذر بها. فسمع شيخ الخوارج مرداس بن حُدَيْرٍ أبو بلال الخبر، فمضى إليها، فقال لها: إن الله وسع على المؤمنين في التَّقِيَّةِ فاستتري فإن هذا المسرف على نفسه، الجبار العنيد قد ذكرك، فقالت: إن يأخذني فهو أشقى بي، أما أنا فما أحب أن يُعنتَ إنسان بسببي. فوجه إليها عبيد الله بن زياد، فأتى بها، فقطع يديها ورجليها، ورمى بها في السوق، فمر أبو بلال والناس مجتمعون، فقال: ما هذا؟ فقالوا: البلجاء، فعرج إليها، فنظر، ثم عضّ على لحيته، وقال لنفسه: لهذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك يا مرداس[1].

وحمادة الصفرية[2].

غزالة الخارجية ترعب الحجاج:

أما غزالة الشيبانية، وهي زوج شبيب بن يزيد الخارجي، وكانت وزوجها يليان قيادة الخوارج، وكان الحجاج بن يوسف المشهور بظلمه، وبسفك الدماء، يستمع خبرها فيمتلئ قلبه رعباً، وقد هرب منها في بعض الوقائع، فعيره عمران ابن حطان[3] حينما لجَّ في طلبه بقوله:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... رَبْدَاءُ، تَجْفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هَلَّا بَرَزْتَ إلى غَزَالَةَ في الْوَغَى ... بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ

= موته: لو أنّ لي ما في الأرض جميعاً لافتديت به من هول المطلع يريد به موقف يوم القيامة، أو ما يُشرف عليه من أمر الآخرة عقب الموت فشبّهه بالمطلع الذي يشرف عليه من مكانٍ عالٍ». والبرد: الموت، برد يبرد برداً: مات.

(1) انظر: المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج2، ص: 181- 182،.

(2) الجاحظ: م. ن.، ج5، ص: 590. والصُّفرية بالضم ويكسر: قوم من الحرورية الخوارج.

(3) عمران بن حطان: هو أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن علي بن بكر بن وائل، وقد كان رأس العقد من الصفرية، وخطيبهم وشاعرهم وكان قبل تشريه مولعاً بالعلم والحديث، وقد أدرك جماعة من الصحابة فروى عنهم، ثم تزوّج ابنة عمه حمزة ليردها عن مذهب الخوارج فذهبت به إلى رأيهم. (المبرّد: م. ن.، ج2، ص: 124. والأصبهاني: م. ن.، مج18، ص: 50 وما بعدها).

صَدَعَتْ غَزَالَةُ قَلْبَهُ بِفَوَارِسٍ   تَرَكَتْ مَدَابِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ[1]

وبلغ من جسارتها وقوة قلبها أنها أقسمت لتصلِّيَنَّ في مسجد الكوفة ركعتين، تقرأ في الأولى سورة البقرة، وفي الثانية سورة آل عمران، والكوفة يومئذ معقل الحجاج، ودار إمرته، وقد برت بقسمها، ولما علم الحجاج بها تحصن في قصره واستوثق من رِتاج بابه[2].

وكانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال، فتلتهم جيوش الحجاج التهاماً، حتى أصبحت مضرب الأمثال ترتجف لاسمها طباق العراق، وفي ذلك يقول أيمن بن حريم[3] من أبيات:

وَخَيْلُ غَزَالَةَ تَسْبِي النِّسَاءَ   وَتَحْوِي النِّهَابَ، وَتَحْوِي النَّبِيطا[4]

وقد قُتِلت غزالة خدعة في موقعة الكوفة بين زوجها شبيب والحجاج سنة 77هـ[5]. ومن بعدها قُوِّض جند شبيب وعفا أثره[6].

ومن نساء الخوارج اللائي اشتهرن بالشجاعة أيضاً أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة[7]، فقد كانت من أشجع الناس، وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بدينهم

---

(1) الأصبهاني: م.ن. مج 18، ص: 57. والشعر ينسب أيضاً لأسامة بن سفيان البجلي (انظر: البحتري، الحماسة، ص: 248).

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج2، ص: 454- 455.

(3) أيمن بن جُرَيْم بن فاتك، من بني أسد، من شعراء الدولة الأموية، ولأبيه صحبة برسول الله ورواية عنه، والشعر المذكور من أبيات قالها يستحثّ ويستثير حمية أهل العراق لقتال غزالة. توفي نحو ثمانين للهجرة (انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 368- 369. والأصبهاني: الأغاني: مج20، ص: 269 وما بعدها).

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج20، ص: 277. وانظر: الجاحظ: الحيوان، ج6، ص: 318. وفيه: خيل غزالة تنتابهم. تجوب العراق وتجبي النبيطا. والنبيط: جيل كانوا يسكنون بطائح العراق.

(5) الزركلي: الأعلام، مج3، ص: 118 وانظر أخبار زوجها شبيب في الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج3، ص: 559 وما بعدها. واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص: 274- 275. وابن خلكان: وفيات الأعيان، مج2، ص: 554- 555.

(6) عبد الله عفيفي: المرأة العربية... ج2، ص: 101.

(7) قطري بن الفجاءة: أحد زعماء الخوارج، وشعرائها البارزين، وممن سمّي منهم بأمير المؤمنين، =

تمسكاً، وأتمهم ذكاء، ومضاء، ونفاذ رأي، وقوة بيان، ومنها استمد زوجها قطري بن الفجاءة الجليل من رأيه والشديد من قوته[1]، ومن قوله فيها:

لَعَمْرُكَ إنِّي فِي الحَياةِ لَزَاهِدٌ	وَفِي العيشِ مَا لَمْ ألقَ أمَّ حكيمِ
مِنَ الخَفِرَاتِ البِيضِ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا	شِفَاءً لِذِي بَثٍّ وَلَا لِسقِيمِ
لَعَمْرُكَ إنِّي يَوْمَ أَلْطِمُ وَجْهَهَا	عَلَى نائبات الدّهرِ جِدُّ لَئِيمِ
وَلَوْ شَهِدَتْنِي يَوْمَ دُولَابَ أَبْصَرتْ	طِعَانَ فَتًى فِي الحَرْبِ غير ذَمِيمِ

حتى يقول:

فَلَوْ شِهِدَتْنَا يوْمَ ذاكَ وخيْلُنَا	تُبِيحُ مِنَ الكُفَّارِ كُلَّ حَرِيمِ
رَأَتْ فِتْيةً باعُوا الإِلٰهَ نُفُوسَهُمْ	بِجَنَّاتِ عَدْنٍ عِنْدَهُ وَنَعِيمِ[2]

«وهذا من أصدق الشعر العربي قاطبة من حيث العاطفة وفيض النفس العاشقة البطلة[3]».

شجاعة أسماء بنت أبي بكر:

ومن اللائي اشتهرن بالشجاعة وسداد الرأي من غير نساء الخوارج، أسماء بنت أبي بكر الصديق[4]، فقد شهدت وقعة اليرموك مع زوجها الزبير وأبلت فيها بلاء حسناً، وأما عزة نفسها وشجاعتها النادرة فنلمسها في جوابها لابنها عبدالله ابن الزبير لما يئس من الفوز بعد أن حاصره الجيش الأموي في الكعبة وجاء

= وكان رجلاً شجاعاً مقداماً كثير الحروب والوقائع، وكان يكنّى في السلم أبا محمد، وفي الحرب أبا نعامة، وقد قتل سنة 78هـ (انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج4، ص: 93 وما بعدها. والجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص: 512...).

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج6، ص: 141. وعبد الله عفيفي: المرأة العربية، ج2، ص: 123.

(2) المبرد: الكامل... ج2، ص: 217- 218. وانظر القصيدة كاملة هناك. وانظر أيضاً: الأصبهاني: م. ن.، مج6، ص: 139- 140. والدكتور إحسان عباس: شعر الخوارج، ص: 106- 107.

(3) المبرد: م. ن.، ج2، ص: 217.

(4) سنفصّل الحديث عنها في الفصل الثالث.

يستفتيها، فحرضته على استقبال الموت بشرف وهذا دليل على حزمها[1].

هؤلاء هن بعض بطلات صدر الإسلام والعصر الأموي اللواتي اشتركن في الأحداث السياسية والحربية، واللائي نقل إلينا الرواة أخبارهن.

ثانياً: الحياة الاجتماعية

الإسلام يغير حياة العرب الاجتماعية

كان العرب في الجاهلية يعيشون قبائل متناحرة ومتعادية، لا تردعهم أحكام، ولا تزجرهم قوانين، فلما جاء الإسلام غير حياتهم، وأحدث انقلاباً كبيراً في نظمهم الاجتماعية والثقافية والسياسية، فمحا العادات القبيحة التي تأصلت في نفوسهم كالعصبية القبلية، وعبادة الأصنام، والربا، ووأد البنات، وشرب الخمر، وغيرها من الموبقات، وأكد المساواة بين المسلمين بقطع النظر عن أي مقياس قبلي أو بشري كاللون والجنس والعنصر، وجعل أساس التفاضل التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ **[الحُجرَات: الآية 13]**، وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وفخرها بالآباء، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى[2]» وأخذ الإسلام واجب الثأر من الأقارب، وجعله على عاتق الأمة، أي أنه حوّله من ثأر إلى عقوبة، وقد ترك لأقارب القتيل حرية الاختيار بين قتل القاتل أو قبول الدية[3].

وجاء الإسلام والاسترقاق شائع في مختلف المجتمعات، فحث على حسن معاملة العبيد ورفع الظلم عنهم، وتحريرهم، وضيق مجال الاسترقاق، فقصره على أسرى الحرب من غير المسلمين[4].

---

(1) انظر الخبر بالتفصيل في الفصل الثالث.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص: 229 (تحقيق فوزي عطوي)، بيروت، 1968. والدكتور شوقي ضيف: التطوّر والتجديد في الشعر الأموي: ص: 110.

(3) الدكتور عبد الله الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص: 38.

(4) لبيب عبد السّتار: الحضارات، ص: 264. وانظر: الدكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - ص: 23. وجرجي زيدان: تاريخ التمدّن الإسلامي، ج4، ص: 54 وما بعدها.

وكذلك حاول القضاء على الفروق الاجتماعية، ففرض الزكاة وجعلها حقاً للفقراء في أموال الأغنياء، ودعا إلى الصدقة وإنفاق المال على المحتاجين ووعد المنفقين خيراً.

وحرص الإسلام على تهذيب الأخلاق، فنصح بالصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة الظلم...

طبقات المجتمع في هذا العصر:

كان المجتمع في صدر الإسلام والعصر الأموي يتألف من طبقات اجتماعية مختلفة لكلٍّ منها أوضاعها الخاصة التي تغيرت مع تبدل الأحوال السياسية فمنها:

1 - طبقة الخلفاء والأمراء والقضاة، وكانوا يشغلون المناصب الكبرى في الدولة.

2 - طبقة العلماء والأدباء، وكان لهم نفوذ أدبي واسع، ويتمتعون بمنزلة اجتماعية مرموقة.

3 - العامة، وهم أكثرية السكان، يتعاطون الصناعة والتجارة، والفلاحة، والرعاية... وغيرها.

4 - الخدم، وأغلبيتهم من الرقيق.

فئات المجتمع في هذه الفترة:

وكان المجتمع، من جهة أخرى، يتألف من ثلاث فئات:

1 - المسلمون العرب.

2 - المسلمون من غير العرب، وقد عرفوا بالموالي.

3 - أهل الذمة، وهم النَّصارى واليهود الذين احتفظوا بدينهم.

وقد تعصب الأمويون لعروبتهم أكثر من تعصبهم لدينهم، وهذا التعصب هو الذي جعل العصبيات تستيقظ من جديد، وجعل الموالي يحقدون على العرب نتيجة لذلك[1].

---

(1) لبيب عبد السّتار: الحضارات، ص: 262- 263. وأحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 79 وانظر ما بعدها.

مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية:

وأنصف الإسلام المرأة، فانتشلها من الهوة المظلمة التي كانت تتردى فيها في الجاهلية، وحدد لها حقوقها وواجباتها، وشاركت في الحياة الاجتماعية والثقافية مشاركة فعالة في صدر الإسلام والعصر الأموي، فقد جلست إلى الرسول متحدثةً مستفسرة عن حقوقها، فذكرت المصادر أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه، فقالت:

بأبي وأمي أنت يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى النساء والرجال كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفلا نشارككم في هذا الأجر والخير؟. فالتفت الرسول ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي ﷺ إليها فقال: افهمي أيتها المرأة واعلمي من خلفك من النساء، أن حسن تبتل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله. فانصرفت أسماء وهي تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ما قاله رسول الله ﷺ، ففرحن وآمن جميعهن(1).

وكذلك كانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير، وهي معاصرة لسكينة بنت الحسين في المدينة، وتسميان عقيلتي قريش(2)، فقد كانت لعائشة عقل راجح، ورأي صائب، وعلم واسع بأخبار العرب وأيامها وبمطالع الكواكب

---

(1) زينب فواز: الدُّرُّ المنثور، ص: 36. وعبد الله عفيفي: المرأة في جاهليتها وإسلامها، ج2، ص: 36. وعمر رضا كحالة: أعلام النساء، ج1، ص: 66- 67. وانظر عنها بالتفصيل ابن عساكر: تاريخ دمشق - تراجم النساء - ص: 33 وما بعدها.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص: 412.

وأحوالها، وكانت مع جمالها لا تستر وجهها من الرجال، فعاتبها زوجها مصعب في ذلك «فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم... ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد»[1]. وكانت تجلس في قصرها وتناضل بين الرماة، وتستنشد الشعراء وتجيزهم الجوائز الكبيرة[2].

وكما اشتهرت سكينة وعائشة بين أهل الحضر، فقد اشتهرت بين أهل الوبر غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها على غير ريبة، فإذا توسمت في أحدهم انحرافاً منعته واحتجبت عنه، كما اتفق لأبي دهبل الجمحي[3] مع عمرة الجمحية، وكانت امرأة جَزْلَةً يجتمع الرجال عندها لإنشاد الشعر والمحادثة، وكان أبو دَهْبل لا يفارق مجلسها وكانت تحبه، وتتقدم إليه في حفظ ما بينهما وكتمانه، فجاء نسوة كن يتحدثن إليها، فذكرن لها شيئاً عن أبي دَهْبل وقلن: إنه يقول إنك عاشقة له، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال، وضربت حجاباً بينها وبينهم[4]، وكذلك كانت زينب بنت الطثرية[5] بين أهل الوبر كسكينة بين أهل الحضر[6].

ثالثاً: الحياة العلمية والأدبية:

1 – الحياة العلمية:

الإسلام دين علم وعقل:

كان ظهور الإسلام حدثاً هاماً في حياة العرب العلمية والأدبية فهز العقل

---

(1) الأصفهاني: الأغاني، مج11، ص: 179- 180.

(2) الأصفهاني: م. ن.، مج11، ص: 179- 180.

(3) أبو دهبل الجمحي: هو وهب بن زمعة بن أسد، من أشراف بني جُمح، من قريش، أحد الشعراء العشاق المشهورين في صدر الإسلام والعصر الأموي، توفي سنة 63هـ (انظر: الأصفهاني: م. ن.، مج7، ص: 112 وما بعدها. وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 413- 414. والزركلي: الأعلام، مج8، ص: 125).

(4) الأصبهاني: المصدر السابق: مج7، ص: 132- 133.

(5) سنفصِّل الحديث عنها في الفصل الرابع.

(6) محمد بيهم: المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية، ص: 80.

العربي هزة قوية حركته بعد طول خمود، ولفتته إلى كثير مما لم يكن يَلْتَفِتُ إليه من قبل، لقد كانت تعاليم الإسلام ثورة على الحياة العربية الجاهلية بعامة، ففي مجال العقيدة قضى الإسلام على الوثنية، ودعا إلى عبادة الإلٰه الواحد الذي لا شريك له، ولفت عقول الناس إلى أن هذا المعبود هو إلٰه كل شيء، رب العالمين وها هو القرآن الكريم يتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوحدانيته: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91] وقال جلَّ ذكره: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 22].

وفي مجال الفكر رفض الإسلام الشعوذة والخرافة والسحر والكهانة التي كانت متفشية في الجاهلية، ودعا الناس إلى إعمال الفكر والعقل، والتدبير والتأمل في ملكوت السموات والأرض، فإن من يمعن النظر في هذه الآيات الكريمة يقر بأنه لم يخلق عبثاً وأن هناك صانعاً سوَّى كلَّ شيء وقدره، يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 190 ـ 191]. كما نبه الأذهان إلى قدرة الخالق على البعث ومنح الحياة الآخرة في موضوعية عقلية ويسر أداء حين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: 5 ـ 6].

وهكذا نجد أن القرآن الكريم قد اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى، ووحدانيته وقدرته[1].

---

(1) في القرآن الكريم آيات كثيرة تحثّ على النظر والتأمّل، وتُعلي من شأن التفكير، والعقل، وتتّخذ =

وكان أول ما نزل على الرسول ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1 ـ 4]، وكثيراً ما ترد في القرآن الكريم الإشادة بالعلم والعلماء في مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114] وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية 9] .

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7]. وقال جل شأنه: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [البَقَرَة: الآية 247] وغير ذلك من الآيات الكريمة.

وقد رويت عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة تحث على طلب العلم من مثل قوله: «اطلبوا العلم ولو في الصّينِ فَإنَّ طَلَبَ العِلْمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مسلم[1]»، وقوله: «لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل[2]»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب، ولمداد جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله[3]». وكان عليه الصلاة والسلام يرسل العلماء والأمراء والقضاة إلى مختلف الأصقاع ليُفقِّهوا الناس في الدين، وقد جعل لهم حق الاجتهاد بالرأي حين لا يجدون نصاً في القرآن أو السنة، روى الرواة عن معاذ بن جبل[4] أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى

= من ذلك منهجاً عقلياً علميًّا للاستدلال على وجود الخالق سبحانه وتعالى (انظر الدكتور أحمد محمد الحوفي: القرآن والتفكير، ص: 38 وما بعدها. وشكيب أرسلان: لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم، ص: 131 وما بعدها).

(1) رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس. اقتبسه شكيب أرسلان في كتابه: لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم، ص: 132 و136.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ص: 209.

(3) ابن عبد ربه: م. ن.، والصفحة نفسها.

(4) هو معاذ بن جبل بن عمرو (أبو عبد الرحمن)، الأنصاري الخزرجي المدني، صحابي جليل، وهو أحد الستّة الذين جمعوا القرآن على عهد النبيّ ﷺ. شهد العقبة وبدراً وأُحُد والخندق، وغيرها، سمع النبيّ ﷺ وروى عنه أنس بن مالك وغيره. له مائة وتسعة وخمسون حديثاً (الزركلي: الأعلام، مج7، ص: 258. والمازري: المعلم بفوائد مسلم،ص: 553 ـ 554).

اليمن، قاضياً ومرشداً، قال له: كيف تصنع إن عرض عليك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله قال: فإن لم يكنْ في كتابِ الله؟ قال: فَبِسُنّةِ رسول الله ﷺ، قال: فإنْ لم يَكُنْ في سُنَّةِ رسول الله؟ قال: أجتَهِدُ رَأْيِي لا آلو، قال: فضرب بيده في صدري، وقال: الحمد لله الذي وفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يرضاه رسولُ الله[1].

ويطول بنا الحديث إذا تتبعنا موقف الإسلام من إكبار العلم والمعرفة والتفكير، فحسبنا هذه الإشارات الموجزة شاهداً على أن الإسلام دين علم وعقل وحكمة[2].

الحركات العلمية:

1 - الحركة الدينية:

وكان من آثار ذلك أن انبثقت في هذا العصر منذ صدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية حركات علمية كثيرة، «على رأسها الحركة الدينية التي عنيت بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف، كما عنيت بوضع قواعد الفقه الإسلامي الذي لم يقف به أصحابه عند أمور العبادات الدينية، بل وسّعوه حتى شمل كل فروع الحياة المدنية والسياسية. وكانت الأصول التي تستمد منها قواعد هذا الفقه هي القرآن والحديث وإجماع المسلمين ثم القياس[3]».

2 - أطوار الحركة الدينية:

مرت الحركة الدينية منذ نشأتها بأربعة أطوار:

أ - طور النشأة: أو طور التشريع في حياة الرسول ﷺ، وكان يعتمد على الوحي الذي بلّغه محمد النبي ﷺ للناس.

ب - طور الشباب: وبدأ مع عصر الخلفاء الراشدين، وقد قضت ضرورات

---

(1) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، ج2، ص: 55. اقتبسه الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - ص: 17- 18.

(2) للتوسّع انظر الدكتور توفيق الطويل: الحضارة العربية والحضارة الأوروبية، ص: 87 وما بعدها.

(3) الدكتور شوقي ضيف: التطوّر والتجديد في الشعر الأموي، ص: 71. وانظر أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 154 وما بعدها.

كثيرة باللجوء إلى الاجتهاد من قبل الصحابة الذين عايشوا الرسول ﷺ، ثم واجهتهم قضايا يحتاج إصدار الحكم فيها إلى اجتهاد لعدم وجود نصوص صريحة بشأنها في كتاب الله وسنة رسوله.

ج - طور النضج والكمال: وبدأ في مطلع القرن الثاني للهجرة، ودام إلى منتصف القرن الرابع وفيه ظهرت المذاهب الفقهية الأربعة: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، ويتميز هذا الطور بتدوين السنة والفقه تلافياً للتضارب في الآراء...

د - طور التقليد: وبدأ بعد منتصف القرن الرابع، حين أخذ الناس يقلدون المذاهب الأربعة، ويتولون شرحها واختصارها ووضع حواش لها[1]. «وشذّ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقهٍ انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية، وشذّ بمثل ذلك الخوارج، ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم، بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح[2]».

3 - المدارس الفقهية في هذا العصر:

وفي هذا العصر بدأت تؤسَّسُ في كل بلد إسلامي مدرسة فقهية كبيرة، فكان في مكة عِكْرِمَة[3] وعطاء[4]، وفي المدينة سالم[5] بن عبد الله بن عمر بن

---

(1) لبيب عبد الستّار: الحضارات، ص: 271- 272. وانظر ابن خلدون: المقدمة، ص: 445 وما بعدها. وآدم متز: الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري، ج1، ص 387 وما بعدها. وقد تجاوزنا هذا العصر استيفاء للكلام في موضوع واحد.

(2) ابن خلدون: م. ن.، ص: 446.

(3) عَكْرِمَة بن عبد الله: مولى عبد الله بن عباس، تابعي كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، وهو أحد فقهاء مكة وتابعيها، وروى عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم، وذكر له ابن النديم في الفهرست كتاباً في تفسير القرآن (ت 105هـ) (ابن النديم: الفهرست، ص: 164. وابن خلكان: وفيات الأعيان، مج3، ص: 265).

(4) عطاء بن أبي رباح (27- 114هـ): كان من أجلاّء الفقهاء وتابعي مكّة وزهّادها، كان عبداً أسود، ولد باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها، وبها توفي. (ابن خلكان: م. ن.، مج3، ص: 261 وما بعدها).

(5) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: كان أحد فقهاء المدينة السبعة، روى عن أبيه وأبي =

الخطاب ونافع[1]، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة[2]، وعروة بن الزبير[3]، والزهري[4]، وفي اليمن طاووس[5]، في الكوفة الشعبي[6] والنخعي[7]، وسعيد ابن جبير[8]. وفي البصرة الحسن البصري[9]، وابن سيرين[10]، وقتادة[11]، ومالك بن دينار[12] وغيرهم[13].

وأخذ هؤلاء الفقهاء يشرعون للناس أمور دينهم ودنياهم، وكانوا يختلفون في

= هريرة وعائشة، رضي الله عنهم، توفي سنة 106هـ. (الزركلي: الأعلام، مج3، ص: 21...).

(1) نافع بن جبير من قريش، كان من كبار الرواة للحديث، تابعي، ثقة من أهل المدينة له كتب في عدد آي القرآن، وتوفي سنة 99هـ (الزركلي: الأعلام، مج7، ص: 352. وابن النديم: الفهرست، ص: 178).

(2) عُبَيد الله بن عتبة: أحد الفقهاء السبعة في المدينة توفي بها سنة 98هـ (الزركلي: الأعلام، مج4، ص: 194).

(3) عروة بن الزبير بن العوام: أحد الفقهاء السبعة بالمدينة: وكان عالماً بالدين، توفي سنة 93هـ. (الزركلي: م. ن.، مج4، ص: 226).

(4) الزهري: هو محمد بن مسلم بن عُبَيْد الله المدني، أحد الأعلام الأئمّة الكبار، روى عن جماعة من الصحابة، وروي عنه مالك، توفي سنة 124هـ. (المازري: المعلم بفوائد مسلم، ص: 534).

(5) طاووس: ابن كيسان الهمداني، روى عن ابن عباس وعائشة، وتوفي سنة 107هـ. (المازري: م. ن.، ص: 540).

(6) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الحميري الشعبي، راوية من التابعين ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة سنة 103هـ (الزركلي: م. ن.، مج3، ص: 251).

(7) النخعي: أبو عمران إبراهيم بن يزيد الفقيه الكوفي، توفي سنة 96هـ (المازري: م. ن.، ص: 556).

(8) سعيد بن جُبَيْر الكوفي، تابعي، كان عالماً بالفقه، توفي سنة 95هـ. (الزركلي: م.ن. مج3، ص: 93).

(9) الحسن البصري: تابعي، كان إمام البصرة وأحد العلماء الزهّاد. توفي سنة 110هـ. (المازري: م. ن.، ص: 350).

(10) محمد بن سيرين البصري: إمام وقته. من كبار العلماء. توفي سنة 110هـ. (المازري: م. ن.، ص: 538).

(11) قتادة: أحد الأئمة الأعلام في البصرة. توفي سنة 118هـ. (المازري: م. ن.، ص: 548).

(12) مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، من رواة الحديث. كان ورعاً. (الزركلي: م. ن.، مج: 5).

(13) الدكتور شوقي ضيف: المرجع السابق، ص: 71...

مسائل كثيرة؛ واشتهرت مدرسة الحجاز بغلبة الحديث عليها، كما اشتهرت مدرسة العراق بالرأي وإعمال القياس والتقليل من رواية الحديث، بل غلا قوم منهم فرأوا عدم الأخذ بالحديث، وكان الاجتهاد بالرأي في الأحكام الشرعية هو بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين[1].

4 - الفرق الدينية:

ثم إن المنافسة في طلب الخلافة قسمت العرب شيعاً دينية في ظاهرها سياسية في حقيقتها، ونذكر بعض الفرق ورأيها في الخلافة:

أ - أهل السنة: وهم القائلون بخلافة أبي بكر وعمر عن استحقاق، ويرون أن الخلافة تكون باختيار أهل الحل والعقد في الأمة، وأن قريشاً أحق بها[2]، ولا يحل لأمة الإسلام أن تنام ليلة واحدة بلا سلطان واحد، وقد اتفق في هذا الاتجاه الأئمة الأربعة (أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل). وظهرت هذه الفرقة بعد المعتزلة وعلى رأسها مؤسسها أبو الحسن الأشعري[3].

ب - الشيعة: وهم الذين شايعوا علياً عليه السلام على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، واعتقدوا أن الخلافة تخرج من أولاده، لأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته، والإمامة عندهم هي قضية أصولية وركن من الدين، وهي للطالبيين من بني هاشم، وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبه كالكيسانية[4].

---

(1) الدكتور توفيق الطويل: المرجع السابق، ص: 103. والدكتور شوقي ضيف: المرجع السابق، ص: 72 وما بعدها.

(2) ابن حزم: كتاب الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، ج4، ص: 89. (ونرمز له بـ: ابن حزم: الفصل...). وانظر: رشيد رضا: الخلاصة، ص: 17.

(3) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص: 443 و570، ط3، 1979. اقتبسه الدكتور محمود السعيد الكردي في كتابه: مأساة الخلافة في الإسلام، ص: 175- 176. ومؤلف مجهول: في علوم الخلافة، ص: 92.

(4) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل - على هامش: الفصل لابن حزم- ج1، ص: 195- 196 (ونرمز له الشهرستاني: الملل والنحل).

ج - **الخوارج**[1]: وهم يعتقدون إن الإمامة حق لكل مسلم توافرت فيه شروط الإسلام وأجمع المسلمون عليه وإن كان غير قرشي فإذا كانت الأمة قادرة على تصريف أمورها وإقامة العدل، لم يبق ثمة حاجة إلى خليفة، وهم القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار[2].

د - **المُرْجِئَة**[3]: وهم فرقة إسلامية؛ نشأت بعد منتصف القرن الأول للهجرة لما رأت الخوارج يكفرون علياً وعثمان ومعاوية وغيرهم من القائلين بالتحكيم، ورأت الشيعة يكفرون أبا بكر وعمر وعثمان وبني أمية، ورأت بني أمية يقاتلون الخوارج والشيعة ويكفرونهم، وكل حزب يدعي أنه وحده على صواب، وأن غيره على خطأ، فظهرت المرجئة تسالم الجميع الخوارج والشيعة وبني أمية، وتقول إن الفرق الثلاث مؤمنون، ولا نستطيع الحكم على أحدهم بخطإ، وإن كان بعضهم مخطئاً، وبعضهم مصيباً، فلنرجئ أمرهم جميعاً إلى الله، فالله هو الذي يتولى حسابهم[4]. وسموا المرجئة لأنهم يرجئون الحكم على المسلم ويتركون أمره لربه حتى لو اقترف المعاصي، وكانوا يقولون: «لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة[5]». ومنهم أيضاً: الجبرية، والقدرية والخوارج، فالجبرية يرون أن حرية الإنسان معطلة أمام القدر، وأن العباد مجبرون على أفعالهم لا اختيار لهم فيها[6]، أما القدرية «فهم القائلون بحرية الإرادة، حتى يحمل الإنسان وزر ما يرتكبه من أعمال[7]»، والقدرية اسم أطلقه أهل السنة على الذين فكروا

---

(1) تقدّمت ترجمتهم في هذا الفصل: انظر الحياة السياسة.

(2) الشهرستاني: م. ن.، ج1، ص: 155- 157- 158.

(3) المرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، ومرجئة الخالصة، والمراد هنا الخالصة. (الشهرستاني: م. ن.، ج1، ص: 186- 187). ونشير بإيجاز شديد إلى مرجئة الجبرية ومرجئة القدرية ومرجئة الخوارج.

(4) الشهرستاني: م. ن.، ج1، ص: 186 وما بعدها. وأحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 279 وما بعدها. والدكتور أحمد محمد الحوفي: أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 123 وما بعدها.

(5) الشهرستاني: م. ن.، ج1، ص: 186.

(6) الشهرستاني: م. ن.، ج1، ص: 108. وشوقي ضيف: المرجع السابق، ص: 77.

(7) الدكتور شوقي ضيف: المرجع السابق، ص: 77. والقدرية من الألفاظ المشتركة، وهو يطلق أيضاً على من يقول بالقدر خيره وشرّه من الله تعالى (انظر الشهرستاني: المصدر السابق ج1، =

في أنهم هم الفاعلون لأعمالهم دون الله وظهر الحديث في القدر في منتصف القرن الأول للهجرة، أظهره معبد الجهني[1] وغيلان الدمشقي[2]. وكان زعيم القائلين بالقدر دون منازع الحسن البصري[3]. ومرجئة الخوارج، وهم الذين وافقوا الخوارج في بعض المسائل التي تتعلق بالإمامة[4].

هـ - **المعتزلة:** فرقة من المتكلمين يخالفون أهل السنة في بعض المعتقدات، ويعتمدون العقل في تأييد القضايا الدينية، وزعيم جماعتهم هو واصل بن عطاء[5] الذي اعتزل بأصحابه حلقة الحسن البصري، واشترك معه عمرو بن عبيد[6] في تأسيس فرقة المعتزلة. وقد انطلق مذهبم في مطلع القرن الثاني للهجرة من مبدأ كون مرتكب الكبيرة لا مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين: وإعلان كون المتحاربين من الصحابة فُسَّاقاً لا تقبل شهادة أحد منهم بدون استثناء، والقول بخلق القرآن، لأنه كلام، والكلام هو ما يسمعه الرسول ﷺ، فهو إذن مخلوق؛ والقول بالقدر، أي: إن الإنسان قادر خالق لأفعاله خيرها

= ص: 54. وجبور عبد النور: المعجم الأدبي، ص: 208- 209. وانظر أيضاً عن القدرية الشيخ أسعد محمد سعيد الطّخرجي: القضاء والقدر، ص: 46 وما بعدها.

(1) ابن منصور الطبري: شرح عقائد أهل السنّة والجماعة، اقتبسه معد كتاب - في علوم الخلافة لمؤلف مجهول، ص: 93. ومعبد الجهني: هو صحابي صدوق أسلم قديماً، وكان أحد الأربعة الذين حملوا ألوية «جهينة» يوم فتح مكّة، لكنه سنّ سنّة سيئة، فكان أوّل من تكلم في القدر، قتله الحجاج صبراً سنة 72هـ. (الزركلي: الأعلام، مج7، ص: 273. وأحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 284 وما بعدها).

(2) غيلان الدمشقي: هو غيلان بن مسلم الدمشقي القدري، كان كاتباً، بليغاً، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، قتله هشام بن عبد الملك بعد سنة 105هـ. (الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 124).

(3) الدكتور شوقي ضيف: المرجع السابق، ص: 77.

(4) الشهرستاني: م. ن.، ج1، ص: 155.

(5) واصل بن عطاء: ولد بالمدينة عام 80هـ وتتلمذ على يد الحسن البصري. وتوفي سنة 131هـ. (مؤلف مجهول: علوم الخلافة، ص: 96).

(6) عمرو بن عبيد: ولد بالبصرة سنة 80هـ، وهو شيخ المعتزلة، توفي سنة 144هـ. (الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 81).

وشرها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة؛ والله منزه عن أن ينسب إليه شر وظلم، وأن الإمامة تجوز في قريش وغيرها[1].

ويبنى مذهب الاعتزال على خمسة مبادئ أساسية هي: التوحيد والعدل والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

وكانت الحركة العلمية في صدر الإسلام والعصر الأموي تسير في ثلاثة اتجاهات، فبالإضافة إلى الحركة الدينية السالفة الذكر، نجد حركة في علم التاريخ والتدوين والقصص والسير ونحوها، وحركة فلسفية تتمثل في المنطق والكيمياء والطب ونحوها. وكانت هذه الحركات بمثابة النواة التي تكونت حولها العلوم بالمعنى الأشمل فيما بعد.

الحركة التاريخية:

الحركة التاريخية، أو بدء التدوين التاريخي عند العرب: لقد عني المسلمون في صدر الإسلام والعصر الأموي بتسجيل أنساب العرب، فقد شكل عمر بن الخطاب لجنة ثلاثية من أبي عدي جبير بن مطعم[3] أحد مشاهير علماء النسب، ومخرمة بن نوفل[4]، وعقيل بن أبي طالب[5]، وكلفها بوضع ثبت بأنساب العرب

---

(1) انظر ابن حزم: الفصل، ج2، ص: 113. ومؤلف مجهول: في علوم الخلافة، ص: 95- 96 والشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص: 54 وما بعدها. وجبور عبد النور: المعجم الأدبي، ص: 255- 256. والدكتور عبد الحليم بلبع: أدب المعتزلة إلى نهاية ق 4هـ، ص: 122 وما بعدها.

(2) انظر بالتفصيل أبو الحسن الخياط: الانتصار، ص: 126، طبعة القاهرة، 1925، والشهرستاني: م. ن.، ج1، ص: 54 وما بعدها. والدكتور عبد الحكيم بلبع: المرجع نفسه، ص: 122 وما بعدها.

(3) جبير مطعم: صحابي كان من علماء قريش وسادتهم، توفي بالمدينة سنة 59هـ (الزركلي: الأعلام، مج2، ص: 112).

(4) مخرمة بن نوفل: صحابي، عالم بالأنساب، مات بالمدينة سنة 54 هـ (الزركلي: الأعلام، مج7، ص: 192).

(5) عقيل بن أبي طالب: هو أخو علي لأبيه، صحابي فصيح اللسان، وهو أعلم قريش بأيامها وأنسابها، توفي سنة 60هـ. (الزركلي: المصدر نفسه، مج4، ص: 242).

يقوم على أساسه الديوان[1]، وهذا دون شك أول تدوين تاريخي للأنساب في العرب وفي الإسلام[2]. أما الذين ألفوا كتباً في السير و«المغازي[3]» في هذا العصر، فنذكر منهم: أبان بن عثمان بن عفان (22-105هـ) فقد ألف كتاباً في سيرة الرسول وجمعه له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة (المتوفى قبل سنة 125هـ). وعروة بن الزبير بن العوام (23-94هـ) وهو من فقهاء المدينة السبعة ومن أعلام محدثيها، كان أقدم من ألف في سيرة رسول الله، وهو مؤسس دراسة «المغازي»، ووهب بن منبه (34-110هـ) فقد ألف هو أيضاً كتاباً في المغازي[4]، كما روي أن محمد بن شهاب الزهري (51-124هـ) جمع كتاباً في المغازي[5]، وكذلك موسى بن عقبة (ت141هـ) فقد عرف بالمغازي حتى قال فيه مالك بن أنس: «عليكم بمغازي ابن عقبة وهي أصح المغازي[6]». ومثله شُرَحْبِيل ابن سعد (المتوفي سنة 123هـ)، وقد روي عنه أنه، كتب ثبتاً بأسماء من هاجر من مكة إلى المدينة، وأسماء من اشتركوا في غزوة بدر وغزوة أحد[7].

وفي الجملة فإن ما ذكرناه يدلنا على انتشار حركة تاريخية واسعة في هذا العصر كما يدلنا على أنَّ السيرة الأولى التي وصلت إلينا بعد هذا العصر كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري مدينة في جزء كبير منها لما رواه هؤلاء، ولا سيما عروة بن الزبير[8].

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص: 295.

(2) الدكتور محمد ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص: 35.

(3) المغازي: جمع مغزى ومغزاة، وكلاهما معناه موضع الغزو أو الغزو نفسه، ثم توسّعوا في معناها فأطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم نجدهم استعملوها استعمالاً واسعاً للدلالة على حياة النبيّ ﷺ حتى جعلوها مرادفة للسيرة: المرجع نفسه، ص: 43- 44).

(4) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج2، ص: 323. وفجر الإسلام، ص: 158.

(5) الدكتور محمد ترحيني، المرجع السابق، ص: 47 وما بعدها. وأحمد أمين: ضحى الإسلام ج2، ص: 325 وانظر ما بعدها.

(6) أحمد أمين: المرجع نفسه، ج2، ص: 327. والدكتور محمد ترحيني، م.ن.، ص: 49.

(7) أحمد أمين: المرجع السابق، ج2، ص: 322. والدكتور محمد ترحيني: م.ن.، ص: 43.

(8) انظر: أحمد أمين: المرجع نفسه، ص: 322.

1 - جمع القرآن وتدوينه:

أما جمع القرآن وتدوينه، فقد تم على ثلاث مراحل في عهود ثلاثة في صدر الإسلام:

الأولى: في عهد الرسول ﷺ وعلى يديه.

والثانية: في عهد أبي بكر.

والثالثة: في عهد عثمان بن عفان.

ففي عهد الرسول عليه الصلاة والسلام اتخذ النبي ﷺ كتبةً للوحي فيهم الخلفاء الراشدون وبعض الصحابة، نذكر منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وعبدالله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب، وغيرهم[1]. فكانوا يكتبون آيات القرآن الكريم على الرقاع[2]، واللخاف[3]، والعُسْب[4]، والأكتاف[5]، والأقتاب[6]، وغيرها. ثم جمعت هذه الصحف في عهد أبي بكر الصديق، فقد عهد إلى زيد بن ثابت بهذه المهمة، وكان من كتبة الوحي، فجمع السور من المخطوطات المختلفة ومن صدور القراء، وجعلها في صحف، وأودعت عند أبي بكر، ثم انتقلت إلى عمر بن الخطاب، فحفصة ابنته[7]؛ وهذا هو الجمع الثاني.

---

(1) اختلف في عدد الذين جمعوا القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ، فيجعلهم الحافظ الذهبي أربعة في كتابه تذكرة الكتاب، ج1، ص: 27.
أما ابن النديم في كتابه الفهرست، فيرفع عددهم إلى السبعة، انظر: ص: 138- 139. وانظر: أيضاً أنيس المقدسي: تطوّر الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص: 39- 40.

(2) الرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق.

(3) اللخاف: جمع لخفة، وهي الحجارة العريضة البيضاء، أو صفائح الحجارة.

(4) العُسُبُ: جمع عسيب، وهي قحوف جريد النخل.

(5) الأكتاف: جمع كتف، وهي عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف.

(6) الأقتاب: جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه.

(7) ابن النديم: المصدر السابق: ص: 121 ـ 122، وانظر الدكتور صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ص: 75، والدكتور فايز ترحيني: الإسلام والشعر، ص: 38 ـ 39.

أما الجمع الثالث، فكان في عهد عثمان بن عفان، فقد عهد عثمان إلى زيد ابن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث أن ينسخوا القرآن في المصاحف، وقال لهم: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل بلسانهم[1]» فنسخوا بضعة مصاحف أرسل منها الخليفة عثمان مصحفاً إلى كل أفق، وأمر بكل ما سواه من القرآن أن يحرق[2].

جمع مصحف عثمان في سنة 25[3] أو سنة 30هـ[4]، «وقد روعي فيه الأمانة التامة في النقل، ولشدة اعتناء المسلمين بالمحافظة على صورته الأصلية أي الصورة التي نقلها زيد لعثمان لم يمسوه بأدنى تحوير أو تبديل حتى أنهم اتفقوا على صور الألفاظ التي كتبت يومئذ على غير الأصول الكتابية كرسم التاء والهمزة وزيادة بعض الأحرف وسواها[5]». وقال الزمخشري: «وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي يبنى عليها علم الخط وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف[6]». غير أن خلو المصاحف العثمانية من الإعجام والشكل جعل القراءات تتعدد بعد بضعة وأربعين سنة، وكثرت التصحيفات في قراءة القرآن. وفي خلافة عبد الملك بن مروان أخذت التحسينات طريقها إلى الرسم القرآني، وقد أسهم أبو الأسود الدُّؤَليّ[7] (ت69هـ) إسهاماً كبيراً في عملية نقط القرآن «فجعل علامة الفتحة نقطة فوق

---

(1) ابن النديم: م. ن.، ص: 123.

(2) ابن النديم: م. ن.، ص: . 123 والبخاري: صحيحه، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، ج6، ص: 581. وانظر جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ص: 196 وفيه: وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان إلى الأمصار الأربعة: مكة، والبصرة، والكوفة، والشام، واثنين أبقاهما في المدينة واحد لأهلها وواحد لنفسه.

(3) أنيس المقدسي: المرجع السابق، ص: 40.

(4) الدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 39.

(5) أنيس المقدسي: المرجع السابق، ص: 40- 41. وذكر في الهامش نماذج لبعض الألفاظ التي كتبت حينئذٍ على غير الأصول الكتابية مثل: نعمت وبقيت بدل نعمة وبقية، ويشعيب ويسلطان بدل يا شعيب ويا سلطان، ويأيه واليل بدل يا أيها والليل، وأدريك بدل أدراك... إلخ.

(6) الكشاف، ج1، ص: 10.

(7) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي: واضع علم النحو، =

الحرف، وعلامة الكسرة نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة بين أجزاء الحرف، وعلامة السكون نقطتين[1]» كما أسهم الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ) في عملية نقط القرآن[2]؛ وكذلك يحيى بن يَعْمر[3] ونصر بن عاصم الليثي[4]، فقد أسهم كل منهما في تحسين عملية نقط القرآن وشكله.

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي[5] (100-170هـ) أول من صَنّف النَّقْطَ ورسمها في كتاب، وأول من وضع الهمزة والتشديد، والتفت إلى الروم[6] والإشمام[7] ثم جاء بعده أبو حاتم السجستاني[8] (165-255هـ) فألف كتاباً في

= كان معدوداً من الفقهاء والأمراء والشعراء، صحب علي بن أبي طالب وشهد معه وقعة صفّين... (انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج2، ص: 535 وما بعدها. وابن نباتة المصري: سرح العيون، ص: 158 وما بعدها...).

(1) الدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 40.

(2) الدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 40.

(3) يحيى بن العدواني، أبو سليمان: أول من نقط المصاحف، ولد بالأهواز، وسكن البصرة، وكان من علماء التابعين، أخذ اللغة عن أبيه، والنحو عن أبي الأسود الدؤلي. توفي بالبصرة سنة 129هـ. (ابن النديم: الفهرس، ص: 194 ـ 195، والزركلي: الأعلام، مج 8، ص: 177).

(4) نصر بن عاصم الليثي: من أوائل واضعي النحو، كان فقيهاً عالماً بالعربية، وله كتاب في العربية، وهو أول من نقط المصاحف، مات بالبصرة سنة 89هـ (ابن النديم: م. ن.، ص: 189، 190، 195، والزركلي: الأعلام، مج 8، ص: 24).

(5) الخليل بن أحمد الفراهيدي: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، ومصنف كتاب العين، وكتاب النقط والشكل، وكتاب النغم، وكتاب الشواهد وغيرها، وهو أستاذ سيبويه النحوي، توفي في البصرة سنة 170هـ. (ابن النديم: م. ن.، ص: 199 وما بعدها، وابن نباتة: سرح العيون، ص: 152 وما بعدها...).

(6) الرّوم: الحركة في الوقف على المرفوع واالمجرور وسرعة النطق بها... روْمُ الحركة: حركة مختلسة تستعمل لضرب من التخفيف... (الدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 41 ومجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج1، ص: 397).

(7) الإشمام: صبغ الصوت اللغوي بمسحة من صوت آخر، مثل مزج لفظ الصاد بالزاي، في قراءة الكسائي بصفة خاصة، وهو المسمى بالحرف الفرعي الذي يخرج من مخرجين، ويتردد بين حرفين. (ابن خالويه النحوي: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، تحقيق محمد إبراهيم سليم، ص: 44. ومجمع اللغة العربية، المرجع نفسه، ج1، ص: 515).

(8) أبو حاتم السجستاني النحوي اللغوي، كان عالماً باللغة والشعر، وله مصنفات كثيرة تزيد =

نقط القرآن وشكله، وبه أصبح رسم المصاحف قد قارب الكمال[1].

2 - الحديث النبوي الشريف رواية وتدويناً:

الحديث النبوي الشريف: هو ما روي عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير مما ليس قرآناً أو وحياً، وإن كان كله بتأييد من الله، وهو يفصل ما جاء في القرآن الكريم مجملاً، ويفسر ما جاء موجزاً[2]، ويبين مراد القرآن تارة بالقول وحده، وتارة بالفعل وحده، وتارة بهما معاً كما صلى ﷺ، وقال: «صلّوا كما رأيتموني أصلي[3]»، وحجَّ وقال: «خذوا عني مناسككم».

وللحديث النبوي الشريف قيمة كبرى في الدين تلي مرتبة القرآن الكريم، لأن كثيراً من الآيات القرآنية لم تكن لتوضح لو لم يبينها قول الرسول ﷺ أو عمله، «فالقرآن مثلاً لم يبين تفاصيل الصلاة، إنما أمر بها مجملة، وفعل النبي أوضح أوقاتها وكيفياتها[4]» وقد اهتم الرسول ﷺ بالحديث اهتماماً بالغاً فأمر بفهمه، ثم حفظه، وتبليغه عن طريق الرواية الصحيحة[5]. كما اهتم بعض الصحابة بتدوين الحديث النبوي الشريف، كعبدالله بن عمرو بن العاص، فإنه كان يكتب ما يسمع من رسول الله، قال أبو هريرة: «لم يكن من أصحاب محمد أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كتب ولم أكتب[6]»، ولكن هذا لا يعني أن

= عن الثلاثين. . . (السجستاني: المذكر والمؤنث، تحقيق إبراهيم السامرائي مع مجموعة رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ، ص: 97 وما بعدها).

(1) الدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 41. ويرى الدكتور زكي مبارك. أن القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص، وكذلك الأدب الجاهلي والأموي، ولغات العالم تعترف بما يسمى «النحو التاريخي» ونحن بحاجة إلى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذًا من تعابير القرآن. (النثر الفني في ق4هـ، ج2، ص: 650).

(2) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج1، ص: 116. وأحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 208. وعمر فرّوخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص: 76.

(3) البخاري: صحيح البخاري، ج1، ص: 313.

(4) أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 208.

(5) الدكتور فايز ترحيني: الإسلام والشعر، ص: 71.

(6) مجلة المنار الإسلامي، مج 10، ص: 748، اقتبسه أنيس المقدسي في كتابه: تطور الأساليب =

الحديث دوِّن كله في عهد الرسول كما دوِّن القرآن، فالرسول لم يتخذ كتبة للحديث كما اتخذ كتبة للوحي، بل إننا وجدنا بعض الأحاديث تنهى عن تدوين الحديث كما ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «لا تكتبوا عني، من كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدِّثُوا عَنِّي ولا حرج، ومن كَذَبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[1]». ولعل ذلك كان وقت نزول القرآن خشية اختلاط الحديث بالقرآن، لأن الرسول ﷺ كان قد دعا بعض أصحابه أن يتعلم العبرية والسريالية ليدون بهما رسائله[2]، فكيف يمنع تدوين الحديث النبوي الشريف؟

ومهما يكن من أمر، فإن تدوين الحديث في هذا العصر لم يكن شائعاً. وكذلك في عهد الصحابة بقيت كراهة تدوين الحديث سائدة، والرغبة في روايته من الذاكرة سيدة الموقف، وكانت الذاكرة كثيراً ما تخون، ولذا فقد اختلفت فيه الروايات، وكثر فيه الوضع ولا سيما في عهد الأمويين حيث «كثر الناقلون وقلَّ الصادقون[3]»، أما أسباب الوضع فجعلها ابن الجوزي في كتابه الموضوعات خمسة، وهي: «الغباوة، والغفلة عن التمييز، وطلب المال والجاه، والتدليس تشيعاً لأحد المذاهب، والزندقة قصد إفساد الشريعة، وإيقاع الشك في قلوب العباد[4]».

وظل الأمر على ما هو عليه حتى عصر عمر بن عبد العزيز، فأمر بتدوين الحديث رسمياً، ولكن يد المنون لم تمهله وعجلت برحيله، فلم ينفذ أمره[5].

ولم يدون الحديث إلا في حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، فكان موطأ مالك إمام المدينة (ت 179هـ)، ثم ظهرت المسانيد المقصورة على السنة النبوية

= النثرية في الأدب العربي، ص: 64، هامش 4، وأحمد أمين: المرجع السابق، ص: 166.

(1) أحمد أمين، المرجع السابق، ص: 208، والدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 71 ـ 72.

(2) أحمد أمين، المرجع السابق، ص: 166.

(3) أنيس المقدسي: المرجع نفسه، ص: 65.

(4) اقتبسه أنيس المقدسي في المرجع السابق، ص: 65.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص: 157.

الخالصة، ومن أولئك السباقين أبو داود الطيالسي (ت 204هـ) وأحمد بن حنبل (ت 241هـ)، وألفت الصحاح الستة: البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والنسائي[1].

3 - القصص في المساجد:

بالإضافة إلى ما تقدم ذكره في الحركة التاريخية، نجد القصص ينتشر في المساجد بدءاً من صدر الإسلام، فقد روي «أن أول من قص في مسجد رسول الله ﷺ تميم الداري[2]»، استأذن عمر أن يذكّر الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكّر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، واستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يذكّر يومين في الجمعة، فكان تميم يفعل ذلك[3]، ويبدو أن القصص قد انتشر بسرعة لأنه يتفق وميول الناس، وأكثر القصاص من الكذب فطردهم علي بن أبي طالب من المساجد واستثنى الحسن البصري لتحريه في قوله[4].

أما الأمويون فقد شجعوا القصاص، وعينوهم في المساجد، ولم يفعلوا مثل ذلك مع العلماء والفلاسفة، ومما يروى أن معاوية أمر رجلاً يقص في المسجد بعد الصبح، وبعد المغرب، يدعو له ولأهل الشام[5]. ويبدو أن هذا القصص هو الذي أدخل على العالم الإسلامي كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية، وشيئاً من فلسفات اليونان والهنود والفرس[6]، وقد اشتهر من هؤلاء

---

(1) الحاج حسن حسين: نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، مج1، ص: 143 وما بعدها. والدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 72- 73.

(2) تميم الداري: صحابي من لخم، أسلم سنة 9هـ، وكان راهب أهل عصره، عابد أهل فلسطين. مات سنة 40هـ (ابن النديم: م. ن.، ص: 143. والزركلي: الأعلام، مج2، ص: 87).

(3) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 158.

(4) أحمد أمين: المرجع نفسه، ص: 159- 160.

(5) أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 160. وانظر الدكتور توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ص: 102.

(6) الدكتور توفيق الطويل: المرجع نفسه، ص: 102. وأحمد أمين: المرجع السابق، ص: 160.

القصاص وهب بن منبه وكعب الأحبار، فالأول يمني من أصل فارسي، وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا وله أخبار كثيرة وقصص تتعلق بأخبار الأولين، وبقصص الأنبياء، أما كعب الأحبار فيهودي من اليمن، أسلم في عهد عمر، وكان من أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين، ومن هؤلاء وأمثالهم دخلت إلى عقيدة المسلمين الإسرائيليات والنصرانيات، وكان لهم أثر غير محمود في تاريخنا الإسلامي[1].

الحركة الفلسفية:

وهي أقل الحركات، على ما يبدو، انتشاراً، وكان الأمويون - كما أشرنا قبل - يشجعون القصاص، ويعينونهم في المساجد، وكذلك يشجعون الشعراء والخطباء، ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع العلماء والفلاسفة، وبالرغم من ذلك فقد بدأت الحركة الفلسفية مبكراً عند المسلمين، فإن تأملاتهم الفلسفية تبدأ منذ القرن الأول الهجري، وتظهر بالارتباط مع العقيدة الإسلامية، لقد كان الاجتهاد بالرأي في الأحكام الشرعية، منذ نشأته الساذجة إلى أن صار نسقاً من أساليب البحث العلمي له أصوله وقواعده بداية للتفكير الفلسفي عند المسلمين[2].

كما أن وجود الله ووحدانيته وجبروته وعدله ورحمته، وسائر صفاته الإلٰهية كانت موضوعات لرسائل دقيقة معمقة، وتفرعت عنها طرق مختلفة للفكر، ونشأت مدارس متعارضة حول موضوع القضاء والقدر، والجبر والاختيار، والخلاص بالأعمال أو بالإيمان، وظهرت فرق دينية كما بيّنا قبل. ومن هذه الفرق الخوارج والمرجئة والقدرية والمعتزلة؛ وكل هذه المدارس سبقت الترجمات اليونانية التي لم تبدأ إلا في عهد خلافة المنصور (136-158هـ)، وهي دليل على استقلال تطور روح الإسلام[3]. ولكن يبدو أن المسلمين اتصلوا بالثقافة اليونانية قبل عصر الترجمة، وذلك بوساطة المدارس السريالية التي كانت

---

(1) ابن النديم: م. ن.، ص: 112. وأحمد أمين: المرجع السابق، ص: 160 ـ 161.

(2) الدكتور توفيق الطويل: المرجع نفسه، ص: 103. والدكتور ماهر عبد القادر محمد: التراث والحضارة الإسلامية، ص: 172.

(3) الدكتور ماهر عبد القادر محمد: المرجع السابق، ص: 173.

منتشرة في العراق والشام والأسكندرية، وقد أصبحت هذه المدارس تحت حكم المسلمين بعد انتشار الإسلام في هذه الربوع[1]. ولهذا «نرى أن الثقافة اليونانية - كالثقافة الفارسية - كانت مبثوثة بين المسلمين في البلدان المختلفة، وكان منالها منهم قريباً[2]». ومما يروى أن عمرو بن العاص، لما فتح مصر واستولى على الأسكندرية بعد وفاة النبي ﷺ بستّ سنوات في رواية، وتسع سنوات في رواية أخرى، سمع برجل مسيحي اسمه يوحنا النحوي، كان قد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عُد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته. يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين: «إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر[3]».

ومنذ ظهور الإسلام استقر الطب والطبيعيات والفلسفة في الأسكندرية، ثم انتقلت تلك العلوم إلى أنطاكية وحران في عهد عمر بن عبد العزيز[4]، «وفي هذا العصر ظهر كثير من أطباء النصارى في بلاط الخلفاء، وكان أكثرهم فلاسفة وأطباء معاً، كانت دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية[5]»، ومن هؤلاء الأطباء الفلاسفة الذين خدموا في البلاط الأموي «ابن أثال» وكان طبيباً نصرانياً في دمشق، وقد اصطفاه معاوية لنفسه لما تولى الملك.

و«عبد الملك بن أبجر الكناني» وكان طبيباً ماهراً أسلم على يد عمر بن عبد العزيز، وكان عمر يستطبه ويعتمد عليه في صناعة الطب[6]. كما روي أن خالد بن يزيد بن معاوية كان من أعلم قريش بفنون العلم ودراسة الفلسفة[7].

ونختم حديثنا عن الحركة الفلسفية بقول أحد الفلاسفة الغربيين معلقاً على

---

(1) انظر أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 132 و162.

(2) أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 133.

(3) محمد عبده: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، ص: 70- 71.

(4) الدكتور توفيق الطويل: المرجع السابق، ص: 102.

(5) أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 162.

(6) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، اقتبسه أحمد أمين في المرجع السابق ، ص: 163.

(7) أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 133 و162.

العلاقة التي نشأت بين عمرو بن العاص والطبيب والفيلسوف النصراني يوحنا النحوي: «إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة والرأي العالي: بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية، ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع[1]».

2 - الحياة الأدبية والفنية:

الإسلام والشعر

كان لظهور الإسلام أثره الواضح في كل مظاهر الحياة العربية الروحية والاجتماعية والسياسية والأدبية، وقد اختلف المؤرخون والباحثون في أثر الإسلام في شعر هذا العصر، ومدى ما أصابه من قوة أو ضعف.

هناك اعتقاد سائد أن الشعر العربي قد ضعف في صدر الإسلام، وخبت جذوته وكسدت سوقه، وأن القرآن الكريم قد أخرس ألسنة الشعراء كما زعم ابن سلام وتابعه ابن خلدون وبعض المعاصرين، يقول ابن سلام: «جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر، تشاغلوا عنه بالجهاد وغزو فارس والروم ولَهِيَتْ عن الشعر وروايته»[2]. أما ابن خلدون، فيقول: «انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً»[3]. ويقول نجيب محمد البهبيتي: «والعرب قوم ذوو لسن، وذوق قولي ممتاز، فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله، فشغلوا به، وسكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله»[4]. ويوضح أكثر وجهة نظر هذا الاتجاه يحيى الجبوري، فيقول: «إن الإسلام حرم أكثر الأعمال التي يجود فيها الشعر، وتنشط القرائح، كذكر الخمر،

---

(1) محمد عبده: المرجع السابق، ص: 71.

(2) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ص: 10.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص: 547، دار الشعب بمصر.

(4) نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص: 113 وانظر ما بعدها .

ومغازلة المرأة، وإثارة الضغائن والأحقاد والثأر. وفضلاً عن أن الحياة العامة ومثلها وقيمها قد تغيرت في ظل الإسلام، فتغيرت تبعاً لذلك الدوافع التي بها ينشط الشعر، ويتشجع الشعراء، فالإكرام والتشجيع الذي كان يلقاه الشعراء من الملوك، وأصحاب الثراء والسلطان قد حل محله زجر عمر بن الخطاب عن المدح الكاذب والقول الذي يثير الحفائظ، ويمس أعراض الناس»[1]. وينحو منحى هؤلاء كذلك جرجي زيدان[2]، وجورج غريب[3] والسباع بيومي[4].

وقد ردّ على هؤلاء بعض الدارسين الذين حاولوا إثبات بطلان هذا الزعم، فرأوا أن الشعر في هذا العصر ظل مزدهراً، ولم يضعف، ومن هؤلاء الدكتور أحمد الحوفي[5] وكذلك الدكتور شوقي ضيف الذي لفت نظر الباحثين إلى ما في كتب الأدب والتاريخ والسير وكتب التراجم من حقائق تثبت الدور الذي نهض به الشعر في الصراع بين المسلمين في المدينة والمشركين في مكة، ولاحظ أن شعر المكيين لا يختلف في شيء عن شعر الجاهليين لأنهم «كانوا لا يزالون على دين آبائهم، يقدسون السنن الجاهلية التي ورثوها في الشعر وغير الشعر»[6]، وقد أخذت الشاعرية القرشية تستقيظ وتقوى بعدما كانت هينة يسيرة في الجاهلية، لأنها لم تكن من القبائل المحاربة ولأنها لم تدخل في صراعات كثيرة كما يقول ابن سلام[7]، فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول ﷺ نبغ بينها شعراء كثيرون نساء ورجالاً ولعل أشهرهم: عبدالله بن الزبعري[8]، وضراب بن

---

(1) يحيى الجبوري: الإسلام والشعر، ص: 31- 32.

(2) انظر تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، ص: 189 وما بعدها.

(3) انظر كتابه: صدر الإسلام، ص: 15 و122.

(4) انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: 210 وما بعدها، ط2، مصر، 1935.

(5) انظر كتابه: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص: 168 ـ 169.

(6) الدكتور شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص: 13.

(7) طبقات فحول الشعراء، ص: 217.

(8) هو عبد الله بن الزبعري السهمي القرشي، أبرز شعراء مكّة في الجاهلية والإسلام كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكّة، فهرب إلى نجران، ثم عاد إلى مكّة فأسلم واعتذر، ومدح =

الخطاب[1]، وهبيرة بن أبي وهب[2] وغيرهم وكانوا يتعرضون للرسول الكريم وأنصاره وصحابته بالإضافة إلى تعرضهم للدين الإسلامي الحنيف.

وبجانب هؤلاء ظهر شعراء المسلمين الذين كانوا يدافعون عن الإسلام والرسول، حيث برز منهم حسان بن ثابت[3]، وكعب بن مالك[4] وعبدالله بن رواحة[5]، وكان الرسول ﷺ يحثهم على نصرته، ويدعوهم إلى هجو قريش، إذ يقول لحسان بن ثابت: «اهج قريشاً فوالله لهجاؤك عليهم أشدُّ من وقع السّهام في غَلَسِ الظلام، اهْجُهُمْ ومعك جبريل روح القدس[6]».

وكان كثير من شعراء العرب واليهود يقفون مع قريش ويؤلبون على رسول الله وأصحابه وأنصاره مثل أمية بن أبي الصلت الذي رثى قتلى قريش في بدر[7]،

= النبيّ ﷺ، فعفا عنه، توفي نحو 15هـ (انظر شعر عبد الله بن الزبعري، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، ص: 7 وما بعدها وابن سلام: م. ن.، ص: 57 وما بعدها).

(1) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي: شاعر فارس قاتل المسلمين وهجاهم، ثم أسلم يوم فتح مكّة. توفي سنة 13هـ (الزركلي: الأعلام، مج3، ص: 215).

(2) هو هبيرة بن أبي وهب: من شعراء قريش في الجاهلية، وبعد البعثة ناهض الدين الإسلامي (الدكتور فايز ترحيني: المرجع السابق، ص: 190).

(3) هو حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجي، شاعر مشهور من فحول شعراء الجاهلية والإسلام، وبعد إسلامه كان شاعر الرسول ﷺ يذبّ عن المسلمين بشعره، وأخباره كثيرة في كتب التراجم والتاريخ والسيرة والأدب (انظر ابن هشام السيرة النبوية في أكثر من موضع، وابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ص: 60 وما بعدها. وانظر في الفهرس مواضع أخرى، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 192 وما بعدها).

(4) هو كعب بن مالك بن أبي كعب من أوائل المسلمين الذين أسلموا في يثرب قبل هجرة الرسول ﷺ، وبعد الهجرة أصبح من شعراء أصحاب رسول الله ﷺ المعدودين، وكان الرسول ﷺ يشجّعه على قول الشعر... (انظر ابن سلام: م. ن.، ص: 52 وما بعدها. والأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 164 وما بعدها. وابن هشام: م. ن.، في مواضع متعددة).

(5) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري: شاعر وصحابي، كان مقرباً من الرسول الكريم، توفي سنة 8هـ (انظر ابن سلام: م. ن.، ص: 54- 55، والأعلام، مج4، ص: 86).

(6) ابن رشيق: العمدة، ج1، ص: 31 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(7) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 30. وانظر عنه ابن سلام: م. ن.، ص: 44 وما بعدها.

والأسود بن يعفر الذي أشاد بانتصارها في أحد[1]، وشعراء اليهود[2] مثل كعب بن الأشرف، وسلام بن الحقيق، وسماك اليهود، هؤلاء جميعاً كانوا يتزعمون الحملة ضد الإسلام، وظلت أفكارهم وألفاظهم وأساليبهم تسير على النهج الجاهلي، كما أن أشعار شعراء البادية الذين نشأوا في الجاهلية، ولم يتأثروا كثيراً بالإسلام، كانت غزيرة، وتمتاز بالمتانة والقوة.

موقف القرآن الكريم من الشعر:

أما موقف القرآن من الشعر والشعراء، فإنه لم ينفر من الشعر عامة ولم يذم الشعراء أجمعين، وقد وردت الإشارة إلى الشعر والشعراء في ستة مواضع مختلفة من القرآن الكريم لغايات مختلفة وهي:

1 - قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 224 ـ 227].

2 - قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: 69، 70].

3 - قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: 5].

4 - قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

5 - قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 36، 37].

---

(1) انظر ابن سلام: م. ن.، ص: 32 وما بعدها، والأصبهاني: م. ن.، مج 13، ص: 14 وما بعدها.

(2) انظر عن شعراء اليهود ابن هشام: المصدر السابق في مواضع مختلفة. وابن سلام: م. ن.، ص: 70 وما بعدها.

6 - قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة: 38 - 41].

يبدو من خال هذه الآيات الكريمة أنها تتجه في مجملها إلى تنزيه النبي ﷺ عن أن يكون شاعراً، وإنما هو نبي يوحى إليه بكلام الله، وأن ما يتلوه من آيات الكتاب الكريم الذي أنزل إليه ليس بشعر ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾. إذن فالنبي ليس بشاعر والقرآن ليس بشعر وهذا بلا شك ولا جدال.

تبقى الآية الوحيدة التي وقف الدارسون والمؤرخون عندها طويلاً هي ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ * أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 224 - 227].

لقد وصف الله جل شأنه فئة من الشعراء بالطيش والسفه والغواية، وبأنهم يقولون ما لا يفعلون، أي: أنهم متهمون بالكذب والغلو، والبعد عن الحق، وطريق الرشاد؛ وذكر بعض المفسرين أن الشعراء المذمومين في الآية الكريمة هم شعراء المشركين: عبدالله بن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وغيرهما[1]، وأن القرآن الكريم يستثني في حكمه على الشعراء أولئك المؤمنين الصالحين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ويقصد بالمستثنى شعراء رسول الله: حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة، والكعبان: كعب بن مالك، وكعب بن زهير، وغيرهم من الصالحين[2].

ولعل ما يؤكد هذا الفهم للآية الكريمة ما روي من أن حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، جاءوا إلى رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية، وهم يبكون ويقولون: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنّا شعراء، فتلا

(1) انظر الطبري: تفسير، ج19، ص: 78، والزمخشري: الكشاف، ج3، ص: 343- 344.

(2) انظر الزمخشري: م. ن.، ج3، ص: 345.

النبي ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1].

مما سبق يتضح موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء، فهو يفرق بين فئتين من الشعراء، فئة ضالة مشركة، وفئة مؤمنة صالحة، فوقف موقف الإنكار من شعر الفئة الظالمة المشركة التي تجافي الحق والعدل، ولم ينفر من شعر الفئة المؤمنة، ولم يذم شعراءها، بل وكأنه كان يشجع بشكل أو بآخر الشعراء الذين ينافحون عن رسول الله ﷺ، ويكافحون هجاة قريش، لكنه في الوقت نفسه أحدث في نفوس بعض الشعراء ما يشبه الصرفة التي تصرف الشعراء عن قول الشعر، وجعل بعضهم غير الذي عليه في جاهليته فلان شعره وضعف، فهذا لبيد قال الشعر في الجاهلية دهراً ثم أسلم، فانقطع عن قول الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً هو:

الحَمْدُ للهِ إذِ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي ... حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإسْلَامِ سِرْبَالاَ

وقال له عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنشدني من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران[2]، وهذا حسان بن ثابت الذي لان شعره في الإسلام فلم يبلغ مبلغه في جاهليته حتى قال فيه الأصمعي: الشعر نَكِدٌ بابه الشر، فإذا أدخل في الخير لان وضعف[3]، وهذا لا يعني أن جميع شعراء صدر الإسلام لان شعرهم وضعف، فقد أشرت من قبل إلى أن شعر المشركين لا يختلف في شيء عن شعر الجاهليين لأنهم لم يتأثروا بتعاليم الدين الجديد، وأن الشاعرية القرشية قد استيقظت وقويت بعد ما كانت هينة يسيرة في الجاهلية للأسباب المذكورة آنفاً، وكذلك شعراء اليهود الذين وقفوا مع قريش يؤلبون على رسول الله وأصحابه، ظلت أفكارهم وأساليبهم تسير على النهج الجاهلي، وقد نبغ بينهم شعراء كثيرون ذكرت أشهرهم، كما ظهرت في هذا

(1) الطبري: م. ن.، ج19، ص: 79.

(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 171- 172. وابن سلام: م. ن.، ص: 29- 30. وعبد اللطيف عبد الحليم: في تاريخ الأدب في عصر صدر الإسلام، ص: 43- 44.

(3) ابن قتيبة: م. ن.، ص: 192.

العصر شواعر كثيرات أمثال صفية بنت مسافر، وهند بنت عتبة، وصفية بنت عبد المطلب، وقتيلة بنت النضر، وعمرة بنت دريد، ونائلة بنت الفرافصة، وعفراء بنت عقال، وغيرهن[1].

الشعراء المخضرمون:

الشعراء المخضرمون هم الذين نظموا الشعر في الجاهلية، ثم أسلموا وظلوا ينظمون الشعر[2]، وتطلق كلمة مخضرم تجوُّزاً على كل من شهد عصرين، فقالوا: رجل مخضرم إذا عاش جانباً من عمره في الجاهلية، وجانباً في الإسلام، وشاعر مخضرم: أدرك الجاهلية والإسلام[3].

وأشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن زهير، والحطيئة[4]، ومالك بن الريب التميمي[5]، والنابغة الجعدي[6]، والخنساء، وهند بنت عتبة، وغيرهم.

مميزات الشعر المخضرم:

إذا نظرنا إلى الشعر المخضرم في صدر الإسلام وجدناه قسمين:

قسم ظل جاهلياً في كل شيء، خالياً من أية مسحة إسلامية تشعرنا بأنه نظم

---

(1) سنفصّل الحديث عن فنون شعرهنّ وخصائصه في الفصول الآتية.

(2) الدكتور عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص: 260. وانظر ابن منظور: لسان العرب، مادة خضرم، والفيروزآبادي: القاموس المحيط (ت محيي الدين محمد)، مادة خضرم.

(3) الدكتور فايز ترحيني: الإسلام والشعر، ص: 94 وما بعدها، ومصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 62.

(4) الحطيئة: هو جرول بن أوس من بني عبس، شاعر مخضرم أدرك معاوية. كان من فحول الشعراء، شديد الهجاء... (انظر الأشنانداني: معاني الشعر، ص: 105).

(5) مالك بن الريب: هو مالك بن الريب المازني التميمي، شاعر مخضرم، اشتهر في أوائل العصر الأموي، توفي نحو 60هـ (الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 261).

(6) النابغة الجعدي: هذا لقبه الذي اشتهر به، وهو عبد الله بن قيس، شاعر مخضرم، أسلم وحسن إسلامه، وكان من الصحابة... (الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان: معجم شعراء الحماسة، ص: 129- 130).

في ظلال الدين الجديد، فظلت ألفاظه وأساليبه تسير على النهج الجاهلي. وقسم آخر منه قد أصبح إسلامياً بمرور الأيام، فقل فيه المديح والهجاء، وكثر فيه الرثاء للشهداء والتمدح للإسلام، والإشادة بشجاعة المسلمين، والْحَثّ على الجهاد، وتسللت إليه ألفاظ جديدة، من القرآن الكريم، وتردّدت على شفاههم تعابير لم تكن مألوفة من قبل، كالجنة والنار، والكفر والإيمان، والصلاة والزكاة، والتقوى، والحلال، والجهاد، ويوم الحشر، والشهادة... إلى ما هنالك من الألفاظ والتعابير التي ظهرت بظهور الدين الجديد. ويلاحظ على تلك الألفاظ والمعاني الدينية الواردة في شعرهم البساطة والوضوح، مترسمين في ذلك منهج القرآن الكريم.

الشعر في عهد بني أمية:

ظل الشعر في العصر الأموي يسير في التيار المحافظ المتمثل في الاهتمام بالأغراض التقليدية التي عرض لها الشعر الجاهلي، كما سار على «نهج الأقدمين في بناء القصيدة حيث كان الشعراء ينظرون إلى موضوعاتهم عبر مخزونهم الثقافي، فيعبرون عنها بما يهيئه لهم ذلك المخزون، فيترجمون عن تجاربهم ومشاعرهم بأسلوب جاهلي، غير أن الإسلام رقق ألفاظهم وأساليبهم، وزادها عذوبة وسهولة، وظهرت آثار القرآن والحديث في تعابيرهم وأفكارهم.

وقد تطور الشعر الأموي، في بعض الجوانب، تطوراً ملحوظاً بتأثير أسباب سياسية واجتماعية سبق ذكرها، كالتجديد الموضوعي الذي يتجلى في طرق بعض الموضوعات التي كانت ضعيفة في الجاهلية: كالغزل والشعر السياسي.

وكان الغزل من الفنون الشعرية التي ازدهرت في البيئة الحجازية لانتشار الترف هناك، وكثرة المغنين والجواري، فصار فَناً قائماً بذاته، وانقسم في مضمونه إلى مدرستين مميزتين: مدرسة الغزل العذري أو العفيف، ويمثلها جميل بثينة[1]، ومجنون ليلى، وكثير عزة[2]. ومدرسة الغزل الإباحي أو الحضري،

---

(1) هو جميل بثينة بن عبد الله بن معمر من بني عذرة، شاعر أموي وأحد شعراء الغزل العذريين، عرف بحبّه لبثينة، حتى اشتهر بها، توفي سنة 82هـ (ابن سلام: طبقات الشعراء، ص: 137، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 286 وما بعدها... إلخ).

(2) كثيّر عزة: شاعر مشهور من شعراء الدولة الأموية، ورائد من روّاد الغزل العذري توفي =

ويمثلها: عمر بن أبي ربيعة[1]، والعرجي[2]، وغيرها.

وبين هذين اللونين من الغزل، نجد غزلاً من نوع آخر هو الغزل التقليدي الذي كان يقوله الشعراء استجابة لتقاليد القصيدة العربية القديمة، ويمثل هذا الاتجاه غزل جرير[3] والأخطل[4]، والفرزدق[5]، والراعي[6]، وغيرهم.

أما الشعر السياسي فقد نشأ نتيجة لما سبق أن أشرنا إليه من تناحر الأحزاب، وصراعها الدموي، وتنافسها على الخلافة، وتعدد الفرق، وانضواء عدد كبير من الشعراء تحت لوائها للدفاع عنها، وقد أسهم بنو أمية في إشعال نار الفتنة، فكان من شعرائها، الأخطل، وجرير، وغيرهما.

ومن شعراء الشيعة السيد الحميري[7]، وأبو الأسود الدّؤلي، والفرزدق

= سنة 105هـ (ابن سلام: م. ن.، ص: 122 وما بعدها. وابن قتيبة: م. ن.، ص: 340).

(1) عمر بن أبي ربيعة: شاعر رقيق، مشهور من شعراء الغزل الإباحي في عصر بني أميّة، مات غرقاً سنة 93هـ. (انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 371 وما بعدها. والأصبهاني: الأغاني، مج1، ص: 78 وما بعدها. وابن خلكان: وفيات الأعيان، مج3، ص: 436 وما بعدها...).

(2) العرجي: هذا لقبه الذي اشتهر به، واسمه عبد الله بن عمر، من أشهر شعراء الغزل في العصر الأموي، كان ينحو منحى عمر بن أبي ربيعة وتشبه به فأجاد... (انظر ابن قتيبة: م. ن.، ص: 386- 386. والأصبهاني: م. ن.، مج1، ص: 362 وما بعدها).

(3) جرير: هو جرير بن عطية، شاعر مشهور من أبرز الشعراء الأمويين، وعرف بمناقضاته للفرزدق والأخطل: توفي سنة 110هـ (انظر ابن قتيبة: م. ن.، ص: 309 وما بعدها. والأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 3 وما بعدها...).

(4) الأخطل: لقب غلب عليه، وهو غياث بن غوث من بني تغلب، شاعر من فحول الشعراء في القرن الأول، وكان نصرانياً توفي سنة 95هـ. (الأصبهاني: م. ن.، مج1، ص: 281 وما بعدها. وابن قتيبة: م. ن.، ص: 325 وما بعدها).

(5) الفرزدق: لقب غلب عليه، واسمه همام بن غالب، شاعر مشهور من شعراء الدولة الأموية، توفي سنة 110هـ (انظر ابن قتيبة: م. ن.، ص: 315 وما بعدها. والمرزباني: الموشح، ص: 156 وما بعدها).

(6) الراعي: لقب عرف به، واسمه عبيد بن جندل، وهو من فحول الشعراء في العصر الأموي، هجاه جرير لأنه أحسّ منه ميلاً للفرزدق. (انظر الأصبهاني: م. ن.، مج23، ص: 348 وما بعدها. وابن سلام: م. ن.، ص: 103 وما بعدها).

(7) السيد الحميري: السيد لقبه، واسمه إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، شاعر أموي مطبوع، وكان شيعة لعلي، وأبواه من الخوارج الإباضية، وقد سئل، من أين جاءه =

والكميت[1]، وهند بنت زيد بن مخرمة[2]، وغيرهم.

ومن شعراء الخوارج: قطري بن الفجاءة، والطرماح[3] بن الحكم، وعمران ابن حطان، وسواهم.

ومن شعراء الزبيريين: عبيد الله بن قيس الرقيات[4].

ومن النساء الشاعرات اللائي اشتهرن في هذا العصر: ليلى الأخيلية وميسون بنت بحدل، وليلى العامرية، وزينب بنت الطثرية، وغيرهن[5].

الحياة الفنية:

أ - في صدر الإسلام:

شاركت المرأة في الحياة الفنية، فقد روي عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: دخل أبو بكر رضي الله عنه، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث، وهو يوم معلوم بين الأوس والخزرج، فقال أبو بكر: أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ، وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا[6].

= التشيّع؟ فأجاب: غاصت عليّ الرحمة غوصاً. توفي سنة 173هـ. (الأصبهاني: م. ن.، مج7، ص: 224 وما بعدها. والدكتور عبد الحسيب طه حميدة: أدب الشيعة، ص: 280 وما بعدها .

(1) الكميت بن زيد: شاعر مشهور من شعراء العصر الأموي، عرف بالتشيّع ومدح آل البيت، عليهم السلام، وله القصائد المعروفة بالهاشميات. توفي سنة 126هـ. (الأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 328 وما بعدها. ابن قتيبة: م. ن.، ص: 390 وما بعدها).

(2) سنفصّل الحديث عنها في الفصل الرابع.

(3) الطرماح بن حكيم: شاعر من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، اعتقد مذهب الشراة الأزارقة وكان هجّاء معاصراً للكميت صديقاً له، توفي نحو 125هـ. (الأصبهاني: م.ن؛ مج12، ص: 31 وما بعدها. والدكتور إحسان عبّاس: شعر الخوارج، ص: 235).

(4) عُبَيْد الله بن قيس الرقيّات: شاعر قريش في العصر الأموي، ولقب الرقيّات لأنه تغزّل بثلاث نسوة اسم كل واحدة منهنّ رقيّة، وهو زبيري الهوى، خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك ابن مروان ولزمه حتى قتل مصعب. توفي نحو 85هـ. (الأصبهاني: م. ن.، مج5، ص: 64 وما بعدها).

(5) سنفصّل الحديث عنهن وعن فنون شعرهنّ في الفصول الآتية.

(6) ابن خرداذبة (211- 300هـ): مختار من كتاب اللهو والملاهي، ص: 13. وانظر =

وكان لحسان بن ثابت جارية اسمها سيرين تغنيه بشعره، وقد جلس يوماً في ظل حصنه ومعه أصحابه، وهي تغنيه بمزهرها:

هَـلْ عـلـيّ وَيْـحَـكُـمْ　　　إنْ لَـهَـوْتُ مِـنْ حَـرَجْ

فمر النبي، فسمعها، فضحك وقال: لا حرج إن شاء الله[1].

وسيرين أمة قبطية كان الرسول ﷺ قد أهداها إلى حسان[2].

ب - في العصر الأموي:

أما العصر الأموي، فقد كان عصر الغناء ومجالسه في إقليم الحجاز، وبخاصة في مكة والمدينة، وكان تأثير الغناء عظيماً في نفوس الناس رجالاً ونساء، ومما يروى أن تاجراً عراقياً قدم المدينة بخُمُرٍ[3]، فباعها كلها إلا السود، فشكا ذلك إلى الدارمي[4]، وكان قد تنسك وترك الشعر، ولزم المسجد، فقال: ما تجعل لي على أن احتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك؟ قال: ما شئت. فعمد الدارمي إلى ثياب نسكه فأقصاها وعاد إلى مثل شأنه الأول من العبث، وقال شعراً ورفعه إلى صديق له من المغنين فغنى به، وكان الشعر:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ في الخِمَارِ الأسْوَدِ　　　مَاذَا فَعَلْتِ بِزَاهِدٍ مُتَعَبِّدِ

قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ ثِيَابَهُ　　　حَتَّى خَطَرْتِ لَهُ بِبَابِ المَسْجِدِ

رُدِّي عَلَيْهِ صَلَاتَهُ وَصِيَامَهُ　　　لَا تَقْتُلِيهِ بِحَقِّ دِينِ مُحَمَّدِ

فشاع هذا الغناء في المدينة، وقالوا: قد رجع الدارمي عن نسكه، وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم تبق مليحة في المدينة إلا اشترت خماراً أسود.

= الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، ج2، ص: 242.

(1) ابن خرداذبة: م. ن.، ص: 36.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 306.

(3) الخمرُ: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها من ثوب ونحوه.

(4) الدارمي: من ولد سويد بن زيد الذي كان جده قتل أسعد بن عمرو بن هند، ثم هربوا إلى مكّة، فحالفوا بني نوفل بن عبد مناف، وكان معاصراً لعمر بن عبد العزيز وكانت له أشعار ونوادر. (الأصفهاني: الأغاني، مج3، ص: 44).

(5) الأصفهاني: م. ن.، مج3، ص: 44- 45. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج6، ص: 15- 16.

وباع التاجر جميع ما كان معه، وعندئذ عاد الدارمي إلى نسكه[1].

ج - أشهر المغنين والقيان:

وقد اشتهر في صدر الإسلام والعصر الأموي كثير من المغنين أمثال ابن مُحرز[2]، وابن سُريج[3]، والغريض[4]، وغيرهم[5]. غير أن عدد المتفوقات من القيان كان أكثر، وبخاصة في العصر الأموي الذي عرف فيه فن الغناء تطوراً كبيراً وسريعاً، وقد عمد بعض الخلفاء إلى الجواري يبذلون فيهن الأموال الطائلة ويملأون بهن القصور كما فعل يزيد بن عبد الملك الذي اشترى سلامة[6] جارية سهيل بن عبد الرحمن، المغنية الحاذقة بعشرين ألف دينار، واشترت له زوجته سعدة جارية أخرى تدعى حبابة[7] بأربعة آلاف دينار، وقد هام بها يزيد هياماً شديداً صرفه عن أمور دولته حتى لامه أهله وأصدقاؤه. ومثل يزيد كان ولده الوليد الذي كان مهملاً لأمره، وكان صاحب ملاه وقيان ولهو ومجون[8].

وعلى الرغم من ذلك فإن العصر الأموي، في جملته، ظل محافظاً على صبغته العربية الصرف، وأخلاقه الإسلامية، إذ كان أغلب الخلفاء الأمويين

---

(1) ابن محرز: مغنٍّ معروف له أخبار متفرقة في الأغاني. (انظر الفهارس).

(2) ابن سريج: هو عبيد بن سريج، وكنيته أبو يحيى، ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي في خلافة سليمان أو في خلافة الوليد بن عبد الملك في عصر بني أمية عن عمر يناهز خمسة وثمانين عاماً (أنظر سمير شيخاني: أشهر المغنين عند العرب، ص: 50 وما بعدها. .

(3) الغريض: لقب مغنٍّ معروف اسمه عبد الملك، وكنيته أبو زيد، أخذ الغناء عن ابن سريج، كان ينوح للنساء في المآتم، توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك. (انظر ترجمته في الأغاني، ج2، ص: 318- 359).

(4) انظر سمير شيخاني: أشهر المغنين عند العرب، والأصفهاني: الأغاني (انظر الفهارس) .

(5) سنفصّل الحديث عنها في الفصل الرابع.

(6) حبابة: جارية يزيد بن عبد الملك، مغنية أخذت الغناء عن ابن سريج... (ابن خرداذبة: م. ن. ، ص: 40).

(7) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب): تاريخ اليعقوبي، مج2، ص: 333. وجرجي زيدان: تاريخ التمدّن الإسلامي، ج5، ص: 163، .

(8) عبد الحميد فايد: المرأة وأثرها في الحياة العربية، ص: 54.

منشغلين بالفتوحات وتوطيد الملك وإطفاء الفتن والثورات، فلم يكن لديهم من الهدوء الذي يمكنهم من الإسراف في اللهو والغناء كما حدث في العصر العباسي، فيما بعد.

وكان النخاسون يعتنون بتثقيفهن وتعليمهن الشعر والموسيقى لتروج سوقهن، وقد نبغ عدد كبير منهن، وتفوقن على الحرائر في حمل مشعل الثقافة والتأثير على من يخالطهن من الأدباء والخلفاء[1].

وأشهر قينات صدر الإسلام والعصر الأموي: عزة الميلاء[2]، وجميلة[3]، وسلّامة، وحبابة، وغيرهن. وكانت الجواري المغنيات الممثلات الحقيقيات للجنس اللطيف من الوجهة الفنية حينئذ. وعلى الرغم من التضييق على الحرائر، فإن بعضهن قد شاركن في الحياة الأدبية والفنية مشاركة فعالة، فكانت السيدة سكينة[4] بنت الحسين سيدة الناقدات حكم الشعراء الذي لا يرد حكمه، فمنزلها كان كعبة الأدباء والعلماء أمثال جرير والفرزدق وكثير عزة، وجميل بثينة، وأشعب، ونصيب، وغيرهم.

---

(1) عزة الميلاء: مغنية مدنية، كانت مولاة للأنصار، وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز، وكان الشاعر حسان بن ثابت معجباً بها، توفيت نحو سنة 115هـ. (انظر: الأصفهاني: الأغاني، مج17، ص: 101 وما بعدها. وابن خرداذبة: م. ن.، ص: 37 والزركلي: الأعلام، ج4، ص: 230 والدكتور صالح المهدي: الموسيقى العربية تاريخها وأدبها، ص: 23).

(2) جميلة: (أم عمرو) مغنية مدنية، مولاة لبني سليم وكانت من أعلم الناس بالغناء، وكان معبد يقول: أصل الغناء جميلة ونحن فروعه، توفيت نحو سنة 125هـ. (انظر الأصفهاني: م. ن.، مج8، ص: 188 وما بعدها. وابن خرداذبة: م. ن.، ص: 38).

(3) السيدة سكينة: هي بنت الحسين عليه السلام وحفيدة الإمام عليّ كرم الله وجهه وزوجة مصعب ابن الزبير، وكانت إقامتها بالمدينة، وفيها توفيت سنة 117هـ. (انظر الأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 95 وما بعدها. وانظر أيضاً: ص 89- 91. والمجلد: 17، ص: 7 وما بعدها، وفيه أكاذيب كثيرة على سكينة وآل البيت. (انظر: وليد الأعظمي: السيف اليماني في نحو الأصفهاني، ص: 73 وما بعدها).

الفصل الثالث

أغراض شعر النساء في صدر الإسلام

تمهيد:

هذا الفصل خاص بأغراض شعر المرأة في صدر الإسلام، وقد قمتُ فيه بعملية استقراء لنتاجها في هذه المرحلة، فوجدتُ أنّ المرأة شاركت الرجل في قرض الشّعر، وسايرته في معظم أبوابه المعروفة في ذلك العصر، كالرثاء، والفخر، والغزل، والشكوى والاستعطاف، وإثارة الحماس والتّحريض على القتال، وغيرها... غير أن شعر الرثاء كان أكثر الأغراض تداولاً لدى الشواعر. ومردّ ذلك إلى كون المرأة أسرع إلى إظهار الحزن والتعبير عنه، وتصوير انفعالاتها وجزعها، لرهافة إحساسها، وكان لها في هذا الفن الإسهام الأوفر، لكنّ رثاءها ظلّ امتداداً لما كان عليه الرثاءُ في العصر الجاهلي من أفكارٍ ومعانٍ ترتبط بالنّدب والتّأبين والتعزية، بيد أنّ الشاعرة المسلمة تأثرت بتعاليم الدين الجديد، وأفادت منه في معانيها وأساليبها؛ ويلاحظ أنّ أغلب شعرها مقطّعاتٌ وأبياتٌ، إذ لم يعرف عنها إلا بعض القصائد، ولذلك كانت تدخل في الموضوع مباشرة دون مقدّمات، وقد اشتهرت في هذا العصر شاعرات كثيرات، منهنّ: أروى بنت عبد المطلب، وأختها صفية، وهند بنت عتبة، وهند بنت أثاثة، وضباعة بنت عامر، وقتيلة بنت النضر، وعفراء بنت عقال العذرية، وخولة بنت الأزور، ونائلة بنت الفرافصة، وفريعة بنت همام، وغيرهن... وقد تناولتُ في هذا الفصل أغراض شعرهنّ بالدراسة والتحليل، مبتدئاً بالرثاء لأنه الغرض الذي حظي باهتمام أغلب الشواعر.

أ - الرثاء:

الرثاء من الأغراض الشعرية التي برعت فيها المرأة، لأنّه من الموضوعات القريبة إلى نفسها، فالحزن والبكاء واللّوعة والأسى، وندب الميت، كان من مهام النساء، لأنّ الحزن ينبعثُ عن النفوس الحساسة، ولا شكّ أنّ المرأة أقوى إحساساً، وأشدّ حزناً، وأرقّ عاطفةً وشعوراً من الرجل، وأكثر جزعاً، وأعظم لوعة[1].

وقد كثُر شعر الرثاء في صدر الإسلام بسبب كثرة الحروب بين المسلمين والمشركين، فشاركت المرأة المسلمة الرجل في رثاء الشهداء وندبهم، كما شاركت المرأة المشركة أيضاً في رثاء قتلى المشركين، فبكت المرأة زوجها، والأم ابنها، والبنت أباها، والأخت أخاها... وقد اشتهرت شاعرات كثيرات في هذا العصر، سنعرض لبعض ما وصلنا من شعرهن... وهو، في مُجمله، في رثاء الأشخاص والأصنام[2]...

١ - بكاء الأفراد:

وأوَّل ما يطالعنا من شعرهن شعر هند بنت عتبة بن ربيعة[3]، فقد كانت مصيبتُها في موقعة بدر كبيرة لمّا هُزِمت قريش، وقد قُتِل فيها والدُها عتبة، وعمُّها

---

(1) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 7. والدكتور يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، ص: 316.

(2) هناك أنواع من الرثاء: رثاء الأشخاص، ورثاء الثغور والمدن والممالك، ورثاء الحيوان، ورثاء الأصنام وغيرها. لكن شواعرنا في هذا العصر لم يَنْظُمْنَ إلا في رثاء الأشخاص والأصنام حسب ما وصلنا من شعرهن.

(3) هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، صحابية قرشية مشهورة، وهي أم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان: تزوّجت أبا سفيان بعد مفارقتها لزوجها الأول «الفاكه بن المغيرة» المخزومي، في خبر طويل من طرائف أخبار الجاهلية. وكانت فصيحة جريئة، صاحبة رأي وحزم وأنفة، تقول الشعر الجيد، وأكثر ما عُرِفَ من شعرها مراثيها لقتلى «بدر» من مشركي قريش قبل أن تُسلم، وشهدت «أُحُداً» وفعلت ما فعلت بحمزة ومعها بعض النسوة يمثّلن بقتلى المسلمين، ويَجْذَعْن آذانهم وأنوفهم، وتجعلها هند قلائد وخلاخيل، وترتجز في تحريض المشركين والنساء من حولها يضربن الدفوف... وظلت تؤلّب على المسلمين إلى يوم فتح =

شيبة، وأخوها الوليد، فقالت تبكي أباها:

أعَيْنَيَّ جُودا بدَمْعٍ سَرِبْ ... على خير خِنْدِفَ[1] لم يَنْقلِبْ
تَداعَى لَهُ رهطُهُ غُدْوَةً ... بَنُو هَاشِمٍ وبنُو المطَّلِبْ
يُذِيقُونهُ حَدّ أسْيَافِهِمْ ... يعُلُّونَهُ بعْدَمَا قَدْ عَطِبْ
يَجُرُّونهُ وعَفِيرَ التُّرابِ ... علَى وجْهِهِ عَارِياً قَدْ سُلِبْ
وكان لنَا جَبَلاً راسِيًا ... جَمِيلَ المِراةِ[2] كثِير العُشُبْ
وأمَّا بُرَيٌّ[3] فلَمْ أغنِهِ ... فَأوتِي مِن خَيْرِ مَا يُحْتَسِبْ[4]

ولم تتوقف هند عند هذه الأبيات في بكائها لأبيها، بل كانت من حين لآخر يُعاوِدُها الحنين إليه فتبكيه من جديد، كما في هذه الأبيات التي تبكي فيها أباها وتُهدّدُ خُصومها، قالت:

يا عيْنُ بكّي عُتْبَهْ ... شَيْخًا شَدِيدَ الرَّقَبَهْ
يُطْعِمُ يَوْمَ المَسْغَبَهْ ... يَدْفَعُ يَوْمَ المغْلَبَهْ
إنِي عَلَيْهِ حَرِبَهْ[5] ... مَلْهُوفَةٌ مُسْتَلِبَهْ

= مكة، فكانت ممّن أهدر النبيّ ﷺ دماءهم، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة. فجاءته مع بعض النسوة، وهو بالأبطح فأعلنت إسلامها، ورحّبَ بها، وأخذ البيعة عليهن، ومن شروطها ألاّ يسرقن ولا يزنين، فقَالَتْ: وهل تزني الحرة وتسرق يا رسول؟!! قال: ولا يقتلن أولادهُنّ، قالت: وهل تركتَ لنا ولداً إلاّ قَتَلْتَهُ يوم بدر؟... وكان لها صنم في بيتها تعبده، فلما أسلمتْ عادت إليه، وجعلت تضربه بالقدّوم حتى فلذته فلذةً فلذةً، وهي تقول: كُنّا مِنك في غرور. وكانت لها تجارة في خلافة عمر، وشهدت اليرموك، وحرّضت على قتال الروم، وأخبارها كثيرة، وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب في اليوم الذي توفي فيه أبو قحافة والد أبي بكر الصديق، وذلك عام 14هـ. (انظر أخبارها بالتفصيل في: ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج6، ص: 86. وابن سعد: الطبقات، مج8، ص: 235 وما بعدها).

(1) خِنْدَف: قبيلة سميتْ باسم امرأة إلياس بن مضر بن نزار.

(2) جميل المَرَاة: أرادت مرآة العين، فنقلت حركة الهمزة إلى الساكن، فذهبت الهمزة.

(3) بُرِيُّ: تريدُ به: البُراءُ، وهو رجلٌ، فصغرته.

(4) ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 38.

(5) حَرِبة: حزينة غضبى.

لَـنَـهْـبِـطَـنّ بِـشَـرِبَـهْ — بِـغَـارَةٍ مُـنْـثَـعِـبَـهْ[1]
فِـيـهَـا الـخُـيُـولُ مُـقْـرِبَـهْ — كُـلُّ جَـوَادٍ سَـهْـلَـبَـهْ[2]

كما بكت رجالها من قومها الذين قُتلوا يوم «بدر» فقالت:

لِلهِ عَـيْـنَـا مَـنْ رأى — هُـلْـكًا كَـهُـلْـكِ رِجَـالِـيَـهْ
يَـا رُبَّ بَـاكٍ لِـي غَـدًا — فـي الـنـائـبـات وبـاكـيـهْ
كَـم غَـادَرُوا يَـوْمَ الْـقَـلِـيـ — ـبِ[3] غَـداةَ تِـلْـكَ الـوَاعِـيَـهْ[4]
مِـن كَـلّ غَـيْـثٍ فِـي الـسِّـنِـيـ — ـنَ إذ الـكَـوَاكِـبُ خَـاوِيَـهْ[5]
قَـدْ كُـنْـتُ أحْـذَرُ مَـا أرَى — فَـالـيَـوم حَـقَّ حَـذَارِيَـهْ
يَـا رُبَّ قَـائِـلَـةٍ غَـدًا — يَـا وَيْـح أمّ مُـعَـاوِيَـهْ[6]

ولهند أبياتٌ أخرى ترثي فيها قتيلا من بني لُؤيّ بن غالب، وتبعثُ من خلالها برسالة عتاب إلى أبي سفيان، وقد استهلتها بالحكمة، وهي نادرة في رثاء المرأة، تقول فيها:

يُـرِيـبُ عَـلَـيْـنَـا دَهْـرُنَـا فَـيَـسُـوءُنَـا — ويَـأْبَـى فـمَـا نَـأتِـي بِـشَـيْءٍ يُـغَـالِـبُـهْ
أبَـعْـدَ قَـتِـيـلٍ مِـنْ لُـؤَيٍّ بْـن غـالـب — يُـرَاعُ امْـرُؤٌ إن مَـاتَ أو مـاتَ صَـاحِـبُـهْ
ألا رُبَّ يَـوْمٍ قَـدْ رُزِئْـتُ مُـرَزَّأً[7] — تَـرُوحُ وتَـغْـدُو بِـالـجَـزِيـلِ مَـوَاهِـبُـهْ
فـأبْـلِـغْ أبَـا سُـفْـيَـانَ عَـنّـي مَـالـكًـا[8] — فَـإنْ أَلْـقَـهُ يـومـاً فـسَـوْفَ أُعـاتِـبُـهْ

---

(1) مُنْثَعِبة: سائلة بسرعة، يقال: انثعب الماء: إذا سال، ويُروى: منشعبة، أي: مُتفَرِّقَة.

(2) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 40. والسهلبة: الفرس الطويلة.

(3) القليب: البئر، وقيل البئر القديمة.

(4) الواعية: الصراخ.

(5) إذا الكواكب خاوية: يعني أنها تسقط في مغربها عند الفجر، ولا يكون معها أثرٌ ولا مطرٌ، على مذهب العرب في الجاهلية في نسبتهم ذلك إلى النجوم.

(6) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 39.

(7) المرزأ: الكريم الذي يرزؤه القاصدون والأضياف، أو ينقصون من ماله.

(8) المألُكُ: جمعه مالَكة، وهي الرسالة التي تبلّغ باللسان.

فقَدْ كانَ حَرْبٌ يَسْعَرُ الحَرْبَ[1] إنَّهُ لِكُلِّ امْرِئٍ فِي النَّاسِ مَوْلًى يُطالِبُهْ[2]

وقد بلغ من اشتهار هند بنت عتبة بالرثاء، وافتخارها بفضائل قتلاها ومكانتهم أن صارت تباري غيرها بعظم مصيبتها كما فعلت مع الخنساء حين فاخرتها هند وعاظمتها بأنّها أكثر مصيبة، فقد رُزئت بأبيها عتبة بن ربيعة، وعمّها شيبة، وأخيها الوليد، فرثتهم مُرّ الرثاء، فلمّا بَلَغَها أنّ الخنساء تشهد عكاظاً، وترثي أباها عمر بن الشريد وأخويها صخراً ومعاوية، وتعاظم العرب بمصيبتها فيهم، قرّرت هند أن تشهد الموسم لإجراء مباراة شعرية في الرثاء مع الخنساء، ولما وصلت طلبت من مرافقيها أنْ يقرنوا جَمَلها بجملِ الخنساء، ففعلوا، فلما دَنَتْ منها، قالت لها الخنساء: مَنْ أنْتِ يا أخَيّة؟ قالت: أنا هند بنتُ عُتبة أعظم العرب مصيبة، فقالت الخنساء: أين مصيبتك من مصيبتي؟ فقالت لها هند: مَنْ تبكين يا خنساء؟ فأجابت الخنساء:

أَبْكي أبِي عَمْراً بِعَيْنٍ غَزِيرَةٍ قَلِيلٌ، إذا نَامَ الخَليُّ، هُجُودُهَا[3]

وصِنْوِيَّ[4] لا أنْسَى مُعَاوِيةَ الذي لَهُ مِنْ سَرَاةِ الحَرَّتَيْنِ[5] وُفُودُها

وصَخْراً ومَنْ ذَا مِثْلُ صَخْرٍ إذا غَدَا بِسَاحَتِهِ الأبْطَالُ قَزْمٌ يَقُودُهَا

فَذَلِكَ يَا هِنْدُ الرّزِيةُ فَاعْلَمِي ونِيرَانُ حَرْبٍ حينَ شُبَّ وُقودُهَا[6]

وسألت الخنساء هنداً، وأنتِ بما تُعاظمين العرب يا هند؟ فأجابت هند:

أبَكّي عَمِيدَ الأبْطحَينِ[7] كِلَيْهِما وحَامِيهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ يُرِيدُهَا

---

(1) حرب: هو والد أبي سفيان.

(2) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 39.

(3) الهجود: النوم.

(4) صِنويّ: شقيقيّ.

(5) الحرَّتان: مثنى الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أُحرِقَتْ بالنار، وأرادت هنا مكانين بعينهما، ولعلهما: حرة بني سليم وحرة بني هلال بالحجاز، وتعني: هو مقصد الأشراف من القبائل تأتيه وفودُها فيما يلمّ بها.

(6) ديوان الخنساء، ص: 21- 22. والأغاني: مج4، ص: 213- 214.

(7) عميد القوم: سيّدهم وسندهم. والأبطحان: تريد بهما: بطحاء مكة وسهل تهامة. وأصل الأبطح: =

أَبِي عُتْبَةُ الخَيْرَاتِ ويْحَكِ فَاعْلَمِي وشَيْبَةُ والحَامِي الذِّمَارَ[1] وَلِيدُهَا
أولئِك آلُ المَجدِ مِن آلِ غالِبِ وفي العِزِّ مِنهَا حِينَ يُنْمَى عَدِيمُهَا[2]

لولا ثقةُ هند في نفسها وفي شاعريتها لما غامرت في معارضة الخنساء الشاعرة الشهيرة ولا سيما في فن الرثاء، فإذا قمنا بموازنة بين المقطّعتين المذكورتين، لما وجدنا فروقًا تُذكر، فكلتاهما جميلة الصياغة، جزلة الألفاظ، متينة الأسلوب، بل إنّ مقطّعة هند لأكثر جودة وسلاسة في الأسلوب.

هذه هي الشاعرة هند بنت عتبة، ومن خلال رحلتنا معها، يتضح أنّها كانت شاعرة مجيدة في فن الرثاء فصيحة، ذات عقل راجح، وشخصية قوية مؤثرة، وقد أسلمت بعد الفتح هي وزوجها وأولادها، كما أسلفت، وحضرت اليرموك. لكن لم يصلنا منها شعر في نصرة الدّعوة الإسلامية أو في رثاء الشهداء، ويبدو أنّها سكتت عن قول الشعر بعد إسلامها، لأنها ارتاحت نفسياً، ولم يعدْ هناك ما ينغّص حياتها مثل ما كان الحال من قبل، فالحروب مستمرة بين المسلمين والمشركين، وفي كل مرة هناك قتلى من الجانبين، ومن بينهم أبوها وعمها شيبة، وأخوها الوليد الذين قتلوا في غزوة بدر، ورثتهم أشد الرثاء، وما دام الإبداع الشعريّ وليد الأحزان في أغلب الأحيان، فتوقفت لأن الأحزان قد ذهبت؛ ولعلها أنشدت شعراً بعد أنْ أسلمت، ولا سيما في موقعة اليرموك التي شهدتها وحضّت معشر المسلمين على القتال، ولكنه لم يصلنا شعر لها في ذلك...

وهذه صفية بنت مسافر بن أبي عمرو[3] تبكي قومها عندما رأتهم يُقْتَلُون في

= المسيل الواسع فيه دقاق الحصى.

(1) الذمار: كلّ ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه، وتعني أخاها الوليد.

(2) الأصبهاني: الأغاني، مج4، ص: 214. وديوان الخنساء، ص: 43.

(3) مسافر بن أبي عمرو (واسمه ذكوان) ابن أمية بن عبد شمس، شاعر من سادات بني أميّة وأجوادهم في الجاهلية، له شعر ليس بالكثير، نشأ بمكّة ووفد على النعمان بن المنذر، فأكرمه، ثم عاد يريد مكّة، فمات في الطريق نحو 10 ق.هـ (الأغاني، مج9، ص: 48 وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج7، ص: 213).

بدر، وفيهم ابنُ عمّها عقبة[1] بن أبي معيط بن أبي عمرو، وهي من الشواعر المشركات، قالت:

يا مَنْ لِعَيْنٍ قَذَاهَا[2] عَائِرٌ[3] الرَّمَدِ حَدَّ[4] النَّهارُ وقَرْنُ[5] الشَّمْسِ لَمْ يَقِدِ
أُخْبِرْتُ أنَّ سَرَاةَ الأكْرَمِينَ مَعاً قدْ أحْرَزَتْهُمْ مَنايَاهُمْ إلَى أمَدِ
وفَرَّ بِالقَوْمِ أصْحَابُ الرِّكَابِ ولَمْ تَعْطِفْ غَداتَئذٍ أمٌّ على وَلَدِ
قُومِي صَفيّ ولا تَنْسَيْ قَرابَتَهُمْ وإنْ بَكَيْتِ فَمَا تَبْكِينَ مِن بُعْدِ
كَانُوا سُقُوفَ سَمَاءِ البَيْتِ فَانْقَصَفَتْ فأصْبَحَ السَّمْكُ مِنْهَا غَيْرَ ذِي عُمَدِ[6]

فالشاعرة تبكي قتلى قومها وتندُبهما وفاء لهم؛ وتزداد حسرة وتفجُّعاً في المقطوعة الآتية التي تبكي فيها ابن عمها عقبة السالف الذكر، فتُشيد بفضله وشجاعته وقوته، تقول:

ألا يَا مَنْ لِعَيْنٍ لِلتَّـ بَكِّي دَمعُها قَانْ[7]
كَغَرْبِي[8] دالِجٍ[9] يَسْقِي خِلَالَ الغَيْثِ الدَّانْ
ومَا لَيْثُ غَرِيفٍ[10] ذُو أظَافِيرٍ وأسْنَانْ

(1) عقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، من مقدّمي قريش في الجاهلية، كان شديد الأذى للمسلمين عند ظهور الدعوة، فأسروه يوم بدر، وقتلوه، ثم صلبوه (2هـ)، وهو أول مصلوب في الإسلام، (ابن الأثير: الكامل، ج2، ص: 27. والزركلي: الأعلام، مج4، ص: 240).

(2) القذا: ما يقع في العين والشّراب.

(3) العائر: وجع العين، ويقال: هو قرحة تخرج في جفن العين.

(4) حد النهار: الفصل الذي بين الليل والنهار.

(5) قرن الشمس: أعلاها.

(6) ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 40.

(7) قان: قاني: أحمر، وكان الأصل أن تقول قانئ: بالهمزة، فخفّفت الهمزة، تريد أن دمعها خالطه الدم. وفي رواية أخرى: فان، بدل قان.

(8) الغرب: الدلو العظيمة.

(9) الدالج: الذي يمشي بدلوه بين البئر والبستان.

(10) الغريف: موضع الأسد، وهي: الأجمة.

أبُــو شِــبْــلَــيــنِ وثَّــابٌ ... شَـدِيـدُ الـبَـطْـشِ غَـرثـانْ[1]

كــحِــبِّــي إذْ تَــوَلَّــى وَ ... وُجُــوهُ الــقَــوْمِ ألْــوَانْ

وبــالــكَــفّ حُــسَــامٌ صَــا ... رِمٌ أبْــيَــضُ ذُكْــرَانْ[2]

وأنْــتَ الـطَّـاعِـنُ الـنَّـجْـلَا ... ءِ مِــنْــهَــا مُــزْبِــدٌ آنْ[3]

هذا ما وصلنا من شعر صفية بنت مسافر، فلم نعثر لها إلاّ على قطعتين من شعرها، رثت بهما قومها الذين قُتلوا مشركين يوم بدر، وهي من خلال ما وصلنا من شعرها، قصيرة النفس، قوية الأسلوب، جزلة الألفاظ، ومعانيها لا تخلو من عمق، وقد التزمت بالتقليد الشعري الذي ورثته عن العصر الجاهلي كالندب الذي كان فيه للمرأة الإسهام الأوفر، ولم نلحظ في شعرها الألفاظ الدينية والقيم الروحية، كما لاحظنا ذلك لدى الشواعر المسلمات، ولسنا ندري هل أسلمت شاعرتنا - فيما بعد - أم أنّها بقيت على كفرها حتى ماتت، لأن المصادر التي بين أيدينا سكتت عن ذلك، كما صمتت عن ذكر تاريخ وفاتها.

أما الشاعرة قُتيلةُ[4] بنتُ النّضر بن الحارث فقد بكت أباها الذي قُتِل يوم بدر مع الذين قُتلوا من المشركين، بقصيدة مؤثرة حزينة، قالت:

يـا راكِـبًـا إنَّ الأُثَـيْـلَ مَـظِـنَّـةٌ[5] ... مِـنْ صُـبْـحِ خَـامِـسَـةٍ وأنْـتَ مُـوَفَّـقُ

أبْـلِـغْ بِـهَـا مَـيْـتًـا، فَـإنَّ تَـحِـيَّـةً ... مَـا إنْ تَـزَالُ بِـهَـا الـرَّكَـائـبُ تَـخْـفُـقُ

مِـنِّـي، إلَـيْـكَ، وعَـبْـرةً مَـسْـفُـوحَـةً ... جَـادَتْ بِـوَابِـلِـهَـا، وأُخْـرَى تَـخْـنُـقُ

هَـلْ يَـسْـمَـعَـنَّ الـنَّـضْـرُ إنْ نَـادَيْـتُـهُ ... بَـلْ كَـيْـفَ يَـسْـمَـعُ مَـيِّـتٌ أوْ يَـنْـطِـقُ

---

(1) غرثان: جائع.

(2) ذكران: أي سيف طبع من مذكّر الحديد.

(3) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 41. ومُزبد: أي دمٌ له زبد. وآن: حام.

(4) هي قتيلة بنت للنضر بن الحارث بن كلّدة... كان أبوها قد أُسِرَ يوم بدر، وكان شديد العداوة للإسلام، كثير التعرّض للنبيّ ﷺ والمسلمين بالسوء، فأمر الرسول ﷺ بقتله، فرثته ابنته قتيلة، وهي شاعرة مخضرمة عاشت في الجاهلية وصدر الإسلام. (البحتري: الحماسة، ص: 276 والحموي: معجم البلدان، مج1، ص: 94...).

(5) الأثيل: موضع قرب المدينة فيه قتل النضر بن الحارث. ومظنة: أي موضع إيقاع الظن.

ظَلَّتْ سُيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنُوشُهُ ... لِلَّهِ أرْحَامٌ هُنَاكَ تُمَزَّقُ

صَبْراً يُقَادُ إِلَى المنِيَّةِ مُتْعَبًا ... رَسْفَ المُقَيَّدِ وهْوَ عَانٍ موثَقُ

أمُحمَّدٌ ولأنْتَ ضِنْءُ نَجِيبَةٍ[1] ... في قَوْمِهَا والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

ما كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ، ورُبَّمَا ... مَنَّ الفَتَى وهْوَ المغِيظُ المُحْنَقُ

فالنَّضْرُ أقْرَبُ مَنْ أصَبْتَ وَسِيلَةً ... وأحَقُّهُمْ إنْ كَانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ

لَوْ كُنتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ لَفَدَيْتُهُ ... بِأعَزِّ مَا يُفْدَى بِهِ مَنْ تَنْفِقُ[2]

قيل إن الرسول ﷺ لما سمع هذه القصيدة، قال: «لو سمعتُ هذا قبل أنْ أقتُله ما قتلتُهُ»[3]. وفي رواية أخرى: «لو سمِعْتُ شِعْرها قبل قتله لوهبتُه لها»[4].

وقد نهى الرسول ﷺ عن قتل أسْرى قريش بعد النضر[5] وأسلمت بعد ذلك قُتَيْلةُ، وروت الحديث، ومدحت الرسول ﷺ؛ وتوفيت في خلافة عمر - رضي الله عنه - نحو عشرين للهجرة[6].

هذه هي قتيلة الشاعرة التي استطاعت بشعرها أنْ تؤثّر في الرسول ﷺ، كما أسلفت، وعلّق القدماء على شعرها، فقالوا: «إنّ شعرها أكرمُ شعر موتورة، وأعفُّه وأكفُّه وأحلمُه»[7].

ورثت هند بنت أثاثة[8] عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي قُتل في بدر، وهي على الشرك حينئذ، قالت:

---

(1) الضنء: الأصل.

(2) البحتري: م. ن.، ص: 276، والأصبهاني: م. ن.، ج1، ص: 30-31. والقلقشندي: قلائد الجُمان، ص: 146- 147..

(3) طيفور: بلاغات النساء، ص: 235، والأصبهاني: م. ن.، ج1، ص: 31.

(4) الحموي: م. ن.، مج1، ص: 94.

(5) الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 190.

(6) الزركلي: م. ن.، والصفحة نفسها.

(7) الأصبهاني: م. ن.، مج1، ص: 31. وطيفور: م. ن.، ص: 335.

(8) هي هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب: شاعرة من شواعر العرب المخضرمات، أسلمت بعد =

لَقَدْ ضُمِّنَ الصَّفْرَاءُ[1] مَجْدًا وسُؤدَدًا وحِلْمًا أصِيلًا وافِرَ اللُّبِّ والعَقْلِ
عُبَيْدَةَ فابْكِيهِ لأضْيَافِ غُرْبَةٍ وأرْمَلَةٍ تَهْوِي لأشْعَثَ كَالجِذْلِ[2]
وبَكِّيهِ للأقْوَامِ في كُلِّ شَتْوَةٍ إذَا احْمَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ مِنَ المَحْلِ[3]
وبَكِّيهِ للأيْتَامِ والرِّيحُ زَفْزَفٌ[4] وتَشْبِيبِ قَدْرٍ طَالَمَا أزْبَدَتْ تَغْلِي[5]
فإنْ تُصْبِحُ النِّيرَانُ قَدْ مَاتَ ضَوْءُهَا فَقَدْ كَانَ يُذْكِيهِنَّ بِالحَطَبِ الجَزْلِ
لِطَارِقِ لَيْلٍ أوْ لِمُلْتَمِسِ القِرَى ومُسْتَنْبِحٍ أضْحَى لَدَيهِ عَلى رِسْلِ[6]

لقد عدّدت الشاعرة مناقب عبيدة - على عادة الجاهليين - فوصفته بجميع الخصال الحميدة، التي يفاخرون بها بأسلوب يتضح فيه التفجيع والتلهف، ونعتِ الفضائل التي كان يتّصفُ بها، وكأنّها ذهبت بذهابه، وزالت بزواله.

وهذه ابنة أبي مسافع تبكي أباها الذي قُتل يوم بدر وهو يحمي جيفة أبي جهل، فقالت:

فَمَا لَيْثُ غَرِيفٍ ذُو أظَافِيرِ وأقْدَامْ
كَحِبِّي إذْ تَلاقَوا وَ وُجُوهُ القَوْمِ أقْرَانْ
وأنْتَ الطَّاعِنُ النَّجْلَا ءَ مِنْهَا مُزْبِدٌ آنْ
وبِالكَفِّ حُسَامٌ صَا رِمٌ أبْيَضُ خدّامْ
وقَدْ تَرْحَلُ بِالرَّكْبِ ومَا نَخْنُ بِصُحْبَانْ[7]

= بدر، وبايعت النبيّ ﷺ، وتوفيت في حدود السنة العاشرة للهجرة. (زينب فواز: الدرّ المنثور، ص: 596، والزركلي: الأعلام، مج8، ص: 96).

(1) الصفراء: موضع بين مكّة والمدينة.

(2) الجِذْلُ: أصل الشجرة وغيرها، تصفه بالثبات والقوّة.

(3) المَحْل: القحط.

(4) زفْزَف: الزّفْزَفُ من الرّياح: الشديدة السريعة المرور.

(5) الجَزْلُ: الغليظ.

(6) ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 41- 42. وابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص: 532. الرِّسلُ: اللبن.

(7) المرزباني: الموشح، ص: 13- 14. وانظر ابن منظور: لسان العرب، مادة (كفأ).

فهذا الشعر لم تجرِ العادةُ بِمثله، وذلك أنَّ الشاعرة في هذه المقطوعة تحرّرت من القافية، ولكنّها لم تتحرر من الوزن، وبذلك تكون أوّل من كتب ما نسميه اليوم بالشعر المرسل، فالأبيات موزونة ولكنّها متحررة من القافية، وهذه من سمات الشعر المرسل. أما القدماء فيسمون هذا اللون من الشعر المُكْفأ، أي المختلف الرّوي[1].

وفي هذا السياق يدور شعر شواعر الكفار في رثاء قتلاهن لأنّهنّ ما يَزَلْن يعشْن جاهليتهن، ولم تتأثر حياتهنّ بمختلف المتغيّرات الحياتية الجديدة التي أحدثها الإسلام[2].

أما شواعر المسلمين فقد أسهمن بشعرهن أيضاً في رثاء الشهداء أثناء المعارك والغزوات، أو في رثاء أقاربهن، ويبدو في رثائهن أثر الإسلام والتأثر بالقرآن الكريم، وقد لا يظهر هذا التأثر أحياناً لدى بعض شواعر المسلمين لحداثة عهدهن بالإسلام، كما هو الحال مع الشاعرة ضباعة بنت عامر[3] في رثائها لزوجها هشام بن المغيرة، قالت:

إنَّـكَ لَـوْ وَألْـتَ[4] إلَـى هِـشَـامِ ... أمِـنْـتَ وكُـنْـتَ فِـي حَـرَمٍ مُـقِـيـمِ
كَـرِيـمُ الـخيـمِ[5] خَـفَّـافٌ حَـشاهُ ... ثِـمَـالٌ[6] لِـلْـيَـتِـيـمَـةِ والـيَـتِـيـمِ

---

(1) انظر المرزباني: م. ن.، ص: 12 وما بعدها. وثعلب: قواعد الشعر، ص: 64.

(2) انظر الدكتور صلاح رزق: محاضرات في الأدب العربي... ص: 39، والدكتور مصطفى عبد الشافي الشوري: شعر الرثاء في صدر الإسلام، ص: 68.

(3) هي ضباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة الخير: شاعرة من شواعر العرب المخضرمات، تزوّجها عبد الله بن جُدعان، ثم طلقها، فتزوّجها هشام بن المغيرة في الجاهلية، أسلمت بمكّة في أوائل ظهور الدّعوة، فحسن إسلامها وقد نصرت النبيّ ﷺ في جملة مواطن بلسانها وفعلها، توفيت في حدود السنة العاشرة للهجرة. (طيفور: بلاغات النساء، ص: 246. والمرزباني: أشعار النساء، ص: 100..

(4) وألتَ: طلبتَ النجدة أو لجأت. الوألُ: الملجأ.

(5) الخيم: الطبيعة والسجية.

(6) ثِمالُ: الثِّمالُ: الملجأ والغياث.

رَبِيعُ النـاسِ أَرْوَعُ هِبْرِزِيٌّ[1] أَبِيُّ الضَّيْمِ لَيْسَ بِذِي وُصُومِ

أَصِيلُ الرَّأْيِ لَيسَ بِحَيْدَرِيٍّ ولا نَكِدِ العَطَاءِ ولا ذَمِيمِ

ولا خَذَّالَةٍ إنْ كَانَ كَون دَعِيمٍ في الأُمُورِ ولَا مَلِيمِ

ولا مُنْتَزِعٍ بالسُّوءِ فِيهِمْ ولا قَذِعِ المَقَالِ ولا غَشُومِ

فأَصْبَحَ ثَاوِيًا بِقَرارِ رَمْسٍ كَذَاكَ الدَّهْرُ يَفْجَعُ بِالكَرِيمِ[2]

وهذه المرثية أقرب إلى رثاء الشعراء الجاهليين، فالشاعرة عددت فيها الصفات الحميدة التي كان يتصف بها زوجها قبل وفاته، على عادة الجاهليين وليس في هذه الأبيات ما يدُلُّ على حزن عميق، ولولا البيتُ الأخير لعددناه في فن المدح، وقد صدق قدامة بن جعفر حيث قال: «ليست بين المرثية والمدحة فصل إلاّ أنْ يُذكر في اللّفظ ما يدلّ على أنّه لهالك»[3].

وقالت ترثيه أيضاً:

إنَّ أبَا عُثْمَانَ لَمْ أنْسَهُ وإنَّ صَمْتًا عَنْ بُكَاهُ لَحُوبُ[4]

تَفَاقَدُوا مِنْ مَعْشَرٍ مَالِهِمْ أيَّ ذُنُوبٍ صَوَّبُوا فِي القُلَيْبِ[5]

فليس في هذا الشّعر ما يميّزه من رثاء العصر الجاهلي، فهو خال من أيّة مِسْحةٍ دينية أو أية لفظة تشعرنا بأنّها قد نُظمت في ظلال الدين الجديد، لأنّ الشاعرة حديثة العهد بالإسلام، ولم تكن قد استوعبته وفهمته فهماً جيّداً بعد، كغيرها من الشعراء في أوائل ظهور الإسلام.

وها هي صفية بنت عبد المطلب[6] - عمة الرسول - ترثي أخاها حمزة

---

(1) هِبْرِزِيٌّ: الوسيم الجميل من كلّ شيء.

(2) طيفور: بلاغات النساء، ص: 246. وانظر المرزباني: أشعار النساء، ص: 107- 108.

(3) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ص: 118 ..

(4) الحُوبُ: (بالضم): الإثم.

(5) الجاحظ: الحيوان، ج3، ص: 499. والذّنوب (بالفتح): الدّلو العظيمة. والقليب: البئر. وإنْ أطلق الرّوي بالتحريك كان في الشعر إقواء. وإن قُيّد بالإسكان امتنع الإقواء.

(6) هي صفية بنت عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف، القرشية الهاشمية، وهي عمّة الرسول ﷺ =

شهيد موقعة أحد رثاء حزيناً، فتقول:

أَسَائِلَةٌ أَصْحَابَ أُحْدٍ مَخَافَةً ... بَنَاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ[1] وَخَبِيرِ
فَقَالَ الخَبِيرُ إِنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى ... وَزِيرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيرِ
دَعَاهُ إِلٰهُ الحَقِّ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً ... إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وسُرُورِ
فَذَلِكَ ما كُنَّا نُرَجِّي ونَرْتَجِي ... لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرَ مَصِيرِ
فَوَاللهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّت الصَّبَا ... بُكَاءً وحُزْناً مَحْضَرِي ومَسِيرِي[2]
علَى أَسَدِ اللهِ الذِي كَانَ مِذْرَهاً[3] ... يَذُودُ عَنِ الإِسْلَامِ كُلَّ كَفُورِ
فيَا لَيْتَ شِلْوِي[4] عِنْدَ ذَاكَ وأَعْظُمِي ... لَدَى أَضْبُعٍ تَعْتَادُنِي ونُسُورِ
أَقُولُ وقَدْ أَعْلَى النَّعِيُّ عَشِيرَتِي ... جَزَى اللهُ خيراً مِنْ أَخٍ ونَصِيرِ[5]

ويبدو في رثائها، بجانب التفجّع وإظهار الحزن والأسى لفراق أخيها، التأثر بالقرآن الكريم كقولها:

دَعَاهُ إِلٰهُ الحَقِّ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً ... إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وسُرُورِ
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّي ونَرْتَجِي ... لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرَ مَصِيرِ

وقولها:

= وأخت حمزة بن عبد المطلب، شاعرة مخضرمة مجيدة، أسلمت قبل الهجرة، وهاجرت مع ولدها الزبير بن العوام، وشهدت غزوة أحد، ورأت المسلمين يتراجعون، فتقدمت وبيدها رمح، تضرب في وجوه الناس، وتقول: انهزمتم عن رسول الله! فأشار النبيّ ﷺ إلى الزبير بن العوام أن يبعدها عن أخيها حمزة، وكان قد بقُر بطنه، فكره الرسول أن تراه، فناداها الزبير أن تنتحي، فزجرته وأقبلت حتى رأت أخاها، فصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، وقد وجدت عليه وجداً شديداً، وتوفيت سنة عشرين للهجرة. (ابن سعد، الطبقات، مج8، ص: 41. وابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 97. وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص: 389).

(1) الأعجم: الذي لا يفصح.

(2) مسيري: غيابي.

(3) المِذْرهُ: الذي يدفع عن القوم.

(4) الشِّلْوُ: العضو.

(5) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 167. وابن كثير: السيرة النبوية، ج3، ص: 119.

عَلَى أَسَدِ اللهِ الذِي كَانَ مِدْرَهَا   يَذُودُ عَنِ الإِسْلَامِ كُلَّ كَفُورِ

وقولها: جَزَى اللهُ خَيْراً مِنْ أَخٍ ونَصِيرِ.

وهكذا يبدو رثاءها ذا طابع إسلامي، ويتضح ذلك من خلال استعمالها لمفردات جديدة مستوحاة من القرآن الكريم.

ويبلُغُ الحزن والأسى ذِروته عند شاعرتنا لمّا أنشدت ترثي أخاها الزبير بن عبيد المطلب، فقالت:

بَكَى زُبَيْر الخَيْر إذْ مَاتَ، إنْ   كُنْتَ عَلَى ذِي كَرَمٍ بَاكِيَهْ

لَوْ لَفَظَتْهُ الأرْضُ أمَالَتْهَا   أو أصْبَحَتْ خَاشِعَةً عَارِيَهْ

قَدْ كَانَ فِي نَفْسِي أنْ   أتْركَ المَوْتَى ولا أتبعُهُم مَا فِيهْ

فَلَمْ أطِقْ صَبْراً عَلَى رُزْئِهِ   ووَجَدْتُهُ أقْرَبَ إخْوَانِيَهْ

لَوْ لَمْ أقُلْ مِنْ فِيَّ قَوْلاً لَهُ   لَفَضَّلتِ العَبْرَةُ أضْلَاعِيَهْ

فَهْوَ الشآمِيُّ واليَمَانِيُّ، إذَا   مَا حَضَرُوا، ذُو الشَّفرة الدامِيهْ[1]

ويذكر ابن هشام أنّ عبد المطلب لما حضرته الوفاة، وعرف أنّه ميّتٌ، جمع بناته السّتّ، وطلب منهنّ أنْ يبكَيْنَهُ قُبَيْلَ وفاته، فاستجَبْنَ له، وها هي صفية تَذرِفُ الدّمع على أبيها، وتصف أرقها ذاكرة ما لأبيها من صفات حميدة، كالكرم وكالشجاعة، وتصِفُه بشتّى النُّعوت الحميدة، تقول:

أرِقْتُ لِصَوْتِ نَائِحَةٍ بِلَيْلٍ   عَلَى رَجُلٍ بِقَارِعَةِ الصَّعِيدِ

فَفَاضَتْ عِنْدَ ذَلِكُمْ دُمُوعِي   عَلى خَدِّي كَمُنْحَدَرِ الفَرِيدِ[2]

علَى رَجُلٍ كَرِيمٍ غَيْرِ وَغْلٍ[3]   لَهُ الفَضْلُ المُبِينُ عَلى العَبِيدِ

عَلَى الفَيَّاضِ شَيْبَةَ ذِي المعَالِي   أبِيكِ الخَيْرِ وارِثِ كُلِّ جُودِ

---

(1) عمر رضا كحالة: أعلام النساء، ج2، ص: 344.

(2) الفريد: الدُّر.

(3) الوغل: الضعيف النذل الساقط المقصر في الأشياء.

صَدُوق فِي المَوَاطِنِ غَيْرِ نِكْسٍ[1] ولا شَخْتٍ[2] المَقَامِ ولا سَنِيدِ[3]

طَويلُ البَاعِ أرْوَعُ شَيْظَمِيّ[4] مُطَاع فِي عَشِيرَتِهِ حَمِيدِ

رَفِيعُ البَيْتِ أبْلَجَ ذِي فُضُولٍ وغَيْثِ النّاسِ فِي الزَّمَنِ الحَرُودِ[5]

كَرِيمُ الجَدِّ لَيْسَ بِذِي وُصُومٍ[6] يَرُوقُ عَلَى المُسَوَّدِ والمَسُودِ

عَظِيمُ الحِلْمِ مِنْ نَفَرٍ كِرَامٍ خَضَارِمَةٍ[7] مَلاوِثَةٍ[8] أسُودِ

فَلَوْ خَلَدَ امْرُؤٌ لِقَدِيمِ مَجْدٍ ولَكِنْ لَا سَبِيلَ إلَى الخُلُودِ

لَكَانَ مُخَلَّداً أخرَى اللَّيَالِي لِفَضْلِ المَجْدِ والحَسَبِ التَّلِيدِ[9]

وصفية من الشّاعرات المخضرمات المجيدات في الرثاء؛ وها هي ذي تبكي رسول الله ﷺ، حين لحق بالرفيق الأعلى، وقد حزنت عليه حزناً شديداً، وسجّلت ذلك في شعرها حين رثته بقولها:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أنْبَاءٌ وَهَنبَثَةٌ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ يَكْثُرِ الخَطْبُ[10]

كما قالت من قصيدة:

لِفَقْدِ رَسُولِ اللهِ إذْ حَانَ يَوْمُهُ فَيَا عَيْنُ جُودِي بالدُّموعِ السَّوَاجِمِ[11]

وقالت أيضاً في رثائه عليه السلام:

---

(1) النِّكسُ: الرجل الضعيف الذي لا خير فيه.

(2) الشَّختُ: الدقيق الضامر من الأصل لا هزالاً.

(3) السّنيد: الضّعيف: الذي لا يستقلّ بنفسه حتى يُسند رأيه إلى غيره.

(4) الشّيظميُّ: الفتى الجسيم والمقول الفصيح.

(5) الحرود: الناقة القليلة الدّر، شُبّه الزّمنُ في جدبه بها.

(6) الوُصُوم: جمع وَصْم وهو العار.

(7) الخضارمة: جمع خضرم (كزبرج)، وهو الجواد المعطاء والسيد الحمول.

(8) الملاوثة: جمع ملوات من اللوثة، وهي القوة.

(9) ابن هشام: م. ن.، ج1، ص: 169- 170.

(10) ابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 340.

(11) ابن حجر: م. ن.، والصفحة نفسها.

إنَّ يَـوْمًـا أتَـى عَـلَـيْـكَ لَـيَـوْمٌ كُـوِّرَتْ شَـمْـسُـهُ وكَـانَ مُـضِـيـئَـا[1]

وقالت تبكيه أيضاً عليه الصلاة والسلام:

أَلا يَـا رَسُـولَ الـلَّـهِ كُـنْـتَ رَجَـاءَنَـا وكُـنْـتَ بِـنَـا بَـرًّا ولَـمْ تَـكُ جَـافِـيـا

وكُـنْـتَ رَحِـيـمًـا هَـادِيـاً ومُـعَـلِّـمـاً لِيَبْكِ عَلَيْكَ اليَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيا

فِدًى لِـرَسُـولِ الـلَّـهِ أُمِّي وخَـالَـتِي وعَـمِّي وخَـالِي ثُـمَّ نَـفْـسِي ومَـالِيَا

فَلَوْ أنَّ رَبَّ النَّـاسِ أبْـقَـى نَـبِـيَّـنَـا سَـعِـدْنَـا ولَـكِـنْ أمْـرُهُ كَـانَ مَـاضِـيَـا

عَـلَـيْـكَ مِـنَ الـلَّـهِ الـسَّـلَامُ تَـحِـيَّـةً وأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيَا[2]

ورَثته عليه السلام أختها أروى بنت عبد المطلب[3] أيضاً بقولها:

أَلا يَـا رَسُـولَ الـلَّـهِ كُـنْـتَ رَجَـاءَنَـا وكُـنْـتَ بِـنَـا بَـراً ولَـمْ تَـكُ جَـافِـيَـا

كَـأَنَّ عَـلَـى قَـلْـبِي لِـذِكْـرِ مُـحَـمَّـدٍ وَما جَمَعْتَ بَعْدَ النَّبِيِّ المَجَاوِيَا[4]

ويبدو أن الأمر قد التبس على المؤرخين فنسب بعضهم البيت الأول من هذه المرثية لصفية بنت عبد المطلب، ونسبه آخرون إلى أختها أروى، بيد أنني أرجح نسبة البيت إلى أروى لأن المصدر الذي نسب البيت إليها أقرب إلى عصر الشاعرتين وهو الإصابة لابن حجر (773-852هـ)، بينما المرجع الذي نسب البيت إلى صفية متأخر جداً عن المصدر الأول، وهو الدر المنثور لزينب فواز (1276-1332هـ) ولم تشر المؤلّفة إلى المصدر الذي نقلت عنه.

وقالت تبكي أباها:

---

(1) ابن حجر: م. ن.، والصفحة نفسها.

(2) زينب فواز: الدر المنثور، ص: 262.

(3) هي أروى بنت عبد المطلب بن هشام القُرشية، عمّة رسول الله، وإحدى فضليات النساء في الجاهلية والإسلام، كانت راجحة الرأي، تنشئ الشعر الجيد، أدركت الإسلام، فأسلمت وهاجرت إلى المدينة، وعمّرت إلى خلافة عمر بن الخطاب، وتوفيت نحو 15هـ. (ابن سعد: الطبقات، مج8، ص: 42. وابن حجر: م. ن.، ج4، ص: 222، والزركلي: الأعلام، مج1، ص: 290).

(4) ابن حجر: م. ن.، ج4، ص: 222.

بَكَتْ عَيْنِي وحَقَّ لَهَا البُكَاءُ عَلَى سَمْحٍ سَجِيَّتُهُ الحَيَاءُ
عَلَى سَهْلِ الخَلِيقَةِ أَبْطَحِيٍّ[1] كَرِيمِ الخِيمِ[2] نِيَّتُهُ العَلَاءُ
عَلَى الفَيَّاضِ شَيْبَةَ ذِي المعَالِي أَبِيكَ الخَيْرِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
طَوِيلُ البَاعِ أَمْلَسَ شَيْظَمِيٍّ أَغَرُّ كَأَنَّ غُرَّتَهُ ضِيَاءُ
أَقَبِّ الكَشْحِ[3] أَرْوَعَ ذِي فُضُولٍ لَهُ المَجْدُ المُقَدَّمُ والسَّنَاءُ
أَبِيِّ الضَّيْمِ أَبْلَجَ هِبْرِزِيٍّ[4] قَدِيمِ المَجْدِ لَيْسَ لَهُ خَفَاءُ
ومَعْقِلُ مَالِكٍ ورَبِيعِ فِهْرٍ وفَاصِلِهَا إذَا الْتَمَسَ القَضَاءُ
وكَانَ هُوَ الفَتَى كَرَماً وَجُوداً وبَأْساً حِينَ تَنْسَكِبُ الدِّمَاءُ
إِذَا هَابَ الكُمَاةُ[5] المَوْتَ حَتَّى كَأَنَّ قُلُوبَ أَكْثَرِهِمْ هَوَاءُ
مَضَى قُدُماً بِذِي رُبَدٍ[6] خَشِيبٍ[7] عَلَيْهِ حِينَ تُبْصِرُه البَهَاءُ[8]

هذا ما وصلنا من شعر أروى بنت عبد المطلب في الرثاء، ومن خلاله نلحظ تقليداً معنوياً في شعرها، فهي تتكئ على المعاني نفسها التي طرقها الشعراء العرب من قبل، فتصف المرثي بأنّه كان شجاعاً كريماً جواداً جميلاً حاذقاً وسيما، لا مثيل له، متأثرة في ذلك بالمتقدّمين من الشعراء، مستعملة الألفاظ الجزلة والغريبة أحياناً، أمّا معانيها فواضحة لا غموض فيها.

وهذه نُعْم بنتُ حسان[9] تبكي زوجها شمّاس بن

---

(1) أبطحيّ: أي من قريش البطاح، وهم الذين ينزلون بين أخشبي مكة.
(2) الخيم: الطبيعة والسجيّة.
(3) أقِب الكشح: الأقبُ: الضامر البطن، الكشح، الخصر.
(4) الهبرزيّ: الجميل الوسيم المقدام؛ ويقال: الحاذق في أموره.
(5) الكماةُ: الشّجعان، واحدهم: كمي.
(6) الرُّبدُ: الفِرِنْدُ أي: السيف...
(7) الخشيب: الصقيل.
(8) ذيل ديوان الخنساء، ص: 137.
(9) هي نُعْم بنت حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، وزوجة الصحابي شمّاس بن عثمان المخزومي، كانت صحابية جليلة وشاعرة شهيرة، ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ ميلادها ووفاتها. =

عثمـان[1] الذي استشهد يوم أحد، وقد حزنت عليه حزناً شديداً، فقالت:

يا عَيْنُ جُودِي بِفَيْضٍ غَيْر إِبْسَاسِ[2] ... عَلى كَرِيمٍ مِنَ الفِتْيَانِ أَبَّاسِ[3]

صَعْبِ البَدِيهَةِ مَيْمُونٍ نَقِيبَتُهُ ... حَمَّالِ أَلْوِيَةٍ رَكَّابِ أَفْرَاسِ

أَقُولُ لَمَّا أَتَى النَّاعِي لَهُ جَزَعاً ... أَوْدَى الجَوَادُ وَأَوْدَى المُطْعِمُ الكَاسِي

وقُلْتُ لَمَّا خَلَتْ مِنْهُ مَجَالِسُهُ ... لَا يُبْعِدِ اللَّهُ عَنَّا قُرْبَ شَمَّاسِ[4]

وقد اقتصر رثاء الشاعرة على التفجع وإظهار الحزن والأسى لفراق زوجها شماس، كما عدّدت الصفات الحميدة التي حرم منها الناس بسبب موت زوجها على عادة الشعراء الجاهليين، ولم تتأثر بالدين الجديد بالرغم من كونها صحابية، وبنت صحابي، وزوج صحابي. وقد عزّاها أخوها أبو الحكم[5] بن سعيد بن يربوع بقوله:

إِقْنِي حَيَاءَكِ[6] فِي سِتْرٍ وفِي كَرَمٍ ... فَإِنَّمَا كَانَ شَمَّاسٌ مِنَ النَّاسِ

لَا تَقْتُلِي النَّفْسَ إِذْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ ... فِي طَاعَةِ اللَّهِ يَوْمَ الرَّوْعِ والبَأْسِ

قَدْ كَانَ حَمْزَةُ لَيْثَ اللَّهِ فَاصطَبِرِي ... فَذَاقَ يَوْمَئِذٍ مِنْ كَأْسِ شَمَّاسِ[7]

ويبدو في تعزية أخيها لها أثر الدين الإسلامي الحنيف، فهو يدعوها إلى

= (انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 167- 168. وابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 404. وعمر رضا كحالة: أعلام النساء، ج5، ص: 179. وعبد البديع صقر: شاعرات العرب، ص: 452).

(1) هو شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي، صحابي من الأبطال، شهد بدراً، واستشهد يوم أحد سنة 3هـ، ورثاه حسان وزوجته نُعم (ابن حجر: الإصابة، ت: 3914. والزركلي: الأعلام، مج3، ص: 175).

(2) الإبساس: أن تمسح ضرع الناقة لتدرّ اللبن وتقول لها: بس بس، وقد استعارت هذا المعنى للدمع الفائض بغير تكلّف.

(3) الأباس: الشديد الذي يغلب غيره.

(4) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 167- 168.

(5) يبدو أن أخاها أبا الحكم بن سعيد لم يكن شقيقاً لها فهي بنت حسان بن ثابت وهو ابن سعيد.

(6) اقني حياءك: الزمي حياءك.

(7) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 168.

الصّبر على قضاء الله، لأنّ زوجها استشهد في سبيل الله وطاعته كغيره من المسلمين، ولها في حمزة ليث الله العزاء الأكبر، فقد استُشهد هو الآخر يوم أحد.

أما كبيشة بنت رافع[1] أمُّ سعد بن معاذ[2]، فقد حزنت حزناً شديداً، لما فقدت ولدها سعدا، وبكته بكاء مُراً، فقالت:

وَيْلِ[3] أمّ سَعْدٍ سَعْدًا ... صَرَامَةً وَحَدًّا
وسُؤدَداً ومَجْدًا ... وفَارِساً مُعَدًّا
سُدَّ بِهِ مَسَدًّا ... يَقُدُّ هَاماً قَدًّا[4]

إن هذا التفجع والندب ناتج عن هول الخطب الذي مس الشاعرة مباشرة، بوفاة ولدها وفلذة كبدها، فاحتدمت عواطفها، وانتابها حزنٌ شديد حين احتُمِل نعشه إلى مثواه الأخير، فبكته بهذه الأبيات، وصدق رسول الله ﷺ الذي قال عندما[5] سمعها تنوح وتبكي على ابنها: «كُلُّ نائحةٍ تكذبُ، إلاّ نائحة سعد بن معاذ».

ورثت فاطمة[6] بنت النبي ﷺ أباها بمرات عديدة - وإن كان لم يصلنا منها

---

(1) هي كبيشة بنت رافع بن عُبيد بن الأبجر، الأنصارية، وفي الإصابة: كبشة، شاعرة صحابية، عاشت في الجاهلية وصدر الإسلام. مات ابنها سعد سنة 5هـ. فرثته، ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا السنة التي توفيت بها. (ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 252. وابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 912).

(2) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس: صحابي جليل، كان بطلاً مغواراً من أهل المدينة، رمي بسهم يوم الخندق سنة 5هـ. فتوفي من أثر جرحه، وحزن عليه النبيّ ﷺ. (ابن حجر: الإصابة، ت: 3197 والطبري: تاريخه، مج1، ص: 560- 571. ومج2، ص: 27 وما بعدها في أماكن متفرقة. والأعلام مج3، ص: 88).

(3) كسرت اللام من «وَيْل» اتباعاً لكسرة الميم من «أم».

(4) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 252.

(5) ابن هشام: م. ن.، ص: 252.

(6) هي فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وأمّها خديجة بنت خويلد، ولدت بمكّة قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع سنين ونصف، تزوجها علي بن أبي طالب، فولدت له الحسن والحسين وأم =

إلاّ القليل - ذكرها ابن رشيق وفضّلها على الكميت في رثائهما للنبي ﷺ، قالت فاطمة رضي الله عنها:

اغْـبَـرَّ آفَـاقُ الـسَّـمَـاءِ وكُـوِّرَتْ	شَمْسُ النَّـهَـارِ وأظْلَـمَ الـعَـصْـرَانِ
فَـالأرْضُ مِـنْ بَـعْـدِ النَّـبِيِّ كَئِيبَـةٌ	أسَـفَـا عَـلَـيْـهِ كَثِـيـرَةُ الـرَّجَـفَـانِ
فَلْيَبْكِهِ شَـرْقُ الـبِـلَادِ وغَـرْبُـهَـا	ولْـيَـبْـكِـهِ مُـضَـرٌ وكُـلُّ يَـمَـانِـي
ولْيَبْكِهِ الطَّوْدُ الـمُـعَـظَّـمُ جـوُّهُ	والـبَـيْـتُ ذُو الأسْـتَـارِ والأرْكَـانِ
يَـا خَـاتَـمَ الـرُّسُـلِ الـمُـبَـارَكُ صِنْـوُهُ	صَـلَّـى عَـلَـيْـكَ مُـنَـزِّلُ الـقُـرْآنِ[1]

وحقّا أن مرثية فاطمة، رضي الله عنها، كانت أكثر جودة من مرثية الكميت[2]، لأنّ فاطمة تبكي أباها الذي كان يعطف عليها، ولذلك فعاطفتها صادقة يسيطر عليها جوٌّ من الحزن والاكتئاب، وكذلك «فالنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة، وأشدّهم جزعاً على هالك؛ لمَا ركّب الله عزّ وجلّ في طبعهن مِنَ الخَوَرِ وضعف العزيمة»[3]، وأيضاً فكلاهما كان يبكي شخصاً غير عادي، فالرسول كان نبياً ورسولاً، وكان رحمة للعالمين، ومِن ثَمَّ فعاطفتها نحوه تختلف عن عاطفتها نحو أيّ فرد آخر، وحتى مرثية الكميت لم تكن ضعيفة وإنّما كانت أقل جودة من مرثية فاطمة، ولا سيما البيت الأول منها فكان جيداً[4].

وعلّق الدكتور مصطفى عبد الشافي الشوري على مرثية فاطمة، رضي الله عنها، فقال: «فالشاعرة يسيطر عليها جو من الحزن والاكتئاب، وتريد أنْ تشرك

= كلثوم وزينب، وعاشت بعد أبيها ستة أشهر وتوفيت. (ابن سعد: الطبقات، مج8، ص: 19 وما بعدها. وابن حجر: الإصابة، ج4، ت: 830...).

(1) ابن رشيق: العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج2، ص: 153.

(2) قال الكميت في رثاء رسول الله ﷺ:

وبُـورِكَ قَـبْـرٌ أنـتَ فـيـه، وبُـورِكَـتَ	بـه - ولَـهُ أهـلٌ - بِـذَلِـكَ يَـثْـرِبُ
لـقَـدْ غَـيَّـبُـوا بـراً وحـزمـاً ونـائـلاً	عـشـيـةَ واراهُ الـضَّـريـحُ الـمُـنْـصِـبُ

(ابن رشيق: م. ن.، ج2، ص: 152).

(3) ابن رشيق: م. ن.، ج2، ص: 153.

(4) ابن رشيق: م. ن.، ج2، ص: 153.

جميع مظاهر الطبيعة هذا الشعور، تنفيساً عمّا بداخلها، ومردُّ ذلك لسببين هما: أنّها فقدت أباها وأنّ الفقيد سيد الخلق وأفضلهم جميعاً، ولذلك أتت بصور تتناسب وحالتها النفسية التي تعاني منها، فالصورة لوّنتْ بالسواد والشحوب، وبعد أن تغير لون السماء وصورتها المعتادة شاركت الأرض باضطرابها وكثرة رجفانها، ثم أوجبت على الناس البكاء»[1].

وكانت فاطمة - رضي الله عنها - تزور قبر أبيها من حين لآخر، وفي إحدى زياراتها له، وقفت على قبره عليه السلام، وقالت:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أَنْبَاءٌ وهَنْبَثَةٌ[2]	لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ
وإنَّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأرْضِ وَابِلَهَا	وغَابَ مُذْ غِبْتَ عَنَّا الوَحْيُ والكُتُبُ
فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ المَوْتُ صَادَفَنَا	لمَّا نُعِيتَ وحَالَتْ دُونَكَ الكُثُبُ[3]

ويبدو أن فاطمة قالت هذه الأبيات بعد أيام قلائل من وفاة النبي ﷺ، وبعد أن تمت البيعة من بعده لأبي بكر الصديق، فحين وصل الخبر إليها، قامت تهرول إلى قبر أبيها عليه السلام، وجلست تبكي وتنتحب، وترثي أباها بهذه الأبيات الحزينة، وهي تئنُّ من الألم والفجيعة، وكانت، رضي الله عنها، تتزعم رهطاً من الناس رأوا أفضيلة علي بالولاية[4].

وذكر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ صارت إلى قبر أبيها بعد موته ووقفت عليه وبكت، ثم أخذت من تراب القبر فجعلتها على عينها ووجهها ثم أنشأت تقول:

---

(1) شعر الرثاء في صدر الإسلام ابن رشيق: م. ن.، ج2، ص: 153 71.

(2) الهنْبَثة: الأمور الشديدة والاختلاط في القول.

(3) البيتان الأوّل والثاني في كتاب طيفور: بلاغات النساء، ص: 26. والبيتان الثاني والثالث في كتاب ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج3، ص: 238. مع الاختلاف في رواية الشطر الثاني من البيت الثاني، وفضلت رواية العقد الفريد لأنها أقرب إلى الصواب.

(4) انظر: طيفور: م. ن.، ص: 23 وما بعدها. وسليمان البواب: مئة أوائل من النساء، ص: 156 وما بعدها.

مَـاذَا عَـلَـى مَـنْ شَـمَّ تُـرْبَـةَ أَحْـمَـدٍ   أَنْ لَا يَـشُـمَّ مَـدَى الـزَّمَـانِ غَـوَالِـيَـا
صُـبَّـتْ عَـلَـيَّ مَـصَـائِـبٌ لَـوْ أَنَّـهَـا   صُـبَّـتْ عَـلَـى الأيَّـامِ عُـدْنَ لَـيَـالِـيَـا[1]

لَقَدْ أحست الشاعرة باليتم فاسودت الدنيا في وجهها، فأسرعت إلى التعبير عن انفعالاتها في مقطوعات شعرية حزينة موجعة، ولم يمض وقت طويل بفاطمة، رضي الله عنها، والحزن والألم والفجيعة تعصر قلبها، وبعد ستة أشهر فقط من وفاة النبي ﷺ توفيت في شهر رمضان سنة 11هـ.

ونبقى في عصر النبوة والراشدين، فنذكر من شاعرات العرب في فن الرثاء عائشة بنت أبي بكر الصديق[2]، فقد رُوي أنّها جلست إلى جانب أبيها الصديق، رضي الله عنه، وهو يُحتضر، فلما رأته يغمضُ عينيه قالت:

وأبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ   رَبِيعُ اليتَامَى، عِصْمَةٌ لِلأرَامِلِ[3]

ثم أغمي عليه فقالت:

لَعَمْرِكَ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى   إذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ[4]

فالتفت إليها، وهو يفيق،، وقال لها: قولي يا بنية: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق، الآية 19].

وقد بكته أيضاً بقولها:

إنَّ مَـاءَ الـجُـفُـونِ يَـنْـزَحُـه الـهَـمُّ   وتَـبْـقَـى الـهُـمُـومُ والأحْـزَانُ
لَـيْـسَ يَـأسـو جَـوَى الـمُـرزَّإِ مـاءٌ   سَـفَـحَـتْـهُ الـشُّـؤونُ والأجْـفَـانُ[5]

---

(1) الخبر والأبيات في كتاب زينب فواز: الدر المنثور، ص: 360.

(2) سبقت ترجمتها في الفصل الثاني من هذا البحث، انظر مشاركة المرأة في الأحداث السياسية.

(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج3، ص: 232، طبعة بيروت، اقتبسه الدكتور مصطفى عبد الشافي الشوري في كتابه: شعر الرثاء في صدر الإسلام، ص: 115.

(4) الحموي: م. ن.، مج3، ص: 232.

(5) طيفور: بلاغات النساء، ص: 11. وجوى المرزّأ: الجوى: الحزن. والمرزأ: من مات من خيار قومه. والشؤون هنا: مجاري الدمع.

ولمّا مات عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فَدُفِنَ بمكة، قدمت عائشة، رضي الله عنها، من المدينة وأتت قبره وصلّت عليه، وقالت:

وكُنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمةَ حِقْبَةً ... مِن الدّهْرِ، حَتَّى قِيلَ لَن يَتَصَدّعَا

فلمّا تَفَرّقْنَا، كَأنّي ومَالِكًا ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا[1]

لقد كان رثاء عائشة في مجمله هادئاً لأنه ينبعث من نفس تقية مؤمنة بقضاء الله وقدره، وهذا ما لا نجده في الغالب لدى الشواعر اللائي لا يستطعن السيطرة على عواطفهن في مثل هذه اللحظات، وخصوصاً إذا كان المفقود أباً أو أخاً كما هو الحال عند عائشة، رضي الله عنها.

أما عاتكة[2] بنت زيد[3] فقد تزوّجت أربعة من الصحابة، وهم: عبد الله بن أبي بكر، وعمر بن الخطاب، والزّبير بن العوام، والحسين بن علي بن أبي طالب، فاستشهدوا جميعاً، فرثتهم واحداً واحداً، وكان أول أزواجها عبدالله بن أبي بكر، وقد أخذ بها، وشغلته عن مغازيه ومعاشه وتجارته، فمرّ عليه والده (أبو بكر) - رضي الله عنه - في داره في أحد أيّام الجُمَع ليمضيا معاً إلى الصلاة، فسمعه من أسفل الدار، وهو في علّيَة، يناغي عاتكة، ويُحدّثُها حديثاً لطيفاً معسولاً، فتركهما ومضى؛ صلّى ثم رجع، فوجده لا يزال يناغيها، فناداه: يا عبدالله، أجمّعت؟ قال: أوصلّى الناسُ؟ قال: نعم، ثم قال له والدُه (أبو بكر): فقد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة، وقد ألهتك عن فرائض الله، طلّقها. فطلّقها، وذات ليلة بينما

---

(1) الحموي: م. ن.، مج2، ص: 114.

(2) هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل، أخت سعد بن زيد أحد العشر المبشرين بالجنة، شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، كانت على جانب كبير من الجمال وحسن الخِلْقة، ساحرة جذابة تأخذ بمجامع القلوب وتسلب الحليم عقله، فتدعه هائماً: كما كانت ذات خُلُق حسن، ورجاحة عقل، وجزالة رأي، وفصاحة لسان، وبلاغة وبيان، توفّيت نحو سنة 40هـ.

(3) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العُزّى، القرشي العدوي، نصير المرأة في الجاهلية، فقد حارب عادة وأد البنات قبل الإسلام، وكان حكيماً يكره عبادة الأوثان: توفي قبل البعثة النبوية بخمس سنين. (الأصبهاني: الأغاني، مج3، ص: 117 وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج3، ص: 60).

كان أبو بكر يصلّي على سطح داره، إذ سمع عبدالله يقول:

أعَاتِكُ لَا أنْسَاكِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ[1] ... ومَا نَاحَ قُمْرِيُّ الحَمَامِ المُطَوَّقُ
أعَاتِكُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ... لَدَيْكِ بِمَا تَخْفِي النُّفُوسُ مُعَلَّقُ
لَهَا خُلُقٌ جَزْلٌ ورَأْيٌ ومَنْطِقٌ ... وخَلقٌ مَصُونٌ فِي حَيَاءٍ ومَصْدقُ
فَلَمْ أرَ مِثْلِي طَلَّقَ اليَوْمَ مِثْلَها ... ولَا مِثْلُهَا فِي غَيْرِ شَيْءٍ تُطَلَّقُ[2]

حينئذ أدرك أبو بكر ما يجيش في نفس ولده، وما يتأجّج في فؤاده، فرقّ له، وأشفق عليه، وأمره بمراجعتها، فخرج إليها يجري، ثم وهبها حديقة لهُ حين راجعها، واشترط عليها ألّا تتزوج أحداً بعده، فلما مات بالسهم الذي أصابه بالطائف[3]، جزعتْ عليه جزعا شديداً، وبكته بكاء مراً، ورثته بقولها:

رُزِئْتُ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِم ... وبَعْدَ أَبِي بَكْرٍ ومَا كَانَ قَصَّرَا
فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأى مِثْلَهُ فَتَى ... أكَرَّ وأحْمَى فِي الهِيَاجِ وأصْبَرَا
إذا شُرِعَتْ فِيهِ الأسِنَّةُ خَاضَهَا ... إلَى المَوْتِ حَتَّى يَتْرُكَ الرُّمْحَ أحْمَرَا
فَأقْسَمْتُ لَا تَنْفَكُّ عَيْنِي سَخِينَةً ... عَلَيْكَ ولَا يَنْفَكُّ جِلْدِي أغْبَرَا
مَدَى الدَّهْرِ مَا غَنَّتْ حَمَامَةُ أيْكَةٍ ... ومَا طَرَدَ اللّيلُ الصّبَاحَ المُنَوَّرَا[4]

ثم خطبها عمر بن الخطاب[5]، فقالت له: قد كان عبد الله بن أبي بكر قد

---

(1) ذر شارق: طلعت الشمس وأشرقت.

(2) الخبر والأبيات في الأصبهاني: م. ن.، مج18، ص: 8 و9. وانظر أيضاً: ابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 346. وابن سعد: الطبقات، مج8، ص: 265 وما بعدها.

(3) الطائف: تقع على مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصف يوم للهابط إلى مكّة، افتتحها رسول الله ﷺ سنة تسع من الهجرة، وقد شهد عبد الله بن أبي بكر مع رسول الله ﷺ غزوة الطائف، فأصابه سهم مات منه بعد ذلك في المدينة. (انظر الحموي: معجم البلدان، مج4، ص: 8 وما بعدها).

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج18، ص: 9، والأبيات غير الأول في كتاب الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج1، ص: 202- 203 . وانظر المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، مج2، ص: 1102. وابن قتيبة: عيون الأخبار، ج4، ص: 114.

(5) وينفرد عبد البر في الاستيعاب، ج4، ص: 335. بخبر يذكر فيه أنّ زيد بن الخطّاب، تزوّج =

وهبني حديقة على ألّا أتزوج واحداً بعده، فقال لها عمر: استَفْتي، فاستفتت علي ابن أبي طالب، فقال: رُدّي الحديقة على أهله وتزوّجي، ففعلت؛ ولما قُتِلَ عمر، قالت تبكيه:

وفَجّعَنِي فَيْرُوزُ[1] لَا دَرَّ دَرُّهُ ... بِأَبْيَضَ تَالٍ لِلْكِتَابِ مُنِيبِ

رَؤُوفٍ عَلَى الأدْنَى غَلِيظٍ عَلَى العِدَا ... أخِي ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ مُجِيبِ

مَتَى ما يَقُلْ لا يَكْذِبِ القَوْلَ فِعْلُهُ ... سَرِيعٍ إِلَى الخَيْرَاتِ غيْرِ قَطُوبِ[2]

وقالت فيه أيضاً:

يا عَيْنُ جُودي بِعَبْرَة ونَحِيبِ ... لا تَمَلّي عَلَى الإمَامِ النَّجِيبِ

فَجَّعَتْنِي المَنُونُ بالفارِس المُعْـ ... ـلِمَ[3] يَوْمَ الهِيَاجِ والتَّلْبِيبِ[4]

عِصْمَةُ اللهِ والمُعِينُ علَى الدَّهـ ... ـرِ وغَيْثُ المَلْهُوفِ والمَكرُوبِ

قُلْ لأهْلِ الضَّراءِ والبُؤْسِ: مُوتُوا ... قَدْ سَقَتْهُ المَنُونُ كَأسَ شَعُوبِ[5]

فبعد أن ذكرت فيروز قاتل زوجها في المقطوعة الأولى، الذي فجعها بأمير المؤمنين، الرؤوف على الأهل، الغليظ على الأعداء، الصادق القول، السريع إلى الخير، تنادي في المقطوعة الثانية عينها، وتطلب منها ألاّ تمل من البكاء والنحيب على الإمام الأمين الذي انتزعه الموت فجأة، وقد كان يدافع عن الملهوف والمكروب والمحروم، ويحمي الناس من نائبات الدّهر، فبعده لن يكون للفقراء والبؤساء نصير. وظلت الشاعرة تذرفُ الدموعَ، وتتفجّع، وتأرقُ الليالي،

= عاتكة قبل عمر، وقتل يوم اليمامة شهيداً.

(1) فيروز: هو أبو لؤلؤة المجوسي قاتل عمر بن الخطاب.

(2) الحُصري القيرواني: زهر الآداب، ج1، ص: 74 ـ 75. وكحالة: أعلام النساء. ج3، ص: 203.

(3) الفارسُ: المعلَمُ: هو الذي عُلّق عليه صوف ملّون في الحرب.

(4) التلبيب: ما في موضع اللّبب من الثياب، ويعرف بالطوق، واللبب: موضع القلادة من الصدر. والتلبيب، على المجاز: لبس السلاح.

(5) الأصبهاني: م. ن.، مج18، ص: 10. وانظر الحصري القيرواني: م. ن.، ج1، ص: 74. والوشاء: الموشى، ص: 120 ـ 121. وشعوب: الموت.

فلا يعرف النوم سبيلاً إلى عينيها حزناً وهمًّا على فقدها أمير المؤمنين، إذ تقول:

مُنِعَ الرُّقَادُ فَعَادَ عَيْنِي عِيدُ[1] ... مِمَّا تَضَمَّنَ قَلْبِيَ المَعْمُودُ
يَا لَيْلَةً حُبِسَتْ عَلَيَّ نُجومُهَا ... فَسَهِرْتُهَا والشَّامِتُونَ هُجُودُ
قَدْ كَانَ يُسْهِرُنِي حِذَارُكَ مَرَّةً ... فَاليَوْمَ حَقّ لِعَيْنِيَ التَّسْهِيدُ
أَبْكِي أَمِيرَ المُؤمِنِينَ ودُونَهُ ... لِلزَّائِرِينَ صَفَائِحٌ وصَعِيدُ[2]

وفي إحدى تلك الليالي حلُمتْ حُلماً مخيفاً، إذْ تمثّلت لها صورة أمير المؤمنين عمر مُسجى في أكفانه، فعاودها حزنُها وأرقُها، فقالت:

مَنْ لِنَفْسٍ عَادَهَا أحْزَانُها ... ولِعَيْنٍ شَفَّهَا طُولُ السَّهَدْ
جَسَدٌ لُفِّفَ فِي أكْفَانِهِ ... رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى ذاكَ الجَسَدْ
فِيهِ تَفْجِيعٌ لِمَوْلَى غَارِمٍ ... لَمْ يَدَعْهُ اللَّهُ يَمْشِي بِسَبَدْ[3]

ثم تزوّجها الزبير بن العوام، فمكثت عنده حتى قُتل عنْها، مُنصرفاً من الجمل، بوادي السباع، قتله ابن جرموز، فرثته بقولها:

غَدرَ ابنُ جُرمُوزٍ بِفَارِسِ بُهْمَةٍ[4] ... يَوْمَ اللِّقَاءِ وكَانَ غَيْرَ مُعَرِّدِ
يا عَمْرُو لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ ... لَا طَائِشاً رَعِشَ الجَنَانِ، ولَا اليَدِ
كَمْ غَمْرَةٍ قَدْ خَاضَهَا لَمْ يَثْنِهِ ... عَنْهَا طِرَادُكَ يَا بْنَ فَقْعِ القَرْدَدِ[5]
ثَكِلَتْكَ أمُّكَ إنْ ظَفِرْتَ بِهِ ... مِمَّنْ مَضَى مِمّن يَرُوحُ ويَغْتَدِي
واللّهُ ربُّك إنْ قتلْتَ لَمُسْلِماً ... حَلَّتْ عَلَيْكَ عُقُوبَةُ المُتَعَمِّدِ[6]

---

(1) العيد: من معانيه: ما اعتاد من همّ أو مرض أو حزن أو نحوه، وهو المقصود هنا.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج18، ص: 10 ـ 11.

(3) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، مج2، ص: 1106 ـ 1107. والسّبد: القليل من الشعر، يقال: «ما له سبدٌ ولا لبدٌ» أي لا شعر ولا صوف. يقال لمن لا شيء له، وقولها: لمْ يدعه الله يمشي بسبد: تريد أفقره الله، فلم يبق له شيء.

(4) البهمة: الشجاع الذي يستبهم مأتاه على أقرانه. والمعرّد: الذي يهرب ويفر من الحرب.

(5) الفقع: البيضاء الرخوة من الكمأة. والقردد: ما ارتفع وغلظ من الأرض.

(6) القرطبي: الاستيعاب، ج4، ص: 356. وانظر الوشاء: م. ن.، ص: 121.

وقد ذكرت الشاعرة في هذه الأبيات عمرو بن جرموز الذي غدر بالزبير، فقتله غيلة، ومن ثم تستنزل اللعنة على القاتل، وتصف المقتول بالفارس الشهم، الجسور.

ثم خطبها علي بن أبي طالب بعد انقضاء عِدّتها من الزُّبير، فأرسلت إليه. إنّي لأضنُّ بك يا ابن عم رسول الله عن القتل[1]، فأخذ برأيها ولم يتزوجها، ثم كان يردّدُ بعد ذلك: «من أحبّ الشهادة الحاضرة فليتزوج بعاتكة»[2].

ثم تزوّجها الحسين بن علي بن أبي طالب، فكانت أول من رفع خدّه من التراب يوم قتل، ولعنت قاتلهُ، وقالت ترثيه:

وحُسَيناً فَلا نَسِيتُ حُسَيناً	أَقْصَدَتْهُ أَسِنَّةُ الأعداءِ
غَادَرُوهُ بِكَربَلاءَ صَرِيعاً	جَادتِ المُزْنُ فِي ذُرَى كَربَلاءِ

ثم تأيّمت بعده، وتوفيت نحو سنة أربعين للهجرة حسب رواية الزركلي[3]، لكن يبدو أنه وهم لأن المصادر الأخرى[4] ذكرت بأن عاتكة رثت زوجها الحسين الذي استشهد في كربلاء سنة 61 هـ، وبذلك تكون وفاتها في هذه السنة أو بعدها.

ويبدو من خلال المقطعات الشعرية التي وصلتنا من شعر عاتكة، أنها طرقت فنًّا واحداً من فنون الشعر المعروفة، ألا وهو فن الرثاء، وهو الغرض الذي يناسب حياتها الحزينة، إذ كانت كلما تزوجت صحابيا إلا وكانت نهايته الشهادة، لذا عبرت ـ من خلال مراثيها ـ عما يختلج في نفسها من أحاسيس الحزن

---

(1) الحصري القيرواني: زهر الآداب، ج1، ص75. وقيل: إن عبد اللّه بن عمر بن عمر هو الذي قال: «من أراد أن يكون شهيداً فليتزوج عاتكة بنتُ نفَيل». انظر الحماسة البصرية، ج1، ص: 204.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج18، ص: 11 ـ 12. وانظر الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج1، ص: 204. والحموي: معجم البلدان مج4، ص: 445.

(3) الأعلام، مج3، ص: 242.

(4) الأصبهاني: م. ن.، ص: 11 ـ 12. والحسن البصري: م. ن.، ج1، ص: 204. والحموي م. ن.، والصفحة نفسها.

والألم، ورثاؤها في مجمله يميل إلى التأبين والعزاء. وتشيع فيه المعاني الدينية وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، كما نلحظ في رثائها جزالة الألفاظ، ووضوح المعاني، وصدق العاطفة، لأن شعرها صادر من قلب مقروح، وعاطفة مكلومة، ونفس حزينة، فالشاعرة أصيبت في أزواجها، فترجمت، بقلب مفجوع، حالتها، وتركت نفسها الشاعرة على سجيتها، دون مبالاة بالتنميق والزخرفة إلا ما جاء عفو الخاطر.

أما عمرة[1] بنت الخنساء الشاعرة الشهيرة، فقد رثت أخاها يزيد لما قتل، قتله هارون بن النعمان بن الأسلت بابن عمه قيس بن الأسلت الذي قتله يزيد في بعض الحروب، فقالت ترثيه وتندبه:

أَعَيْنَيَّ لَم أَخْتِلْكُمَا بِخِيَانَةٍ	أَبَى الدَّهْرُ والأَيَّامُ أن أَتَصَبَّرا
وما كُنتُ أخشَى أن أكُونَ كَأنَّنِي	بَعِيرٌ إذا يُنعَى أخَيَّ[2] تَحَسَّرَا
تَرَى الخَصمَ زُوراً عَن أخَيَّ مَهَابَةً	ولَيسَ الجَلِيسُ عَن أُخَيٍّ بِأزْوَرَا[3]

يبدو أن الشاعرة قد فقدت الصبر من شدة حزنها على مقتل أخيها يزيد، فبكته بكاء حاراً وكانت صادقة مع نفسها في رثائها لأخيها لأن رثاءها صادر عن معاناة حقيقية، وقد وفقت أيما توفيق في استعمالها لكلمة أخي وتكرارها عدة مرات في ثلاثة أشطر متتالية، مما جعلها تترك أبلغ الأثر في نفوس الآخرين، كما رثته بقصيدة ذكرت فيها صفاته الحميدة، فقد كان جلداً ألمعياً تقياً نقياً كميًّا

---

(1) هي عمرة بنت مرداس بن أبي عامر السلمي، وأمها الخنساء الشاعرة الشهيرة: شاعرة العرب في صدر الإسلام، ورثت ملكة الشعر عن أمها، لها عدة مراثٍ في أخويها (يزيد والعباس)، ووالدها (مرداس)، وتوفيت سنة 48هـ (انظر الأصبهاني: الأغاني، مج14 ص: 302. وذيل ديوان الخنساء، ص: 94 وما بعدها. وكحالة: أعلام النساء، ج3، ص: 358 وما بعدها. والمرزوقي: شرح الحماسة، مج2، ص: 1099).

(2) لك أن تروي أُخيِيّ وهو الأصل وأُخَيَّ فتحذف الياء استثقالاً لاجتماع الياءات وتبنيه على الفتح لأنه أخف الحركات.

(3) ذيل ديوان الخنساء، ص: 97 ـ 98. وانظر المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، مج2، ص: 1099، فقد جعل الأبيات في رثاء أخيها العباس وليس في رثاء يزيد.

حليماً صليباً لبيباً خطيباً. . . فهو في نظرها لا مثيل له، تقول :

أجَـدَّ ابـنُ أمّـيَ أن لاَ يَـؤُوبَـا ... وكَـانَ ابـنُ أمّي جَلِيداً نـجِـيبَا
تَـقِيّاً نَـقِـياً رَحِـيبَ الـمَـقَـامِ ... كَـمِيّاً صَـلِيباً لَـبِيباً خَـطِـيبا
حَـلِـيـمـاً أرِيـبـاً إذا مَـا بَـدَا ... سَدِيدَ الـمقَـالَـةِ صُـلبًا دَرِيبَا
وحَـسنَـاءَ في الـقَـولِ مَـنسُـوبَـةٍ ... تُكَشِّفُ عَن حَاجِبَيهَا السَّبِيبَا
فَـشَـدّ بِـمَـنـطِـقِـه مُـقـصِـرًا ... فَدَارَت بِهِ تَستَطِيفُ الرُّكُوبَا
تَـشُـقُّ سَـنَـابِـكَـهَـا بِـالـعُـرَى ... وتَطرَحُ بالطَّرْفِ عَنهَا الغُيُوبَا
فَـلَـمَّـا عَـلاَهَـا استَـمَـرَّت بِـهِ ... كَمَا أفرَغَ النَّاضِحَانِ الذُّنُوبَا
وأجـرَى أجَـارِيَّـهَـا كُـلَّـهَـا ... ومِن كُلّ جَرْيٍ تُلاقِي نَصِيبَا
أتَى النَّاسُ مِن بَعدِ مَا أمحَلُوا ... فقَال : وَجَدتُمْ مَكَاناً خَصِيبَا
فَسَارُوا إلَيهِ وقَالُوا: استَقِمْ ... فَلَم يَجِدُوهُ هَلُوعًا هَيُوبَا
بِـقَـومٍ إذا أفـزَعُـوا مَـسَّـكُـوا ... وأدرَكَ مِـنـهُـم رَكُـوبٌ رَكُـوبَـا
وطَـعْـنَـة خِـلـسٍ تَـلافِـيـتَـهَـا ... كَعَطِّ[1] النِّسَاءِ الرِّدَاءَ الحَجُوبَا
وحَمرَاءَ[2] في القَومِ مَظلُومَةٍ ... كَـأنَّ عَـلَـى دَفَّـتَـيـهَـا كَـثِـيـبَـا
تَـيَـمَّـمـتَـهَـا غَـيـرَ مُـسـتـأمِـرٍ ... فَعَرقَبتَهَا وهَزَزتَ القَضِيبَا[3]
فَظَلَّت تَكُوسُ[4] على أكرُعٍ ... ثَلاثٍ وغَادَرْتَ أخرَى خَضِيبَا
وقُـلـتَ لِـصَـاحِـبِـهـا لاَ تُـرَعْ ... فَلَم يَعدَمِ القَومُ نُصحًا قَرِيبَا
فَـرَاحَ يُـعَـدِّي عَـلَـى جَـسـرَةٍ[5] ... أمُونٍ وغَادَرتَ رَحلاً جَنِيبَا
وزِقٌّ سَـبَـاهُ لأصـحَـابِـهِ ... فَظَلَّ يُحَيّا وظَلُّوا شُرُوبَا[6]

---

(1) عط: عط الثوب طولاً أو عرضاً.

(2) حمراء: الحمراء: الناقة لونها مثل لون الزعفران، وقيل: إذا لَمْ يخالط حمرتها شيء، وهي أصبر الإبل على الهواجر.

(3) عرقبتها: عرقب الدابة: قطع عرقوُبها، والعرقوب غليظ فوق العقب. والقضيب: السيف القطاع.

(4) تكوس: كاس البعير: مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب.

(5) جَسرة: الجسرة من الإبل: العظيمة.

(6) ذيل ديوان الخنساء: ص95 ـ 94، وعمر رضا كحالة: أعلام النساء، ج3، ص: 359 ـ 360.

نلحظ في هذه القصيدة الكثير من الألفاظ الوعرة، والمعاني الغامضة، والأسلوب الجزل. ومردّ ذلك لكون شاعرتنا مخضرمة، عاشت في الجاهلية وصدر الإسلام، ولكن أثر الدين الإسلامي في القصيدة، غير بادٍ، ولذلك ظلّت المعاني ضمن نطاق الشجاعة والكرم والحلم، وبقيت الألفاظ والتراكيب على بداوتها وعرة، مقيدة بما في عالم الجاهلية، ولعل شاعرتنا أنشدت هذه القصيدة في الجاهلية لأنني بحثت في المصادر والمراجع التي بين يدي فلم أعثر على تاريخ مقتل أخيها يزيد[1].

كما استقريْتُ ديوان الخنساء علني أجد رثاء لولدها يزيد، فلم أجد. . . .

ومهما يكن من أمر فإن شاعرتنا عمرة جاهلية النزعة في قصيدتها هذه، وإن كانت عاشت أكثر حياتها في الإسلام، فقد توفيت سنة ثمانٍ وأربعين للهجرة (48 هـ).

وبكت أيضاً أخاها العباس[2] بن مرداس الذي مات في الشام عام ستة عشرة للهجرة (16هـ)[3]، فقالت:

لِتَبكِ ابنَ مِرداسٍ عَلَى مَا عَرَاهُمُ ... عَشِيرَتُهُ إذْ حُمّ أمسِ زَوَالُهَا
لَدَى الخَصمِ إذ عِندَ الأمِيرِ كَفَاهُمُ ... فَكَانَ إِلَيهِ فَصلُهَا وجِدَالُهَا
ومُعضِلَةٍ لِلحَامِلِينَ كُفِيتَهَا ... إذَا انهَلَت هُوجُ الرِّيَاحِ طِلاَلُهَا[4]

لقد ظل رثاؤها على الطريقة الجاهلية، فأثر الدين الإسلامي مفقود لديها، بعكس مظهر العصر الجاهلي الذي تأثرت به، كطلبها من العشيرة أن تبكي فقيدها البطل الذي كان يحميها عند الشدائد.

---

(1) يبدو أن قصة استشهاد أبناء الخنساء الأربعة في القادسية مختلفة، لأن أبناءها من مرداس ثلاثة فقط، وهم: يزيد ومعاوية وعمر، ثم إن ابنها يزيد لمْ يقتل في القادسية، وإنما قُتل في موقعة أخرى كما يبدو من خلال رثاء عمرة له.

(2) يبدو أن أمّ العباس امرأة أخرى غير الخنساء، لأن مرداساً كان له أكثر من زوجة (انظر الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان: العباس بن مرداس الصحابي الشاعر، ص: 26 ـ 28).

(3) الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 72.

(4) الأصبهاني: الأغاني، مج14، ص: 302.

وتذكّرت أباها مرداساً، وكان يقال له «الفيض» لفرط سخائه كأنه فيض البحر، فقالت ترثيه:

لَقَد أرَانَا وفِينَا سَامِرٌ لَجِبٌ[1] مَصَارِخٌ[2] فِيهِمُ عِزٌّ ومُرْتَغِبُ
لا يَرقَعُ النَّاسُ فَتْقاً حِينَ يَفتَقُهُ ويَرقَعُ الخَرقَ قَد أعيَا فَيَرْتَتِبُ
والفَيْضُ فِينَا شِهَابٌ يُستَضَاءُ بِهِ إنَّا كَذَلِكَ فِينَا يُوجَدُ الشُّهُبُ
إذ نَحنُ بِالأتمِ[3] نَرعَاهُ وتَسكُنُهُ جَولٌ[4] فَوَارِسُهَا كالبَحرِ يَضطَرِبُ
كَأنَّ مُلقَى المَسَاحِي مِن سَبَائِكِهَا بَينَ الخُبُوّ إلَى سِعرٍ إذَا رَكِبُوا
فِيهَا الذِّلُولُ وفِيهَا كُلُّ مُعتَرِضٍ يُفنِي ضَغِينَتَهُ التَّعدَاءُ والخَبَبُ
قَباً[5] تُنَازِعُهَا الأرسَانُ[6] قَافِلَةً لا حَقَفَاتٌ ولا مَيلٌ ولا ثَلَبُ[7]

هذه الأبيات يعتورها كثير من الوعورة اللفظية والغموض المعنوي، وظلت الشاعرة تعتمد الأسلوب الجاهلي لفظاً وصورة ومعنى كعادتها. ورثت أخيراً ابنها الأقيصر بن نشبة، وكان قد مات صغيراً، وتُعرِّض بأخيها شداد الذي كان شامتاً بموته، فقالت:

مَن مُبلِغٌ عَنّي فُلاَناً رِسَالَةً فَمَا أنتَ عَن قَولِ السَّفَاهِ بِمُعتَبِ[8]
تُطَيِّرُ حَولِي والبِلاَدُ بَرَاقِشٌ[9] لأرْوَعَ طَلاَّبِ التِّرَاتِ[10] مُطَلَّبِ

---

(1) اللجب: الكثير الأصوات.

(2) المصَارِخُ: المغيثون.

(3) الأتم: اسم مكان، قيل: منزل، وقيل: جبل لبني سُليم.

(4) الجول: التراب الذي تجول به الريح.

(5) القُبُ: بالضم، جمع الأقب، والأنثى، قباء: الضامرة الدقيقة الخصر، و القَبُّ: بالفتح: الفحل.

(6) الأرسانُ: جمع مفرده الرّسَنُ: وهو الحبل المعروف.

(7) ذيل ديوان الخنساء، ص: 97. وبشير يموت: شاعرات العرب، ص: 199 ـ 200. وثلب: ثلبه ثلباً: عابه ولامه. وحقفات: ج. الحِقْفُ: ما اعوج من الرمل.

(8) بمعتب: بمرضي.

(9) البراقش: التي لا شيء فيها، يقال: أصبحت البلاد براقش، أي: لا واحد فيها.

(10) التّراتُ: جمع ترة وهي: الثأر.

فَإن يَكُ قَد وَلَّى الأقيصَرُ وانقَضَى ... بِهِ رَائِبٌ[1] مِن دَهرِهِ المُتَقَلِّبِ
فَقَد كَانَ حِصناً لا يُرَامُ ومَعقِلاً ... عَظِيمَ رَمَادِ القِدرِ غَيرَ مُسَبَّبِ
تَوَلَّى بِأخلاَقٍ عَلَيكَ كَفَاكَهَا ... وهَذَّبَ قَبلَ المَوتِ مَا لَم تُهَذِّبِ
وقَد تَعلَمُ الخَنسَاءُ أنَّ فِرَاشَهَا ... لِمُجلَّى إذا ما هَمَّ يَوماً بِرُكَّبِ
إذا انقَلَبَ الإبرَامُ أيقَنتُ أنَّهُ ... مُقَارِنُ شَمسٍ أو مُقَارِنُ كَوْكَبِ
عَلى كُلِّ عَجمَاءِ البُغَامِ[2] كَأنَّهُ ... وأقتَادُهُ مِنهَا عَلَى أمِّ تَوْلَبِ[3]
يَرِنُّ بِرَوْضَاتِ الفَلاَةِ كَأنَّمَا ... يُرَجِّعُ فِي أنبُوبِ غَابٍ مُثَقَّبِ
قَد اعتَدَّ لِلأعدَاءِ بَيضَاءَ صَفوَةً ... كَمَتْنِ غَدِيرِ الرَّوضَةِ المُتَصَبِّبِ
ومُطَّرِداً لَدنَ الكُعُوبِ[4] وصَارِماً ... حُسَاماً مَتَى يَعْلُ الضَّرِيبَةَ تُقصَبِ[5]
وطِرفاً[6] جَنَاحِيًّا تَوَدَّدَ صُنعُهُ ... أدِيباً إذا ما قَالَ صَاحِبُهُ هَبِ[7]

هذه هي شاعرتنا، عمرة بنت مرداس، فكل ما وصلنا من شعرها كان محصوراً في الرثاء، رثت أخاها يزيد مرتين: مرة بمقطعة من ثلاثة أبيات، ومرة بقصيدة بلغت ثمانية عشر بيتاً، ورثت أيضاً، كلًّا من أخيها العباس، وأبيها مرداس، وابنها الأقيصر مرة واحدة، لكنها لم ترث أمها «الخنساء» المتوفاة سنة 24 للهجرة أو 26 هـ[8]، بل لم يصلنا شعر لها في رثاء أمها، ولعلها رثتها، وضاع شعرها في رثائها مع ما ضاع من التراث العربي الإسلامي: وعمرة شاعرة

---

(1) الرائب: الأمر الذي فيه شبهة وكَدَر.

(2) البغام: صوت الإبل.

(3) التّولب: ولد الأتان من الوحش إذ استكمل الحول.

(4) المطرد: الرمح القصير. واللدن: اللّين. والكعوب: مفرد كعب: وهي العقدة من عقد الرمح.

(5) الضريبة: المضروب بالسيف. وتقصب: تقطع وتفصل.

(6) الطّرفُ: الجواد الكريم العتيق.

(7) ذيل ديوان الخنساء، ص: 95 ـ 96. وبشير يموت: المرجع السابق، ص: 199.

(8) انظر الزركلي: الأعلام، مج2، ص: 86. وكحالة: أعلام النساء، ج1، ص: 371. والدكتورة عائشة عبد الرحمن: الخنساء (سلسلة نوابغ الفكر العربي)، ص: 54 ـ 55.

كأمِّها، كان لها أخوان (يزيد والعباس)، فقتل يزيد ومات العباس، فجعلت تندبهما وترثيهما، فأشبه حديثها حديث أمها من قبلها مع أخويها (معاوية وصَخر). وعمرة لم يظهر أثر الإسلام في شعرها بالرغم من أنها عاشت أكثر من ستين سنة بعد البعثة، ورثاؤها غير متكلف لأنها لم ترث من أجل التكسبّ، وإنما رثت عندما عناها المُصاب وأثارتها اللوعة، ومن هنا جاء رثاؤها حافلاً بمعاني التفجع والتوجع، صادق العاطفة، قليل الإلمام بمعاني الصبر والعزاء؛ وقد استعملت الشاعرة الضمير الجمعي في رثائها، فمعانيها تدور غالباً حول الخسارة العامة للعشيرة (لتبك ابن مرداس عشيرته...)، والحسرة على حاميها الجواد الفارس الشجاع، وقد أعطت لهذا الفن أهمية فأفردت له قصائد ومقطعات، وشعرها كلٌّ متماسك يصعب أن نجد فيه ثغرات.

ورثت عمرة[1] بنت دريد بن الصمة، أباها بمرات كثيرة[2]، وإن كان لم يصلنا من مرائيها إلا مقطعتان، وقد أردك أبوها الإسلام ولم يسلم، وكان شاعراً مرموقاً وسيّد بني جشم وقائدهم وفارسهم، خرج قومه يوم حنين لقتال المسلمين فاستصحبوه معهم تيمُّناً به، وهو أعمى، فلما انهزم قومه، أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله، فقالت عمرة ترثيه:

لَعَمرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى دُرَيدٍ ... بِبَطْنِ سُمَيْرَةٍ[3] جَيشَ العَنَاقِ[4]

جَزَى عَنَّا الإِلَهُ بَنِي سُلَيْمٍ ... وعَقَّتهُم بِمَا فَعَلُوا عَقَاقِ

وأسقَانَا إذَا سِرنَا إلَيهِم ... دِمَاءَ خِيَارِهِمْ يَومَ التَّلاقِي

---

(1) هي عمرة بنت دريد بن الصمة، شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، كان أبوها سيد بني جشم الذي قتل يوم حنين سنة ثمان للهجرة فرثته بمراث كثيرة (ذيل ديوان الخنساء، ص: 166. والزركلي: م. ن.، مج2، ص: 339. والأصبهاني، الأغاني، مج10 ص: 4 وانظر ما بعدها).

(2) الأصبهاني: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) سُميرة: كأنّه تصغير سمرة: واد قرب حنين قتل فيه دريد بن الصمة. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج3، ص: 257).

(4) العناق: الأنثى من أولاد المعز.

فَـرُبَّ عَـظِـيـمَـةٍ دَافَـعْـتَ عَـنْـهُـم وقَـد بَـلَـغَـت نُـفُـوسُـهُـم الـتَّـرَاقِـي[1]
ورُبَّ كَـرِيـمَـةٍ أعـتَـقْـتَ مِـنـهُـم وأخـرَى قَـد فَـكَـكـتَ مِـنَ الـوَثَـاقِ
ورُبَّ مُـنَـوِّهٍ بِـكَ مِـن سُـلَـيـم أجَـبـتَ وقَـد دَعَـاكَ بِـلاَ رَمَـاقِ
فَـكَـانَ جَـزَاؤُنَـا مِـنـهُـم عُـقُـوقَـاً وهَـمـاً مَـاعَ[2] مِـنـهُ خِـفُّ سَـاقِ
عَـفَـت آثَـارُ خَـيـلِـكَ بَـعـدَ أيـنٍ[3] فَـذِي بَـقَـرٌ إلـى فَـيْـفِ[4] الـنُّـهَـاقِ[5]

يبدو أن دريداً أبا الشاعرة كان يعامل بني سُليم الذين قتلوه، بالمعروف في الجاهلية، ويدافع عنهم في وقت الشدة، وهو الذي غزا مئة غزوة لم يُهزم في واحدة منها كما يُروى[6]، فكان جزاؤه منهم العقوق والهمّ، وقد نعت الشاعرة إلى بني سُليم إحسان دريد إليهم في الجاهلية، وقالت تبكيه أيضاً في مرثية أخرى:

قَالُوا: قَتَلْنَا دُرَيداً قُلتُ: قَد صَدَقُوا وظَـلَّ دَمعِي عَـلَـى الـخَـدَّيـنِ يَـبـتَـدِرُ
لَـولاَ الـذِي قَـهَـرَ الأقـوَامَ كُـلَّـهُـمُ رَأت سُـلَـيْـمٌ وكَـعـبٌ كَـيـفَ تَـأتَـمِـرُ
إذًا لَـصَـبَّـحَـهُـمْ غِـبَّـا وظَـاهِـرَةً حَـيـثُ استَقَرَّ نَـوَاهُـمْ جَـحفَلٌ ذَفِرُ[7]

فأسلوب الشاعرة في هذه المقطوعة ركيك، ولا سيما في البيتين الأخيرين، ورثاؤها في جملته بسيط ساذج خالٍ من التأمل والعمق اللذين كنا نجدهما لدى

---

(1) التراقي: جمع مفرده الترقوة: العظام المحيطة بالنّحر في أسفل العنق، وبلغت الروح التراقي: وصلت إلى أعالي الصدر، وذلك كناية عن مشارفة الموت. وأصل الفعل ترقى فلاناً: أصاب ترقوته.
قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ (القيامة.الآية 26).
(2) ماع: سال وجرى على وجه الأرض.
(3) الأين: التعب والإعياء.
(4) الفيف: الصحراء الواسعة المستوية.
(5) ياقوت الحموي: م. ن.، مج3، ص: 258. وانظر أيضاً: الأصبهاني: م. ن.، مج10، ص: 33. وذيل ديوان الخنساء، ص: 166.
(6) انظر الزركلي: الأعلام، مج2، ص: 399.
(7) الأصبهاني: الأغاني، مج10، ص: 33. وانظر ذيل ديوان الخنساء، ص: 166. وذفر: الذّفر: المتغير الرائحة.

شعراء صدر الإسلام الذين اتخذوا من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف مدداً للنهوض بالرثاء إلى مستوى أرقى مما كان عليه في الجاهلية؛ وإذا كان والدها قد مات مشركاً يوم حنين، فإن المصادر التي بين أيدينا لم تذكر شيئاً عن عمرة هل أسلمت أم ماتت مشركة كأبيها؟ كما لم تذكر لنا تاريخ ميلادها ووفاتها، وإن كنّا نعلم أنها كانت حية يوم حُنين، أي: سنة ثمان من الهجرة حيث رثت أباها.

وهذه أروى[1] بنت الحارث بن عبد المطلب ابنة عمّ الرسول ﷺ، صحابية رافقت الرسول ﷺ في بعض غزواته، واشتهرت بالشجاعة والفصاحة، وهي من أولى الشواعر اللاتي اشتهرن في صدر الإسلام، وعاشت إلى أيام معاوية بن أبي سفيان، وكانت تسكن المدينة، فوفدت عليه إلى دمشق، وهي عجوز، فعاتبته على خصومته لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأغلظت الكلام معه، وفاخرته ببني هاشم، وفضّلتهم على بني أمية، فاعترضها عمرو بن العاص فعيَّرته بنسبه، وتدخّل مروان بن الحكم فأقحمته، ثم التفتت إلى معاوية، وقالت: والله ما جرَّأ عليّ هؤلاء أحدٌ غيرك يا ابن القائلة في قتل حمزة يوم أحد شامتة، وقد رددتُ عليها[2]، ومضت أروى على هذا النحو تتهم معاوية بالإساءة إلى أهل البيت، وتوبخّهُ بكلمات عنيفة قاسية. أمّا معاوية فلَمْلَمَ أعصابه وتوتّره، وسألها عن حاجتها بهدوء أعصاب ونفاد صبر فقالت: ما لي إليك حاجة، وقامت فخرجت، فالتفت معاوية لأصحابه وقال: والله لو كلّمها من في مجلسي جميعاً لأجابت كُلَّ واحدٍ بغير ما تجيبُ به الآخر، وإن نساء بني هاشم لأفصح من رجال غيرهم؛ وبعث لها قبل رحيلها، فأكرمها، وعادت إلى المدينة فتوفيت بها[3].

---

(1) هي أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي، وأمها غزيّة بنت قيس، تزوجها أبو وداعة بن صبرة، فولدت له المطلب وأبا سفيان، اشتهرت في صدر الإسلام، وعاشت حتى عصر بني أمية. (الإصابة، ج4، ص: 221. وطيفور: بلاغات النساء، ص: 44).

(2) ثم أوردت الشعر الذي قالته هند بنت عتبة يوم أحد، وردها عليها، وسنعرض هذا الشعر عند حديثنا على النقائض بين الشواعر.

(3) طيفور: م. ن.، ص: 45. والضبي: أخبار الوافدات على معاوية، ص: 47 وما بعدها. وانظر الحموي: ثمرات الأوراق، ص: 152 ـ 153. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ص: 119 وما بعدها.

وبعد القساوة والعنف اللذين لاحظناهما في تعاملها مع معاوية، فها هي ذي شاعرتنا تتبدل لَهْجَتُها، فينقلبُ العُنفُ لينًا، والقسوة صفاءً، وهي ترثي عليًّا، رضي الله عنه، فتقول:

ألاَ يَا عَينُ وَيْحَكِ، أسعِدِينَا ... ألاَ وابْكِي أمِيرَ المُؤمِنِينَا
رُزِينَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وفَارِسَهَا ومَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
ومَنْ لَبِسَ النِّعَالَ أوِ احْتَذَاهَا ... ومَنْ قَرَأ المَثَانِيَ والمِئينَا[1]
ألاَ أبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ ... فَلاَ قَرَّتْ عُيُونُ الشَّامِتِينَا
أفِي شَهْرِ الصِّيامِ فَجَعْتُمُونَا ... بِخَيْرِ النَّاسِ طُراً أجْمَعِينَا
ومَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ، فَدَتْهُ نَفْسِي ... أبُو حَسَنٍ وخَيْرُ الصَّالِحِينَا
كَأنَّ النَّاسَ إذْ فَقَدُوا عَلِيًّا ... نِعَامٌ جَالَ فِي بَلَدٍ سَنِينَا[2]
لقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ ... بِأنَّكَ خَيْرُهَا حَسَباً ودِينَا
إذا استقْبلتَ وجهَ أبي حُسَيْنٍ ... رأيتَ البَدْرَ راقَ النَّاظِرِينَا
فَلاَ واللهِ لا أنْسَى عَلِيًّا ... وحُسْنَ صَلاَتِهِ فِي الرَّاكِعِينَا[3]

كانت الشاعرة تبكي وتنتحب وهي تنشد شعرها معاوية، وقد أبكته معها وجعلته يُعلّقُ على الأبيات قائلاً: «كان والله يا خالة كما قلت وأفضل»[4]. والمعاني في هذه الأبيات معان فطرية أشارت فيها الشاعرة إلى صفات علي الحميدة كالشجاعة والكرم والعلم.... فهو خير الناس طراً... وليس في هذه المعاني جديد يُحسب للشاعرة، فالصور التي أوردتها في هذه الأبيات جلُّها صور

---

(1) المثاني من القرآن: ما تثنى مرة بعد مرة، وقيل هي فاتحة الكتاب لأنها يثنّى بها في كل ركعة من ركعات الصلاة، ورويت أقوال كثيرة عن رسول الله ﷺ وأصحابه في معنى المثاني والمئين ومنها أن المثاني سورٌ أولها البقرة وآخرها براءة.

(2) عنت بذلك تزاحم الناس واضطرابهم وهياجهم، يقال: جاء من الإبل والخيل سنين ما يردّ وجهه. والسنين: الذي يلجّ في عدوّه وإقباله وإدباره.

(3) الضبي: م. ن.، ص: 51. وطيفور: م. ن.، ص: 46. وقد اختلف المصدران في رواية بعض الكلمات، وانفرد الضبي بالأبيات: (4 ـ 6 ـ 7 ـ 8).

(4) الضبي: م. ن.، ص: 51.

تقليدية مأثورة في الشعر العربي، لكن الأبيات تتّسم بصدق العاطفة، عاطفة امرأة مكلومة الفؤاد، حديثة العهد بفقد علي ـ ابن عمها ـ وقد مزجت رثاءها لعلي بوصفها لمشاعرها تجاهه، كما رثت أباها الحارث بشعر حزين تقول فيه:

عَيْنَيَّ جُودَا بِدَمْعٍ غَيْرِ مَمْنُونِ ... إنَّ انهِمَالاً بِدَمْعِ العَيْنِ يَشْفِينِي

إنِّي نَسِيتُ أبَا أرْوَى وذُكْرَتَهُ ... عَنْ غَيْرِ مَا بُغْضَةٍ مِنِّي ولاَ هُونِ

مَا زَالَ أبْيَضَ مِكْرَاماً لأُسْرَتِهِ ... رَحْبَ المَحَاسِنِ فِي خِصْبٍ وفِي لِينِ

مِنَ آلِ عَبْدِ مَنَافٍ إنَّ مَهْلِكَهُ ... ولَوْ لَقِيتُ رُغُوبَ الدَّهْرِ يَعْصِينِي

مِنَ الذِينَ مَتَى مَا تَغْشَ نَادِيَهُمْ ... تَلْقَ الخَضَارِمَةَ الشُّمَّ العَرَانِينَ[1]

يبدو أن الشاعرة رثت أباها بعد فترة من وفاته، ويتضح لنا ذلك من خلال البيت الثاني، وقد وصفت أباها بالجود والكرم والرفعة والعلو، وشرف النفس، وهي الأوصاف نفسها التي نجدها لدى شعراء عصرها. وشعرها، في جملته شعرٌ عربي فصيح، وغرض الرثاء، أهم الأغراض الشعرية التي عالجتها شاعرتنا كبقية شواعر عصرها.

أما زينب[2] بنت العوام، فقد رثت ابنها عبد الله بن حكيم الذي قُتل يوم الجمل، وبكت أخاها الزبير، وذكرت مقتل عثمان بن عفان، مبدية قلقها على الدين بعد استشهاد هؤلاء، فقالت:

أعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ فَأسْرِعَا ... عَلَى رَجُلٍ طَلْقِ اليَدَيْنِ كَرِيمِ

زُبَيْرٍ وعَبْدِ اللهِ يُدْعُوَا لِحَادِثٍ ... وذِي خَلَّةٍ مِنَّا وحَمْلٍ يَتِيمِ

---

(1) طيفور: م. ن.، ص: 258. وخضارم: جمع خضرم: وهو الجواد، الكثير العطية، المشبّه بالبحر الخضرم: وهو الكثير الماء. والشمّ: جمع أشم، والشّمم: ارتفاع في قصبة الأنف مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة قليلاً. والعرانين: الأنوف، وهي كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس.

(2) هي زينب بنت العوام بن خويلد، الأسديّة، القرشيّة، أخت الزّبير بن العوام، شاعرة، صحابيّة، أسلمت قديماً، وعاشت إلى أن قتل ابنها عبد الله بن حكيم يوم الجمل فبكته، وبكت أخاها الزبير، وتوفيت نحو40 هـ .(انظر ابن الأثير: أسد الغابة، مج5، ص: 469. وابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 312. والزركلي: الأعلام، مج3، ص: 67).

قَتَلْتُمْ حَوَارِيَّ[1] النَّبِيِّ وصِهْرَهُ وصَاحِبَهُ فَاسْتَبْشِرُوا بِجَحِيمِ

وقَدْ هَدَّنِي قَتْلُ ابْنِ عَفَّانَ قَبْلَهُ وجَادَتْ عَلَيْهِ عَبْرَتِي بِسُجُومِ

وأيْقَنْتُ أنَّ الدِّينَ أصبَحَ مُدْبِراً فمَاذَا تُصَلِّي بَعْدَهُ وتَصُومِي[2]

وكَيْفَ بِنَا أمْ كَيْفَ بِالدِّينِ بَعْدَمَا أُصِيبَ ابْنُ أرْوَى وابْنُ أمّ حَكِيمِ[3]

ولم أعثر إلّا على هذه المرثية من شعر زينب، ولذا لا أستطيع الحكم على شاعريتها من خلالها، إلا أن معانيها تقليدية رددها الشعراء القدامى من قبل، لكن الشاعرة متأثرة بالقرآن الكريم،فتوافرت في المقطوعة الكلمات الدينية مثل: (تُصلي ـ تصومي- الدين ـ النبي. . .).

أما أمُّ حكيم بنت قارظ[4] زوجة عُبيد الله بن العباس بن عبد المطلب[5] عامل علي بن أبي طالب على اليمن، فهي شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، وأدركت العصر الأموي، بكت ولديها عبد الرحمن وقثم اللذين قتلهما بسر بن أرطأة[6] الذي بعثه معاوية إلى اليمن وأمره بقتل كل من كان من شيعة علي بن أبي طالب، فأرشد على الطفلين، فوارتهما أمهما تحت ذيلها، فأخذهما

---

(1) حواري النبي: تقصد به الزبير بن العوام، فقد سماه النبي ﷺ حواريه أي: تلميذه.

(2) حذفت النون من «تصلّي» و«تصومي» لضرورة الوزن والأصح لغوياً: «تصلين» و«تصومين» إذ لا جزم ولا نصب هنا.

(3) ابن الأثير: المصدر نفسه والصفحة نفسها. وابن حجر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(4) هي جويرة بنت خالد بن قارظ الكنانية، وتكنى أمّ حكيم، عاشت في صدر الإسلام وأدركت بني أمية، وأدرجناها مع شواعر صدر الإسلام، لأن شعرها الذي وصلنا قالته في صدر الإسلام...(انظر الأصبهاني. الأغاني، مج16، ص: 166. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 56).

(5) هو عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، كان والياً على اليمن من قبل الإمام عليّ، فحجّ بالناس سنة 37هـ، وكان سخياً جواداً، وتوفي سنة 87 هـ. (الزركلي: المرجع السابق، مج4، ص: 194).

(6) هو بسر بن أرطأة العامري القرشي، قائد فتاك من الجبارين، كان من رجال معاوية، وجهه سنة 39 هـ إلى المدينة فأخضعها، وإلى مكة فاحتلّها، وإلى اليمن فدخلها، وأمره بأن يوقع بمن يراه من أصحاب علي، فقتل منهم خلقاً، وتوفي في دمشق سنة 86 هـ ، وقيل في المدينة عن عمر يناهز التسعين سنة (الزركلي: المرجع السابق، مج2، ص: 51).

وذبحهما وهي تنظر إليهما، وكان ذلك سنة 39 هـ ، فجزعت عليهما والدتهما جزعاً شديداً، وصارت لا تَعقِلُ ولا تصغي إلى أحد، تهيم على وجهها في كل واد، وتبكيهما بأشعار محزنة، منها قولها:

ألاَ مَــــنْ بَــيَّــــنَ الأخَــــوَيْــــ ـــنِ أمُّــهُــمَــا هِــيَ الــثَّــكْــلَــى

تُــسَــائِــلُ مَــنْ رَأى ابْــنَــيْــهَــا وتَــسْــتَــشْــقِــي فَــلاَ تُــسْــقَــى

فَــلَــمَّــا اسْــتَــيْــأسَــتْ رَجَــعَــتْ بِــــعَــــبْــــرَةٍ وَالِــــهٍ حَــــرَّى

تُــتَــابِــعُ بَــيــنَ وَلْــوَلَــةٍ وَبَــيْــنَ مَــدَامِــعٍ تَــتْــرَى[1]

ولا تزال تطوفُ في المواسم تنشد الناس[2]، وتصف إحساسها ولوعتها وفجيعتها بمصيبتها، فتقول:

يـا مَـنْ أحَـسَّ بُـنَـيَّـيَّ الـلَّـذَيْـنِ هُـمَـا كـالـدُّرَّتَـيْـنِ تَـشَـظَّـى عَـنْـهُـمَـا الـصَّـدَفُ

يـا مَـنْ أحَـسَّ بُـنَـيَّـيَّ الـلَّـذَيْـنِ هُـمَـا سَمْعِي وقَلْبِي، فَقَلْبِي اليَوْمَ مُخْتَطَفُ

يـا مَـنْ أحَـسَّ بُـنَـيَّـيَّ الـلَّـذَيْـنِ هُـمَـا مُخُّ العِظَامِ فَمُخِّي اليَوْمَ مُزْدَهَفُ[3]

نُبِّئْتُ بُسْراً ومَا صَدَّقْتُ مَا زَعَمُوا مِنْ قَوْلِهِمْ ومِن الإفْكِ الذِي اقْتَرَفُوا

أنْـحَـى عَـلَـى وَدَجَـيْ ابْـنَـيَّ مُـرْهَـفَـةً مَـشْـحُـوذَةً وكَـذَاكَ الإثْـمُ يُـقْـتَـرَفُ

حَـتَّـى لَـقِـيـتُ رِجَـالاً مِـنْ أرُومَـتِـهِ شُـمَّ الأنُـوفِ لَـهُـمْ فِـي قَـوْمِـهِـمْ شَـرَفُ

فَـالآنَ ألْـعَـنُ بُـسْـراً حَـقَّ لَـعْـنَـتِـهِ هَـذَا لَـعَـمْـرُ أبِـي بُـسْـرٍ هُـوَ الـسَّـرَفُ

مَــنْ دَلَّ وَالِــهَــةً حَــرّى مُــدَلَّــهَــةً علَى صَبِيَّيْنِ ضَلاً إذْ غَدَا السَّلَفُ[4]

---

(1) الأصبهاني: الأغاني، مج16، ص: 199. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 56.

(2) فسمعها رجل من أهل اليمن تندب ابنيها بهذه الأبيات، فرقّ لها، واتصل ببسر حتى وثق به، ثم احتال لقتل ابنيه، فخرج بهما إلى وادي أوطاس فقتلهما، وهرب، ثم أنشد:

يـا بُـسْـرُ بُـسْـرَ بَـنِـي أرطَـاةَ مَـا طَـلَـعـتْ شَـمْـسُ الـنَّـهـارِ وَلا غَـابَـتْ عَـلَـىَ الـنَّـاسِ

خَـيْـرٌ مِـنَ الـهَـاشِـمِـيّـيـن الـذيـنَ هُـمُ عَـيْـنُ الـهُـدَى وَسَـمَـامُ الأشْـوَسِ الـقَـاسِـي

إمَّـا قَـتَـلْـتَـهُـمَـا ظُـلْـمـاً فَـقَـدْ شَـرِقَـتْ مِـنْ صَـاحِـبَـيْـكَ قَـنَـاتِـي يَـوْمَ أوْطَـاسِ

فـاشْـرَبْ بِـكَـأسِـهِـمَـا ثُـكْـلاً كَـمَـا شَـرِبَـتْ أمّ الـصَّـبِـيَّـيْـنِ أوْ ذَاقَ ابْـنُ عَـبَّـاسِ

(الأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 205).

(3) مزدهف: مهلك.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 204 ـ 205. وانظر طيفور: بلاغات النساء، ص: 254. وذكر =

لقد كرّرت الشاعرة صدر البيت الأول ثلاث مرات، ومثل هذا التكرار يشكّل ضرباً من الولولة أو الندب المثير. والقصد بالتكرير هنا تفخيم وتعظيم المصيبة، وقد علّق على الأبيات مصطفى صادق الرافعي فقال: « ولا أبلغ في البلاغة ولا أحسن حكاية لصوت البكاء والندب من قولها «بنيّيّ» فهاتان الياءان المشدّدتان، تعصران الدموع عصراً، وتصوّران غصص العبرات متردّدة في حلق الباكية أبدع تصوير[1]».

لقد استطاعت الشاعرة أن تصوّر لنا آلامها تصويراً معبّراً في مقطوعتين جميلتين تتّسمان بحرارة البكاء، وصدق العاطفة، عاطفة إمرأة مكلومة الفؤاد، يفيض شعرها أسًى ولوعةً ونحيباً، وألفاظها وأساليبها سهلة لا تعقيد فيها لأنّ الشاعرة أصيبت في ولديها فترجمت ـ بقلب مفجوع ـ حالتها، وتركت نفسها الشاعرة على سجيّتها دون مبالاة بالتنميق والزخرفة اللفظيّة. ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا السنة التي توفّيت فيها، لكنّها كانت حيّة سنة 39 هـ، وهي السنة التي قتل فيها بسر بن أرطأة ولديها، وبكتهما بكاء مرّاً، وجزعت عليهما جزعاً شديداً. . .

وهذه نائلة بنت الفرافصة[2] زوجة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ترثيه وكانت له محبّة وعليه حدبة، حتى أنّه لما قتل اتقت سيف ضاربه فقطع أصبعين من أصابعها[3]، ثم أنشدت بعد دفنه، تقول باكية:

= الأصبهاني أنّ عليّ بن أبي طالب لمّا بلغه قتل بسر الصبيين جزع لذلك جزعاً شديداً ودعا على بسر، فقال: اللهم اسلبه دِينَهُ ولا تخرجه من الدنيا حتى تسلبه عقله، فأصابه ذلك وفقد عقله قبل وفاته...(م. ن.، مج16، ص: 205).

(1) تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 71.

(2) هي نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية، شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، وخطيبة من ذوات الرأي والشجاعة، والحسن والبهاء، والعقل والأدب، ولا نعرف تاريخ وفاتها لأن المصادر التي بين أيدينا لمْ تذكره. (انظر الأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 249. وطيفور: بلاغات النساء، ص: 96 وما بعدها. وابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص: 66 ـ 67).

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 250. وابن قتيبة: م. ن.، ج1، ص: 66.

ألاَ إنَّ خَـيْـرَ الـنَّـاسِ بَـعْـدَ ثَـلاَثَـةٍ قَتِيلُ التُّجِيبِيّ الذِي جَاءَ مِنْ مِصْرِ
وَمَـا لِـيَ لاَ أبْـكِـي وتَـبْـكِـي قَـرَابَـتِـي وقَدْ غُيِّبَتْ عَنَّا فُضُولُ أبِي عَمْرِو[1]

وفي اليوم التالي قصدت نائلة مسجد رسول الله ﷺ، ومعها نسوة من قومها، تخطب في جموع المسلمين قائلة: «عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم ... إلخ[2]»، وهي خطبة طويلة، ولولا ضيق المجال لذكرناها كاملة، ولمّا انتهت أقبلت بوجهها على قبر النبي ﷺ وقالت: اللهم اشهد:

أيَـا قَـبْـرَ الـنَّـبِـيِّ وصَـاحِـبَـيْـهِ عَذِيرِي إنْ شَكَوْتُ ضياعَ ثَوْبِي[3]
فـإنِّـي لاَ سـبِـيـلَ فَـتَـنْـفَـعُـونِـي ولاَ أيْـدِيكُـمْ فِـي مَـنْـعِ حَـوْبِـي[4]

ثم انصرفت باكية مسترجعة، وتفرّق الناس مع انصرافها[5].

وكتبت إلى معاوية ـ وهو في الشام ـ تصف له مقتل عثمان، وأرسلت إليه قميصه مضرّجاً بالدّم ممزّقاً، وبعض أصابعها المقطوعة، ولما سكنت الفتنة بعث إليها معاوية يخطُبها لنفسه، فأبت، وكسّرت ثناياها، وقالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وإني خفت أن يبلى حزني على عثمان، فيطّلع مني رجل على ما طلع عليه عثمان، وذلك ما لا يكون أبداً[6] ... ثم أنشأت تقول:

أبَـى الـلـهُ إلاَّ أنْ تَـكُـونِـي غَـرِيـبَـةً بِـيَـثْـرِبَ لاَ تَـلْـقَـيْـنَ أُمًّـا ولا أبـا[7]

هذه هي نائلة زوجة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، التي عايشت عن كثب محنة عثمان ومقتله. وشعرها ركيك الأسلوب، ويبدو أنّه ممّا يكتب لمراعاة قائلته

---

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص: 413. والأصبهاني: م. ن.، مج16، ص: 251. (مع الاختلاف بينهما في الشطر الأخير. في مروج الذهب: وقد غيّبوا عني...).
(2) طيفور: م. ن.، ص: 96، وفيه الخطبة كاملة، انظر ص: 97 ـ 98.
(3) غذيري: نصيري. ضياع ثوبي: كناية عن فقدها زوجها لأنه سترٌ كالثوب.
(4) طيفور: م. ن.، ص: 98. وحوبي: الحوبُ: الحزن والوحشة.
(5) طيفور: م. ن.، ص: 98.
(6) ابن عساكر: تاريخ دمشق ـ تراجم النساء ـ ص: 408 ـ 409. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج3، ص: 242. وابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص: 128 .
(7) ابن عساكر: م. ن.، ص: 408 ـ 409.

ومكانتها التاريخيّة المرموقة، لا لعلوّ مكانته الفنيّة، وإن كان صادق العاطفة، ينبض بعاطفة الشاعرة المتألّمة لفقدان زوجها الذي قتل بين يديها.

أما حبلة بنت منصور[1]، فبكت أخاها الأجلح الذي قتل في موقعة صفّين، وكان من أنصار معاوية، فقالت:

أتَانَا اليَوْمَ مَقْتَلُهُ	فَقَدْ واللهِ أبْكِينَا
لِقَتْلِ المَاجِدِ القَمْقَا	م لاَ مِثْلَ لَهُ فِينَا[2]
أتَانَا اليَوْمَ مَقْتَلُهُ	فَقَدْ جَزَّتْ نَوَاصِينَا
كَرِيمٌ مَاجِدُ الجَدَّيْـ	ـنِ يَشْفِي مِنْ أعَادِينَا
ومِمّنْ قَادَ جَيْشَهُمُ	عَلِيٌّ والمُضِلُّونَا
شَفَانَا اللهُ مِنْ أهْلِ الْـ	ـعِرَاقِ فَقَدْ أبَادُونَا
أمَا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمُ	ولَمْ يَرْعَوا لَهُ دِينَا[3]

إنّ الشاعرة في هذه الأبيات ظلت معانيها ضمن نطاق الكرم والشجاعة والشرف، وهي نفس المعاني التي طرقها الشعراء من قبل، ورغم أن الأبيات في الرثاء فإنها تظهر فيها النزعة السياسية، فالشاعرة من أنصار معاوية بن أبي سفيان ومؤيديه، وهي تتهم جيش علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، بالضلال وعدم الخشية من الله، وأنّهم لم يرعوا دينه.

هذه هي شاعرتنا حبلة بنت منصور لم تذكر المصادر تاريخ مولدها ووفاتها إلا أنّها كانت حية أثناء موقعة صفين سنة 37 هـ.

أما أمُّ كلثوم بنت عبد الود[4] فقد رثت أيضاً أخاها

---

(1) هي حبلة بنت منصور الكندي، شاعرة من شواعر صدر الإسلام، ولعلها أدركت بني أمية، كانت مناصرة لمعاوية بن أبي سفيان ومؤيديه. (انظر نصر بن مزاحم المنقري: وقعة صفين، ص: 178).

(2) القَمقَامُ: والقُمقام: السيد الكثير العطاء، جمع: قماقِم وقَماقِمَة.

(3) نصر بن مزاحم المنقري: م. ن.، ص: 178.

(4) هي أم كلثوم بنت عبد ودّ بن قيس العامرية، شاعرة مخضرمة، عاشت في الجاهلية وصدر الإسلام، لكننا أدرجناها مع شواعر صدر الإسلام لكون الأشعار التي وصلتنا عنها أنشدتها =

عمراً[1] عندما قتله عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وذلك أنّ عمراً خرج في نفر من قريش إلى المسلمين في غزوة الخندق[2]، وقال لهم: من يبارز؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب، فقال له: يا عمرو إنّي أدعوك إلى الإسلام، فقال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال له عليّ: لكنّي والله أحبّ أن أقتلك. فَحَمِيَ عمرو عند ذلك، واقتحم عن فرسه فعقره، وضرب وجهَهُ، ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتجاولا، فقتله عليّ. فنُعي عمرو إلى أخته أم كلثوم، فسألت: من قتله؟ فقيل لها: عليّ. فقالت: لم يأت يومه إلا على يد كُفْءٍ كريم، ثم أنشدت:

أَسَدَانِ فِي ضِيقِ الـمَكَرّ تَجَاوَلاَ ... وكِلاَهُمَا كُفْوٌ كَرِيمٌ بَاسِلُ

فَتَخَالَسَا سَلْبَ النُّفُوسِ كِلاَهُمَا ... وَسْطَ الـمَجَالِ مُجَالِدٌ ومُقَاتِلُ

وكِلاَهُمَا حَسَرَ القِنَاعَ حَفِيظَةً ... لَمْ يَثْنِهِ عَنْ ذَاكَ شُغْلٌ شَاغِلُ

فَاذْهَبْ عَلِيُّ فَمَا ظَفِرْتَ بِمِثْلِهِ ... قَوْلٌ سَدِيدٌ لَيْسَ فِيهِ تَحَامُلُ[3]

يبدو من خلال الأبيات أن الشاعرة تمدح القاتل وترثي المقتول، وكأنّها تفتخر لكون قاتل أخيها بطلاً شجاعاً مثله، إنّه عليّ بن أبي طالب، فكلاهما أسد، وكلاهما كفء، كريم باسل، وقالت أيضاً بالسياق نفسه:

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ ... لَكُنْتُ أبْكِي عَلَيْهِ آخِرَ الأبَدِ

= في هذا العصر. ثم دعاها النّبي ﷺ إلى الإسلام يوم فتح مكة فأسلمت (انظر ذيل ديوان الخنساء، ص: 128. وبشير يموت: شاعرات العرب، ص: 121).

(1) هو عمرو بن عبد الودّ العامري، من بني لؤيّ، من قريش: فارس قريش وشجاعها في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يُسلم، وعاش إلى أن كانت وقعة الخندق فحضرها، فقتله عليّ بن أبي طالب...(الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 81).

(2) غزوة الخندق: كانت في السنة الرابعة أو الخامسة من الهجرة بين المسلمين والمشركين (انظر عنها: ابن حزم الأندلسي: جوامع السيرة النبوية، ص: 147 وما بعدها. والحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 11. والحموي: معجم البلدان، ج2، ص: 392).

(3) ذيل ديوان الخنساء، ص: 127. وكحالة: أعلام النساء، ج4، ص: 254.

لَـكِـنَّ قَـاتِـلَـهُ مَـنْ لاَ يُـعَـابُ بِـهِ مَنْ كَـانَ يُـدْعَى قَـدِيماً بَيْضَةَ الـبَـلَـدِ
مِنْ هَـاشِـمٍ فِـي ذُرَاهَـا وهْـيَ صَـاعِـدَةٌ إِلَى السَّمَاءِ تُمِيتُ النَّاسَ بِالحَسَدِ
قَـوْمٌ أَبَـى الـلـهُ إلاّ أنْ يَـكُـونَ لَـهُـمْ مَـكَـارِمُ الـدّيـنِ والـدُّنْـيَـا بِـلاَ لَـدَدِ[1]
يَـا أمَّ كُـلْـثُـومِ أبْـكِـيـهِ ولاَ تَـدَعِـي بُـكَـاءَ مُـعْـوِلَـةٍ حَـرَّى عَـلَـى وَلَـدِ[2]

فالشاعرة تبدو صابرة على ما أصابها، لأن قاتل أخيها علي بن أبي طالب، ولو لم يكن هو قاتله لحزنت عليه حزناً شديداً، وبكته بكاء مريراً. ويبدو من خلال الأبيات، وكأن الشاعرة متشيعة لعلي وبني هاشم، بالرغم من أنّها كانت لا تزال مشركة حين رثت أخاها؛ ثم أسلمت يوم فتح مكة بعد أن دعاها النبي ﷺ إلى الإسلام.

والمصادر التي بين أيدينا سكتت عن ذكر تاريخ ميلادها ووفاتها.

أما أمُّ البراء بنت صفوان[3]، فقد كانت من أنصار علي بن أبي طالب، آزرته في موقعة صفين، ورثته حين قُتل، وأدركت عصر بني أمية، وذات يوم استأذنت على معاوية، فأذن لها، فدخلت عليه، لكنّه ابتدرها قائلاً، بعد أن رّحب بها: شتان بينك اليوم، وحين تقولين:

يـا عَـمْـرُو دُونَـكَ صَـارِمـاً ذَا رَوْنَـقٍ عَـضْـبَ الـمَـهَـزَّةِ لَـيْـسَ بِـالـخَـوَّارِ[4]
أجِـبِ الإِمَـامَ ودُبَّ تَـحْـتَ لِـوَائِـهِ وَافْـرِ الـعَـدُوّ بِـصَـارِمٍ بَـتَّـارِ

قالت: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، ومثلك عفا، والله تعالى يقول: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾ [المائدة: 95]، قال هيهات، أما والله لَوْ

(1) اللدَدُ: الخُصومةُ الشديدة مع المَيلِ عن الحق.

(2) ذيل ديوان الخنساء، ص: 127. وبشير يموت: المرجع السابق، ص: 126 ـ 127.

(3) هي أم البراء بنت صفوان: شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، ذات لسان فصيح ومنطق مبين. أدركت عصر بني أمية، فوفدت على معاوية في أواخر حياتها. (انظر طيفور: بلاغات النساء، ص: 110 ـ 111. والعباس الضبي: أخبار الوافدات على معاوية، ص: 44 وما بعدها).

(4) البيتان في الحث على القتال لمؤازرة الإمام علي في حربه، والسير تحت لوائه، وهما من مقطوعة سنعود إليها في مكان آخر. وقد أوردتها هنا في سياق الكلام وتسلسله. وعُضْبُ: قاطع. والمهزّة: الحركة. والخوّار: الضعيف.

عاد لعُذْتِ، ولكنّه اختُرم[1] قبلك، فكيف قولُكِ حين قُتِل؟ قالت: نسيتهُ، فقال بعض جُلسائه: هو والله حين تقول يا أمير المؤمنين:

يـا لِـلـرِّجَـالِ لِـعُـظْـمِ هَـوْلِ مُـصِـيـبَـةٍ ... فَـدَحَـتْ فَـلَـيْـسَ مُـصَـابُـهَـا بِـالـهَـازِلِ

الـشَّـمـسُ كَـاسِـفَـةٌ لِـفَـقْـدِ إمَـامِـنَـا ... خَـيْـرِ الـخَـلائِـقِ والإمَـامِ الـعَـادِلِ

يا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيّ ومَنْ مَشَى ... فَـوْقَ الـتُّـرَابِ لِـمُـحْـتَـفٍ أو نَـاعِـلِ

حَـاشَـا الـنَّـبِـيّ لَـقَـدْ هَـدَدْتَ قُـوَاءَنَـا ... فـالـحَـقُّ أصْـبَـحَ خَـاضِـعـاً لِـلْـبَـاطِـلِ[2]

فقال معاوية: قاتلَك الله يا بنت صفوان، ما كان حسان بن ثابت يحسنُ مثل هذا، وما تركت لقائلٍ مقالاً، اذكري حاجتك. قالت: هيهات بعد هذا، والله لا أسألك شيئا، ثم قامت، فعثرت، فقالت: تعس شانىء[3] عليّ. فقال لها معاوية: يا بِنْتَ صفوان زعمت ألّا...[4] قالت: هو ما علمت، فلما كان الغدُ بعث إليها بكسوة فاخرة، ودراهم كثيرة وقال: إذا أنا ضيّعتُ الحِلْمَ فمن يحفظه؟[5]

أمّا إذا رجعنا إلى الأبيات السالفة الذكر، وجدنا الشاعرة في مرثيتها تبكي الإمام علياً لما قُتل، وتبدو وكأنها من غلاة الشيعة، فبعد أنْ تذكر هَوْل المصيبة التي تزعزعت لها كلُّ المخلوقات، حتى الشمس كسفت لفقد الإمام، تشيد بمناقبه، فهو خير من ركب المطايا، وخير الخلائق طرًّا بعد النبي ﷺ. والمقطوعة جزلة الألفاظ، دقيقة المعاني باستثناء ما نلاحظه من ضعف وركاكة أسلوب في الشطر الثاني من البيت الثالث «فَوْق الترابِ لمحْتفٍ أو ناعل» حسب رواية طيفور[6] والضبي[7]، أو «فوق التراب بحافي أو ناعل» حسب رواية ابن

(1) اختُرِمَ: هلك، مات.

(2) طيفور: م. ن.، ص: 111. والعباس الضبي: م. ن.، ص: 45 وما بعدها.

(3) الشانىء: المبغض.

(4) يشير هنا إلى قوله: «عفا اللهُ عمّا سَلَف...» أي: أنها زعمت ألاّ تعود إلى مثل قولها الأول. ثم عادت.

(5) طيفور: م. ن.، ص: 110 ـ 111. والضبي: م. ن.، ص: 44 وما بعدها.

(6) طيفور: م. ن.، ص: 111.

(7) الضبي: م. ن.، ص: 45.

عساكر[1]، فكلتا الروايتين تدخل على البيت ضعفًا، ولربَّما وقع تحريفٌ في البيت فكان الأصل« فَوْق الثّرى مِنْ مُحتَفٍ أو نَاعِلِ» وعندئذٍ لا شبهة ولا ضعف في البيت،[2] وكذلك ما نلاحظه في الشطر الأول من البيت الأخير، في قولها «هدَدْتَ قُواءَنَا» فجمع القوة قُوى، فمدّت المقصور للضرورة الشعرية، لكنَّ مدَّ المقصور لا يجوز في شعر أو غيره، لأنه خروج عن الأصل[3]، ولست أدري هل نعتبر هذا الخروج خطأ عروضياً من الشاعرة أم أنّ العروضيين هم الذين قصروا لأنهم لم يطلعوا على شعر الشاعرة التي أجازت هذه الضرورة قبل علم العروض؟.

ومهما يكن من أمر فهذه هي شاعرتنا، أمُّ البراء، التي لم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ ميلادها ووفاتها، ولكنها ذكرت لنا بأنّها عاشت في صدر الإسلام، إذْ كانت من أنصار علي بن أبي طالب، وأدركت عصر بني أمية، فوفدت على معاوية في أواخر حياتها، وأدرجناها مع شواعر صدر الإسلام لأنّ شعرها الذي وصلنا قالته في هذا العصر.

أما أمُّ سنان بنت خيثمة[4] فهي أيضاً من الشواعر اللاتي تدخَّلن في الصراع السياسي بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، ووقفن بجانب علي في موقعة صفين، ورثينه حين قتل. ولمّا استتبّ الأمر لمعاوية وفدت عليه تشكو مروان بن الحكم والي المدينة آنذاك[5]، فرحّب بها، ثم قال: ألستِ القائلة؟:

---

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق ـ تراجم النساء ـ ص: 479.

(2) ابن عساكر: م. ن.، والصفحة نفسها.

(3) العلوي: نضرة الأغريض في نصرة القريض، تحقيق: د.نهى عارف حسن ص: 259، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق، 1976.

(4) شاعرة من شواعر صدر الإسلام، وأدركت بني أمية، وكانت من أنصار علي بن أبي طالب، ووفدت على معاوية بعدَ أن استتب الأمر له تشكو مروان بن الحكم، فرفع عنها الظلم وأكرمها. (انظر عنها: الضبي: أخبار الوافدات على معاوية، ص: 23 ـ 24. وطيفور: بلاغات النساء، ص: 92، ما بعدها).

(5) وذلك أنّ مروان حبس غلاماً من بني ليث في جناية جناها، فأتته أمُّ سنان بنت خثيمة، وهي جدةُ =

يَا آلَ مُذْحِجَ لاَ مُقَامَ فَشَمِّرُوا ... إنّ العَدُوَّ لآلِ أحْمَدَ يَقْصِدُ
هَذَا عَلِيٌّ كَالهِلاَلِ تَحُفُّهُ ... وَسْطَ السَّمَاءِ مِنَ الكَوَاكِبِ أسْعُدُ[1]
خَيْرُ الخَلاَئِقِ وابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... إنْ يَهْدِكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا[2]

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون خلفاً بعده، فقال رجلٌ من جلسائه: وهي القائلة أيضاً تبكيه:

إمَّا هَلَكْتَ أبَا الحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ ... بِالحَقِّ تُعْرَفُ هَادِيًا مَهْدِيًّا
فَاذْهَبْ عَلَيْكَ صَلاَةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ ... فَوْقَ الغُصُونِ حَمَامَةٌ قُمْرِيًّا
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلَفاً كَمَا ... أوْصَى إلَيْكَ بِنَا فَكُنْتَ وَفِيًّا
فَاليَوْمَ لاَ خَلَفٌ يُؤَمَّلُ بَعْدَهُ ... هَيْهَاتَ نَأْمَلُ بَعْدَهُ إنْسِيًّا

فقال معاوية: وإنك لتقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك مدح بباطل، ولا اعتذر له بكذب، كان والله عليٌّ أحبُّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك. ثم سألها حاجتها، فشكته عامله على المدينة مروان بن الحكم الذي حبس حفيدها، فقال: اكتبوا لها بإطلاقه، وأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم.[3]

يبدو من خلال المقطوعتين المذكورتين أنّ الشاعرة كانت من شيعة علي،

= الغلام أم أبيه، فكلمته في أمر الغلام، فأغلظ لها مروان، فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه فانتسبت له، فعرفها، فقال لها مرحباً بك يا بنت خثيمة، ما أقدمك أرضنا وقد عهدناك تشتميننا وتحضّين علينا عدوّنا؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنّ لعبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأحلاماً وافرة لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإنّ أولى الناس باتباع سنن آبائه لأنتَ، قال: صدقتِ، نحن كذلك... (الضبي: م. ن.، ص: 23 ـ 24. وطيفور: م. ن.، ص: 92 وما بعدها).

(1) أسعُدُ: سعُود النجوم عشرة: أربعة منها من منازل القمر، وستٌّ ليست من منازله.

(2) الأبيات في الحض على القتال لمؤازرة علي في حربه ومدحه، وسنعود إليها في مكان آخر، وقد أوردتها هنا في سياق الكلام وتسلسله.

(3) الخبر والأبيات في كتاب الضبي: م. ن.، ص: 23 ـ 24. وطيفور: م. ن.، ص: 92 وما بعدها. وابن عبد ربه: طبائع النساء، ص: 229 ـ 230 .

رضي الله عنه، فهي في المقطوعة الأولى تحرّضُ آل مُذْحجٍ على أعدائه وتطلبُ منهم أن يقتبسوا من نور علي خير الأنام وابن عمّ رسول الله ﷺ، وفي المقطوعة الثانيـة تشيـد بمناقبـه، وتبـدو وكأنها من غلاة الشيعة الذين لا يعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم، ويرون أنهم أخذوا الخلافة عنوة من علي الذي أوصى له النبي ﷺ بالخلافة بعده، وتقول: قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك. . .

والمصادر التي ترجمت لها لم تذكر تاريخ ميلادها ووفاتها، ولكننا نستنتج من مناصرتها لعليّ ورثائها له بعد وفاته، ووفودها على معاوية أنّها عاشت في صدر الإسلام، وأدركت بني أمية.

ومن الشواعر اللاتي تشيَّعن لعلي بن أبي طالب أيضاً، سودة[1] بنت عُمارة بن الأشتر[2] الهمدانية، فقد وقفت بجانب عليّ في صفين، وحرّضت أخاها على نصرته، ورثته حين قُتل، ولما استتبّ الأمر لمعاوية وفدت عليه في شكوى لها، فاستأذنت عليه، فأذن لها، فلما دخلت عليه سلّمت، فرّحب بها، ثم قال لها: ألستِ القائلة لأخيك يوم صفين:

شَمِّرْ كَفِعْلِ أبِيكِ يا ابْنَ عُمَارَةٍ ... يَوْمَ الطِّعَانَ ومُلْتَقَى الأقْرَان

وانْصُرْ عَلِيًّا والحُسَيْنَ ورَهْطَهُ ... واقْصِدْ لِهِنْدٍ وابْنِهَا بِهَوَانِ[3]

قالت: بلى، وما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب، قال: فما

---

(1) هي سودة بنت الأشتر الهمدانية: شاعرة من شواعر صدر الإسلام، وأدركت بني أمية، ووفدت على معاوية في شكوى لها فذكرها بنصرتها لعلي ضده، فثبتت في وجهه وواجهته بقوة (انظر خبرها بالتفصيل في الضبي: م. ن.، ص: 67 وما بعدها. وطيفور: م. ن.، ص: 47 وما بعدها).

(2) الأشتر النّخعي: هو مالك بن الحارث النّخعي، المعروف بالأشتر، كان أميراً شجاعاً شاعراً من أنصار علي بن أبي طالب شهد معه يوم الجمل وصفين، وتوفي سنة 37 هـ (انظر الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 259).

(3) البيتان في حث أخيها على نصرة علي في حربه ضد معاوية، وهما من مقطوعة سأعود إليها في مكان آخر. وقد أوردتها هنا في سياق الكلام وتسلسله.

حملك على ذلك؟ قالت: حبُّ علي واتباع الحق، فقال متهكماً: والله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئاً، ثم سألها عن حاجتها، فشكت له وحشية عامله بُسر بن أرطاة، وتهدّدته بقولها: فإمّا عزلته، فشكرناك، وإمّا لا، فعرفناك، فغضب معاوية وردّ عليها بقسوة، فأطرقت تبكي، ثم أنشدت تقول في رثاء علي:

صَلّى الإِلٰهُ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصبَحَ فِيهِ العَدْلُ مَدْفُونَا

قَدْ حَالَفَ الحَقّ لاَ يَبْغِي بِهِ بَدَلاً فَصَارَ بِالحَقّ والإِيمانِ مَقْرُونَا[1]

وسألها معاوية عمّن تعنيه برثائها، فقالت بغصة: علي بن أبي طالب، فكَظَمَ غَيظه، وقال: اكتبوا لها بالعدل، فقالت: إليّ خاصة أم لقومي عامة؟ فضاق صدر معاوية، وقال لها: ما أنت وغيرك؟ فأجابته: هي والله إذاً الفحشاء واللؤمُ، فإنْ كان عدلاً شاملاً، وإلا فأنا كسائر قومي. ولم يجد معاوية بُدًّا من الاستجابة لمطلبها، فقال: اكتبوا لها ولقومها بحاجتها[2].

هذه هي سودة بنت عمارة الشاعرة الزعيمة التي استطاعت أن تفتكّ حقها وحق قومها من معاوية وأن ترفع عنهم الظلم بسعة ثقافتها وفكرها، وعمق أفقها، وسرعة بديهتها، وشاعريتها؛ ويبدو أن الشاعرة وفدت على معاوية بعد كبرها لأن المصادر لم تذكر تاريخ مولدها ووفاته.

أما عفراء[3] بنت عقّال فبكت ابن عمها عروة بن حزام بكاء مراً لمّا بلغها نعيهُ، فقالت:

---

(1) طيفور: م. ن.، ص: 48، والضبي: م. ن.، ص: 69.

(2) انظر الخبر بالتفصيل في طيفور: م. ن.، ص: 48 ـ 49. والضبي: م. ن.، ص: 69 ـ 70. والسيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، ج1، ص: 429 وما بعدها. والدكتور محمد بدر معبدي: أدب النساء في الجاهلية والإسلام (النثر)، ص: 141.

(3) شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، نشأت مع ابن عمها عُروة بن حزام، الشاعر العذري المعروف، الذي مات والده وهو صغير، فكفله عمُّه عقّال والد عفراء، وقد أقامت النشأة المشتركة إلفة شديدة بينهما، فتحابّا في صباهما، فلما كبرا زوّجها أبوها من غيره بإيعاز من زوجته، وكان عروة غائباً، فقالت عفراء تبث أساها في قصيدة طويلة، منها:

يا عُروَ إنَّ الحَيَّ قَد نَقَضُوا عَهدَ الإِلَهِ وحَاوَلُوا الغَدرَا

ألا أيُّهَا الرَّكْبُ المُخِبُّونَ ويْحَكُمْ بِحَقٍّ نَعَيْتُمْ عُرْوَةَ بنَ حِزَامِ
فَلاَ هَنِيءَ الفِتْيَانُ بعْدَكَ غَارَةً ولا رَجَعُوا مِنْ غَيْبَةٍ بِسَلام
فَقُلْ لِلْحَبَالَى لاَ تُرَجِّينَ غَائِبًا ولاَ فَرَحَاتٍ بَعْدَهُ بِغُلاَمِ[1]

ولم تزل تردّدُ هذه الأبيات وتندبه وتبكيه إلى أن ماتت بعده بأيام قلائل[2].

وإذا كان عُروة قد مات عشقاً في حدود الثلاثين للهجرة حسب رواية ابن شاكر الكتبي[3]، والزركلي[4]، فإنّ عفراء تكون قد توفيت في السنة نفسها، أو في السنة الموالية لها على أكثر تقدير، لأن أغلب المصادر التي بين أيدينا متفقة على أنها ماتت بعده بأيام قلائل، كما سبقت الإشارة إليه، بل إنَّ الأصبهاني قد حدد عدد الأيام التي عاشتها عفراء، بعده، فقال: «فما زالت تندبهُ ثلاثاً حتى توفيت في اليوم الرابع»[5].

وهناك رواية أخرى تتعلّق بوفاة عفراء، أوردها السراج عن الأخفش؛ قال الأخفش: خرجت في سفر، فنزلنا على ماءٍ لطيّء، فبصرت بخيمة من بعيد، فقصدتُ نحوها، فإذا فيها شاب على فراشٍ، كأنه الخيال، فأنشأ يقول:

ألا مَا لِلْحَبِيبَةِ لاَ تَعُودُ أَبُخْلٌ بالحَبِيبَةِ أمْ صُدُودُ

= وسافرت مع زوجها إلى الشام، وعمد أبوها إلى قبرٍ عتيقٍ، فجدّده، وسواه وسأل الحي كتمان أمرها. وقدم عروة بعد أيام، فنعاها أبوها إليه، وذهب به إلى ذلك القبر المزعوم، فلازمه أياماً طويلة، يبكي وينتحب إلى أن أشفقت عليه جارية من جواري الحي، فأخبرته بالحقيقة... فرحل إلى الشام، وسأل عن زوج عفراء وقصده... ورأى عفراء قبل وفاته، ولما توفي رثته ثم توفيت بعده. (انظر أخبارها بالتفصيل في: ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ج2، ص: 447 وما بعدها. وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 418 وما بعدها. والسراج: مصارع العشاق، ج1، ص: 212 و 264 و 317 وما بعدها).

(1) السرّاج: م. ن.، مج1، ص: 320. وانظر الأصفهاني: الأغاني، مج23، ص: 309.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج23، ص: 309. وابن عساكر: تاريخ دمشق (تراجم النساء)، ص: 251 وابن شاكر الكتبي: م. ن.، ج2، ص: 449.

(3) م. ن.، ص: 447.

(4) الأعلام، مج4 ص: 226.

(5) الأغاني، مج23، ص: 314.

مَـرِضْـتُ فَـعَـادَنِـي عُـوَّادُ قَـوْمِـي | فَـمَـا لَـكِ لَـمْ تُـرَيْ فِـي مَـنْ يَـعُـودُ
فَلَوْ كُنْتِ الـمَـرِيضَ، ولاَ تَـكُـونِـي، | لَـعُـدْتُـكُـمُ، ولَـوْ كَـثُـرَ الـوَعِـيـدُ
ولاَ اسْـتَـبْـطَـأْتُ غَـيْـرَكِ فَـاعْـلَـمِـيـهِ | وحَـوْلِـي مِـنْ ذَوِي رَحِـمِـي عَـدِيـدُ[1]

قال: ثم أغمي عليه، فمات، فوقعت الصيحة في الحيّ، فخرج من آخر الماء جارية كأنها فلقةُ قمرٍ، فتخطتْ رِقابَ الناس حتى وقفت عليه، فقبّلتهُ، وأنشأت تقول:

عَـدَانِـي أنْ أعُـودَكَ يَـا حَـبِـيـبِـي | مَـعَـاشِـرُ فِـيـهِـمُ الـوَاشِـي الـحَـسُـودُ
أذَاعُـوا مَـا عَـلِـمْـتَ مِـنَ الـدَّوَاهِـي | وعَـابُـونَـا ومَـا فِـيـهِـمْ رَشِـيـدُ
فَـأمَّـا إذْ حَـلَـلْـتَ بِـبَـطْـنِ أرْضٍ | وقَـصْـرُ[2] الـنَّـاسِ كُـلِّـهِـمُ الـلُّـحُـودُ
فَـلاَ بَـقِـيَـتْ لِـي الـدُّنْـيَـا فُـوَاقًـا[3] | ولا لَـهُـمُ ولاَ أثْـرَى عَـدِيـدُ[4]

ثم شهقت شهقة فخرَّت ميتةً منها، فخرج من بعض الأخبية شيخ، فوقف عليهم، فترحم عليهما، وقال: والله لئن كنتُ لم أجمع بينكما حيّينِ لأجمعنّ بينكما ميتيْن، فدفنهما في قبر واحدٍ احتفره لهُما، فسألْتُهُ، فقال: هذه ابنتي، وهذا ابن أخي[5].

ذكرت الشاعرة في هذه المرثية الوشاة والحسّاد الذين نغّصوا عليها وعلى حبيبها الحياة السعيدة الهنيئة التي كانا يحلمان بها، فقد كان حبيبها الامل الوحيد الذي كان يشغلها، أمّا اليوم وقد مات، فلم تعد هناك أيّة جدوى من بقائها بعده.

---

(1) السراج: م. ن.، مج1، ص: 111.

(2) قصر الناس: غايتهم.

(3) الفُواقُ والفَواقُ: مصدران ما بين الحلبتين من الوقت، وقيل: ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع، وأرادت هنا: زمناً قليلاً.

(4) السراج: م. ن.، مج1 ص: 111.

(5) الخبر في السراج: م. ن.، مج1، ص: 110 ـ 111. وانظر أيضاً ص: 212 و 320. وهناك أخبار كثيرة ومتضاربة عن تاريخ وكيفية موت عفراء. (انظر ابن عساكر: م. ن.، ص: 252 ـ 253. وابن قتيبة: الشعر والشعراء، : 421. والزركلي: الأعلام، مج4 ص: 238) وفي هذه الأخبار الكثير ممّا أضافه خيال الرواة، وهو بحاجة إلى تمحيص وتدقيق وتحقيق.

وشعرها في جملته، ومن خلال المرثيتين اللتين وصلتا إلينا، واضح المعاني متخيّر الألفاظ، وما عدا ذلك، فلا نجد فرقاً بينه وبين الشعر الجاهلي، فلا وجود في شعرها لتلك النفحة الدينية التي نجدها لدى شعراء صدر الإسلام، كما لا نجد في شعرها تعابير جديدة من القرآن الكريم أو ألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل كما هو الحال في شعر صدر الإسلام، وظل شعرها في مجمله على ما كان عليه في الجاهلية، وانحصر تجديدها في وضوح المعاني، وسلاسة الأسلوب.

أما خولة[1] بنت الأزور فرثت أخاها ضراراً لمّا وقع في الأسر، وحزنت عليه حزناً شديداً، فقالت:

أَلاَ مُخْبِرٌ بَعْدَ الفِرَاقِ يُخَبِّرنَا ... فَمَنْ ذَا الذِي يا قَوْمُ أشْغَلَكُمْ عَنَّا

فَلَوْ كُنْتُ أدْرِي أنَّهُ آخِرُ اللِّقَا ... لَكنّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ وَوَدَّعْنَا

ألا يَا غُرَابَ البَيْنِ هَلْ أنْتَ مُخبِرِي ... فَهَلْ بِقُدُومِ الغَائِبِينَ تُبَشِّرُنَا

لقَدْ كَانَتِ الأيَّامُ تَزْهُو لِقُرْبِهِمْ ... وكُنَّا بِهِمْ نَزْهُو وكَانُوا كَمَا كُنَّا

ألا قَاتَلَ اللهُ النَّوَى مَا أمَرَّهُ ... وأقْبَحَهُ مَاذَا يُرِيدُ النَّوَى مِنَّا

ذَكَرْتُ لَيَالِي الجَمْعِ كُنَّا سَوِيَّةً ... فَفَرَّقَنَا رَيْبُ الزَّمَانِ وشَتَّتَنَا

لَئِنْ رَجَعُوا يَوْماً إلَى دَارِ عِزِّهِمْ ... لَثَمْنَا خِفَافاً لِلْمَطَايَا وقَبَّلْنَا

ولَمْ أنْسَ إذْ قَالُوا: ضِرَارٌ مُقَيَّدٌ ... تَرَكْنَاهُ فِي دَارِ العَدُوِّ ويَمَّمْنَا

فَمَا هَذِهِ الأيَّامُ إلاَّ مُعَارَةٌ ... ومَا نَحْنُ إلاَّ مِثْلُ لَفْظٍ بِلاَ مَعْنَى

أرَى القَلْبَ لاَ يَخْتَارُ فِي النَّاسِ غَيْرَهُمْ ... إذَا مَا ذَكَرْهُمْ ذَاكِرٌ قَلْبِيَ المُضْنَى

سَلاَمٌ عَلَى الأحْبَابِ في كُلِّ سَاعَةٍ ... وَإنْ بَعُدُوا عَنَّا وإنْ مُنِعُوا مِنَّا[2]

---

(1) شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، كانت من أشجع النساء في عصرها، خرجت مع أخيها ضرار بن الأزور إلى الشام لقتال الروم بصحبة جيوش المسلمين، وكان من سوء حظ أخيها «ضرار» أن وقع في الأسر فحزنت عليه حزناً شديداً ورثته. توفيت في أواخر عهد عثمان سنة 35 هـ. (انظر أخبارها في ذيل ديوان الخنساء، ص: 147 ـ 148. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 184 وما بعدها. وكحالة: أعلام النساء، ج1، ص: 374 - وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج2 ص: 325).

(2) ذيل ديوان الخنساء، ص: 147. وبشير يموت: شاعرات العرب، ص: 172 ـ 173.

وبالرغم من أن القصيدة في الرثاء كما وردت في ديوان الخنساء بالاضافة إلى مراثي ستين شاعرة من شواعر العرب[1] إلا أنّها تتميز بخاصيتين: هما الحُبُّ والحنين إلى أخيها، شغفاً به، وتأوّهاً عليه، وتبدو للوهلة الأولى ، وكأنها في الغزل، قيلتْ في حبيب لا في أخٍ، ودفعها حبّها لأخيها وحماسُها إلى شنّ عدة هجمات على معسكر الروم، وقاتلتْ قتال المستميت حتّى خلّصت الأسرى من أيدي الروم.

ويبدو أن أخاها قد أسر مرة ثانية[2]، فبكته بكاء شديداً؛ وذات ليلة اشتد حُزنُها، ولم يغمضْ لها جفْنٌ، فحاولت إحدى النسوة أنْ تقنعها بالنّوم والكفّ عن البكاء رحمة بنفسها، فقالت:

أَبَعْدَ أخِي تَلَذُّ الغَمْضَ عَيْنِي	فَكَيْفَ يَنَامُ مَقْرُوحُ الجُفُونِ
سَأبْكِي مَا حَيِيتُ عَلَى شَقِيقٍ	أعَزَّ عَلَيَّ مِنْ عَيْنِي اليَمِينِ
فَلَوْ أنِّي لَحِقْتُ بِهِ قَتِيلاً	لَهَانَ عَلَيَّ إذْ هُوَ غَيْرُ هُونِ
وكُنْتُ إلى السُّلُوّ أرَى طَرِيقاً	وأعْلَقُ مِنْهُ بِالحَبْلِ المَتِينِ
وإنَّا مَعْشَرٌ مَنْ مَاتَ مِنَّا	فَلَيْسَ يمُوتُ مَوْتَ المُسْتَكِينِ
وإنِّي إنْ يُقَالَ: قَضَى ضِرَارٌ	لَبَاكِيَةٌ بِمُنْسَجِمٍ هَتُونِ
وقَالُوا: لِمْ بُكَاكِ فَقُلْتُ: مَهْلاً	أمَا أبْكِي وقَدْ قَطَعُوا وَتِينِي[3]

ثم قالت: لا بد أن أخلصه من الأسر اليوم، كما خلّصته بالأمس، وأن آخذ بثأره، وتقدمت الجيش إلى أنطاكية مع مجموعة من النساء، وحملت على عساكر الرّوم، كأنَّها النارُ المحرقة، فزعزعت كتائبهم، وخلصت أخاها من الأسر[4].

---

(1) ذيل ديوان الخنساء، الصفحة نفسها.

(2) أسر أخوها ضرار بن الأزور مرّتين: مرة في وقعة أجنادين وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين، ومرة ثانية في وقعة مرج دابق قرب أنطاكية (انظر بشير يموت: المرجع السابق، ص: 172. والحموي: معجم البلدان، مج1، ص: 103).

(3) زينب فواز: الدر المنثور، ص: 186. وكحالة: أعلام النساء، ج1، ص: 375.

(4) بشير يموت: المرجع السابق، ص: 173.

ويروى أنَّ خولة بنت الأزور حضرت فتوح مصر، فهجم القبط على المسلمين وأسروا قوماً منهم، وكانت خولة من الأسارى، فقالت ترثي نفسها وتذكر أخاها ضراراً:

حَلَّ المُصَابُ فَعَمَّ الوَيْلُ والحَرَبُ ... وكُلُّ دَمْعٍ مِنَ الأجْفَانِ يَنْسَكِبُ

وكَادَنِي الدَّهْرُ مِمَّا قَدْ رُمِيتُ بِهِ ... حَتّى تَوَهَّمْتُ أنَّ الأرْضَ تَنْقَلِبُ

خَارَتْ يَدُ القُبْطِ فِينَا عِنْدَ غَفْلَتِنَا ... واسْتَحْكَمَ الرُّومُ لَمّا زَلَّتِ العَرَبُ

لَهْفِي عَلَى بَطَلٍ قَدْ كَانَ عُمْدَتَنَا ... فِيهِ العَفَافُ وفِيهِ الدِّينُ والأدَبُ

لَوْ كَانَ نَاصِرَنَا فِي وَقْتِ شِدَّتِنَا ... أعْنِي ضِرَارَ الذِي لِلْحَرْبِ يُنْتَدَبُ

فِيهِ الحَمِيَّةُ والإحْسَانُ سِيمَتُهُ ... فِيهِ التَّعَصُّبُ والإنْصَافُ والحَسَبُ

وهْوَ لَنَا فَارِسُ الهَيْجَا وعَادَتُهُ ... الطَّعْنُ بالرُّمْحِ فِي الأعْدَاءِ يَنْتَهِبُ

مُرْدِي الكَتَائِبَ والكُفَّارَ قَاتِلُهُمْ ... ومُهْزِمُ الجَيْشَ إنْ كَرّوا وإنْ صَعُبُوا

لَوْ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتِي صَاحَ بِي عَجِلاً ... مَهْلاً فَقَدْ زَالَ عَنْكِ البُؤْسُ والعَطَبُ[1]

يبدو أن خولة كانت شجاعة، ولها وقائع مشهورة في تاريخ الإسلام، ولكن بعض الروايات عنها، تكاد تكون ضرباً من الخيال لكثرة ما رافقها من الغرابة، وهي بحاجة إلى دراسة معمقة لكشف الحقيقة من الأسطورة، وأودُّ أنْ يدرسَ الموضوع آخرون مختصون، وما يهمنّا هنا هو شعر خولة، في الرثاء، من حيثُ الجودةُ والرداءةُ، لقد كان شعرها في مجمله جزلاً، صيغ بأسلوب سلس، سهل المعاني والألفاظ، خلافاً لشعراء وشواعر عصرها الذين كنّا نلمسُ في شعرهم الوعورة والغموض، فهي، إذنْ متفرّدةٌ بمتانة لغتها، وسلامة أسلوبها، وروعة صياغتها، وتوفيت في أواخر عهد عثمان نحو سنة خمس وثلاثين للهجرة (35 هـ)[2].

---

(1) ذيل ديوان الخنساء، ص: 147 ـ 148.

(2) الزركلي: الأعلام، مج2، ص: 325. وزينب فواز: المرجع السابق، ص: 187. وانظر أخبارها بالتفصيل في كتاب: زينب فواز: المرجع السابق، ص: 184 وما بعدها. وكحالة: أعلام النساء، ج1، ص: 374 وما بعدها. والدكتور محمد علي دقة: خولة بنت الأزور بين الحقيقة والخيال.

أما أسماء [1]، بنت أبي بكر الصديق الصحابية الجليلة، فقد تزوجّها الزبير ابن العوام فأخلصت له، ولمّا قتله عمرو بن جرموز المجاشعي بوادي السباع، وهو منصرف من وقعة الجمل، رثته بأبيات حارة قالت فيها:

غَدَرَ ابنُ جرمُوز بِفَارِسِ بُهْمَةٍ ... يَوْمَ الهِيَاجِ وكَانَ غَيْرَ مُعَرِّدِ [2]

يا عَمْرُو لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ ... لا طَائِشاً رَعِشَ الجنَانِ ولاَ اليَدِ

ثَكِلَتْكَ أمُّكَ إنْ قَتَلْتَ لَمُسْلِماً ... حَلَّتْ عَلَيْكَ عُقُوبَةُ المُتَعَمِّدِ [3]

وثار ابنها عبد الله بن الزبير على الأمويين، واستولى على الحجاز بكامله، وعلى العراق، واليمن، ومصر، وقسم من بلاد الشام، وانتصر على الأمويين في عدة معارك، وهمَّ مروان بن الحكم بمبايعته. وفي عهد عبد الملك بن مروان أرسل إليه الحجاج بن يوسف الثقفي، فنشبت بينهما حروبٌ، انتهت بانتصار الحجاج ومقتل ابن الزبير في مكة، بعد أن خذله أغلبُ أصحابه، ويروى أنّ عبد الله لمّا أحسّ بنهايته، دخل على أمّه أسماء ليشاورها وليودعها، فقالت له: « يا بني عش كريماً» لا تجبننّ عن خطة تخاف على نفسك فيه القتل، قال: إنما

---

(1) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة، صحابية جليلة، مهاجرة، قوية الإيمان والإرادة، عزيزة النفس، شاعرة من شواعر صدر الإسلام وأدركت عصر بني أمية، وأدرجتُها ضمن نتاج شواعر هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها على الرُّغم من امتداد بعض نتاجها زمنيًّا بقليل عنها، وهي ذاتُ منطقٍ وبيان، ولدت سنة سبع وعشرين قبل الهجرة، وأسلمت بعد إسلام سبعة عشر إنساناً، وامتد بها العمر فعاشت قرناً كاملاً من الزمن، إذ توفيت سنة ثلاث وسبعين للهجرة، بعد أن شهدت كل الأحداث التي عرفها الإسلام منذ لحظته الأولى حتى وفاة الرسول ﷺ ، ثم عاصرت الخلفاء الراشدين واحداً إثر واحد، كما عانت من تفاصيل انتقال الخلافة إلى البيت الأموي، وعُرفت باسم «ذات النطاقين» لأنها صنعت للرسول ﷺ سفرة حين أراد الهجرة إلى المدينة، فلم تجد ما تشدّها به، فشقت نطاقها، وشدّت السُّفرة بنصفه، وانتطقت بالنصف الثاني. (انظر القرطبي: الاستيعاب، ج4، ص: 228 ـ 230. وابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 224. وابن سعد: الطبقات، مج8، ص: 255. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 80).

(2) البهمة: الشجاع الذي لا ينثني عن شيء إذا أراد. ومعَرِّد: عرَّد الرجل: هرب، وعرَّد: ترك الطريق وانحرف عنها، والمعنى الأول أقرب للسياق.

(3) ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص: 209. وتنسبُ هذه الأبيات أيضاً لعاتكة بنت زيد زوج الزُّبير. (انظر شعر عاتكة في بحثنا هذا).

أخافُ أنْ يمثّلوا بي: فقالت له: «يا بنيّ إنَّ الشاة لا تألم السلخ بعد الذبح» فخرج فقاتل حتى قُتل، وصُلب. فلما بلغها خبر مقتله، قالت:

لَيْسَ للّهِ مُحرم بَعْدَ قَوْمٍ ... قُتِلُوا بَيْنَ زَمْزَمٍ والمَقَامُ
قَتَلَتْهُمْ جُفَاةُ عَكٍّ ولخْمٍ ... وصداء وحِمْيَرٍ وجُذَامِ[1]

وقيل: إن الحجاج حلف ألا ينزله من تلك الخشبة التي صُلب عليها حتى تشفع فيه أمه، فبقي سنةً، ثم مرت تحته، وقالت: «أما آن لهذا الراكب أنْ ينزل»، فاعتبر الحجاج هذا الكلام شفاعة فأنزله.

ويروى أن الحجاج دخل على أسماء بعد مقتل ولدها عبد الله، فقال لها: إنّ ابنك ألْحَد في هذا البيت، وإنّ اللهَ قد أذاقه من عذاب أليم، وفعل به وفعل، فقالت له: كذِبْتَ. كان براً بالوالدين صواماً قواماً، ولكنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يخرجُ من ثقيف كذابٌ ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه وأمّا المبير فأنت»[2].

هذه هي شاعرتنا أسماء، فإذا رحنا نتلمس جديداً في معانيها، فلن نجد جديداً، وما وصلنا من شعرها قليل.

وهذه لبانة[3] بنت الحارث الهلالية ترثي ابنها خالد بن الوليد، فتقول:

أنْتَ خَيْرٌ مِنْ ألْفِ ألْفٍ مِن النـ ... ـاسِ إذا مَا كَبَتْ وُجُوهُ الرّجَالِ
أشُجَاعٌ فَأنْتَ أشْجَعُ مِنْ لَيْـ ... ـثٍ عَرِينٍ جَهْمٍ أبي أشْبَالِ
أجَوَادٌ فَأنْتَ أجْوَدُ مِنْ سَيْـ ... ـلٍ أتَى يَسِيلُ بَيْنَ الجِبَالِ[4]

---

(1) طيفور: بلاغات النساء، ص: 253.

(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق «تراجم النساء»، ص: 23. وابن سعد: م. ن.، مج8، ص: 254. وانظر أيضاً: ابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 235. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص: 416.

(3) هي لبانة بنت الحارث الهلالية أم خالد بن الوليد، من فواضل نساء عصرها، أسلمَت وبايعت النبي ﷺ بعد الهجرة، توفيت بعد وفاة ولدها خالد. (كحالة: أعلام النساء: ج4، ص: 271).

(4) كحالة: المرجع السابق، ج4، ص: 271.

ولما سمع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هذه الأبيات قال: صدقت والله إن كان لكذلك[1]. والأبيات مجرد تأبين لابنها تصفهُ فيها بالشجاعة والإقدام، والكرم والجود، ولكننا لا نجد فيها مدى وقع الفقد على الأم وإحساسها ولوعتها وفجيعتها بمصيبتها[2].

ومن الشواعر اللاتي رثينَ أبناءهن أيضاً أم خالد النميرية[3] التي رثت ولدها وقد توفي غريباً في بعض الغزوات، تقول:

إذا مَا أتَتْنَا الرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أرْضِهِ	أتَتْنَا بِرَيَّاهُ فَطَابَ هُبُوبُهَا
أتَتْنَا بِمِسْكٍ خَالَطَ المِسْكَ عَنْبَرٌ	ورِيحُ خُزَامَى بَاكَرَتْهَا جَنُوبُها
أحِنُّ لِذِكْرَاهُ إذا مَا ذَكَرْتُهُ	وتَنْهَلُّ عَبْرَاتٌ تَفِيضُ غُرُوبُهَا
حَنِينَ أسِيرٍ نَازِحٍ شُدَّ قَيْدُهُ	وإِعْوَالَ نَفْسٍ غَابَ عَنْهَا حَبِيبُها[4]

وتبدو هذه الأم صابرة على ما أصابها لأنها تعيش دائماً على ذكراه العطرة، لأن الريح التي تهبّ من أرضه التي دفن فيها تحمل لها رائحته الزكية، فتختلط بأنفاسها، وتطفىء ما في صدرها من نار الوجد والفقد والحرمان[5].

2 ـ بكاء الأصنام:

لما انتصر المسلمون على المشركين انتصارات متتالية، أمر سول الله ﷺ بهدم الأصنام وتقويض الأوثان، من ذلك ما رواه الحموي وابن الكلبي، من أن الرسول ﷺ لمّا فتح مكة، وأسلمت العرب، قال لجرير بن عبد الله: ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلى، فوجّهه إليه في جيش من المسلمين، فخرجت إليهم خُثعم تدافع عن أهلها حتى أسيهم القتل، وهلك منهم خلق كبير، واستسلم الباقي

---

(1) كحالة: المرجع السابق، ج4، ص: 272.

(2) الدكتور مصطفى الشوري: شعر الرثاء في صدر الإسلام، ص: 116.

(3) هي أم خالد النميرية: شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، وهي مشهورة بأم خالد (زينب فواز: الدر المنثور، ص: 57).

(4) زينب فواز: المرجع نفسه، والصفحة نفسها. وكحالة: المرجع السابق، ج1، ص: 314.

(5) الدكتور مصطفى الشوري: المرجع نفسه، ص: 117.

منهم، فهدم المسلمون الصنم ذا الخلصة، وأضرموا فيه النار، فقالت امرأة خثعمية تبكي ذا الخلصة وقتلاها:

وبنُوا أمامة بِالوِيةٍ صُرِّعُوا ... شَملا يُعالِجُ كلُّهُمْ أنْبُوبَا
جاؤوا لِبيضَتِهم فلاقَوْا دونَها ... أُسْداً تقُبُّ لَدَى السُّيُوفِ قَبِيبا
قَسَمَ المَذَلَّةَ بَيْنَ نِسْوَةِ خَثْعَمٍ ... فِتْيانُ أحْمَسَ قِسْمَةً تَشْعِيبَا

وكان ذو الخلصَة مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، ويقع بتبالة مكة، وهو اليوم عتبة باب مسجدها. وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر[1].

وذكر الطبريّ أن الرسول ﷺ بعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى هدم صنم الطاغية، وهي اللاّت، وكانت إلهة ثقيف، فخرجا مع القوم حتى إذا قَدِما الطائف، أراد المُغيرة أن يُقَدّم أبا سفيان، فأبى أبو سفيان وقال للمغيرة: أُدخل أنت في قومك، فلمّا دخل المغيرة علاها يَضربُها بالمِعوَلِ، وقام قومُه دونه - بنو معتّب - خشية أن يرمى أو يصاب، وخرج نساء ثقيف حُسراً، يبكين صنمَ الطاغية، ويهجون قومهُن، فيصفنهُمْ بالضعفِ واللؤم لأنهم لم يحسنوا الدفاع عن إلهتهم، وهنّ يُردّدْنَ:

ألاَ أبْكِيَنْ دُفَّاعْ ... أسْلَمَهَا الرُّضَّاعْ
لَمْ يُحْسِنُوا المِصَاعْ[2]

ورثاء النساء للأصنام دليل على أنهن شاركن في فنون شتىّ من القول، غير الموضوعات الشعرية الأساسية المعروفة، والتي سأفصل الكلام عليها فيما أستقبل من حديث.

ب - سمات مراثي الشواعر

وإذا كان لا بد من كلمة أخيرة حول غرض الرثاء لدى شواعر العرب في

---

(1) الحموي: معجم البلدان، مج2، ص: 383 - 384 (الخبر والشعر). وانظر أيضاً ابن الكلبي: الأصنام، ص: 36. وابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص: 86. والوليَّةُ: موضع صنم ذي الخلصة. والأنبوب: الرّمح. وتقُبُّ: تصخبُ وتقعقع أنيابها.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج2، ص: 181.

هذه الفترة، فيجدر بنا أنْ نسجل الملاحظات التالية:

1 ـ من حيث المنهج: فبعد استعراض نماذج مختلفة ومتعددة من شعر المرأة العربية في صدر الإسلام، في رثاء الآباء والأبناء والإخوة والأزواج والأقارب والشهّداء والعشيرة والاصنام تبيّن لنا أنّ شواعر صدر الإسلام لم يلتزمن بمنهج شعراء الجاهلية من حيث تعدد الأغراض، وتشعّب الموضوعات، فشعرهن موحد الغرض في القصيدة الواحدة أو القطعة الواحدة، فهنّ يدخلن إلى الرثاء مباشرة من غير مُقدمات، ولم أجد في رثائهن غير قطعة واحدةٍ للشاعرة هند بنت عتبة استهلتها بالحكمة[1]، ويبدو أن الرثاء لا يلتئم مع الفنون الأخرى لا سيما إذا كان مصدرها اللذة كالغزل مثلاً، لذلك لا نرى الشعراء يوطئون لرثائهم بالنسيب كما يفعلون في الهجاء والمديح والوصف وغيرها. وقد لفت ذلك نظر ابن رشيق فقال: «ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً، لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة»[2]. بينما يرى الدكتور الحوفي أن في رثاء الرجال حكمة أحياناً وتمهيداً غزلياً أحياناً أخرى»[3].

2 ـ رثاؤهن مقطوعات أو أبيات، إذ قلّما نجد مطوّلات في رثائهنَّ، والمرأة معروفة بقصر نفسها منذ الجاهلية، والمطولات في شعر النساء ليست من الكثرة كما هي عند الرجال بعامة.

3 ـ نلاحظ أن رثاء الشاعرات المشركات ظل على ما كان عليه في الجاهلية من أفكار ومعانٍ ترتبط بالندب والتأبين والتعزية، فكُنَّ يشِدْنَ بفضائل المرثي من كرم وشجاعة وحماية الضعاف واليتامى وكرم الاصل والنسب ونجدة الملهوف وغيرها. . . وجميع الفضائل التي ذكرناها كانت فضائل نفسية، وهي نفس الصفات التي تضمّنتها قصائد الرثاء في الجاهلية.

---

(1) انظر عتبة في هذا الفصل.

(2) ابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 152.

(3) المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 624. والغزل في العصر الجاهلي، ص: 260.

4 ـ ورثاؤهن أيضاً تلقيدي من حيث الأسلوب، إذ نسجْنَ شعرهنّ على نظام القصيدة الجاهلية، فاستعملن الكثير من الألفاظ الوعرة والمعاني الغامضة، والأسلوب الجزل. وفي هذا السياق يدور شعر شواعر الكفار في رثاء قتلاهنَّ لأنهنّ ما يزلن يعشن جاهليتهن، ولم تتأثر حياتهنَّ بمختلف التغيرات الحياتية الجديدة التي أحدثها الإسلام.

5 ـ أما شواعر المسلمين فقد أسهمن أيضاً في رثاء الشهداء أثناء المعارك والغزوات، أو في رثاء أقاربهنّ، ويبدو في رثائهن ـ بالإضافة إلى التفجع والحزن ـ أثر الإسلام، والصبر على قضاء الله، وقوة الإيمان، والتأثر بالقرآن الكريم، وقد لا يظهر هذا التأثر أحياناً لدى بعض الشواعر المسلمين لحداثة عهدهنّ بالإسلام، فظلّ رثاؤهن ـ هنَّ أيضاً ـ أقرب إلى رثاء الجاهليين.

6 ـ الذي لاحظته على شواعر المسلمين اللائي تأثرن بالإسلام أنّ أساليبهنّ وألفاظهنّ سهلة سلسة لا تعقيد فيها.

7 ـ ورثاؤهن ـ شواعر المسلمين وشواعر الكفار ـ صادق العاطفة غير متكلف لأنهنّ لم يرثين من أجل التكسب، وإنما رثين عندما عناهنّ المصاب وأثارتهنّ اللوعة، فبكين بحرارة، وصدق عاطفة، عاطفة نساء مكلومات الفُؤاد في الغالب يفيض شعرهن أسى ولوعة ونحيباً.

8 ـ وإذا كانت عاطفة الحزن التي تبعث على الرثاء واحدة فإنّ مظاهرها تختلف مع العصور والأشخاص. ففي الجاهلية كانت النساء يلطمن ويخمشن وجوهنّ ويحلقنّ رؤوسهنّ ويشققن جيوبهنّ ويقرعن صدورهنّ على من طوَّح به الأعداء أو طوَّحت به الأقدار على مهاوي القبور. وكانت المرأة ترمي من وراء ذلك إلى إظهار الحزن والى إثارة القبيلة ، للأخذ بالثأر.[1]

« وكانت التي ترفع صوتها بالنياحة تعرفُ بالصالقة، أمّا التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة فكان يقال لها الحالقة، وأمّا التي تشق جيبها فيقال لها

(1) شوقي ضيف: الرثاء، ص: 14. وعلي بوملحم: في الأدب وفنونه، ص: 84.

الشاقة»[1]. وقد نهى الإسلام عن هذه الأفعال، قال رسول الله ﷺ: « ليس منّا مَنْ لطم الخدُود، وشقّ الجيوب، ودَعَا بدعْوى الجاهلية»[2]. وقال أيضاً: « ليس منّا منّ صلق أو حلق أو خرق»[3]. ولذلك أوصى لبيد في الإسلام ابنتيه ألاّ تفعلا فعل الجاهلية في النواح عليه، بعد وفاته فقال:

فقُومَا فَقُولاَ بالذِي عَلِمْتُما ولاَ تَخْمِشَا وجْهاً ولاَ تحْلِقَا شَعْرا

وهكذا أبطل الإسلام عادة حلق الرؤوس وخمش الخدود، ولكنها استمرت عند النساء المشركات اللاتي لم يدخلن الإسلام.

9 ـ تكرار المطالع، هناك تكرارات كثيرة للمطالع لدى الشواعر متشابهة ومتماثلة في أحايين كثيرة حتى لا تكاد تختلف من شاعرة لأخرى بأكثرمن لفظ يُستبدل بآخر مِنْ أجل الوزن أو القافية، وهذه نماذج من مطالع بعض القصائد والمقطوعات، قالت عمرة بنت الخنساء: أعَيْنَيّ لم أخْتِلْكُمَا بخيانة. . . وقالت هند بنت عتبة: أعَيْنَيّ جُوداَ بدَمْعٍ سرِبْ. . . وقالت أيضاً: با عَينُ بكّي عُتبة. . . وقالت: لِلّه عيناَ مَنْ رأى . . . وقالت صفية بنت عبد المطلب: بكّي زُبَيْرَ الخير إذ مات. . وغير هذا كثير. . وقد أسلفتُ الحديث عن شعرهن بالتفصيل في هذا الفصل.

10 ـ وبعد استقراء نماذج مختلفة من شعرهن ومن شعر الرجال في هذا العصر تبيّن لي أن الشواعر أكثر استعمالاً للألفاظ ذات الصلة بالبكاء والدّموع والفجيعة والجزع واللوعة والنواح، لأن النساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة، وأشدهم جزعاً على هالك؛ لما ركّب الله عز وجل في طبعهن من الخَوَر وضعف العزيمة؛ بينما الرجال يتجملّون، وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء[4].

11 ـ تبيّن لي كذلك من خلال استقراء شعرهنّ، أنهنّ في الغالب يستهللن رثاءهن بالبكاء ثم ينزعن بعد ذلك إلى الإشادة بمناقب الفقيد، وتعداد محاسنه

(1) الدكتور جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص: 285.

(2) الإمام مسلم: صحيحه، ج1، ص: 70.

(3) لبيد: ديوانه، ص: 213، تحقيق الدكتور إحسان عباس، طبعة الكويت، 1962.

(4) ابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 153.

وذكر مزاياه ومكانته الاجتماعية، وقدْ لا نجد في رثائهن العزاء كما نجده عند الشعراء الذين يتجملون في رثائهم وقد يكتفون بالتأبين والتعزية دون الندب، لأن العزاء قوامه حكم وعظات في الحياة والموت والخلود، وهو ما يقوم به الرجل الذي يستطيع كبت أحزانه والتجلد عند المصيبة، أما المرأة فتسرع إلى البكاء والعويل لتنفّس عن نفسها، فلا تقدر على العزاء إلا فيما ندر، وكذلك لقصر نفسها، فأغلب شعرها مقطعات وأبيات كما أسلفت.

12 ـ لاحظت أنّ بعض مراثي الشواعر تبدو وكأنها في رثاء أنفسهن، فيصوّرن ما أصابهنّ من ذلة وضعف وهوان، كما في رثاء صفية بنت عبد المطلب، وهند بنت عتبة، وصفية بنت مسافر، وخولة بنت الأزور ونائلة بنت الفرافصة، وغيرهن، وقد ذكرت رثاءهن في هذا الفصل فليراجع.

وهذه الظاهرة خاصة بالنساء ولا أثر لها في رثاء الرجال وإن عظم حزنهم لأنهّم يتجلّدون، أمّا النساء فيشعرن بالعجز والضعف والهوان بعد فقد من كان يحيهنّ فيصيبهنّ اليأس والقنوط والخوف من المجهول فيصوّرن ما يلاقينه من آلام.

13 ـ أمّا معاني الرثاء لدى الشواعر فتدور في الغالب حول الخسارة العامة للعشيرة أي: أنّهنّ يستعملن الضمير الجمعي في رثائهنّ، فالمرثيُّ هو حامي القبيلة، ومأوى الأرامل واليتامى، كما عند عمرة بنت مرداس في رثاء أبيها: لتبكِ ابن مرداس... عشيرته. وهند بنت عتبة في رثاء أبيها أيضاً: أبكي عميد الأبطحين كليهما..وحاميها من كل باغ... ومعانيهن تتكرّر كثيراً ولا تكاد تخرج عن الحسرة والتفجع على الفقيد الذي هو دوماً ذلك البطل المغوار، والجواد الفارس الشجاع....

14 ـ ينقسم رثاؤهن إلى قسمين: رثاء الأفراد ورثاء الأصنام، وقد سبق الكلام عنهما.

ج ـ الفخر

هو ضرب من المدح الذاتي يُعدّدُ فيه الشاعر مناقبه أو مناقب قومه، وقد عرّفه ابن رشيق بقوله: «الافتخار هو المدح نفسه، إلا أنّ الشاعر يخصُّ به نفسه وقومه، وكلُّ ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكلُّ ما قبُح فيه قُبح في

الافتخار»[1].

وقد شاركت المرأة في فنّ الفخر أيضاً، ولكن فخرها لم يكن بتعداد فضائلها وبسالتها كما كان يفعل بعض الشعراء، وإنّما كان إشادة بمناقب قومها ونسبها، أو بالنبوة التي ظهرت في بني هاشم أهلها.

ومن الشواعر اللاتي عرفن بهذا النوع من الفخر: صفية بنت عبد المطلب، وأختها عاتكة، وضباعة بنت عامر، وخولة بنت الأزور.

ونورد من شعر صفية في هذا الغرض هذه الأبيات التي تفاخر بها قريشاً بالنبوة التي ظهرت في بني هاشم أهلها، وبالسيادة السابقة عليهم، فتقول:

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي قُرَيْشاً ... فَفِيمَ الأَمْرُ فِينَا والإِمَارُ

لَنَا السَّلَفُ المُقَدَّمُ قَدْ عَلِمْتُمْ ... ولَمْ تُوقَدْ لَنَا بِالغَدْرِ نَارُ

وكُلُّ مَنَاقِبِ الخَيْرَاتِ فِينَا ... وبَعْضُ الأَمْرِ مَنْقَصَةٌ وعَارُ[2]

وظلت الشاعرةُ تعتزُّ بنسبها وعشيرتها وتُشيدُ بمناقبهم، وفي ذلك تقول:

نَحْنُ حَفَرْنَا لِلْحَجِيجِ زَمْزَمْ ... سُقْيَا نَبِيَّ اللهِ فِي المُحَرَّمْ

رَقْضَةُ جِبْرِيلِ ولَمَّا يُفْطَمْ[3]

فالشاعرةُ هنا تشيرُ إلى رواية تاريخية تقول: إنَّ زمزم قد غادرت ولم يبق لها أثرٌ يعرف، إلى أن أمر عبد المطلب (أبوها) في المنام بحفرها، فحفرها ـ ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذٍ ولد غيره[4] ـ وجعلها سقاية للحجيج[5].

---

(1) ابن رشيق: م. ن.، ج2، ص: 143.

(2) أبو تمام: الحماسة بشرح التبريزي، ج4، ص: 147 ـ 148، وبشرح المرزوقي، مج2، ص: 1788.

(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج3، ص: 149.

(4) كان لعبد المطلب من الولد لصلبه عشرة ذكور، وهم: عبد الله وهو أبو النبي ﷺ، والزبير، وأبو طالب واسمه: عبد مناف، والعباس، وضرار، وحمزة، والمقوّم، وأبو لهب، والحارث، والفيداق. ومن الإناث ست بنات، وهن: عاتكة، وأميمة، والبيضاء، (أم حكيم)، وبرة، وأروى، وصفية. (ابن قتيبة: المعارف، ص: 118 ـ 119).

(5) انظر الرواية بالتفصيل في: ياقوت الحموي: م. ن.، والصفحة نفسها.

وقالت أيضاً تفخر بقبيلتها:

نَحْنُ حَفَرْنَا بَذَّرَ[1] نَسْقِي الحَجِيجَ الأكْبَرْ

وأمُّ أحْرَادٍ[2] شَرْ[3]

وكان فخر صفية رداً على فخر ضرتها أميمة بنت عميلة زوج العوام بن خويلد حين قالت:

نَحْنُ حَفَرْنَا البَحْرَ أمّ أحْرَادْ لَيْسَتْ كَبَذَّرَ النّزُورِ الجَمّاد[4]

وكذلك فخرت أختها عاتكة[5]، بقومها: فذكرت شجاعتهم وبلاءهم، قالت:

سَائِلْ بِنَا فِي قَوْمِنَا وليَكْفِ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهْ

قَيساً ومَا جَمَعُوا لَنَا فِي مَجْمَعٍ بَاقٍ شَنَاعُهُ

فِيهِ السَّنَوّرُ[6] والقَنَا والكَبْشُ مُلْتَمِعٌ قِنَاعُهْ

بِعُكَاظَ يُعْشِي النَّاظِرِينَ إذَا هُمُ لَمَحُوا شُعَاعَهْ

فِيهِ قَتَلْنَا مَالِكاً قَسْراً وأسْلَمَهُ رَعَاعُهْ

ومُجَدّلاً غَادَرْنَهُ بالقَاعِ تَنْهَشُهُ ضِبَاعُه[7]

---

(1) بذَّرَ: بفتح الذال والراء، بوزن فعّل فهو من التبذير وهو: التفريق، وهو اسم بئر مكة لبني هاشم (الحموي: م. ن.، مج1، ص: 361).

(2) أحراد: جمع حريد، وهو المنفرد عن محلة القوم، وهي بئر بمكة قديمة لبني عبد الدار...(الحموي: م. ن.، مج1، ص: 110).

(3) الحموي: م. ن.، والصفحة نفسها.

(4) الحموي: م. ن.، مج3، ص: 149.

(5) هي عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم، عمة النبي ﷺ شاعرة مخضرمة عاشت في الجاهلية والإسلام، واختلف في إسلامها، والمرجّح أنّها أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة (انظر ابن حبيب: المحبّر، ص: 406. وابن قتيبة: المعارف، ص: 118. وأبو تمام: الحماسة بشرح البتريزي، ج2، ص: 130).

(6) السّنوّرُ: الدّرعُ: وقيل جملة الأسلحة.

(7) أبو تمام: م. ن.، ص: 130 وما بعدها، وبشرح المرزوقي، مج1، ص: 741 وما بعدها. والمجدّلُ: المصروع على الجدالة، وهي الأرض.

أما ضباعة بنتُ عامر، فقد كانت يوماً ترقصُ ولدها سلمة فتذكرت مكارم قومه وفعالهم، فقالت تفتخر بنسبه:

نَمَى بِهِ إِلَى الذُّرَى هِشَامُ ... قِدْمًا وآبَاءٌ لَهُ كِرَامُ

جَحَاجِحٌ خَضَارِمٌ[1] عِظَامُ ... مِنْ آلِ مَخْزُومٍ هُمُ النِّظَامُ

والرَّأسُ والهَامَةُ والسَّنَامُ[2]

وكانت خولة بنت الأزور من أشجع النساء في عصرها، خرجت مع أخيها ضرار بن الأزور إلى الشام لقتال الروم بصحبة جيوش المسلمين فوقع أخوها ضرار في الأسر فحزنت عليه حزناً شديداً، وقامت بعدة هجمات على معسكر الروم، وقاتلت قتال المستميت حتى خلّصت أخاها وأسرى المسلمين من أيدي الروم، بينما كانت تفتخر بنسبها وبشجاعتها مع بنات قومها، فقالت:

نَحْنُ بَنَاتُ تُبَّعٍ وحِمْيَرْ ... وضَرْبُنَا في القَوْمِ لَيْسَ يُنْكَرْ

لأنَّنَا في الحَرْبِ نَارٌ تُسْعَرْ ... اليَوْمَ تُسْقَوْنَ العَذَابَ الأكْبَرْ[3]

د ـ ملاحظات على غرض الفخر:

إنّ فخر المرأة الشاعرة في صدر الإسلام بشجاعتها وتباهيها ببسالتها ـ بالإضافة إلى فخرها بنسبها ـ ظاهرة جديدة لم يكن لها سابق وجود لدى شواعر العرب في الجاهلية، فقد كان فخرهنّ بالرجال وأعمالهم.[4]

ولم تختلف الإسلاميات عن الجاهليات في كون فخرهن ليس فيه من الأنوثة شيءٌ كالفخر بالعفّة والجمال والرقة وحلاوة الحديث وإسعاد الزوج ورعاية

(1) خضارم: جمع خضرم، وهو السيد الكريم الجواد الكثير العطية الشبيه بالبحر. وجحاجح: جمع جحجح، وهو السيد المسارع إلى المكارم.

(2) المرزباني: أشعار النساء، ص: 108 ـ 109. وطيفور: بلاغات النساء، ص: 644.

(3) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 172.

(4) انظر الدكتور أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 644.

الأولاد، وتدبير البيت. . . ولعل مرد ذلك إلى استحيائها من الفخار بهذه المميزات.[1]

هـ ـ الغزل:

الغزل من أبواب الشعر يُعبر عن عاطفة الحب بين الرجل والمرأة، وقد عرّفه ابن رشيق فقال: « والنسيب والتغزل والتشبيب كلُّها بمعنى واحد، وأمّا الغزل فهو إلفُ النساء، والتخلّق يوافقهن، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ. . . »[2] وهو بذلك يفرّق بين الغزل والتغزل، فالأول إلفُ النساء، بينما الثاني التحدث عن المرأة في الشعر وإن لم يكن هناك إلف بها. وقال ابن سيده: «إنّ الغزل تحديث الفتيان الجواري، والتغزل تكلف ذلك، والنسيب التغزل بهنّ في الشعر، والتشبيب مثله».[3]

ولقد أسهمت المرأة في الغزل في صدر الإسلام، وما يُروى أن أبا بكر رضي الله عنه مرّ في خلافته بطريق من طرق المدينة فسمع جارية تطحنُ وتنشد:

وعَشِقْتُهُ مِنْ قَبْلِ قَطْعِ تَمائِمي ... مُتَمَايِساً مِثْلَ القَضِيبِ النَّاعِمِ
وكَأنَّ نُورَ البَدْرِ سُنَّةُ وَجْهِهِ ... يُنْمَى ويَصْعَدُ فِي ذُؤَابَةِ هَاشِمِ
وأنَا التِي لَعِبَ الغَرَامُ بِقَلْبِهَا ... فَبَكَتْ بِحبِّ مُحَمَّدِ بْنِ القَاسِمِ

فدّق عليها الباب، فخرجت إليه، فقال: ويلك أحرة أم مملوكة؟ قالت: مملوكة يا خليفة رسول الله. فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، وقال: هؤلاء فتنُ الرجال[4].

---

(1) الدكتور أحمد الحرفي: المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(2) ابن رشيق العمدة، ج2، ص: 117، وانظر قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 42. وعلي بوملحم: في الأدب وفنونه، ص: 2 وما بعدها.

(3) ابن سيده: المخصص، ج4، ص: 45 ـ 55. وانظر ابن منظور : لسان العرب، مادة: غزل، ونسب، وشبب.

(4) ابن القيم الجوزية: أخبار النساء، ص: 115.

أمّا فريعة بنت همّام الذلفاء، أم الحجاج، فعشقت فتىً من بني سُليم يقاله له: نصر بن حجاج، وكان أحسن أهل زمانه صُورة فضَنيت من حُبّه، ثم لهَجت بذكره، وذات ليلة بينما كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يطوف في المدينة، فمرّ بباب دارها، فسمعها تُنشد:

يَا لَيْتَ شِعْرِيَ عَنْ نَفْسِي أزَاهِقَةٌ ... مِنِّي ولَمْ أقْضِ ما فِيهَا مِنَ الحَاجِ
ألاَ سَبِيلَ إِلَى خَمْرٍ فَأشْرَبَهَا ... أمْ لاَ سَبِيلَ إِلَى نَصْرِ بن حَجَّاجِ
إِلَى فَتًى مَاجِدِ الأعْرَاقِ مُقْتَبِلٍ ... سَهْلِ المُحَيَّا، كَرِيمٍ غَيْرِ مِلْجَاجِ
تَنْمِيهِ أعْرَاقُ صِدْقٍ حَيْثُ تنسبُهُ ... تُضِيءُ سُنَّتُهُ في الحَالِكِ الدّاجِي
نِعْمَ الفَتَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ نُصْرَتُهُ ... لِيَائِسٍ أوْ لِمَلْهُوفٍ ومُحْتَاجِ
يا مُنْيَةً لَمْ أرُمْ فِيهَا بِضَائِرَةٍ ... والنَّاسُ مِنْ صَادِقٍ مِنْهَا ومِنْ رَاجِي(1)

فلما أصبح استحضر نصر بن حجاج، فاذا هو أحسن الناس وجهاً وشعراً، فقال: عليّ بالحجام، فحلّق شعره، فخرجت له وجنتان كأنهما شقتا قمر، ففتن الناس، فقال عمر: والله لا تُساكِنني ببلدٍ أنا فيه. قال: ولم ذلك يا أمير المؤمنين؟! قال: هو ما قُلتُ لك.

ثم نفاه إلى البصرة، وخشيت فريعة أن يَبْدُرَ إليها عمرُ بشيء فكتبت إليه تستعطفه بهذه الأبيات قائلة:

قُلْ لِلإمَامِ الذِي تُخْشَى بَوَادِرُهُ ... مَالِي ولِلخَمْرِ أوْ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ
إنِّي عنيتُ أبَا حَفْصٍ بِغَيْرِهِمَا ... شُرْب الحَلِيبِ وطَرْف غَيْرِهِ سَاجِي
إنَّ الهَوَى ذِمَّةُ التَّقْوَى، فَقَيَّدَهُ ... حَتَّى أقِرَّ بِإلْجَامِ وإسْرَاجِ
لاَ تَجْعَلِ الظَنَّ حَقاً أو تبَيّنَهُ ... إنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ الخائِفِ الرَّاجِي(2)

وكان عمر، رضي الله عنه، قد سأل عنها، فوصفت له بالعفاف، فبعث

---

(1) داود الأنطاكي: تزيين الاسواق،ج2، ص: 29 والسراج: مصارع العشاق،ج2،ص: 267.(مع اختلاف وتقديم وتأخير). وانظر خبرها بالتفصيل في كتاب الميداني: مجمع الأمثال، رقم: 1449و2187.

(2) الأنطاكي: م. ن.، ج2، ص29. والسراج: المصدر نفسه،ج2،ص: 267.

إليها: «قد بلغني عنك خيرٌ، فقرّي، إني لم أخرجْه من أجلِك، ولكن بلغني أنه يدخل على النساء، ولست آمنهُنّ». وبكى عمر، وقال: «الحمد لله الذي قيّد الهوى حتّى أقرَّ بإلجام وإسراج»[1].

ثم إنَّ نصر بن حجاج اغتنم فرصة وجود رسول عمر بالبصرة، وكتب له كتاباً هذا نصهُّ: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين سلام عليك؛ أمّا بعد فلعمري يا أمير المؤمنين، لئن سيّرتني أو حرَمْتني وما نِلْتَ منّي عليك بحرام»، ثم أنشد هذه الأبيات:

أإنْ غَنَّتِ الذَّلْفَاءُ يَوْمًا بِمُنْيَةٍ ... وبَعْضُ أمَانِيِّ النِّسَاءِ غَرَامُ
ظَنَنْتَ بِي الظَّنَّ الذِي لَيْسَ بَعْدَهُ ... بَقَاءٌ، فَمَالِي فِي النَّدِيِّ كَلاَمُ
ويَمْنَعُنِي مِمَّا تظُنُّ تَكَرُّمِي ... وآبَاءُ صِدْقٍ سَالِفُونَ كِرَامُ
ويَمْنَعُهَا مِمَّا تظُنُّ صَلاَتُهَا ... وحَالٌ لَهَا فِي قَوْمِهَا وصِيَامُ
فَهَذَانِ حَالاَنَا فَهَلْ أنْتَ رَاجِعِي ... فَقَدْ جُبَّ مِنِّي كاهِلٌ وسَنَامُ

وقيل إنّ عمر لمّا قرأ الكتاب والأبيات، قال: «أمّا ولي سلطان فلا»،[2] فلم يرجع إلى المدينة إلا بعد وفاة عمر.

ومهما يكن من أمر، فما يهمنًّا هو فريعة بنت همام وشعرها، وقد بحثتُ في المصادر التي بين يدي أملاً أنْ أعثر على ما يفيدنا في حياتها، وتاريخ ميلادها ووفاتها، فما وجدتُ ذلك بالتدقيق، إلا أننّا علمنا من خلال الرواية السابقة التي أوردها الأنطاكي في تزيين الأسواق، والسرَّاج في مصارع العشاق، أنّها كانت تعيش على أيام خلافة عمر بن الخطاب (13 ـ 23 هـ)، وهْيَ عزبة لم تتزوج بعد، وروى المسعودي[3] أنّها كانت عند الحارث بن كلدة[4]، ثم طلّقها،

---

(1) السراج: المصدر نفسه، ج2، ص: 267. والأنطاكي: م. ن.، ج2، ص: 29.

(2) السراج: المصدر السابق، ج2، ص: 268. (الخبر والأبيات).

(3) مروج الذهب، ج3، ص: 153.

(4) الحارث بن كَلْدَة الثقفي: طبيب العرب وأحد الحكماء المشهورين، توفي نحو 50 هـ. (انظر الزركلي: الأعلام، مج2، ص: 157).

فتزوجها بعدهُ يوسف الثقفي أبو الحجاج، فولدت له الحجاج، وإذا كان الحجاج قد وُلد سنة أربعين للهجرة (40هـ)، فإن شاعرتنا فريعة تكون قد عاشت في عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي، ولكنّ أشعارها التي وصلتنا نظمتها على أيام عمر بن الخطاب، ولذلك أدرجناها مع شواعر صدر الإسلام، وشعرها على قلته جزل الألفاظ، رقيق المعاني، خالٍ من التكلف ومبتذل الكلام.

أما عفراء بنت عقال العذرية فقصتها مع عروة بن حزام ـ الشاعر العذري المعروف ـ قد شرّقت وغرّبت وقد سبق الحديث عنها[1]. قالت تبثُّ أساها في قصيدة طويلة لمّا زوجها أبوها بغير عروة وكان غائباً، ومطلعها:

يـا عُـرْوَ إنَّ الـحَـيّ قَـدْ نَـقَـضُـوا ... عَـهْـدَ الإلٰـهِ وحَـاوَلُـوا الـغَـدْرَا[2]

ولما بلغها نعيه رثته بمراث ذكرتُ بعضها عند حديثي عن فن الرثاء.

و ـ ملاحظات على غرض الغزل:

1 ـ يبدو أنّ المرأة في صدر الإسلام كانت تستر حبّها وتكتمُ هواها، ولذلك قيل لعفراء، وقد بلغها ما نزل بعروة، فكادت تبوح بسرّها: أما عندك له حيلة تخفّفُ ما به؟ فقالت: والله لأنا أسرُّ بذلك وأشوقُ إليه منه، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار، ودخول النار[3].

2 ـ كما أنَّ غزلها في صدر الإسلام لا يختلف عن غزلها في العصر الجاهلي من حيث مناحيه ومعانيه إلا قليلاً[4]، كاستعمالها لبعض الألفاظ الجديدة التي دخلت معجمها بسبب تأثرها بالإسلام. . . .

3 ـ وكان غزلها في صدر الإسلام عفيفاً فهي تقفُ فيه عند تمنّيها الوصال وتصوير شوقها ولهفتها إلى الحبيب، وتصف محاسنه الخِلْقِية والخُلقية كما فعلت

---

(1) انظر فن الرثاء في هذا الفصل.

(2) الأصبهاني: الأغاني، مج23، ص: 303. وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج2،ص: 447.

(3) ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص: 58.

(4) الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 661.

فريعة بنت همّام، ولكنّها كانت حييّة، فهي لا تعبّر عن عواطفها إلا في خلواتها كما سبق ذكره، ولا نجد في غزلها الإفحاش في القول والمجون كما هو الحال لدى بعض شواعر العصر العباسي والأندلسي حيث يذكرن دون تكنية ما يكون بينهن وبين أصحابهن عند اجتماعهم...

ز - النقائض بين الشواعر:

لم يقتصر فن النقائض على الرجال، وإنما شاركت فيه النساء أيضاً، لقد كان دور المرأة واضحاً منذ بداية الدعوة الإسلامية، فكان منهن المناصرات للإسلام والمسلمين ومنهنّ من وقفن في وجهه يهجون المسلمين، وأوّل مناقضة وصلتنا في هذا العصر بين الشواعر كانت بعد موقعة بدر بين هند بنت عُتبة، وعمرة بنت عبد الله بن رواحة، فلما انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر حزنت هند بنت عتبة حزناً شديداً على قتلى قريش، واعتبرت انتصار المسلمين على المشركين انتصار الفساد على الصلاح، فقالت:

إنّـي رأيـتُ فَـسَـاداً بـعْـد إصْـلاحِ ... في عبْدِ شمْسٍ فقلْبي غيرُ مُرْتَاحِ

هَـاجَتْ لَهُـمْ أدْمُعٌ تَتْرى ومَنْبَعُـهَا ... مِنْ رأسِ مَخْرُوبَةٍ ما إنْ لَهَا لاَحِي

لـمّـا تـنـادَتْ بنُـو فِهْـرٍ عـلـى حَنَـقٍ ... والـمَـوتُ بَـيْـنَـهُـمْ سـاعٍ لأزْوَاحِ

كـأنّـهـا الـنسجُ في قـتـلـى مُصـرّعـةٍ ... سُـرْجٌ أضـاءتْ عـلـى حُـذْرٍ وألـواحِ

يـا آلَ هَـاشِـمَ إنّـا لا نُـصَـالِـحُـكُـمْ ... حتّـى نـرى الـخـيْـلَ تـرْدِي كُلَّ كَفّاحِ

إنْ يُمَكّنّي اللهُ يَوْماً مِنْ هزيمَتِكُم ... يُـورِثْ نِـسَـاءَكُـمْ داءً بِـتـقْـراحِ

فأجابتها الشاعرة المسلمة عمرة بنت عبد الله بن رواحة الأنصارية تناقضها، وتنصر الرسول ﷺ والمسلمين قائلة:

يـا هِـنْـدُ مَـهـلاً لـقَـدْ لاقَـيْـتُ مُـهْـبِـلَـةً ... يــوْمَ الأعِـنّـةِ والأرواحُ فــي الـرّاحِ

أسْـدٌ غـطَـارِفَـة، غُـرٌّ جـحـاجـحـةٌ ... أبـنَـاءُ مُـحْـصَـنَـةٍ، بـيضٌ لِجَحْجَاحِ

هُـنـالِكَ الـفَـوزُ والـرّضْـوانُ إنْ صَـبَـرُوا ... مـع الـرّسُـولِ فـمـا أبَـوا بِـتَـقْـبَـاحِ

الـلـهُ أهْـلَـكَـهُـمْ والأوْسُ شـاهِـدَةٌ ... والـخَـزْرَجُ الـغُـرُّ فـيـهـمْ كـلُّ مُـحْـتـاجِ

لا تــبْــعَــدَنَّ فــإنّــي غــيــرُ صــارِخَــةٍ   وكيْفَ تصْرُخُ ذاتُ البغْلِ يا صاحِ[1]

ولما أصيب المسلمون في موقعة أحد واستشهد حمزة بن عبد المطلب، اعتلت هند بنت عتبة صخرة مشرفة، وصرخت بأعلى صوتها معبرة عن فرحتها بانتصار قريش، قائلة:

نَــحْــنُ جَــزَيْــنَــاكُــمْ بِــيَــوْمِ بَــدْرِ   والــحــرْبُ بَــعْــدَ الــحَــرْبِ ذَاتُ سُــعْــرِ
مَــا كَــانَ عَــنْ عُــتْــبَــةٍ لِــي مِــنْ صَــبْــرِ   أبِــي وعَــمِّــي وأخِــي وصِــهْــرِي[2]
شَــفِــيــتُ نَــفْــسِــي وقَــضَــيْــتُ نَــذْرِي   شَــفَــيْــتَ وَحْــشِــي[3] غَــلِــيــلَ صَــدْرِي
فَــشُــكْــرُ وحــشــيٍّ عَــلَــيَّ عُــمْــرِي   حَــتَّــى تَــرِمْ أعْــظُــمِــي فِــي قَــبْــرِي[4]

فأجابتها هند بنت أثاثة تناقضها، وتذكرّها بما حل بها وبقومها يوم بدر، فقالت:

خَــزِيــتِ فِــي بَــدْرٍ وبَــعْــدَ بَــدْرِ   يــا بِــنْــتَ وقَّــاعٍ عَــظِــيــمِ الــكُــفْــرِ
صَــبَّــحَــكِ الــلــهُ غَــدَاةَ الــفَــجْــرِ   مِــلْــهَــا شِــمِــيّــيــنَ[5] الــطّــوَالِ الــزّهــرِ
بِــكُــلِّ قَــطَّــاعٍ حُــســامٍ يَــفْــرِي   حَــمْــزَةُ لَــيْــثِــي وعَــلِــيُّ صَــقْــرِي
إذْ رَامَ شَــيْــبٌ[6] وأبُــوكَ غَــدْرِي   فَــخَــضَّــبَــا مِــنْــهُ ضَــوَاحِــي الــنَّــحْــرِ
وَنَــذْرُكِ الــسُّــوءُ فَــشَــرُّ نَــذْرِ[7]

ويتضح لنا من خلال هذه المناقضة أن هند بنت عتبة كانت تتشفى بما أصاب

---

(1) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص: 150 ـ 151.

(2) تشير هنا إلى من قتل من بني أمية يوم بدر، وتذكر أباها عتبة بن ربيعة، وعمها شيبة، وأخاها الوليد بن عتبة وصهرها حنظلة بن أبي سفيان.

(3) وحشي: غلام جبير بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد، والغليل: العطش، أو حرارة الجوف.

(4) ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 91، وابن كثير: السيرة النبوية، ج3، ص: 74. وطيفور: بلاغات النساء، ص: 44 ـ 45. (مع اختلاف في رواية بعض المفردات).

(5) ملهاشميين: أي: من الهاشميين، فحذفت النون من «مِن» منعاً لالتقاء الساكنين، ولا يجوز ذلك إلا في «من» وحدها لكثرة استعمالها.

(6) شيب: أرادت عمّ هند بنت عتبة، فرخّمته في غير النداء.

(7) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 91 ـ 92.

المسلمين في موقعة أحد كما أصابها في يوم بدر، وقد أخذ وحشي بثأرها فقتل حمزة عم الرسول ﷺ، فشعرت بسعادة متناهية جراء ذلك، وشكرته وتعهدت بعدم نسيان جميله طوال حياتها.

وأما هند بنت أثاثة فتسبُّها وتسبُّ أباها الذي قُتل كافراً، ثم تؤبّن حمزة فتصفه بالشجاعة والإقدام.

ومهما يكن من أمر فإن هند بنت أثاثة كانت من أولى الشواعر اللائي أنشدن شعراً في فن النقائض، ويبدو أنّها أقذعت في هجائها لهند بنت عتبة وقومها حتى أنّ ابن هشام حذف ثلاثة أبيات من المقطوعة السالفة الذكر بسبب ذلك[1].

والأبيات من نفس البحر والقافية، وهي تذكرنا بالمعارضات التي كانت تدور بين الشعراء في مختلف المجالات. وهذه الأبيات تروى أيضاً لأروى بنت الحارث بن عبد المطلب، وقد وفدت على معاوية بن أبي سفيان إلى دمشق وهي عجوز فعاتبته على خصومته لعلي بن أبي طالب ـ ابن عمها ـ وأغلظت الكلام معه، وفاخرته ببني هاشم، وفضلتهم على بني أمية. . . . حتى قالت له: يا ابن القائلة في قتل حمزة:

نَـحْـنُ جَـزَيْـنَـاكُـمْ بِـيَـوْمِ بَـدْرِ والحرْبُ بَعْدَ الحَرْبِ ذَاتُ سُعْرِ[2] إلخ.

فأجبتها:

يـا بِـنْـتَ رقَّـاعٍ عَـظِـيـمِ الـكُـفْـرِ خَزِيتِ فِـي بَـدْرٍ وغَـيْـرِ بَـدْرِ[3] إلـخ.

وقد وقعت هذه الأبيات العنيفة القاسية التي تزخر بالنقد اللاذع على معاوية كالصاعقة[4]. . .

لكنّني أرجح نسبة الأبيات إلى هند بنت أثاثة لأنّ نسبتها إليها وردت في مصدر قريب من عصر الشاعرتين ألا وهو السيرة النبوية لابن هشام، بينما وردت

---

(1) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 92.

(2) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 91. وانظر الأبيات كاملة هناك.

(3) طيفور: بلاغات النساء، ص: 45. وانظر الأبيات كاملة هناك.

(4) انظر الخبر بالتفصيل في: طيفور: م. ن.، ص: 44 وما بعدها. والضبي: أخبار الوافدات على معاوية، ص: 49 وما بعدها.

نسبة الأبيات إلى أروى في مصادر متأخرة نسبياً عن عصر الشاعرتين كأخبار الوافدات على معاوية للضبي، وبلاغات النساء لطيفور وغيرهما.

وناقضت أيضاً هند بنت عتبة الخنساء وفاخرتها بعظم مصيبتها، لما بلغها أن الخنساء تشهد عكاظاً، وترثي أباها عمرو بن الشريد، وأخويها صخراً ومعاوية، وتعاظم العرب بمصيبتها فيهم، فقررت هند أن تشهد الموسم لإجراء مباراة شعرية ومناقضة في الرثاء مع الخنساء، وقد عاظمت هند الخنساء بمصيبتها في أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد[1].

ح - النقائض بين الشعراء والشواعر:

كما كانت هناك نقائض بين الشعراء والشواعر، فميمونة بنت عبد الله، أجابت كعباً بن الأشرف حينما رثى أصحاب التقليب من قريش الذين أصيبوا ببدْر بقصيدته التي مطلعها.

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أهْلِهِ	ولِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمَعُ[2]

فقالت تردُّ عليه:

تحنَّنَ هَذَا العَبْدُ كُلَّ تحنُّنِ	يُبَكِّي عَلَى قَتْلَى ولَيْسَ بِنَاصِبِ
بَكَتْ عَيْنُ مَنْ يَبْكِي لِبَدْرٍ وأهْلِهِ	وعُلَّتْ بِمِثْلَيْهَا لُؤَيُّ بْنُ غَالِبِ
فَلَيْتَ الذِينَ ضُرِّجُوا بِدِمَائِهِمْ	يَرَى مَا بِهِمْ مَنْ كَانَ بَيْنَ الأخَاشِبِ[3]
فَيَعْلَمُ حَقاً عَنْ يَقِينٍ ويُبْصِرُوا	مَجَرَّهُمْ فَوْقَ اللُّحَى والحَوَاجِبِ[4]

فأجابها كعب بقوله:

ألاَ فَازْجُرُوا مِنْكُمْ سَفِيهًا لِتَسْلَمُوا	عَنِ القَوْلِ يَأتِي مِنْهُ غَيْرَ مُقَارِبِ[5]

---

(1) انظر تفصيل الخبر عن هذه المناقضة في فن الرثاء في هذا الفصل.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية: ج3، ص: 52. وانظر الخبر بالتفصيل في ص51 وما بعدها.

(3) ضّرجوا: لطخوا. والاخاشب: تُريد الأخشبين، وهما جبلان بمكة.

(4) ابن هشام: م. ن.، ج3 ،ص: 53.

(5) يريد بالسفيه: ميمونة، قائلة الشعر السابق، وذكّر لأنّه حمل ذلك على معنى الشخص. والشخص يذكر ويؤنث.

أَتَشْتُمُنِي أنْ كُنْتُ أبْكِي بِعِبْرَةٍ ... لِقَوْمٍ أتَانِي وَدُّهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ

فَإنِّي لَبَاكٍ مَا بَقِيتُ وذَاكِرٌ ... مَآثِرَ قَوْمٍ مَجْدُهُمْ بِالجَبَاجِبِ[1]

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ مُرَيْدٌ بِمَعْزِلٍ ... عَنْ الشَرِّ فاحْتَالَتْ[2] وُجُوهُ الثَّعَالِبِ

فَحُقَّ مُرَيْدٌ أنْ تُجَدّ أنُوفُهُم ... بِشَتْمِهِمْ حَيَّ لُؤَيِّ بن غَالِبِ

وهَبتُ نَصِيبِي مِنْ مُرَيْد لجَعْدَرٍ ... وَفَاءً وبَيْتُ اللهِ بَيْنَ الأخاشِبِ[3]

وهكذا كانت المرأة منذ بداية الدعوة الإسلامية تشارك في الأحداث السياسية، فقد كان منهنّ المسلمات المناصرات للإسلام والمسلمين، والمشركات والمعاندات اللائي وقفن في وجهه يهجون المسلمين.

ط ـ المدح:

المدح فنٌّ من فنون الشعر، يشيد فيه الشاعر بالفضائل المستحبة في شخص الممدوح، وكان الدافع إليه إمّا رغبة في نيل الهبات والعطايا من الممدوحين وبخاصة من الأمراء والخلفاء وذوي النفوذ والأغنياء، وهو ما يسمى بالمدح التكسبي، وإما إعجاباً وإكباراً لشمائل فرد أو جماعة، وهو ما يدعى بالمدح الصادق أو الشريف. وفي كلتا الحالتين كانوا يصفون الممدوح بالشجاعة والمروءة والإقدام والوفاء والكرم، وما أشبه ذلك من معاني الشرف والنبل التي يسبغها على ممدوحه.

وقد راج فنُّ المدح في كثير من الأعصر الأدبية، وحفلت هذه العصور بأسماء المشاهير من شعراء المدح، فاشتهر في العصر الجاهلي، زهير، والأعشى، والنابغة، وفي العصر الإسلامي: حسان، وكعب، والحطيئة. وفي العصر الأموي: الأخطل، والفرزدق، والراعي النمري. وفي العصر العباسي: أبو تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم[4].

---

(1) الجباجب: منازل مكة.

(2) احتالت: تغيّرت.

(3) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 54.

(4) انظر الدكتور يحيي شامي: أروع ما قيل في المدح، ص: 5 وما بعدها. وعلي بوملحم: في الأدب وفنونه، ص: 103 وما بعدها. وابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 128 وما بعدها.

وقد شاركت المرأة في المدح على ندرة وإيجاز، في العصر الإسلامي بالرّغم من أنّ بواعثه كانت محبوسة على الرجال، سواء في ذلك المدح المنبعث عن رغبة في نيل العطايا، أو عن إعجاب وإكبار لشمائل فرد أو جماعة « ثم إنّ مدح المرأة للرجل مما يعاف»[1]. وقد أدلت فيه الشواعر بدلائهنّ في النوعين، ومن اللائي مدحن رغبة في نيل العطايا ابنة لبيد بن ربيعة[2].

فقد نابت عن أبيها في مدح أمير الكوفة الوليد بن عقبة[3]، وكانت شاعرة فصيحة تحسن المدح؛ وكان أبوها قد آلى في الجاهلية أن يطعم ما هبت الصَّبا، واستمرَّ على ذلك بعد إسلامه، ونزل لبيد الكوفة، وأميرُها الوليدُ بن عُقبة، فبينما هو يخطب الناس على المنْبَر، إذ هبَّت الصبا، فقال: قد علمتم حال أخيكم أبي عَقيل، وما جعل على نفسعه انْ يطعم ما هبّت الصبا، وقد هبت فأعينوه، ثم بعث إليه بمائة من الجزُرِ[4]، واعتذر إليه بقوله:

أرَى الـجَـزَّارَ يَـشْـحَـذُ شَـفْـرَتَـيْـهِ	إِذَا هَــبَّــتْ رِيَــاحُ أَبِــي عَــقِــيــلِ
أَشَــمُّ الأنْــفِ أصْــيَــدُ عَــامِــرِيٌّ	طَوِيلُ البَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ

فلما وصلت الهدية والشعر إلى لبيد قال: إني تركت الشعر منذ قرأتُ القرآن، وإني ما أعيا بجواب شاعر، ودعا ابنة له، فقال: أجيبه عني، فقالت:

إِذَا هَــبَّــتْ رِيَــاحُ أَبِــي عَــقِــيــلِ	دَعَــوْنَــا عِــنْــدَ هَــبَّــتِــهَــا الــوَلِــيــدَا
أَشَــمُّ الأنْــفِ ، أَصْــيَــدُ عَــبْــشَــمِــيــاً	أعَــانَ عَــلَــى مُــرُوءَتِــهِ لَــبِــيــدَا
بِــأَمْــثَــالِ الــهِــضَــابِ، كَــأَنَّ رَكْــبًــا	عَــلَــيْــهَــا مِــنْ بَــنِــي حَــامٍ قُــعُــودَا

---

(1) الدكتور أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 647.

(2) لبيد بن ربيعة: شاعر مشهور من مخضرمي الجاهلية والإسلام، من أصحاب المعلقات، اعتزل الشعر في الإسلام، وتوفي نحو 41 هـ (انظر الأصبهاني: الأغاني، مج15، ص: 291 وما بعدها. والقرشي: جمهرة أشعار العرب، ص: 69 وما بعدها).

(3) الوليد بن عقبة : أخو عثمان بن عفان لأمه، كان شاعراً جواداً، ولي الكوفة بين سنتي(25 ـ 29)، توفي بالرقة حوالي 61 هـ (الزركلي: الأعلام، مج8، ص: 122).

(4) الجَزُر: جمع، مفرد الجَزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل (انظر المعجم الوسيط).

أَبَــا وَهْــبٍ جَــزَاكَ الــلــهُ خَــيْــراً   نَــحَــرْنَــاهَــا وأطْــعَــمْــنَــا الــوُفُــودَا
فَــعُــدْ إنّ الــكَــرِيــمَ لَــهُ مُــعَــادٌ   وظَــنِّــي بِــابْــنِ أرْوَى أنْ يَــعُــودَا

فقال لبيد: أجبت وأحسنت لولا أنك سألت في شعرِك. قالت: إنّه أمير وليس بسُوقة ولا بأس بسؤاله، ولو كان غيرُهُ ما سألناهُ. قال لبيد: أجل، إنّه لعلى ما ذكرتِ.[1]

ومن اللائي مدحن إعجاباً لشمائل ممدوحهن قتيلة بنت النظر[2]، فقد مدحت النبي ﷺ بقصيدة مطلعها:

الــواهــبُ الألــفَ لا يَبْتغِي بِهَا بَــدَلاً   إلاّ الإِلٰهَ ومَعْرُوفاً بِمَا اصْطَنَعَا[3]

وكذلك أم كلثوم بنت عبد ودّ، فلما نعي إليها أخوها عمرو سَأَلَتْ: من قتله؟ فقيل لها: علي بن أبي طالب، فقالت ترثيه وتمدح قاتله:

لَــوْ كَــانَ قَــاتِــلُ عَــمْــرٍو غَــيْــرَ قَــاتِــلِــهِ   لَــكُــنْــتُ أبْــكِــي عَــلَــيْــهِ آخِــرَ الأبَــدِ
لَــكِــنَّ قَــاتِــلَــهُ مَــنْ لا يُــعَــابُ بِــهِ   مَــنْ كَــانَ يُــدْعَى قَــدِيــمــاً بَــيْــضَــةَ الــبَــلَــدِ
مِــنْ هَــاشِــمٍ فِــي ذُرَاهَــا وهــيَ صَــاعِــدَةٌ   إلَى الــسَّــمَــاءِ تُــمِــيــتُ الــنَّــاسَ بِــالــحَــسَــدِ
قــومٌ أبــى الــلــهُ إلا أن يــكــون لــهــم   مــكــارم الــدّيــن والــدّنــيــا بــلا لــدد[4]
يَــا أمّ كُــلْــثُــوم ابــكِــيــهِ ولاَ تَــدَعِــي   بُــكَــاءَ مُــعْــوِلَــةٍ حَــرّى عَــلَــى وَلَــدِ[5]

يبدو من خلال الأبيات أنَّ الشاعرة تمدح علياً قاتل أخيها، وكأنَّها متشيعة له ولبني هاشم بالرغم من أنّ الشاعرة لا تزال مشركة حين قالت هذه الأبيات في رثاء أخيها، لكنها في مجملها في المدحِ، ولم تذكر أخاها إلا في البيت الأول والأخير.

---

(1) القرشي : جمهرة أشعار العرب، ص: 69 ـ 70 (الخبر والشعر)، والأصبهاني: الأغاني، مج15 ص: 298 ـ 299.
(2) سبقت ترجمتها. انظر غرض الرثاء في هذا الفصل.
(3) بشير يموت : شاعرات العرب، ص: 134.
(4) اللدد: الخصومة.
(5) ذيل ديوان الخنساء، ص: 127.

ومدحت ضباعة بنت عامر ولدها سلمة حين هاجر إلى النبي ﷺ ودعت الله أن ينصره على أعدائه، ووصفته بالشجاعة والإقدام وكريم الخلال، قالت:

اللَّهُمَّ رَبَّ الكَعْبَةِ المُحَرَّمَهْ انصُرْ عَلَى كُلِّ عَدُوٍّ سَلَمَهْ
لَهُ يَدَانِ فِي الأُمُورِ المُبْهَمَهْ كَفٌّ بِهَا يُعْطِي وكَفٌّ مُنْعِمَهْ
أجْرَأ مِنْ ضِرْغَامَةٍ في أجَمَهْ يَحْمِي غَدَاةَ الرَّوْعِ عِنْدَ المَلْحَمَه
بِسَيْفِهِ عَوْرَةَ سِرْبِ المُسْلِمَهْ

ي ـ ملاحظات على غرض المدح:

1 ـ وهكذا كانت مدائح النساء في هذا العصر، في مجملها مقطوعات، ولمْ أعثر ولو على قصيدة واحدة.

2 ـ وكان مدحهنّ في الغالب مدحاً خالصاً، أي غير متداخل مع أغراض أخرى مثلما هو معروف لدى الشعراء من اختلاط المديح بالغزل أو بالرثاء وهكذا، ونادراً ما نجده متداخلاً ملتحمًا مع أغراض أخرى، كما هو الحال عند الشاعرة أم كلثوم بنت عبد ود التي مزجت رثاء أخيها عمرو بمدح علي بن أبي طالب قاتله في مقطوعة واحدة.

3 ـ وكان مدحهنّ منبعثاً عن رغبة في نيل العطايا مرة كما فعلت ابنة لبيد في مدحها للوليد بن عقبة، وطوراً إعجابا وإكباراً لشمائل الممدوح، كمدح قتيلة بنت النضر للنبي ﷺ، ومدح أم كلثوم بنت عبد ود لعلي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ قاتل أخيها.

4 ـ مدائح الشواعر لبنات جنسهن مفقود، فلم أعثر ولو على مدحة واحدة في النساء، وقد مدح الشعراء النساء كما ورد في الأغاني وغيره من مدائح الشعراء في زبيدة بنت جعفر بنت المنصور[1]، ومدحت شواعر الأندلس النساء أيضاً[2].

5 ـ قد تمدح الشاعرة ابنها لأنه هاجر إلى النبي ﷺ، وتمزج ذلك بدعائها له

(1) انظر زينب فواز: الدر المنثور، ص: 217.

(2) انظر المقري: نفخ الطيب، ج4، ص: 288.

بالنصر على الأعداء، وبوصفها له بالشجاعة والإقدام، كما فعلت ضباعة بنت عامر.

6 ـ جاء شعرهنّ في المدح يطفح بحرارة عاطفية صادقة، لم يشهدها شعر الرجال الذين يلجؤون في الغالب، إلى صور النفاق والتزلف إلى ممدوحهيم، فيصفونهم بصفات تتنافى مع واقعهم.

ك ـ شعر الصّراع السياسي لدى الشواعر:

شعر الصراع السياسي ليس غرضاً من أغراض الشعر الغنائي الذي عرفه العرب في مختلف العصور، فهو قد يكون مديحاً، كما قد يكون هجاءً أو رثاءً أو فخراً، وربما كان كل ذلك في آنٍ. وإنما هو هدف لهذه الأغراض الشعرية، والهدف هو دليلنا في التمييز بين ما هو سياسي وغير سياسي. وبه نستعين على معرفة الغرض، فنقول: هذا المديح سياسي، وذلك الهجاء لا علاقة له بالسياسة.[1] ويعرّف الدكتور شوقي ضيف الشعر السياسي، بقوله: «فالشعر السياسي نضال عن الحكم وعن نظرية معينة، فهو ليس مجرد مديح، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية، دفاعٌ عن نظرية تعتنقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق، وهجوم على خصومها ومن يقفون في الصفوف المعارضة لها»[2].

وقد شاركت المرأة منذ فجر الإسلام بشعرها في الأحداث السياسية والوقائع الحربية، وكان منهنّ المناصرات للإسلام والمسلمين، ومنهنّ من وقفنَ في وجهه يهجون المسلمين ويناصرن المشركين، كما شاركن في الصراع السياسي الذي دار بين المسلمين أنفسهم فكان منهنّ المتشيّعات لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ومنهن من ناصرن معاوية بن أبي سفيان، وهكذا . . . وقد سبق أن أشرتُ إلى بعض الشواعر اللائي شاركن في هذا الصراع السياسي لدى الشواعر في هذا

---

(1) سليم التنير : الشاعرات من النساء، ص: 119.

(2) شوقي ضيف : العصر الإسلامي، ص: 336. وانظر أحمد الحوفي: أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 8 وما بعدها ، وأحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي، ص: 1 وما بعدها.

العصر بشيء من التفصيل.

ومن الشواعر الصحابيات اللائي نافحن عن الإسلام، ودافعن عن الرسول ﷺ أروى بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ، فكانت تعضّد وتحضّ ابنها طُلَيْباً على نصرته، تقول:

إنّ طُلَيْبًا نصر ابْنَ خَالِهْ ... وَاسَاه في ذِي ذِمّةٍ ومَالِهْ[1]

وكذلك فعلت أختها عاتكة بنت عبد المطلب يوم بدر، فكانت تعضد المسلمين وتفتخر بانتصارهم على المشركين الذين ولّوا هاربين بالرغم من كثرة عددهم ووفرة عدّتهم تقول:

هلاّ صَبرْتُمْ للنبيّ مُحمّدٍ ... ببَدْرٍ، ومَنْ يَغْشَ الورى حقُّ صابِرِ
ولَمْ ترجِعُوا عنْ مُرهَفَاتٍ كأنّها ... حريقٌ بأيْدي المُؤمنين، بَوَاتِرِ
ولمْ تصبِرُوا لِلْبيضِ حتّى أخذنَكُمْ ... قليلاً بأيدي المُؤمنين المَشَاعِرِ
وولّيتُمُ نفراً، وما البطلُ الذي ... يُقاتِلُ مِنْ وقعِ السِّلاحِ بِنَافِرِ
أتاكُمْ بِما جاءَ النّبيُّونَ قَبْلَهُ ... وما ابنُ أخي البرِّ الصّدوقِ بِشاعِرِ
سَيَكْفِي الذي ضيّعْتُمُ مِنْ نبيِّكُمْ ... ويَنْصُرُهُ الحيّانِ عمرٌو وعامِرُ[2]

وكانت المشركات يشكّلنَ خطراً على الإسلام والمسلمين، وبلغ الأمر ببعضهن أن رمين الرسول ﷺ والمسلمين بأفحش الكلام، فرحين يؤلبن عليهم، ويحرضن على قتل رسول الله ﷺ، كما فعلت عصماء بنت مروان إليهودي التي هجت النبي ﷺ هجاءً مُراً لما علمت بقتل المشرك أبي عفك الذي ظل يؤذي الرسول ﷺ والمسلمين، وحرضت على قتله وألبت أنصاره عليه، وادعت بأنّه غريب لا تجب طاعته، فقالت:

بِاسْتِ بنِي مَالِكٍ والنّبيتِ ... وعوْفٍ وبِاسْتِ بَنِي الخزْرَجِ[3]

---

(1) ابن سعد: الطبقات، مج8، ص: 43. وابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 255.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص: 340.
(3) النبيت: قوم من اليمن.

أَطَعْتُمْ أتاوِيَ مِنْ غَيْرِكُمْ فلا مِنْ مُرادٍ ولا مَذْحِجِ[1]
تُرجّونَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرُّؤوسِ كَمَا يُرْتَجى مرَقُ المُنْضَجِ
ألاَ آنِفٌ يَبْتَغِي غِرَّةً فَيَقْطَع مِنْ أمَلِ المُرْتَجِي[2]
بنُو وائلٍ وبَنُو واقِفٍ وخَطْمَةُ دُونَ بنِي الخَزْرَجِ
فهلاً فتًى ماجِداً عِرْقُهُ كريمُ المداخِلِ والمخْرجِ[3]

وحين بلغ شعرها رسول الله ﷺ تأثر أشد التأثر، وقال: ألا آخذٌ لي من ابنة مروان؟ فسمع ذلك عُمير بن عدي الخطمي، وكان أول من أسلم من بني خطمة، فلمّا أمسى من تلك الليلة سرى إليها فقتلها، ثم أصبح، فقال: يا رسول الله، إني قد قتلتها، فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير، لا ينتطح فيها عنزان[4].

ولما سمعت أمامة المُزيرية بقتل أبي عفك المشرك، وهي شاعرة صحابية مخضرمة، ارتاحت لذلك، لأن قتله كان بأمر من الرسول ﷺ الذي قال: من لي بهذا الخبيث، فخرج سالم بن عمير فقتله، فقالت أمامة تفخر بقتله جزاء كُفْرِهِ وعِنَادِهِ بالرغم من كبر سنه:

تُكذِّبُ دينَ اللهِ والمَرْءَ أحْمَدَا لعَمْرُ الذي أمْناكَ أنْ بِئْسَ ما يُمنِي
حَبَاكَ حنَيفٌ آخِرَ اللّيلِ طَعْنَةً أبَا عَفَكٍ خُذْهَا على كِبَرِ السّنِّ
فإنّي وإنْ أعْلَمْ بِقَاتِلِكَ الذي أبَاتَكَ حَلْسَ اللّيلِ مِنْ إنْسٍ أوْ جِنِّ[5]

وقد نجد للمرأة المسلمة شعراً تردُّ فيه على شعراء الكفار الذين تناولوا رسول الله ﷺ والمسلمين بالأذى. فصفية بنت عبد المطلب قد تصدّت لأميّة بن أبي الصلت شاعر قريش وهو يحرّض على رسول الله والمسلمين قائلة بأنّ المسلمين لا يخافون الكفار ولا يقبلون الضيم ولو كلفهم ذلك أرواحهم:

---

(1) الأتاوي: الغريب. ومراد ومذحج: قبيلتان.
(2) الأنف: الذي يترفع عن الشيء. والغِرّة: الغفلة.
(3) ابن كثير : م. ن. ، ج5، ص: 221. والواقدي: المغازي، ج3، ص170.
(4) ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص: 637. ولا ينتطح عنزان: أي أنّ شأنها هيّن، لا يكون فيه طلب ثأر ولا اختلاف.
(5) الواقدي: م. ن. ، ج1، ص: 175. وحِلْسُ الليل: ظلامه المتراكم.

فــســائــلْ فــي جُــمُــوعِ بــنــي عــلــيّ   إذا كــثُــرَ الــتــنَــاسُــبُ والــفِــخَــارُ
بــأنّــا لا نُــقِــرُّ الــضَّــيْــمَ فــيــنــا   ونَــحْــنُ لِــمَــنْ تــوسَّــمــنــا نُــصَــارُ[1]

وانتقدت الشاعرةُ الصحابية أمُّ حبيبة بنت عامرة عناد المشركين واستكبارهم، فكانوا كلما جاءتهم صحيفة من رسول الله ﷺ غسلوها ورقعّوا بها دلاءهم، كما فعل بنو حارثة بن عمرو، فقالت:

إذا مــا أتَــتْــهُــمْ آيــةٌ مِــنْ مُــحَــمّــدٍ   مَحَوْها بِماءِ البِئْرِ، فَهْوَ عَصِيرُ[2]

أمّا هند بنت عتبة الشاعرة المشركة، فقالت الشعر في أغراض مختلفة، وأكثر ما عُرف من شعرها مراثيها لقتلى بدر من مشركي قريش قبل أنْ تُسلِمَ، وشهدت أحُداً، وفعلت ما فعلت بحمزة، ومعها بعض النسوة يُمثّلْن بقتلى المسلمين، ويَجْذَعْنَ آذانهم وأنوفهم، وتجعلها هند قلائد وخلاخيل، وترتجز في تحريض المشركين والنساء من حولها يضربن الدفوف، قالت:

نَــــحْــــنُ بَــــنَــــاتُ طَــــارِقْ   نَــمْــشِــي عَــلَــى الــنّــمَــارِقْ
الــــدُّرُّ فِــــي الــــمَــــخَــــانِــــقْ   والــمِــسْــكُ فِــي الــمَــفَــارِقْ
إنْ تُــــقْــــبِــــلُــــوا نُــــعَــــانِــــقْ   أوْ تُــــدْبِــــرُوا نُــــفَــــارِقْ
فِــــرَاقَ غَــــيْــــرِ وَامِــــقْ[3]

وكانت تعاتب أوْ تهجو كلَّ من دخل في الإسلام، فقد عاتبت ابنة عمّها رملة بنت شيبة التي هاجرت بدينها مع زوجها عثمان بن عفان إلى المدينة، وعابت عليها دخولها في الإسلام، وعيّرتها بقتل أبيها شيبة بن ربيعة يوم بدر من قبل المسلمين، فقالت:

---

(1) المصعبُ الزبيري: نسب قريش ص: 11.

(2) ابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 446. وابن سيد الناس: منح المدح أو الشعراء الصحابة ممّن مدح رسول الله ﷺ أو رثاه، ص: 340.

(3) الأصبهاني: الأغاني، مج12، ص: 343. وانظر القرطبي: الاستيعاب، ج4، ص: 410. وابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص: 573. وطارق : النجم. والنمارق: جمع نمرقة، وهي البساط. والمخانق: جمع مخنقة، وهي: موضع القلادة. ووامق : من ومِقَ يمِقُ: أحبه فهو وامق. وتماوقُوا: تحابوُّا.

لِـحَـى الـرحْـمـنُ صـائِـبَـةً بِـوَجٍّ ... ومـكّـة أوْ بـأطْـرافِ الـحُـجُـونِ
تَـديـنُ لِـمَـعْـشَـرٍ قَـتـلـوا أبـاهَـا ... أقَـتْـلُ أبـيـكِ جاءكِ بـالـيـقـيـنِ؟[1]

وكان أخوها أبو حذيفة، قد دعا أباه يوم بدر للمبارزة، فلمّا علمت بذلك هجته هجاء مُراً، فعيرته بالحول والشؤم، واعتبرته شر الناس في الدين، تقول:

الأحْوَلُ، الأثْعَلُ، الـمَشْؤومُ طائِرُهُ ... أبُـو حُـذيـفَـةَ شرُّ الـنّـاسِ فـي الـدّيـنِ
أمَـا شَـكَـرْتَ أبَـا ربّـاك مِـنْ صِـغَـرٍ ... حتَّى شَبَبْتَ شَبَاباً غيْرَ مَحْجُونِ[2]

وكذلك فعلت حبيبة[3] بنت الضحاك بن سفيان بزوجها العباس بن مرداس الذي أسلم عام الفتح، فلما علِمت بإسلامه، قوّضت بيتها، وارتحلت إلى قومها، وقالت تعيره وتشنع خبره بين القبائل:

ألَـمْ يَـنْـهَ عـبَّـاسُ بْـن مِـرْداسَ أنّـنـي ... رأيْـت الـوَرَى مَخْـصُـوصَـةً بـالـفَـجائِـعِ
أتـاهُـمْ مِـنَ الأنْـصَـارِ كـلُّ سُـمـيْـذَعٍ ... مِنَ القَوْمِ يَحْمي قوْمَهُ في الوقائعِ[4]
بِـكُـلِّ شـديـدِ الـوقْـعِ عـضْـبٍ، يـقُـودُهُ ... إلى المَوْتِ هامُ المُقرّباتِ البرائِعِ[5]
لَـعَـمْـري لـئِـن تـابَـعْـتَ ديـنَ مُـحـمّـدٍ ... وفَـارقْـتَ إخْوانَ الـصَّفَا والـصّـنـائِعِ[6]
لَـبـدَّلْـتَ تِـلْـكَ الـنّـفـسَ ذُلاً بِـعِـزَّةٍ ... غـداة اختـلافِ الـمُـرْهَـفَـاتِ القـواطِـعِ

---

(1) المصعب الزبيري : م. ن.، ص: 105. وابن حجر: م. ن.، ج4، ص307. ووجّ: كانت تطلق على الطائف. والحجون: موضع بمكة عند المحصب (البكري: معجم ما استعجم ـ وجّ - حجن).

(2) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص: 85. وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق - تراجم النساء ـ ص: 488.

(3) هي حبيبة بنت الضحاك بن سفيان، شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، كان أبوها صحابياً شجاعاً استشهد في قتال الردة من بني سليم سنة 11 هـ. أمّا حبيبة فلم تمدنا المصادر بتاريخ وفاتها. (انظر الأصبهاني: الأغاني، مج14، ص: 289 ـ 290. والزركلي: الأعلام، مج3، ص: 214.)

(4) السميذع: السيد الكريم الشريف الشجاع.

(5) المقربات: جمع مقربة: وهي الفرس يركبها صاحبها وبقربها. والبرائع: جمع بريعة، وهي المرأة الفائقة في الجمال والعقل. جعلها هنا وصفاً للأفراس.

(6) الصنائع: جمع صنعة: وهي الإحسان.

وقَوْم هُمُ الرّأسُ المُقدَّمُ في الوغى وأهْلُ الحِجَا فينا وأهْلُ الدّسائِع[1]

سيُوفُهُمُ عِزُّ الذَّليلِ وخَيْلُهُمْ سِهامُ الأعَادي في الأمورِ الفَظَائعِ[2]

ولسنا ندري أأسلمت الشاعرة بعد ذلك أم ماتت مشركة؟ لأن المصادر التي بين أيدينا ضنّت علينا بالإجابة عن ذلك، لكننا نرجح أن تكون قد أسلمت قبل وفاتها لأن أباها كان صحابياً وولاّه رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، ثم اتخذه سباقا، ونعتقد أنه سيؤثر في ابنته وفلذة كبده وسيستدرجها إلى الدخول في الإسلام.

ومهما يكن من أمر فإن شاعرتنا منذ ارتحلت إلى قومها لما علمت بإسلام زوجها خفي أمرها من ذلك الحين، ولم يصلنا من شعْرها إلا هذه القصيدة التي صاغتها على الطريقة الجاهلية، فجاءت ألفاظها قوية جزلة موحية، وتراكيبها محكمة النسج مترابطة.

وبلغ الأمر ببعض شواعر الكفار أن هجون وشتمن رسول الله ﷺ فأم جميل بنت حرب بن أمية، امرأة أبي لهب، قد ألبت زوجها أبا لهب على النبّي محمد ﷺ، حتى انضمّ إلى حزب أخيها أبي سفيان، لمعاداة الرسول ودعوته، ثم هجته هجاء مراً حتّى أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل فيها وفي زوجها سورة المسد، يتوعدها فيها بجهنّم، ومما قالت في هجاء الرسول الأعظم:

مُذَمّماً عَصَيْنَا وأمْرَهُ أبَيْنَا
ودِينَهُ قَلَيْنَا[3]

وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مُذَمّماً، ثم يسبّونه ويهجونه، فكان النبي الكريم ﷺ يقول: ألا تعجبون لما يصرفُ الله عنّي من أذى قريش يسبّون ويهجون

(1) الدسائع : جمع دسيعة: وهي العطية الجزيلة، والمائدة الكريمة.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج14، ص: 289 ـ 290.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص: 356. وانظر البلاذري: أسباب الأشراف. ج1، ص: 122. وقلينا: أبغضنا.

مذمّماً، وأنا محمد[1]. وذكر ابن هشام أن امرأة أبي لهب أخذت فِهْرًا لتضربه بها وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، فلمّا وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك، فقد بلغني أنّه يهجوني، والله لو لوجدتُه لضربتُ بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم أنشدت الشعر المذكور أعلاه، وبلغ بها حقدها عليه إلى أن أرغمتُ ابنَيْها على تطليق ابنتيْ رسول الله ﷺ ففعلاً[2].

لكن شواعر قريش لم يصمدن أمام قوة الإسلام، فتركن عبادة الأصنام ودخلن في الإسلام، ووجدنا أشد الشواعر عداوة للإسلام تهتدي بنوره يوم فتح مكة، إنها هند ينت عتبة التي أهدر النبي ﷺ دمها ثم عفا عنها بعد أن أسلمت وبابعته[3]، بل وجدنا من إليهويات من تركت دينها ودخلت الإسلام، ومنهنّ صفية بنت حيي بن أخطب إليهودي، التي خيرها الرسول ﷺ بين الإسلام وبين الالتحاق بأهلها، ففضلت الإسلام على اليهودية.[4]

وهناك إمرأة قرشية اعترضت سبيل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، واستشفعت لقومها لمّا رأت سعد بن عبادة يلوح براية جنود المسلمين، فخافت على قومها. فأسرعت إلى رسول الله ﷺ تستعطفه وتترجاه أنْ يمنع قائد المسلمين من أن يلحق بقريش أذى أو ضراً، فقالت:

يــا نــبِــيّ الــهُــدى لَــجَــا حَــيُّ قُــرَيْــشٍ ولاتَ حــيــنَ لــجــاءِ

حيـنَ ضـاقَـتْ عـلـيـهِـمْ سعَـةُ الأرْ	ضِ وعــادَاهُــمْ إلــهُ الــسّــمــاءِ
والْتقتْ حَلْقَتَا البِطانِ على القَوْ	مِ ونُـودُوا بـالـصَّـيْـلَـمِ الـصَّـلْـعـاءِ
إنَّ سَعْـدًا يُـريـدُ قـاصِـمَـةَ الـظَّـهْـ	ـرِ بـأهـلِ الـحـجـون والـبـطـحـاءِ
خـزْرَجِـيٌّ لـوْ يـسـتـطـيـعُ مِـنَ الـغَـيْـ	ـظِ زمَـانـاً بـالـنَّـسْـرِ والـعُـوّاء

(1) ابن هشام: م. ن.، ج1، ص: 356.

(2) البلاذري: أنساب الاشراف، ج1، ص: 122.

(3) انظر - بالتفصيل خبر مبايعتها لرسول اللهﷺ - ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق - تراجم النساء.ص: 448 وما بعدها.

(4) كريم عاصي: نساء العرب، ص: 36.

فـأنْـهَـيْـنَـهُ فـإنَّـهُ الأسَـدُ الأسْـوَدُ والـلّـيْـثُ والِـغٌ فـي الـدِّمـاءِ

فَـلَـئِـنْ أقْـحَـمَ الـلّـواءَ ونـادَى يـا حُـمَـاةَ الـلِّـوَاءِ أهْـلَ الـلِّـواءِ

لـتـكُـونَـنْ بِـالـبَـطْـحَـاءِ قُـرَيْـشٌ بَـقْـعَـةَ الـقَـاعِ فـي أكُـفِّ الإمَـاءِ

إنَّـهُ مُـصْـلِـتٌ يُـريـدُ لـهَـا الـرَّأ يَ، صَـمُـوتٌ كـالـحيَّـةِ الـصَّـمّـاءِ

فلمّا سمع رسول الله ﷺ شعرها الاستعطافي هذا تأثّر، ودخلته رحمة ورأفة، وأمر بالراية، فأخذت من سعد بن عبادة، ودُفعت إلى ابنه قيس بن سعد[1].

وهكذا كان الصراع السياسي في عهد الرسول ﷺ بين المسلمين والمشركين يهدف إلى نشر الإسلام وتوحيد العبودية لله وحده لا شريك له، وكان للمرأة دور هام في الأحداث السياسية منذُ بداية الدعوة الإسلامية كما سبَقَ أن أوضحتُ، فقد كان منهن المناصرات للإسلام والمسلمين، ومنهن من وقفن في وجهه يهجون المسلمين ويدافعن عن الشرك والمشركين.

وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت الردة، ودبَّ التصدُّع في صفوف المسلمين، وارتدّ كثيرٌ من ذوي الإيمان الضعيف، وكانت المرأة بين المرتدين، فقد ذكر البلاذري أنّ نسوةً بالنُّجيْرِ شمِتْنَ بوفاة رسول الله ﷺ، فكتب أبو بكر الصديق في قطع أيديهنّ وأرجلهنّ، ومنهنّ الثبجاء الحضرمية، وهند بنت يامين اليهودية[2]. وانتصر المسلمون في حروب الرّدة وقضوا على هذه الفتنة في مهدها، ولكنهم واجهتهم أحداث أخرى مؤلمة على عهد عمر وعثمان وعلي، ولم يكن الشعر الإسلامي غائباً عن هذه الأحداث، فقد واكبها وازدهر أثناءها، ومن الواضح أنّ الميول الحزبية والسياسية قد فرضت نفسها على هذا الشعر بدرجة كبيرة في هذا العصر، في مختلف الأغراض، وكان للشواعر حضور في ساحة الصّراع السياسي فسايرن أحداثه، وأدلين بدلائهن، وإن كنّ ربطن ذلك في الغالب، بالرثاء. ومن الشواعر اللائي تأثرن بوفاة الرسول ﷺ أشد التأثر، وتألّمن لما آل إليه المسلمون

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص: 395. والمصلتُ: الماضي في الأمور.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص: 142.

من بعده، هند بنت أثاثة التي تقول:

قَـدْ كَـانَ بَـعْـدَكَ أنْـبـاءٌ وهـنْـبَـثَـةٌ   لوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُر الخُطَبُ[*]

إنَّـا فـقَـدْنَـاكَ فَـقْـدَ الأرْضِ وَابِـلـهـا   فاختلّ قَوْمُكَ، فاشْهَدْهُمْ ولا تَغِبُ

قَـدْ كُـنْـتَ بَـدْراً ونُـوراً يُـسـتـضـاءُ بـهِ   عـلـيـكَ تَـنْـزِلُ مِـنْ ذي الـعِـزَّةِ الكُـتُـبُ

وكَـانَ جِـبْـريـلُ بِـالآيـاتِ يَـحْـضُـرُنـا   فغَابَ عنَّا وكلُّ الغيْبِ مُحْتجبُ[1]

وأنشدت مقطعة أخرى تصف فيها معاناتها بعد وفاة رسول الله ﷺ مُتَمنّية لو أنه لا يزال على قيد الحياة حتى يسعد المسلمون بوجوده بينهم، شاكيَةً أمرها إلى رب البرية عالم الغيب فقالت:

ولـوْ عِـشْـنـا، ونَـحـنُ نـراكَ فـيـنَـا   وأمْـرُ الـلـهِ يَـتْـرُكُ، مـا بَـكـيـتُ

وقـدْ عـظُـمَـتْ مُـصـيـبـتُـهُ، وجـلّـتْ   وكـلُّ الـجَـهْـدِ بـعْـدَكَ قـد لـقِـيـتُ

إلـى ربِّ الـبـريَّـةِ ذاك نَـشْـكـو   فـإنَّ الـلـهَ يـعْـلَـمُ مـا أتـيْـتُ[2]

ولم تكن هند بنت أثاثة وحدها التي بكت رسول الله ﷺ، بل هناك أخريات رثينه ذكرتُهنّ أثناء حديثي عن غرض الرثاء، ولكنني ذكرت هنا فقط الرثاء الأكثر التصاقاً بالصراع السياسي.

ولما قُتل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بطعنة آثمة غادرة من قبل أبي لؤلؤة المجوسي، رثاه المسلمون، ومن ذلك رثاء زوجته عاتكة بنت زيد التي تقول فيه:

(*) وردت الأبيات سابقاً، ص 79، منسوبة إلى صفية بنت عبد المطلب، ووردت عبارة: يكثُرِ الخَطْبُ، بدلاً من تكثُرِ الخُطَبُ. كما نسبت الأبيات نفسها ص 82 إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ.

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ج4، ص: 61، تحقيق عبد السلام هارون. وابن سعد: طبقاته، ج2، ص: 332. والشعر ينسب لغيرها، انظر ابن منظور: لسان العرب. مادة: هنبث، وفيه أن الشعر لفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. شرح نهج البلاغة، ج5، ص: 43. وفيه أن الشعر لأم مسطح بن أثاثة. ونسبها المسعودي في مروج الذهب، ج2، ص: 311. لصفية بنت عبد المطلب.

(2) ابن سعد: م. ن.، ج2، ص: 331.

وفَـجَّـعَـنِـي فَـيْـرُوزُ لا دَرَّ دَرُّهُ   بـأبْـيَـضَ تـالٍ لـلـكـتـاب مُـنِـيـبِ[1]

لقد فجعها فيروز الفارسي المجوسي أبو لؤلؤة في زوجها عمر بن الخطاب أمير المؤمنين المسلم التقي التالي للقرآن الكريم. ورثته بعدة مراث ذكرتها عند حديثي عن فن الرثاء، ولكنني أوردت هذا البيت هنا لأنه أكثر التصاقاً بالصراع السياسي.

وعندما قتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، سنة خمس وثلاثين للهجرة، بأيادٍ مسلمة أثناء الفتنة، رثاه كثير من الشعراء الذين كانوا يتوعدون القتلة، ويستصرخون المسلمين لأخذ ثأر عثمان، واستغل الأمويون مقتله واتخذوه ذريعة للتمرّد على مبايعة علي بن أبي طالب بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وقد شاركت الشاعرة المسلمة نائلة بنت الفرافصة زوج عُثمان في هذه الفتنة، وكانت له مُحِبَّةً وعليه حدبة، حتى أنهُ لما قُتِلَ اتَّقتْ سيف ضاربه بيدها، فقطع أصبُعين من أصابعها، وبعد دفنه قالت وهي باكية:

ألا إنّ خـيْـرَ الـنَـاسِ بَـعـدَ ثـلاثَـةٍ   قَـتِـيلُ التُّـجيبِي الـذي جَـاءَ مِنْ مِـصْـرِ
ومَـا لِـيَ لا أبْـكِـي وتَـبْـكـي قَـرَابَـتِـي   وقَدْ غُيِّبَتْ عنَّا فُضولُ أبي عمرِو[2]

وفي اليوم التالي قصدت مسجد رسول الله ﷺ، ومعها نسوة من قومها، تخطبُ في جموع المسلمين قائلة: «عثمان ذو النورين قُتل مظلوماً بينهم... إلخ». وهي خطبة طويلة، ولولا ضيق المجال هُنا لذكرناها كاملة، ولما انتهت أقبلت بوجهها على قبر النبي ﷺ وقالت: اللهم أشهد:

أيَـا قـبْـرَ الـنَّـبـيِّ وصـاحـبَـيْـهِ   عَـذِيـري إنْ شَـكَـوْتُ ضـيَـاعَ ثَـوْبـي
فـإنّـي لا سَـبِـيـلَ فَـتَـنْـفَـعُـونـي   ولا أيْـدِيَـكُـمْ فـي مَـنْـعِ حَـوْبـي[3]

---

(1) الحصري القيرواني: زهر الآداب، ج1، ص: 37. وعبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، ج4، ص: 351.

(2) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص: 413. والأصبهاني: الأغاني، مج16، ص: 251.

(3) طيفور: بلاغات النساء، ص: 98. وعذيري: نصيري. وضياع ثوبي: كناية عن فقدها زوجها لأنه ستر كالثوب، والحوب: الحزن والوحشة.

ثم انصرفت باكية مسترجعة، وتفرق الناس مع انصرافها[1].

وكتبت إلى معاوية ـ وهو في الشام ـ تصف له مقتل عثمان، وأرسلت إليه قميصه مضرّجاً بالدمّ ممزقاً، وبعض أصابعها المقطوعة[2].

وهكذا شاركت نائلة الشاعرة مشاركة فعالة في الصراع السياسي، وقد عايشت عن كثب محنة زوجها عثمان ومقتله. غير أن شعرها، في مجمله، ركيك الأسلوب، ويبدو أنه ممّا يكتب لمراعاة قائلته ومكانتها التاريخية المرموقة، لا لعلوّ مكانته الفنية ولكنّه صادق العاطفة ينبض بحرارة عاطفة الشاعرة المتألمة لفقدان زوجها الذي قتل بين يديها.

أما عائشة أم المؤمنين حين سمعت بمقتل عثمان وتولي علي الخلافة، غضبت غضباً شديداً، وكانت في طريقها إلى المدينة فرجعت إلى مكة، وعمدت إلى الحجر فاتخذت منه سِتراً، فجعل الناس يجتمعون إليها فتحدثهم من وراء الستر، تُنكرُ قتل عثمان، وانضمّ إليها طلحة والزبير والأمويون في المطالبة بدم عثمان، بعد أن كانت عائشة تحرّضُ على قتله، وتقول: اقتلوا نعثلاً فإنه قد كفر. ولذلك انتقدها الشاعر ابن أم كلاب، فقال لها:

فَمِنْكِ البِداءُ ومِنْكِ الغِيَرْ ومِنْكِ الرِّياحُ ومِنْكِ المَطَرْ
وأنْتِ أمَرْتِ بِقَتْلِ الإمَامِ وقُلْتِ لنَا إنَّهُ قَدْ كَفَرْ[3]

وهجاها ابن الأحنف، ولما بلغها هجاؤهُ، قالت: لقد استفرغ حُلم ابن الاحنف هجاؤه إيايّ، ثم أنشأت تقول:[4]

بُنَيّ اتَّعِظْ إنّ المواعِظَ شَهْدَةٌ ويُوشِكُ أنْ تَبْكِي عُيُونُكَ مَيْلَهَا

---

(1) طيفور: م. ن.، ص: 98، وانظر 96 وما بعدها.

(2) الزركلي: الأعلام، مج7، ص: 343. وانظر نصّ الكتاب من نائلة إلى معاوية في الأغاني، مج16، ص: 251 وما بعدها. وقد فصّلت الحديث عنها عند حديثي عن فن الرثاء في هذا الفصل.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج3، ص: 12.

(4) الطبري: م. ن.، والصفحة نفسها، وانظر بقية الأبيات هناك.

ولا تَسْتَهِنْ بالله حَقَّ أمُومَتِي فَإنَّكَ أوْلَى النَّاسِ ألاَّ يَقُولَهَا

ولا يَطْعَنَنِّي بالخَنَا مَن لَهُ حِجًى وفِي أمّةٍ قَدْ كَان بَعْلِي رَسُولَها[1]

والتقى الجمعان على تعبئة يوم الجمل، وأرسل علي إلى خصومه مصحفاً يدعوهم إلى ما فيه، ولكنهم ضربوا الرسول فقطعوا يده اليمنى، فأخذ المصحف بيده اليسرى ـ فدعاهم، فقطعوا يده اليسرى، فأخذه بصدره والدماء تسيل على قمائه، فضربوه حتى قتلوه، فقال علي: الآن حلّ قتالهم[2]، فقالت أم الفتى تبكيه وتُحمِّلُ الخصوم مسؤولية سفك دماء المسلمين:

يَا رَبِّ إنَّ مُسْلِماً أتَاهُمُ بِمُصْحَفٍ أرْسَلَهُ مَوْلاهُمُ

لِلْعَدْلِ والإيمانِ قَدْ دَعَاهُمُ يَتْلُو كِتَابَ اللهِ لا يَخْشَاهُمُ

فَخَضَّبُوا مِن دَمِهِ ظُبَاهُمُ وأمُّهُمْ وَاقِفَةٌ تَرَاهُمُ

تأمرهم بالغيِّ، لا تَنْهاهم[3]

ونشبت الحرب بين الفريقين، ولم يقتتلوا إلا ضحوة وانهزم أصحاب طلحة، وجُرح هو، وظل يُحرِّضُ أصحابه وهو جريحٌ، وعرف أنه ميتٌ فنُقل إلى البصرة ومات فيها بعد ساعة، ثم جعلت عائشة أم المؤمنين تحرض القوم وتلعن قتلة عثمان والناس يلعنون قتلة عثمان معها، فسمع علي فقال: يلعنون قتلة عثمان وهم قتلوه، اللهم العن قتلة عثمان، ثم وضع البصريون عائشة في هودج على جمل والتفُّوا حولها يحاربون ببسالة لحماية أمهم عائشة، فأمر علي بعقر الجمل وسلمت عائشة، وحزن علي على القتلى من أصحابه ومن خصمه ودفنهم جميعاً في قبر واحد، ومكث مدة في البصرة إلى أن استتبّ الأمر، زار خلالها عائشة التي كانت تقيم في دار عبد الله بن خلف الذي قتل هو وابنه في المعركة، ثم رحل إلى الكوفة بعد أن ردّ عائشة إلى المدينة لتقرَّ في بيتها كما أمرها الله،

---

(1) العسكري: الأوائل، ج1، ص: 206.

(2) الطبري: م. ن.، مج3، ص: 42. والقباء: ثوب يلبس فوق الثياب. جمع أقبية.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج3، ص: 175. وعبد الحميد: م. ن.، مج9، ص: 112. وانظر أيضاً الطبري: م. ن.، مج3، ص: 42. وظباهم: الظبة، حد السيف والسنان ونحوهما.

ليستعد لحرب أهل الشام بعد أن صرفته عن حربهم فتنة هؤلاء الذين كان يسميهم الناكثين، لأنهم نقضوا البيعة، وكان من بين القتلى يوم الجمل مع عائشة عبد الله ابن حكيم بن حزام بن زينب بنت العوام التي رثته بهذه الأبيات وهجت فيها عليًّا وأصحابه، واتهمتهم بقتل حواري النبي ﷺ وصهره وصاحبه عثمان بن عفان وبشرتهم بجهنم يوم القيامة، وادعت أن الدِّين أدبر بعد مقتل عثمان، ثم تساءلت عن مصير الصلاة والصوم بعده، فقالت:

أعَيْنَيَّ جُودا بالدُّمُوعِ فَأفْرِغَا ... عَلَى رَجُلٍ طَلْقِ اليَدَيْنِ كريمِ

زُبَيْرًا وعَبْدَ اللهِ نَدْعُو لحَارِثٍ ... وذِي خَلَّةٍ مِنَّا وحَمْلِ يَتِيمِ

قَتَلْتُمْ حَوَارِيَّ النَّبِيِّ وصِهْرَهُ ... وصَاحِبَهُ فاسْتَبْشِرُوا بِجَحِيمِ

وقَدْ هَدَّنِي قَتلُ ابْنِ عَفَّانَ قَبْلَهُ ... وجَادَتْ عَلَيْهِ عَبْرَتي بِسُجومِ

وأيْقَنْتُ أنّ الدِّينَ أصْبَح مُدبِرًا ... فَكَيْفَ نُصلّي بَعدهُ ونَصُومُ

وكيف بِنا أمْ كَيْفَ بالدِّينِ بَعْدَمَا ... أصِيبَ ابْنُ أرْوَى وابنُ أمّ حَكيمِ[1]

وكانت حبلة بنت منصور وأخوها الأجلح من أنصار معاوية بن أبي سفيان ومؤيديه، ولما قُتل في موقعة صفين، رثته بهذه الأبيات التي تبدو فيها النزعة السياسية، تقول:

ألا فَابْكِي أخَا ثِقَةٍ ... فَقَدْ واللهِ أبكِينا

لِقَتْلِ الماجِدِ القَمْقَا ... مِ لا مِثْلَ لَهُ فِينا

أتَانَا اليَومَ مَقْتلُهُ ... فَقَدْ جُزّت نَواصِينا

كَريمٌ مَاجِدُ الجَدَّيْـ ... ـنِ يَشْفِي مِنْ أعَادينا

ومِمَّنْ قادَ جَيْشَهُمُ ... عَليُّ والمُضِلُّونا

شَفَانا اللهُ مِنْ أهْلِ الـ ... ـعِرَاقِ فَقَدْ أبَادُونا

أمَا يَخْشَوْنَ ربّهُمُ ... ولَمْ يَرْعَوا لَهُ دِينا[2]

---

(1) المصعب الزبيري: نسب قريش، ص: 232.

(2) نصر بن مزاحم المنقري: وقعة صفين، ص: 178.

إن الشاعرة في هذه المرثية تبكي أخاها الأجلح، وتصفه بالكرم والشجاعة والشرف على عادة الجاهلين، وتهجو أصحاب علي رضي الله عنهم وتتهمهم بالضلال وعدم الخشية من الله.

ولما بلغت هذه المرثية عليًّا، كرم الله وجهه، قال: « أما إنهنّ ليس بملكهنّ ما رأيتم من الجزع، أما إنهم قد أضروا بنسائهم فتركوهنَّ أيامى، خزايا، بائسات، من قبل ابن آكلة الأكباد، اللهم حمّله آثامهم وأوزارهم مع أثقالهم»[1].

أما الشواعر اللائي ناصرن عليّا فكثيرات، نذكر منهن: شاعرة من بنات أبي سفيان، قالت تدافع عن علي بن أبي طالب حين اتهمه الأمويون بقتل عثمان لكي يؤلبوا عليه المسلمين:

ظُلامَةُ عُثْمَانَ عِنْدَ الزُّبَيْرِ — وأوْتَرُ مِنْهُ لَنا طَلْحَهْ

هُما سَعّرَاهَا بِأجْذالِهَا — وكَانَا حَقِيقَيْنِ بِالفَضْحَهْ

فلما سمعها عليٌّ قال: قاتلها الله ما أعلمها بموضع ثأرها[2].

وهذه بكارة الهلالية الشيعية التي اتصفت بالشجاعة والإقدام والفصاحة والشعر والنشر والخطابة، كانت من أنصار علي بن أبي طالب في حرب صفين، فخطبت خُطبًا حماسية تحضُّ بها القوم على خوض غمار الحرب بدون خوف ولا وجل، وأنشدت أشعاراً في الغرض نفسه، تحرّض بها أنصار علي على قتال الأمويين، قالت لأخيها زيد:

يا زَيدُ دُونَكَ فاحْتَفِرْ مِنْ دَارِنَا — سَيْفًا حُسَاماً فِي التُّرابِ دَفِينَا

قدْ كنتُ أدّخرُهُ لِيَومِ كَرِيهَةٍ — فَاليَومَ أبْرَزَهُ الزَّمَانُ مَصُونَا[3]

---

(1) المنقري: م. ن.، ص: 179.

(2) البلاذري: أنساب الأشراف، ج5، ص: 105. طبعة باقر. والأجذال: حمع جذل: وهي أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع.

(3) العباس بن بكار الضبي: أخبار الوافدات من النساء على معاوية،ص: 72، وانظر طيفور: بلاغات النساء، ص: 53.

واعتقدت الشاعرة أن معاوية شقيّ لا يصلح للخلافة، وإن أراد ذلك، وأن محاولاته ستبوء بالفشل، قالت:

أتَرَى ابن هِنْدٍ للخِلافةِ مالكاً ... هَيْهَاتَ ذاكَ وإنْ أراد بعيدُ
منّتكَ نفسُكَ في الخلاَءِ ضَلالةً ... أغْراكَ عَمرو للشَّقا وسَعيدُ
ارْجِع بِأنْكَدِ طَائرٍ مَنْحُوسَةٍ ... لاقَتْ عَلِيًّا أسْعُدُ وسُعُودُ[1]

وشاء القدر ملك ابن هند الخلافة، وساد الظلم وانتفى الحق، وصار بنو أمية يسبون ويشتمون ويقذفون عليًّا وآل البيت من فوق المساجد أيام الجُمع، فانتقدت بكارة الهلالية هذه التصرفات التي لا تمتّ بأية صلة إلى الإسلام، فقالت:

قَدْ كُنتُ آمل أنْ أمُوتَ ولا أرى ... فَوقَ المنابرِ مِن أمَيَّة خَاطبا
فالله أخّر مُدتي فتَطاوَلَتْ ... حَتّى رأيتُ مِن الزَّمانِ عَجائِبا
في كُلِّ يَوْمٍ لا يَزالُ خَطيبُهُمْ ... وسْط الجُمُوع لآلِ أحْمدَ عَائِبا[2]

ولما أسنَّت وعشي بصرها، وضعفُت قوتها وفدت على معاوية وهو يومئذ بالمدينة، وكان معه مروان بن الحكم، وعمرو بن العاص، وسعيد بن العاص، فأخبروه بخبرها ورددوا عليه أشعارها السالفة الذكر، فلم تنكر، وهجتهم في حضرة الخليفة، وقالت له: يا معاوية، نبحتني كلابك بعد أن عشي بصري، وقصُرت حُجتي، أنا والله قائلة ما قالوا وما خفي عليك مني أكثر[3]. . وهكذا تكشف عن موقفها السياسي في جرأة وشجاعة وصراحة نادرة.

وكانت أم البراء بنت صفوان من أنصار علي بن أبي طالب أيضاً، آزرته في موقعة صفين، وحرضت عمرًا أو زيداً كما في رواية ابن عساكر على القتال لمؤازرة الإمام علي في حربه، والسير تحت لوائه وتمنت لو أنها لم تكن امرأة

---

(1) الضبي: م. ن.، ص: 72. وطيفور: م. ن.، ص: 53.

(2) الضبي: م. ن.، ص: 72، وطيفور: م. ن.، ص: 53.

(3) انظر الخبر بالتفصيل في ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص: 225 وما بعدها. والعقد الفريد، ج2، ص: 104 ـ 105.

لكانت بجانب الإمام تقاتل عساكر الكفرة، الفجرة، وقالت:

يـا عَـمْـرُو دُونَـكَ صـارِمـاً ذا رَوْنَـقٍ — عَـضْـبَ الـمـهـزَّةِ لَـيْـسَ بِـالـخـوّارِ
أَسْـرِج جَـوَادَكَ مُـسْـرِعـاً ومُـشَـمِّـرا — لِـلْـحَـرْبِ غَـيْـرِ مُـعَـرِّدٍ لِـفِـرارِ
أجِـبِ الإمـامَ وذُبّ تـحـتَ لِـوَائِـهِ — وافـرِ الـعَـدوّ بِـصَـارم بِـتّـار
يـا لَـيْـتَـنِـي أصْـبَـحْـتُ لَـيْـسَ بِـعَـوْرَةٍ — فـأذُبُّ عَـنْـهُ عَـسَـاكِـرَ الـفُـجّـار[1]

وقالت تبكيه، حين قُتل:

الـشَّـمْـسُ كَـاسِـفَـةٌ لِـفُـقْـدَانِ إمـامِـنـا — خَـيْـرُ الـخـلائـقِ والإمـامِ الـعـادلِ
يـا خَـيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ الـمطيَّ ومَـنْ مَـشَـى — فَـوْقَ الـتُّـرَابِ لِـمُـحْـتَـفٍ أوْ نَـاعِـلِ
حـاشَـا الـنَّـبِـيَّ لَـقَـدْ هَـدَدْتَ قِـواءنَـا — فـالحقُّ أصْـبَـحَ خَـاضِـعـاً لـلـبَـاطِـلِ[2]

ومن الشواعر اللائي وقفن بجانب علي في موقعة صفين كذلك أم سنان بنت خيثمة، تحرض آل مُدحج على أعداء علي وتطلب منهم أن يؤازروه، وأن يقاتلوا تحت لوائه، وأن يقتبسوا من نوره لأنه خير الأنام وابن عم رسول الله ﷺ، قالت:

عـزَبَ الـرُّقـادُ فَـمُـقْـلَـتِـي لا تَـرْقُـدُ — والـلّـيـلُ يُـصْـدِرُ بـالـهُـمـوم ويُـورِدُ
يـا آل مُـدْحِـجَ لا مُـقـامَ فـشَـمّـروا — إنَّ الـعَـدُوّ لآل أحْـمَـدَ يَـقْـصِـدُ
هـذا عـلـيٌّ كـالـهِـلال تـحُـفُّـهُ — وسْـطَ الـسَّـمَـاءِ مِـنَ الـكَـوَاكِـبِ أسْـعُـدُ
خـيـرُ الـخـلائِـقِ وابْـنُ عَـمِّ مُـحَـمَّـدٍ — إنْ يَـهْـدِكُـمْ بـالـنّـور مـنـه تـهـتـدوا
مـا زال مُـذْ شـهِـدَ الـحُـروب مُـظَـفَّـراً — والـنّـصـرُ فَـوْقَ لِـوائـهِ مـا يُـفْـقَـدُ[3]

ولما قتل بكته بمرثية أشادت فيها بمناقبه، وذكرت كما تعتقد الشيعة أن الإمام عليًا موصى له بالخلافة من قبل رسول الله ﷺ، ولا أحد يصلح للخلافة بعده، قالت:

---

(1) طيفور: بلاغات النساء، ص: 110. والضبي: الوافدات على معاوية، ص: 44. وعضب المهزة: قاطع الحركة. والخوار: الضعيف. ومعرّد: من عرّد: هرب.

(2) طيفور: م. ن.، ص: 111، وانظر بقية الأبيات والتعليق عليها في هذا الفصل.

(3) العباسي الضبي: أخبار الوافدات على معاوية، ص: 23 ـ 24. وطيفور: بلاغات النساء، ص: 92.

إمَّا هَلكتَ أبا الحُسينِ فَلَمْ تَزَلْ ... بـالـحقِّ تُـعرفُ هـاديـاً مَـهْـدِيَّـا
قَدْ كُنتَ بعْدَ محمدٍ خَلفاً كمَا ... أوْصى إلـيْكَ بِـنَـا فكُـنتَ وفِـيَّـا
فـالـيومَ لا خلفٌ يُؤمَّلُ بَعْدَهُ ... هَـيْـهـاتَ نَـأمـل بـعـدَهُ إنْـسِـيَّـا[1]

وهذه سودة بنت عمارة الهمدانية الشيعية تقفُ هي الأخرى بجانب علي في صفين، وتحرض أخاها على نصرته، قائلة:

شَمِّرْ كَفِعلِ أبِيكَ يا ابْنَ عُمارة ... يَـومَ الـطّـعـانِ ومُـلـتـقَى الأقْـرانِ
وانصُر عليًّا والحسَينَ ورَهْطهُ ... واقْـصِـدْ لِـهِـنـدٍ وابْـنِـهـا بِـهَـوانِ
إنّ الإمَام أخا النّبيّ مُحمّدٍ ... عَلمُ الهُدى ومنارةُ الإيمانِ[2]
فقُدِ الجيوشَ وسرْ أمام لِوائِهِ ... قُـدُمًـا بِـأبْـيَـضَ صـارِمٍ وسِـنَـانِ

وعلى نفس النهج سارت الشاعرة أم الهيثم بنت الأسود الخثعمية، في رثائها للإمام علي حين قتل، فقد اعتبرته أفضل المسلمين جميعاً ديناً وعلماً. وتبدو الشاعرة في هذه المقطوعة، وكأنها من غلاة الشيعة الذين لا يعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم، ويرون أنهم أخذوا الخلافة عنوة من علي الذي أوصى له النبيﷺ بالخلافة بعده، تقول:

رُزِئْنَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايَا ... وخَيّسَها[3]، ومن رَكِبَ السَّفِينَا
ومَنْ لَبِسَ النّعالَ ومَنْ حَذاهَا ... ومـنْ قَـرَأ الـمـثَـانِـي والـمـئِـيـنَـا
وكُـنّـا قَـبْـلَ مَـقْـتَـلِـهِ بِـخَـيْـرٍ ... نَـرَى مَـوْلـى رَسُـولِ الـلـهِ فـيـنَـا
يُـقـيـمُ الـدّيـنَ لا نَـرتـابُ فِـيـهِ ... ويَـقْـضي بـالـفـرائِـضِ مُـستَـبـيـنَـا
ويَـدْعـو لِـلـجـمَـاعَـةِ مَـنْ عَـصـاهُ ... ويَـنْـهَـكُ قَـطْـعَ أيْـدي الـسّـارقِـيـنَـا
ولَـيْـسَ بِـكـاتِـمٍ عِـلْـمـاً لَـديْـهِ ... ولَـمْ يُـخْـلَـقْ مِـنَ الـمـتَـجـبِّـرِيـنَـا
لَعَمْرُ أبي لَقَدْ، أصْحابُ مِضرٍ ... عَلى طَوْدِ الصّحابَةِ، أوْجَعُونَا
وغَـرُّونَـا بِـأنّـهُـمْ عُـكُـوفٌ ... ولَـيْـس كَـذاكَ فِـعْـلُ الـعَـاكِـفِـيـنَـا

---

(1) العباس الضبي: م. ن.، ص: 24، وابن عبد ربه: طبائع النساء، ص: 22.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ص: 102. وطبائع النساء، ص: 222.

(3) خيّسها: ذلّلها.

أَفِي شهْرِ الصَيامِ فَجَعْتُمونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طرًّا أجْمَعِينَا[1]

أما ضبيعة بنت خزيمة، المعروف بذي الشهادتين، فقد كان أبوها من أنصار الإمام علي، ولما قُتل بكته بهذه الأبيات التي تتضمن تفجع الشاعرة الشيعية على مقتل أبيها الذي قُتل ظلماً لأنه كان من أنصار أهل الحق، أما قاتلوه فكانوا من الفئة الباغية الذين سينتقم الله منهم، وقد مزجت الشاعرة الرثاء بالهجاء السياسي على هذا النحو، فقالت:

قَتلُوا ذَا الشَهَادَتَينِ عُتُوًّا أدْرَكَ اللهُ مِنْهُم بالتِّراتِ

قَتلُوهُ في فِتْيَةٍ غَيْرِ عُزْلٍ يُسرِعُونَ الرُّكوبَ في الدَّعَواتِ

نَصَرُوا السَّيِّدَ المَوَفَّقَ ذا العَدْ لِ ودَانُوا بِذاكَ حتى المماتِ

لَعنَ اللهُ مَعْشراً قَتَلُوهُ ورَمَاهُمْ بالخِزْيِ والآفاتِ[2]

ولا نقصد ها هنا استقصاء شعر النساء السياسي في هذا العصر، وهو كثير، وقد أشرنا إلى بعضه أثناء حديثنا عن الأغراض الأخرى، فيما سبق من حديث، وإنما أوردنا هذه الشواهد الشعرية للتدليل على مشاركتهن السياسية الصريحة، فكان منهنّ المناصرات للإسلام والمسلمين، ومنهن من وقفن في وجهه يهجون المسلمين ويناصرن المشركين، كما شاركن في الصراع السياسي الذي دار بين المسلمين أنفسهم، فكان منهن المتشيعات لعلي بن أبي طالب، ومنهن من ناصرن معاوية بن أبي سفيان، وكان لحزب الخوارج عدد من الشاعرات اللائي تحملن المسؤولية في الدفاع عن نظريته.

ل ـ أغراض أخرى:

ويشتمل شعر النساء في هذا العصر على أغراض أخرى ـ غير الموضوعات الشعرية الأساسية التي سبق الحديث عنها ـ كالحكمة والهجاء، والعتاب، وغيرها.

---

(1) الأصبهاني: مقاتل الطالبيين، ص: 43. وانظر بقية الأبيات في ص: 43 ـ 44 ـ 45.

(2) شرح نهج البلاغة، ج2، ص: 222، تحقيق أبو الفضل ابراهيم. وابن عثم: الفتوح، ج2، ص: 175 ـ 176.

فالحكمة من الأغراض الشعرية التي شاركت فيها المرأة في هذا العصر، علي ندرة وإيجاز، وقد جاءت الحكمة عندها في تضاعيف القصائد، ولم تفرد لها مقطوعات على نحو ما جاء في أبيات لهند بنت عتبة ترثي فيها قتيلاً من بني لؤي ابن غالب، وتبعث من خلالها برسالة عتاب إلى أبي سفيان، وقد استهلتها بالحكمة فقالت:

يُريبُ عَلَيْنا دَهْرُنا فَيَسُوءُنَا	ويَأبَى فَمَا نَأْتي بِشَيءٍ يُغالِبُهْ
أبعْدَ قَتيلٍ مِن لُؤيِّ بْنِ غَالِبٍ	يُراعُ امْرُؤٌ إنْ مَاتَ أوْ ماتَ صاحِبُهْ
فَأبْلِغْ أبا سُفيان عَنّي مَالكاً	فإن ألْقَهُ يَوماً فَسَوفَ أعَاتِبُهْ[1]

فهند بنت عتبة من شواعر هذا العصر اللائي قلن في أغراض مختلفة، وأكثر ما عُرف من شعرها مراثيها لقتلى بدر من مشركي قريش قبل أن تُسلِمَ، وشهدت أُحداً، ولما قتل حمزة بقرتْ بطنه، وأخذت كبده، فلاكتها فلم تستطع أن تبتلعها، فلفظتها، ثم قالت شامتة:

شَفَيْتُ مِنْ حَمْزةَ نَفْسي بِأحُدْ	حَتّى بَقَرْتُ بَطْنَهُ عَنْ الكَبِدْ
أذْهَبَ عَنّي ذاكَ ما كُنْتُ أجِدْ	مِنْ لَذعَةِ الحزْنِ الشديدِ المعْتَمَدْ
والحرْبُ تَعْلوكُمْ بِشُؤْبُوبٍ بَرِدْ	تُقدِمُ إقْداماً عَلَيْكُم كَالأسدْ[2]

وبعد أن فعلت ما فعلت بحمزة، وبالرغم من ذلك كله ظل الحقد يعصر قلبها، وظلت حزينة، قالت حين انصرافها عن أحد:

رَجَعْتُ وفِي نَفْسِي بَلابِلُ جَمَّة	وقَدْ فَاتنِي بَعْضُ الذِي كانَ مَطلَبِي
مِنْ أصْحَابِ بَدْرٍ مِنْ قُريشٍ وغَيْرِهِمْ	بَني هاشِمٍ مِنْهُمْ ومِنْ أهْلِ يَثْرِبِ
ولَكِنَّنِي قَدْ نِلتُ شَيْئاً ولَمْ يَكُنْ	كمَا كُنْتُ أرْجو في مَسِيرِي ومَرْكَبِي[3]

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 39. والمألك: جمع مألكة، وهي الرسالة التي تبلغ باللسان.

(2) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 29. واللذعة: ألم النار أو ما يشبهها. والمعتمد: القاصد المؤلم. والشؤبوب: دفعة المطر الشديدة.

(3) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 168، وبلابل: أحزان.

وبالرغم من كل ما جرى، فإن هنداً لما علمت بعزم زينب بنت الرسول الذهاب إلى المدينة، جاءتها وعرضت عليها مساعدتها كابنة عم تحفظ عهد القرابة، وأظهرت لها كل مروءة. ولما علمت أن قريشاً تعرضت لها لمنعها عن الهجرة أنشدت هند تؤنبهم على عملهم الفظيع، وتهجوهم قائلة:

أفِي السِّلْمِ أعْيَارٌ جفاءٌ وغِلْظَةً ... وفِي الحرْبِ أشْباهُ النّساءِ العَوارِكِ[1]

ومن الموضوعات الشعرية التي نلتقي بها أحياناً في شعر النساء، الشعور بمرارة الغربة والاغتراب والحزن لفراق الأهل والوطن، ولا سيما عندما تضطر المرأة للزواج خارج بلدها الذي نشأت وترعرعت فيه، فمن ذلك ما نجده عند نائلة بنت الفرافصة حين خطبها عثمان بن عفان بوساطة سعيد بن العاص الذي كان قد تزوج أختها من قبل، وكان أبوها نصرانيًا لم يدخل الإسلام، ولكنه كان شهماً، فأمر ابنه ضبًا أن يزُوج أخته نائلة عثمان، فقام ضبٌّ بالأمر، فلما حان وقت رحيلها إلى زوجها في المدينة، وركبت هودجها، شعرت بمرارة الفراق، وكرهت الغربة، وحزنت لفراق أهلها وبلدها، فأنشأت تقول لأخيها:

ألسْتَ تَرَى يا ضَبُّ باللهِ أنّنِي ... مُصَاحِبَةٌ نَحْوَ المدينةِ أرْكُبَا

إذا قَطَعُوا حَزْناً تَخُبُّ رِكابُهُمْ ... كَمَا زَعْزَعَتْ رِيحٌ يَراعاً مُثَقَّبا

لَقَدْ كَانَ في أبْناءِ حِصْنِ بْنِ ضَمْضَمٍ ... لَكَ الوَيْلُ ما يُغْنِي الخِبَاءُ المُطَنَّبَا[2]

وأقامت مع زوجها في المدينة، وحظيت عنده، وكانت له محبة وعليه حدبة.

وشاركت المرأة - في هذا العصر - في بعض التجارب الشعرية التي كانت خاصة بالرجال، كالتجربة الخمرية والغزلية الماجنة، على نحو ما نجده في شعر فريعة بنت همام الذلفاء، فقد جمعت التجربتين في مقطوعة واحدة، تقول:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إلَى خَمْرٍ فَأشْرَبَهَا ... أمْ هَلْ سَبِيلٌ إلى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

---

(1) ابن هشام: م. ن.، ج2، ص: 656. والأعيار: جمع عير وهو الحمار. والنساء العوارك: الحِيض، يقال: عركت المرأة: أي حاضت.

(2) الأصبهاني: الأغاني، مج16، ص: 249.

إِلى فَتًى مَاجِدَ الأَعْراقِ مُقْتَبِلٍ ... تُضِيءُ غُرَّتُهُ فِي الحالِكِ الدَّاجِي
نِعمَ الفَتى في ظَلامِ اللَّيْلِ نُصْرتُهُ ... لِبائِسٍ أوْ لمسكِينٍ ومُحْتاجِ[1]

وذات ليلة بينما كان عمر بن الخطاب يطوف في المدينة، سمعها تهتف بهذه الأبيات، فلما أصبح استحضر عشيقها نصر بن حجاج، ونفاه إلى البصرة، وخشيت فريعة أن يبدُر إليها عمر بشيء، فكتبت إليه تستعطفه بهذه الأبيات:

قُلْ لِلإمامِ الذِي تُخشَى بَوادِرُهُ ... مَا لي ولِلخمْرِ أو نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ
إنّي عَنِيتُ أبَا حَفصٍ بِغَيْرِهِمَا ... شُربَ الحليبِ وطَرْفٍ غَيْرِهِ سَاجِي
إنّ الهَوَى ذِمّةُ التّقْوَى، فَقَيَّدَهُ ... حَتّى أقِرَ بِإلجامٍ وإسْرَاجِ[2]
لا تجْعَل الظَّنّ حَقاً، أوْ تَبَيَّنَهُ ... إنَّ السّبِيلَ سَبِيلُ الخائِفِ الرَّاجِي

وكان عمر قد سأل عنها، فوصفت بالعفاف، فبعث إليها: قد بلغني عنك خيرٌ فقرَّي..

أما فن ترقيص الأطفال فلم يكن له حظ من الرواج لدى شواعر هذا العصر، ولم نعثر لهنّ إلا على بعض المقطوعات، من ذلك أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهي تُرقص ولدها عبد الله بن الزبير، وقد وصفته بالشجاعة متمنية له التوفيق:

أبْيَضُ كَالسَّيفِ الحُسَامِ الإبْرِيقْ ... بَينَ الحَوَارِيّ وبَينَ الصِّدّيقْ[3]
ظَنّي بِهِ، ورُبّ ظَنٍّ تَحْقِيقْ ... واللهُ أهْلُ الفَضْلِ أهْلُ التَّوْفِيقْ

وقالت أم فروة ترقص ابنتها فذكرت أنها تفديها بنفسها ومالها، ولا تبخل عليها في وقت الشدائد والأزمات:

فَدَتْكِ أمُّ فَرْوَهْ[4] ... بِنَفْسِها والثَّرْوَهْ

---

(1) علي بن الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج1، ص: 130. وانظر الخبر بالتفصيل وبقية الأبيات في: تزيين الأسواق، ج2، ص: 29 . ومجمع الأمثال، الترجمة رقم: 1449 و 2187.

(2) السراج: مصارع العشاق، ج2، ص: 266 ـ 267.

(3) كحّالة: أعلام النساء، ج1، ص: 49. والإبريق: القاطع، الكثير اللمعان. الحواري: كل شيء مبالغ بنصره شخص آخر.

(4) أم فروة: هناك ثلاث صحابيات تسمين بهذا الإسم، إحداهن: أخت أبي بكر الصديق، والثانية: =

مِـــنْ كُـــلّ ذَاتِ نَـــدْوَهْ صُـبَّـتْ عَـلَـيْـهَـا شَبْـوَهْ
شَـــائِـلَـــةٌ مِـــنْ رَبْـــوهْ عَـــشِـــيَّـــةً أوْ غُـــدْوَهْ
وَيْـــحَـــكِ أمّ عُـــرْوَهْ إنْ كُـــنْـــتِ ذَاتَ نَـــبْـــوَهْ
فَـــزَلْـــتِ ذَاتَ هَـــبْـــوَهْ[1]

وأرقصت هند بنت سفيان ابنها عبد الله بن نوفل[2] معبرة عن حبها له، وأقسمت أن تزوجه بجارية ضخمة مكّرمة تحبّه: قالت:

والـــلـــهِ رَبِّ الـــكَـــعْـــبَـــةْ لأنْـــكَـــحَـــنّ بَـــبّـــهْ
جَـــارِيَـــةً خِـــدَبّـــهْ مُـــكْـــرِمَـــةً مُـــحِـــبّـــهْ
تَـــمْـــشُـــطُ رَأسَ لُـــعَـــبَـــهْ يُـــدخِـــلُ فـــيـــهـــا . . .[3]

ويبدو أن هندًا هذه كانت ماجنة، إذ يلاحظ غلبة روح الإباحية والمجون على شعرها، فقد تجرأت على ذكر السوءات وبالألفاظ البذيئة التي يخجل الرجل من روايتها، كما هو الحال في الأبيات السالفة الذكر، وكذلك في هجائها لأبيها تقول:

مَـنْ يَـشْـتَـرِي شَـيْـخـاً خَـبَّـا أخَـبُّ مِـنْ ضِـبّ يُـداجِـي ضِـبَّـا
كَـأنَّ خِـصْـيَـتَـيْـهِ إذَا أكَـبَّـا فَـرُّوجَـتَـانِ تَـلْـقُـطَـانِ حَـبَّـا[4]

وهذه هند بنت عتبة تُرقصُ ولدها، وتقول:

= أم فروة الأنصارية عمة القاسم بن غنام، والثالثة: ظئر النبي ﷺ، ولم نجزم بعزو هذه المقطوعة إلى واحدة منهن لعدم وجود ما يدل على ذلك (انظر الإصابة، ج4، ص: 462 ـ 463).

(1) البصري: الحماسة البصرية، ج2، ص: 402. وندوة: المطر، وشبوة: من الشبا، وهي الريح. وشائلة: متحركة من مكان مرتفع. وهبوة: مكان هابي التراب، مرتفعة.

(2) هو عبد اللّه بن الحارث بن نوفل القرشي الهاشمي، أمه هند بنت أبي سفيان أخت معاوية، ولد على عهد رسول الله ﷺ ويلقب ببّه، توفي نحو 84 هـ (المصعب الزبيري: نسب قريش، ص: 30 ـ 31. والزركلي: الأعلام، مج4، ص: 77).

(3) البصري: الحماسة البصرية، ج2، ص: 402 ـ 403. وحذفت الكلمة الأخيرة من البيت الأخير لأنها نابية وتفهم من السياق. وخِدبة: ضخمة والخدبُّ: الضخم من كلّ شيء.

(4) البصري: م. ن.، ج2، ص: 403.

إنّ بُـنَـيّ مُـغْـرِقٌ كَـرِيـمُ ... مُـحَـبّبٌ فـي أهْـلِـهِ حَـلِـيـمُ
لَـيْـسَ بِـفَـحّـاشٍ ولا لَـئِـيـم ... ولا بِـطِـخْـرورٍ ولا سَـئُـوم
صَـخْـرُ بَـنِـي فِـهْـرٍ بِـهِ زَعِـيـمُ ... لا يُـخْـلِـفُ الظَّنَّ ولا يَـخِـيـمُ[1]

لقد وصفته بالكرم والحلم والسماحة والشجاعة، وتنبأت له بالزعامة، وصدقت، فقد كان معاوية ملكاً قويًا جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا حليمًا داهية.

وأرقصت ضباعة بنت عامر، هي الأخرة ولدها سلمة، وقالت تفتخر بنسبه:

نَـمى بِـهِ إلَـى الـذُّرَى هِـشَـامُ ... قِـدْمـاً وأبَـاءٌ لَـهُ كِـرَامُ
جَـحَـاجِـحٌ خَـضَـارِمٌ عِـظَـامُ ... مِـنْ آلِ مَـخْـزُوم هُـمُ الـنِّـظَـامُ
والـرَّأسُ والـهَـامَـةُ والـسَّـنَـامُ[2]

أما موضوع الغيرة فشاركت فيه المرأة، فذكرت بعض الشواعر غيرة الزوج العربي على زوجته، فجعلته يغار من الحرقوص وهو دويبة كالبرغوت تجتمع جموعه تحت النساء، فتلج فروجهن وفي ذلك تقول شاعرة:

يَـغَـارُ مِـنَ الـحُـرْقُـوصِ إنْ عَـضَّ عَـضَّـةً ... بِـفَـخْـذِي مِـنْـهَـا مـا يَـجِـدُّ غَـيُـورُ
لـقَـدْ وَقَـعَ الـحُـرْقُـوصُ مِـنّـي مَـوقِـعاً ... أرَى لَـذَّةَ الـدّنـيـا إلَـيْـهِ تَـصِـيـرُ[3]

ولقد بلغ من اهتمام العرب به أن سموه عاشق الأبكار، لأنه كان يدخل فروج الأبكار بلا استئذان، وبلا مهر، وفي ذلك تقول أعرابية:

مـا لَـقِـيَ الـبِـيـضُ مِـنَ الـحُـرْقُـوصِ ... مِـنْ مَـارِدٍ لِـصٍّ مِـنَ الـلُّـصُـوصِ

---

(1) أبو القالي: الأمالي، ج2، ص: 116. والطخرور: الرجل لا يكون جلداً ولا كثيفاً، والطخرور: الغريب. ويخيم: يجبن، خام: جبن ونقص.

(2) المرزباني: أشعار النساء، ص: 108 ـ 109. وجحاجح: جمع جحجح، وهو السيد المسارع إلى المكارم. وخضارم: جمع خضرم، وهو السيد الكريم الجواد الكثير العطية الشبيه بالبحر. وضباعة بنت عامر: هي زوجة هشام بن المغيرة التي سبق الحديث عنها في هذا الفصل - انظر غرض الرثاء.

(3) النويري: نهاية الأرب، ج1، ص: 350.

يَـدْخُـلُ تـحْـتَ الـغَـلَـقِ الـمـرْصـوصِ   بِـمـهْـرٍ، لا غَـالٍ ولا رَخِـيـصِ[1]

أما غيرة المرأة فقال عنها رسول الله ﷺ: « كُتب الجهاد على الرجال والغيرة على النساء، فمن صبر منهن كان لها مثل أجر المجاهد[2]».

ويبدو أن الرجل أشد غيرة على المرأة من المرأة على الرجل، وربما كان الذي يبدو من المرأة عند تسرّي زوجها بالسراري، وتزويجه المهيرات، وحين تراه مع بعضهنّ. . . أن ذلك من الكراهة المشاركة فيه، وليس شكل ما تلقى المرأة إذا رأت على فراشها امرأة، من شكل ما يلقى الرجل إذا رأى على فراش امرأته رجلاً، لأن المرأة قد عاينت أنّ الرجل له أربع نسوة وألف جارية يطؤهنّ بملك اليمين، لما أحله الله في الشريعةُ.[3]

ومهما يكن من أمر، فإن ما يهمنا هو ما وصلنا من شعر النساء في هذا الباب. من ذلك ما رواه ابن عساكر عن هند بنت عتبة وزوجها أبي سفيان الذي سافر سفرًا أضرت به فيه الغربة، فاشترى جارية يتسرى بها، فبلغ ذلك هندًا فوجدت عليه واشتعلت نار الغيرة في قلبها، فكتبت إليه تؤنبه، وتصفه بقلة الوفاء، فقالت:

يا قَلِيلَ الوَفاءِ مَا كَانَ فِيمَا   كَـانَ مِـنَّـا إِلَـيْـكَ مـا تَـرْعَـانَـا

كَيْفَ يَبْقَى لَكَ الجدِيدُ مِنَ النَّا   سِ إذا كُنتَ تَطْرَحُ الخُلقَانَا[4]

فلمّا بلغه الشعر، وجّه إليها الجارية التي كان قد اشترى، لكي يمتصّ غضبها.

وقد يحدث أن يؤجج الزوج نار الغيرة في قلب زوجته فتفعل الزوجة الشيء

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص: 12.

(2) عبد الملك بن حبيب: أدب النساء، ص: 277.

(3) ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص: 70 ـ 71. والسراري: جمع سرية، وهي الأمة. والمُهيرات: جمع مهيرة، وهي الحرة، سميت كذلك لأن مهرها غال.

(4) ابن عساكر: م. ن.، ص: 446. والخُلقان: جمع الخلق البالي للمذكر والمؤنث.

نفسه، فتحرك الغيرة في قلبه. من ذلك ما روي عن هند[1] الهمذانية زوجة عثمان الهمذاني، أن زوجها كان في بعث أذربيجان، فرجع الجند ولم يرجع هو، لأنه استفاد من جهاده ذاك ما اشترى به فرساً وجارية، وسمى الفرس وردًا والجارية حبابة، وألهاه الحبُّ عن العودة، فكتب إلى امرأته يخبرها عن أمره، فالتهبت نار الغيرة في قلبها، وكتبت إليه:

لَعَمْرِي لَئِنْ شَطَّتْ بِعُثْمَانَ دَارُهُ ... وأضحى غَنيًّا بالحَبَابَةِ والوَرْدِ
ألا فاقْرِهِ مِنّي السَّلامَ وقُلْ لَهُ ... غَنِينَا بِفِتْيَانٍ غَطَارِفَةٍ مُرْدِ
إذا شَاءَ مِنهُمْ نَاشِئٌ مَدّ كَفَّهُ ... إلى كَفَلٍ رَيّانَ أو كَعْثَبٍ نَهْدِ
بِحَمْدِ أمِيرِ المؤمِنِينَ أقَرَّهُمْ ... شَبَاباً وأغْزَاكُمْ خَوَالِفَ فِي الجُنْدِ
فَمَا كُنْتُمْ تَقْضُونَ حَاجةَ أهْلِكُم ... قَرِيباً فَيَقْضُوهَا عَلَى النأي والبعدِ
فأرْسِلْ إلَينَا بالسَّرَاحِ فَإنَّهُ ... مُنَانَا ولا نَدْعُو لَكَ اللهَ بالرُّشْدِ
إذَا رَجَعَ الجُندُ الذِي أنْتَ مِنْهُمُ ... فَزَادَكَ رَبُّ النّاسِ بُعْداً عَلَى بُعْدِ[2]

لما وصلت هذه الأبيات إلى زوجها بهمذان تحركت نار الغيرة في قلبه، فباع الجارية، وذهب مسرعاً، يريد زوجته. وعندما وصل وجدها معتكفة على السجود والصلاة، فسألها: أفعلتِ ما قلتِ؟! قالت: الله أجلُّ في عيني وأعظم من أن أرتكب مأثماً، ولكن كيف وجدت طعم الغيرة؟! فإنك غظتني فغظتك.

وقد تشتعل نيران الغيرة بين الأم وزوجة الإبن. من ذلك ما جرى بين صفية بنت عبد المطلب وابنها الزبير بن العوام في أمر زوجه أسماء بنت أبي بكر، فسمعت الذي دار بينهما خديجة بنت الزبير، ونقلت الخبر إلى أمها أسماء، فضجت من شكوى صفية لها، فبلغ صفية ما كان منها، فغضبت واشتعلت نار الغيرة في قلبها. وقالت لابنها تؤنبه وتعاتبه: يكون بيني وبينك شيء فترفعه إلى

(1) لم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ ميلادها ووفاتها، ولكنني أرجح أنها عاشت في صدر الإسلام، لأن زوجها كان في بعث أذربيجان، وأذربيجان فتحت في عهد الخليفة عمر، ثم نقضوا العهد فغزاهم عثمان. (الحموي: معجم البلدان، مج1، ص: 128 ـ 129).

(2) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 155. (الخبر والشعر).

امرأتك وتؤثرها عليّ! فقال ـ وهو لا يعلم من نقل الحديث ـ: لا والله يا أماه ما فعلتُ، فازدادت غضباً، واندفعت تقول:

عَالجتُ أزْمَانَ الدّهُورِ عَلَيْكُمُ ... وأسْمَاءُ لَمْ تَشْعُرْ بِذَلِكَ أيّمُ
فَيَكْثُرُ إنْ عُوفِيتُمُ وسَلِمْتُمُ ... سُرُوري، وإني وَإنْ مَرِضْتُمْ لأرْزَمُ
وتُؤثِرُ أخْرَى لَمْ تَلِدْكَ على التِي ... لَهَا الحَقُّ يَنْثُوهُ فَصِيحٌ وأعجَمُ
فَلَوْ كان فِي الكُفارِ زَبْرٌ غَدَرْتُهُ ... ولَكِنْ زَبْراً، أيهَا النَّاسُ، مُسْلِمُ[1]

وكان الزبير بن العوام يتيمًا، وقد تربى في حجر نوفل بن خويلد وكانت صفية بنت عبد المطلب تضرب الزبير وهو صغير، وتغلِظُ عليه، فعاتبها نوفل في ذلك، وقال « أنتِ تُبغضينه!»، فقالت صفية:

من قَالَ لِي إنّي أبْغِضُهُ، فَقَدْ كَذَبْ ... وإنما أضْرِبُهُ لِكَيْ يَلَبْ
ويَهْزِمُ الجيْشَ ويَأتِي بالسّلَبْ ... ولا يَكُنْ لِمَالِهِ خَبءٌ مُخِبْ
يأكلُ ما في الطَّلِّ من تمرٍ وحَب[2]

وقد يُتوفى الأب فيترك صراعاً بين زوجه وأهله من أجل الإبن، خاصة بعدما تتزوج زوجته برجل آخر، فيستغل أهله ما خوّله لهم الشرع في هذا الباب، حيث تسقط الحضانة عن الأم لتنتقل إلى جدة الإبن لأبيه، فتشعر الأم بمرارة فصل ابنها عنها، من ذلك ما روي أن امرأة وجدة اختصمتا إلى شريح[3] قاضي الكوفة في قضية من هذا القبيل، فقد تقدمت الجدة بعريضة طلبت فيها أخذ حفيدها تبعًا للشرع ما دامت الأم قد تزوجت، ولم يعد من حقها تربيته، وطلبت من القاضي

---

(1) ابن عساكر: م. ن.، ص: 17 ـ 18. وأيِمُ: الأيِمُ: العزب رجلاً كان أم إمرأة، تزوج من قبل أو لمْ يتزوج، وهي: أيمة أيضاً، وأرزمُ: رزم، ثبت على الأرض، أو سقط من الإعياء والهزال. وينثوه: نثا الخبر نثواً، حدث به أشاعه، وأظهره. وزبره زبراً: رماه بها.

(2) المصعب الزبيري: نسب قريش، ص: 230. والخبءُ: المدخر. ومخبُّ: أراد مخبّا، أي: مخبأ.

(3) هو شريح بن الحارث بن قيس الكِندي، من أشهر القضاة والفقهاء في صدر الإسلام، أصله من اليمن، ولي قضاء الكوفة في عهد عمر وعثمان وعلي ومعاوية، ومكث في القضاء أكثر من سبعين سنة ، وتوفي نحو 78 هـ وعمره مائة وثمان سنوات (ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج2، ص: 460 وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج3، ص: 161).

أن يحكم بينهما، فقالت:

أَيَا أُمَيَّةَ أَتَيْنَاكَ وأَنْتَ المسْتَعَانُ بِهِ أَتَاكَ جَدَّةُ ابْنٍ وأُمٌّ وكِلْتَانَا تَفْدِيهِ
فَلَوْ كُنتِ تَأيمتِ لَمَا نَازَعْتُكِ فِيهِ تَزَوّجتِ فَهَاتِيهِ، ولا يَذْهبْ بَنِي إِلْقِيهِ
أَيّهَا القَاضِي فَهَذِهِ قِصّتِي فِيهِ

بعد ذلك طلب القاضي من الأم أن تردّ على العريضة المقدمة من قبل الجدة، فردّت معلّلة زواجها بعد وفاة زوجها إلى الحاجة الملحة إلى من يعيلها هي وولدها، فقالت:

أَلاَ أَيُّهَا القَاضِي قَدْ قَالتْ لكَ الجدَّةْ
قَوْلاً، فَاسْتَمِعْ مِنِّي ولا تَطْرُدنِي رَدَّهْ
تُعَزِّي النَّفْسَ عَنْ إِبْنِي وكِبْدِي حَمَلَتْ كِبْدَهْ
فَلَمَّا صَارَ فِي حِجْرِي يَتِيماً، مُفْرَداً وَحْدَهْ
تزوّجتُ رَجَاءَ الخَيْرِ مَنْ يَكْفِينِي فَقْدَهْ
ومَنْ يُظهِرُ لِي الوُدَّ ومَنْ يُحْسِنُ لي رِفْدَهْ

وبعد أن استمع إلى الخصمين، وفهم القضية حكم القاضي لصالح الجدة، وذلك وفق ما تقتضيه الشريعة، فقال:

قَدْ سَمِعَ القَاضِي مَا قُلْتُمَا ثُمّ قَضَى وعَلَى القَاضِي جُهدٌ إِنْ غَفَلْ
قَالَ لِلْجَدَّةِ بِينِي بِالصَّبِيِّ وخُذِي ابْنَكِ مِنْ ذَاتِ العِلَلْ
إِنَّهَا إِنْ صَبَرَتْ كَانَ لَهَا قَبْلَ دَعْوَى مَا تَبْتَغِيهِ للبَدَلْ[1]

كانت هذه أهم الأبواب الثانوية التي وردت في شعر النساء في هذا العصر، وبذلك يكون شعرهنّ قد شمل معظم الأبواب، وقد عبَّرنَ عن مشاعرهنَّ إنْ فَرحًا وإن ترحا.

خلاصة:

وفي ختام حديثنا عن فنون شعر المرأة في صدر الإسلام يجدر بنا أن نسجلّ

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص: 23 ـ 24. (الخبر والشعر). وهناك اضطراب في الوزن، في المقطوعات الثلاث.

الملاحظات التالية:

1 ـ إنّ أغلب شعر المرأة في صدر الإسلام يدور حول الرثاء، وأقلّه حول الفخر والغزل، والمدح، وترقيص الأطفال، وغيرها.

2 ـ إن شعرهنّ في مجمله موحد الغرض في القصيدة أو االمقطوعة الواحدة، فالأغراض في شعرهنّ لم تكن متداخلة مثلما هو معروف عند الشعراء من اختلاط المديح بالغزل، أو الفخر بالهجاء، وهكذا... ولعلّ مرد ذلك لكون الشاعرات مقلات، إذ إنّ أغلب شعرهنّ مقطوعات وأبيات، ولم يعرف عنهنّ إلا بعض القصائد، ولذلك كنّ يدخلن في الموضوع مباشرة دون مقدمات، والمرأة معروفة بقصر نفسها منذ الجاهلية، والمطوّلات في شعر النّساء ليست من الكثرة كما هي عند الرجال بعامة.

3 ـ كان بين شواعر صدر الإسلام المسلمات والمشركات، وكانت بين الفريقين منافسة شديدة مثلما كان الحال بين الشعراء، وهذه المنافسة أدّت إلى ظهور فن النقائض بين الشواعر، وكذلك بين الشعراء والشواعر، وكانت أول مناقضة بعد موقعة أحد بين هند بنت عتبة وهند بنت أثاثة، وقد فصلت الحديث عن ذلك عند حديثي عن فن النقائض.

4 ـ كما شاركن بشعرهن منذ فجر الإسلام في الأحداث السياسية والوقائع الحربية، فقد كان منهن المناصرات للإسلام والمسلمين، ومنهن من وقفن في وجهه يهجون المسلمين، ويناصرن المشركين، كما شاركن في الصراع السياسي الذي دار بين المسلمين أنفسهم، فكان منهنّ المتشيعات لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ومنهن المناصرات لمعاوية بن أبي سفيان وهكذا... وقد سبق أنْ أشرتُ إلى ذلك بشيء من التفصيل فيما سلف.

5 ـ أمّا من حيث الأسلوب، فإنّ الشاعرات اخترنَ الأساليب العربية الفصيحة، وأن شعرهنّ يخضع لقاعدة (الوحدات الثلاث) وحدة البحر، ووحدة القافية، ووحدة البناء في شكل عمودي، وقد نظمن على أربعة أنواع من الأساليب: الأسلوب السهل السلس، والأسلوب الجزل، والاسلوب الحوشي،

والأسلوب السوقي، فالنوع الأوّل نظمت عليه في الغالب، شواعر المسلمين، حيث لان شعرهنّ وسهلت ألفاظهنَّ لحداثتهن بالاسلام، كما أنهنَّ تأثرنَ بمعاني القرآن الكريم وألفاظه، أمّا بقية الأساليب، فأنشدت عليها شواعر قريش لأنهنّ حافظن على جودة الشعر الجاهلي وقوته وجزالته، ولم يحاولن خلق أشكال جديدة ترتبط بالإسلام كما فعلته شواعر المسلمين، ولذلك كان شعرهنّ أقوى لحرقة الهزيمة، وزوال العزّ والمجد القديم[1].

6 ـ أغلب شواعر صدر الإسلام حرائر، عكس ما نجده في العصور الأخرى، ولا سيما في العصر العباسي، ولربما كان السبب ظهور الدين الإسلامي الحنيف الذي طالما حث على عتق الجواري، إذ لم يترك فرصة من فرص تحرير الرق إلا انتهزها...

وفي الجملة فإنّ عدد الشاعرات في هذه الفترة كان كثيراً، ولكنّ ما وصلنا من شعرهنّ بالنسبة إلى عددهنّ قليل، ولعلّ المستقبل يَكْشِفُ لنا عن أشعار أخرى لهنّ في مصادر مغمورة.

(1) الدكتور مصطفى الشوري: شعر الرثاء في صدر الإسلام، ص: 72.

الفصل الرابع

أغراض شعر النساء في العصر الأموي

تمهيد:

هذا الفصل خصصته لأغراض النساء في العصر الأموي، وقد عرضت فيه نماذج من أشعارهن في مختلف الفنون، ودرستها وسرت في دراستها على النهج الذي رسمته في الفصل السابق، أي: دراسة شعرهنّ معتمداً على النصوص، ومنتهيًا إلى النتيجة التي تتيحها تلك النصوص في التعرف على مميزات شعرهن، وإدراك الطوابع التي تكسوه، وكنت أثناء الدراسة أنقد أحياناً مبيناً ما أراه جيداً، وما أراه غير ذلك. لقد تبين أن الشواعر طرقن فنوناً شعرية شتى، وسايرن الرجل في معظم الأبواب المعروفة آنذاك كالرثاء، والغزل، والمدح، والهجاء، والفخر، وغيرها.. والشاعرات في هذا العصر ينتمين إلى طبقتين: طبقة الحرائر، وطبقة القيان، وقد اشتهرت في هذا العصر شاعرات كثيرات نذكر منهن: ليلى الأخيلية، وميسون بنت بحدل، وليلى العامرية، وزينب بنت الطثرية، وسلامة القس، وحميدة بنت النعمان، وميسة بنت جابر، وغيرهن. وبدأت الفصل بفن الرثاء لأنه الباب الذي حظي باهتمام أغلب الشواعر.

أ ـ الرثاء

نال فن الرثاء كثيراً من اهتمام الشواعر وعنايتهن في هذا العصر كما هو الحال في مختلف العصور[1]، لكنهن لم يضفن إلى المرثية شيئا جديدا من حيث المضمون ولم تتميز مراثيهن عن غيرها من المراثي. وقد ظلت تسير على نفس

(1) باستثناء شواعر الأندلس فإنهن لمْ يحفلْن بفن الرثاء.

النهج الذي كان سائدًا في العصر الجاهلي والإسلامي، وهو الحسرة وذكر الفجيعة والجزع الشديد، وكذلك الإشادة بفضل الميت من شجاعة وبطولة وكرم ونجدة وعفة وغيرها من الصفات الحميدة. إلا أن رثاء المدن يعد نوعًا جديدًا من الرثاء لم يعرفه الشعر العربي من قبل. وكذلك رثاء الشاريات الذي تميز ببعض الخصائص التي سنذكرها في حينها، كما أن رثاءهن ينبعث عن عاطفة صادقة وقلما يكون مجاملة وتكلفًا، وأن أساليبهن في الغالب قد سلست ورقّت بفضل معينين فياضين وهما القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد بدأ التأثر بهما في صدر الإسلام لكنه كان ضئيلاً حينئذ لقرب العهد بالعصر الجاهلي. أما من حيث بناء القصيدة النسوية فقد جدّدن في مقدمة القصيدة، فتخلصن من المقدمة الطللية والغزلية، كما جدّدن في وحدة القصيدة، وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل في فصل الخصائص الفنية.

1 ـ رثاء الأشخاص:

وتأتي في مقدمة الشواعر من حيث الكم والجودة ليلى الأخيلية[1]، فقد رثت توبة[2] بمراثٍ كثيرة لما بلغها مقتله، وهي أجمل شعرها وأكثره، ومنها

---

(1) هي ليلى الأخيلية، بنت عبد الله بن الرحال، وقيل ابن الرحالة، المسمى الأخيل من بني عامر ابن صعصعة، شاعرة من شواعر العصر الأموي، كانت فصيحة ذكية جميلة، وكان توبة بن الحمير يهواها ويقول فيها الشعر، فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها وزوجها رجلاً من بني الأدلغ، وكان زوجها كثير الغيرة عليها يكره أن يزوره أحد، غير أن توبة لمْ ينقطع عن زيارتها حتى غضب قومها فعاتبوه وشكوه إلى قومه فلم يقلع، فشكوه إلى السلطان فأباحهم دمه إن أتاهم. وعلمت ليلى بذلك، ثم رصدوه في الموضع الذي كان يلقاها فيه، فلما جاء خرجت إليه سافرة حتى جلست في طريقه فلما رآها سافرة عابسة، ولم تكن تفعل ذلك من قبل، فطن لما أرادت وعلم أنه قد رصد، فأركض فرسه ونجا بنفسه وفي ذلك يقول:

وَكُنْتُ إذَا ما جِئْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الغَدَاةَ سُفُورُهَا

(انظر الأصفهاني: الأغاني مج11، ص: 194 وما بعدها، وابن عساكر: تاريخ دمشق، تراجم النساء - ص: 296 وما بعدها. وطيفور: بلاغات النساء، ص: 236 وما بعدها، وزينب فواز: الدُّر المنثور، ص: 466 وما بعدها).

(2) هو توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة العقيلي العامري، أبو حرب، شاعر من =

قولها فيه:

نَـظَـرْتُ ورُكْـنٌ مِـنْ ذقـانَـيْـنِ دُونَـهُ ... مَـفَـاوِزُ حَـوْضِـي أيَّ نـظـرةِ نَـاظِـرِ[1]

لأونَـسَ إنْ لَـمْ يَـقْـصُـر الـطَّـرْفُ عَـنْـهُـمُ ... فَلَمْ تَقْصُرِ الأخبَارُ والطَّرْفُ قَاصِرِي

فَـوَارِسَ أجْـلَـى شَـأْوَهَـا عَـنْ عَـقِـيـرَةٍ ... لِـعَـاقِـرِهَـا فِـيـهَـا عَـقِـيـرَةُ عَـاقِـرِ[2]

فـأنَـسْـتُ خَـيْـلاً بـالـرُّقَـيِّ[3] مُـغِـيـرَةً ... سَـوَابِـقُـهَـا مِـثْـلُ الـقَـطـا الـمُـتَـوَاتِـرِ[4]

قَـتِـيـلُ بَـنِـي عَـوْفٍ وأيْـصُـرٍ[5] دُونَـهُ ... قَـتِـيـلُ بَـنِـي عَـوْفٍ قَـتِـيـلٌ يُـحَـابِـرُ[6]

تَـوَارَدَهُ أسْـيَـافُـهُـمْ فَـكَـأنَّـمَـا ... تَـصَـادَرْنَ عَـنْ أقْـطَـاعِ أبْـيَـضَ بَـاتِـرِ

مِـن الـهِـنـدُوانـيّـاتِ فِـي كُـلِّ قِـطْـعَـةٍ ... دَمٌ زَلَّ عَـنْ أثْـرٍ مِـنَ الـسَّـيْـفِ ظَـاهِـرِ

أتَـتْـهُ الـمَـنَـايَـا دونَ زَغْـفٍ[7] حَـصِـيـنَـةٍ ... وَأسْـمَـرَ خَـطِّـيٌّ وخَـوْصَـاءَ ضَـامِـرِ

عَـلَـى كُـلِّ جَـرْدَاءِ الـسَّـرَاةِ[8] وسَـابِـحٍ ... دَرَأْنَ بِـشُـبَّـاكِ الـحَـدِيـدِ زَوَافِـرِ

عَـوَابِـسَ تَـعْـدُو الـثَّـعْـلَـبِـيَّـةَ ضُـمَّـراً ... وهُـنَّ شَـوَاحٍ بـالـشَّـكِـيـمِ الـشَّـوَاجِـرِ

فـلا يُـبْـعِـدَنْـكَ الـلـهُ يَـا تَـوْبَ إنَّـمَـا ... لِـقَـاءُ الـمَـنَـايَـا دَارِعـاً مِـثْـلُ حَـاسِـرِ

= عشاق العرب المشهورين، كان يهوى ليلى الأخيلية، ويقول فيها الشعر (انظر الأصبهاني: الأغاني، مج11، ص: 194 وما بعدها. وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص: 259 - 260 وغيرها).

(1) ذِقان (بكسر الذال) اسم جبل، وذقانان: جبلان في بلاد بني كعب (الحموي: معجم البلدان، مج3، ص: 6).

(2) شأوها: سرعتها، والشأو: الطلق والشوط، والشأو أيضاً: الغاية والأمد. وقال الأصفهاني: تعني بالعقيرة: توبة، وبعاقرها: عاقر توبة يزيد بن رويبة وقيل غير هذا (انظر الأغاني، مج11، ص: 212).

(3) الرقي: موضع.

(4) المتواتر: الذي يجيء بعضه في إثر بعض.

(5) أيصر: موضع ببلاد بني عقيل.

(6) يحابر: قبيلة.

(7) الزغف: الدرع المحكمة: والأسمر الخطي: الرمح. والخوصاء الضامر: الفرس.

(8) الجرداء من الخيل: القصيرة الشعر، وهو مدح في الخيل، والسراة: الظهر. والسابح من الخيل: مد اليدين في الجري. والدرء: الدفع. وشباك الحديد: اللحم المشتبكة.

فَإلّا تَكُ القَتْلَى بَوَاءً[1] فَإِنَّكُمْ ... سَتَلْقَوْنَ يَوْماً وِرْدُهُ غَيْرُ صَادِرِ

وَإنَّ السَّلِيلَ إذْ يُبَاوِي قَتِيلَكُمْ ... كَمَرْحُومَةٍ مِنْ عَرْكِهَا غَيْرِ طَاهِرِ[2]

فَإنْ تَكُنِ القَتْلَى بَوَاء فَإِنَّكُمْ ... فَتًى مَا قَتَلْتُمْ آلَ عَوْفِ بْنِ عَامِرِ

فَتًى لاَ تَخَطَّهُ الرِّفَاقُ وَلاَ يَرَى ... لِقَدْرٍ عِيَالاً دُونَ جَارٍ مُجَاوِرِ

وَلاَ تَأْخُذُ الكُومُ الجِلادُ رِمَاحَهَا ... لِتَوْبَةَ فِي نَحْسِ الشِّتَاءِ الصَّنَابِرِ[3]

إذَا مَا رَأتْهُ قَائِماً بِسِلاحِهِ ... تَقتْهُ الخِفَافُ بِالثِّقَالِ البَهَازِرِ[4]

إذَا لَمْ يَجِدْ مِنْهَا بِرِسْلٍ فَقَصْرُهُ ... ذُرَى المُرْهَفَاتِ والقِلاَصِ التَّوَاجِرِ[5]

قَرَى سَيْفَهُ مِنْهَا مُشَاشاً وَضَيْفَهُ ... سَنَامَ المَهَارِيسِ السِّبَاطِ المُشَافِرِ[6]

وَتَوْبَةُ أحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ ... وَأجْرأُ مِنْ لَيْثٍ بِخَفَّانَ خَادِرِ[7]

وَنِعْمَ الفَتَى إنْ كَانَ تَوْبَةُ فَاجِراً ... وَفَوْقَ الفَتَى إنْ كَانَ لَيْسَ بِفَاجِرِ

فَتًى يُنْهِلُ الحَاجَاتِ ثُمَّ يُعُلُّهَا ... فَيُطْلِعُهَا عَنْهُ ثَنَايَا المَصَادِرِ

كَأنَّ فَتَى الفِتْيَانِ تَوْبَةَ لَمْ يُنِخْ ... قَلاَئِصَ يَفْحَصْنَ الحَصَى بِالكَرَاكِرِ[8]

وَلَمْ يَبْنِ أبْرَاداً عِتَاقاً لِفِتْيَةٍ ... كِرَامٍ وَيَرْحَلُ قَبْلَ فَيْءِ الهَوَاجِرِ[9]

---

(1) البواء: التكافؤ، يقال: ما فلان لفلان ببواء، أي: ماله بكفء أن يقبل به.

(2) يباوي: يساوي، ومرحومة بها داء في الرحم. والعرك: الحيض.

(3) الكوم: جمع كوماء وهي العظمية السنام من الإبل، والجلاد: الغزيرات اللبن من الإبل، ونحس الشتاء: ريحه الباردة، وصنابر الشتاء: شدة بردِهِ.

(4) البهازر من الإبل: العظام، واحدتها بهزرة.

(5) الرسل (بالكسر): اللبن، والمرهفات: الدقيقات، والقلاص: جمع قلوص: وهي الشابة من النوق، والتواجر: الإبل النافقة في التجارة وفي السوق.

(6) المشاش: رؤوس العظام مثل الركبتين والمرفقين، الواحدة: مشاشة، والمهاريس من الإبل: الجسام الثقال، سباط المشافر: طويلتها، السبط: كالكتف للإنسان والمشفر للبعير: كالشفة للإنسان.

(7) خفان: موضع قرب الكوفة وهو مأسدة، وخادر: مقيم.

(8) الكراكر: جمع كركرة (بالكسر) وهي هنا رحى زَور البعير أو صدره.

(9) في الكامل للمبرد، ج3، ص: 333 «أبراد رقاقاً» ثم شرحها المبرد فقال، تريد الخيام. وقولها: «ويرحل قبل فيء الهواجر» تريد أنه متيقظ ظعان (المبرد: نفسه، ص: 335).

وَلَمْ يَتَجَلَّ الصُّبْحُ عَنْهُ وَبَطْنُهُ لَطيفٌ كَطَيِّ السَبِّ لَيْسَ بِحَادِرِ[1]

فَتَى كَانَ لِلمَوْلَى سناءً ورِفْعَةً وِلِلطَّارِقِ السَّارِي قِرَى غَيْرَ باسِرِ[2]

وَلَمْ يُدْعَ يَوْمَاً لِلحِفَاظِ وَلِلنَّدَى وَلِلحَرْبِ يَرْمِي نَارَهَا بِالشَّرَائِرِ

وَلِلْبَازِلِ الكَوْماءِ يَرْغُو حُوارُهَا وَلِلْخَيْلِ تَعْدُو بِالكُمَاةِ المَسَاعِرِ[3]

كَأنَّك لَمْ تَقْطَعْ فَلاَةً وَلَمْ تُنِخْ قِلاَصاً لِدَى فَأْوٍ[4] مِنَ الأَرْضِ غائِرِ

وتُصْبِحْ بِمَوْمَاةٍ كَأنَّ صَرِيفَها صَرِيفُ خَطَاطِيفِ الصَّرَى في المَحَاوِرِ[5]

طوَتْ نَفْعَها عَنَّا كِلاَبٌ وَآسَدَت[6] بِنَا أجْهَلِيهَا بَيْنَ غَاوٍ وَشاعِرِ

وقَدْ كَانَ حَقاً أنْ تَقُولَ سَراتُهُمْ لَعاً [7] لأخينَا عَالِياً غَيْرَ عَاثِرِ

ودوِّيةٍ قَفْرٍ يُحَارُ بِهَا الْقَطا تَخَطَّيْتَهَا بِالنّاعِجَات الضَّوَامِرِ[8]

فَتَا للهِ تَبْنِي بَيْتَها أمُّ عَاصِمٍ عَلَى مِثْلِهِ أخرَى اللَّيَالِي الغَوابِرِ[9]

فلَيْسَ شِهَابُ الَحرْبِ تَوْبَةُ بَعْدَهَا بِغَازٍ وَلا غَادٍ بِرَكْبٍ مُسَافِرِ

وَقَدْ كَانَ طَلاَّعُ النِّجَادِ[10] وَبَيِّن الـ لسَانِ وَمِدْلاَجِ السُّرَى غَيْرَ فَاتِرِ

---

(1) السب: الثوب الرقيق، وحادر: هنا، سمين غليظ.

(2) المولى: هنا ابن العم أو الحليف الذي ينضم إليك. وباسر: عابس.

(3) البازل: الناقة التي انشق نابها وهي التي استكملت السنة الثامنة وطعنت في التاسعة. والحُوار: ولد الناقة من حين يولد إلى أن يفطم. والمساعر: جمع مسعر وهو الذي يوقظ نار الحرب.

(4) الفأو: بطن من الأرض تطيف به الرمال.

(5) الموماة: المفازة الواسعة. والصريف: الصوت، والخطاطيف: جمع خُطاف (بالضم)، وهو حديدة حجناء تعقل بها البكرة من جانبيها وفيها المحور، والصرى: الماء الذي طال مكثه فتغير، والمحاور: جمع محور وهو الحديدة التي تجمع بين الخطاف والبكرة.

(6) آسدت: هيجت وأغرت.

(7) لعًا: كلمة يدعى بها للعاثر أن ينتعش.

(8) الدوية: الفلاة الواسعة المستوية، والناعجات من الإبل: البيض الكريمة، أو هي التي يصاد بها الوحش من الظباء والبقر.

(9) الغوابر: هنا الباقيات.

(10) طلاع النجاد: يقال فلان طلاع النجدة: إذا كان ضابطاً للأمور غالباً عليها.

وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الحَادِثَاتَ إِذَا انْتَحَى وَسَائِقَ أَوْ مَعْبُوطَةً لَمْ يُغَادِرِ[1]

وَكُنْتُ إِذَا مَوْلاكَ خَافَ ظُلامَةً دَعَاكَ وَلَمْ يَهْتِفْ سِوَاكَ بِنَاصِرِ

فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللهِ آسَى ابْنَ أُمِّهِ وَآبَ بِأَسْلاَبِ الكَمِيِّ المُغَاوِرِ[2]

وَكَانَ كَذَاتِ البَوِّ تَضْرِبُ عِنْدَهُ سِبَاعاً وَقَدْ أَلْقَيْنَهُ فِي الجَرَاجِرِ[3]

فَإِنَّكَ قَدْ فَارَقْتَهُ لَكَ عَاذِراً وَأَنَّى لِحَيٍّ عُذْرُ مَنْ فِي المَقَابِرِ

فَأَقْسَمْتُ أَبْكِي[4] بَعْدَ تَوْبَةَ هَالِكاً وَأَحْفِلُ مَنْ نَالَتْ صُرُوفُ المَقَادِرِ

عَلَى مِثْلِ هَمَّامٍ وَلابْنِ مُطَرِّفٍ لِتَبْكِ البَوَاكِي أَوْ لِبِشْرِ بنِ عَامِرِ

غُلامَانِ كَانَا اسْتَوْرَدَا كُلَّ سَوْرَةٍ مِنَ المَجْدِ ثُمَّ اسْتَوْثَقَا فِي المَصَادِرِ

رَبِيعَيْ حَيَّا كَانَا يَفِيضُ نَدَاهُمَا عَلَى كُلِّ مَغْمُورٍ نَدَاهُ وغَامِرِ

كَأَنَّ سَنَا نَارَيْهِمَا كُلَّ شَتْوَةٍ سَنَا البَرْقِ يَبْدُو لِلْعُيُونِ النَّوَاظِرِ[5]

يتألف شعر النساء في أغلبه من مقطوعات لا تبلغ حد القصيدة الطويلة، ولا نكاد نجد فيه إلا عددًا محدودًا من قصائد طويلة، ولعل أطول قصيدة وصلتنا لامرأة، هي رائية ليلى الأخيلية هذه في رثاء توبة، ويبلغ عدد أبياتها ثمانية وأربعين بيتًا، وهي تكاد تخلو من أية مسحة دينية أو أية لفظة تشعرنا بأنها نظمت في ظلال الدين الإسلامي الجديد، وقد اتسمت ألفاظها بالخشونة والغرابة والتعقيد، حيث تعمدت الشاعرة الأسلوب الجاهلي لفظًا وصورةً ومعنًى ولكن

---

(1) انتحى: قصد. ووسائق: جمع وسيقة: وهي جماعة من الإبل ونحوها كالرفقة من الناس، والمعبوطة: المذبوحة من غير داء ولا كسر. تريد أنه إذا قصد إبلاً مغصوبة أو معبوطة لمْ يتركها تفلت منه.

(2) الكمي: الشجاع المتكمي في سلاحه، أي: المتستر بالدرع، والجمع: كماة. والمغاور: المقاتل الكثير الغارات ومثله المغوار.

(3) البو: ولد الناقة. والجراجر: الحلوق، يقال: جرجر الجمل: أي ردد صوته في حنجرته.

(4) فأقسمتُ أبكي: أي: لا أبكي، فالعربُ تضمرُ لا في القسَم مع المنفي، وحذف لا في مثل هذا كثير. (انظر الزجاجي: الأمالي، ص: 78).

(5) الأصبهاني: الأغاني، مج11، ص: 212 وما بعدها. والمالقي: الحدائق الغناء في أخبار النساء، ص: 158 وما بعدها، وطيفور: بلاغات النساء، ص: 236 وما بعدها، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 296 وما بعدها، وديوانها، ص: 77 وما بعدها.

عاطفتها تمتاز بالصدق، وهي ضافية في هذا النص الذي أعطت كلماته بعدًا انفعاليًا وعاطفيًا يتناسب ونفسية الشاعرة في هذا الموقف الحزين المؤلم. قالت أيضًا ترثي توبة:

لِتَبْكِ العَذَارَى مِنْ خَفَاجَةَ[1] كُلِّهَا ... إلَى الحَوْلِ صَيْفًا دَائِبَاتٍ وَمَرْبَعَا
عَلَى نَاشِىءٍ نَالَ المَكَارِمَ كُلَّهَا ... وَمَا انْفَكَّ حَتَّى اسْتَفْرَغَ المَجْدَ أجْمَعَا[2]

بعد أن دعت نساء خفاجة إلى البكاء معها على توبة البطل المغوار الذي نال المكارم كلها، فها هي تتابع البكاء، فدموعها لا تهدأ ولا تجف، فهي مهما ذرفت الدموع من أجله تبقى بحاجة إلى المزيد، وقد أقسمت ألا تبكي بعد توبة هالكاً، فقالت:

أقْسَمْتُ أرْثِي بَعْدَ تَوْبَةَ هَالِكًا ... وأحْفِلُ مَنْ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ[3]
لَعَمْرُكَ مَا بِالمَوْتِ عَارٌ عَلَى الفَتَى ... إذَا لَمْ تُصِبْهُ فِي الحَيَاةِ المَعَايِرُ
وَمَا أحَدٌ حَيٌّ وَإنْ عَاشَ سَالِماً ... بِأخْلَدَ مِمَّنْ غَيَّبَتْهُ المَقَابِرُ
وَمَنْ كَانَ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جَازِعاً ... فَلاَ بُدَّ يَوْمًا أنْ يُرَى وهُوَ صَابِرُ
وَلَيْسَ لِذِي عَيْشٍ عَنِ المَوْتِ مَقْصَرٌ ... ولَيْسَ عَلَى الأيَّامِ وَالدَّهْرِ غَابِرُ[4]
وَلاَ الحَيُّ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ مُعْتَبٌ ... وَلاَ المَيْتُ إنْ لَمْ يَصْبِرِ الحَيُّ نَاشِرُ[5]
وَكُلُّ شَبَابٍ أوْ جَدِيدٍ إلى بِلًى ... وَكُلُّ امْرِىءٍ يَوْمًا الَى اللهِ صَائِرُ
وَكُلُّ قَرِينَيْ ألْفَةٍ لِتَفَرُّقٍ ... شَتَاتًا وإنْ ضَنَّا وَطَالَ التَّعَاشُرُ
فَلاَ يُبْعِدَنْكَ اللهُ حَيّاً ومَيِّتًا ... أخَا الحَرْبِ إنْ دَارَتْ عَلَيْكَ الدَّوائِرُ
فَآلَيْتُ لاَ أنْفَكُّ أبْكِيكَ مَا دَعَتْ ... عَلَى فَنَنٍ وَرْقَاءُ أوْ طَارَ طَائِرُ

---

(1) خفاجة: رهط توبة وهو جدله.
(2) البحتري: الحماسة، ص: 270، وانظر أيضاً طيفور: م. ن.، ص: 237.
(3) مر مثل هذا البيت في القصيدة الطويلة السالفة الذكر، مع اختلاف يسير، وتكرار المعنى أو اللفظ كثير عند الشاعرة.
(4) مقصر: تريد ليس عنه محيد ولا مصرف، وغابر: هنا باق.
(5) معتب: اسم مفعول، يقال: أعتبت فُلاناً: إذا أرضيته، وناشر: وصف من نشر اللازم، يقال نشر الله الميت، فهو لازم متعد.

قَـتِـيـلُ بَـنِـي عَـوْفٍ فَـيَـا لَـهْـفَـتَـا لَـهُ ... وَمَـا كُـنْـتُ إِيَّـاهُـمْ عَـلَـيْـهِ أُحَـاذِرُ

ولَـكِـنَّـمَـا أَخْـشَـى عَـلَـيْـهِ قَـبِـيـلَـةً ... لَـهَـا بِـدُرُوبِ الـرُّومِ بَـادٍ وحَـاضِـرُ[1]

يبدو أن هذه القصيدة من أجمل شعر ليلى الأخيلية بدليل أنها هي نفسها فضلتها على بقية شعرها عندما طلب منها الحجاج بن يوسف، لما وفدت عليه، أن تنشده بعض شعرها في توبة، فأنشدته هذه القصيدة[2] التي تتتابع فيها الحكم عن الحياة والموت، وتذكرنا بحكم زهير بن أبي سلمى على نحو ما في بعض معانيها، وقد جاءت في أسلوب سهل عذب خال من الغرابة والتعقيد، عكس ما رأيناه في قصيدتها الطويلة السابقة التي وضعتها في أسلوب متين فخم، وهي في كلتا الحالتين مقتدرة، سواء في الأساليب القديمة التي ورثتها من العصر الجاهلي أم في الأساليب الحديثة التي وجدتها في بيئتها الإسلامية. وتستمر ليلى في البكاء وتدعو نساء خفاجة إلى مواصلة البكاء معها أيضًا، فتقول:

أَيَـا عَـيْـنُ بَـكِّـي تَـوْبَـةَ ابْـنَ حُـمَـيِّـرِ ... بِـسَـحٍّ كَـفَـيْـضِ الْـجَـدْوَلِ الْـمُـتَـفَـجِّـرِ

لِـتَـبْـكِ عَـلَـيْـهِ مِـنْ خَـفَـاجَـةَ نِـسْـوَةٌ ... بِـمَـاءِ شُـؤُونِ الْـعَـبْـرَةِ الْـمُـتَـحَـدِّرِ

سَـمِـعْـنَ بِـهَـيْـجَـا أَرْهَـقَـتْ[3] فَـذَكَـرْنَـهُ ... وَلاَ يَـبْـعَـثُ الأَحْـزَانَ مِـثْـلُ الـتَّـذَكُّـرِ

كَـأَنَّ فَـتَـى الْـفِـتْـيَـانِ تَـوْبَـةَ لَـمْ يَـسِـرْ ... بِـنَـجْـدٍ وَلَـمْ يَـطْـلُـعْ مَـعَ الْـمُـتَـغَـوِّرِ[4]

وَلَـمْ يَـرِدِ الْـمَـاءَ الـسِّـدَامَ إِذَا بَـدَا ... سَـنَـا الصُّبْحِ فِي بَادِي الحَوَاشِي مُنَوَّرِ

وَلَمْ يَغْلِبِ الخَصْمَ الضِّجَاجَ وَيملأ الـ ... ـجِفَانَ سَدِيفًا يَوْمَ نَكْبَاءَ صَرْصَرِ[5]

وَلَـمْ يَـعْـلُ بِـالْـجُـرْدِ الْـجِـيَـادِ يَـقُـودُهَـا ... بِـسُـرَّةَ بَـيْـنَ الأَشْـمَـسَـاتِ فَـأَيْـصَـرِ[6]

---

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 219 ـ 220. وانظر أيضاً ابن قتيبة م. ن.، ص: 297.

(2) انظر ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، مج3، ص: 228.

(3) الهيجاء: بالمد والقصر: الحرب. وأرهقت: أدركت أو ألحقت وأغشت.

(4) المتغور: الذي يأتي الغور، والغور: ما انخفض من الأرض.

(5) الضجاج: مصدر ضاجه مضاجة وضجاجاً: إذا جادله وشاغبه، والإسم الضجّاج (بالفتح) وهو وصف بالمصدر للمبالغة. والسديف: قطع السنام. والنكباء: الريح التي تنحرف في مهبها فتجيىء بين ريحين، والصرصر: الشديدة الصوت أو البرد.

(6) الأشمسات: جمع مفرده أشمس: جبل في شق بلاد بني عقيل، وجمعته ليلى لأنها أرادت =

وَصَحْرَاءَ مَوْمَاةٍ يُحَارِبُهَا الْقَطَا قَطَعْتَ عَلَى هَوْلِ الْجَنَانِ بِمِنْسَرِ[1]

يَقُولُونَ قُبّا كَالسَّرَاحِينِ لاَحَهَا سَرَاهُمْ وَسَيْرُ الرَّاكِبِ الْمُتَهَجِّرِ[2]

فَلَمَّا بَدَتْ أَرْضُ الْعَدُوِّ سَقَيْتَهَا مُجَاجَ بَقِيَّاتِ الْمُزَادِ الْمُقَيَّرِ[3]

وَلَمّا أَهَابُوا بِالنِّهَابِ حَوَيْتَهَا بِخَاظِي الْبَضِيعِ كَرُّهُ غَيْرُ أَغْسَرِ[4]

مُمَرٍّ كَكَرِّ الأَنْدَرِي مُثَابِرٍ إِذَا مَا وَنَيْنَ مُلْهِبِ الشَّدِّ مُحْضِرِ[5]

فَأَلْوَتْ بِأَعْنَاقٍ طِوَالٍ وَرَاعَهَا صَلاصِلُ بِيضٍ سَابِغٍ وَسَنَوَّرِ[6]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَبْدَ يَقْتُلُ رَبَّهُ فَيَظْهَرُ جَدُّ الْعَبْدِ مِنْ غَيْرِ مَظْهَرِ

قَتَلْتُمْ فَتًى لاَ يُسْقِطُ الرَّوْعُ رُمْحَهُ إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ فِي قَنًا مُتَكَسِّرِ

فَيَا تَوْبَ لِلْهَيجَا وَيَا تَوْبَ لِلنَّدَى وَيَا تَوْبَ لِلْمُسْتَنْبِحِ الْمُتَنَوِّرِ[7]

أَلاَ رَبَّ مَكْرُوبٍ أَجَبْتَ وَنَائِلٍ بَذَلْتَ وَمَعْرُوفٍ لَدَيْكَ وَمُنْكَرِ[8]

حافظت الشاعرة في هذه القصيدة على الأسلوب القديم من حيث التفجع والبكاء على الميت ووصف مناقبه وتعدادها، وظلت معانيها ضمن نطاق الكرم والشجاعة، وبقيت محشوة بالتعقيد والخشونة والصعوبة على عادة الجاهليين، ولا

= الجبل وما يليه من البقاع، وسرة وأيصر: موضعان.

(1) المِنسَر: هنا قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير.

(2) القُبُّ: الدقاق الخصور، والواحد: قب وقباء، والسراحين: الذئاب واحدها، سرحان، ولاحها: غيرها، والمتهجر: الذي يسير في الهاجرة، وهي نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر.

(3) المجاج: اسم لما تمجه من فيك، والمزاد: الأسقفية، أي: ما يوضع فيه الزاد الواحدة: مزادة، والمقير المطلي بالقار، وهو الزفت.

(4) النهاب: جمع نهب وهو الغنيمة، والخاظي: المكتنز باللحم، والبضيع: اللحم.

(5) الممر: اسم مفعول من أمر فلان الحبل أجاد فتله، والكر: هنا الحبل الغليظ، والأندري: المنسوب إلى أندرين قرية كانت بالشام، وونين: فترن وضعفن، تريد الخيل، وإلهاب الفرس للشد: متابعته للجري وإحضار الفرس: ارتفاعه في عدوه.

(6) راعها: أفزعها، وصلاصل البيض: أصواتها، والبيض من الحديد: ما يتقى به الرأس من السلاح، واحدتها: بيضة: وهي الخوذة، والسنور: جملة السلاح، وخص به بعضهم الدروع.

(7) المستنبح: الذي يسري فلا يعرف مقصداً فينبح لتجيبه الكلاب فيقصدها. والمتنور: الذي يلتمس ما يلوح له من النار فيقصده.

(8) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 217 ـ 218 ـ 219.

نكاد نلمس فيها أي تأثر بالإسلام.

وتتابع ليلى الأخيلية بكاءها، وقد سيطر عليها جو من الحزن والاكتئاب، فتقول:

يَا عَيْنُ بَكِّي بِدَمْعٍ دَائِمِ السَّجَمِ ... وَابْكِي لِتَوْبَةَ عِنْدَ الرَّوْعِ وَالبُهَمِ[1]

عَلَى فَتًى مِنْ بَنِي سَعْدٍ فُجِعْتُ بِهِ ... مَاذَا أَجَنَّ بِهِ فِي الحَفْرَةِ الرَّجَمِ[2]

مِنْ كُلِّ صَافِيَةٍ صِرْفٍ وَقَافِيَةٍ ... مِثْلِ السِّنَانِ وأمْرٍ غَيْرِ مُقْتَسَمِ

وَمُصْدِرٍ حِينَ يُعْيِي القَوْمَ مُصْدِرِهِمْ ... وَجَفْنَةٍ عِنْدَ نَحْسِ الكَوْكَبِ الشَّبِمِ[3]

إنَّ ليلى لا تبكي وحدها توبة الجسور والمضياف، وإنما يبكيه معها الكثير من الرجال والنساء، قالت مشيرة إلى ذلك، ومشيدة بمناقبه الكثيرة:

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَاكٍ وَبَاكِيَةٍ ... يَا تَوْبُ لِلضَّيْفِ إِذْ تُدْعَى ولِلْجَارِ

وَتَوْبُ لِلْخَصْمِ إِنْ جَارُوا وَإِنْ عَدَلُوا ... وَبدَّلُوا الأمْرَ نَقْضًا بَعْدَ إِمْرَارِ

إِنْ يُصْدِرُوا الأمْرَ تُطْلِعْهُ مَوَارِدُهُ ... أَوْ يُورِدُوا الأمْرَ تُحْلِلْهُ بِإِصْدَارِ[4]

وقالت فيه أيضاً: الطويل:

فَتًى لَمْ يَزَلْ يَزْدَادُ خَيْرًا لَدُنْ مَشَى ... إِلَى أنْ عَلاهُ الشَّيْبُ فَوْقَ المَسَائِحِ[5]

تَرَاهُ إِذَا مَا المَوْتُ حَلَّ بِوِرْدِهِ ... ضَرُوبًا عَلَى أقْرَانِهِ بِالصَّفَائِحِ

شُجَاعٌ لَدَى الهَيْجَاءِ ثَبْتٌ مُشَايِحٌ[6] ... إِذَا انْحَازَ عَنْ أقْرَانِهِ كُلُّ سَابِحِ

فَعَاشَ حَمِيداً لاَ ذَمِيمًا فِعَالُهُ ... وُصُولاً لِقُرْبَاهُ يَرَى غَيْرَ كَالِحِ[7]

---

(1) السجم: سجم الدمع: سال قليلاً قليلاً، والبهم هنا: مشكلات الأمور، واحدتها بهمة (بالضم).

(2) أجن: ستر، والرجم: القبر.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 220 ـ 221. والشبم: البرد، وقولها: «عند نحس الكوكب الشبم» كناية عن الشتاء، وقد وصفت توبة في السطر الأول بالشجاعة، وفي السطر الثاني بالكرم.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 220.

(5) المسايح: جمع مسيحة، وهو شعر جانبي الرأس، ما بين الصدغين إلى الجبهة.

(6) المشايح: المقاتل.

(7) الحصري القيرواني: زهر الآداب، ج4، ص: 1004.

يروى أن ليلى الأخيلية دخلت على مروان بن الحكم فقال لها: ويحك يا ليلى! أكما نعتِّ توبة كان؟ فقالت له: أصلح الله الأمير، والله ما قلت إلا حقًّا ولقد قصَّرت، وما رأيت رجلاً قط كان أربط على الموت جأشاً، ولا أقل إيحاشاً حين تحتدم الحرب، ويحمى الوطيس بالطعن والضرب، كان ـ وعهد الله ـ كما قلت[1]، وأنشدت الأبيات السالفة الذكر.

ومن رثائها لتوبة قولها:

هَرَاقَتْ[2] بَنُو عَوْفٍ دمًا غَير واحدٍ ... لَـهُ نَـبَـأ نَـجْـدِيَّـةٌ سَـيَـغُـورُ[3]

تَـدَاعَـتْ لَـهُ أفْـنـاءُ عَـوْفٍ وَلَـمْ يَـكُـنْ ... لَـهُ يَـوْمَ هَـضْـبِ الـرَّدْهَـتَـيْـنِ نَـصِـيـرُ

وقالت ترثيه أيضاً وتشيد بمحامده وفضائله:

لَنِعْمَ الفَتَى يَا تَوْبَ كُنْتَ وَلَمْ تَكُنْ ... لِتَسْبُقَ يَوْمًا كُنْتَ مِنْهُ تُوَائِلُ

وَنِعْمَ الفَتَى يَا تَوْبَ كُنْتَ إذَا التَقَتْ ... صُدُورُ العَوَالِي واسْتَشَالَ الأسَافِلُ

وَنِعْمَ الفَتَى يَا تَوْبَ كُنْتَ لِخَائِفٍ ... أتَاكَ لِكَيْ يُحْمَى وَنِعْمَ المُنَازِلُ

وَنِعْمَ الفَتَى يَا تَوْبَ جارًا وَصَاحِبًا ... وَنِعْمَ الفَتَى يَا تَوْبَ حِينَ تُفَاضِلُ

أبَى لَكَ ذَمَّ النَّاسِ يَا تَوْبَ إنَّمَا ... لَقِيتَ حِمَامَ المَوْتِ وَالمَوْتُ عَاجِلُ

وَلاَ يُبْعِدَنْكَ اللهُ يَا تَوْبَ إنَّمَا ... كَذَاكَ المَنَايَا عَاجِلاَتٌ وَآجِلُ

ولاَ يُبْعِدَنْكَ اللهُ يَا تَوْبَ والْتَقَتْ ... عَلَيْكَ الغَوَادِي المَدْجِنَاتُ الهَوَاطِلُ[4]

لقد عددت الشاعرة مناقب الفقيد وسجاياه في هذه القصيدة[5] التي لا تتجاوز سبعة أبيات، وكررت اسم «يا توبة» المرخم ثماني مرات، وكلمتي «نعم الفتى» خمس مرات، وكلمت «كنت» أربع مرات، كما كررت عبارة «ولا يبعدنك

---

(1) الحصري القيرواني، م. ن.، ج4، ص: 1004.

(2) هراقت: أراقت.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 220. وأفناء عوف: أخلاطهم، أفناء الناس: لا يعرف ممن هو والواحد: فنو.

(4) البحتري: الحماسة، ص: 170 ـ 271.

(5) القصيدة في عرف النقاد القدماء ما تألف من عشرة أبيات فأكثر أو سبعة فأكثر.. (انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج3، ص: 777.

الله يا توب» مرتين، والتكرار في الألفاظ والعبارات والمعاني سمة من سمات مراثي ليلى الأخيلية.

وقد سألها معاوية، لما وفدت عليه، إن كان حقًّا كما يصفه الناس؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، ليس كل ما يقول الناس حقًّا، والناس شجرة بغي يحسدون أهل النعم حيث كانوا، وعلى من كانت، وقد كان يا أمير المؤمنين سبط البنان، حديد اللسان، شجيّ الأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، وكان كما قلت، ولم أتعدَّ الحق فيه:

بَعِيدُ الثَّرَى لاَ يَبْلُغُ القَوْمُ قَعْرَهُ	أَلَدُّ مُلِدٌّ يَغْلِبُ الحَقَّ بَاطِلُهْ[1]
إِذَا حَلَّ رَكْبٌ فِي ذَرَاهُ وَظِلِّهِ	لِيَمْنَعَهُمْ مِمَّا تُخَافُ نَوَازِلُهْ
حَمَاهُمْ بِنَصْلِ السَّيْفِ مِنْ كُلِّ فَادِحٍ	يَخَافُونَهُ حَتَّى تَمُوتَ خَصَائِلُهْ[2]

فقال لها معاوية: ويحك، يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً[3]، فقالت مرتجلة:

مَعَاذَ إِلٰهِي كَانَ واللّه سَيِّدًا	جَوادًا عَلَى العِلاَّتِ جَمًّا نَوَافِلُهْ[4]
أَغَرَّ خَفَاجِيًا يَرَى البُخْلَ سُبَّةً	تُحَالِفُ كَفَّاهُ النَّدَى وأَنَامِلُهْ
عَفِيفًا بَعِيدَ الهَمِّ صُلْبًا قَنَاتُهُ	جَمِيلاً مُحَيَّاهُ قَلِيلاً غَوَائِلُهْ
وَقَدْ عَلِمَ الجُوعُ الذِي بَاتَ سَارِيًا	عَلَى الضَّيْفِ والجِيرَانِ أَنَّكَ قَاتِلُهْ
وَأَنَّكَ رَحْبُ البَاعِ يَا تَوْبَ بِالقِرَى	إِذَا مَا لَئِيمُ القَوْمِ ضَاقَتْ مَنَازِلُهْ
يَبِيتُ قَرِيرَ العَيْنِ مَنْ بَاتَ جَارَهُ	وَيُضْحِي بِخَيْرٍ ضَيْفُهُ وَمُنَازِلُهْ[5]

---

(1) الثَرى: الخير، والعرب تقول: «قريب الثرى» أي: سريعه، وقولها: بعيد الثرى، معناه: أن خيره عمّ الناس في البلاد، وقولها: لا يبلغ القوم قعره: معناه: صرعه، وألدّ ملد: أشد من كان ذا عداوة.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 222 ـ 223.

(3) الخارب: اللص.

(4) على العلات: على كل حال من عسره ويسره، وجماً: كثيراً، ونوافله: عطاياه.

(5) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 223، والحصري القيرواني: م. ن.، ج4، ص: 1003.

ثم سألها معاوية: من أي الرجال هو؟ فقالت:

أَتَتْهُ المَنَايَا حِينَ تَمَّ تَمَامُهُ ... وَأَقْصَرَ عَنْهُ كُلُّ قِرْنٍ يُطَاوِلُهْ
وَكَانَ كَلَيْثِ الغَابِ يَحْمِي عَرِينَهُ ... وَتَرْضَى بِهِ أَشْبَالُهُ وَحَلاَئِلُهْ
غَضُوبٌ حَلِيمٌ حِينَ يُطْلَبُ حِلْمُهُ ... وَسُمٌّ زُعَافٌ لاَ تُصَابُ مَقَاتِلُهْ[1]

عندئذ أمر لها بجائزة، وطلب منها أن تخبره بأجود ما قالت فيه من شعر، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما قلت فيه شيئًا إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر منه، ولقد أجدت حين قلت:

جَزَى اللهُ خَيْراً والجَزَاءُ بِكَفِّهِ ... فَتًى مِنْ عُقَيْلٍ سَادَ غَيْرَ مُكَلَّفِ
فَتًى كَانَتِ الدُّنْيَا تَهُونُ بِأَسْرِهَا ... عَلَيْهِ وَلاَ يَنْفَكُّ جَمَّ التَّصَرُّفُ
يَنَال عَلِيَّاتِ الأُمُورِ بِهَوْنَةٍ ... إِذَا هِيَ أَعْيَتْ كُلَّ خِرْقٍ مُشَرَّفِ[2]
هُوَ الذَّوْبُ بَلْ أَرْيُ الخَلاَيَا شَبِيهُهُ ... بِدِرْيَاقَةٍ مِنْ خَمْرِ بَيْسَانَ قَرْقَفِ[3]
فَيَا تَوْبَ مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ وَلاَ ... نَدًى وَقَدْ أَمْسَيْتَ فِي تُرْبِ نَفْنَفِ[4]
وَمَا نِلْتُ مِنْكَ النِّصْفَ حَتَّى ارْتَمَتْ بِكَ الـ ... ـمَنَايَا بِسَهْمٍ صَائِبِ الوَقْعِ أَعْجَفِ[5]
فَيَا أَلفَ أَلفِ كُنْتَ حَيًا مُسَلَّمًا ... لأَلْقَاكَ مِثْلَ القَسْوَرِ المُتَطَرِّفِ[6]
كَمَا كُنْتَ إِذْ كُنْتَ المُنَجِّي مِنَ الرَّدَى ... إِذَا الخَيْلُ جَالَتْ بِالقَنَا المُتَقَصِّفِ[7]
وَكَمْ مِنْ لَهِيفٍ مُحْجَرٍ قَدْ أَجَبْتَهُ ... بِأَبْيَضَ قَطَّاعِ الضَّرِيبَةِ مُرْهَفِ[8]

---

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 223. والحصري القيرواني: م. ن.، ج4، ص: 1004. (مع اختلاف يسير).

(2) الهونة: الرفق والسهولة، والخرق (بالكسر) الخريق، جمع أخراق، وخراق، وخروق: وهو الفتى الظريف في سماحة ونجدة.

(3) الذوب: العسل، والأري: العسل أيضاً، والدرياقة: الخمر، وبيسان: بلدة بالشام كانت مشهورة بالخمر. والقرقف: الخمر أو الماء البارد.

(4) النفنف: المفازة وهي الفلاة لا ماء فيها.

(5) السهم الأعجف: الرقيق.

(6) القسور: الأسد، والمتطرف: المغير.

(7) القنا المتقصب: المتكسر، وجولان الخيل: كناية عن الحرب.

(8) المحجر: المضيق عليه.

فَـأَنـقَـذْتَـهُ وَالـمَـوْتُ يَـحْـرُقُ نَـابَـهُ عَـلَـيْـهِ وَلَـمْ يُـطْـعَـنْ وَلَـمْ يُـتَـنَـسَّـفِ[1]

ومن بين الذين وفدت عليهم عبد الملك بن مروان، فقد ذكر الرواة أنه دخل على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فوجد عندها امرأة بدوية أنكرها، فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا الوالهة الحرى ليلى الأخيلية، قال: أنت التي تقولين:

أريقتْ جِفَانُ ابْنِ الخَلِيعِ[2] فَأصْبَحَتْ حِيـاضُ النَّدَى زَالَتْ بِهِـنَّ الـمَرَاتِبُ
فَـعُـفَـاتُـه لَـهْـفَـى يَـطُـوفُـونَ حَـوْلَـهُ كَمَا انْقَضَّ عَرْشُ البِئْرِ وَالوِرْدُ عَاصِبُ[3]

قالت: أنا التي أقول ذلك، قال: فما أبقيت لنا؟ قالت: الذي أبقاه الله لك، قال: وماذا؟ قالت: نسبًا قرشيًا، وعيشًا رخيًا، وإِمْرَةً مطاعة. قال: أفردته بالكرم؛ قالت: أفردته بما أفرده الله به. فقالت عاتكة: إنها قد جاءت تستعين بناعليك في عين تسقيها وتحميها لها، ولست ليزيد إن شفَّعْتُها في شيء من حاجتها، لتقديمها أعرابيًا جلفًا على أمير المؤمنين. فوثبت ليلى فقامت على رجلها واندفعت نحو بعيرها ثم انصرفت غاضبة، وهي تنشد أشعارًا في هجو عبد الملك. وسنعود إليها في حينها.

ولم يقتصر رثاؤها على توبة، فقد رثت من قبل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقالت:

أَبَـعْـدَ عُـثْـمَـانَ تَـرْجُـو الـخَـيْـرَ أُمَّـتُـهُ وَكَـانَ آمَـنَ مَـنْ يَـمْـشِـي عَـلَـى سَـاقِ
خَـلِـيـفَـةُ الـلـهِ أعْـطَـاهُـمْ وَخَـوَّلَـهُـمْ مَـا كَـانَ مِـنْ ذَهَـبٍ مَـحْـضٍ وَأَوْرَاقِ[4]
فَـلاَ تُـكَـذِّبْ بِـوَعْـدِ الـلـهِ واتَّـقِـهِ وَلاَ تَـوَكَّـلْ عَـلَـى شَـيءٍ بِـإِشْـفَـاقِ

---

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 224، وحرق الأنياب: حكها بعضها ببعض، فهو كناية عن الغضب والغيظ، وتنسف في الصراع: قبض بيده على خصمه ثم عرض له رجله فعثره.

(2) تريد أنه قد مات فأريقت جفانه ومات الندى بموته، والخليع، من آباء توبة.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 230 ـ 231. وفي البيت الأخير عيب في الوزن، وهو حذف الحرف الثالث من «فعولن»، وهذا الحذف يسمى الخرم، والعفاة: طالبوا المعروف، واللهف (بالتحريك): الحزن والتحسر، والوِرْد: الماء المورود، وعاصب: جامع.

(4) أوراق: جمع ورق (بكسر الراء): الفضة.

وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيءٍ سَوْفَ أَفْعَلُهُ   قَدْ قَدَّرَ اللهُ مَا كُلُّ امْرِئٍ لاقِ[1]

بعد أن أشادت بمناقب الخليفة في هذه المقطوعة، أنهتها بحكم مستمدة من القرآن كما يبدو ذلك في البيت الأخير[2].

أما زينب الطثرية[3] فلها قصيدة في رثاء أخيها يزيد الذي قتلته بنو حنيفه[4] تبدو فيها اللوعة والحسرة والفجيعة المؤلمة واضحة، تقول:

أَرَى الأَثْلَ مِنْ بَطْنِ العَقِيقِ مُجَاوِرِي   مُقِيمًا وَقَدْ غَالَتْ يَزِيدَ غَوَائِلُهْ[5]
فَتًى قُدَّ قَدَّ السَّيْفِ لاَ مُتَضَائِلٌ   وَلاَ رَهِلٌ لَبَّاتُهُ وَبَآدِلُهْ[6]
فَتًى لاَ تَرَى قَدَّ القَمِيصِ بِخَصْرِهِ   وَلَكِنَّمَا تُوهِي القَمِيصَ كَوَاهِلُهْ
فَتًى لَيْسَ لابْنِ العَمِّ كَالذِّئْبِ إِنْ رَأَى   بِصَاحِبِهِ يَوْماً دَماً فَهْوَ آكِلُهْ
يَسُرُّكَ مَظْلُوماً وَيُرْضِيكَ ظَالِماً   وَكُلُّ الذِي حَمَّلْتَهُ فَهْوَ حَامِلُهْ
إِذَا نَزَلَ الأَضْيَافُ كَانَ عَذَوَّراً   عَلَى الحَيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهْ[7]

---

(1) المالقي: الحدائق الغناء، ص: 172، وابن عساكر: م. ن.، ص: 39.

(2) البيت تضمين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾. سورة الكهف، الآيتان 23 ـ 24.

(3) هي زينب بنت سلمة بنت سمرة من بني عامر بن صعصعة، المعروفة ببنت الطثرية، وهي أمها نسبة إلى الطثر، بالفتح: وهو حي من اليمن، وهي ترثي بهذه الأبيات أخاها يزيد، وهو شاعر مطبوع من شعراء الدولة الأموية، وكان شريفاً جميلاً شجاعاً، قتله بنو حنيفة سنة 126هـ (انظر ابن سلام: طبقات الشعراء، ص: 150 وما بعدها، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 280، والأصبهاني: الأغاني، مج8، ص: 157 وما بعدها)، وزينب ليس لها ترجمة مستقلة، ولكنها تذكر مع أخيها يزيد.

(4) هم بنو حنيفة بن لُجيْم بن صَعْب، وهم أهل اليمامة، وهم أصحاب زرع وضرع وثروة.. (ابن حزم جمهرة أنساب العرب. تحقيق الدكتور عبد السلام هارون، ص: 309).

(5) الأثل: شجر، والعقيق: واد ببلاد بني عامر، وغالت غوائله: أهلكته المهلكات.

(6) المتضائل: من الضؤولة وهي الدقة، ولا متضائل هنا تعني أنه شهم حيّ النفس والقلب. والرَّهِلُ: المسترخي، أي: تصفه بقلة اللحم على الصدر والساق، والبآدل: جمع بأدلة: وهي اللحمة بين العنق والترقوة.

(7) الغذور: السيئ الخلق، القليل الصبر فيما يطلبه ويهم به، والمراجل: جمع مرجل، وهي القدر العظيمة النحاسية، واستقلالها: انتصابها على الأثافي.

إِذَا مَاطَهَا لِلْقَوْمِ كَانَ كَأَنَّهُ حَمِيٌّ وَكَانَتْ شِيمَةً لاَ تُزَايِلُهْ
إِذَا الْقَوْمُ أَمّوا بَيْتَهُ فَهْوَ عَامِدٌ لأَحْسَنَ مَا ظَنُّوا بِهِ فَهْوَ فَاعِلُهْ
إِذَا جَدَّ عِنْدَ الجِدِّ أَرْضَاكَ جِدُّهُ وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شِئْتَ أَلْهَاكَ بَاطِلُهْ
مَضَى وَوَرِثْنَاهُ دَرِيسَ مُفَاضَةٍ[1] وَأَبْيَضَ هِنْدِياً طَوِيلاً حَمَائِلُهْ
فَتًى كَانَ يُرْوِي المَشْرَفِيَّ بِكَفِّهِ وَيَبْلُغُ أَقْصَى حَجْرَةِ[2] الحَيِّ نَائِلُهْ
كَرِيمٌ إِذَا لاَقَيْتَهُ مُتَبَسِّمَا وَإِمَّا تَوَلَّى أَشْعَثُ الرَّأْسِ جَافِلُهْ[3]
تَرَى جَازِرَيْهِ يُرْعَدَانِ وَنَارُهُ عَلَيْهَا عَدَامِيلُ الهَشِيمِ وَصَامِلُهْ[4]
يَجُرَّانِ ثِنْياً خَيْرُهَا عَظْمُ جَارِهِ بَصيراً بِهَا لَمْ تَعْدُ عَنْهَا مَشَاغِلُهْ[5]
وَلَوْ كُنْتُ فِي غُلٍّ فَبُحْتُ بِلَوْعَتِي إِلَيْهِ لَلاَنَتْ لِي وَرَقَّتْ سَلاَسِلُهْ
وَلَمَّا عَصَانِي القَلْبُ أَظْهَرتُ عَوْلَةً وَقُلْتُ أَلاَ قَلْبٌ بِقَلْبِي أُبَادِلُهْ
سَيَبْكِيهِ مَوْلاَهُ إِذَا مَا تَرَفَّعَتْ عَنِ السَّاقِ عِنْدَ الرَّوْعِ يَوْماً ذَلاَذِلُهْ[6]
وَكُنْتُ أُعِيرُ الدَّمْعَ قَبْلَكَ مَنْ بَكَى وَأَنْتَ عَلَى مَنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاغِلُهْ[7]

هذه هي بنت الطثرية الشاعرة المطبوعة «كانت ذات جمال وأدب وكمال، شاعرة مشهورة ومطبوعة على الشعر والفضل والأدب متجملة بالفصاحة. . . ولها مراثٍ كثيرة في أخيها. . .»[8]، وإن كنا لم نعثر لها في المصادر التي بين أيدينا إلا على هذه اللامية التي رثت بها أخاها يزيد، وقد بكته بلوعة وأسى، فكانت

(1) الدريس: الخلق من الدروع وغيرها، والجمع: الدرسان. والمفاضة: الدرع الواسعة.
(2) المشرفي: السيف. وحجرة: ناحية.
(3) أشعث الرأس: أغبر الرأس متلبد، وجافله: كثيرة.
(4) العداميل: العتيق من الخشب الغليظ، واحدها: عدمول، والصامل: اليابس.
(5) الثني: الناقة التي ولدت بطنين، وهي مما يضن بها.
(6) الذلاذل: جمع الذلذل، وهو هدب الثياب.
(7) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ج3، ص: 1046 وما بعدها. والبحتري: الحماسة، ص: 275. والأصبهاني: م. ن.، مج8 ص: 184 ـ 185. وبشير يموت: شاعرات، ص: 195 ـ 196 وابن الأعرابي: مقطعات مراث، تحقيق محمد حسن الأعوجي ص: 60 وما بعدها، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1994. (مع الاختلاف في عدد الأبيات وترتيبها).
(8) زينب فواز: الدر المنثور، ص: 335.

عاطفتها الملكومة تتدفق ألماً وحسرة، ووصفته بجميع الفضائل والمناقب التي كان العرب يفاخرون ويمدحون بها كالشجاعة والبطولة والكرم وإغاثة الملهوف. وفي القصيدة غرابة وخشونة في بعض الألفاظ والمعاني، ولا يبدو على الشاعرة التأثر بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، فظل أسلوبها جاهليًّا، فهي في حدود ما وصلنا، كما وصفت: شاعرة مطبوعة، توفيت في حدود سنة خمس وثلاثين ومائة للهجرة (135هـ).

أما زوجة الوليد فقالت ترثي أخاها عمر بن سعيد،[1] وكان قد قتله عبد الملك مروان لما خرج عليه:

أيَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ عَلَى عَمْرو	عَشَيَّةَ أوتِينَا الخِلاَفَةَ بِالقَهْرِ
غَدَرْتُمْ بِعَمْرٍو وَيَا بَنِي خَيطِ بَاطِلٍ[2]	وَكُلُّكُمْ يَبْنِي البُيُوتَ عَلَى الغَدْرِ
وَمَا كَانَ عَمْرُو عَاجِزاً غَيْرَ أَنَّهُ	أَتَتْهُ المَنَايَا بَغْتَةً وَهْوَ لاَ يَدْرِي
كَأَنَّ بَنِي مَرْوَانَ إِذْ يَقْتُلُونَهُ	خِشَاشٌ[3] مِنَ الطَّيْرِ اجْتَمَعْنَ عَلَى صَقْرِ
لحا اللهُ دُنْيَا تُعْقِبُ الذُّلَّ أهْلَهَا	وَتَهْتِكُ مَا بَيْنَ القَرَابَةِ مِنْ سِتْرِ
ألاَ يَا لَقَوْمِي لِلْوَفَاءِ وَلِلْغَدْرِ	وَلِلْمُغْلِقِينَ البَابَ قَسْراً عَلَى عَمْرِو
فَرُحْنَا وَرَاحَ الشَامِتُونَ عَشِيَّةً	كَأَنَّ عَلَى أعْنَاقِهِمْ فَلَقَ الصَّخْرِ[4]

ورغم أن الأبيات في الرثاء، فإن الشاعرة قد انصرفت من الرثاء إلى

---

(1) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، ولي المدينة ليزيد بن معاوية وكان يسمى الأشدق لفصاحته، قتله عبد الملك بن مروان سنة سبعين للهجرة (70هـ). (ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، مج3، ص: 161).

(2) خيط باطل: لقب مروان بن الحكم، لقب بذلك لطوله واضطرابه، قال الشاعر:

لَحَا اللهُ قَوْمَاً مَلَّكوا خَيْطَ بَاطِلٍ ... عَلىَ النَّاسِ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنع

وخيط باطل: الضوء الذي يدخل من الكوة، يقال هو أدق من خيط باطل.

(3) الخِشاش: بالكسر حشرات الأرض والعصافير ونحوها، وبالفتح: الشجاع.

(4) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 195، وعبد البديع صقر: شاعرات العرب، ص: 482. ونسب ابن شاكر الكتبي بعض هذه الأبيات إلى يحيى بن الحكم أخ مروان (انظر فوات الوفيات مج3، ص: 161).

الهجاء، فوصفت بني مروان بالغدر لأن مروان بن الحكم كان ولّى عمراً العهد بعد ابنه عبد الملك، فقتله عبد الملك، فقيل إنها أول غدرة كانت في الإسلام.[1] ولم أعثر للشاعرة إلا على هذه القصيدة، كما لم أعثر على اسمها كاملاً لأن المصادر التي بين أيدينا سكتت عنه.

أما الرباب[2] زوجة الحسين بن علي، فقالت ترثيه لما قتل بكربلاء:

إنَّ الـذِي كَـانَ نُـوراً يُـسْـتَـضَـاءُ بِـهِ	بِـكَـرْبَـلاءَ قَـتِـيـلٌ غَـيْـرُ مَـدْفُـونِ
سِبْـطَ الـنَّـبِـيّ جَـزَاكَ الـلـهُ صَـالِـحَـةً	عَـنَّـا وَجُـنِّـبْـتَ خُـسْـرَانَ الـمَـوَازِيـنِ
قَدْ كُنْـتَ لِـيَ جَـبَـلاً صَـعْـباً ألُـوذُ بِـهِ	وَكُـنْـتَ تَـصْـحُـبُـنَـا بِـالـرُّحْـمِ والـدِّيـنِ
مَـنْ لِـلْـيَـتَـامَـى وَمَـنْ لِـلـسَّـائِـلِـيـنَ وَمَـنْ	يُـغْـفَـى [3] وَيَـأوِي إلَـيْـهِ كُـلُّ مِـسْـكِـيـنِ
وَالـلـهِ لاَ أبْـتَـغِـي صِـهْـراً بِـصِـهْـرِكُـمُ	حَـتَّـى أُغَـيَّـبَ بَـيْـنَ الـرَّمْـلِ والـطِّـيـنِ[4]

وكانت عاتكة بنت زيد زوجة الحسين الأخرى قد رثته هي بدورها، لكن رثاء الرباب كان أكثر حرارةً وحزنًا، وهي أكثر شاعرية من عاتكة بالرغم من أنه لم يصلنا من شعر الرباب إلا هذه المقطوعة.

ورثت الحسين ومن معه أيضاً ابنة عمه عقيلة بنت عقيل[5] بن أبي طالب، فقالت:

عَـيْـنِـي ابْـكِـي بِـعَـبْـرَةٍ وعَـوِيـلِ	وَانْـدُبِـي إنْ نَـدَبْـتِ آلَ الـرَّسُـولِ

---

(1) ابن شاكر الكتبي: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(2) هي بنت امرىء القيس بن عدي، زوجة الحسين بن علي، كانت معه في موقعة كربلاء، ولما قتل جيىء بها إلى الشام مع السبايا، ثم عادت إلى المدينة ومكثت فيها إلى أن توفيت سنة 62هـ. (ابن الأثير: الكامل، ج3، ص: 300، والزركلي: الأعلام، مج3، ص: 13).

(3) يعفى: يطلب معروفه، من عفا فلاناً: أتاه يطلب معروفه وفضله.

(4) الأصبهاني: الأغاني، مج16، ص: 92.

(5) عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب: شاعرة من شواعر العرب، وناقدة أيضاً، كانت تجلس للناس وتنقد الشعراء. (المرزباني: الموشح، ص: 254. وانظر ما بعدها. وكحالة: أعلام النساء، ج3، ص: 322. وانظر ما بعدها).

سِتَّةٌ كُلُّهُمْ لِصُلْبِ عَلِيّ قَدْ أُصِيبُوا وَسِتَّةٌ لِعَقِيلِ[1]

وقالت أيضاً في وقعة كربلاء:

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ مَاذَا فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ
بِعَتْرَتِي وَبِأَهْلِي بَعْدَ مُفْتَقَدِي مِنْهُمْ أَسَارَى وَقَتْلَى ضُرِّجُوا بِدَمِ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ أَنْ تَخْلُفُونِي بِسُوءٍ فِي ذَوِي رَحِمِي[2]

أما هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية، فهي من اللائي تشيَّعن لعلي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، فكانت ترثي كل من يقتل من أصحابه، وتحرض القوم على اتباع خطة علي، وهي تمتاز بالفصاحة والجرأة، وحسن الرأي، وجودة البيان.[3]

ومن شعرها قولها في رثاء حجر[4] بن عدي لما قتله معاوية:

تَرَفَّعْ أَيُّهَا القَمَرُ المُنِيرُ تَبَصَّرْ هَلْ تَرَى حُجْراً يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بنِ حَرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الأَمِيرُ
تَجَبَّرَتِ الجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ وَطَابَ لَهَا الخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيرُ[5]
وَأَصْبَحَتِ البِلادُ لَهَا مُحُولاً كَأَنْ لَمْ يُحْيِهَا مُزْنٌ مَطِيرُ
أَلاَ يَا حُجْرُ حُجْرَ بَنِي عَدِيٍّ تَلَقَّتْكَ السَّلامَةُ وَالسُّرُورُ
أَخَافُ عَلَيْكَ مَا أَرْدَى عُدِيّاً وَشَيْخاً فِي دِمَشْقَ لَهُ زَئِيرُ

---

(1) كحالة: المرجع نفسه، ج3، ص: 342.

(2) كحالة: المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3) زينب فواز: الدر المنثور، ص: 536، وكحالة: أعلام النساء، ج5، ص: 234.

(4) حجر بن عدي الكندي، صحابي شجاع، من المتقدمين، وفد على رسول الله ﷺ وشهد القادسية، ثم كان من أصحاب علي، وشهد معه وقعتي الجمل وصفين. قتله معاوية سنة ثلاث وخمسين للهجرة، وقيل سنة واحد وخمسين، وهو أوَّلُ من قتل صبراً في الإسلام (الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج3، ص: 218 وما بعدها والمسعودي: مروج الذهب، ج3، ص: 1 وما بعدها . والزركلي: الأعلام، مج2، ص: 169).

(5) الخورنق والسدير: قصران.

يَرَى قَتْلَ الخِيَارِ عَلَيْه حقاً لَهُ مِنْ شَرِّ أمَّتِهِ وَزِيرُ

ألاَ يَا لَيْتَ حُجْراً مَاتَ مَوْتاً وَلَمْ يُنْحَرْ كَمَا نُحِرَ البَعِيرُ

فَإنْ تَهْلِكْ فَكُلُّ زَعِيم قَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى هُلْكٍ يَصِيرُ[1]

وقالت فيه:

دمُوعُ عَيْنِي دِيمَةٌ تَقْطُرُ تَبْكِي عَلَى حُجْرٍ وَلاَ تَفْتُرُ

لَوْ كَانَتِ القَوْسُ عَلَى أسْرِهِ مَا حَمَلَ السَّيْفَ لَهُ الأعْوَرُ[2]

تعني بالأعْوَرِ في البيت الثاني ما رواه المسعودي في مروج الذهب: من أن حجرًا حمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه، فلما صار إلى عذراء على بعد اثني عشر ميلاً من دمشق تقدم البريد بأخبارهم إلى معاوية، فبعث برجلٍ أعور، فلما أشرف على حجرٍ وأصحابه، قال رجل منهم: إن صدق الزجر فإنه سيقتل منا النصف، وينجو الباقون، فقيل له: وكيف؟ قال: أما ترون الرجل المقبل مصاباً بإحدى عينيه، فلما وصل إليهم قال لحجر: إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك وقتل أصحابك إلا أن ترجعوا عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه، فقال حجر وجماعة ممن كان معه: إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه، وأجاب نصف من كان معه إلى البراءة من علي، فقتل الأعور حجرًا ومن وافقه على قوله من أصحابه[3].

وقالت في رثاء عمها:

لَقَدْ مَاتَ بِالبَيْضَاءِ مِنْ جَانِبِ الحِمَى[4] فَتًى كانَ زَيْناً لِلْكَوَاكِبِ والشُّهْبِ

---

(1) الطبري: م. ن.، مج3، ص: 232. والمسعودي: م. ن.، ج3، ص: 1 ـ 2 وفيه: أنشأت ابنته تقول ولا عقب له من غيرها، ثم أورد الأبيات.

(2) الطبري: م. ن.، مج3، ص: 232، وزينب فواز: م. ن.، ص: 537، وكحالة: م. ن.، ج5، ص: 235، ويقال: إن هذين البيتين للكندية.

(3) المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص: 1 وما بعدها. وانظر الخبر بالتفصيل في تاريخ الطبري: م. ن.، مج3، ص: 228 وما بعدها.

(4) البيضاء والحمى: موضعان. (انظر الحموي: م. ن.، مج1، ص: 530 ـ 531).

يَلُوذُ بِهِ الجَانِي مَخَافَةَ مَا جَنَى كَمَا لاَذَتِ العَصْمَاءُ بِالشَّاهِقِ الصَّعْبِ
تَظَلُّ بَنَاتُ العَمِّ والخَالِ حَوْلَهُ صَوَادِي لاَ يَرْوَيْنَ بِالبَارِدِ العَذْبِ[1]

ويضيف صاحب معجم البلدان بيتاً آخر إلى الأبيات السالفة، وهو:

يُهِلْنَ عَلَيْهِ بِالأكُفِّ مِنَ الثَّرَى وَمَا مِنْ قِلًى يُحْثَى عَلَيْهِ مِنَ التُّرْبِ[2]

لقد رثت الشاعرة عمها مرة وحجر بن عدي مرتين، ويبدو من خلال رثائها لحجر تشيعها لعلي كرم الله وجهه، فهي من أنصاره ومؤيديه.

ومن ثم نراها تعرض بمعاوية في الأبيات الأولى فتصفه بالتجبر والظلم ـ إذ يرى قتل الخيار عليه حقاً ـ كما استطاعت الشاعرة أن تصف لنا حزنها وآلامها على حجر في بيتين آخرين، فقد ظلت دموعها تسيل أسى عليه. وفي الجملة فإن شعرها في الرثاء، على قلته، يمتاز بالسهولة والوضوح، وصدق العاطفة، ويبدو أن لها مراثي أخرى لم تصل إلينا، وذلك لأن بعض المصادر ذكرت بأنها رثت حجرًا بقصائد طويلة وأشعار غزيرة[3]، وتوفيت في خلافة معاوية.[4]

أما سلامة القس[5]، وهي شاعرة مغنية، ومولدة[6] من مولدات المدينة،

---

(1) زينب فواز: م. ن.، ص: 537، وذيل ديوان النساء، ص: 187 وفيه: وتنسب هذه الأبيات لهند الضبابية، والحموي: م. ن.، مج1، ص: 531. وفيه الأبيات ولم ينسبها لأحد، وإنما قال: قال بعضهم.

(2) الحموي: م. ن.، مج1، ص: 531.

(3) زينب فواز: الدر المنثور، ص: 537.

(4) زينب فواز: م. ن.، والصفحة نفسها.

(5) سميت سلامة القس لأن فقيهاً من فقهاء مكة يدعى عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي، كان يلقب بالقس لعبادته ونسكه، شُغف بها وشُهر، فغلب عليها لقبه، وكانت من أحسن النساء وجهاً، وأتمهن عقلاً، وأحسنهن حديثاً، قد قرأت القرآن وروت الشعر وقالته، وتوفيت في حدود سنة 130 هـ (الأصبهاني: الأغاني، مج8، ص: 336 وانظر ما بعدها. والأصبهاني: القيان، ص: 49.

(6) المولدة: المولودة بين العرب والناشئة مع أولادهم، المتأدبة بأدبهم.

نشأت فيها، وأخذت الغناء عن معبد[1]، وابن عائشة[2] وجميلة، وغيرهم، وقد اشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان، وقد أحبته حبًّا شديدًا ـ ولما مات رثته بقولها:

لا تَـلُـمـنَـا إنْ خَـشَـعْـنـا ... أوْ هَـمَـمْـنَـا بِـخُـشُـوعِ
قَـدْ لَـعَـمْـرِي بِـتُّ لَـيْـلِـي ... كَـأخِـي الـدَّاءِ الـوَجِـيـعِ
ثُـمَّ بَـاتَ الـهَـمُّ مِـنِّـي ... دُونَ مَـنْ لِـي بِـضَـجِـيـعِ
لِـلّـذِي حَـلَّ بِـنَـا الـيَـوْ ... مَ مِـنَ الأمْـرِ الـفَـظِـيـعِ
كُـلَّـمَـا أبْـصَـرتُ رَبْـعـاً ... خَـالِـيـاً فَـاضَـتْ دُمُـوعِـي[3]

وقالت فيه أيضاً:

لاَ تَـلُـمْـنَـا إنْ خَـشَـعْـنَـا ... أوْ هَـمَـمْـنَـا بِـخُـشُـوعِ
إذْ فَـقَـدْنَـا سَـيِّـداً كـا ... نَ لَـنَـا غَـيْـرَ مُـضِـيـعِ
وَهْـوَ كَـالّـلـيْـثِ إذَا مَـا ... عُـدَّ أصْـحَـابُ الـدُّرُوعِ
يَـقْـنِـصُ الأبْـطَـالَ ضَـرْبـاً ... فِـي مُـضِـيٍّ وَرُجُـوعِ[4]

والمقطوعتان من نفس البحر والقافية، ولعلها من قصيدة واحدة جزئت إلى مقاطع؛ ومما قالته أيضاً:

بَـيْـنَ الـتَّـرَاقِـي وَالـلّـهَـاةِ حَـرارةٌ ... مَـا تَـطْـمَـئِـنُّ وَمَـا تَـسُـوغُ فَـتَـبْـرُدُ[5]

---

(1) هو معبد بن وهب: نابغة الغناء في العصر الأموي، نشأ في المدينة، ثم رحل إلى الشام، فاتصل بأمرائها، وكان أديباً فصيحاً... (سمير شيخاني: أشهر المغنين عند العرب ص: 11 وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج7، ص: 264).

(2) هو محمد بن عائشة، مغنٍّ من أهل المدينة في العصر الأموي، وكان حسن الصوت، توفي نحو 100 هـ (سمير شيخاني: المرجع نفسه، ص: 31 وما بعدها. والزركلي: م. ن.، مج6، ص: 179).

(3) المالقي: الحدائق، ص: 95، وابن عساكر: تاريخ دمشق - تراجم النساء ـ ص: 193، وانظر الأصبهاني: الأغاني، مج8، ص: 347 ـ 348 (بترتيب مختلف).

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 348.

(5) المالقي: م. ن.، ص: 95. وابن عساكر: م. ن.، ص: 193.

ورثته بمرثية أخرى، فما سمع السامعون بشيء أحسن منها ولا أشجى، ولقد أبكت العيون، وأخرقت القلوب، وأفتنت الأسماع، وهي:

يَا صَاحِبَ القَبْرِ الغَرِيبِ ... بِالشَّامِ فِي طَرَفِ الكَثِيبْ
بِالشَّامِ بَيْنَ صَفَائِحٍ ... صُمٌّ تُرَصَّفُ بالجُبُوبْ[1]
لَمَّا سَمِعْتُ أنِينَهُ ... وَبُكَاءَهُ عِنْدَ المَغِيبْ
أقْبَلْتُ أطْلُبُ طِبَّهُ ... وَالدَّاءُ يُعْضِلُ بِالطَّبِيبْ[2]

بعد موت يزيد أحضر سلامة ابنه الوليد، وأمرها أن تغنيه شعرها في يزيد، فتنغصت من ذلك وبكت، ثم غنت، وظلت في قصر الوليد بن يزيد حتى أدركت مقتله سنة 126 هـ، فرثته بقولها:

أيَا سَيِّدَ الفِتْيَانِ مَا لَكَ نَاصِرُ ... فَقَدْ نِيلَ مِنْكَ اليَوْمَ مَا لاَ يُقَادَرُ[3]
لَقَدْ رَكِبَ القَسْرِيُّ[4] مِنَّا عَظِيمَةً ... فَمَا فِي قُرَيْشٍ، لاَ أبَا لَكَ ثَائِرُ
فَقُلْ لِبَنِي مَرْوَانَ: عِيشُوا بِذِلَّةٍ ... فَقَدْ جُدِعَتْ آنَافِكُمْ وَالمَنَاخِرُ[5]

في الجملة فإن أسلوب الشاعرة في المعالجة لا يكاد يختلف عن أساليب الشعراء في رثائهم وفي إشادتهم بفضائل المرثي ومحامده العامة إلا في مقطوعتها التي استهلتها بـ «يا صاحب القبر الغريب» فإننا نجد فيها وحدة فنية عميقة، وعلى الرغم من خلوها من الندب والعويل، فهي تعبر بصدق عن عمق الحسرة والحزن اللذين يتحشرج بهما فؤاد المكلوم.

أما مليكة الشيبانية[6]، وهي شاعرة خارجية، فكانت تناصر الضحاك بن قيس

---

(1) الجبوب: المدر المفتت.

(2) كحالة: أعلام النساء، ج2، ص: 233. وانظر الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 349. ويعضل بالطبيب: تضيق عليه فيه الحيل.

(3) يقادر: نقول: قادرت الرجل مقادرة، إذا قايسته وفعلت مثل فعله.

(4) القسري: تعني بذلك أبا مِخجن مولى خالد القسري.

(5) المالقي: م. ن.، ص: 95. وابن عساكر: م. ن.، ص: 193.

(6) مليكة الشيبانية: شاعرة من شواعر العرب في العصر الأموي، وهي خارجية من بني شيبان، =

الخارجي،[1] ولما مات رثته بقولها:

قُولِي مَلِيكَ: عَلَيْكِ بِالصَّبْرِ تَسْتَوْجِبِينَ فَضَائِلَ الأجْرِ
قُولِي فَإنَّكِ غَيْرُ كَاذِبَةٍ يَا عُدَّتِي لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ
أوْرَثْتِنِي كَمَداً يُؤَرِّقُنِي وَتَلَهُّفاً وَحَرَارَةَ الصَّدْرِ
وَمَرَارَةً فِي العَيْشِ دَائِمَةً وَحَرَارَةً كَحَرَارَةِ الجَمْرِ
ذَهَبَ الذِي قَدْ كَانَ يَأمُرُنَا بِالخَيْرِ وَالمَعْرُوفِ والذِّكْرِ[2]

هكذا تبدو هذه المرثية ذات طابع إسلامي، فالشاعرة صابرة بالرغم من هول المصاب لأنها تعلم ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **[يوسف: 90]**.

وعاطفتها حارة ملتهبة، متدفقة وهي صادقة حين قالت: « أورثتني كمداً يؤرقني، وتلهفاً وحرارة... كحرارة الجمر....» وقد تجلت المعاني الإسلامية عندها أكثر حين عددت مناقبه ووصفت مآثره والدور الذي كان ينهض به في حياته، فقد كان يأمر بالخير والمعروف والذكر.

وقالت ترثي:

مَنْ لِجَارَاتِكَ الضِّعَافِ إذَا حَلْ لَ بِهَا نَازِلٌ مِنَ الحَدَثَانَ؟
مَنْ لِضَيْفٍ يَنْتَابُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْـ ـلِ إذا مَلَّ مَنْزِلُ الضَّيفَانِ؟
سَوْفَ أبْكِي عَلَيْكَ مَا سَمِعَتْ أذْنَايَ يَوماً تِلاوَةَ القُرآنِ

= كانت تناصر الضحاك بن قيس الخارجي وكانت حية سنة 129هـ (انظر المرزباني: أشعار النساء، ص: 196).

(1) الضحاك بن قيس الخارجي: من زعماء الخوارج وشعرائهم، خرج مع سعد بن بهدل سنة 126هـ في مائتين من حرورية الجزيرة، ولما مات سعيد سنة 127هـ خلفه الضحاك، وبايعه مائة وعشرون ألف مقاتل على مذهب الصفرية، وملك الكوفة وغيرها، قتل سنة 129 هـ (انظر الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص: 512، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص: 322، والزركلي: الأعلام، مج3، ص: 215).

(2) المرزباني: م. ن.، ص: 196.

أيْـنَ مَـنْ يَـحْـفَـظُ الـقَـرَابَـةَ والـصِّـهْـ	ـرَ وَيُـؤْتِـي لِـحَـاجَـةِ الـلَّـهْـفَـانِ؟
وَيَـحُـوطُ الـمَـوْلـى وَيَـصْـنَـعُ الـخَـيْـ	ـرَ وَيُـجْـزِي الإحْـسَـانَ بـالإحْـسَـانِ
وَيَـكُـفُّ الأذَى وَيَـبْـتَـذِلُ الـمَـعْـ	ـرُوفَ سَمْحَ اليَدَيْنِ سَبْطَ البَنَانِ[1]

ورثته أيضاً بأبيات تتسم بالعاطفة الباكية الصادقة، مشيدة فيها بمناقبه، إذ كان المؤمل والمرجى والمؤازر في الأمور المعضلات، قالت:

يَـا عَـيْـنُ جُـودِي بِـالـدُّمُـوعِ	بِـوَاكِـفٍ حَـتَّـى الـمَـمَـاتِ
قُـولاً لِـمَـنْ حَـضَـرَ الـحُـرُوبَ	مِـنَ الـنِّـسَـاءِ الـشَّـارِيَـاتِ[2]
أمْـسَـيْـنَ بَـعْـدَ غَـضَـارَةٍ	وَنَـعِـيـمِ عَـيْـشٍ مُـثْـبَـتَـاتِ[3]
مِـنْ بَـعْـدِ عَـيْـشٍ نَـاعِـمٍ	صَـارَتْ عِـظَـامُـهُـمْ رُفَـاتِ
وَإِذَا الـمَـنِـيَّـةُ أَقْـبَـلَـتْ	لَـمْ تَـغْـنِ أَقْـوَالُ الـرُّقَـاةِ
كُـنْـتَ الـمُـؤَمَّـلُ والـمُـرَجْـ	ـجَى فِـي الأُمُـورِ الـمُـعْـضِـلاَتِ
كُـنْـتَ الـمُـؤَامِـرَ والـمُـؤَا	زِرَ والـمُـطَـالِـبِ لِـلـتُّـرَاتِ[4]

ورثت عمها أيضاً، فقد قتل مع الضحاك بن قيس الخارجي في الموقعة التي دارت بينه وبين مروان بن محمد الخليفة الأموي سنة 129 هـ قرب كفر توثة[5]، فقالت تبكيه:

---

(1) المرزباني: م. ن.، ص: 197.

(2) الشاريات: واحدها: شاربة، وهي المرأة المنتسبة إلى الخوارج، وهم الشراة، أي: الذين باعوا أنفسهم لله.

(3) المثبتات: المثبت: من لا حراك به من المرض، وبكسر الباء الذي ثقل فلم يبرح.

(4) المرزباني: م. ن.، ص: 197 ـ 198. وقد استقت البيت الرابع «وإذا المنية أقبلت...» من بيت أبي ذؤيب الهُذلي(ت28هـ) الذي يقول فيه:

وإذا الـمَـنِـيَّـةُ أَنْـشَـبَـتْ أظْـفَـارَهَـا ... أَلْـفَـيْـت كُـلَّ تَـمِـيـمَـة لاَ تَـنْـفَـع

وهو من قصيدة تعد من عيون شعره قالها في رثاء أولاده الخمسة، وقيل الثمانية، الذين ماتوا في مصر بالطاعون في عام واحد (انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 440 ـ 442. والسيوطي: شرح شواهد المغني، ج1، ص: 29 وما بعدها. والقرشي: جمهرة أشعار العرب، ص: 241، وما بعدها، وبروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص: 169 ـ 170).

(5) كفر توثا: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، بينها وبين دارا خمسة فراسخ، وهي بين دارا ورأس =

أَصَـــبَــرْتُ عَـــنْ عَــمِّـــي الَّـــذِي ... قَـــدْ كَـــاَن بِـــالــمَــعْــرُوفِ آمِــرْ؟
أَصَـــبَــرْتُ عَـــنْ عَــمِّـــي الـــذي ... كَـــانَ الـــمُـــآمِـــرَ والـــمـــؤازر؟
إِخْـــوَانُـــهُ الـــنَّـــفَـــرُ الـــشُّـــرَاةُ ... ذوو الـــفـــضـــيـــلـــة والـــبـــصـــائـــر
يَـــا عَـــمِّ كُـــنْـــتَ لِـــسَـــانَ قَـــوْ ... مِـــكَ حِـــيـــنَ يَـــجْـــتَـــمِـــعُ الـــمَـــعَـــاشِـــرْ
فَـــلأَبْـــكِـــيَـــنَّـــكَ بِـــالـــغَـــدا ... ةِ وبِـــالأَصَـــائِـــلِ والـــهَـــوَاجِـــر
وَلَـــئِـــنْ بَـــكَـــيْـــتُ لَـــقَـــدْ رُزِئْـــ ... ـــتُ بِـــفَـــارِسٍ بَـــطَـــلٍ مُـــغَـــاوِر[1]

أما رثاؤها الثاني لعمها فرائية بلغت أحد عشر بيتاً تأبى فيها الصبر وتستدر الدمع حزناً وجزعاً على عمها الذي كان سمحاً عفيفاً وقوراً تقياً جامعاً للشمل، فموته كان خسارة للجميع، ولذلك، فلتبكيه نسوان الشراة، وليبكه المولى، وطالب حاجة عند العشاء، وكل ضيف طارىء. تقول:

مَـا بَـالُ دَمْـعِـكِ يَـا مَـلِـيـكَـةُ جَـارِ ... أَمْ مَـا لِـقَـلْـبِـكِ لاَ يَـقِـرُّ قَـرارُ[2]؟
أَمْ لِـنَـفْـسِـكِ لَـيْـسَ يَـسْـكُـنُ حُـزْنُـهَـا ... لَـيْـلاً، وَلَـيْـسَ نَـهَـارُهَـا بِـنَـهَـارِ؟
جَـزَعاً عَـلَـى مَـنْ كَـانَ يَـجْـمَـعُ شَـمْـلَـنَـا ... وَنُـعِـدُّهُ لِـنَـوَائِـبِ وَعِـثَـارِ
لَـوْ كُـنْـتُ أَمْـلِـكُ دَفْـعَ ذَلِـكَ لَـمْ تَـكُـنْ ... يَـا عَـمِّ بَـيْـنَ نَـضَـائِـدٍ وَغُـبَـارِ
أَلْـقَـيْـتُ جِـلْـبَـابِـي لِـعِـظَـمِ رَزِيَّـتِـي ... وَبَـرَزْتُ سَـافِـرَةً بِـدُونِ خِـمَـارِ
زُرْتُ الـمَـقَـابِـرَ كَـيْ أُسَـلِّـي عَـبْـرَتِـي ... هَـيْـهَـاتَ مِـمَّـنْ زُرْتُ بَـعْـدَ مَـزَارِ
فَـلْـتَـبْـكِ نِـسْـوَانُ الـشُّـرَاةِ بِـعَـبْـرَةٍ ... عِـنْـدَ الـحُـرُوبِ وَكُـلُّ كَـهْـلٍ شَـارِي
وَلْـيَـبْـكِـهِ الـمَـوْلَـى وَطَـالِـبُ حَـاجَـةٍ ... عِـنْـدَ الـعِـشَـاءِ، وَكُـلُّ ضَـيْـفٍ طَـارِي
أَيـنَ الـذِيـنَ إِذَا ذُكِـرَتْ فِـعَـالُـهُـمْ ... عُـرِفُـوا بِـحُـسْـنِ عَـفَـافَـةٍ وَوَقَـارِ؟
أَيـنَ الـذِيـنَ إِذَا أَتَـاهُـمْ سَـائِـلٌ ... بَـذَلُـوا لَـهُ أَمْـوَالَـهُـمْ بِـيَـسَـارِ؟
أَيـنَ الـذِيـنَ إِذَا ذَكَـرنَـا دِيـنَـهُـمْ ... قَـالَـتْ عَـشَـائِـرُهُـمْ: هُـمْ الأَخْـيَـارُ؟[3]

= عين، وكفر توثا أيضاً: من قرى فلسطين (الحموي: معجم البلدان، مج4، ص: 468 ـ 469. وانظر البكري: معجم ما استعجم، ج4، ص: 1131).

(1) المرزباني: م. ن.، ص: 198.

(2) في البيت إقواء.

(3) المرزباني: م. ن.، ص: 198 ـ 199. وفي البيت الأخير إقواء.

أما رثاؤها الثالث لعمها فحائية بلغت سبعة أبيات تبكي فيها عمها المغيب في الثرى، فدموعها لا ينضب معينها، فهي حزينة متألمة لهلاكه فقد كان يمثل مجموعة من الفضائل والشيم، وبموته ذهبت تلك الفضائل والخلال، تقول:

أبْـكِـي الـمُـغَـيَّـبَ فِـي الـثَّـرَى ... بَـيْـنَ الـنَّـضَـائِـدِ والـصَّـفَـائِـحْ
أبْـكِـي وحَـقَّ لِـي الـبُـكَـا ... ءُ مَـعَ الـغَـوَادِي والـرَّوَائِـحْ
فَـلأبْـكِـيَـنَّـكَ مَـا غَـدَتْ ... شَـمْـسٌ وَمَـا جَـرَتِ الـبَـوَارِحْ
مَـنْ ذَا يُـرَجَّـى لِـلـنَّـصِـيـ ... ـحَـةِ حِـيـنَ تُـعْـتَـقَـدُ الـنَّـصَـائِـحْ؟
أمْ مَـنْ يُـرَجَّـى لِـلْـقَـرِيـ ... ـبِ وَمَـنْ يَـكُـونُ لِـكُـلِّ نَـازِحْ؟
أمْ مَـنْ يُـؤَمَّـلُ لِـلْـيَـتِـيـ ... ـمِ وَكُـلِّ ذِي غَـرَبٍ[1] وَنَـائِـحْ؟
أمْ مَـنْ يَـعُـمُّ صَـدِيـقَـهُ ... خَـيْـراً وَيُـجْـحِـرُ كُـلَّ نَـابِـحْ؟[2]

فمصيبة الشاعرة فادحة، لقد فقدت في يوم واحد ثلاثة من الشراة، وهم: أخوها وعمها، والضحاك زعيم الخوارج، وقد رثتهم جميعاً بشعر مؤثر يدل على مدى حبها لهم، وعلى صدق مشاعرها في وصفها لأحاسيسها ولما ألمَّ بها من الأسى والألم والحزن والغم الشديد، وها هي ذي تبكي الضحاك فتقول:

مَـا بَـالُ دَمْـعِـكِ دَائِـم الـسَّـجْـمِ ... مِـثْـلِ الـجُـمَـانِ وَهَـى مِـنِ الـنَّـظْـمِ؟
جَـلَّـتْ مُـصِـيـبَـتُـنَـا وَقَـدْ عَـظُـمَـتْ ... لَـمَّـا فُـجِـعْـتِ بِـسَـيِّـدٍ ضَـخْـمِ
حُـلْـوِ الـشَّـمَـائِـلِ حِـيـنَ تَـخْـبُـرُهُ ... حَـسَـنِ الـسَّـرِيـرَةِ مَـاجِـدٍ شَـهْـمِ
يَـصِـلُ الـقَـرَابَـةَ والـجِـوَارَ إذَا ... قَـطَـعَ الـقَـرَابَـةَ صَـاحِـبُ الـظُّـلْـمِ
فَـلأَبْـكِـيَـنَّـكَ كُـلَّـمَـا وَخِـدَتْ ... عِـيـسٌ بِـأرْجُـلِـهَـا عَـلَـى رَسْـمِ
وَلأَبْـكِـيَـنَّـكَ عِـنْـدَ مُـجْـتَـمِـعِ الأمْـ ... ـلاَءِ عِـنْـدَ تَـطَـاوُلِ الـخَـصْـمِ[3]

هذه هي الشاعرة، مليكة الشيبانية، فكل ما وصلنا من شعرها محصور في الرثاء، رثت عمها ثلاث مرات، ورثت كلاً من أخيها والضحاك زعيم الخوارج

---

(1) الغَرَبُ هنا: الدمع السائل باستمرار، يقال: يعنيه غرب: إذا كانت تدمع ولا ينقطع دمعها.

(2) المرزباني: م. ن.، ص: 200، ويحجر: يقال: أحجره إليه ألجأه إليه واضطره.

(3) المرزباني: م. ن.، ص: 200.

مرتين، وقد ظل رثاؤها في جملته متأثراً بالموروث الشعري العربي القديم، فطرقت المعاني نفسها التي طرقها الشعراء في فن الرثاء من قبل، كالكرم والشجاعة والعفاف، والأمر بالمعروف، وغيرها، وإن كانت تشيع في بعضه المعاني الدينية والنزعة السياسية أيضاً لأن الشاعرة من أنصار الخوارج، ويبدو ذلك في اختيارها للألفاظ (تلاوة القرآن ـ النساء الشاريات ـ إخوانه النَّفَرُ الشراة ـ كل كهل شاري، وغيرها). وهي مصطلحات معروفة لدى شعراء الخوارج، مما يدل على تحزبها.

أما الشيبانية فكانت هي الأخرى شاعرة خارجية، وكانت معاصرة لمليكة الشيبانية، ذكرها حبيب بن خدرة الهلالي حسب رواية المرزباني، فقال: «ما رأيت أشد كمدًا من امرأة من بني شيبان، قتل أبوها وأخوها وزوجها وابنها وعمها وخالها مع الضحاك، فما رقأت لها عين، ولا رأيتها ضاحكة ولا مبتسمة حتى فارقت الدنيا»[1] قالت ترثيهم:

مَنْ لِقَلْبٍ شَفَّهُ الحُزْنُ ... وَلِنَفْسٍ مَا لَهَا سَكَنُ
ظَعَنَ الأبْرَارُ فَارْتَحَلُوا ... خَيْرَهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ ظَعَنُوا
مَعْشَرٌ قَضَّوْا نُحُوبَهُمُ ... كُلّ مَا قَدْ قَدَّمُوا حَسَنُ
صَبَرُوا عِنْدَ السُّيُوفِ فَلَمْ ... يَنْكُلُوا عَنهَا ولاَ جَبُنُوا
فِتْيَةٌ بَاعوا نُفُوسَهُمُ ... لا وَرَبِّ البَيْتِ ما غُبِنُوا
ابْتَغَوْا مَرْضَاةَ رَبِّهِمْ ... حِينَ مَاتَ الدِّينُ والسُّنَنُ
فأصَابَ القَوْمُ ما طَلَبُوا ... بعدما هدَّتْهُمُ الفِتَنُ[2]

من خلال هذه المرثية التي وصلتنا من شعر الشيبانية يتضح أن الشاعرة

---

(1) المرزباني: م. ن.، ص: 194، وابن عبد ربه: العقد الفريد،ج3، ص: 260. (مع اختلاف يسير في الرواية). ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا اسمها وتاريخ ميلادها ووفاتها، ولكنها كانت معاصرة لمليكة الشيبانية والضحاك بن قيس الخارجي، وكانت حية سنة 129هـ لأنها رثت ذويها الذين قتلوا مع الضحاك في هذه السنة.

(2) المرزباني: م. ن.، ص: 145، وانظر أيضاً ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص: 205 ـ 206 والعقد، ج3، ص: 260.

متألمة لما حدث لذويها، صابرة مستسلمة لإرادة الله، ويغلب على الأبيات التأبين لمعشر قومها، تصفهم بالشجاعة والإقدام، وقد غلب على شعرها العاطفة الدينية الصادقة، والشاعرة خارجية، ولذلك امتاز رثاؤها بصدق الإيمان، والتأثر بالقرآن الكريم، ويبدو ذلك جليًا في قولها:

فِـتْـيَـةٌ بَـاعـوا نُـفُـوسَـهُـمُ ... لا وَرَبِّ الـبَـيْـتِ مـا غُـبِـنُـوا
ابْـتَـغَـوْا مَـرْضَـاةَ رَبِّـهِـمْ ... حِـيـنَ مَـاتَ الـدِّيـنُ والـسُّـنَـنُ

فهي تشير إلى قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 207].

أي باعوا أنفسهم لِلّه، ولذلك سمى الخوارج أنفسهم «الشراة».

هذا ما وصل إلينا من شعر الشيبانية في الرثاء، وهو على ما قلته جزل وذو طابع حزبي وسياسي.

ونبقى مع رثاء الشاريات، فهذه أم الجراح العدوية ترثي مرداساً وعروة[1]، فتقول:

وَمَـا بَـعْـدَ مـرْداسٍ وعُـروَةَ بَـيـنَـنَـا ... وَبَيْنَكُمْ شَيءٌ سِوَى عِطْرِ مَنْشِمِ[2]
فَـلَـسْـتَ بِـنَـاجٍ مِـنْ يَـدِ الـلـهِ بَـعْـدَمَـا ... هَرَقْتَ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ بِلاَ دَمِ[3]

---

(1) هو عروة بن حدير أحد بني ربيعة من حنظلة من تميم، وأخو مرداس، كان له أصحاب وأتباع، قتله زياد في خلافة معاوية صبرًا، وسيفه أول سيف سل من سيوف الخوارج. وكان شديد العبادة حتى قال مولاه في وصفه: ما أتيته بطعام بنهار قط ولا فرشت له فراشاً بليل قط. أما مرداس فشهد مع علي صفين فأنكر التحكيم، وشهد مع الخوارج النهروان، وكان زاهداً، قتله عباد بن علقمة المازني سنة 61 هـ (أسماء المغتالين، ص: 180 والدكتور إحسان عباس: شعر الخوارج، ص: 48 ـ 49 ـ 50.

(2) منشم: قيل إنه اسم امرأة كانت تبيع الطيب، فكلما استعمل طيبها زادت الحرب، فصارت مثلاً في الشر، وقيل: منشم: هي الشر بعينه.

(3) البلاذري: أنساب الأشراف، ج4، ص: 160، ط القدس، 1971. ومخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، ج2، ص: 64.

فالشاعرة تحث الشراة على مواصلة الحرب والانتقام من قتلة الزعيمين أبي بلال مرادس وعروة، ثم تتوعد قاتلهما بعذاب أليم يُسلِّطهُ الله عليه انتقاماً لدماء المسلمين التي هرقها بدون حق.

وهذه امرأة خارجية أخرى من بني سليط ترثي مرداساً وأصحابه، فتقول:

سَقَى اللهُ مِرْدَاساً وأصحَابَهُ الأولَى ... شَرَوْا مَعَهُ غَيْثاً كَثِيرَ الزَّمَاجِرِ[1]

فَكُلُّهُمْ قَدْ جَادَ للهِ مُخْلِصاً ... بِمُهْجَتِهِ عِنْدَ الْتِقَاءِ العَسَاكِرِ[2]

فالشاعرة ترثي مرداسا وأصحابه الذين جادوا بأنفسهم لِلّه تعالى في سبيل نصرة الحق، وقد ابتعدت عن أسلوب الرثاء في الشعر العربي القديم والذي هو تعبير عن الفاجعة والتحسر واللوعة لفقد قريب أو عزيز أو صاحب فضل مع ذكر مآثرة، ومناقبه، فالمرثية تخلو من الحزن والندب واللوعة والتفجع الذي عهدناه في الشعر العربي ولكنها تدعو اللّه أن ينزل غيثاً كثيراً على قبورهم وأن يجزيهم أحسن الجزاء.

وقالت عمرة أم عمران بن الحارث الراسبي، ترثي ابنها الذي قتل مع نافع[3] ابن الأزرق يوم دولاب[4]:

اللهُ أيَّدَ عِمْرَانًا وَطَهَّرَهُ ... وَكَانَ عِمْرَانُ يَدْعُو اللهَ فِي السَّحَرِ

يَدْعُوهُ سِرًّا وإعْلانًا لِيَرْزُقَهُ ... شَهَادَةً بِيَدَيْ مِلْحَادَةٍ غُدَرِ

---

(1) الزماجر: جمع زمجرة وهي الصوت، تعني مطراً شديد الرعود.

(2) البلاذري: أنساب الأشراف، ج1، ص: 162.

(3) نافع بن الأزرق: فهو أحد الخوارج الشجعان الأبطال، كان أمير قومه وفقيههم، وإليه تنسب فرقة الأزارقة التي اشتبكت مع المهلب بن أبي صفرة في حروب قاسية، قتل يوم دولاب على مقربة من الأهواز سنة 65 هـ (الدينوري: الأخبار الطوال، ص: 69 وما بعدها. والأصبهاني: الأغاني، مج6، ص: 134 وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج7 ص: 351 ـ 352).

(4) دولاب: قرية من الأهواز بينها وبين الأهواز نحو أربعة فراسخ كانت حرب بين الأزارقة وبين مسلم بن عبيس وذلك في أيام ابن الزبير، سنة 65 هـ.(الحموي: معجم البلدان/ مج2، ص: 485 ـ 486 والأصبهاني: م. ن. ، مج6، ص: 134. والبكري: معجم ما استُعْجِم ج2، ص: 563).

وَلَّى صَحَابَتَهُ عَنْ حَرِّ مِلْحَمَةٍ   وَشَدَّ عِمْرَانُ كَالضِّرْغَامَةِ الهُصَرِ

أَغْنَى ابْنَ عَمْرَةَ إِذْ لاقَى مَنِيَّتَهُ   يَوْمَ ابْنُ بَابٍ يُحَامِي عَوْرَةَ الدُّبرِ[1]

لقد وصفت الشاعرة ابنها عمران بأنه يقوم الليل ويدعو اللّه في السحر سرًّا وعلانية ليرزقه الشهادة بيد كافر غادر، فأعداء الخوارج ومخالفوهم كفرة ملاحدة كما صورتهم الشاعرة، ثم وصفت لنا شجاعته فقد كان تقيًّا شجاعًا كالأسد الهصور، وهو قاتل الحجاج بن باب وقتيله في آن واحد.

أما أخت الحازوق[2] أو ابنته وهي شاعرة خارجية أيضًا، فقالت ترثي أخاها الحازوق:

أَعَينَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ عَلَى الصَّدْرِ   عَلَى الفَارِسِ المَقْتُولِ بِالجَبَلِ الوَعْرِ

فَإِنْ يَقْتُلُوا الحَازُوقَ وابنَ مُطَرِّفٍ   فَإِنَّ لَدَيْنَا حُوشَياً وأَبَا جَسْرِ

أُقَلِّبُ عَيْنِي فِي الرِّكَابِ فَلاَ أَرَى   حُزَاقاً فَعَينِي كَالْحجَاةِ مِنَ القَطْرِ[3]

وَمَنْ يَغْتِمِ العَامَ الوَشِيكَ ولاَحِقاً   وقَتْلَ حُزَاقٍ لاَ يَزَلْ عَالِيَ الذِّكْرِ[4]

إذا كانت هذه المرثية قد سادها الحزن والألم والأسى، وقد استهلتها الشاعرة بالبكاء على غير عادة الشراة الذين يتشوقون إلى الموت في ميدان الجهاد، ويستهينون بالدنيا المليئة بالشر ويرغبون في الآخرة الحافلة بالخير، ومرجع ذلك هو أن الشاعرة ترثي أخاها، إنه الأخ وهي الأخت التي تهون عليها الدنيا بمن فيها على أن تفقده، وهي امرأة، والمرأة في الغالب لا تسيطر على عواطفها في مثل هذه اللحظات.

---

(1) ابن باب: الحجاج بن باب الحميري: اختاره أهل البصرة لحمل الراية وهو الذي التقى بعمران بن الحارث يوم دولاب، فاختلفا ضربتين فسقطا ميّتين. (الأصبهاني: المصدر نفسه،مج6، ص: 136 ـ 137).

(2) الحازوق: خارجي من أصحاب نجدة الحنفي ولاه على الطائف، فلما كثر الخلاف على نجدة اجترأ الناس على ولاته فقتلوه. (شعر الخوارج، ص: 76 ـ 77).

(3) اسمه حازوق، ونَقَلته إلى «أحزاق» والحجاة: النفاخة من المطر ونحوه تعلو الماء.

(4) البلاذري: أنساب الأشراف، ج2، ص: 174. (مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط).

أما ميسة[1] بنت جابر، فقالت ترثي حارثة[2] بن بدر وتهجو بشرًا:

بُدِّلْتُ بِشْراً شَقَاءً أَوْ مُعَاقَبَةً   مِنْ فَارِسٍ كَانَ قِدْماً غَيْرَ عُوَّارِ[3]

يَا لَيْتَنِي قَبْلَ بِشْرٍ كَانَ عَاجَلَنِي   دَاعٍ مِنَ اللهِ أَوْ دَاعٍ مِنَ النَّارِ[4]

ولميسة أشعارٌ أخرى في هجاء بشر سنعود إليها عند حديثنا عن فن الهجاء.

2 ـ رثاء المدن:

وفي هذا العصر كثرت الفتن والثورات، وانقسم المسلمون شيعاً وأحزاباً، وتفرقت كلمتهم، وعادوا إلى حياة آبائهم في الجاهلية فأحيوا العصبية القبلية التي حرمها الإسلام، وتتابعت الفتن والأحداث، فذبح أبناء الرسول ﷺ في كربلاء، وطوقت هذه السلالة الكريمة وأشياعهم بالقتل والتشريد، وأحرقت الكعبة وأبيحت مدينة الرسول ﷺ للجيش الشامي، وغدت الجزيرة العربية مسرحاً للأهواء والجدل ومجالاً للتخريب والحروب[5]، كان ذلك كله وراء ظهور نوع جديد من الرثاء لم يألفه العرب من قبل وهو رثاء المدن. ومن أروع ما وصلنا في هذا الفن قصيدة عائشة[6] العثمانية في مكة المكرمة، ترثي سكانها وعمرانها، تقول فيها:

---

(1) ميسة بنت جابر: شاعرة من شواعر العرب في العصر الأموي، كانت ذات فصاحة وبلاغة ورأي وجمال، تزوجها حارثة بن بدر، فلما مات تزوجها بشر بن شعاف، فلم تر فيه ما كانت ترى في حارثة، فهجته ورثت بشراً (الأصبهاني: الأغاني،مج3، ص: 483، وكحالة: أعلام النساء، ج5، ص: 135).

(2) حارثة بن بدر: شاعر من تميم من أهل البصرة له أخبار في الفتوح، كان صديقاً لزياد بن أبيه، وأمر على قتال الخوارج في العراق فهزموه، مات غرقاً سنة أربع وستين للهجرة (الأصبهاني: المصدر نفسه: مج23،ص: 444 والزركلي: الأعلام مج2، ص: 158).

(3) غير عوار: ليس ضعيفاً جباناً.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج23، ص: 484.

(5) انظر: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ص: 211.

(6) قال الأسدي أبو القاسم: رأيت عائشة العثمانية على جمل أحمر نجيب تقاتل في بعض حروب الطالبيين أشد حرب، وتحمل على الكتائب فتفرق جمعها، وكانت من ساكني مكة، وكانت تتشيع. ما رأيت جارية أصبح وجهاً، ولا أكمل عقلاً منها، وكانت من أشعر الناس وأكثرهم بياناً، وأفصحهم لهجة ولساناً مع ظرفٍ ونوادر وملح، وكانت مطبوعة مقتدرة تلعب بالشعر لعباً، =

أرِقْـتُ لِـبَـرقٍ بَـدَا ضَـوْؤُهُ بِـمَـكَّـةَ يَـبـدُو وَيَـخْـفَـى مِـرَارَا
فَـبِـتُّ أُمَـلْـمَـلُ فِـي مَـضْـجَـعِـي وابْـكِـي جِـهَـاراً وأبـكِـي سِـرَارَا
لِأمِّ الـقُـرَى خَـرِبَـتْ بِـالـحَـرِيـقِ وَمَـاتَ بِـهَـا الـنَّـاسُ سَـيْـفـاً وَنَـارَا
إلَـى الـلَّـهِ أشـكُـو مَـقَـامَ الـعِـدَا بِـمَـكَّـةَ قَـدْ حَـاصَـرُوهَـا حِـصَـارَا
وَأسْـرَى تُـقَـطَّـعُ أيْـدِيـهُـمُ فَـمَـاتُـوا صُـفُـوفـاً وَمَـاتُـوا جِـذَارَا
فَـمِـنْ صَـابِـرٍ نَـفْـسَـهُ فِـي الـبِـلاءِ وَمِـنْ خَـائِـفٍ فَـرَّ مِـنْـهَـا فَـطَـارَا
وَمِـنْ حَـامِـلٍ نَـفْـسَـهُ فِـي الـسَّـفِـيـنِ يَـجُـوبُ الـدُّجَـى ويَـخُـوضُ الـبِـحَـارَا
فَـيَـا قَـرْيَـةً كُـنْـتِ مَـأوَى الـضَّـعِـيـفِ إذَا لَـمْ يَـجِـدْ فِـي سِـوَاهَـا قَـرَارَا
وَمَـأوَى الـغَـرِيـبِ ومَـأوَى الـقَـرِيـبِ وَآمِـنَـةً لَـيْـلَـهَـا والـنَّـهَـارَا
سَـأبْـكِـي قُـرَيـشـاً لِـمَـا نَـالَـهَـا وَبَـدَّلَـهَـا الـخَـوفُ دَاراً فَـدَارَا
وَأضْـحَـوْا عَـبَـادِيـدَ[1] قَـدْ شُـرِّدُوا وَحَـلُّوا الـجِـبَـالَ وحَـلُّوا الـقِـفَـارا[2]
بِـجِـيـرَانِ بَـيْـتِـكِ حَـلَّ الـنَّـكَـالُ وَقَـدْ عَـزَّ مَـنْ كَـانَ لِـلَّـهِ جَـارَا

بكاء المدن في الشعر، هو باب من الرثاء، عرفه شعراء المشرق إلاّ أنهم لم يبلغوا فيه شأن المغاربة والأندلسيين، الذين كانوا فيه أكثر روعة، ولعل ذلك يعود لكون خراب المدائن، وزوال الدول تباعاً، إنما وقع بكثرة في الأندلس، فقد أحزنهم أن يروا مدنهم تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي الغزاة المكتسحين، فبكوها بقصائد ومقتطعات خلدها لنا التاريخ في مصادره المختلفة[3].... ولعل أول ما

= وتصوغ فيه ألحاناً، وكانت كثيرة المال والعبيد تفرق مالها في الطالبيين وتجهز جيوشهم، وتقوي أمورهم، وتخرج وتحارب دونهم، وكانت من أشجع الناس، وخرجت في غير جيش وحاربت في مواطن كثيرة، وقتلت بشراً كثيراً، ولها في كل وقعة شعر. (ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص: 423 ـ 424). ولم أعثر لها إلا على هذه الترجمة، لمْ يذكر ابن المعتز تاريخ ميلادها ووفاتها ولا عصرها، وإنما من خلال ما ورد في ترجمتها وشعرها بدا لنا أنّها عاشت في عصر بني أمية، لأنها أشارت في قصيدتها إلى الحوادث التي ألمت بمكة من عام 63 إلى عام73 للهجرة.

(1) عباديد: تعبدد القوم فهم عباديد: تفرقوا وتشتتوا.

(2) ابن المعتز: م. ن.، ص: 424.

(3) انظر عن بكاء المدن في الشعر العربي كتابنا: النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى، ص: 30 وما بعدها، الشركة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1994.

وصلنا من الشعر المشرقي في بكاء المدن، هذه القصيدة للشاعرة عائشة العثمانية التي بكت فيها مكة أثناء الحوادث التي ألمت بها عام 63 إلى عام 73 للهجرة، فقد حاصرها الحصين بن نمير قائد جيش يزيد بن معاوية سنة أربع وستين للهجرة، يريد ابن الزبير الذي شق عصا الطاعة على بني أمية وتحصّن بالبيت فرماها ابن نمير بالمجانيق وبالنيران فاحترقت الكعبة،[1] وفي هذه الأثناء توفي فرفُع الحصار عن مكة، وفي سنة ثلاث وسبعين حاصرها الحجاج قائد جيش عبد الملك بن مروان من جديد ورمى الكعبة بالمجانيق من كل جانب حتى هدمها، بعد أن بناها ابن الزبير وأنفق كثيراً في بنائها. وفي هذه السنة قُتل ابن الزبير وعادت مكة إلى الأمويين.[2]

لقد صورت الشاعرة في هذه القصيدة ما حلّ بمكة في نبرة آسية ولوعة صادقة، وصفت خلالها الفتنة التي ألمت بمكة وصفاً دقيقاً حتى لتبدو أمام العين، حين قراءتها، صور التخريب والدمار والقتل والذعر الذي أصاب الناس، كما وصفت المدينة في أيام عزها ومجدها وما آلت إليه بعد اقتحامها، جاء كلّ ذلك بأسلوب عربي مبين بالرغم مما تسرب إليه من جمل مضطربة ركيكة أحياناً. وأما عاطفتها فصادقة لأنها من أهل المدينة الذين آلمتهم النكبة، فجاءت عاطفتها حزينة لأن قلبها يقطر ألماً وأسىً على ما حلّ بمدينة الرسول الأعظم ﷺ وبجيران بيت الله الحرام. ولم يصلنا من شعر عائشة إلا هذه المرثية.

ب ـ الغزل:

يحتل الغزل المرتبة الثانية في شعر شواعرنا، في هذا العصر، ولا عجب في ذلك، فهُنّ من شواعر العصر الأموي الذي كثر فيه الغزل كثرة مفرطة وتعددت اتجاهاته تعدداً لم يعرف له مثيل في أيّ من عصور أدبنا العربي[3]. ولم يظهر

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج3، ص: 361 وانظر ما بعدها.

(2) انظر تفصيل الخبر في الطبري: م. ن.، مج3، ص: 528 وما بعدها. واليعقوبي: تاريخه، ج2، ص: 251 وما بعدها. والدينوري: الأخبار الطوال، ص: 309 وما بعدها.

(3) الدكتور يوسف حسين بكار: شعر ربيعة الرقي... ص: 53. وانظر كتابه: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص: 249.

مستقلًا إلا في هذا العصر، وقبل ذلك كان مقدمات لغيره من الأغراض الأخرى[1]. وينقسم شعر الغزل في هذا العصر إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ **الغزل التقليدي:** وهو الذي كان الشعراء يستهلون به قصائدهم على سبيل الاستجابة الفنية لتقاليد القصيدة العربية وتمهيداً لأغراض القصيدة الأخرى، ويمثل هذا الاتجاه: جرير والفرزدق، والأخطل، والراعي، وغيرهم.

2 ـ **الغزل العذري أو العفيف:** وهو غزل روحي شريف لا تهتّك فيه ولا مجون يبتعد فيه صاحبه عن التعابير المكشوفة والألفاظ الفاضحة، وهو في مجمله يتلاءم مع الحياة الإسلامية، ويمثل هذا الاتجاه جميل بثينة، وقيس بن الملوح، وقيس لبنى، وغيرهم.

3 ـ **الغزل الإباحي:** وهو غزل مادي وجسدي فاحش يتلظى شهوة ولا يقيم وزناً للأخلاق والمواصفات الاجتماعية والدينية، وأصحاب هذا الاتجاه ينشدون الملاذ والشهوات، وهم كما وصفهم الدكتور شكري فيصل: «طبقة متحررة منطلقة، تضع شهواتها وملاذها فوق كل شيء... إنها لم تنس نصيبها من الدنيا، ولكنها نسيت نصيبها من الآخرة...»[2] ويمثل هذا الاتجاه: عمر بن أبي ربيعة والأحوص ووضّاح اليمن، والعرجي، وغيرهم.

أما الشواعر في هذا العصر فينقسم شعرهن الغزلي إلى اتجاهين: اتجاه العفاف والترفع، واتجاه المجون والشهوة، ويمثل هذا الاتجاه الأول الشاعرات: ليلى العامرية، وامرأة يزيد بن سنان، وعقيلة بنت الضحاك، وسلامة القس، وغيرهن. ويمثل الاتجاه الثاني: خيرة أم ضيغم البلوية، وأم خالد الخثعمية وأميمة زوجة ابن الدمينة، وستيرة العصيبيَّة، وغيرهن.

---

(1) الدكتور غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص: 188. وانظر الدكتور عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ج1، ص: 367. وهذا الحكم لا ينطبق على شواعر صدر الإسلام، فلهن مقطوعات غزلية مستقلة... (انظر الفصل الثالث في بحثنا هذا).

(2) الدكتور شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص: 81 وانظر علي بو ملحم: في الأدب وفنونه، ص: 101.

ونبدأ بغزل ليلى[1] العامرية صاحبة قيس بن الملوح[2] المشهور» بمجنون ليلى»، وهي شاعرة من شواعر بني عامر في عصر أمية، وكانت جميلة بصيرة بالشعر والأدب، ووقائع العرب في الجاهلية والإسلام. عشقها قيس وهما لا يزالان صغيرين، فقد كانا يجتمعان لرعي مواشي أهلهما، وظلّا كذلك حتى كبرا وشبَّا، فحجبت عنه، ويدل على ذلك قوله:

تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهْيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ وَلَمْ يَبْدُ للأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ
صَغِيرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا إِلَى اليَومِ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبُرِ البَهْمُ[3]

ويروى غير ما أسلفت، فقد ذكرت بعض المصادر أن قيسًا أقبل ذات يوم على ناقةٍ له، فمر بامرأة من قومه وعندها نسوة يتحدثن فيهن ليلى، فدعونه إلى النزول، فنزل وعقرلهنَّ ناقته، وظل يحدثهن وهن معجبات بجماله وظرفه، فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى من الحي يسمي منازل، فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون، فغضب وخرج من عندهن وانصرف، فلما أصبح عاد فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها مع جوارٍ لها، وقد علق بقلبها وهويته، فدعته للنزول فنزل وأخذ يحدثها. وأرادت ليلى أن تعرف ما في قلبه نحوها، فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة. وتحدث غيره، وكان قد شغفته بحبها واستملحها، فبينما هي تحدثه، إذ أقبل فتى من فتيان الحي فدعته وسارَّته سِراراً طويلاً، ثم قالت له

(1) هي ليلى بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، أم مالك العامرية، وتوفيت قبل المجنون وهو توفي في حدود سنة ثمان وستين، أو ثمانين للهجرة (الأصبهاني: الأغاني، مج2، ص: 12. وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص: 288. والزركلي: الأعلام، مج5، ص: 249. وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، مج3، ص: 312).

(2) هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، المعروف بمجنون ليلى، وهو شاعر من شعراء الغزل العذري، تغنّى بليلى كثيراً في شعره، كان يعيش في صدر الدولة الأموية، توفي سنة 68 أو 80 هـ (الأصبهاني: م. ن.، مج2، ص: 5 وما بعدها. وابن نباتة: سرح العيون، ص: 209 وما بعدها).

(3) مجنون ليلى: ديوانه، ص: 8 (تحقيق جلال الدين الحلبي). وص: 238 (تحقيق عبد الستار أحمد فراج). وانظر الأصبهاني: م. ن.، مج2، ص: 13. وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 378.

انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون وقد تغير وانتقع[1] لونه، وشقَّ عليه فعلها، فاطمأنت وأنشأت تقول:

كِلانَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بُغْضاً ... وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينُ
تُبَلِّغُنَا العُيُونُ بِمَا أرَدنَا ... وَفِي القَلبَيْنِ ثَمَّ هَوًى دَفِينُ
وَنُظْهِرُ جَفْوَةً مِنْ غَيْرِ حِقْدٍ ... وَحُبُّكَ فِي فُؤادِي مَا يَبِينُ
فَطِبْ نَفساً بِذَاكَ وَقَرَّ عَيْناً ... فَإنَّ هَوَاكَ فِي قَلبِي مَصُونُ
وَأسْرَارُ اللَّوَاحِظِ لَيْسَ تَخْفَى ... وَقَدْ تُغْزَى بِذِي اللَّحْظِ الظُّنُونُ
وَكَيْفَ يَفُوتُ هَذَا النّاسَ شَيءٌ ... وَمَا فِي النّاسِ تُظْهِرُهُ العُيُونُ[2]

فلما سمع الأبيات شهق شهقة شديدة وأغمي عليه، فنضحوا الماء على وجهه فأفاق بعد ساعة، وهكذا تمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ، ثم إنه لما شهر قيس وليلى وتناشد الناس شعره فيها، قام أبوه وإخوته وبنو عمه فأتوا أبا ليلى وسألوه بالرحم والقرابة أن يزوجها منه، وأخبروه أنه ابتُلي بها، فأبى أبو ليلى ولج وحلف، خوفاً من الفضيحة والعار، وزوَّجها رجلاً من قومه يسمى ورداً على كره منها[3]. ويذكر الرواة أن رجلاً من بني مرة خرج إلى ناحية الشام والحجاز ونجد في بغية له فإذا هو بخيمة قد رفعت له وقد أصابه مطر، فعدل إليها وتنحنح، فإذا امرأة قد كلمته من وراء ستار وأذنت له بالنزول، ثم سألته من أين أقبل؟ فقال: من ناحية تهامة ونجد وأخبرها عن نزوله ببني عامر، فتنفست الصعداء وبكت، ثم سألته إن كان سمع بذكر فتى يقال له قيس ويلقب بالمجنون، فقال لها:

أي والله، ونزلت على أبيه أتيته ونظرت إليه، يهيم في تلك الفيافي، ويكون مع الوحش لا يعقل ولا يفهم إلا أن تذكر له ليلى فيبكي، وينشد أشعاراً يقولها

---

(1) انتُقع: يقال: انتقع لونه إذا تغير من هم أو فزع.

(2) مجنون ليلى المصدر السابق (عبد الستار...)، ص: 29، الأبيات، وانظر الخبر والبيتين الأول والثاني في الأصبهاني: م. ن.، مج2، ص: 13. وابن شاكر الكتبي: م. ن.، مج3، ص: 203.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج2، ص: 14 ـ 15. وانظر ديوان قيس ص: 9 ط. الحلبي.

فيها، قال: فرفعت الستر بيني وبينها، فإذا فلقة لم تر عيني مثلها، فبكت وانتحبت حتى ظننت أن قلبها قد انصدع، ثم قالت:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي وَالخُطُوبُ كَثِيرَةٌ ... مَتَى رَحْلُ قَيْسٍ مُسْتَقِلٌ[1] فَرَاجِعُ

بِنَفْسِيَ مَنْ لاَ يَسْتَقِلُّ بِرَحْلِهِ ... وَمَنْ هُوَ إِنْ لَمْ يَحْفَظِ اللهُ ضَائِعُ

وسقطت مغشيًا عليها، فلما أفاقت سألها الرجل عن مصابها، فقالت: أنا ليلى المشؤومة عليه، غير المؤنسة له[2].

ومن خلال هذه القصة، ومما روي من أخبارها نعرف أن ليلى كانت مدلَّهة[3] به كتدلهه بها، وقد بادلته الحب والشعر، ونستشف ذلك من خلال شعرها فيه، إذ تقول:

لَمْ يَكُنِ المَجْنُونُ فِي حَالَةٍ ... إِلاَّ وَقَدْ كُنْتُ كَمَا كَانَا

لَكِنَّهُ بَاحَ بِسِرِّ الهَوَى ... وَإِنَّنِي قَدْ ذُبْتُ كِتْمَانَا[4]

وقالت فيه:

بَاحَ مَجْنُونُ عَامِرٍ بِهَوَاهُ ... وَكَتِمْتُ الهَوىَ فَمِتُّ بِوَجْدِي

فَإِذَا كَانَ فِي القِيَامَةِ نُودِي ... مَنْ قَتِيلُ الهَوَى؟ تَقَدَّمْتُ وَحْدِي[5]

ويروى أن رجلًا مر بليلى وهي واقفة على باب خبائها، فسألته: أين تريد؟ فقال: أريد بني عامر، فزفرت زفرة وقالت:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ ... عَرِّجْ لأُنْبِيءَ عَنِّي بَعْضَ مَا أَجِدُ

فَمَا رَأَى النَّاسُ مِنْ وَجْدٍ تَضَمَّنَهُمْ ... إِلَّا وَوجْدِي بِهِ فَوْقَ الذِي وَجِدُوا

---

(1) مستقل: من استقل القوم: ارتحلوا.

(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 379 ـ 380، والأصبهاني: م. ن.، مج2، ص: 70 ـ 71، والسراج: مصارع العشاق، مج1،ص: 33 ـ 34. وديوان مجنون ليلى، ص: 27 ـ 28 ط. عبد الستار، (الشعر والخبر).

(3) المدله: ذاهب العقل من الهوى.

(4) الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، ج2، ص: 348.

(5) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 158.

أهْــوَى رِضَــاهُ وإِنِّــي فِــي مَــودّتِــهِ ... وَحُــبِّــهِ آخِــرَ الأيَّــام أجْــتَــهِــدُ[1]

وذكر قيس قال: قلت لليلى من أعز خلق الله عليك؟ قالت: من إذا عثرت نهضت باسمه، وإذا رقدت حلمت بوجهه، قيس بن الملوح، وقد قلت في ذلك شعراً، وأنشأت تقول:

إِذَا دَهَــلَــتْ رِجْــلِــي بَــدَأْتُ بِــذِكْــرِهِ ... وَأحْــلُــمُ فِــي نَــومِــي بِــهِ وأعِــيــشُ

إِذَا ذُكِــرَ الــمَــجْــنُــونُ زالــتْ بِــذِكْــرِهِ ... قُــوَى الــنَّــفْــس أوْ كَــادَ الــفُــؤَادُ يَــطِــيــشُ

وَوَالــلَّــهِ مَــا كَــادَ الــفُــؤَادُ يُــجِــنُّــهُ ... وَإِنْ كَانَ صَدْرِي مِنْ هَوَاهُ يَجِيشُ[2]

ويروى أنه قيل لليلى: والله لئن لم تنتهي عن ذكر قيس لنقتلنكما معاً، فبعثت إلى القائل رقعة مكتوباً فيها:

تَــوَعَّــدَنِــي قَــوْمِــي بِــقَــتْــلِــي وَقَــتْــلِــهِ ... فَقُلْتُ اقْتُلُونِي واتْرُكُونِي مِنَ الذّنْبِ

وَلاَ تُــتْــبِــعُــوهُ بَــعْــد قَــتْــلِــيَ ذِلّــةً ... كَفَى بِالذِي يَلْقَاهُ مِنْ سَوْرَةِ الحُبِّ[3]

وذكر أن المجنون لما أعيا الأطباء داؤه، ولم ينجح فيه الدواء وصار إلى أسوأ حالة من توحشه في الصحاري، شق ذلك على ليلى، فكتبت إليه:

فَــلَــوْ أنَّ مَــا ألْــقَــى ومَــا بِــي مِــنَ الــهَــوَى ... بِــأرْعَــنَ رُكْــنَــاهُ صَــفًــا وَحــدَيــدُ

تَــقَــطَّــع مِــنْ وَجْــدٍ وذَابَ حَــدِيــدُهُ ... وَأمْــسَــى تَــرَاهُ الــعَــيْــنُ وهْــوَ عَــمِــيــدُ

ثَــلاثُــونَ يَــوْمــاً كُــلَّ يَــوْمٍ وَلَــيْــلَــةٍ ... أمُــوتُ وَأحْــيــا إنَّ ذَا لَــشَــدِيــد[4]

وكتبت مع الشعر: «إن الذي بي أضعاف ما بقلبك، ولكن وجدت السترة أبقى للمودة وأحمد في العاقبة»[5]، وأمرت غلاماً بطلبه حيث كان. . . وقالت أيضاً:

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص: 69 ـ 70. طبعة الحلبي. (الخبر والأبيات).

(2) م. ن.، ص: 78.

(3) ديوان مجنون ليلى، ص: 78، الحلبي. و ص: 30 عبد الستار.

(4) نفسهما، ص: 79، الحلبي، و ص: 31 عبد الستار.

(5) نفسهما، ص: 79، الحلبي، و ص: 31 عبد الستار.

قَـدْ كُـنْـتُ حَـاذِرَةً لِـلْـدَّهْـرِ عَـارِفَـةً ... أَنْ سَوْفَ يَطْلُبُنِي بِالرَّمْيِ مُفْتَقِدَا

حَتَّى رَمَانِي بِمَنْ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَتِي ... فَمَا أَرَى لِي بِهِ - وَيْلِي - الغَدَاةَ يَدَا

لِقْتُ الدَّوَاةَ بِمَاءِ العَيْنِ ثُمَّ بِهِ ... كَتَبْتُ مَا يَكْتُبُ المَجهُودُ إِذْ جَهَدَا

هَذَا الوَدَاعُ لِمَنْ رُوحِي الفِدَاءُ لَهُ ... قَدْ خِفْتُ أَلاَّ أَرَاهُ بَعْدَهُ أَبَداً[1]

ولها في جواب على شعر له، فتقول:

نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَوْ نَفْسِي مَلَكْتُ إِذَنْ ... مَا كَان غَيْرُكَ يَجْزِيهَا وَيَرْضِيهَا

صَبْراً عَلَى مَا قَضَاهُ اللهُ فِيكَ عَلَى ... مَرَارَةٍ فِي اضْطِبَارِي عَنْكَ أُخْفِيهَا[2]

وليلى تعلم أنّ قيسًا جنّ من أجلها، فقالت له وهو مطرق يهذي:

أُخْبِرْتُ أَنَكَّ مِنْ أَجْلِي جُنِنْتَ وَقَدْ ... فَارَقْتَ أَهْلَكَ لَمْ تَعْقِلْ وَلَمْ تُفِقِ[3]

هذه هي ليلى العامرية الشاعرة العاشقة المعشوقة التي ارتبط اسمها بقيس، وقد شرَّقت قصتهما وغرَّبت، بالرغم من أن هناك من شكك في شخصية المجنون من القدماء والمحدثين ومنهم صاحب الأغاني وطه حسين الذي ردد كلام الأصبهاني بعد أن مضى عليه نحو عشرة قرون،[4] ولكن قيساً وليلى ظلا شخصيتين حيتين على اختلاف العصور والأجيال. ومهما يكن من أمر فقد أثبت هذا الشعر لليلى لأن المصادر القديمة نسبته إليها، وإن كان يصعب أن نثق تماماً بصحة نِسْبته جميعه إليها، لأن الافتعال وأثر القصاص واضح فيه أحياناً، ولكني دونت كل ما قيل استيفاء للموضوع[5]. وشعرها في جملته مقطوعات غزلية في أبيات محدودة صيغت بأسلوب سهل بسيط وألفاظ لا توعّر فيها ولا إغراب.

أما امرأة[6] يزيد بن سنان، فقالت أشعاراً غزلية جزلة تحنّ فيها إلى زوجها

(1) نفسهما، ص: 79، الحلبي، و ص: 31، عبد الستار.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج2، ص: 69. وديوان مجنون ليلى ص: 289، عبد الستار.

(3) ديوان مجنون ليلى، ص: 281، عبد الستار.

(4) الدكتور زكي مبارك: مقدمة ديوان مجنون ليلى، ص: 3، الحلبي.

(5) مقدمة ديوان مجنون ليلى، ص: 31، عبد الستار.

(6) امرأة يزيد بن سنان: شاعرة من شواعر العصر الأموي، لمْ تذكر المصادر التي بين أيدينا اسمها =

الذي أرسله عبد الملك بن مروان في غزو إلى اليمن، وقد مكث فيها عدة سنين، وبينما كان عبد الملك بدمشق يتجول ذات ليلة في بعض أزقتها، مرَّ ببيت يزيد بن سنان، فإذا هو بصوت امرأة قائمة تصلي، فسمع إليها فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم يا غليظ الحُجب، ويا منزل الكتب، ويا معطي الرغب، ويا مؤوي الغرب، ويا ميسر النجب، أسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان الذي فعل بنا هذا، فقد صيّر الرجل نازحاً، والمرأة متقلقلة على فراشها، ثم أنشدت:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ فَالعَيْنُ تَدْمَعُ ... وَأَرَّقَنِي حُزْنِي فَقَلْبِيَ مُوجَعُ
فَبِتُّ أُقَاسِي اللَّيْلَ أَرْعَى نُجُومَهُ ... وَبَاتَ فُؤَادِي عَانِياً يَتَفَرَّعُ
إذَا غَابَ مِنْهَا كَوْكَبٌ فِي مَغِيبِهِ ... لَمحْتُ بِعَيْنِي آخَراً حِينَ يَطْلُعُ
إذَا مَا تَذَكَّرْتُ الذِي كَانَ بَيْنَنَا ... وَجَدْتُ فُؤَادِي لِلْهَوَى يَتَقَطَّعُ
وَكُلُّ حَبِيبٍ ذَاكِرٌ لِحَبِيبِهِ ... يُرَجِّي لِقَاهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَطْمَعُ
فَذَا العَرْشِ فَرِّجْ مَا تَرَى مَنْ صَبَابَتِي ... فَأَنْتَ الذِي تَرْعَى أُمُورِي وَتَسْمَعُ
دَعَوتُكَ فِي السَّرَّاءِ والضُّرِ دَعْوَةً ... عَلى عِلّةٍ بَيْنَ الشَّرَاسِيفِ تَلْذَعُ

فرقَّ قلب عبد الملك لها، وسأل عن صلتها بيزيد بن سنان، فقيل له: هي زوجته، فلما أصبح سأل، كم تصبر المرأة عن زوجها، فقالوا: ستة أشهر، فأمر ألا يمكث العسكر أكثر من ستة أشهر[1]. والقصيدة اليتيمة التي وصلت إلينا من شعرها، صدرت عن عاطفة صادقة، آلمها الحرمان والبعاد عن الزوج الذي طال غيابه فجاءت في أسلوب جزل، عذب الألفاظ، واضح المعنى، بعيد عن التكلف ومبتذل الكلام، وتدل على ملكة شعرية حسنة.

أما عقيلة[2] بنت الضحاك، فهي أيضاً شاعرة غزلة من العصر الأموي،

= ولا تاريخ مولدها ووفاتها، وكل ما لدينا من معلومات أنها زوجة يزيد بن سنان، وأنها عاصرت عبد الملك بن مروان الذي حكم بين سنتي: 65 ـ 86 هـ.

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق ـ تراجم النساء ـ ص: 576. (الخبر والأبيات) والشراسيف: أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن، مفرد الشرسوف: وهو رأس الضلع مما يلي البطن.

(2) هي عقيلة بنت الضحاك بن عمرو بن محرق بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء، شاعرة من =

أحبّها ابن عمها عمرو بن كعب وبادلته الحب، ثم فرّق بينهما، فهام عمرو على وجهه إلى اليمامة[1] وقامت هي في بيت أبيها لا تتناول إلّا القليل من الطعام بقدر ما يسد الرمق. قال الفرزدق: خرجت في طلب غلام لرجل منا أبق، فلما صرت على ماء لبني حنيفة، جاءت السماء بالأمطار فلجأت إلى بيت هناك، فخرجت إليَّ فتاة كأنها فلقة قمر فحيَّت، وقالت: ممن الرجل؟ قلت: من بني تميم، قالت: من أيهم؟ قلت من بني نهشل. فقالت: أين تؤم؟ قلت: اليمامة. فتنفست الصعداء، ثم أنشأت تقول:

تُذكِّرُني بِلاَداً خَيْرُ أهْلِي ... بِهَا أهْلُ المُرُوءَة وَالكَرَامَهْ

ألا فَسَقَى الإلَهُ أجَشَّ صَوْباً ... يَسُحُّ بِدَرِّهِ بَلَدَ اليَمَامَهْ

وَحَيَّا بِالسَّلاَمِ أبَا نُجَيْدٍ ... فَأهْلٌ لِلتَّحِيَّةِ وَالسَلاَمَهْ

قال: فأنست بها، وقلت لها: أذات بعل؟ فقالت:

إذَا رَقَدَ النِّيَامُ فَإنَّ عَمراً ... تُؤَرِّقُهُ الهُمُومُ إلى الصَّبَاحِ

تُقَطِّعُ قَلْبَهُ الذكَرَى وَقَلْبِي ... فَلاَ هُوَ بِالخَلِيِّ وَلا بِصَاحِ

سَقَى اللَّه اليَمَامَةَ دَارَ قَوْمٍ ... بِهَا عَمْرٌو يَحِنُّ إلىَ الرَّوَاحِ[2]

فقلت لها: من عمرو هذا؟ فقالت:

سَألْتَ وَلَوْ عَلِمْتَ كَففْتَ عَنْهُ ... وَمَنْ لَكَ بِالْجَوَابِ سِوَىَ الْخَبِيرِ

فَإنْ تَكُ ذَا قَبُولٍ إنَّ عَمْراً ... هُوَ الْقَمَرُ المُضِيُء لِمُسْتَنِيرِ

وَمَالِي بِالتَّبَعُّلِ مُسْتَرَاحٌ ... وَلَوْ رَدَّ التَّبَعُّلُ لِي أسِيرِي[3]

= شواعر العصر الأموي، لمْ تذكر المصادر تاريخ ميلادها ووفاتها، لكنها التقت بالفرزدق وهو توفي سنة 110 هـ (انظر الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 45).

(1) اليمامة: معدودة من نجد وقاعدتها حجر، وكانت تسمى قديماً ـ جوا ـ بينها وبين البحرين عشرة أيام، فتحها خالد بن الوليد في أيام أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، سنة 12 هـ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص: 442).

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 44.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 44.

وقالت:

يُخَيَّلُ لِي هَيَا عَمْرُو بْنُ كَعْبٍ	كَأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ عَلَى سَرِيرِي
يَسِيرُ بِكَ الهُوَيْنَى القَوْمُ لَمَّا	رَمَاكَ الحُبُّ بِالعَلَقِ[1] العَسِيرِ
فَإِنْ تَكُ هَكَذا يَا عَمْرُو إِنِّي	مُبَكِّرَةٌ عَلَيْكَ إلى القُبُورِ[2]

ثم شهقت شهقة وخرَّت ميتة، وفي ذلك الوقت مات عمرو أيضاً[3]. وشعرها في جملته يمتاز بصدق العاطفة، وسهولة الأسلوب، ووضوح المعنى، لكن تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة بسبب إخفاق الشاعرة في حبها.

أما العيوف[4] بنت مسعود ابنة أخي ذي الرُّمة[5]، فهي شاعرة غزلة أيضاً من شواعر العرب في العصر الأموي، قالت تتغزل:

خَلِيلَيَّ قُومَا فَارْفَعَا الطَّرْفَ وَانْظُرَا	لِصَاحِبِ شَوْقٍ مَنْظَراً مُتَرَاخِيَا
عَسَى أَنْ نَرَى وَاللهُ مَا شَاءَ فَاعِلٌ	بِأَكْثِبَةِ الدَّهْنَا[6] مِنَ الحَيِّ بَادِيَا
وَإِنْ حَالَ عَرْضُ الرَّمْلِ وَالبُعْدِ دُونَهُم	فَقَدْ يَطْلُبُ الإِنْسَانُ مَا لَيْسَ رَائِيَا
يَرَى اللَّهُ أَنَّ القَلْبَ أَضْحَى ضَمِيرُهُ	لَمَا قَابَلَ الرَّوْحَاءَ والعَرْجَ قَالِيَا[7]

---

(1) العلق: الهوى يكون للرجل في المرأة.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 45.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 45. وانظر السراج: م. ن.، ج1، ص: 123. وزينب فواز: الدر المنثور. ص: 348. ويبدو على القصة والوضع والافتعال.

(4) العيوف: شاعرة من شواعر العصر الأموي، لمْ تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ مولدها ووفاتها، وذكرت فقط تاريخ وفاة عمها ذي الرمة الذي كانت معاصرة له، وهو سنة 117 للهجرة، ولعلها ماتت قبله أو بعده بقليل.

(5) ذو الرمة: هو لقبه الذي اشتهر به، واسمه غيلان بن عقبة وينتهي نسبه إلى الياس بن مضر، وهو شاعر مشهور من شعراء فحول الإسلاميين في عصر بني أمية، يميل في شعره إلى التشبيب وبكاء الأطلال، وكانت بينه وبين مية حكاية حب طويلة (ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 356 وما بعدها والأصبهاني: الأغاني، مج17، ص: 306 وما بعدها).

(6) الدهناء: من ديار بني تميم معروفة تقصر وتمد (الحموي: معجم البلدان، مج2، ص: 493).

(7) الحموي: م. ن.، مج2، ص: 493 ـ 494.

وقالت في الغزل أيضاً:

إذَا هَـبَّـتِ الأَرْوَاحُ زَادَتْ صَـبَـابَـةً عَـلَـيَّ وَبَـرْحـاً فِـي فُـؤَادِي هُـبُـوبُـهَـا
ألاَ لَـيْـتَ أنَّ الـرِّيـحَ مَـا حَـلَّ أهْـلُـهَـا بِـصَـحْـرَاءِ نَـجْـدٍ لاَ تَـهُـبُّ جُـنُـوبُـهَـا
وَآلَـتْ يَـمِـيـنـاً لا تَـهُـبُّ شِـمَـالُـهَـا وَلاَ نَـكَـبًّا إلى صَبَا نَـسْـتَـطِـيـبُـهَـا[1]

إن النظر في مقطوعتيها اللتين تغزلت بهما في صاحبها الذي لم تذكر اسمه يدل على أنها مقلدة للأساليب القديمة التي وجدتها في بيئتها العربية، فقد استهلت المقطوعة الأولى بتوجيه الخطاب إلى اثنين على عادة الشعراء الجاهليين، وقد امتاز شعرها بالجزالة والفصاحة، لكنه خال من الابتكار، فظلت معانيها على بساطتها وعفويتها.

ولم يصلنا من شعر العيوف غير هاتين القطعتين الغزليتين، ويبدو أن لها أشعاراً أخرى كانت معروفة، وضاعت مع ما ضاع من التراث العربي الإسلامي، وذلك لكون الشاعرة عاشت في وسط عائلة شاعرة، فأبوها مسعود شاعر، وأعمامها ذو الرّمة وجرفاس وهشام كلهم شعراء[2].

أما شقراء[3] ابنة الحباب فأحبّت يحيى بن حمزة حبًّا أنساها حبها الأول ليعلى، فأصبح يحيى حبها الأول والأخير، وفيه تقول:

مَحَا حُبُّ يَحْيَى حُبَّ يَعْلَى فَأَصْبَحَتْ لِـيَـحْـيَـى تَـوَالِـي حُـبِّـنَـا وَأَوَائِـلُـهْ
ألاَ بِـأَبِـي يَـحْـيَـى وَمَـثْـنَـى رِدَائِـهِ وَحَيْثُ الْتَقَتْ مِنْ مَتْنِ يَحْيَى حَمَائِلُهْ[4]

وهكذا تصرح شقراء علانية بحبها ليحيى ولم يمنعها كبرياؤها كامرأة من أن تعترف صراحة بذلك، ويبدو أن أهلها فرقوا بينهما وضربوها، لكنها ظلت تحن إلى لقائه، فتقول:

---

(1) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 153.

(2) الأصبهاني: الأغاني، مج17، ص: 308.

(3) شقراء ابنة الحباب: شاعرة غزلة من شواعر العرب، لمْ تذكر المصادر التي بين يديَّ عصرها، ولكن بشير يموت ذكرها بين شواعر العصر الأموي في كتابه: شاعرات العرب في الإسلام، ولذلك جعلتها مع شواعر هذا العصر.

(4) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 197.

أَأُضْـرَبُ فِـي يَـحْـيَـى وَبَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـهُ		تَنَائِفُ [1] لَوْ تَسْرِي بِهَا الرِّيحُ كَلَّتِ
أَلاَ لَـيْـتَ يَـحْـيَـى يَـوْمَ عَـبْـهَـلَ زَارَنَـا		وَإِنْ نَـهِـلَـتْ مِـنَّـا السِّـيَـاطُ وَعَـلَّـتِ [2]

لقد استولى حبه على نفسها، وتربع في أحشائها، وسكن مهجتها، وهي لا تبالي مما يصيبها، وتقر بحبها له، ورغم لسعات السياط فهي لا تقلع عن حبه، فتقول:

أَقُـولُ لِـعَـمْـرٍو وَالـسِّـيَـاطُ تَـلُـفُّـنِـي		لَـهُـنَّ عَـلَـى مَـتْـنَـيَّ شَـرٌّ دَلِـيـلِ
فَـأَشْـهَـدُ يَـا غَـيْـرَانُ أَنِّـي أُحِـبُّـهُ		بِـسَـوْطِـكَ لاَ أُقْـلِـعْ وَأَنْـتَ ذَلِـيـلُ [3]

وها هي ذي تحن إلى بلاد المحبوب، وقد قتلها الوجد والحرمان، فتذكر الواشين، وتصر على رعاية الود مهما كلفها ذلك من تضحيات، وقد استهلت أبياتها بمخاطبة اثنين على عادة الشعراء الجاهليين، فقالت:

خَـلِـيـلَـيَّ إِنْ أَصْـعَـدْتُـمَـا أَوْ هَـبَـطْـتُـمَـا		بِـلاَداً هَـوَى نَـفْـسِـي بِـهَـا فَـاذْكُـرَانِـيَـا
وَلاَ تَـدَعَـا إِنْ لاَمَـنِـي ثَـمَّ لاَئِـمٌ		عَـلَـى سَـخَـطِ الـوَاشِـيـنَ أَنْ تَـعْـذِرَانِـيَـا
فَـقَـدْ شَـفَّ قَـلْـبِـي بَـعْـدَ طُـولِ تَـجَـلُّـدِي		أَحَـادِيـثُ مِـنْ يَـحْـيَـى تُـشِـيـبُ الـنَّـوَاصِـيَـا
سَـأَرْعَـى لِـيَـحْـيَـى الـوُدَّ مَـا هَـبَّـتِ الـصَّـبَـا		وَإِنْ قَـطَـعُـوا فِي ذَاكَ عَـمْـداً لِـسَـانِـيَـا [4]

تلك هي الشاعرة شقراء، فكل ما وصلنا من شعرها في الغزل، وإذا رحنا نتلمس جديداً في معانيها، فلن نجد جديداً يذكر لأن هذه المعاني طرقتها المرأة العربية الشاعرة في الجاهلية فقد كانت تبوح بالحب والشوق وإن لقيت نكالاً [5]؛

---

(1) التنائف: جمع تنوفة، وهي القفر من الأرض لا ماء بها ولا أنيس.

(2) طيفور: بلاغات النساء، ص: 273. وعبهل: شرحها الزمخشري في أساس البلاغة، فقال: ما كان لسوقة باهلة أن يباروا الملوك العباهلة، وهم الذين أقروا على ملكهم لا يزالون.

(3) طيفور: م. ن.، ص: 273، وفي البيت إقواء.

(4) أبو علي القالي: الأمالي، ج2، ص: 25 وفيه عيسى بدل يحيى وانظر كحالة: أعلام النساء، ج2، ص: 301 ـ 302. أما طيفور في بلاغات النساء، ص: 273 ـ 274، فقد نسبها إلى برة العدوية. وابن قيم الجوزية في أخبار النساء، ص: 72 نسبها إلى سعدى وهي شاعرة جاهلية من لخم.

(5) انظر الدكتور أحمد محمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 8.

غير أن صياغتها جميلة وفيها يسر ووضوح في جملتها، وإن كنا نجد وعورة في بعض الألفاظ. بقي أن أشير إلى أن المحبوب الذي حدثتنا عنه الشاعرة، ظلّ أمره خفيًّا ولم تعرفه لنا المصادر التي بين أيدينا.

وقد تغزلت خيرة[1] أم ضيغم البلوية في ابن عم لها، فدرى أهلها فحجبوها فقالت تتحدث عن الهجر وشماتة العذال والوشاة، ودوام الهوى في القلب رغم النوى:

هَجَرْتُكَ لمَّا أنْ هَجَرْتكَ أصبَحَتْ ... بِنَا شُمَّتاً تِلْكَ العُيُونُ الكَوَاشِحُ

فَلاَ يَفْرَحِ الوَاشُونَ بِالهَجْرِ رُبَّمَا ... أطَالَ المحِبُّ الْهَجْرَ وَالجَيْبُ نَاصِحُ

وَتَغْدُو النَّوَى بَيْنَ المُحِبِّينَ وَالهَوَى ... مَعْ القَلْبِ مَطْوِيٌّ عَلَيْهِ الْجَوَانِحُ[2]

وقالت:

فَمَا نُطْفَةٌ مِنْ مَاءِ بَهْمِينَ عَذْبَةٍ ... تَمَنَّعُ مِنْ أيْدِي السُّقَاةِ أرُومُهَا

بِأطْيَبَ مِنْ فِيهِ لَوْ انَّكَ ذُقْتَهُ ... إذَا لَيْلَةٌ أسْحَتْ وغَابَ نُجُومُهَا

فَهَلْ لَيْلَةُ البَطْحَاءِ عَائِدةٌ لَنَا ... فَدَتْهَا اللّيَالي خَيْرُهَا وَذمِيمُهَا

فَإنْ هِيَ عَادَتْ فَأَلِيَّةً ... عَلَيَّ وَأيَّامَ الحَرُورِ أصُومُهَا[3]

فالشاعرة في هذه الأبيات تتذكر أيام الوصال في البطحاء وتتمنى عودتها، لقد كانت تلك الليالي من أعذب أيام العمر. وتواصل وصف تلك الخلوة مع حبيبها في مقطعة أخرى، لا تختلف عن سابقتها إلا بالقافية، فتقول:

---

(1) خيرة أم ضيغم البلوية أو خيرة بنت أبي ضيغم البلوية: كانت من أظرف النساء، لمْ تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ ميلادها ووفاتها، ولكنها ذكرتها بين شواعر العصر الأموي، وهي شاعرة غزلة متحررة، والغزل من الموضوعات الأساسية التي عالجها الشعراء في هذا العصر، ولذلك أدرجتها ضمن شواعر هذه الفترة. (انظر طيفور: بلاغات النساء ص: 271 ـ 272. والقالي: الأمالي، ج2، ص: 83. ويموت: شاعرات العرب، ص: 194. وجورج غريب: شاعرات العرب في الإسلام، ص: 165 ـ 166.

(2) القالي: م. ن.، ج2، ص: 83.

(3) طيفور: م. ن.، ص: 271 ويموت: م. ن.، ص: 194.

وَبِتْنَا خِلاَفَ الحَيّ لاَ نَحْنُ مِنْهُمْ ... وَلاَ نَحْنُ بِالأَعْداءِ مُخْتَلِطَانِ
وَبِتْنَا يَقِيناً سَاقِطَ الطَّلِّ والندى ... مِنَ اللَّيْلِ بُرْدَا يُمْنَةٍ عَطِرَانِ
نَذُودُ بِذِكْرِ اللهِ عَنَّا مِنَ الصِّبَا ... إِذَا كَانَ قَلْبَانَا بِنَا يَجِفَانِ
وَنَصْدُرُ عَنْ أَمْرِ العَفَافِ وَرُبَّمَا ... نَقَعْنَا غَلِيلَ النَّفْسِ بالرَّشَفَانِ[1]

تبدو الشاعرة من خلال شعرها متحررة منطلقة تضع شهواتها وملاذها فوق كل اعتبار، ولا نصدقها حين تدّعي العفاف (ونصدر عن أمر العفاف. . . . .) وأي عفاف لامرأة تبيت بالبطحاء في أحضان الحبيب تتمتع بالهوى وطيب الشهوات، وبغزلها الحسي المادي كقولها (نقعنا غليل النفس بالرشفان. . . فما نطفة من ماءٍ بهيمن عذبة. . . بأطيب من فيه لو أنك ذقته. . .).

وهذه أم خالد الخثعمية[2] تتغزل في جحوش العقلي، فدعت لدياره بالسحب الغزيرة الواكفة ليشرب من مائها جحوش وينظر إلى برقها ومطرها بعينيه اللتين تشبهان عيني الصقر، ثم فدت بنفسها عيني حجوش وقميصه وأسنانه المجلوة، وأقسمت أنها قد ولهت به كما ولهت عفراء بعروة، وقالت: إنه مباح لجَحْوِش أنْ يلج بيتها وأهلها نيام، وهي لأجله تحب النجديين وتكره الحجازيين:

فَلَيْتَ سِمَاكِياً يَطِيرُ رَبَابُهُ[3] ... يُقَادُ إِلَى أَهْلِ الغَضَا بِزِمَام
لِيَشْرَبَ مِنْهُ جَحْوَشٌ وَيشِيمَه ... بِعَيْنَيْ قَطَامِيٍّ أغَرَّ شَآمِ[4]

---

(1) طيفور: م. ن.، ص: 272، والمبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص: 73، وبشير يموت: م. ن.، ص: 194. وفي الروايات اختلاف في عدد الأبيات وفي ألفاظ بعض الأبيات.

(2) شاعرة من شواعر العرب الغزلات، لمْ تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ ميلادها ووفاتها، ولعلها كانت معاصرة لعفراء العذرية أو عاشت بعدها بقليل لأن الخثعمية قلدتها في حبها وذكرتها في شعرها وروى أشعارها وأخبارها أبو بكر بن زيد (227 ـ 321 هـ) عن عبد الرحمن عن عمه قال: سئل رجل من بني عقيل كيف كان جحْوَش فإن أم خالد قد أكثرت فيه؟ قال: كان أحيمر أزيرق حنكلاً (قصيراً) كأنه ابنة عود (عقدة في العود) أو عقلة رِشاء (العُقْلة: ما يعقل به كالقيد أو العقال، والرِشاء: الحبل...) ... (انظر القالي: م. ن.، ج2، ص: 10. وكحالة: أعلام النساء، ج1، ص: 313 ـ 314).

(3) الرباب هنا: السحاب الأبيض، واحدتها ربابة.

(4) يشيمه: شام يشيم فلان السحاب والبرق: نظر إليه يتحقق أين يكون مطره. ويشيمه بعيني قطامي =

بِنَفْسِيَ عَيْنَا جَحْوَشٍ وَقَمِيصُهُ ... وَأَنْيَابُهُ اللاّتي جَلاَ بِبَشَامِ[1]

فَأُقْسِمُ أنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِجَحْوَشٍ ... كَمَا وجَدَتْ عَفْرَاءُ بابنِ حِزَامِ

وَمَا أنَا إلاَّ مِثْلُهَا غَيْرَ أنَّنِي ... مُؤَجَّلَةٌ نَفْسِي لِوَقْتِ حِمَامِ

فَإنَّ وَلُوجَ البَيْتِ حِلٌّ لِجَحْوَشٍ ... إذَا جَاءَ والمُسْتَأذِنُونَ نِيَامُ[2]

فَإنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الحِجَازِ فَلاَ تَلِجْ ... وَإنْ كُنْتَ نَجْدِيّاً فَلِجْ بِسَلام

رَأَيْتُ لَهُمْ سِيمَاءَ قَوْمٍ كَرِهْتُهُمْ ... وَأهْلُ الغَضَا قَوْمٌ عَليَّ كِرَامُ[3]

ففي هذا الغزل إغراق في الإعجاب بجمال الرجل الجسدي، واستطابة لزيارته ليلاً والأهل هجود[4].

وقالت فيه أيضاً:

أيَّتُهَا النَّفْسُ التي قَادَهَا الهَوَى ... أمَالَكِ إنْ رُمْتِ الصُّدُودَ عَزِيمُ

فَتَنْصِرَفِي عَنْهُ فَقَدْ حِيلَ دُونَهُ ... وَألهَاهُ وَصْلٌ مِنْ سِوَاكِ قَدِيمُ[5]

أما سلامة القس[6]، وهي شاعرة مغنية، كما أسلفت، وقد اشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان لتعيش بقية حياتها في قصر الخليفة بجانب حبابة زميلتها وتلميذتها، وقبل ذلك كانت تجلس إلى عبد الرحمن[7] بن حسان والأحوص بن محمد فيرويا لها الشعر وينشدانها إياه، فعلقت الأحوص وصدّت عن عبد الرحمن ، فقال لها عبد الرحمن:

= إلخ: أرادت بعيني رجل كأنهما عينا قطامي، لأن الرجل نوع والقطامي (وهو الصقر) نوع آخر، فالكلام على التشبيه كذا في لسان العرب. مدة: قطم.

(1) البشام: شجر عطر الرائحة يستاك بقضبانه.

(2) هذا البيت والبيت التالي لما بعده فيهما الإقواء، وهو اختلاف الروي في حركة الإعراب.

(3) القالي: م. ن.، ج2، ص: 10 وابن منظور: لسان العرب مادة قطم.

(4) التقديم للأبيات والتعليق عليها للدكتور أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 662.

(5) القالي: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(6) سبقت ترجمتها، انظر فن الرثاء في هذا الفصل.

(7) عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي: شاعر كان مقيماً في المدينة وتوفي فيها سنة 104 هـ (الزركلي: الأعلام، مج3، ص: 303).

أرَى الإقْبَالَ مِنْكِ علَى جَلِيسِي　　　وَمَالِي فِي حَدِيثِكُمَا نَصِيبُ

فأجابته:

لأنَّ اللهَ عَلَّقَهُ فُؤَادِي　　　فحَازَ الحُبَّ دُونَكُم الْحَبِيبُ

فقال الأحوص:

خَلِيلي لاَ تَلُمْهَا فِي هَوَاهَا　　　ألَذُّ العَيْشِ مَا تَهْوَى القُلُوبُ

فأضرب عنها عبد الرحمن بن حسان، وخرج ممتدحاً ليزيد بن معاوية، وهو الذي وصف سلامة ليزيد وزينها له لكي يشتريها نكاية في الأحوص[1]، وقد فعل كما سبق، وظل الأحوص يزورها بين الحين والآخر في غفلة القصر، فيتحدثان ويتبادلان الشعر، ومما قالته فيه ردًّا على شعر له فيها:

صَحَا المحِبُّونَ بَعْدَ النَأْيِ إذْ يَئِسُوا　　　وَقَدْ يَئِسْتُ وَمَا أَصْحُو عَلى حَالِ

وقالت فيه أيضاً:

وَاللهِ وَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ يَا شَجَنِي　　　حَتَّى تُفَارِقَ مِنِّي الرُّوحَ أَوْصَالِي

وكشف أمرها يزيد وسألها: أتحبينه؟ فقالت: نعم يا أمير المؤمنين:

حُبًّا شَدِيداً جَرَى كَالرُّوحِ في جَسَدي　　　فَهَلْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ[2]

وهذه أميمة [3] زوجة الدمينة [4] تتغزل في صاحبها فتصف محاسنه وتنعت

---

(1) الأحوص: هو عبد الله بن محمد الأوسي، لقب الأحوص لحوص كان في عينيه. (انظر الأصبهاني: الأغاني، مج4، ص: 228 وما بعدها. وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص: 217).

(2) الأصبهاني: القيان: ص: 49 وما بعدها (الخبر والأبيات) وفي ص: 52 أنّ يزيد أهداها إلى الأحوص، لكن هذا الخبر لمْ تؤكده المصادر الأخرى التي ذكرت أنّ سلامة ظلّت عند يزيد حتى مات ثم انتقلت إلى قصر الوليد ابنه وظلّت فيه حتى أدركت مقتله سنة 126 هـ .

(3) أميمة زوجة ابن الدمينة، شاعرة من شواعر العرب في العصر الأموي هام بها مدة ثم هجرها، ونلمس في شعرها غزلا صريحاً ولوماً محبّباً وعتاباً رقيقاً توجهت بها إلى حبيبها ابن الدمينة (انظر الأصبهاني: الأغاني، مج17، ص: 47 وما بعدها. وكحالة: أعلام النساء ، ج3، ص: 320 وفيه أن اسمها آمنة).

(4) هو عبد الله بن الدمينة: شاعر أموي مشهور من بني عامر، من شعراء البادية، يمتاز شعره =

مواطن الجمال فيه، ثم تعبِّر عن أحاسيسها نحوه فتقول:

أيَا حَسَنَ العَيْنَينِ أنْتَ قَتَلْتَنِي ... وَيَا فَارِس الخَيْلَيْنِ أنْتَ شِفَائِيا
وَرَغَّبْتَنِي الظَّمْءَ الطَّويلَ بِشَرْبَةٍ ... عَلَى ظَمَإٍ لَمْ تَشْفِ منِّي فُؤَاديا[1]

لقد هام بها ابن الدمينة مدة ثم هجرها، ثم عاد إليها من جديد وقال فيها شعرًا[2]، فردت عليه صاحبته بهذين البيتين. وهذه الاستجابة السريعة والصريحة للشاعرة، وإعجابها بجمال الرجل الجسدي لدليل على تعلق الشاعرة الشديد بابن الدمينة وخروجها عن عادة العرب «العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة والمخاطبة، وهنا دليل كرم النحيزة[3] في العرب وغيرتها على الحرم»[4]. ولأميمة أشعار أخرى في اللوم والعتاب توجهت بهما إلى ابن الدمينة لما هجرها ثم عاد فزارها، وهي لا تخرج عن نطاق الغزل، تقول:

وَأنْتَ الذِي أخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي ... وَأشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
وَأبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتَنِي ... لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأنْتَ سَلِيمُ
فَلَوْ كَانَ قَوْلٌ يَكْلُمُ الجِلْدَ، قَدْ بَدَا ... بِجِلْدِيَ مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ كُلُومُ[5]

ثم سكتت وسكت ابن الدمينة هنيهة، ثم قال يرد عليها:

= بالرقة والعذوبة، وأكثره في الغزل والفخر، توفي نحو 130 هـ (انظر الأصبهاني: م. ن.، مج17، ص: 47 وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج4، ص: 102).

(1) الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج2، ص: 210.

(2) قال ابن الدمينة:
خَلِيليَّ زُورا بي أُمَيْمَةَ فَأَجْلو ... بها بَصَري أو غَمْرة عَن فؤاديا
فَقَد طَالَ هِجْرَاني أُمَيْمَةَ أبْتَغي ... رِضَا النّاسِ لاَ ألْقَى مِنَ النّاس رَاضيا
(الحسن البصري: المصدر نفسه والصفحة نفسها).

(3) كرم النحيزة: كرم الطبيعة والذات.

(4) ابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 124.

(5) الأصبهاني: الأغاني، مج17، ص: 55، وانظر أيضاً: مج2، ص: 48. ويكلم: يجرح، الكلوم جمع كلم: وهو الجرح.

غَـدَرْتِ وَلَـمْ أَغْـدُرْ وَخُـنْـتِ وَلَـمْ أَخُـنْ وَفِـي دُونِ هَـذَا لِـلْـمُـحِـبِّ عَـزَاءُ
جَزَيْتُكِ ضِعْفَ الوُدِّ ثُمَّ صَرَمْتِنِي فَحُبُّكِ فِي قَلْبِي إِلَيْكِ أَدَاءُ[1]

وبعد ذلك أقبلت عليه وقالت:

تَجَاهَلْتَ وَصْلِي حِينَ جَدَّتْ عَمَايَتِي وَهَلَّا صَرَمْتَ الحَبْلَ إِذْ أَنَا أَبْصِرُ[2]
وَلِي مِنْ قُوَى الحَبْلِ الذِي قَدْ قَطَعْتَهُ نَصِيبٌ وإِذْرَابِي جَمِيعٌ مُوَفَّرُ
وَلَكِنَّمَا آذَنْتَ بِالصَّرْمِ بَغْتَةً وَلَسْتُ عَلَى مِثْلِ الذِي جِئْتَ أَقْدِرُ[3]

هكذا نلمس في غزل أميمة إعجابًا بجمال الرجل الجسدي في مقطوعتها الأولى، وهو خروج عن عادة المرأة العربية الشاعرة التي تعرف بالحشمة والحياء، وأن تكون هي المطلوبة المرغوبة لا الطالبة الراغبة، ولكننا نجد في مقطوعتيها الأخريين لوماً محباً وعتاباً رقيقاً توجهت بهما إلى حبيبها ابن الدمينة، وصاغتها بأسلوب سهل غير متكلف، ومعاني رقيقة وعاطفة صادقة.

وهذه ستيرة العصيبية[4]، وهي شاعرة غزلة متحررة تمثل اتجاه المجون والشهوة أصدق تمثيل في هذا العصر. أنشدت مرة تصف لنا ما جرى لها ولصواحبها مع العشيق ذات ليلة، فقالت:

بِتْنَا بِأَطْيَبِ لَيْلَةٍ وَأَلَذِّهَا يَا لَيْتَهَا وُصِلَتْ لَنَا بِلَيَالِ
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ أُشْغِلَ لَوْنُهُ بِالصُّبْحِ أَوْ أَوْدَى عَلَى الإِشْغَالِ
نَادَى مُنَادٍ بِالصَّلاَةِ فَرَاعَنَا وَمَضَى جَمِيعُ اللَّيْلِ غَيْرَ تَوَالِ

---

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج17، ص: 55، وانظر أيضاً: مج2، ص: 49.

(2) العماية: الغواية واللجاج. وصرم الحبل: قطع العلاقة. وقولها: «إذ أنا أبصر» تريد قبل أن يعمي حبك قلبي.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج17، ص: 55.

(4) ستيرة العصيبية، شاعرة من شواعر العرب ذكرها بشير يموت بين شاعرات العصر الأموي، ولم يشر إلى تاريخ مولدها ووفاتها، ولم تشر أيضاً المراجع التي بين أيدينا، ولكنّها ذكرتها مع شاعرات العرب في الإسلام، ولأنها كانت شاعرة غزلة متحررة كشواعر العصر الأموي لذا أرجّحُ أنها عاشت في هذا العصر.

فَنَهَضْنَ مِنْ حَذَرِ العُيُونِ هَوَارِباً   نَهْضَ الهِجَانِ بِدَكْدَكٍ[1] مُنْهَالِ
ثُمَّ اطَّلَعْنَ كَأَنَّهُنَّ غَمَائِمٌ   زَمَنَ الرَّبِيعِ هَمَمْنَ بِاسْتِهْلاَلِ
حَتَّى دَفَعْنَ إِلَى فَتًى جَشَّمْنَه   رَدَّ الكَرَى وتَعَسُّفَ الأَهْوَالِ[2]

وقالت أيضا تروي لنا إحدى مغامراتها:

أَلَمَّ خَيَالُ طَيْبَةَ أَجْنَبِيَّا   فَحَيَا الرَّكْبَ منّي وَالمَطِيَّا
لِمَا حَيَّيْتَهُمْ يَا طَيْفُ دُونِي   وَأَنْتَ أَحَبُّهُمْ شَخْصاً إِلَيَّا
أَلَمَّ بِنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ وَلَّى   عَلَى الهُجَّادِ تَسْلِيماً خَفِيَّا
فَلَمَّا أَنْ كَشَفْتُ غِطَاءَ رَأْسِي   إِذَا أَنَا لاَ أَرَى إِلاَّ النَّضِيَّا
وَأَيْنُقَنَا الثَّلاثَ مُلَقَّيَاتٍ   عَلَى مَتْنِ الطَّرِيقِ وَصَاحِبِيَّا
وَزُرْقاً بِالجَفِيرِ مُنَشَّبَاتٍ   وَشَوْحَطَةً تَرِنُّ وَمَشْرَفِيَّا[3]
فَكَلَّفَنَا سُرَاهَا أَنْ رَحَلْنَا   وَأَحْثَثْنَا الأَمِيرَ العَامِرِيَّا[4]

ويبدو أن الشاعرة بعد هذا الطيف الذي ألمَّ بها، فسلم ثم ولى، قد وجدت أن الخيال تحول إلى حقيقة، وأن هناك من دخل بينها وبين حبيبها، فنغص عليهما حبهما الجميل، فهجرته مكرهة، تقول:

مَاكَانَ ذاكَ الهَجْرُ مِنِّي عَنْ قِلًى   لاَ وَالَّذِي رَفَعَ السَّمَا وَبَنَاهَا
إِنِّي لاَ يُثْنَيْنِي الحَيَاءُ وَأَنْثَنِي   وأَصُدُّ بَعْضَ مَوَدَّتي اسْتَبْقَاهَا
وَإِذَا المُنَاضِلُ لَمْ يَكُنْ مُتَثَبِّتاً   يُبْقِي مَوَاقِعَ نَبْلِهِ أَفْنَاهَا[5]

وبعد الهجر جاء دور الفراق، وها هي ذي شاعرتنا تتغزل وتشكو الفراق في

(1) الهيجان من الأشياء: أجودها وأكرمها أصلاً، ومن الإبل: البيض الكرام، والدكدك: أرض فيها غلظ، والدكدك من الرمل: ما التبد بعضه على بعض.
(2) بشير يموت: شاعرات العرب... ص: 156.
(3) الزرق: الأسنة، والجفير: الكنانة أو جعبة أوسع من الكنانة من جلد أو خشب، والشوحط: ضرب من الشجر تتخذ منهُ القسي.
(4) بشير يموت: م. ن.، ص: 156.
(5) بشير يموت: م. ن.، ص: 157.

هذه الأبيات التي تعد من أجمل ما وصلنا من شعرها، فتقول:

وَنَادَى بِالتَّرَحُّلِ بَعْضُ صَحْبِي ... فَرُحْتُ وَمُقْلَتِي غَرْقَى بِمَاهَا

فَرَاحُوا وَالشَّقِيُّ لَهُ دُيُونٌ ... وَأَشْيَا مِنْ حَوَائِجَ مَا قَضَاهَا

فَأَرْخَيْتُ العِمَامَةَ دُونَ صَحْبِي ... عَلَى عَيْنِي وَقُلْتُ: جَرَى قَذَاهَا

وَمَالِي حَاجَةٌ إلاَّ بِبَكْرٍ ... وَمَا ذَنْبِي عَلَى أَحَدٍ سِوَاهَا

فَقَالُوا: من ضراري كَيْفَ بَكْرٍ ... وَكَيْفَ تَرَاكَ تَرْجُو أَنْ تَرَاهَا

فَقُلْتُ: اللهُ حَمَّ فِرَاقَ بَكْرٍ ... فَأَرْجُو أَنْ يَحُمَّ لَنَا لِقَاهَا[1]

إن التنائي بعد التداني صعب، وقد أحست الشاعرة بعد فراق الأحبة بوحشة، فبكت بكاءً مرًّا، وهي حزينة كئيبة على فراقهم وفي الأخير ترجو الله أن يعيد الأحباء لتجتمع بهم من جديد. والشاعرة تمتاز بالجرأة في التعبير عن مشاعرها . وغزلها يتّسم بالحزن والشكوى والقلق ـ باستثناء المقطوعة الأولى ـ لأنه يعبر عن نفسيتها المضطربة من جراء الهجر والفراق...

أما أم حمادة الهمذانية[2] فقالت تتغزل:

دَارَ الهَوَى بِعِبَادِ اللهِ كُلِّهِمِ ... حَتَّى إذَا مَرَّ بِي مِنْ بَيْنِهِم وَقَفَا

إنِّي لأَعْجَبُ مِنْ قَلْبٍ يُكَلِّفُكُمُ ... وَمَا يَرَى مِنْكُمْ بِراً وَلاَ لَطَفَا

لَوْلاَ شَقَاوَةُ جَدِّي مَا عَرَفْتُكُمُ ... إنَّ الشَّقِيَّ الذِي يَشْقَى بِمَنْ عَرَفَا

وقالت أيضاً:

شَكَوْتُ إلَيْهَا الْحُبَّ، قَالَتْ: كَذَبْتِنِي ... أَلَسْتُ أرَى الأَجْلاَدَ مِنْكَ كَواسَيا

رُوَيْدَكَ حَتَّى يَبْتَلِي الشَّوْقُ وَالْهَوَى ... عِظَامَكَ حتَّى يَرْتَجِعْنَ بَوَادِيَا

وَيَأْخُذُكَ الْوِسْوَاسُ مِنْ لَوْعَةِ الهَوَى ... وَتَخْرَسَ حَتّى لاَ تُجِيبُ المُنَادِيَا[3]

---

(1) بشير يموت: م. ن.، ص: 157. وحم الأمر: قضي، وحم الله الأمر وأحمه: قضاه.

(2) لا ترجمة لها في كتب التراجم التي بين أيدينا ولم يذكرها صاحب أعلام النساء، وذكرها بشير يموت بين شواعر العصر الأموي، ولم يشر إلى المصدر الذي أخذ عنه (انظر شاعرات العرب ص: 190).

(3) بشير يموت: م. ن.، والصفحة نفسها.

لم يصلنا من شعر أم حمادة إلا مقطعتان غزليتان، فقد جعلت الهوى يتوقف عندها في المقطوعة الأولى، بعد أن طاف بعباد الله جميعاً، فهي وحدها التي تعرف قيمة الحب، لكنها تشكو المحبوب الذي لم يعرها أيّ اهتمام على ما يبدو مما سبب لها شقاوة. . . وهي شاعرة جريئة متحررة منطلقة ضاربة بالتقاليد العربية وبالتعاليم الإسلامية عرض الحائط، وتبدو أكثر تحررًا في المقطعة الثانية التي تتحدث فيها عن الحب وما يفعله في المحبين، وقد وجهت خطابها إلى المؤنث ـ شكوت إليها الحب ـ ولست أدري ما تعنيه، هل شكت إليها حب الآخر أو شكت إليها حبها هي، أي: المخاطبة. وإذا كان الاحتمال الثاني هو الوارد، فقد يكون في الأمر شذوذ جنسي. . . ومهما يكن من أمر فإن الشاعرة قد تجاوزت الحدود وخرجت عن تقاليد المرأة العربية المسلمة المعروفة بحيائها وعفتها، والتي هي دومًا مطلوبة لا طالبة ومرغوبة لا راغبة. . .

وهذه خرقاء [1] العامرية، وهي شاعرة من شواعر بني عامر في العصر الأموي كان يمر بها الحجّاج في شيخوختها فتقعد لهم، وتحادثهم فمر بها بمران[2] محمد بن الحجاج الأسدي التميمي عائدًا من الحجّ فسلم عليها من بعيد ثم دنا منها لما أذنت له، ثم انتسب وذكر لها بأنه قادم من الحج، فقالت له: «أنا مَنْسَكٌ من مناسك الحج فما بالك لم تمر بي؟ أما سمعت قول ذي الرمة؟».

تَـمَـامُ الـحَـجِّ أنْ تَـقِـفَ الْـمَـطَـايَـا   عَـلَـى خَـرْقَـاءَ وَاضِـعَـةِ الـلِّـثَـامِ

وبعد أن حادثته قليلاً أنشدته من شعرها في ذي الرمة:

لَـقَـدْ أصْـبَـحْـتَ فِـي فَـرْعَـي مَـعَـدٍّ   مَـكَـانَ الـنَّـجْـمِ فـي فَـلَـكِ الـسَّـمَـاءِ

إِذَا ذُكِـرَتْ مَـحَـاسِـنُـهُ تَـذَرَّتْ   بِـحَـارُ الـجُـودِ مِـنْ نَـحْـوِ الـسَّـمَـاءِ

حُـصَـيْـنٌ شَـادَ بِـاسْـمِـكِ غَـيْـرَ شَـكٍّ   فَـأَنْـتَ غِـيَـاثُ مِـحْـلٍ بِـالـفَـنَـاءِ

---

(1) شاعرة من شاعرات العصر الأموي، لم تذكر المصادر تاريخ ميلادها ووفاتها، ولكنها كانت معاصرة لذي الرمة (توفي نحو118 هـ) (انظر خبرها مع ذي الرمة بالتفصيل في الأغاني/ مج17، ص: 336 وما بعدها).

(2) مران: موضع بالشام قريب من دمشق (الحموي: معجم البلدان، مج5، ص: 5).

إذَا ضَـنَّـتْ سَـحَـابَـةُ مـاءِ مُـزْنٍ   تَـثُـجُّ[1] بِـحَـارُ جُـودِكَ بِـارْتِـوَاءِ
لَـقَـدْ مُـطِـرَتْ بِـاسْـمِـكَ أرْضُ قَـحْـطٍ   كَـمَـا مُـطِـرَتْ عَـدَيٌّ بِـالـثَّـراءِ

فقلت أحسنت يا خرقاء، فهل سمع ذلك منك ذو الرمة؟ قالت: إي وربي، قال: فقلتُ: فماذا قال؟ قالت: شكر الله لك يا خرقاء نعمة ربَّيتِ شُكْرِها من ذكرها، فقالت: أثقلنا حقها. ثم قالت: اللهم غفرانك هذا في اللفظ ونحتاج إلى العمل[2].

ولم يصلنا من شعر الخرقاء إلا هذه المقطعة التي أنشدتها بأسلوب تقليدي، ولعل المصادر ذكرتها لشهرة قصة الخرقاء مع ذي الرمة لا لجمالها.

أما جارية[3] سليمان بن عبد الملك، فقد أحبها غلام فكتب إليها شعرًا ملخصه أنه رآها في المنام تعانقه.. فأجابته:

خَـيْـراً رَأيْـتَ وَكُـلُّ مَـا عَـايَـنْـتَـهُ   سَـتَـنَـالُـهُ مِـنِّـي بِـرَغْـمِ الـحَـاسِـدِ
إنِّـي لأرْجُـو أنْ تَـكُـونَ مُـعَـانِـقِـي   فَـتَـبِـيـتَ مِـنِّـي فَـوْقَ ثَـدْيٍ نَـاهِـدِ
وَأرَاكَ فَـوْقَ خَـلاَخِـلِـي وَدمَـالِـجِـي   وَأرَاكَ بَـيْـنَ مَـرَاحِـلِـي وَمَـجَـاسِـدِي

فبلغ ذلك سليمان فزوّجهما.[4]

ففي هذا الغزل سخف وإسفاف وإغراق في وصف الرغبات الجسدية واستطابة اللقاء الجسدي، وهذا الوصف يتنافى مع تقاليد المرأة العربية وتعاليم الدين الإسلامي السمحة.

---

(1) المزن: السحاب الممطر، والمراد هنا المطر، وتثج: تسيل، ثج الماء: سال.

(2) انظر الخبر بالتفصيل في الأغاني، مج17، ص: 336 وما بعدها وأعلام النساء ج1، ص: 346 ـ 347.

(3) لا ترجمة لها في كتب التراجم التي بين أيدينا، ذكرها بشير يموت في كتابه شاعرات العرب ص: 202 دون أن يشير إلى تاريخ ميلادها ووفاتها، وهي جارية لسليمان بن عبد الملك الذي حكم بين سنتي (96 ـ 99 هـ).

(4) بشير يموت : المصدر نفسه والصفحة نفسها، وأشك في خبر تزويج سليمان للجارية والغلام، لأن سليمان كان غيوراً شديد الغيرة على جواريه، وكان ينتقم من الغلمان الذين يكوّنون علاقات مع الجواري (انظر ابن قيم الحوزية: أخبار النساء، ص: 87).

وهكذا اتجه غزل الشواعر في هذا العصر اتجاهين: الغزل العفيف وهو غزل روحي شريف لا تهتّك فيه ولا مجون. والغزل الإباحي وهو جسدي مادي فاحش لا يقيم وزْنًا للأخلاق الأسلامية والتقاليد الاجتماعية.

ج ـ الهجاء:

يعد الهجاء أهم الفنون الشعرية عند العرب، وهو عادة يعدد معايب المهجو وينم عن عاطفة السخط والغضب تجاه شخص تبغضه أو جماعة تنتقم منها، وهو نوعان: الهجاء الجسمي والهجاء الجسمي الخلقي، ويبدو أن الهجاء غير مستحسن «والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشره وما أشبه ذلك، وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح وضؤولة الجسم[1]».

ويرى قدامة بن جعفر أن الهجاء ضد المدح، فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها، ولما كان المدح الجيد إنما يكون بالفضائل النفسية، فكذلك الهجاء الجيد إنما يكون بسلْب هذه الفضائل[2]. وقيل: «أشد الهجاء، الهجاء بالتفضيل، وهو الإقذاع عندهم»[3]، أيضاً: «أشد الهجاء أعفّه وأصدقه[4]».

وفي هذا العصر، أي العصر الأموي، استفحل أمر الهجاء أو ما عرف باسم النقائض على يد جرير والفرزدق والأخطل، وغيرهم. فاستعرت حرب هجائية بينهم طال أمدها، وقد ظل جرير والفرزدق يتهاجيان طوال خمسة وأربعين عاماً، وكان هجاؤهما يتسم بالبذاءة والفحش والإقذاع والسباب.

وقد شاركت المرأة في الهجاء، والغريب في الأمر أن هجاء الشواعر في هذا العصر، في الغالب، يندرج ضمن هذا الاتجاه الذي يقول فيه ابن رشيق

---

(1) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص: 104. . وانظر : علي بوملحم: في الأدب وفنونه، ص: 3.

(2) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 30.

(3) ابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 170.

(4) ابن رشيق: م. ن. ، ج2، ص: 171.

«فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن»[1].
ومن الشواعر اللائي عُرِفْن بهذا النوع من الهجاء، حميدة بنت النعمان[2] بن بشير، وليلى الأخيلية، وميسة بنت جابر، وغيرهن.

فقد هجت حميدة بنت النعمان بن بشير أزواجها، فكانت إذا تزوجت رجلاً ورأت فيه عيباً هجته بشعرها حتى خافت من لسانها العرب. تزوجها الحارث بن خالد المخزومي[3]، ولم تمكث معه غير قليل، ويبدو أنه أساء معاملتها، فقالت فيه:

نَكَحْتُ الْمَدِينَيَّ إذْ جَاءَنِي ... فَيَا لَكَ مِنْ نَكْحَةٍ غَاوِيَهْ
كُهُولُ دِمَشْقَ وَشُبَّانُهَا ... أحَبُّ إلَيْنَا مِنَ الجَالِيَهْ[4]
صُنَانٌ لَهُمْ كَصُنَانِ التُّيُو ... سِ أعْيَا عَلَى المِسْكِ وَالغَالِيَهْ[5]

ولعل الحارث كان متقدمًا في السن فقالت فيه:

فَقَدْتُ الشُّيُوخَ وَأشْيَاعَهُمْ ... وَذَلِكَ مِنْ بَعْضِ أقْوَالِيَه
تَرَى زَوْجَةَ الشَّيْخِ مَغْمُومَةً ... وَتُمْسِي بِصُحْبَتِهِ قَالِيَهْ
فَلاَ بَارَكَ اللهُ فِي عِرْضِهِ ... وَلاَ فِي غُضُونِ إسْتِهِ البَالِيَهْ[6]

ويبدو أن المقطوعتين المذكورتين من قصيدة واحدة لأنهما من البحر والقافية نفسها وتعالجان الموضوع نفسه.

---

(1) ابن رشيق: م. ن.، ج2، ص: 171.

(2) حميدة بنت النعمان: شاعرة دمشقية جريئة وجميلة، لكنها كانت هجاءةً لأزواجها. توفيت نحو 85 هـ. وأبوها النعمان بن بشير بن سعد الخزرجي الأنصاري كان أميراً خطيباً وشاعراً، وهو من أجلاء الصحابة، شهد صفين مع معاوية وولاه اليمن، ثم استعمله على الكوفة، ثم حمص، توفي سنة 65 هـ (زينب فواز: الدر المنثور، ص: 171. والزركلي: الأعلام، مج8، ص: 36 ومج2، ص: 284).

(3) الحارث بن خالد المخزومي من قريش: شاعر غزل من شعراء عصر بني أمية، كان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة، توفي نحو سنة 80 هـ (الزركلي: م. ن.، مج2، ص: 154).

(4) الجالية: هم أهل الحجاز، كان أهل الشام يسمونهم بذلك لأنهم كانوا يجلون عن بلادهم إلى الشام.

(5) الأصبهاني: الأغاني، مج3، ص: 218، والصنان: ريح الإبط.

(6) زينب فواز: م. ن.، ص: 171 ـ 172.

وطلّق «الحارثُ» «حميدة» فتزوّجت «روحاً بن زنباع»[1]، وكان شديد الغيرة فرآها يوماً تنظر إلى قومه «جُذام»، وقد اجتمعوا عنده، فلامها على ذلك، فقالت له: والله ما أحبّ الحلال منهم فكيف بالحرام، وقالت تهجوه:

بكى الخَزُّ من «رَوْحٍ» وأنكَرَ جِلدَهُ   وعجّت عجيجاً من «جُذامَ» المطارِفُ
وقالَ العَبَا قد كُنتُ حِيناً لِباسَكُمْ   وأَكْسِيَةٌ كُرديّةٌ وقَطائفُ[2]

فردّ عليها «رَوحٌ»، ثم وقعت بينهما مناظرة[3]، وهذه بعض أشعار «حميدة» في تلك المحاورة، وهي تُعرّض وتتهكّم به، وتستصغره، ومن ذلك قولها:

أُثني عَلَيْكَ بأنّ باعَكَ ضيّقٌ   وبأنّ أصلَكَ في جُذامٍ مُلصَقُ[4]

وقالت:

فثناؤُنا شرُّ الثناءِ عليكُمُ   أسواً من سُلاحِ الثعلبِ[5]

وقالت فيه أيضاً:

سُمّيتَ رَوْحاً وأنت الغمُّ قد علِموا   لا روّحَ اللهُ عن رَوْحِ بْنِ زِنْبَاعِ[6]

وقالت تهجوه وتعرّض به وتستخفّ برجولته:

تُكحّلُ عَيْنَيْكَ بَرْدَ العَشيّ   كأنّكَ مُومِسَةٌ زانِيَهْ
وآيةُ ذَلكَ بَعْدَ الخُفُوقِ   تُغلّفُ رَأسَكَ بِالغَالِيَهْ
وأنّ بَنِيكَ لِرَيبِ الزّمَا   نِ أمسَت رِقَابُهُمُ حالِيَهْ
فَلَوْ كان أوْسٌ[7] لهُم حاضِراً   لقالَ لهُمْ إنّ ذا أمالِيَهْ[8]

---

(1) روح بن زنباع: كان أميراً على فلسطين من قبل عبد الملك بن مروان، وهو سيد اليمانية في الشام... توفي سنة 84 هـ (انظر الزركلي: م. ن.، مج3، ص: 34).

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 220.

(3) انظر المناظرة كاملة في الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 220 وما بعدها.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 221. وانظر شعر روح هناك.

(5) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 221. وانظر شعر روح هناك.

(6) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 221.

(7) أوس: رجل من جذام، يقال: إنه استودع روحًا مالاً فلم يرده له.

(8) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 222.

وتقول في هذا السياق نفسه متهكّمة به ومستخفّة بفحولته:

وهـل أنـا إلاّ مُـهـرةٌ عـربـيّـةٌ   سليلةُ أفراسٍ تَحلَّلَها بغْلُ
فإن نُتِجَتْ مُهراً كريماً فبالحرَى   وإن يكُ إقرافٌ فما أنجبَ الفحْلُ[1]

وبعد هذا التهكّم والاستهزاء، اضطر «رَوْح» إلى فراقها، فطلّقها، وتذكُر بعض المصادر أنه دعا عليها مرّة بقوله: «اللهم إن بقيَت بعدي فابتلها ببعلٍ يلطِمْ وجهها، ويملأ حِجرها قيئاً». فتزوّجها بعده الفيض بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل، وكان شاباً جميلاً يُصيب من الشراب، فأحبّته، فكان ربّما أصاب من الشراب مُسكراً فيلطمُ وجهها ويقيءُ في حِجْرها، فتقول: «يرحم الله أبا زرعة قد أجيبت دعوته فيّ»[2]. وقد هجت الفيض فأظهرت مساويه، ومن هجائها له قولها:

سُمّيتَ فيضاً وما شيءٌ تفيضُ بهِ   إلاّ سُلاحَكَ بينَ البابِ والدارِ
فتِلكَ دعوةُ رَوْحِ الخيرِ أعرِفُها   سقى الإلَهُ صداهُ الأوطَفُ السّاري[3]

وقالت فيه أيضاً:

وليسَ فيضٌ بفيّاضِ العطاءِ لنا   لكنّ فيضاً لنا بالقيْءِ فيّاضُ
ولَيثُ الليوثِ علينا باسِلٌ شرِسٌ   وفي الحُروبِ هَيُوبُ الصّدرِ جَيّاضُ[4]

لقد عيّرته بالقيء والجُبن، وتمضي في هجائها له والتهكّم به فتقول:

ألا يا فَيضُ كُنتُ أراكَ فيضاً   فلا فَيضاً أصَبتُ ولا فُراتا[5]

ويبدو أن حميدة فُطرت على الهجاء فلم يسلم منها حتى المُقرّبون منها، فقد ولدتْ من الفيض بنتاً فتزوّجها الحجاج بن يوسف، فكانت كثيراً ما تهجوه في

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 221. وإقراف: المقرف: الذي أمه عربية وأبوه ليس كذلك ضد الهجين. والمقرف أيضاً: النذل.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 223.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 223. والأوطف من السحاب: الداني من الأرض.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 223. والجياض: الرواغ.

(5) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 223.

قالب مزح، فقالت له مرّة:

إذا تــذَكّــرتُ نِـكــاحَ الـحـجّــاجْ ... مـنَ الـنـهـارِ أو مـنَ الـلّـيـلِ الـدّاجْ
فـاضَـت لـهُ الـعَـيـنُ بِـدَمـعٍ ثَـجّـاجْ ... وأُشـعِـلَ الـقـلـبُ بِـوَجـدٍ وَهّـاجْ
لـو كـانَ نُـعـمـانُ قـتـيـلُ الأعـلاجْ ... مُستوِي الشَخصِ صَحيحَ الأوداجْ
لـكُـنـتَ مـنـهـا بـمـكـانِ الـنَّـسّـاجْ ... قد كُنتُ أرجو بعضَ ما يرجو الرّاجْ
أن تُـنـكـحـيـهِ مَـلِـكـاً أو ذا تـاجْ[1]

فقال لها الحجّاج: يا حميدة، إنّي كنت أتحمّل مزاحك مدّة، وأمّا اليوم فإني بالعراق.. فإياك، فقالت: سأكُفّ حتى أرحل[2].

هذه هي شاعرتنا حميدة التي اقتحمت فنّ الهجاء، وكاد شِعرها أن يقتصر عليه، لقد كانت هجّاءة سليطة اللسان، فاحشة اللفظ حتى إنّ الرجل ليخجل من رواية شِعرها الهجائي أحياناً، فما بالك إذا علمتَ أنه لامرأة، لأنّ الأصل في طبيعة الأنثى الحشمة والحياء، والأدهى والأمرّ أنّ هجاءها قالته في أزواجها الذين توجب طاعتهم واحترامهم. وشِعرها من الناحية الفنية سقيم، وأسلوبها ركيك في جُملته.

أمّا "ميسة بنت جابر"[3] فهي أيضاً تزوّجت أكثر من واحد، تزوّجها حارثة ابن بدر، ولمّا مات تزوّجها بِشر بن شِعاف بعده، فلم ترَ فيه ما كانت تراه في حارثة من قوّة وشجاعة ورجولة ولياقة، فقالت ترثي حارثة وتهجو بِشر:

بُـدِّلـتُ بِـشـراً شـقـاءً أو مُـعـاقـبـةً ... مِـن فـارسٍ كـان قِـدمـاً غـيـرَ عُـوّارِ[4]
يـا لـيـتـنـي قـبـلَ بِـشـرٍ كـان عـاجَـلَـني ... داعٍ مـن الـلـهِ أو داعٍ مـن الـنـارِ[5]

وهجاؤها هذا لبشر هجاء مُقذِع، وهو أشدّ الهجاء لما فيه من التفضيل، فقد

---

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 224.
(2) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 224. وزينب فواز: م. ن.، ص: 174.
(3) سبقت ترجمتها، انظر فن الرثاء في هذا الفصل.
(4) غير عوّار: ليس ضعيفاً جباناً.
(5) الأصبهاني: م. ن.، مج23، ص: 484.

ذكر محمد بن سلام الجمحي عن يونس بن حبيب أنه قال: "أشدّ الهجاء، الهجاء بالتفضيل، وهو الإقذاع عندهم"[1].

وقالت أيضاً تهجو بشراً:

ما خارَ لي ذو العَرشِ لمّا استخرتُه	وعِزّتِه إذ صِرتُ لابن شِعافِ
فما كان لي بعلاً وما كان مِثلَهُ	يكونُ حليفاً أو يَنالُ إلافي
فيا ربِّ قد أوقعتني في بَليّةٍ	فكُن ليَ حِصناً منه، ربِّ، وكافي
ونجِّ، إلهي، رِبْقَتي من يد امرئٍ	شَتيمٍ مُحيّاه لكُلِّ مُصافي[2]
هو السّوْءَةُ السُّوّآءُ، لا خيْرَ عندَهُ	لِطالِبِ خيْرٍ غيْرُ حدِّ قَوافِي[3]
يرى أكْلةً إن نِلتُها قَلعَ ضِرْسِهِ	وما تِلكَ زُلْفى يالَ عبد مُنافِ[4]
وإنْ حادِثٌ عضّ الشِعافِيّ لم يكُنْ	صَليباً ولا ذا تُدْرإٍ وقِذافِ[5]

لقد عدّدت الشاعرة في هذه القصة، معايِب بِشر الجسميّة والخُلُقية، فالهجاء الجسمي حين وصفته بالشتيم المحيا، أي: الكريه الوجه، أمّا الهجاء الخُلُقي، فقد رمَته بجملة من المعايب الخُلُقية كالبخل والجبن وكل خِلّة قبيحة. وفي الجملة فإن شِعرها الهجائي كان بذيئاً وكان مسِفّاً، ولا سيّما وهي امرأة والأصل في طبيعة الأنثى الحِشمة.

أمّا ليلى الأخيلية[6] فأدلت بدلوها هي الأخرى في فنّ الهجاء، ودخلت بين النابغة الجعدي وسوّار بن أوفى في مهاجاة بينهما، فمالت إلى جانب سوّار وقالت:

---

(1) ابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 170.

(2) الرَّبقة والرِّبقة: العروة في الحبل. والشتيم المُحيا: الكريه الوجه. ومصافي: مخلص الود.

(3) السّوءة: الفاحشة. والسّوآء: الخلّة القبيحة، وحدّ القوافي: تنقيح الشعر، والمراد: أنّ جُوده لا يتعدى الكلام المنمّق لبخله.

(4) الزلفى: التقرب والتودّد، تريد أنّ زوجها يتألم إن رآها تأكل ألمَ من يقلع ضرساً، وليس في ذلك تودّداً إلى الزوجة.

(5) الأصبهاني: م. ن.، مج23، ص: 484. والتدرّأ: المدافعة والعزة.

(6) سبقت ترجمتها في هذا الفصل، انظر فن الرثاء.

وما كُنتُ لو قاذَفتُ جُلّ عشيرَتِي لأذكُرَ قَعبَي حازِرٍ قد تشمّلا[1]

فلمّا بلغ النابغة قولُها، هجاها بقوله:

ألا حيِّيَا ليلى وقُولا لها هَلا فقد ركِبَت أمراً أغرَّ مُحجّلا[2]

فرَدّت عليه ليلى فقالت:

أنَابِغَ لم تَنبُغ ولم تكُ أوّلاً وكُنتَ صُنَيّاً بين صُدّينِ مَجهَلا[3]

أنابِغَ إن تَنبُغ بِلؤمِكَ لا تَجِد لِلُؤمِكِ إلاّ وَسْطَ جَعْدَةٍ مَجْعَلا

تُعيّرُني داءً بِأمِّكَ مِثلُهُ وأيُّ حَصَانٍ لا يُقالُ لها هلا[4]

فغلبته. فلمّا أتى بني جعدة قولها هذا، اجتمع ناسٌ منهم، وقالوا: والله لنأتينّ أمير المدينة، فليأخذنَّ لنا بحقّنا من هذه الخبيثة، فإنها قد قذفتنا، وبلغها ذلك فزادت في الأبيات المذكورة أعلاه قائلة:

أتانِي من الأنبَاءِ أنّ عشِيرَةً بشَوْرانَ يُزجَوْنَ المَطيَّ المُذلّلا[5]

يَرُوحُ ويَغْدُو وَفْدُهُم بِصحيفةٍ لِيَستَجْلِدوا لي، ساءَ ذلك مَعْمَلا

مِن غَيْرِ جُرمٍ غيرَ أنْ قُلتُ: عمُّهُمْ يعيشُ أبوهمْ في ذَراهُ مُغفَلا[6]

وأعمى أتاهُ بالحجازِ نَثَاهُم وكانَ بِأطرافِ الجِبالِ فأسهَلا[7]

---

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج5، ص: 15. والقعب: القدح الضخم الغليظ. والحازِرُ: اللبن الحامض. وتشمّل: صار كتلاً من الرغوة. والثمالة: الرغوة.

(2) ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، ص: 296. وانظر الأصبهاني: م. ن.، مج5، ص: 15. والمرزباني: أشعار النساء، ص: 25. وانظر القطعة كاملة هناك. وهلا: كلمة زجر، تزجر بها الإناث من الخيل إذا أنزي عليها الفحل لتستقر وتسكن.

(3) الصُّنيُّ: تصغير صنو، والصّنو: الشِّعب الصغير يسيل منه. والصدان: جبلان. والمجهل: كمقعد: أرض لا يهتدى فيها.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج5، ص: 15 ـ 16. وابن سلام: طبقات الشعراء، ص: 27. والسجستاني: فحولة الشعراء، ص: 125. والمرزباني: أشعار النساء، ص: 30 ـ 31.

(5) شوران: جبل في ديار بني جعدة.

(6) عمّهم: تعني عقيل. وأبوهم: تعني جعدة. وفي ذراه: في ذرى عقيل، أي: نداه.

(7) نثاهم: النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء.

فَجاءَ بِهِ أَصْحابُهُ يَحْمِلونَهُ إلى خَيْرِ حَيٍّ آخِرينَ وأوّلا
إذا صَدَرَتْ وُرّادُهُمْ عن حِياضِهِم تُغادِرُ نَهْباً للزَّكاةِ ومَعْقَلا
تُنافِرُ سَوّاراً إلى المَجْدَ والعُلا وأُقسِمُ حَقّاً إنْ فَعلْتَ لَيَفْعَلا[1]
بِمَجْدٍ إذا المَرءُ اللئيمُ أرادَهُ هَوًى دُونَهُ في مَهيلٍ ثُمّ عَضَلا[2]
وهَلْ أنتَ إنْ كانَ الهِجاءُ مُحَرّماً وفي غَيرِهِ فَضْلٌ لِمَن كان أفْضَلا[3]
لَنا تامِكٌ دُونَ السَّماءِ وأصلُهُ مُقِيمٌ طَوالَ الدَّهرِ لَن يتحَلحَلا[4]
وما كان مَجْدٌ في أُناسٍ عَلِمْتُهُ مِنَ النّاسِ إلاّ كانَ مَجدُنا أوّلا[5]

وهجاؤها هذا مُقذِع لأنها بَنَت هجاءها على مدح قومها وذمّ قوم النابغة، وقد عرّف عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، الهجاء المُذقع، فقال للحُطيئة، لمّا أطلقه من حبسه بسبب هجائه الزبرقان: إيّاك والهجاء المُذقِع، فقال الحُطيئة: وما المُذقِع يا أمير المؤمنين؟ قال: المُذقِع أن تقول: هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شِعراً على مدحٍ لقوم وذمّ لمن تعاديهم[6].

وقالت تُعيّر قابضاً، وهو أحد رفاق توبة، وقد هرب عنه أثناء الموقعة التي قُتل فيها، وتمنّت أن يكون أخوه عبيد الله فداء له، وقد كان هو الآخر معه:

جَزَى اللهُ شَرّاً قابِضاً بِصَنيعِهِ وكُلُّ امرِئٍ يُجزَى بِما كانَ ساعِيَا
دعا قابِضاً والمُرهَفاتُ يُرِدنَهُ فَقُبِّحتَ مَدْعُوّاً ولَبَّيْكَ داعِيَا
فَلَيتَ عُبَيدَ اللهِ كانَ مَكانَه صَرِيعَاً ولَمْ أسمَعْ لِتَوبَةَ ناعِيا[7]

---

(1) أي: ليفعلنّ. وسوار بن أوفى بن سبرة القشيري، كان زوج ليلى الأخيلية حسب رواية ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ص: 296.

(2) مهيل: المكان المخوف ذو الهول. وعضّل عليه: ضيّق عليه وحال بينه وبين ما يريد.

(3) وفي غيره فضل: تعني في غير الهجاء الحسب والكرم، وليس في الهجاء خير ولا يفضّل به أحد.

(4) تامك: التّامك: السّنام، جمع: توامك.

(5) المرزباني: م. ن.، ص: 30 وما بعدها. وانظر طيفور: م. ن.، ص: 236.

(6) ابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 170.

(7) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 221 (البيتان الأول والثاني). والمبرد: الكامل... ج2، ص: 331 (البيتان الثاني والثالث). وانظر أيضاً: طيفور: م. ن.، ص: 237. والزجاجي: الأمالي، ص: 77 ـ 78. (البيتان: الثاني والثالث) - مع اختلاف يسير.

«وكان سبب هذا الشِعر أنّ توبة بن الحُمَيِّر، غزا فغنم، ثم انصرف فعرّس في طريقه، فأمِنَ فقال، فندّت فرسه فأحاط به عدوّه ومعه عبيد الله أخوه وقابض مولاه، فدعاهما فدبّب عبيد الله شيئاً وانهزما، وقُتل توبة»[1].

وقالت تُعيّر قابضاً أيضاً:

ولـمّـا أن رَأيـتَ الـخَـيـلَ قُـبْـلاً	تُـبـاري بـالـخـدُودِ شَـبَـا الـعـوالـي
صَـرَمـتَ حِـبـالَـهُ وصَـدَدْتَ عـنـه	بِـعَـظْـمِ الـسّـاقِ رَكـضـاً غَـيـرَ آلِ
عـلـى رِبـذِ الـقَـوائِـمِ أعـوَجِـيٍّ	شَدِيدِ الأسرِ مُنكَمِشِ التّوالِي[2]

لقد وصفت قابضاً بالجُبن، فهو لمّا رأى الخيل مُقبلة «تباري بالخدود العوالي»، تخلّى عن توبة وهرب من المعركة، وهذا الأمر ليس من شيم الأبطال، بل من عمل الجبناء. ولذلك راحت ليلى تُعيّره وتهجوه في العديد من المرّات، قالت تُعيّره وتعذُر عبيد الله أخا توبة:

دعـا قـابِـضـاً والـمَـوتُ يَـخـفِـقُ ظِـلُّـهُ	ومـا قـابِـضٌ إذ لـم يُـجِـب بـنَـجِـيـبِ
وآسـى عُـبَـيـدَ الـلّـهِ ثـم ابـنَ أُمِّـهِ	ولَـو شـاءَ نَـجّـى يـومَ ذاكَ حـبـيـبـي[3]

وقالت تعتب عليه:

فـإنّـكَ لـو كَـرَرتَ خَـلاّكَ ذَمٌّ	وفـارَقَـكَ ابـنُ عَـمِّـكَ غَـيـرَ قـالِـي
ألَـمْ تَـعـلَـمْ جـزاكَ الـلّـهُ شـرّاً	بِـأنّ الـمَـوْتَ مـنـتـهـاةُ الـرجَـالِ[4]

ومن الذين وفدت عليهم وهجتهم، عبد الملك بن مروان، إذ يذكر الرواة أنه دخل على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فوجد عندها امرأة بدوية أنكرها، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: أنا الوالهة الحرّى ليلى الأخيلية، قال: أنت التي تقولين:

---

(1) المبرد: م. ن.، ج2، ص: 331. وقال: من القيلولة، وهي النوم نصف النهار.

(2) بشير يموت: م. ن.، ص: 138. والربذ: الخفيف القوائم في مشيه. والأعوج: الضامر من الإبل.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 221.

(4) طيفور: م. ن.، ص: 238.

أرِيقَتْ جِفانُ بن الخَليعِ فأصبَحَتْ ... حِيَاضُ النَّدَى زَالَتْ بِهِنّ المَرَاتِبُ
فَعُفَاتُه لَهْفى يطُوفُونَ حَوْلَهُ ... كما انقَضّ عَرْشُ البئْرِ والوِرْدُ عاصِبُ[1]

قالت: أنا التي أقول ذلك. قال: فما أبقيتِ لنا؟ قالت: الذي أبقاه الله لك. قال: وماذا؟ قالت: نسباً قرشياً، وعيشاً رخيّا، وإمرَةً مطاعة، قال: أفردتهِ بالكرم. قالت: أفردته بما أفرده الله به، فقالت عاتكة: إنها جاءت تستعين بنا عليك في عينٍ تسقيها وتحميها لها. ولستُ ليزيد إن شفّعتها في شيء من حاجتها، لتقديمها أعرابياً جِلفاً على أمير المؤمنين. قال: فوثبت ليلى فقامت على رجلها واندفعت تقول:

ستَحمِلُني ورَحْلِي ذاتُ وَخْدٍ[2] ... عليها بِنْتُ آباءٍ كِرَامِ
إذا جَعَلَتْ سَوادَ الشام جَنباً ... وغُلِّقَ دونها بابُ اللئامِ
فَلَيْسَ بِعائِدٍ أبَداً إليهِم ... ذَوُو الحاجاتِ في غَلَسِ الظَلامِ
أعاتِكَ لوْ رأيتِ غَدَاةَ بِنّا ... عَزاءَ النفسِ عنكُمْ واعتِزامي
إذاً لَعَلِمْتِ واستيقَنْتِ أنّي ... مُشَيّعَةٌ ولم تَرْعَيْ ذِمامي
أأُجْعَلُ مِثلَ تَوبَةَ في نَداهُ ... أبا الذِّبّانِ[3] فُوهُ الدّهرَ دامي
مَعَاذَ اللهِ ما عَسَفَتْ[4] بِرَحلي ... تُغِذُّ السّيرَ لِلبَلَدِ التُّهامِي
أقُلْتِ خَلِيفَةٌ فَسِواهُ أحجَى ... بِإمرَتِهِ وأوْلى بِاللِّئامِ
لِئامِ المُلكِ حِينَ تُعَدُّ كَعْبٌ ... ذَوُو الأخطارِ والخُطَط الجِسامِ[5]

---

(1) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 230 ـ 231. وعفاتة: العفاة: طالبو المعروف. وفيه عيب في الوزن، وهو حذف الحرف الثالث من «فعولن». وهذا الحذف يسمى الخرم.

(2) الوخدُ: ضربٌ من السير، يقال: وخد البعير: إذا أسرع وصار يرمي بقوائمه كالنعام.

(3) كنية عبد الملك بن مروان لشدة رائحة فمه، ويراد أنّ الذباب يسقط إذا قارب فمه (انظر: ابن قتيبة: المعارف، ص: 586).

(4) عسفت: سارت وخبطت. والتهامي: من التّهم البلد: استوخمه. والتهمة: الأرض المتصوبة إلى البحر.

(5) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 231 ـ 232. وانظر: ابن عساكر: م. ن.، ص: 326 ـ 327. والمالقي: الحدائق، ص: 159 ـ 160. وطيفور: م. ن.، ص: 203 ـ 204. وكعب: =

لقد استهلّت القصيدة بالفخر، ثم رمته باللؤم ـ وغُلّق دونها باب اللئام ـ ووصفته بالبخل، ونفت عنه كل فضيلة يُمتدح بها، وهذا ما يُعرف بالهجاء الخُلُقي. ثم انتقلت إلى الهجاء المُذقع وهو أشدّ وقعاً في النفس، وهو الهجاء بالتفضيل، وقد فعلت ذلك حين مدحت توبة وذمّت عبد الملك بن مروان، بل ووصفته وصفاً (كاريكاتورياً) ماسخاً حين هجته هجاءً جسمياً، فعمدت إلى كنيته (أبو الذبّان) لشدّة رائحة فمه النتنة ـ أبا الذبّان فوه الدهر دامي ـ. أرادت أنّ الذباب يسقط إذا قارب فمه؛ واستعمال الشاعرة لهذه الكلمات السوقية التافهة، جعل هجاءها يفقد قيمته الفنية، ويصبح مجرّد سباب محض، وليس للشاعرة فيه إلا إقامة الوزن، لأنّ أشدّ الهجاء أعفّه وأصدقه، أي ما عفّ لفظه وصدق معناه[1]. ولسنا ندري كيف كان ردّ الخليفة عبد الملك بن مروان على هذا الهجاء المُذقع، لأنّ المصادر التي بين أيدينا سكتت عن ذلك. ويبدو أن الشاعرة ليست هذه المرة الأولى التي تتصل فيها بعبد الملك، فقد ذكر الرواة أنها وفدت عليه مرّة بعد أن أسنّت وعجزت، فقال لها مداعباً: «ما رأى توبة فيك حين هَوِيَك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين ولّوك، فضحك عبد الملك حتى بدت له سنٌّ سوداء كان يُخفيها»[2].

أمّا ابنة يزيد الحنفي[3]، فتزوّجها قتادة[4] بن مغرب، لكنه على ما يبدو كرهها من ليلتها، فلمّا أصبح طلّقها وألحقها بأهلها، ثم هجاها، فلمّا بلغها

= من آباء ليلى، وسئلت: أيُّ الكعبين عنيت؟ فقالت: ما إخالُ كعباً ككعبي.

(1) ابن رشيق: العمدة، ج2، ص: 171.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 225. وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 297.

(3) هي ابنة يزيد الحنفي زوجة قتادة بن مغرب: شاعرة من شواعر العرب في العصر الأموي، عرفت بقوة العارضة، وفي هجائها سخرية مرة. (انظر طيفور: بلاغات النساء، ص: 157 ـ 158. والمرزوقي: شرح ديوان الحماسة، مج2 ص: 1517).

(4) قتادة بن مغرب: شاعر من شعراء الدولة الأموية، كان معاصراً لزياد الأعجم، وكانت بينهما مهاجاة (انظر الأصبهاني: الأغاني، مج11، ص: 307 ـ 308، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 283).

قوله، شدّت عليها ثيابها وأتت بيت يزيد[1] بن المهلّب، وكان قتادة عنده، فاستأذنت عليه ودخلت، ثم قالت:

حَلَفْتُ ولم أكْذِب وإلاّ فكُلُّ ما	مَلَكْتُ لبَيْتِ اللهِ أُهدِيهِ حافِيَهْ
لَو انّ المنايا أعْرَضَتْ لاقْتَحَمتُها	مَخافَةَ فِيهِ إنّ فاهُ لَداهِيَهْ
فَما جِيفَةُ الخنزير عند ابنِ مُغْرِبٍ	قَتادةَ إلاّ ريحُ مِسْكٍ وغالِيَهْ
فكَيْفَ اضْطِباري يا قَتادةُ بَعدما	شَمِمْتُ الذي من فِيكَ أَنْأى صِماخِيَهْ[2]

لقد صوّرت الشاعرة قتادة تصويراً كاريكاتورياً فعمدت إلى الهجاء الجسمي فرمته بالبُخر، إنّ فمه بخر ونتن، وقد أفسد عليها آلة الشم والسمع أيضاً بمحاورته.

أمّا كنزةُ أمّ شملة[3]، فقد دسّت على لسان ذي الرمّة أبياتاً يهجو بها ميّة ويذكُرُها بكلّ قبيحة، وقد برئ منها ذو الرمّة، ونُسِبت إلى صاحبتها كنزة التي تقول فيها:

ألا حَبّذا أهلُ المَلاَ غَيرَ أنّهُ	إذا ذُكِرتْ ميٌّ فلا حبّذا هِيَا
على وجْهِ ميّ مَسحَةٌ من مَلاحَةٍ	وتحت الثيابِ الخِزْيُ لو كانَ بادِيَا
ألم تَرَ أنّ الماء يُخلِفُ طعمَهُ	وإنْ كانَ لوْنُ الماءِ في العيْنِ صافِيَا
إذا ما أتاهُ واردٌ من ضرورةٍ	تولّى بأضْعافِ الذي جاء ظامِيَا
كذلِكَ ميٌّ في الثِيابِ إذا بَدَتْ	وأثوَابُها يُخفِينَ مِنها المَخازِيا

---

(1) يزيد بن المهلب: هو ابن أبي صفرة القائد الشهير، عامل خراسان بعد وفاة أبيه، عزله عمر بن عبد العزيز، ولكنه فرّ من السجن، ورام الخلافة لنفسه، فقتله مسلمة بن عبد الملك سنة 102 هـ. (ابن خلكان: وفيات الأعيان: مج6، ص: 278 وما بعدها. والزركلي: الأعلام، مج8، ص: 189 ـ 190).

(2) المرزوقي: م. ن.، مج2، ص: 1517. وانظر طيفور: م. ن.، ص: 157 ـ 158.

(3) كنزة أم شملة بن برد المنقريّ: من ولد قيس، شاعرة من شواعر العصر الأموي، وهي أمة لبني منقر اشتراها برد، ويعني بقيس، قيس بن عاصم المنقري. (المرزوقي: شرح الحماسة، مج1، ص: 701 «هامش1». وانظر الأصبهاني: م. ن.، مج17، ص: 327 وما بعدها).

فَلَو أنّ غَيلانَ الشَقِيُّ بَدَت لهُ		مُجَرّدةً يوماً لَما قالَ ذا لِيا
كقولٍ مضى مِنهُ ولكن لَرَدّهُ		إلى غَيرِ ميٍّ أو لأصبَحَ ساليا[1]

يبدو أنّ كنزة كانت تحسد ميّة لأنها كانت حظية عند ذي الرمّة، ولعلّها كانت تتمنّى أن تكون مكانها، وفي البيت الأخير من المقطوعة إشارة إلى ذلك (. . . . ولكن لرَدّه إلى غير ميّ. .)، وقد أخذت ميّة المكان الذي كانت تطمح إليه كنزة على ما يبدو، فهجتها ورمتها بقبح المنظر المخفيّ تحت الثياب، ولكنها لم تُنكر مسحة الملاحة الظاهرة على وجهها، وهجاؤها هنا يُشبه هجاء الضرائر لأنّ العداوة بينهن متأصّلة قديمة. كما يُذكّرنا هجاؤها هذا بما فعله ابن زيدون في القرن الخامس الهجري حين كتب رسالته الهزلية على لسان ولاّدة وبعث بها إلى منافسه في حُبها ابن عبدوس.

ومن ألوان الهجاء أيضاً عندهن هجاء الأزواج ورميهم بالعجز الجنسي، واحتقارهم والاستخفاف برجولتهم، وشكايتهم إلى الولاة أحياناً، كما فعلت أم الورد العجلانية[2]، وهي شاعرة ماجنة خالية من كل لياقة وحياء، تزوّجت برجل فعجز عنها، فتقدّمت إلى والي اليمامة فقالت له:

والله لا يُمسِكُني بِضَمّ		ولا بتقبيلٍ ولا بِشَمّ
ولا بِزَعزاعٍ يُسَلّي هَمّي		تُطيحُ منه فَتْخي في كَمّي[3]

ففرّق بينهما، ثم تزوّجت رجلاً آخر فرضيته، وزوّجت أخاها أخت زوجها

---

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، مج2، ص: 1542. وانظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 357. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 460.

(2) لا ترجمة لها في كتب التراجم التي بين أيدينا، ويوجد في مخطوطة باريس المرقمة 3066 عربيات الورقة 39 ما نصه: «في كتاب النساء الشواعر للحسن بن محمد بن جعفر بن الطراح قال: قرأت في كتاب بلاغات النساء لأحمد بن أبي طاهر قال: ابن الكلبي: كانت أم الورد العجلانية واسمها جمل شاعرة إسلامية ماجنة، فتزوجت برجل فعجز عنها، فتقدمت إلى والي اليمامة السري بن عبد الله الليثي الذي تولى اليمامة قبل سنة 143 تشكو زوجها الذي عجز عنها، ففرق بينهما». وفتخي: من فتخ فتخاً: استرخت مفاصله ولانت.

(3) المرزباني: م. ن.، ص: 110.

فعجز عنها، فقالت تهجو أخاها:

يا عمرو لو كُنتَ رجُلاً كريمَا ... وكُنتَ مِمّن يمنعُ الحريمَا
أو كانَ رُمحُ إستِك مستقيمَا ... (.......) بِهِ جاريةً هضِيمَا
(....) أخوها أختَكَ الغليمَا ... بذي خُطوطٍ يَغلِقُ المشيما
واحتدَرَتْ من ظَهرِه الهَميما ... تسْمَعُ من أصواتِها نئيمَا[1]

وقالت تهجو زوجها الأول:

إن تَسألوني عنهُ ما كان الخَبَرْ ... عذّبَني الشيخُ بأنواعِ السَهَرْ
حتى إذا ما كانَ في وَقتِ السَحَر ... رَكّبَ المِفتَاحَ في القُفلِ انكَسرْ
ورعدَتْ.... بِلا مَطَرْ.[2]

ولأمّ الورد أشعارٌ أخرى أكثر مجوناً وفُحشاً من تِلك التي ذكرت[3]، نزّهتُ قلمي عن روايتها.

وهذه شاعرة أخرى هجّاءة، كانت مُعاصرة لأمّ الورد وماجنة مثلها، وهي جارية بدوية لإدريس بن أبي حفصة، يُقال لها جُمل[4]، قالت تهجوه بالعجز الجنسي لأنه كان شيخاً هرماً:

يا جُمْلُ لو كُنتِ عند الله مُسلِمةً ... لما ابتُليتِ بِشيخٍ مثل إدريسِ
لَمَا ابتُليتِ بشيخٍ لا حَراكَ بِهِ ... أبقى لكِ الدهرُ منه شرّ ملبوسِ

---

(1) المرزباني: م. ن.، ص: 111. ومكان النقاط: كلمتان بذيئتان رأيت حذفهما ويفهمان من السياق. والهميم: الذوب كأنّها أذابت ماء صلبه.

(2) مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس المرقمة 3066 عربيات الورقة 39. وتوجد مكان النقاط كلمة نابية رأيت حذفها وتفهم من السياق.

(3) انظر المخطوط المذكور سالفاً. والمرزباني: م. ن.، ص: 111 وما بعدها.

(4) لا ترجمة لها في كتب التراجم التي بين أيدينا لكنّها كانت جارية لإدريس بن أبي حفصة، وإدريس هذا كان شاعراً معروفاً من مخضرمي الدولتين: الأموية والعباسية، ولذا أدرجناها مع شواعر العصر الأموي (انظر الحسن البصري: الحماسة البصرية، ج1، ص: 157). وأظنّ أنّ جُمل هذه هي نفسها أم الورد العجلانية السالفة الذكر كانت تسمى جُمل أيضاً. ولأنهما كانتا شاعرتين معاصرتين ماجنتين ولا ترجمة لهما... وأن أسلوبهما واحد لا تكاد تفرق بينهما...

يـلـقـاكِ مـنـه الـذي تَـهـويْـنَ رؤيَـتـهُ   عـنـد الـلـقـاء بـإدبـارٍ وتـنـكـيـسِ
أمـسِـي وأُصـبِـحُ مـمّـا لا يـبُـوحُ بِـهِ   مِمّا تُحِبّينَ رأساً في المفاليسِ[1]

د ـ المدح:

حافظت الشواعر على هذا اللون من الشعر في هذا العصر، وأدلين فيه بدلائهن كشواعر العصر الإسلامي، وانتهجن فيه نهجهنّ.

ومن الشواعر اللائي شاركن فيه: ليلى الأخيلية[2]، وقد وفدت على بعض الخلفاء والولاة، وممّا رواه صاحب زهر الآداب: أنّ معاوية بن أبي سفيان بينما كان يسير إذ رآى راكباً مُلثّماً، فقال لبعض شرطه: ائْتِني به وإيّاك أن تُروّعه، فأتاه، فقال: أجِب أمير المؤمنين، فقال: إياه أردت، فلمّا دنا الراكب حدر لثامه فإذا ليلى الأخيلية، فأنشأت تقول:

مُـعَـاويَ لـم أكَـدْ آتِـيـكَ تـهْـوِي   بـرَحـلِـي نـحـوَ سـاحَـتِـكَ الـرّكـابُ
تَـجُـوبُ الأرضَ نَـحـوَكَ مـا تَـأنّـى   إذا مـا الأُكْـمُ قَـنّـعَـهـا الـسّـرابُ
قَـريـحُ الـظّـهْـرِ يَـفـرَحُ أن يَـراهـا   إذا وُضِـعَـتْ وَلِـيّـتُـهـا الـغُـرابُ
وكُـنـتَ الـمُـرتَـجى وبِـكَ استـغـاثَـت   لِـتـنـعِـشَـهـا إذا بَـخِـلَ الـسّـحـابُ

فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة فتخيّر أنت، فأعطاها خمسين من الإبل[3].

واتصلت ليلى الأخيلية أيضاً بالحجاج بن يوسف ومدحته، دخلت عليه يوماً وعنده وجهاء القوم وأشرافهم، فرحّب بها، ثم سألها عمّا أتى بها، فقالت: «إخلاف النجوم، وقِلّة الغيوم، وكلبُ البرد، وشدّة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد»[4]. ثم طلب منها أن تصف الفجاج، فقالت: «الفجاج مغبرّة، والأرض

---

(1) طيفور: بلاغات النساء، ص: 149. وص: 159، طبعة دار الحداثة، بيروت.

(2) سبقت ترجمتها، انظر فن الرثاء في هذا الفصل.

(3) انظر الحصري: زهر الآداب، ج4، ص: 1002 ـ 1003. (الخبر والشعر). والبيت الثالث من المقطوعة عن (المرزوقي: شرح الحماسة، مج2، ص: 1625).

(4) السراج: مصارع العشاق، مج1، ص: 283. وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ـ تراجم النساء ـ=

مقشعرّة، والمبرك معتلّ، وذو العيال مختلّ، والمال للقلّ، والناس مُسنتون، رحمة الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة، لم تدع لنا هُبَعاً ولا ربعاً، ولا عافطة، ولا ناقطة، أذهبت الأموال، ومزّقت الرجال، وأهلكت العيال»[1]. ثم قالت: إني قد امتدحت الأمير: قال هاتي! فأنشأت تقول:

أحَجّاجُ إنَّ اللهَ أعطَاكَ غايةً ... يُقصّرُ عنها من أرادَ مداها

أحجّاجُ لا يُفلِل سلاحُكَ إنّما الـ ... ـمنايا بِكفّ اللهِ حَيْثُ تراها

إذا هَبَطَ الحجّاجُ أرضاً مريضةً ... تتَبَّعَ أقصَى دائِها فشفاها

شفاها مِنَ الداءِ العُضالِ الذي بِها ... غُلامٌ إذا هزّ القناةَ سقاها

سَقاها دِماءَ المارِقينَ وعَلّها ... إذا جَمَعَت يوماً وخيفَ أذاها

إذا سَمِعَ الحجّاج رِزّ كتيبةٍ ... أعَدّ لها قَبلَ النزُولِ قِراها[2]

أعدّ لها مَصقُولةً فارِسيّةً ... بأيدِي رِجالٍ يحلُبُون صَرَاها[3]

أحجّاجُ لا تُعطِي العُصاةَ مُناهُم ... ولا اللهُ يُعطي للعُصاةِ مُناها

ولا كُلَّ حَلاّفٍ تَقَلّدَ بَيعَةً ... فأعظَمَ عَهدَ اللهِ ثُمّ شَراها[4]

قيل: إنها لمّا بلغت البيت الذي تقول فيه: (غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها..)

= ص: 329 ـ 330. واختلاف النجوم: تريد قلة المطر. وكلب البرد: شدته.

(1) ابن عساكر: م. ن.، ص: 330. والسراج: م. ن.، ص: 283 ـ 284. والمالقي: م. ن.، ص: 163. وهناك رواية أخرى في وفودها على الحجاج (انظر ابن شاكر: فوات الوفيات، مج3، ص: 227. والأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 232. والمرزباني: أشعار النساء، ص: 64 ـ 65. والفجاج: الواحد فج: الطريق الواسع الواضح بين جبلين. والمبرك: تريد الإبل. ومختل: محتاج، ومسنتون: من أسنت: أصابه الجدب والقحط. والهُبع: ما أنتج في الصيف. والعافطة: النعجة أو الضائنة. والنافطة: الماعزة أو العنزة. يقال في المثل: ماله عافطة ولا نافطة، أي: ماله شيء.

(2) رِزّ: الرّز: الصوت تسمعه من بعيد. والقِرى: ما يقدّم للضيف.

(3) صراها: الصّرى هنا: بقية اللبن، والصرى أيضاً: اللبن يبقى فيتغير طعمه.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 232 ـ 233. وانظر المالقي: الحدائق، ص: 163. وابن عساكر: م. ن.، ص: 330. والسراج: م. ن.، ص: 284.

عقّب الحجّاج قائلاً: «لا تقولي غلام، قولي هُمام»؛ ثم قال: «قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق سواها» ثم التفت إليها وقال: حسبُك، فقالت: إنّي قُلتُ أكثر من هذا. فقال: حسبُك، ويحك حسبُك. ثم قال: يا غلام اذهب بها إلى فلان، فقل له: اقطع لسانها، قال: فذهب، فقال له: يقول لك الأمير: اقطع لسانها، قال: فأمر بإحضار الحجّام، فالتفتت إليه، فقالت له: ثكلتك أمّك! أما سمعت ما قال؟ إنّما أمرك أن تقطع لساني بالبرّ والصلة، فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجّاج غضباً، وهمّ بقطع لسانه، فقال: اردها، فلمّا دخلت عليه قالت: كاد أيها الأمير يقطع مقولي، ثم أنشأت تقول:

حـجّـاجُ أنـتَ الـذي مـا فَـوقَـه أحـدُ ... إلاّ الـخـلـيـفـةُ والـمُـسـتَـغـفَـرُ الـصَـمَـدُ

حجّاجُ أنتَ شِهابُ الحَربِ إن لَفَحَتْ ... وأنتَ للناسِ نُورٌ في الدُّجَى يَقِدُ[1]

ومن الذين وفدت عليهم فمدحتهم، مروان بن الحكم، أيام ولايته لمعاوية على المدينة، وقد وصلنا من شِعرها فيه قصيدتان، تقول في الأولى:

أُنيخَت لدى بابِ ابن مروانَ ناقتي ... ثـلاثـاً لـهـا عِـنـدَ الـنـتـاجِ صَـريـفُ

يُـطِـيـفُ بـهـا فِـتـيـانُـهُ كُـلّ لـيـلـةٍ ... بِـنَـيْـرَيْـنِ مِـئـرَانُ الـجـبـالِ وَرِيـفُ[2]

غُـلامٌ تـلـقّـى سُـؤدَداً وهـو نـاشِـئٌ ... فـأنـتَ بِـهِ رَحْـبُ الـذِراعِ أَلِـيـفُ

بِـقَـيْـلٍ كَـتَـحْـبِـيـرِ الـيـمـانِـي ونـائـلٍ ... إذا قُـلِّـبَـتْ دونَ الـعَـطـاء كُـفـوفُ[3]

ورُحْـنـا كـأنّـا نـمْـتـطـي أخـدريّـةً ... أضَـرّ بـهـا رَخـوُ الـلّـبـانِ عـنـيـفُ[4]

---

(1) المالقي: م. ن.، ص: 163 ـ 164 (الشعر والخبر). وانظر السراج: م. ن.، ص: 284 ـ 285. وابن عساكر: م. ن.، ص: 330 ـ 331. والمرزباني: م. ن.، ص: 72. والأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 227.

(2) نيرين: يقال: ناقة نيرين وذات أنيار: مسنةً وفيها بقية شباب ونيرين أيضاً: شيئين، ويقال: لونين من العلف. ومئران: من النشاط.

(3) تحبير اليماني: تزيين وتحسين الثوب اليماني.

(4) أخدرية: صفة للخيل. اللبان: الصدر أو ما بين الثديين وأكثر استعماله لصدر ذات الحوافر كالفرس.

وحَـلأهـا حتـى إذا لَـم يَـسُـغْ لـهـا ... حَـلِـيٌّ بـجَـنـبَـيْ ثـادِقٍ وجَـفـيـفُ[1]
أرنّ عـلـيْـهـا قـارِبـاً وانـتَـحَـتْ لَـهُ ... مُـبِـرَّةُ أرسـاخِ الـيَـدَيْـنِ زَروفُ[2]
تُـهادي خَـجُـوجاً خَـدّدَ الـجَـرْيُ لـحمَـهُ ... فَلاَ جحْشَها بالصَيفِ فهْي خَروفُ[3]

وقالت في الثانية تمدح مروان أيضاً وتذكر أمر الجعديين:

طَـربْـتُ ومـا هـذا بـسـاعـةِ مَـطْـرَبِ ... إذا الـحيُّ حلُّوا بينَ عـاذٍ فحَبحَبِ[4]
قـدِيـمـاً فـأضْـحَـتْ دَارُهُـمْ قـد تَـلَـعَّـبَـت ... بـهـا خَـرقـاتُ الـريحِ مِن كـلّ مَـلـعَـبِ
وكَـمْ قـد رأى رائـيـهِـم ورأيـتُـهـا ... بِـهـا لـيَ مـن عـمٍّ كـريـم ومِـن أبِ
فَـوارِسَ مـن آلِ الـنُـفـاضَـةِ سـادَةً ... ومِـن آلِ سـعْـدٍ سُـؤدَداً غَـيـرَ مُـتـعَـبِ
وحَـيٌّ حَـرِيـدٍ قـد صـبَـحْـنـا بِـغـارَةٍ ... فلَـم يُمْسِ بيتٌ منهم تحت كَوكَبِ[5]
شَـنَـنّـا عـلـيـهـم كُـلّ جَـرداءَ شَـطـبـةٍ ... لَـجُـوجٍ تُـبَاري كُـلّ أجْـرَدَ شَـرجَـبِ[6]
أجشُّ هزيـمٍ[7] في الـغُـبـارِ إذا انْـتَحى ... هَـوَادِيَ عِـطْـفَـيْـهِ الـعِـنـانُ مُـقَـرَّبِ
لِـوَحشِـيّـهـا مِـن جَـانِـبَـيْ زَفـيـانِـهـا ... حَفيفٌ كـخَـذْروفِ الوليـدِ المُثقَّبِ[8]
إذا جاشَ بـالـمـاءِ الـحـمـيـمِ سِـجالُـها ... نضَـخْـنَ بـه نـضـخَ المزادِ المُسرّبِ[9]
فـذَرْ ذَا، ولـكِـن قـد تـمَـنّـيـتُ راكـبـاً ... إذا قـالَ قـوْلاً صـادِقـاً لـمْ يُـكـذَّبِ

---

(1) حلأها: يقال: حلأه عن الماء: طرده ومنعه. ثادق: سائلٌ. جفيف: يابس الكلأ.

(2) أرنّ: نشط. القارب: طالب الماء ليلاً. وزروف: سريعة.

(3) المرزباني: م. ن.، ص: 34 ـ 35. والخجوج: الريح الشديدة الملتوية في هبوبها. والخروف من الإبل: التي تنتج في الخريف.

(4) عاذ: موضع عند بطن كرّ من بلاد هذيل. (انظر الحموي: معجم البلدان، مج4، ص: 65). وحبحب: ماء لبني جعدة قبل نجران (انظر البكري: معجم ما استعجم، ج2، ص: 419).

(5) حريد: منفرد.

(6) الشطبة: الفرس السبطة اللحم والطويلة. والشرجب: الفرس الكريم.

(7) الهزيم: الذي في صوته هزمة الرعد.

(8) زفيانها: من الزّفن بالكسر: مظلة يتخذونها فوق السطوح. والخذروف: شيء يدوّره الصبي بخيط في يديه فيسمع له دويّ.

(9) سجالها: السجال: وحدتها السّجل: وهو الدلو. والنضخُ: فوران الماء. والمزاد: وحدتها: المزادة: وهي القربة.

بعد أن وقفت على الأطلال، ووصفت الناقة، وفخرت بقومها على عادة الشعراء الجاهليين، ها هي ذي الآن تدخل إلى الموضوع الذي هو المدح، فتقول:

أدَلّتْ بِقُرْبِي عِنْدَه وقضى لها ... قَضاءً فلم ينقَضْ ولم يتعقّبِ

فإنّك بَعدَ الله أنتَ أميرُها ... وقُنعانُها في كلّ خوفٍ ومُرغِبِ[1]

فَتُقْضَى فلولا أنّهُ كُلُّ رِيْبَةٍ ... وكُلّ قليلٍ من وعيدِكَ مُرهِبي

إذَنْ ما ابتَغى العادِي الظلُوم ظُلامَةً ... عليّ وما أجلِبْتُ للمُتَجلّبِ[2]

إذا أدلجَتْ حتى ترى الصُبحَ واصَلت ... أديمَ نهارِ الشمسِ ما لم تَغَيَّبِ

فلمّا رأتْ دارَ الأميرِ تَخاوَصَتْ ... فقُلتُ لها قَد هِبتِ من مُتَهيِّبِ[3]

صِياحَ فَراريجِ العُقُورِ وحاجِباً ... وصَوْتَ المُنادي بالصلاةِ المثوِّبِ[4]

وتَرْجيعَ أصواتِ الخُصومِ تَرُدُّها ... بُيوتُ فضاءٍ في طمَارٍ مُبَوَّبِ[5]

يَظلُّ لأعلاها دَويٌّ كأنّهُ ... تَرنُّمُ قاري بَيْتِ نَحْلٍ مُنَوِّبِ[6]

نلحظ في القصيدتين السالفتي الذكر، أنّ ألفاظهما كانت متينة رصينة كثيرة الغريب، وأنّ الشاعرة ظلّت متأثّرة بالشعراء الجاهليين من حيث الغرابة والحوشية، غير أننا نجد في شِعرها بعض الأفكار المستمدّة من ديننا الإسلامي الحنيف، كقولها: (وصوت المنادي بالصلاة المثوّب ـ فإنّك بعد الله أنت أميرها...) ولولا ذلك لما اختلفت في أسلوبها عن أيّ شاعر من شعراء الجاهلية.

---

(1) قنعانها: القنعان: الذي يقنع برأيه وبشهادته، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع.

(2) معناه لا بل تعدّى على من ظلم وهجا فأخاف أن أهجو وأنتصر فيعدى علي (المرزباني: م. ن.، ص: 41).

(3) تخاوصت: غضت من بصرها، وهي مع ذلك تحدّق النظر كما لو نظرت إلى الشمس.

(4) العقور: الحصون والقصور، ويروى بالآذان المثوّب.

(5) الطمّار: المكان العالي المرتفع. ومبوّب: أي له باب.

(6) المرزباني: م. ن.، ص: 36 وما بعدها. والقاري: ذكر النحل الذي يجمعها. والمنوّب: المسوّد أي: يسود هذا النحل بما يعمل موضعه، ومنه سمي النوبي لسواده.

ومدحت آل مُطرِّف فقالت:

يـا أيُّـهـا الـسَّـدِم الـمُـلَـوّي رأسَـهُ ... لِـيَـقـودَ مِـن أهـلِ الـحـجـازِ بَـرِيـمـا[1]

أتُـريـدُ عَـمْـروَ بـن الـخـلـيـعِ ودُونَـه ... كَـعْـبٌ إذاً لَـوجـدْتَـهُ مـرؤومـا[2]

إنّ الـخَـلـيـعَ ورهْـطَـهُ فـي عَـامِـرٍ ... كـالقَـلْـبِ أُلـبِسَ جُؤْجُؤاً وحَـزيـمـا[3]

لا تَـقْـرَبَـنَّ الـدّهْـرَ آلَ مُـطَـرَّفٍ ... إنْ ظـالِـمـاً أبـداً وإن مـظـلُـومـا

إنْ سـالَـمُـوكَ فـدَعْـهُـمُ مِـن هَـذِهِ ... وارقُـدْ كَـفـى لَـكَ بـالـرُقـادِ نَـعـيـمـا

هَـبَـلَـتـكَ أُمُّـكَ لـوْ ورَدْتَ بـلادَهـمْ ... لَـقِـيَـتْ بَـكـارَتُـكَ الـحِـقـاقُ قُـرُومـا[4]

قَـوْمٌ رِبـاطُ الـخَـيْـلِ وَسـطَ بُـيـوتِـهـمْ ... وَأسِـنّـةٌ زُرقٌ يُـخَـلْـنَ نُـجُـومـا

ومُـخَـرّقٌ عـنْـه الـقـمـيـصُ تُـخـالُـه ... وَسـطَ الـبُـيـوتِ مِـن الـحَـيـاء سَـقـيـمـا

حـتـى إذا رُفِـعَ الـلّـواءُ رأيـتَـهُ ... تَـحتَ الـلّـوَاء على الـخَـمـيـسِ زَعـيـمـا

لَـن تـسْـتـطـيـعَ بِـأنْ تُـحـوِّلَ عِـزّهُـمْ ... حتى تُـحَـوّل ذا الـهِـضـابِ يَـسُـومـا[5]

ومدحت أيضاً بني أبي بكر بن كلاب بن ربيعة[6]، فقالت:

إن كُـنْـتَ تَـبْـغِـي أبـا بَـكـرٍ فـإنّـهُـم ... بِـكُـلِّ سـاحَـةِ قَـوْمٍ مِـنْـهُـم أثَـرُ

---

(1) السّدِمُ: والسادم: النادم الحزين، والسدم أيضاً: الفحل العظيم، والبريم: خيط يفتل من قوى بيض وسود، والمراد هنا: جيش متفاوتون أدنياء لأنّ فيه أخلاطاً من الناس كالبريم المبرم من عدة ألوان.

(2) عمرو: هو عمرو بن كعب بن ربيعة بن عامر أحد آبائها وآباء توبة، ومرؤوم: اسم مفعول من رئمه إذا عطف عليه.

(3) الجؤجؤ: الصدر. والحزيم: موضع الحزام من الصدر. والمراد: موضع الخليع من قومه موضع القلب من البدن.

(4) بكارة: جمع بكر وهو الفتى من الإبل. والحقاقُ: جمع حق وهو البعير الذي استكمل عامه الثالث. وقروم: جمع قرم وهو الفحل.

(5) المرزوقي: م. ن.، مج2، ص: 1608 ـ 1609. والمالقي: م. ن.، ص: 161 ـ 162. وابن عساكر: م. ن.، ص: 328 ـ 329. (مع اختلاف يسير في بعض الكلمات) وليس البيت الأول والسادس في المصدر الأول.

(6) هم بنو أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة واسم أبي بكر عبيد بن كلاب. (المرزباني: م. ن.، ص: 46).

نُـعـمَـى وبُـؤسَـى بِـآفـاقِ الـبـلادِ فَـمـا	يَـنَـالُ أعـداؤهُـمْ مِـنـهُـمْ، ولا قَـدَروا

والـعـالِـمـونَ إذا مـا الأمْـرُ ضـاقَـهُـم	أنّـى يُـحـاوِلُ مِـنْـهُ الـوِردُ والـصّـدرُ

واخـتَـرْتُ آلَ أبـي بـكـرٍ لـحـاجَـتِـنـا	وكـانَ فِـيـهِـم لـمَـن يَـخـتـارُهـمْ خَـيْـرُ

ومـا اتّـهَـمْـتُ بَـنـي جَـزءٍ بِـظِـنّـتِـهِ	وما أسَاءوا وما ضَاعَ الذي حَضروا[1]

تناولت ليلى الأخيلية بمدائحها فئاتٍ شتّى من مُعاصريها، فكان الممدوحون في الغالب هم أمراء أو خلفاء أو ولاة، كما مدحت بعض القبائل العريقة كآل مُطرّف وبني أبي بكر بن ربيعة.

ومن جيّد المدح في هذا العصر ما قالته امرأة[2] من إياد في شجاعة ابن عمرو، وسماحته ونجدته وعفّته، تقول:

الـخَـيْـلُ تَـعْـلَـمُ يَـوْمَ الـرَّوعِ إذ هُـزِمَـت	أنّ ابنَ عمروٍ لدى الـهَـيْـجَـاءِ يحميها

لـم يُـبدِ فُـحـشاً ولـم يُـهْـدِد لِـمـعْـظَـمَـةٍ	وكُـلُّ مَـكْـرُمَـةٍ يُـلْـفـى يُـسـامِـيـهـا[3]

الـمُـسْـتَـشـارُ لأمْـرِ الـقَـوْمِ يَـحـزُبُـهُـمْ	إذا الـهَـنـاتُ أهَـمّ الـقَـومَ مـا فـيـهـا[4]

لا يَـرْهَـبُ الـجـارُ مـنْـه غَـدرةً أبَـداً	وإنْ ألَـمَّـت أمُـورٌ فـهْـوَ كـافِـيـهـا[5]

وصفت الشاعرة ابن عمرو هذا ـ ولعله أحد رجال قومها ـ بالشجاعة وبجزالة الرأي وقوة العارضة وبراعة النفس والعقل، وبحُسن الوفاء للجار فيكون جاره آمناً لا يخاف ختلاً ولا مكراً منه، بل ويدافع عنه إن وقعت أمور من خارج الجوار.

---

(1) المرزباني: م. ن.، ص: 46 ـ 47. وبنو جزء: هم آل عبد العزيز بن زراره وهم من بني أبي بكر بن كلاب (المرزباني: م. ن.، ص: 47).

(2) لا ترجمة لها في المصادر التي بين أيدينا، وجعلها الدكتور يحيى شامي في كتابه: أروع ما قيل في المدح بين شعراء العصر الأموي (انظر ص: 52 ـ 53).

(3) يهدد: يبادر. والمعظمة: الشيء العظيم والهائل. ويساميها: يباريها.

(4) يحزبهم: يضيق عليهم. والهناتُ: جمع هنة: وهي الكناية عن المنكرات، أي: الأمور المخزية.

(5) المرزوقي: المصدر السابق. مج2، ص: 1799 ـ 1800. والدكتور يحيى شامي: المرجع نفسه ص: 53.

ومن جيّد المدح في هذا العصر كذلك ما قالته الجَهضمية[1] في مدح حماس ابن ثامل، وهي تُشيد ببلاغته وفصاحته خاصة:

وذو خُطَبٍ يوماً إذا القَومُ أفحَموا ... تُصيبُ مُرادِي قَولَه ما يُحاوِلُ

بَصيرٌ بِعَوْراتِ الكلامِ إذا الْتَقى ... شَريجَانِ[2] بَينَ القَوم: حقٌ وباطِلُ

أتِيٌّ لِما يأتِي الكَريمُ بسَيْفِه ... وإن أسلَمَتْهُ جُنْدُهُ والقَبائِلُ

وليس بِمِعْطَاءِ الظُلامَة عن يدٍ ... ولا دُونَ أعلى سُورةِ المجدِ قابِلُ[3]

ومدحت امرأة[4] من بني قشير خالد بن عبد الله القسري[5] فقالت:

إليكَ يا ابْنَ السادةِ الأماجِدِ ... يَعْمِدُ في الحاجةِ كُلّ عامِدِ

فالناسُ بينَ صادرٍ ووارِدِ ... مِثل حَجيجِ البَيتِ نحوَ خالدِ

أشْبَهتَ يا خالِدُ خيرَ والِدِ ... أشبَهتَ عبدَ اللهِ في المَحامِدِ

لَيْسَ طَرِيفُ المَجْد مِثْلَ التالِدِ[6]

لم تلتزم الشاعرة بمنهج القدماء من حيث تعدد الأغراض وتشعّب الموضوعات كما فعل أغلب شعراء عصرها، فقد دخلت إلى المدح مباشرة من غير مقدّمات، فمدحته بنقاء الأصل ورفعة شرف الانتساب ـ يا ابن السادة الأماجد ـ ثم وصفته بالكرم فجعلت بيته محجّاً لجميع الناس يقصدونه للتزوّد بعطاياه، فالناس في حركة دائمة بين ذاهب وآيب كالحجيج الذين يقصدون بيت

---

(1) لا ترجمة لها في المصادر التي بين أيدينا، وجعلها الدكتور يحيى شامي في كتابه: أروع ما قيل في المدح بين شعراء العصر الأموي (انظر ص: 68).

(2) الشريجان: لونان مختلفان من كل شيء.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص: 122. والدكتور يحيى شامي: المرجع نفسه، ص: 68 ـ 69.

(4) لا ترجمة لها في المصادر التي بين أيدينا لكنها عاشت في العصر الأموي لأنها مدحت خالد بن عبد الله القسري الذي عاش بين سنتي (66 ـ 126).

(5) خالد بن عبد الله القسري: من بجيلة أمير العراقيين وأحد خطباء العرب وأجوادهم، ولي مكة في سنة 89 هـ ثم ولي الكوفة والبصرة في سنة 105 هـ وعزله هشام سنة 120هـ (انظر في ترجمته الأصبهاني: الأغاني، مج22، ص: 5 وما بعدها. وابن خلكان : الوفيات، مج2، ص: 226 وما بعدها).

(6) المرزباني: أشعار النساء، ص: 99.

الله الحرام، ولقد أشبه والده عبد الله بهذه الفضائل التي أشادت بها الشاعرة.

هـ ـ الفخر:

أمّا الفخر فباب من أبواب الشعر العربي، يُشيد فيه الشاعر بمناقبه الشخصية، أو بمناقب قومه، وقد اشتهر به العرب منذ الجاهلية، وعرّفه أبو هلال العسكري بقوله: «إنّ الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة، والعفاف، والحلم، والعلم، والحسب، وما يجري مجرى ذلك»[1].

وهو ضرب من الحماسة، أي: الفخر البطولي الخُلُقي، وهو التغنّي بالفضائل والمُثل العليا، والتباهي بالسجايا النفسية والقومية، والزهو بالفعال الطيبة والقيم والأخلاق الحميدة[2].

وقد افتخرت المرأة أيضاً، وكان فخرُها بقومها أحياناً، وبشجاعتها وجمالها أحايين أخرى، ومن اللاتي اشتهرن في هذا الباب ليلى الأخيلية، قالت تفخر بقومها الذين انتصروا في وقعة يوم النخيل على بني مذحج وهمدان:

نَحنُ الذينَ صبّحوا الصباحا ... يَوْمَ النَخِيلِ[3] غَارَةً مِلْحاحا
نَحنُ قَتلنا المَلِكَ الجَحْجاحا ... دَهْراً فَهَيّجْنا به أنواحا
ولم نَدَعْ لسارحٍ مِراحا ... إلاّ دِيَاراً أو دَماً مُباحا
نحْنُ بنو خُوَيْلِدٍ صُراحا ... لا كَذِبَ اليومَ ولا مُزاحا[4]

وقالت تفخر بقومها أيضاً:

نحْنُ الأخايِلُ لا يَزالُ غُلامُنا ... حتى يدِبَّ على العصا مَذكُورا
تَبكي السُيوفُ إذا فَقَدْنا أكُفَّنا ... جَزَعاً وتَعْلَمُنا الرّفاقُ بُحوراَ

---

(1) كتاب الصناعتين، ص: 131.

(2) انظر الدكتور يحيى شامي: أروع ما قيل في الفخر، ص: 6 وما بعدها. والدكتور يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، ص: 300 وما بعدها.

(3) يوم النخيل: وقعة في واد يقال له بطن النخيل بين قومها وبني مذحج وهمدان.

(4) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 149.

وَلَنَحْنُ أَوْثَقُ فِي صُدورِ نِسائِكُمْ ... مِنْكُمْ إذا بَكَرَ الصُّراخُ بُكُوراً[1]

وممّا يُنسب إلى ليلى في الفخر أيضاً قولُها:

نَحْنُ مَنَعْنا بَيْنَ أَسْفَلِ ناعِتٍ ... إلى وِرَداتٍ بالخَمِيسِ العَرَمْرَم[2]

بِحَيٍّ إذا قِيلَ اظعَنوا قد أُتيتُمُ ... أقاموا على هَوْلِ الجِنانِ المُرَجَّم[3]

تَحَمَّلَ أولاهُم من الدارِ غُدْوَةً ... وتُمسي بها أُخراهُمُ لَمْ تَصرَّمِ[4]

وقد تمزج فخرها بالهجاء أحياناً، كما فعلت حين هجت النابغة الجعدي، وتباهت بعزّة قومها: (وهل أنت. . .أوّلا) (راجع ص 289).

وفخرت بنسبها وقومها وعاتبت عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وهجت زوجها عبد الملك بن مروان، الذي وفدت عليه مرّة تستعين به في حاجة لها، فلم يلبِّ طلبها واستفزّها بأسئلة سخيفة ملخّصها أنها قدّمت توبة عليه في مدحها له: (تراجع الأبيات ص 291).

وربما قرنت فخرها أيضاً بالمدح، كما فعلت حين مدحت مروان بن عبد الملك، فبدأت قصيدتها التي سبق ذكرها، بذكر مجد وشجاعة الجعديين قومها (راجع ص 299).

وبعد أن فخرت بقومها على عادة الشعراء الجاهليين، دخلت إلى الموضوع الذي هو المدح[5].

أمّا حميدة[6] بنت النعمان بن بشير، فمزجت هي الأخرى فخرها بالهجاء،

---

(1) المرزوقي: شرح الحماسة، مج2، ص: 1609 ـ 1610. والتبريزي: شرح الحماسة، ج4، ص: 77. وانظر المرزباني: م. ن.، ص: 74.

(2) ناعت: موضع في ديار بني عامر. وورِدات: هضبات صغار قبل جبلة. والخميس العرمرم: الجيش العظيم الكثير العدد.

(3) ظعن: رحل. والجنان: الخوف من المجهول. والمرجم: من رجم الرّجل، أي: تكلم بالظن.

(4) المرزباني: المصدر السابق: ص: 47.

(5) انظر: القصيدة كاملة في المرزباني: م. ن.، ص: 40 وما بعدها وانظر أيضاً غرض الهجاء في هذا الفصل.

(6) سبقت ترجمتها، انظر غرض الهجاء في هذا الفصل.

حين فخرت بنفسها ونسبها وهجت زوجها روح بن زنباع (راجع ص 285).

وهذه شاعرة أخرى من شاعرات العرب في العصر الأموي، وهي خارجية[1] كانت تناصر الخوارج، فأقامت عدّة سنوات في مُعسكر الضحّاك بن قيس الخارجي تُقاتل بجانبه ترجو الشهادة وتستهين بأمر الحياة، لكن يبدو أن زوجها نهاها أن تكون مع الخوارج، ودعاها للرجوع إليه، فأجابته مفتخرة بشجاعتها وثباتها قائلة:

أبلِغْ مُجاشِعَ[2] إن رَجَعْتَ فإنني ... بينَ الأسنّة والسيوفِ مَقيلِي

أرجو السعادَةَ لا أُحدِّثُ ساعةً ... نفسي إذا ناجيْتُها بقُفُولِ

ووَهَبْتُ خِدْري والفِراشَ لكَاعِبٍ ... في الحيِّ ذاتِ دَمَالِجٍ وحُجُولِ[3]

وهذه الخارجية زوجة مجاشع، لمْ تكن شاعرة كبيرة في المقام الأول، ولكنها كانت مناضلة سياسية، تدافع عن حزبها بكل ما تملك من قوّة، وقد تركت زوجها وأقامت في معسكر الضحّاك تقاتل بجانبه، وتفخر بشجاعتها وهي شجاعة نابعة من إيمانها القوي الذي ترجو من خلاله السعادة الأبدية، وشجاعتها تسير في ركاب العقيدة، وتعمل من أجلها. وهذه الظاهرة ـ فخر النساء بشجاعتهن ـ لمْ تكن معروفة لدى شاعرات العصر الجاهلي، فقد كُنّ يفخرن بقبائلهنَّ وأقاربهنَّ[4]. وهذه القطعة الشعرية قالتها الشاعرة بصفة تلقائية وهي تقترب من النظم الذي يفتقد الموهبة الشعرية الحقة، لكنها تتّسم بحرارة العاطفة.

وهكذا، فالشاعرة الخارجية تفتخر من أجل العقيدة، وقد تبيع أعزّ ما تملك

---

(1) لا ترجمة لها في المصادر التي بين أيدينا، لكنها ذكرت بأنها أقامت سنين في معسكر الضحاك وهو حكم بين سنتي: 127 ـ 129 هـ، فكانت معاصرة له، فهي إذن عاشت في القرن الثاني الهجري، وكانت حية أيام حكم الضحاك.

(2) زوجها لعلّه مجاشع بن حريث الأنصاري عاش في عصر بني أمية وأدرك عصر الدولة العباسية، كان شجاعاً من العمال، ولي (بخارى) في صدر الدولة العباسية مدة، ثم اتّهم بالدعوة إلى ولد علي بن أبي طالب فقتل مع جماعة سنة 140 هـ (الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 277).

(3) بشير يموت: م. ن.، ص: 209.

(4) انظر الدكتور أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 642.

من أجل شراء سيف قاطع تحارب به الأعداء، كما فعلت امرأة[1] المختار بن عوف بن حمزة التي باعت سوارها يوم وقعة قُدَيد، واشترت بثمنه سيفاً قاطعاً، قالت ترتجز في قُدَيْد[2] وتفتخر بنسبها وعملها:

أنـا ابـنَـةُ الـشَـيـخِ الـكـريـمِ الأعـلَـمْ
مـنْ سـالَ عـن اسْـمـي فـاسْـمـي مـريـمْ
بِـعْـتُ سِـوارِي بِـسَـيْـفٍ مِـخْـذَمِ[3]

وقالت أم حكيم[4] تفخر بجمالها وكرمها، وقد خطبها جماعة من الأشراف الخوارج فردّتهم:

ألا إنّ وَجْـهـاً حَـسّـنَ الـلـهُ خَـلـقَـهُ — لأجدَرُ أن يُلْفَى بِهِ الحُسْنُ جامِعا
وأُكْـرِمُ هـذا الـجِـرْمَ عـن أن يَـنـالَـهُ — تَـورُّكُ فـحْـلٍ هـمُّـه أن يُـجـامِـعـا[5]

وكانت من أجمل الناس وجهاً وأشجعهم وأحسنهم بدينها تمسكاً، وأخبر من شاهدها في تلك الحروب أنها كانت ترتجز وتقول:

أحْـمِـلُ رأسـاً قـد سَـئِـمْـتُ حَـمـلَـهُ

---

(1) لا ترجمة لها في المصادر التي بين أيدينا، ولكنّها شاركت في وقعة قديد سنة ثلاثين ومائة للهجرة تناصر أبا حمزة الخارجي ضد أهل المدينة (انظر البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص: 1054 ـ 1055).

(2) قُديد: بضم أوّله، على لفظ التصغير اسم موضع قرب مكة، وبقُديد كانت وقعة الخارجي الذي يقال له طالب الحق مع أهل المدينة (الحموي: معجم البلدان، مج4، ص: 131. والبكري: م. ن.، ج3، ص: 1054 ـ 1055).

(3) البلاذري: أنساب الأشراف، ج8، ص: 381. والدكتور إحسان عباس: شعر الخوارج، ص: 221 ـ 222 ومخذم: قاطع.

(4) هي أمّ حكيم التي ذكرها قطري بن الفجاءة في شعره وكان يحبها ويجلها، وكانت معه في معسكره، وكانت من أجمل الناس وجهاً وأشجعهم وأحسنهم بدينها تمسّكاً، وأخبر من شاهدها في تلك الحروب أنها كانت ترتجز وتقول: (أحمل رأساً...) والخوارج يفدونها بالآباء والأمهات. (الدكتور إحسان عباس، المرجع نفسه، ص: 128).

(5) الشريشي: شرح مقامات الحريري، ج1، ص: 102، والدكتور إحسان عباس: المرجع السابق، ص: 128. والجرم: الجسم. وتورك الفحل: كناية عن الجماع.

وقَـد مَـلِـلْـتُ دَهــنَـهُ وغَـسْـلَـهُ

ألا فـتـىً يـحْـمِـلُ عـنّـي ثِـقْـلَـهُ[1]

فالشاعرة تستعجل حتفها، وهذا الاستعجال لا يتوقّف عند أم حكيم فقط، ولكنّنا نجده عند أغلب شعراء الخوارج، كقُطري بن الفُجاءة، وعمران بن حطان وغيرهما، فالموت عند الخوارج هو الوصول إلى مرحلة جديدة باقية دائمة، وهذا النداء المستعجل من أم حكيم يؤكّد الرأي القائل: «إن الموت عندهم هو الدين الحقيقي»[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ فخر المرأة في هذا العصر، على قلّته كان نوعين: الفخر الشخصي، والفخر القومي. فالفخر الشخصي تمثّله: أم حكيم التي فخرت بجمالها وكرمها وشجاعتها، والخارجية زوجة مجاشع التي فخرت بشجاعتها وثباتها أيضاً، وقد تركت زوجها وانضمّت إلى جيش الضحّاك بن قيس الخارجي تقاتل الأعداء. وكذلك حميدة بنت النعمان التي فخرت بجمالها ونسبها.. وغيرهنّ. ولذلك لمْ يصدق الدكتور الحوفي حين قال: «ولكنّ فخرهن لمْ يكن بأنفسهنّ، وإنما كان إشادة بقبائلهنّ وأقاربهنّ، ولم تختلف الإسلاميات عن الجاهليات في شيء»[3]. أمّا الفخر القومي، فتمثّله أغلب الشاعرات ـ باستثناء الشاريات اللاتي فخرن بصفات الإيمان والتقوى والصلاح والشجاعة النابعة من إيمانهن العميق ـ ولا سيّما ليلى الأخيلية التي طالما فخرت بقومها وكثيراً ما امتزج فخرها بالهجاء، أو بالمدح، وقد ذكرتُ لها نماذج فيما سلف.

و ـ شعر التصوّف:

1 ـ تعريف التصوّف:

أمّا التصوّف: فهو «العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل، والإعراض

(1) الأصبهاني: الأغاني، مج6، ص: 141.

(2) الدكتور إحسان عباس: م. ن.، ص: 14. وانظر أيضاً الدكتور عبد الرزاق حسين: شعر الخوارج... ص: 100 ـ 101.

(3) انظر المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 642 ـ 644.

عن زُخرُف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه»[1]. إنه شوق الروح إلى الله، إنه الحُب الإلّهي المطلق المجرّد من المنافع والغايات المادّية[2]، والحديث عن التصوّف يستدعي الحديث عن الزهد، ذلك لأنهما متلازمان ومتداخلان في غالب الأحوال، والفرق بينهما هو أنّ الزهد دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة ومباهجها، والاكتفاء بما يُقيم الأود ويستر الجسم، فإن التصوّف شظف وخشونة وجوع وحرمان، وإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها. . .

وللتصوّف رُكنان هما: الزهد، والحب الإلّهي، وعلى هذا فالتصوّف أعمّ من الزهد، فكل تصوّف زهد، وليس كل زهد تصوّفاً[3].

2 ـ رابعة العدوية رائدة شعر التصوّف:

ومن الشواعر اللاتي اشتهرن بالشعر الصوفي رابعة العدوية، وهي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية القيسية، مولاة آل عتيك. وُلدتْ في أسرة فقيرة مغمورة بعد ثلاث أخوات كانت هي الرابعة، ويبدو أن مولدها كان في منتصف القرن الأول للهجرة. . . مات والدها وهي لا تزال طفلة، وبعد وفاته لحق البصرة قحط شديد، فخرجت رابعة وأخواتها الثلاث، وهنّ في عمر الزهور، يبحثن عن الرزق، ويَهِمْنَ على وجوههنَّ، فتاهت رابعة في الطريق ولم تستطع أن تهتدي إلى أخواتها، فوقعت في أسر رجل ظالم أذاقها أنواع الذل والهوان، ثم باعها بثمن بخس إلى رجل آخر كانت في بيته أسوأ حالاً مما كانت عليه في البيت الأول، ولكنه أعتقها بعد مدّة في حديث طويل[4]، فعملت برهة

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص: 497. وانظر عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص: 470 وما بعدها. والدكتور صابر عبد الدايم: الأدب الصوفي، ص: 5.

(2) والدكتور درويش الجندي: الرمزية في الأدب العربي، ص: 227.

(3) الدكتور عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص: 225.

(4) انظر خبرها بالتفصيل في : ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج2، ص: 285 وما بعدها. وابن العماد: شذرات الذهب، ج1، ص: 193. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 202 ـ 203. وعمر كحالة: أعلام النساء، ج1، ص: 430 وما بعدها. وعبد الرحمن بدوي: رابعة العدوية شهيدة العشق الإلّهي. وعبد المنعم قنديل: رابعة العدوية ...

في الغناء والعزف على الناي وما يتصل بهما. . . ولكنها تابت بعد ذلك وحملها ندمها على ماضيها أن تُمعن في الزهد والتصوّف، وتصبح صوفية كبيرة وعابدة مشهورة «وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة»[1] حتى أصبح كبار المتصوفة في عصرها يستفتونها في دقائق التصوّف كسفيان الثوري[2] والحسن البصري[3] وغيرهما. . .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة رابعة العدوية، فقال ابن خلكان: «وكانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة، كما في شذور العقود لابن الجوزي، وقال غيره: سنة خمس وثمانين ومائة. . . وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقيّه على رأس جبل يسمّى الطور»[4]. والشيء نفسه نجده عند ابن العماد الحنبلي، فقد ذكرها مع وفيات سنة خمس وثلاثين ومائة، ثم قال: «وقبل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة»[5]. وجعل وفاتها أيضاً سنة خمس وثلاثين ومائة كل من سليمان سليم البواب[6]، وعمر رضا كحالة[7]، وعبد البديع صقر[8]، وفي رواية أنها توفيت سنة ثمانين ومائة بعد الهجرة[9]، ويبدو أن التاريخ الأقرب إلى الصواب هو سنة خمس وثلاثين ومائة للهجرة، لأن المصادر التي قالت بهذا التاريخ ذكرته كخبر صحيح بينما شككت في الروايتين الأخريين باستعمالها الفعل

---

(1) ابن خلكان: م. ن.، مج2، ص: 285.

(2) سفيان الثوري: كان سيد زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة ثم انتقل إلى البصرة فمات فيها سنة 161 هـ (الزركلي: الأعلام، مج3، ص: 104).

(3) الحسن البصري: تابعي، كان إمام أهل البصرة، ولد في المدينة وأقام في البصرة حيث توفي سنة 110 هـ كان عالماً وفقيهاً وناسكاً... (الزركلي: نفسه، مج2، ص: 226).

(4) ابن خلكان: م. ن.، مج2، ص: 287.

(5) شذرات الذهب، ج1، ص: 193.

(6) مائة أوائل من النساء، ص: 362.

(7) أعلام النساء، ج1، ص: 432.

(8) شاعرات العرب، ص: 124.

(9) ابن تغري بردي: النّجوم الزاهرة، اقتبسه عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء، ج1، ص: 432 (هامش1) وعبد المنعم قنديل: رابعة العدوية، عذراء البصرة والبتول، ص: 239 .

المبني للمجهول "قيل" أو «قال بعضهم». . . وكذلك ذكرت هذه المصادر أنّ الكثيرين من معاصريها تقدّموا لخطبتها ومنهم الحسن البصري[1]، وهو توفي سنة عشر ومائة للهجرة، فمن غير المعقول أن يكون قد خطبها أو اتصل بها إذا كانت توفيت سنة 180هـ أو 185هـ، عن عمر يناهز الثمانين سنة حسب ما ورد في بعض المصادر، لأن عمرها عند وفاته زهاء عشر سنوات، وإذن فالأقرب إلى الصحة أن تكون توفيت سنة 135هـ. ولهذا أدرجناها ضمن شواعر العصر الأموي.

وتُعدّ رابعة العدوية من أوائل المتصوفية المسلمين، وإليها ينسب مؤرخو الصوفية البدء بالكلام عن الحب الإلّهي والتوسع فيه[2]. ولها أقوال مأثورة وأشعار منظومة. ورابعة معروفة كمتصوفة، وقد كُتب عنها الكثير في هذا المجال، أمّا كشاعرة فلم يُدرس شعرها دراسة وافية حتى الآن باستثناء بعض الدراسات التي تناولتها عرَضاً عند حديثها عنها كمتصوفة، ولذلك سأقتصر في حديثي على شِعرها.

كتبت رابعة العدوية شعراً صوفياً، ويبدو أنها اكتفت بهذا الباب، إذ لمْ يصلنا شِعر لها في بقية الأبواب، وأشهر ما أنشدته في هذا الباب قولها:

أحِبُّكَ حُبّين: حُبَّ الهوى ... وحُبّاً لأنّكَ أهلٌ لِذَاكَا
فأمّا الذي هو حُبُّ الهوى ... فشُغلي بذِكرِكَ عمّنْ سِواكَا
وأمّا الذي أنتَ أهْلٌ لهُ ... فكَشفُكَ لِي الحُجبَ حتى أراكَا
فلا الحَمدُ في ذا ولا ذَاكَ لِي ... ولَكِن لَكَ الحَمْدُ في ذا وذَاكَا[3]

تُصرّح الشاعرة بحبها لِلّه جلّ شأنه، فتقول: إنني أحبك يا إلّهي حبين

(1) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 152.

(2) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج2، ص: 129.

(3) زينب فواز: الدر المنثور، ص: 203. وبشير يموت: شاعرات العرب، ص: 153. وخديجة القماح ومحمد علي أحمد: رابعة العدوية، ص: 84 . وانظر السراج: مصارع العشاق، مج1، ص: 274 ـ 275.

مجتمعين: أولهما حبّ العشق والهوى لأنني قد فُتِنت بحُسنك، وثانيهما فهو حبّ التعظيم والإجلال لأنك جدير بهذا الحبّ، ولا أجد من يستحقّه سواك. وكيف لا؟ وقد كشفت لي الحجب فرأيتك بعين الخيال على حقيقتك، ولست أنا صاحبة الفضل في هذا الحبّ فهو من المحبوب نفسه لأنه مستحقّ له لكماله، فله الحمد أولاً وأخيراً.

وقالت تتغزّل في الذات الإلّهية كما تتغزّل عاشقة في بشر، فحبيبها وإن غاب عن بصرها فهو شاخص قُبالة فؤادها لا يغيب عنه:

حَبِيبٌ لَيْس يَعْدِلُهُ حَبِيبُ ... ومَا لِسِواهُ في قَلْبي نَصِيبُ
حَبيبٌ غابَ عن بَصري وشَخصِي ... ولَكِن عَنْ فُؤادِي لا يَغيبُ[1]

وقالت تصف انصرافها عن الناس بروحها ونفسها وحِسّها إلى الله تعالى ولو كانت بجسمها معهم:

إنّي جَعَلتُكَ في الفُؤادِ مُحَدّثي ... وأبَحتُ جِسْمِي من أرادَ جُلُوسِي
فالجِسْمُ مِنّي للجَليسِ مُؤانِسٌ ... وحَبيبُ قلْبي في الفُؤادِ أنِيسي[2]

وكانت رابعة زاهدة في الدنيا تنام على حصيرة بالية، وتتوسّد قطعة من الحجر، وتشرب من إناء مكسور، وتقضي ليلها تُصلّي لله وتناجيه قائلة:

وَزادِي قَليلٌ ما أرَاهُ مُبَلّغي ... ألِلزادِ أبكي أم لِطولِ مَسافَتي
أتُحرِقُني بالنارِ يا غايةَ المُنى ... فأينَ رَجَائي فِيكَ أيْنَ مَخَافتِي[3]

ويبدو أنها لمْ تلبث أن تغيّرت فتجرّدت في حُبّها للذات الإلّهية في غير رهبة أو رغبة، فهي لا تعبده خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة، وإنما تعبده استغراقاً

---

(1) بشير يموت: شاعرات العرب... ص: 152. وعبد البديع صقر: شاعرات العرب، ص: 125. وروحية القليني: شاعرات عربيات، ص: 68.

(2) بشير يموت: المرجع نفسه، ص: 152. وخديجة القماح ومحمد علي أحمد: رابعة العدوية، ص: 80. وابن خلكان: وفيات الأعيان، مج2، ص: 286 ـ 287.

(3) خديجة القماح ومحمد علي أحمد: المرجع نفسه. ص: 72 ـ 73.

في الحبّ لذاته. ذكر العطّار أنّ رابعة كانت تقول: «إلهي! إن كنتُ عبدتُك خوف النار فاحرقني بالنار، أو طمعاً في الجنّة فحرِّمها عليّ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك»[1].

ويذكر أنها عزفت عن الزواج لأنها لا تريد أن يشغلها شاغل عن حُبّ الله، وقد رفضت من تقدّم إليها من الخُطّاب، وكان منهم أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي، والصوفي عبد الواحد بن زيد، والحسن البصري، ثم أنشدت تقول:

راحَتي يا إخْوَتي في خَلْوَتي ... وَحَبيبي دائماً في حَضْرَتي
لَم أجِد لي عَن هَواهُ عِوَضاً ... وَهَواهُ في البَرايا مِحْنَتي
حَيثُما كُنتُ أُشاهِدُ حُسْنَهُ ... فهو مِحرابي إلَيْهِ قِبْلَتي
إنْ أمُتْ وَجْداً وما ثَمّ رِضًا ... واعنائي في الوَرى واشِقوَتي
يا طَبيبَ القَلبِ يا كُلّ المُنى ... جُدْ بِوَصْلٍ مِنكَ يَشْفي مُهْجَتي
يا سُروري يا حَياتي دائما ... نشأتي مِنك وأيضاً نَشْوَتي
قدْ هجرْتُ الخلْقَ جمْعاً ارتجي ... منكَ وصْلاً فهْوَ أقْصَى مُنْيَتِي[2]

وهكذا لقد استولى حبّ الإلّه على نفس رابعة، وتربّع في أحشائها وسكن مهجتها، فأصبحت تطلب وصاله ورضاه كما تتغزّل عاشقة في بشرٍ مثلها، وهي تُكرّر نفسها دائماً في مُعظم قصائدها، فمعانيها لا تخرج عن حُبّها لله وفنائها فيه، وزُهدها في الدنيا لانشغالها بالخالق، فهو راحتها في خُلوتها وهو قِبلتها[3] . . . . .

يا سُروري ومُنيتي وعِمادي ... وأنِيسي وعِدّتي ومُرادي

(1) تذكرة الأولياء، ج1، ص: 71 ـ 72. اقتبسته الدكتورة واجدة مجيد في كتابها: في العصر العباسي، ص: 330.

(2) بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 152 ـ 153. وانظر عن خطّاب رابعة وأسباب رفضها للزواج: عبد المنعم قنديل: رابعة العدوية، ص: 49 وما بعدها.

(3) روحية القليني: شاعرات عربيات، ص: 68 ـ 69.

أنتَ رُوحُ الفُؤادِ أنتَ رَجائي ... أنتَ لي مُؤْنِسٌ وشَوْقُكَ زادي

أنتَ لَولاكَ يا حياتي وأُنسي ... ما تَشَتَّتُ في فَسيحِ البِلادِ

كَم بَدَت مِنّةٌ وكَمْ لكَ عِندي ... مِن عَطاءٍ ونِعْمَةٍ وأيادِ

حُبُّكَ الآنَ بُغْيَتي ونَعيمي ... وجَلاءٌ لِعَيْنِ قَلبي الصّادِي

ليسَ لي عَنكَ يا حَبيبُ بَراحُ ... أنتَ مِنّي مُكَمَّنٌ في الفُؤادِ

إن تكُنْ راضِياً عَنّي فإنّي ... يا مُنى القلبِ قد بَدا إسعَادي[1]

وكثيراً ما كانت تناجيه راجية مرضاته، ولا يهمّها بعد ذلك إن غضب الأنام طُرّاً، تقول:

فَلَيتَكَ تَحْلُو والحَياةُ مَريرَة ... وَلَيتَك تَرْضى والأنامُ غِضابُ

وَليْتَ الذي بَيْني وبَينَك عامِرٌ ... وبَيني وَبَينَ العالَمينَ خرابُ

إذا صَحَّ مِنكَ الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الذي فَوقَ التُرابِ تُراب[2]

ومما نُسب إليها أيضاً قولها:

كَأْسِي وَخَمرِي والنَّديمُ ثلاثَةٌ ... وأنا المَشُوقَةُ في المَحَبّةِ رابِعهْ

كَأسُ المَسَرّةِ والنّعيمِ يُديرُها ... ساقي المُدامِ على المَدى مُتتابِعهْ

فإذا نَظَرْتُ فلا أرى إلاّ لَهُ ... وإذا حَضَرْتُ فلا أرى إلاّ مَعَهْ

يا عاذِلي إنّي أحِبُّ جَمالَه ... بِاللّه ما أُذْني لِعَذلِكَ سامِعهْ

كَم بِتُّ من حُرقِي وفَرطِ تعلّقي ... أجرِي عُيوناً من عُيوني الدامِعهْ

لا عَبْرَتِي تَرْقَى ولا وَصْلِي لَهُ ... يَبقَى ولا عَيْني القَريحَةُ هاجِعهْ[3]

ويبدو أنّ المقطوعتين الأخيرتين من أجمل ما قالت رابعة العدوية من ناحية الأسلوب والصياغة، فأسلوبها سلس، وصياغتها اللفظية واضحة مألوفة قريبة المتناول، لا تعقيد فيها ولا تكلّف.

---

(1) عبد البديع صقر: شاعرات العرب، ص: 124 ـ 125. والشيخ الخريفيش، الروض الفائق، اقتبسه عبد الرحمن بدوي في كتابه: شهيدة العشق الإلّهي، ص: 23.

(2) روحية القليني: شاعرات عربيات، ص: 69.

(3) روحية القليني: المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وذكر صاحب مصارع العُشّاق، أنّ رابعة العدوية كانت قد انقطعت عن التهجّد وقيام الليل إثر عِلّة، فرأت في منامها حُلُماً مُفاده أنها بانقطاعها عن قيام الليل قد أغضبت الرحمن، وكادت تفقد بهذا ما حصّلته من قبل بتهجّدها، ولهذا أقبلت عليها الحورية التي رافقتها في تجوالها في الجنة، إبّان هذه الرؤيا، وقد رأت انصراف الوصفاء عنها، وقالت تُؤنبها بهذين البيتين:

صَلاتُكِ نُورٌ والعِبادُ رُقُودُ ... ونَوْمُكِ ضِدٌّ للصلاةِ عَنيدُ
وعُمْرُكِ غُنْمٌ إن عَقَلْتِ ومُهْلَةٌ ... يَسِيرُ ويَفْنَى دائماً ويبيدُ

ثم غابت الحورية من بين عينيها، واستيقظت رابعة حين تبدّى الفجر مذعورة، وعادت إلى ما كانت عليه من قيام ليل وتهجّد[1].

وروى السرَّاجُ أيضاً في مكانٍ آخر من مصارع العُشّاق، عن ذي النون الصوفي المشهور، أنه قال: «بينما أنا أسير على ساحل البحر، إذ بصرت بجارية عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلة ذابلة، فدنوت منها لأسمع ما تقول، فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان، وعصفت الرياح واضطربت الأمواج... فصرخَت، ثم سقطَت إلى الأرض، فلمّا أفاقت نحبَت، ثم قالت: «سيّدي! بِكَ تقرّب المتقرّبون في الخلوات، ولعظمتك سبّحت الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلال قُدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سوادُ الليل، وبياضُ النهار، والفَلَكُ الدوّار، والبحرُ الزخّار، والقمرُ النوّار، والنجمُ الزهّار، وكلُّ شيءٍ عندك بمقدار، لأنك اللّهُ العليُّ القهّار:

يا مُؤنِسَ الأبرَارِ في خَلواتِهِمْ ... يا خَيرَ مَن حَطّتْ بِهِ النُّزّالُ
مَن ذاقَ حُبّك لا يَزالُ مُتيّماً ... قَرِحَ الفُؤادِ يَعُودُه بلبالُ
مَن ذاقَ حُبّك لا يُرى مُتَبَسّماً ... في طُولِ حُزنٍ للحَشا يَغتالُ»

فقلت لها: من تريدين؟ فقالت: إليك عنّي، ثم رفعت طرفها نحو السماء

(1) انظر الخبر والبيتين في السراج: مصارع العشاق، مج1، ص: 207 ـ 208.

فقالت: أحِبّك حُبّين (الأبيات السالفة الذكر). ثم شهقت شهقة، فإذا هي قد فارقت الحياة. . . . . »[1].

3 ـ خصائص شِعرها:

وفي ختام حديثنا عن شِعر رابعة العدوية، يجدر بنا أن نُسجّل الملاحظات التالية من خلال ما وصلنا من شِعرها.

1 ـ إنّ أوّل ما نسجّله هو أن شِعرها كان قليلاً بالقياس مع شُهرتها التي شرّقت وغرّبت، إذ لمْ يتجاوز عدد القصائد التي وصلتنا من شِعرها العشر. . . ولعلّ شهرتها كانت بسبب كونها رائدة الحبّ الإلّهي والعشق الربّاني في الإسلام.

2 ـ اقتصر شِعرها على غرض واحد من الأغراض الشعرية وهو الشعر الصوفي، فشعرها لا يخرج عن حُبّها لِلّه وفنائها فيه وزهدها في الدنيا لانشغالها بحب الخالق وهي سبّاقة في هذا الغرض.

3 ـ وكان شِعرها من حيث قيمته الفنية في مجمله قليل التكلّف بعيداً عن الخيال والتفلسف، خالياً من العبارات المنمّقة، ضعيف المبنى، عميق الدلالة.

4 ـ يتميز شِعرها بالشعور الديني الصادق والعاطفة الجياشة، ولكن معانيها متكرّرة في أحايين كثيرة، ولا تخرُج معانيها في الشعر عن معانيها في النثر، حبّها لِلّه وفناؤها فيه. . .

كانت هذه هي رابعة العدوية الشاعرة التائبة الزاهدة العابدة الناسكة المتصوفة، التي أقرّ لها كثيرون من الدارسين بمركز الريادة في الحبّ الإلّهي، وبالأستاذية لكل الذين جاءوا من بعدها واستهدوا بهديها كابن الفارض[2]

---

(1) السراج: م. ن.، مج1، ص: 274 ـ 275.

(2) هو عمر بن أبي الحسن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة. المعروف بابن الفارض، ولد سنة 576 هـ وتوفي سنة 632 هـ . وهو من أشهر المتصوفين ويلقب بسلطان العاشقين. انظر (الزركلي: الأعلام، مج5، ص: 55. وابن خلكان: وفيات الأعيان، مج3، ص: 454. وما بعدها. والحنبلي: شذرات الذهب، ج5، ص: 149...).

والشريف الرضي[1] وريحانة[2] وميمونة[3] وغيرهم.

4 ـ متصوفات أخريات:

وهناك شاعرات متصوفات أخريات معاصرات لرابعة العدوية، نذكر منهنّ: ريحانة[4]، وقد عُرفت بالزهد والورع والانقطاع للعبادة وقيام الليل تعبّداً وتهجّداً وتأمّلاً في ذات الله، قال إبراهيم بن أدهم[5]، رحمه الله، ذُكرت لي ريحانة فخرجت إلى الأُبُلة[6]، فإذا أنا بجارية سوداء قد أثّر البكاء في خدّيها خطاً، فذاكرتها شيئاً من أمر الآخرة فأنشأت تقول:

مَن كانَ راكِبَ يَوْمٍ لَيْسَ يأْمَنُهُ ... ولَيْلَهُ تائِهاً في عَقْبِ دُنياهُ
فكَيْفَ يلتذُّ عيْشاً لا يَطيبُ لَهُ؟ ... وكيفَ تَعْرِفُ عَيْنَ الغَمْضِ عيناهُ[7]؟

وتحدّثت الشاعرة عن سلوكها في حياتها، فكانت تؤثر الحياة الأخرى عن الحياة الدنيا، وتحرم نفسها من الملذّات، لأنّ النفس كما يعوّدها المرء تعتاد، فإن عوّدها على الملذّات اعتادت وطلبت المزيد، وإن حرمها صبرت وتسلّت، تقول:

---

(1) محمد بن الحسين أبو الحسن المعروف بالشريف الرضي، مولده ووفاته في بغداد (359 ـ 406 هـ) وهو أشعر الطالبيين... (انظر: الزركلي: م. ن.، مج6، ص: 99. وابن خلكان: م. ن.، مج4، ص: 414 وما بعدها).

(2) سأفصل عنهما الحديث بعد حين.

(3) لا ترجمة لها في المصادر التي بين أيدينا، ولكنها كانت معاصرة لرابعة العدوية (135 هـ) وإبراهيم بن أدهم (161 هـ). ولذلك أدرجناها مع شواعر هذا العصر. ويبدو أنها كانت مخضرمة عاشت في العصر الأموي والعباسي، ولا نرى مندوحة من إدراج شعر هؤلاء المخضرمات ضمن نتاج هذه الفترة التي نحن بصدد دراستها على الرغم من امتداد نتاج بعض الشواعر زمنيًّا بقليل عنها.

(4) أبو إسحق إبراهيم بن أدهم من أهل بلخ ـ مدينة بخراسان ـ هو أحد الزهاد المشهورين، صحب سفيان الثوري، وتوفي سنة 161 هـ (انظر الزركلي: الأعلام، مج1، ص: 31).

(5) الأُبُلة: بلدة على شاطىء دجلة البصرة وهي أقدم من البصرة (الحموي: معجم البلدان، مج1، ص: 77 ـ 78. والبكري: معجم ما استعجم، ج1، ص: 98).

(6) النيسابوري: عقلاء المجانين، ص: 164 ـ 165 .

(7) النيسابوري: م. ن.، ص: 165.

صَبَرْتُ عن المَلذّاتِ حتى تولّت وألزَمْتُ نفسي صَبرَها فاستَمَرّت
وما النَفسُ إلاّ حيثُ يجعَلُها الفتَى فإن أُطْعِمَتْ تاقَت، وإلا تَسَلّتِ[1]

ويبدو أن البوصيري[2] تأثر بريحانة فقلّدها حيث يقول:

والنَفسُ كالطِفلِ، إنْ تُهمِلهُ شَبّ على حُبِّ الرّضَاعِ، وإن تَفْطِمْهُ ينفَطِمِ[3]

وقالت: ليْس هناك من ينجو من الموت فهو مدرك كل إنسان لا محالة، ومهما تعلّقوا بالدنيا فهم إلى فراق، ولن يشبعوا منها أو يرتووا، حتى ملوك الأرض لمْ تدُم لهم وأخرجوا من عزّهم وقصورهم إلى قبورهم، فكيف الركون إلى الدنيا؟ ولِمَ التهالك على عِشقها؟

وما عَاشِقُ الدُنيا بِناجٍ مِنَ الرّدى ولا خَارِجٌ منها بِغَيْرِ غَلِيلِ
فكَم ملِكٍ قد صَفَّرَ الموْتُ بيْتَه وأُخرِجَ من ظِلٍّ عليه ظَلِيلِ[4]

وقالت أيضاً تصف ما تلاقيه من الحب الإلّهي، فهي تطرح نفسها على بابه سبحانه وتعالى علّها تحظى برضاه، وهي لا تسأله عن شيء ما دام يعلم بحالها، فعلمُه يُغني عن سؤالها، تقول:

حَسبُ المُحِبِّ مِنَ الحَبيبِ بِعِلْمِه أنّ المُحِبّ ببابِه مَطْرُوحُ
والقَلبُ فيه إن تَنَفّس في الدُجَى بِسِهامِ لَوعَاتِ الهوَى مَجرُوحُ[5]

وكانت تأمل أن تفوز بدار القرار، فقالت:

---

(1) هو الإمام شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري، ولد في أول شوال من سنة 608 هـ في بوصير بمصر، وتوفي سنة 694 هـ أو بعد ذلك بقليل، كان فقيهاً وكاتباً وشاعراً، ولكنه اشتهر بمدائحه للنبي ﷺ. له الهمزية (458 بيتاً) في مدح الرسول، وله البردة أو البرأة (180 بيت). (بروكلمان تاريخ الأدب العربي، ج5، ص: 81، والدكتور عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج3، ص: 673 وانظر ما بعدها).

(2) النيسابوري: م. ن.، ص: 165.

(3) النيسابوري: م. ن.، ص: 165.

(4) النيسابوري: م. ن.، ص: 165.

(5) النيسابوري: م. ن.، ص: 165.

بِـوَجْـهِـكَ لا تُـعَـذّبـنِـي فـإنّـي   أُؤَمِّــلُ أنْ أفــوزَ بــخَــيْــرِ دارْ
مُـنَـجّـدَةٍ مُـزَخـرَفَـةِ الـعـلالـي   بـهـا الـمَـأوَى ونِـعـمَ هـي الـقـرارْ
وأنـتَ مُـجَـاوِرُ الأبـرارِ فـيـهـا   وَلَـولا أنـتَ مـا طـابَ الـمَـزارْ

ويبدو أن «ريحانة» كانت أدنى مستوى من «رابعة العدوية» التي لمْ تكن تطمع في جزاء، وإنّما تعبد الله سبحانه وتعالى لأنه أهل للعبادة، وتحبّه حبًّا خالصاً لأنه جدير بهذا الحبّ[1].

وقالت تنصح النُوّام وتدعوهن إلى قيام الليل للتعبّد والتهجّد وإلى عدم الاستكانة إلى لذيذ النوم والأحلام:

اجْعَلْ لِنفْسِكَ في الليالي نَبهَةً   تُنْبِهْكَ من خَلَلِ المنامِ قيامِ[2]
وأنَس إلى طُولِ القِيامِ مُخَلّداً   واتـرُكْ لِـذاذ الـنـومِ والأحـلامِ[3]

وقالت أيضاً في السياق نفسه تدعو العباد إلى قيام الليل، ودراسة القرآن، وقراءته صحبة الأصفياء الذين لا يركنون إلى لذيذ النوم، وإنما يقضون لياليهم رُكّعاً سُجّداً قُرّاءً، فهم في الليل رهبان:

تَـعَـوّدْ عـلـى سَـهَـرِ الـلـيـالـي   فـإنّ الـنَـوْمَ خُـسْـرَانُ
ولا تَـرْكَـنْ إلـى الـذَّنـبِ   فـإنّ الـذّنـبَ نِـيـرَانُ
فَـكُـن لـلـوَحْـيِ دَرّاسـاً   ولـلـقُـرّاءِ أخـدَانُ[4]
إذا مـا الـلّـيْـلُ فـاجَـأهُـمْ   فَـهُـمْ فـي الـلـيـلِ رُهـبـانُ
يـمِـيـلُـون كـمَـا مـالَـتْ   مِـنَ الأرْيـاحِ أغْـصَـانُ[5]

أمّا نظرتها إلى الحياة فعبّرت عنها بقولها:

أرى الـدُّنْـيـا لِـمَـن هِـيَ فـي يَـدَيْـهِ   عَـذابـاً كُـلّـمَـا كَـبُـرَتْ لَـدَيْـهِ

---

(1) انظر سليم التنير: الشاعرات من النساء ـ أعلام وطرائف ـ ، ص: 218.

(2) النّبهة: الصحوة والإيقاظة. وخلل النوم: ما يتخلّله من ركون إلى لذيذ النوم.

(3) النيسابوري: م. ن.، ص: 166.

(4) الأخدان: جمع خدن: وهو الصديق والزميل والمرافق، والصديق في السر (للذكر والأنثى).

(5) النيسابوري: م. ن.، ص: 166.

تُهِينُ المَكْرُماتِ بِها بِصَغْرٍ وَتُكرِمُ كُلَّ مَنْ هانَتْ عَلَيْهِ
إذا استَغْنَيْتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ وَخُذْ ما كُنْتَ مُحتاجاً إلَيهِ[1]

أما «ميمونة»[2] الصوفية، فشاعرة أخرى من شواعر العِشق الإلّهي، كانت معاصرة لرابعة العدوية، ذكرها صاحب عقلاء المجانين، اقتباساً عن إبراهيم بن الأدهم، أنه قال: «رأيت في المنام كأن قائلاً يقول: إنّ ميمونة السوداء زوجتك في الجنة، قال: فكنتُ أطلبها حتى وجدت أثرها بحِمْص، فطلبتُها فقيل: إنها مجنونة لا تألف أحداً، قلت: فأين هي؟ قيل دفعنا إليها أغناماً ترعاها في الجبّانة، فخرجتُ إلى الجبّانة فإذا هي قائمة تصلّي والشاةُ والذئبُ في مكان واحد، فوقفت متعجّباً، فلما قضت الصلاة، قالت: يا إبراهيم، الموعد في الجنة لا هنا، فعجبت من فطنتها: فقلت: يا سبحان الله، ألستِ مؤتمنة على هذه الأغنام؟ قالت: بلى، قلت: فلِمَ عطّلتِها حتى سوّطها الذئاب[3]؟ قالت: سلّمتها إلى مُنشِئها، ثم قالت: ارتفعت الحشمة بيني وبين من أنا قائمة بين يديه، فهو الذي رفع الوحشة بين الشاة والذئاب، ثم ولّت وأنشأت تقول:

قُلُوبُ العَارِفِينَ لها عُيونٌ تَرى ما لا يَراهُ النـاظِرونَا
وألسِنةٌ بِسِرٍّ قدْ تُناجي تَغِيبُ عن الكِرامِ الكاتِبينَا
وأجنِحةٌ تَطِيرُ بِغيرِ رِيشٍ إلى مَلَكُوتِ رَبِّ العالَمينَا
فتَسْقِيها شَرابَ الصِدْقِ صِرْفاً وتَشرَبُ من كُؤوسِ العارِفينا[4]

وقد صدقت «ميمونة» حين قالت: «قلوب العارفين لها عيون ـ ترى ما لا يراه الناظرون». لأنّ الشعر الصوفي له لغته الرمزية، وهي بالضرورة باطنية سرّية، شأن جميع الأشياء السرّية التي لا يُمكن فهمها بمنطق الظاهر، وإنما يجب فهمها

(1) النيسابوري: م. ن.، ص: 166.
(2) لا ترجمة لها في المصادر التي بين أيدينا، ولكنها كانت معاصرة لرابعة العدوية (ت 135 هـ) ولإبراهيم بن أدهم (ت 161 هـ).
(3) سوّطها: خلطها كما جاء في أساس البلاغة، انظر الفعل: سوط.
(4) النيسابوري: م. ن.، ص: 169 ـ 170 (الشعر والخبر).

بمنطقها هي، بمنطق الباطن وحقائقه وأبعاده[1]. وهناك ألفاظ كثيرة ترمز إلى حالات معيّنة ومعارف صوفية سامية[2]. وفي الجُملة فإن الشعر الصوفي شعر مؤوَّل لا يُقصد ظاهره، وإنما له محامل يحمل عليه، ومما يروى أن الإمام ابن عربي قال:

يـــا مَـــن يَـــرانِـــي ولا أراهُ   كَـــمْ ذا أراهُ ولا يَـــرانِـــي

فلمّا سمع بعض إخوانه هذا البيت سألوه، كيف تقول: إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقال ابن عربي مرتجلاً:

يــا مَــن يَــرانِــي مُــجــرِمــاً   ولا أراهُ آخِـــــــذَا

كَــم ذا أراهُ مُــنْــعِــمــاً   ولا يَــرانِــي لائِــذا[3]

وهكذا فالشعر الصوفي أو الإلّهي يتّسم بالإيحاء، ولا يقتصر على مدلوله المعجمي، ولا يُفهم إلا على سبيل التأويل.

ز ـ الحكمة:

الحكمة من الأغراض الشعرية التي شاركت فيها المرأة على نُدرة وإيجاز، وقد جاءت في تضاعيف القصائد والمقطّعات، ونادراً ما أفردت لها مقطوعات على نحو ما جاء في شِعر «ليلى الأخيلية»[4]:

لَعَمْرِكَ ما بالمَوْتِ عارٌ على الفَتى   إذا لَم تُصِبْهُ في الحياةِ المَعايِرُ

---

(1) أدونيس: الثابت والمتحوّل، اقتبسه الدكتور صابر عبد الدّايم في كتابه: الأدب الصوفي، اتجاهاته وخصائصه، ص: 118.

(2) فالماء: يرمز إلى المعرفة. والماء الجاري: يرمز إلى البسط المستمر. والمرآة: ترمز إلى النصر الإلّهي والعشق الكامل. والمطر: يرمز إلى فيض الحق تعالى. والكأس: يرمز إلى قلب المعارف. والبحر: يرمز إلى عالم الوجود. والاخضرار: يرمز إلى الكمال المطلق، والعنقاء ترمز إلى المطلق والإنسان الكامل. والطائر: يرمز إلى الروح. والسكر: يرمز إلى الحيرة والوله. (الدكتور صابر عبد الدائم: المرجع نفسه، ص: 120. وانظر ص: 116 وما بعدها).

(3) المقري: نفح الطيب، ج2، ص: 367.

(4) سبقت ترجمتها، انظر فن الرثاء في هذا الفصل.

وما أحَدٌ حيٌّ وإن عاشَ سالِماً ... بأخلَدَ مِمّنْ غَيّبتهُ المَقابِرُ

ومَن كان مِمّا يُحدِثُ الدّهرُ جازِعاً ... فلا بُدّ يَوماً أن يُرى وهْوَ صابِرُ

وليس لِذي عَيْشٍ عنِ المَوتِ مَقصَرٌ ... ولَيسَ على الأيامِ والدهرِ غابِرُ[1]

ولا الحيُّ مِمّا يُحدِثُ الدهْرُ مُعتَبٌ[2] ... ولا المَيْتُ إن لَم يَصبِرِ الحيُّ ناشِرُ

وكُلّ شبابٍ أو جَديدٍ إلى بِلًى ... وكُلّ امرئٍ يَوماً إلى اللهِ صائِرُ

وَكُلّ قَرِينَيْ أُلْفةٍ لِتَفَرُّقٍ ... شَتاتاً وإن ضنّا وطالَ التعاشُرُ[3]

يبدو أن هذه القصيدة من أجمل شِعر «ليلى الأخيلية»، وقد تتابعت فيها الحكم عن الحياة والموت، وتذكرنا بحكم زهير بن أبي سلمى على نحو ما في بعض معانيها، وكذلك بحكم «لبيد بن ربيعة»[4]، وقد جاءت في أسلوب سهل عذب خالٍ من الغرابة والتعقيد بعكس ما رأيناه في أغلب شِعرها، ولا سيّما شِعر الرّثاء الذي أنشأته في أسلوب متين فخم، وهي في كلتا الحالتين مقتدرة. سواء في الأساليب القديمة التي ورثتها من العصر الجاهلي، أم في الأساليب الحديثة التي وجدتها في بيئتها الإسلامية.

وتناثرت بعض الأبيات في الحكمة خلال شِعر ليلى، فوردت ضمن فنون أخرى، فامتزجت بالمدح أو الفخر أو الرثاء، كما جاء في رثائها لعثمان بن عفّان، رضي الله عنه، فبعد أن شادت بمناقب الخليفة أنهت المرثية بقولها:

فلا تُكذّب بِوَعدِ اللّهِ واتّقِهِ ... ولا تَوَكّل على شيءٍ بِإشفاقِ

ولا تَقُولَنْ لشيْءٍ سوف أفعلُهُ ... قد قَدّرَ اللهُ ما كُلُّ امرِئٍ لاقِ[5]

---

(1) مقصرٌ: تريد ليْس عنه محيد ولا مصرف، وغابر: هنا باق.

(2) معتبٌ: اسم مفعول، يقال: أعتبت فلاناً إذا أرضيته.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 219 ـ 220، وابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 297.

(4) وازن بين قول ليلى في البيت ما قبل الأخير، وقول لبيد:

وما المالُ والأهلُون إلا ودائعٌ ... ولا بدَّ يوماً أن تردّ الودائعُ

(5) المالقي: الحدائق، ص: 172. وابن عساكر: م. ن.، ص: 39. وانظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 296 ـ 297 وانظر القطعة كاملة هناك.

وقد استمدّت حِكَمَها من القرآن الكريم كما يبدو ذلك في البيت الأخير الذي هو تضمين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: 22 ـ 23].

وقد جرت في هذه الحكم مجرى المثل كما يبدو ذلك أيضاً في البيت الأخير، وكذلك في قولها:

لَعَمرُكَ ما بالمَوتِ عارٌ على الفتىَ ... إذا ما الفَتىَ لاَقَى الحِمَامَ كَرِيمَا[1]

وقولها:

ألَـمْ تَـعـلَـمْ جَـزَاكَ الـلـهُ شَـرّاً ... بـأنّ الـمَـوْتَ مَـنـهَـاةُ الـرِجـالِ[2]

ولها بعض الحكم مبنيّة على تجارب وخبرة شخصية كقولها:

لَعَمرُكَ ما الهِجرَانُ أن يَسقُطَ النوى ... ولكنّما الهِجرَانُ ما غَيّبَ القبْرُ[3]

ح ـ الحنين إلى الوطن:

أما الحنين إلى الوطن فلم يكن له حظّ من الرواج لدى الشواعر في هذا العصر، ولم نعثر لهنّ إلا على بعض القِطع، وأشهر ما وصلنا في هذا الموضوع شِعر «ميسون بنت بحدل»[4]، وهي شاعرة بدوية من شواعر العرب في عصر بني أميّة،تزوّجها معاوية بن أبي سفيان ونقلها من البادية إلى دمشق عاصمة مملكته، وأسكنها قصراً فخماً من قصور المملكة، ووفّر لها كُلّ وسائل الترف ومُعطيات الحضارة، ولكن «ميسون» بالرغم من ذلك ظلّت تحنّ إلى وطنها ومسقِط رأسها، وذات يوم سمعها معاوية تُنشد وتتشوّق إلى البادية، قالت:

---

(1) سليم التنير: المرجع السابق، ص: 94.

(2) سليم التنير: المرجع السابق، ص: 94. والمنهاة: العقل وحسن الحكم والرأي.

(3) بشير يموت: المرجع السابق، ص: 146.

(4) ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية شاعرة بدوية وأخبارها مع معاوية مشهورة (انظر المالقي: الحدائق، ص: 34 وما بعدها. وابن عساكر: م. ن. ، ص: 329 وما بعدها. وانظر الأصبهاني: الأغاني، مج17، ص: 142 وما بعدها. والجاحظ: الحيوان، ج1، ص: 177. والبغدادي: خزانة الأدب، مج3، ص: 93. ط مصر، 1299 هـ).

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الأرواحُ فيهِ أَحَبُّ إليّ من قَصْرٍ مُنيفِ[1]
وبِكْرٌ يتبَعُ الأظعَانَ سَقْباً أَحَبّ إليّ من بَغْلٍ زَفوفِ[2]
وكَلْبٌ يَنبَحُ الطُّرّاقَ عَنّي أَحَبّ إليّ من قِطٍّ أَلِيفِ
ولُبْسُ عباءَةٍ وتَقَرُّ عَيني أحبّ إليّ من لُبسِ الشُّفُوفِ[3]
وأَكْلُ كُسَيرَةٍ في كِسْرِ بيْتي أَحَبّ إليّ من أكلِ الرغِيفِ[4]
وأصواتُ الرياحِ بِكُلِّ فَجٍّ أَحَبّ إليّ من نَقْرِ الدُّفوفِ
وَخِرْقٌ مِن بني عَمِّي نحيفٌ أَحَبّ إليّ من عِلْجٍ عَليفِ[5]
خُشونَة عِيشَتي في البَدْوِ أشهى إلى نفسي من العَيْشِ الطَّريفِ
فَمَا أبْغِي سِوَى وَطني بَديلاً فَحَسْبِي ذاك من وطنٍ شريفِ[6]

فقال لها معاوية: ما رضيتني يا ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً، فالحقي بأهلك وطلّقها، فمضت إلى أهلها وأخذت معها ولدها يزيد، وفي رواية أنها كانت حاملاً به، فوضعته في البادية، فنشأ فصيحاً يقول الشعر، ولمّا كبر عاد إلى أبيه[7].

إنّ ميسون في هذه القصيدة تحنّ إلى باديتها ومسقط رأسها، لأن حُبّ الوطن غريزة في الإنسان، فمهما تنقّل المرء عبر أصقاع المعمورة فإنه يبقى دوماً يُحِسّ بانجذاب وشوق إلى وطنه. ولم يصلنا من شِعر «ميسون» إلا هذه القصيدة. وبالرغم من ذلك فقد شرّقت وغرّبت لأنّ موضوعها طريف ولأنها ترتبط بموقف إنساني شجاع.

---

(1) الأرواح: الرياح، وجمع الريح: أرواح ورياح، وبعضهم يقول: أرياح.

(2) البكر: الفتى من الإبل. والأظعان: جمع ظعينة، وهي المرأة في الهودج. والسقب: الذكر من ولد الناقة. والزفوف: الحسن المشي السريع.

(3) الشفوف: جمع الشّف بكسر الشين وفتحها: هو الثوب الرقيق الناعم الذي يشف عما تحته.

(4) الكُسيرة: تصغير الكسرة: القطعة من الخبز. والكسر: طرف الخباء من الأرض أو الجانب من البيت.

(5) الخِرق: الفتى السمح الكريم. والعِلجُ: الصلب الشديد، تقصد زوجها معاوية. عليف: سمين ويروى عنيف.

(6) البغدادي: م. ن.، مج3، ص: 593. والمالقي: م. ن.، ص: 34 ـ 35.

(7) العُمري الموصلي: الرّوضة الفيحاء في تواريخ النساء، ص: 346 ـ 347.

وتوفّيت «ميسون» سنة 80 هـ في رواية، وفي رواية أخرى أنها ماتت في خلافة ابنها يزيد، وقيل غير ذلك[1].

أمّا شقراء[2] ابنة الحُباب، فتحنّ إلى بلاد المحبوب، فتذكر الواشين، وتُصرّ على رعاية الود مهما كلّفها ذلك من تضحيات، وقد استهلّت أبياتها في الحنين إلى موطن الحبيب بمخاطبة اثنين على عادة الجاهليين، فقالت:

خَلِيلَيّ إن أصْعَدْتُما أو هَبطتُما ... بِلاداً هَوَى نفْسي بها فاذْكُرانيَا

ولا تَدْعَيَا إن لامَني ثَمَّ لائِمٌ ... على سَخَطِ الواشِينَ أن تَعذُرانِيا[3]

ط ـ أغراض مختلفة:

كانت هذه أهمّ الأغراض الشعرية التي غلبت على شِعر النساء في هذه الفترة، غير أن شِعرهن يحتوي على أغراض أخرى وفنون شتى من القول تتفاوت أهمية، كالتحريض على القتال والثأر وتوديع الأحبة، والموازنة بين شقاوة الحرب، وسعادة الحبّ وهكذا...

شِعر التحريض على القتال وعلى الثأر لمْ يكن له حظّ من الرواج في هذا العصر، فلم يصلنا شِعر فيه ذا بال، باستثناء بعض الأبيات كقول «كنزة»[4] أمة قيس بن عاصم، تحرّض ولدها شملة على الثأر:

فإن يكُ ظَنّي صادِقاً وهو صَادِقي ... بشمْلةَ يحْبِسْهُمْ بِها محبَساً أزْلا

فيا شمْلَ شمِّر واطلب القومَ بالذي ... أُصِبْتَ ولا تَقبَلْ قِصاصاً ولا عَقلا[5]

وقالت أيضاً:

لَهفِي على قَومِي الذينَ تَجَمّعوا ... بذي السّيدِ لمْ يلقَوا عليًّا ولا عَمْرا

---

(1) انظر العمري الموصلي: م. ن.، ص: 347. والزركلي: الأعلام، مج7، ص: 339.

(2) سبقت ترجمتها انظر فن الغزل في هذا الفصل.

(3) أبو علي القالي: ج2، ص: 24. وانظر بقية الأبيات في فن الغزل من هذا الفصل.

(4) سبقت ترجمتها، انظر فن الهجاء في هذا الفصل.

(5) بشير يموت: م. ن.، ص: 162.

فإن يكُ ظنّي صادِقاً وهو صادِقي ... لِشَمْلَةَ يحبِسْهُمْ بِها مَحْبِساً وعَرْا[1]

أمّا «سَلاّمة القسّ»[2] فكتبت شعراً تودّع به قوماً كان لها بهم صلة ومودّة، وذلك أنها لما اشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان، فلما صارت في الركب إلى الشام مع رسل يزيد، مرّت بسقاية سليمان بن عبد الملك، فقالت للرسل: هنا قوم كان لي بهم صلة ومودة، فلا بدّ من وداعهم قبل الرحيل، فاجتمع الناس في ذلك الموضع لوداعها، ثم خرجت فوقفت بينهم وهي تقول:

فَارَقوني وقدْ عَلِمتُ يقيناً ... مَا لِمن ذاق مِيتَةً مِنْ إيابِ

إنّ أهْلَ الحِصابِ قد تركوني ... مُولَعاً مُوَزّعاً بأهْلِ الحِصابِ[3]

أهْلُ بَيتٍ تتابعوا للمنايا ... مَا على الدهرِ بعدَهم من عِتابِ

سكنوا الجِزْعَ جِزْعَ بيتِ أبي مُو ... سى إلى النَّخْلِ مِن صُفِيّ الثياب[4]

كمْ بِذاكَ الحَجونِ مِن حيٍّ صِدْقٍ ... وكُهُولَةٍ أعِفّةٍ وشَبابِ[5]

ولم تزل تردّد هذه الأبيات وهي تبكي والناس يبكون معها حتى راحت وغابت عنهم[6].

وهذه امرأة خارجية[7] توازن بين شقاوة الحرب وسعادة الحبّ، وكانت تُناصر الخوارج، فأقامت عدّة سنوات في معسكر الضحّاك بن قيس الخارجي،

---

(1) بشير يموت: م. ن.، ص: 162.

(2) سبقت ترجمتها، انظر فن الرثاء في هذا الفصل.

(3) الحصابُ: موضع رمي الحجارة بمنى ويعرف أيضاً بالمحصف (انظر الحموي: معجم البلدان، مج2، ص: 262 ـ 263).

(4) جزع بيت أبي موسى وصُفي السباب: موضعان بمكة (انظر الحموي: م. ن.، مج3، ص: 415). وبيت أبي موسى: تعني به بيت أبي موسى الأشعري.

(5) الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 345. وانظر المالقي: الحدائق ص: 93. والحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها (انظر الحموي: م. ن.، مج2، ص: 25).

(6) انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق - تراجم النساء - ص: 191 ـ 192. والمالقي: م. ن.، ص: 93 ـ 94.

(7) سبقت ترجمتها، انظر فن الفخر في هذا الفصل.

تقاتل بجانبه، ويبدو أن زوجها نهاها أن تكون مع الخوارج، ودعاها للرجوع إليه، فكتبت إليه شعراً[1] تفخر فيه بشجاعتها وتقول بأن مقيلها بين الأسنّة والسيوف. وهي بذلك ترجو السعادة الأبدية، ولا تنوي العودة إلى زوجها البتّة، وقد وهبت خدرها وفراشها لكاعب في الحي، ولكنها على ما يبدو اشتاقت إلى زوجها فانصرفت عن معسكر الضحّاك وقالت توازن بين شقاوة الحرب وسعادة الحبّ:

تَـرَكْـتُ رُمْـحـاً لـيّـنـاً مَـسُّـهُ ... وجـئـتُ رُمـحـاً مَـسُّـهُ قـاتِـلُ

سِـيّـانَ هـذا بِـدمٍ سـائـلٍ ... وذاك مِـنْـهُ عـسَـلٌ سـائـلُ

مـطْـعـونُ ذا كَـمْ مـنـهُ فـي لَـذّةٍ ... وأمُّ مـطـعـونٍ بـذا ثـاكِـلُ

مُـرّوا بـنـا نـرْجِـعْ إلـى ديـنِـنـا ... فـكُـلّ ديـنٍ غـيـرُه بـاطِـلُ

ومِـلّـةُ الـضـحّـاكِ مـتـروكـةٌ ... لا يُـحْـيِـيَـنَّـهـا أحـدٌ عـاقِـلُ[2]

أمّا ابنة[3] عم النعمان بن بشير فتزوّجها مالك بن عمرو الغسّاني فأحبّ كل واحد منهما صاحبه، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً، فعهدت إليه ألا يباشر حرباً شفقة عليه، وضنّاً به، ثم إنه غدا فلقي العدو فطعن، فقال وهو يجود بنفسه:

ألا لَـيـتَ شِـعـري عـن غـزَالٍ تَـركْـتُـهُ ... إذا مـا أتَـتـهُ مِـيـتَـتـي كـيـفَ يَـصْـنَـعُ؟

أيـلْـبَـسُ أثـوابَ الـحِـدادِ تَـفـجُّـعـاً ... عـلـى مـالِـكٍ أم فِـيـه لِـلـبَـعْـلِ مـطـمَـعُ؟

فَـلَـو أنّـنـي كُـنْـتُ الـمُـؤخَّـرَ بـعْـدَهُ ... لـمـا بَـرِحَـتْ نـفـسِـي عَـلَـيْـه تَـقَـطّـعُ

فلمّا أتاها خبر مقتله، استمسك لسانها حولاً، فقال رهطها وعشيرتها: لو زوّجتموها غيره، لعلّها تسلو وتُفيق، فزوّجوها رجلاً من أبناء الملوك، فساق إليها

---

(1) انظر الشعر فس هذا الفصل، فن الفخر.

(2) طيفور: بلاغات النساء، ص: 263.

(3) شاعرة من شواعر العرب في العصر الأموي، وهي ابنة عم النعمان بن بشير الشاعر والصحابي المعروف. هكذا ذكرها أصحاب التراجم لجهلهم بإسمها، ولم يذكروا تاريخ مولدها ووفاتها أيضاً، ولكنهم ذكروا تاريخ وفاة ابن عمها بشير الذي توفي سنة 65 هـ . وهي معاصرة له، فتكون وفاتها قبله أو بعده بقليل.

هدية عظيمة القدر، فلما كان ليلة بنائه، أنشدت تقول معترفة بوفائها لمالك ومشيدة بمناقبه:

يقولُ رِجالٌ: زَوِّجُوها لَعلّها	تَفِيقُ وتَرْضى بَعدَه بخَليلِ
فأضمَرْتُ في النَفسِ التي ليْسَ بعدَه	رَجاءٌ لها، والصدقُ أفضلُ قيلِ
أبَعدَ ابنِ عمروٍ سيّدِ القَوم مالِكٍ	أزَفُّ إلى زوْجٍ بِعَضبٍ كَليلِ[1]
وخَبّرَني أصحابُهُ أن مالِكاً	خَفيفٌ على العِلاّتِ غَيرُ ثقيلِ
وخَبّرني أصحابُه أن مالِكاً	ضَرُوبٌ بماضِي الشفْرَتيْنِ صَقيلِ
وخَبّرَني أصحَابُهُ أنّ مالِكاً	جَوادٌ بما في الرّحْلِ غير بَخيلِ
وخَبّرَني أصحَابُهُ أنّ مالِكاً	ثَوَى، وتَنادى صَحْبُهُ بِرحِيلِ
فَما كانَ يَشرِيني خَليلي بِخُلّةٍ	وما كُنتُ أشرِي مالِكاً بخَليلِ

بعد ذلك قال لها بعلها: "ارجعي إلى أهلك، ولك كل ما سُقتُ إليك»[2].

أمّا قصيدتها الشعرية اليتيمة التي وصلتنا، فتتميز بصدق العاطفة وسلامة الأسلوب، والبُعد عن الحوشي من الألفاظ، والتكرار اللفظي الذي نلحظه في صدر أربعة أبيات، إذ ردّدت العبارة «وخبّرني أصحابه أنّ مالكاً....» فهو تكرار متعمّد مستحسن، غايته تأكيد المعنى أي: التأكيد على لوعة الزوجة المُحبّة الثابتة على العهد.

كانت هذه أهم الفنون الشعرية التي قالت فيها المرأة الشاعرة في هذا العصر.

خلاصة: ملاحظات على الأغراض:

ونودّ في ختام هذا الفصل أن نسجّل بعض الملاحظات على شِعر النساء في هذا العصر:

1 ـ فإن أول ما نسجّله هو أن عدد الشواعر في هذه الفترة كان أقلّ من

---

(1) العضب: السيف. والكليل: غير القاطع والضعيف.

(2) انظر الشعر والخبر في كتاب الوشاء: الموشى أو الظرف والظرفاء، ص: 129 ـ 130.

الفترة السابقة، ولكن شِعرهنّ أوفر، ونَفَسَهنَّ أطول، إذ تُعد «ليلى الأخيلية» زعيمة شواعر العرب على الإطلاق في طول القصيدة.

2 ـ إن الشاعرات في هذا العصر نظمن في أغلب الأغراض والفنون الشعرية التي عُرفت عند الشعراء آنذاك، كالرثاء، والغزل، والمدح، والهجاء، والفخر، والحكمة، والشعر الصوفي، والحنين إلى الأوطان، وغيرها.

3 ـ وكان أهم الفنون الشعرية التي طرقتها المرأة في هذا العصر هو فن الرثاء، الذي هو أقرب إلى نفسية المرأة التي تُعدّ أرهف إحساساً وأقوى عاطفة من الرجل.

4 ـ كما شاعت في رثائهن النزعة السياسية، فكان رثاؤهن أحياناً ذا طابع حزبي سياسي، فهند بنت زيد بن مخرمة، من اللاتي تشيّعن لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فكانت ترثي كل من يُقتل من أصحابه، وقد مرّ معنا رثاؤها لحجر بن عدي، لمّا قتله معاوية بن أبي سفيان، وكذلك مليكة الشيبانية التي كانت تناصر الضحّاك بن قيس الخارجي، وحين قُتل بكته، ومثلها فعلت جمهرة من الشاريات اللائي رثين زعماء الخوارج أو من قُتل معهم، وقد ذكرت نماذج من رثائهن فيما أسلفت من حديث.

5 ـ كان رثاء الشواعر يختلط أحياناً بالهجاء كما عند ليلى الأخيلية وزوجها الوليد وغيرهما.

6 ـ ويحتلّ الغزل المرتبة الثانية في شِعر الشواعر، في هذا العصر، ولا غرابة في ذلك فهنّ من شواعر العصر الأموي الذي كثُر فيه الغزل كثرة مُفرطة، وتعدّدت اتجاهاته تعدّداً لمْ يعرف له مثيل في أيّ من عصور أدبنا العربي، وينضوي غزلهن تحت قسمين: غزل العفاف والترفّع، وغزل المجون والشهوة.

7 ـ أمّا الهجاء فيحتلّ المرتبة الثالثة في شعر شواعر العصر الأموي، والغريب في الأمر أن هجاءهنَّ ـ في الغالب ـ يتّسم بالبذاءة والفُحش والإقذاع والسباب والتهكّم.

8 ـ ويلي الهجاء المدح، فقد شاركت المرأة في المدح على ندرة وإيجاز

في هذا العصر، بالرغم من أنّ بواعثه كانت محبوسة على الرجال، سواء في ذلك المدح المنبعث عن رغبة في نيل العطايا، أو عن إعجاب وإكبار لشمائل فرد أو جماعة، وأنّ مدح المرأة للرجل غير مستحبّ. ومن الشواعر اللائي شاركن في هذا الفن: ليلى الأخيلية، والإيادية، والقشيرية، وغيرهن وتناولن بمدحهن فئات شتّى من معاصريهن، وكان الممدوحون في الغالب، هم أمراء أو خلفاء أو ولاة. كما مدحن بعض القبائل العريقة، كآل مطرف، وبني أبي بكر بن كلاب الذين مدحتهم ليلى الأخيلية.

9 ـ وقد افتخرت المرأة أيضاً، وكان فخرها بقومها أحياناً، وبشجاعتها وجمالها أحايين أخرى، وقد اختلفت عن المرأة الجاهلية التي لمْ يكن فخرها بنفسها، وإنما كان إشادة بقبيلتها وأقاربها[1]. أمّا الشاريات ففخرن بصفات الإيمان والتقوى والصلاح والشجاعة النابغة من إيمانهنَّ العميق. أمّا ليلى الأخيلية ففخرت بقومها، وكثيراً ما امتزج فخرها بالهجاء أو بالمدح.

10 ـ كانت هذه أهم الأغراض الشعرية التي غلبت على الشعر النسوي في هذا العصر، غير أن شعرهن يحتوي على أغراض أخرى وفنون شتّى من القول تتفاوت أهميّة، كالحكمة، والحنين إلى الوطن، والتحريض على القتال، والشعر الصوفي، وغيرها.

11 ـ ظل شِعرهنَّ في جملته متأثّراً بالموروث الشعري القديم فطرقن المعاني نفسها التي طرقها الشعراء من قبل ولا سيّما في غرض الرثاء إذ أبقين على الأوصاف التقليدية التي يوصف بها الفقيد، كالكرم والشجاعة والشرف، وغيرها، وظلّت معانيهن محشوّة بالخشونة والصعوبة، كما في مطوّلة ليلى الأخيلية التي مطلعها:

نَـظَـرتُ ورُكـنٌ مـن ذِقـانَـيْـنِ دُونَـهُ   مَـفَـاوِزُ حَـوضِـي أيَّ نـظـرةِ نـاظِـرِ

وإن كانت اتسعت رُقعة المصطلحات والألفاظ الدينية والسياسية لدى

---

(1) انظر أحمد الحوفي: المرجع السابق، ص: 642 و 644.

الشواعر اللائي شاركن في الصراع السياسي، ويبدو ذلك في اختيارهن للألفاظ والمصطلحات الدينية والسياسية التي تتناسب مع انتمائهن السياسي، ومن تلك المصطلحات التي تكرّرت في شِعر الخارجيات: (النساء الشاريات ـ إخوانه النفر الشاري ـ كل كهل شاري ـ فتية باعوا نفوسهم ـ ابتغوا مرضاة ربّهم). فالشاعرة تشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 207]. أما الشاعرات اللائي تشيّعن لعليّ كرّم الله وجهه، فنجد في شِعرهن مثل: (انصر عليًّا والحسين ورهطه ـ إنّ الإمام أخا النبي محمداً ـ علم الهدى ومنارة الإيمان ـ أترى ابن هند للخلافة مالكاً ـ هيهات ذاك وإن أراد بعيد...) كما ظهر بوضوح تأثرهن بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، واستعملت بعض الشواعر مفردات خاصة بالنساء، كاستعمال كنزة للفظة: (لهفي...) وسنعود إلى ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن الخصائص الفنية.

12 ـ التكرار، وهو سمة من سمات الأسلوب الرثائي، بجانب كونه ضرباً من الولولة والندب، وغايته التفخيم وتأكيد المعنى وشفاء النفس، وقد لجأت إليه بعض الشواعر في بعض مراثيهن، كليلى الأخيلية في قصيدتها التي مطلعها:

أحَـجّـاجُ إنّ الـلّـهَ أعْـطـاكَ غـايـةً ... يُـقَـصّـرُ عـنـهـا مـن أرادَ مَـداهَـا

أمّا ابنة عم النعمان بن بشير فكرّرت اسم «مالك» زوجها المتوفي ستّ مرّاتٍ وعبارة «وخبّرني أصحابه أن مالكاً» أربع مرات متتالية في قصيدتها التي مطلعها:

يـقـولُ رِجـالٌ: زوِّجُـوهـا لَـعـلّـهـا ... تُـفـيـقُ وتَـرْضـى بَـعْـدَه بـخـلِـيـلِ

والتكرار اللفظي الذي نلحظه في شعر الشواعر، هو تكرار متعمّد مستحسن، غايته تأكيد المعنى وتفخيمه، وقد نعود لهذا الموضوع بشيء من التفصيل في فصل الخصائص الفنّية.

الفصل الخامس

الخصائص الفنية في شعر النساء

دراسة فنّية

تمهيد:

درسنا في الفصول السابقة أغراض الشعر النسوي في صدر الإسلام والعصر الأموي، ويقتضي منهجنا في الدراسة التحليلية، الاهتمام بدراسة الخصائص الفنية لهذا الشعر حتى نستكمل عناصر الشكل والمضمون، ولكي تتضح لنا صورته بكل جوانبها الموضوعية والفنية في هذه الفترة. وسنتناول في هذا الفصل، بالدرس بناء القصيدة النسوية، والبحور المستعملة لدى الشواعر وخصائصها، وعلاقة الأوزان بالأغراض والقوافي، وعلاقتها بالمعاني، ثم نتناول الأساليب والألفاظ، والصور والأخيلة... وبذلك نكون قد قدّمنا صورة جليّة عن شِعر النساء في هذا العصر. ولعلّ أول ما يلفت النظر في هذا الموضوع، هو بناء القصيدة النسوية.

أولاً: بناء القصيدة النسوية:

أ ـ مقدّمة القصيدة:

مقدّمة القصيدة [1] ظاهرة مهمة في شعرنا العربي القديم، ومن اللافت للنظر أنها لَمْ تكن واحدة في العصر الجاهلي، فإلى جانب المقدّمات الغزلية والطللية ثمّة مقدّمات في الشيب والطيف وغيرها.

---

(1) الدكتور يوسف حسين بكار: بناء القصيدة في الشعر العربي القديم. ص: 212. وانظر الدكتور حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص: 113 ـ 174، وكتابه: مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، ص: 25 وما بعدها.

يرى ابن قتيبة [1] أن لا مندوحة من المقدّمة التي تتألّف من الوقوف على الأطلال والغزل ووصف الرحلة. ولابن رشيق الرأي نفسه حين يعيب الشعراء الذين يهجمون على الغرض ولا يجعلون لكلامهم بسطاً من النسيب، ويسمّي قصائدهم في هذه الحال بتراء، كالخطبة البتراء.

ودعا ابن طباطبا [2] الشعراء المتأخرين إلى حذو الجاهلين النعل بالنعل، لتأسيس الشعر والتصرف في معانيه. ويلاحظ أنّ النقّاد القدامى اهتمّوا بمطالع قصائد الشعراء، وقلّما التفتوا إلى قصائد الشواعر اللائي طالما تخلّصن من المقدّمات الطللية والغزلية، ولم يحافظن على التقاليد الفنية للقصيدة العربية، وهذا طبيعي لأن الشواعر يحرصن على الوحدة الموضوعية في شعرهن فلم تكن أغراضهن الشعرية متداخلة مثلما هو معروف عند الشعراء، فيختلط مثلاً المديح بالهجاء، وهكذا... ولعل سبب ذلك يعود إلى أن أغلب شعرهن مقطّعات وأبيات، ولم يعرف عنهن إلا بعض القصائد الطويلة، ولذلك كنّ يدخلن في الموضوع مباشرة دون مقدّمات. كما أن المنهج التقليدي للقصيدة العربية غير متّسق، بطبعه، مع الطابع النسائي، إذ لا يليق بالمرأة أن تقف على الأطلال تبكي الحبيب أو تتغزّل في رجل، أو تصوّر رحلة القوم أو حتى رحلتها إلى الممدوح عبر أجواء الصحراء المخيفة أو ما يُشبه ذلك من مواقف تتلاءم مع طبيعة الرجال، وبخاصة منهم شعراء المدح المتكسّب المحترف.

وهذا لا يعني خلوّ الشعر النسوي من مقدّمات وعدم خضوعه لبناء القصيدة العربية، وإنما نعني أن الكثرة المطلقة منه تتصف بتلك الصفات، وأنّ فيه بعض القصائد افتتحنها بالمقدّمات كقصيدة ليلى الأخيلية في مدح مروان بن الحكم التي استغرقت المقدّمة وحدها ثلاثة وعشرين بيتاً من بين خمسة وثلاثين بيتاً تتألّف منها القصيدة، جمعت فيها أفانين عدة من شوق إلى ديار الأهل التي صارت خراباً،

---

(1) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص: 74 ـ 75. والدكتور يوسف بكار: المرجع نفسه، ص: 213. وابن رشيق: العمدة، ج1، ص: 231.

(2) ابن طباطبا: عيار الشعر، ص: 4،

إلى وصف لشجاعة فرسانها وأبطالها (1 ـ 9)، ثم وصف الناقة (10 ـ 23)[1]:

فَذَرْ ذا ولكنّي تمنّيْتُ راكِباً ... إذا قالَ قَولاً صادِقاً لَمْ يُكذَّبِ
لهُ ناقةٌ عندي وساعٌ رُكُوبُها[2] ... كِلا مِرْفَقَيْها عن رَحْلِها بمُجنَّبِ
إذا حَرّكتُها رِحْلَةٌ جَنحَتْ به ... جُنوحَ القطاةِ تنتحي كُلّ سُبْسَبِ[3]
جُنوحَ قَطاةِ الوِرد في عُصبِ القطا ... قَرُبْنَ مياه النهيِ من كُل مَقْرَبِ[4]
فغَادَين بالأجرَاع فوقَ صوائقٍ ... ومِدْفَعِ ذاتِ العيْنِ أعذَبَ مشرَبِ[5]
فظلْنَ نشاوى بالعُيونِ كأنّها ... شَرُوبٌ بَدَتْ عنْ مَرْزَبانٍ[6] مُحجَّبِ
فنالَتْ قليلاً شافياً وتعجّلَت ... لنادِلها بين الشّباك وتنضُبِ[7]
تَبيتُ بِمُومَاةٍ وتُصبِحُ ثاوياً ... بها في أفاحيصِ الغويّ المعصَّبِ
وضمّت إلى جَوفٍ جناحاً وجُؤجُؤاً ... وناطَت قليلاً في سِقاءٍ مُحَبّبِ
إذا فَتَرَتْ ضَربَ الجَناحَينِ عاقَبَت ... على شَزْنَيْها[8] مِنكَباً بعد مِنكَبِ
فلمّا أحسّا جَرْسَها[9] وتضَوّرا ... وأوْبتَها مِنْ ذلك المتأوَّبِ
تَدلّت إلى حُصّ الرؤوسِ كأنها ... كُراتُ غُلامٍ من كِساءٍ مُرَنّبِ[10]
فلمّا انجَلَتْ عنْها الدُّجى وسَقَتهُما ... صبيبَ سِقاءٍ نِيطَ لَمّا يُخرَّبِ
غَدَتْ كنُواةِ القسْبِ عنْها وأصبحتْ ... تُراطِنُها[11] ذُرّيّةٌ لَمْ تُعرَّبِ

بعد هذه المقدّمة الطللية التي وصفت فيها شجاعة فرسانها وفخرت بقومها

(1) وردت القصيدة سابقاً، وفيها (فحبحب)، راجع ص 299.
(2) ساع: واسع الخطو، والوكر: ضرب من العدو، أي: سريعة هنا.
(3) السبسب: المفازة أو الأرض المستوية البعيدة.
(4) النهي بالكسر: الغدير أو شُبهُهُ، ج. أنهٍ وأنهاء ونهاء.
(5) صوائق: بلد باليمن.
(6) المرزبان: الرئيس عند الفرس، ج: مرازبة.
(7) الشباك وتنضب: موضعان بالبصرة.
(8) شزْنيها: جانباها.
(9) جرسها: صوتها.
(10) الحُصُّ: ج. الأحصّ: وهو الأجود. ومرنّب: كساء غزل من وبر الأرنب.
(11) تراطنها: من المراطنة وهي التكلم بالعجمية.

(1 ـ 9)، ثم وصفت ناقتها على عادة الشعراء الجاهليين (10 ـ 23)، ها هي ذي الآن تدخل إلى الموضوع الذي هو المدح (24 ـ 31)، فتصف ممدوحها بالكرم والشجاعة والعدل، فتقول:

وَلي في المُنى ألاّ يُعرّجَ راكِبي ... ويَحْبِسَ عنها كُلّ شيء مُترّب
ويُفرِجَ بَوّابٌ لها عن مُناخِها ... بإقليدِهِ بابُ الرّتاجِ المضبّب[1]
إذا ما أُنِيخَتْ بابن مروانَ ناقتي ... فليس عليها لِلهَبانيقِ مركبي[2]
أدلّت بقُرْبي عندهُ وقَضَى لها ... قضاءً فلمْ يُنْقَضْ ولَمْ يُتعقّبِ
فإنك بعد الله أنتَ أميرُها ... وقُنعانُها من كلّ خوفٍ ومَرغَبِ[3]
فتَقضي فلولا أنه كُلُّ ريبةٍ ... وكُلُّ قليلٍ مِنْ وعيدِكَ مُرهِبي
إذا ما ابتغى العاديُّ الظَلومُ ظُلامةً ... لدَيّ وما استجلّبتُ للمُتجلِّبِ[4]
تُبادِرُ أنباءَ الوُشاةِ وتبتغي ... لها طلبات الحقِّ مِنْ كلِّ مطلبِ

ثم تعود إلى وصف ناقتها وما لاقته من صعاب أثناء الرحلة (ص 300).

جاءت ألفاظ هذه القصيدة متينة رصينة، كثيرة الغريب، وظلّت الشاعرة متأثرة بالشعراء الجاهليين من حيث الغرابة والحوشية، ولولا وجود بعض الكلمات المستمدّة من ديننا الإسلامي الحنيف، كقولها: (وصوت المنادي بالصلاة المثوب ـ فإنك بعد الله أنت أميرها...) لما اختلفت في أسلوبها عن أي شاعر من شعراء الجاهلية.

هذا عن مقدّمة القصيدة النسوية في المدح، أمّا مقدّمتها في بقية الأغراض فإننا نجد الشواعر في الغالب، يتخلّصن من المقدّمات ويدخلن في الموضوع مباشرة، إلا فيما ندر، كما هو الحال عند الشاعرة ليلى الأخيلية في قصيدتها

---

(1) الإقليد هنا: المفتاح. والرتاج: الباب العظيم والباب المغلق وفيه باب صغير، والمضبّب: المغلق بالضبّة: وهي حديدة أو خشبة يضبّب بها الباب.
(2) الهبانيق: جمع هبنّق: وهو الأحمق.
(3) قنعانها: القنعان: الذي يقنع برأيه وبشهادته، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع.
(4) معناه: لا بل تعدى علي من ظلم وهجاء فأخاف أن أهجو وأنتصر فيعدى علي (انظر المرزباني: أشعار النساء، ص: 41).

الطويلة التي رثت بها صاحبها توبة بن الحمير، وقد بلغت ثمانية وأربعين بيتاً، فقد استهلّتها بمقدّمة الفروسية، ذكرت في أربعة أبيات أخبار فرسانها الذين فرّوا مسرعين، وتركوا توبة وحده في المعركة، فكانوا يتسابقون كالقطا المتواتر طلباً للنجاة (راجع ص 229 وما بعدها).

بالرغم من ابتعاد الشعراء عن المقدّمات في قصيدة الرثاء، لعدم تناسبها مع الوقوف على أطلال الحبيبة وأهلها والتغزّل فيها، فإن ليلى الأخيلية جاءت بهذه الصورة الجديدة من مقدّمة الفروسية في قصيدة الرثاء، ثم دخلت في الموضوع فذكرت صفات الفقيد، وعدّدت مناقبه، وصوّرت حزنها على فقيدها.

ومهما يكن من أمر فإن عملية دراسة مقدّمة القصيدة في الشعر النسائي الذي هو في مُجمله شِعر مقطوعات، ستكون عبثاً في غير المطولات أو المعتدلة الطول، ويبدو أن هذه المقطوعات كانت في الأصل قصائد لمْ تصلنا كاملة، أو هي كذلك كما أنشأتها صواحبها لقصر نفسهن، اكتفاءً بالأبيات القليلة لأنهن رأين فيها اكتفاء بالحاجة من نماذج شعر النساء في هذه الفترة، وهي تخلصهن من المقدمات الطللية.

ب ـ وحدة الغرض:

وهناك ظاهرة أخرى يمتاز بها شعر النساء، وهي ظاهرة «وحدة الغرض» فالناظر في شعرهن يجد وحدة الموضوع قد تمثّلت فيه أصدق تمثيل، ومن خلال وحدة الغرض، انبثق شعر المقطعات، وكانت القصائد قليلة في شعرهن، وتدور، في الغالب، حول فكرة واحدة في أبياتٍ قليلة قلّما تطول، وسبب ذلك سرعة الوصول إلى ما تريده الشاعرة، فعندما تفقد أباها فيغيب عنها، تُحِسّ باليُتم والقطيعة، فتبكيه وتجزع عليه، وتبادر إلى سكب انفعالاتها في أبيات حزينة مؤثرة، تكشف فيها عن العاطفة التي تخالجها. وذلك لا يحتاج إلى شرحٍ طويل، فالكل يعرف مرارة الموت، فلو أطالت الشاعرة لضاع القصد الذي تسعى إليه من التأثير في نفس السامع، لأنه يشعر بالملل من تلك الإطالة التي تضيع على الشاعرة قصدها وهدفها. وقد أوردتُ نماذج من شعرهن في مختلف الأغراض،

فيما سبق، فتبيّن لي أنّ الوحدة الموضوعية متوفّرة في أكثر مقطوعاتهن وقصائدهن، سواء ما كان منها في الرثاء أم في الغزل أم في المدح، وغيرها مما عرضنا له في الفصول السابقة. ولكن هذا لا يعني أنّ الوحدة الموضوعية كانت متوفّرة في كلّ قصائدهن المطوّلة، فقد نجد بعض قصائدهن المطوّلة التي مدحن أو رثين فيها تشتمل على أكثر من موضوع، على نحو ما يظهر ذلك في مدح ليلى الأخيلية لمروان بن الحكم، فقد استهلّتها بمقدّمة جمعت فيها أفانين عدة من شوق إلى ديار الأهل التي صارت خراباً، ووصف لشجاعة الفرسان، ثم قفزت منها إلى المدح، ثم عادت إلى وصف ناقتها وما لاقته في الرحلة من تعب ومشقّة. وهذا التداخل في شعر ليلى الأخيلية نجده في قصائد أخرى، فقد نعثر لها في القصيدة الواحدة على أكثر من غرض، فقد تصف المعركة ثم تنتقل إلى الرثاء، وقد يتخلّل القصيدة الوصف، والفخر، والمدح، غير أن شعر النساء يبقى في جملته يمتاز بوحدة الموضوع.

ج ـ شعر النساء بين الطول والقصر:

اختلفت الآراء حول عدد الأبيات التي يجب أن تتوفّر في النص لِيُصبح قصيدة أو مقطوعة أو أبياتاً، فابن رشيق يقول: «إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة أبيات غير معيب عند أحد من الناس. . . . ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد»[1]. ويرى الرأي نفسه عبد الله الطيّب في تعريفه للقصيدة، يقول: «هي في عُرف النقّاد القدماء ما تألّف من عشرة أبيات فأكثر أو سبعة فأكثر، ومن دون ذلك فهو القطعة أو المقطوعة»[2]. أمّا الدكتور وهب رومية، فيرجّح أنّ القصيدة تتألّف من أحد عشر بيتاً فما فوق، والمقطوعة من ثلاثة أبيات إلى عشرة، والأبيات من بيت إلى بيتين[3]. ومهما يكن من أمر فإن شعر النساء في صدر الإسلام والعصر

---

(1) العمدة. ج1، ص: 188 ـ 189.

(2) عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مج2، ص: 777.

(3) محاضرات في الأدب الجاهلي ألقاها الدكتور رومية على طلبة السنة الأولى ماجيستير، شعبة الأدب القديم في السنة الجامعية 78/ 1979 بجامعة قسنطينة. الجزائر. اقتبسه الربعي بن سلامة =

الأموي كان أكثره أبياتاً ومقطوعات، ولكنه لمْ يخلُ من مطوّلات، وأطول قصائد النساء على الإطلاق، رائية ليلى الأخيلية في الرثاء ومطلعها:

نَظَرتُ ورُكنٌ من ذِقانَيْنِ دونَه مَفاوِزُ حَوْضي أيّ نَظْرةِ ناظِرِ[1]

بلغ عدد أبياتها ثمانية وأربعين بيتاً، بينما نجد أنّ أطول قصائد الخنساء قصيدتها التي مطلعها:

قَذًى بِعَيْنِكَ أم بالعَيْنِ عَوّارُ أم ذرَفَتْ إذ خَلَتْ مِن أهْلِها الدّارُ[2]

بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتاً، وبعض أبياتها غير مقطوع بنسبها إليها[3]. ولذلك لمْ يصدق الدكتور أحمد الحوفي حين قال: إنّ الخنساء زعيمة النساء في طول القصائد[4].

وبلغ عدد أبيات قصيدة المدح خمسة وثلاثين بيتاً عند ليلى الأخيلية في قصيدتها التي مدحت فيها مروان بن الحكم، تقول في مطلعها:

طَرِبْتُ وما هذا بِساعةِ مَطْرَبِ إلى الحيِّ حَلُّوا بين عاذٍ فجُبجُبِ[5]

وتبقى ليلى الأخيلية زعيمتهن في طول القصائد في أكثر الأغراض؛ وهي أيضاً زعيمتهن في المقطوعات. فإذا تأمّلنا ما نظمته من قصائد في الرثاء، وجدناه متفاوت الطول بين سبعة وثمانية وأربعين بيتاً. وتبلغ قصيدتها الثانية في الطول، بعد المذكور أعلاه، سبعة عشر بيتاً، وهي في رثاء توبة بن حِمْيَر مطلعها:

أيا عينُ بَكّي تَوبَةَ بن حِمْيَر بِسَحٍّ كفَيضِ الجدولِ المتفجّر[6]

= في رسالته: شعر الحرب في الأندلس، ص: 171. (رسالة مرقونة مودعة بمكتبة معهد اللغة العربية وآدابها -جامعة قسنطينة).

(1) انظر ديوانها، ص: 77 وما بعدها.

(2) انظر ديوان الخنساء، ص: 24 وما بعدها.

(3) الدكتور الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 666.

(4) الدكتور الحوفي: المرجع نفسه، ص: 665.

(5) انظر ديوانها، ص: 53 وما بعدها.

(6) انظر الأصبهاني: الأغاني، مج11، ص: 217 وما بعدها.

ورثته بقصيدة أخرى بلغ عدد أبياتها اثني عشرة، بيتاً، ومطلعها:

أقسَمتُ أرثِي بَعدَ تَوبَةَ مالِكاً وأحفلُ من دارَت عليهِ الدوائِرُ[1]

ثم قولها في مرثية أخرى فيه بلغ عدد أبياتها عشر، مطلعها:

جَزَى اللهُ خيْراً والجَزاءُ بِكفِّهِ فتًى من عُقَيْلٍ سادَ غَيرَ مُكلّفِ[2]

وكذا قصيدتها التي مطلعها:

لَنِعْمَ الفتى يا تَوْبَ كُنتَ ولم تَكُن لِتُسبَقَ يَوماً كُنتَ منْهُ تُوائِلُ[3]

عدد أبياتها سبعة.

وبكت زينب بنت الطثرية أخاها يزيد في قصيدة عدد أبياتها ثمانية عشر بيتاً، مطلعها:

أرىَ الأثلَ منْ وادِي العقيقِ مُجاوِرِي مُقيماً وقد غالتْ يزيدَ غوائِلُه[4]

أمّا أمّ الهيثم بنت الأسود، فرثت عليّ بن أبي طالب بقصيدة في واحد وعشرين بيتاً مطلعها:

ألا يا عَيْنُ وَيحَك فاسعِدينا ألا تَبْكي أميرَ المؤمِنينَا؟[5]

ورثت مُليكة الشيبانية عمّها براثية بلغ عدد أبياتها أحد عشر بيتاً، مطلعها:

ما بالُ دمْعِكِ يا مُليكة جارِ أم ما لقلْبِكِ لا يقَرُّ قرارُ[6]

---

(1) انظر الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 219 ـ 220. ومعنى البيت: وأقسمتُ لا أرثي...ولا أحفل وحذف «لا» في مثل هذا الموضع جائز وكثير.

(2) انظر الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 224.

(3) انظر البحتري: الحماسة، ص: 270 ـ 271.

(4) انظر القالي: الأمالي، ج2، ص: 25 ـ 26. وزينب فواز: الدر المنثور، ص: 235.

(5) انظر الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص: 43 ـ 44. وقد اختلف الرواة في ترتيب هذه الأبيات، كما اختلفوا في نسبتها، وقد نسبها المؤلف في كتاب الأغاني، مج11، ص: 112 لأبي الأسود الدُؤلي، وهي منسوبة له أيضاً في تاريخ الطبري، مج3، ص: 160.

(6) انظر المرزباني: م. ن.، ص: 198 ـ 199.

وبكته أيضاً بحائية في سبعة أبيات مطلعها:

أبـكـي الـمـغَـيّـبَ فـي الـثـرىَ بـيـنَ الـنَـضـائـدِ والـصـفـائِـحْ[1]

ثم قولها في مرثية أخرى في أخيها بلغت هي ألأخرى سبعة أبيات، مطلعها:

يـا عـيـنُ جُـودِي بـالـدُّمـوعِ بِـواكِـفٍ حـتـى الـمـمـاتِ[2]

أما هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية، فرثت حجر بن عدي لمّا قتله معاوية، بقصيدة رائية في تسعة أبيات مطلعها:

تَـرفّـعْ أيـهـا الـقـمـرُ الـمُـنـيـرُ تَـبـصّـرْ هـل تـرى حُـجْـراً يـسـيرُ[3]
يـسـيـرُ إلـى مُـعـاويـة بـنِ حـرْبٍ لِـيـقـتُـلَـهُ كـمـا زَعَـمَ الأمـيـرُ
تـجـبّـرت الـجـبـابـرُ بـعْـدَ حُـجـرٍ وطـاب لـهـا الـخَـوَرْنَـقُ والـسّـديـرُ
أخـاف عـلـيـكَ مـا أردى عـدِيـاً وشـيـخـاً فـي دمـشـقَ لـهُ زئـيـرُ
يـرى قـتـلَ الـخـيـارِ عـلـيـهِ حـقًّـا لـهُ مـن شـرّ أمّـتـهِ وزيـرُ
ألا لـيـت حُـجـراً مـات مـوتـاً ولـمْ يُـنـحـرْ كـمـا نُـحِـرَ الـبـعـيـرُ

وبكت عائشة العثمانية مكّة المكرّمة لمّا أحرقت، فرثت سكانها وعمرانها بقصيدة بلغ عدد أبياتها اثني عشر بيتاً مطلعها:

أرِقْـتُ لِـبَـرْقٍ بَـدا ضَـوْؤُهُ بِـمـكّـةَ يـبـدو ويَـخْـفـىَ مِـرارا[4]

ورثت الشيبانية أهلها الذين قُتلوا مع الضحّاك بقصيدة نونية في سبعة أبيات، مطلعها:

مَـن لِـقَـلْـبٍ شَـفّـهُ الـحَـزَنُ ولِـنَـفْـسٍ مـا لَـهَـا سَـكَـنُ[5]

وبالعدد نفسه من الأبيات رثت زوجة الوليد أخاها عمر بن سعيد، وكان قد

---

(1) انظر المرزباني: م. ن.، ص: 200.

(2) انظر المرزباني: م. ن.، ص: 197 ـ 198.

(3) انظر الطبري: تاريخه، مج3، ص: 232. والمسعودي: مروج الذهب، ج3، ص: 1 ـ 2.

(4) انظر ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص: 424.

(5) انظر المرزباني: م. ن.، ص: 145.

قتله عبد الملك بن مروان، فقالت في مطلع هذه القصيدة:

أيا عينُ جُودِي بالدموع على عَمْروِ عَشيّة أوتِينا الخلافَة بالقهرِ[1]

هذا ما وصل إلينا من قصائد نسوية في فن الرثاء في هذا العصر الذي يُعد نَفَسُهُنَّ فيه أطول نسبياً من نفسهن في صدر الإسلام والعصر الجاهلي، وقد بلغ عدد قصائدهن فيه ثلاث عشرة قصيدة يترواح عدد أبياتها ما بين سبعة أبيات وثمانية وأربعين بيتاً، فإذا ما استثنينا هذا العدد الضئيل من القصائد وجدنا أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات يتراوح عدد أبيات الواحدة منها البيتين والستة أبيات.

أما في صدر الإسلام فكذلك كانت قصيدَة الرثاء من أكثر الفنون إطالة في شعر النساء، ولكن نفسهن فيه كان أقصر نسبياً من نفسهن في العصر الأموي، وكان رثاؤهن في الغالب مقطوعات أو أبياتاً، وقد بلغ عدد قصائدهن فيه خمس عشرة قصيدة، يتراوح طولها ما بين سبعة أبيات وثمانية عشر بيتاً، فعمرة بنت الخنساء، رثت أخاها بقصيدة بلغ عدد أبياتها ثمانية عشر بيتاً، مطلعها:

أجدّ ابنُ أمّي أنْ لا يَؤوبا وكان ابنُ أمّي جليداً نجيبا[2]

وبكت قتيلة بنت النضر أباها الذي قُتل يوم بدر مع الذين قُتلوا من المشركين في قصيدة عدد أبياتها عشرة، مطلعها:

يا راكِباً إنّ الأثِيلَ مَظِنّةٌ مِنْ صُبْحِ خامِسَةٍ وأنتَ مُوفّقُ[3]

ورثت صفية بنت عبد المطلب أخاها حمزة شهيد موقعة أحد رثاء حزيناً برائية في ثمانية أبيات، مطلعها:

أسائلةٌ أصحابَ أُحدٍ مخَافةً بناتَ أبي منْ أعْجمٍ وخبيرِ[4]

ومهما يكن من أمر، فهذا العدد من قصائد الرثاء لدى شواعر صدر الإسلام

---

(1) انظر بشير يموت: شاعرات العرب، ص: 195.

(2) انظر ديوان الخنساء، ص: 94 ـ 95.

(3) انظر البحتري: الحماسة، ص: 276، والأصبهاني: الأغاني، مج1، ص: 30 ـ 31. والأثيل: موضع قرب المدينة فيه قتل النضر بن الحارث، ومظنّة: موضع إيقاع الظن.

(4) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 167.

والعصر الأموي، يعدّ قليلاً جداً إذا ما قيس بعدد المقطوعات التي تتجاوز المائة مقطوعة، ولذا، فالسمة الغالبة على شعر النساء في فنّ الرثاء هي المقطّعات، وكذلك في بقية الأغراض الشعرية الأخرى، وقد يكون من الطريف أن كلّ ما وصل إلينا من شعرهن في الغزل مقطوعات قصيرة بلغ عددها زهاء خمسين مقطعة ما عدا ست قصائد توشك أن تكون مقطوعات أطولها في ثمانية[1] أبيات وأقصرها في سبعة أبيات[2]. وأن أغلب ما وصل إلينا من شعرهن في المديح مقطوعات ما عدا خمس قصائد أطولها في خمسة وثلاثين[3] بيتاً وأقصرها في سبعة[4] أبيات...

وممّا سبق يتبيّن أنّ أغلب شعر النساء مقطّعات وأبيات إذ لمْ يعرف عنهن إلا بعض المطولات، ولذلك كنّ يدخلن في الموضوع مباشرة دون مقدّمات كما أسلفت، والمرأة معروفة بقصر نفسها منذ القديم، والمطولات في شعرهن ليست من الكثرة كما هي عند الرجال، وأن أطول قصائدهن لمْ يتجاوز ثمانية وأربعين بيتاً.

فما السر في أن يتّخذ شعرهن شكل المقطوعات وأن تقلّ فليه المطولات؟ وهل هناك علاقة بين الشاعرية والإطالة والتقصير؟

قد يكون السر في اتخاذ شعرهن شكل المقطوعات هو أنه كان عُرضة للضياع ضمن ما ضاع من الشعر العربي عبر عصوره المختلفة، وأن هذه المقطعات التي بين أيدينا كانت في الأصل قصائد لمْ تصل إلينا كاملة، وقد أشارت إلى ذلك الباحثة سوزان ستيتكيفيتش (Suzane Stetkevitch) حين قالت: «إنّ القصيدة القصيرة الناقصة البناء، لمْ تكن أصلاً قصيدة مستقلّة، بل هي بقية قصيدة متكاملة البناء»[5].

---

(1) انظر القالي: الأمالي، ج2، ص: 10.

(2) انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق - تراجم النساء - ص: 576.

(3) انظر ديوان ليلى الأخيلية، ص: 53 وما بعدها.

(4) انظر المقري: م. ن.، مج4، ص: 290.

(5) سوزان ستيكيفيتش: القصيدة العربية وطقوس العبور. ص: 56.

ولعلّ مردّ ذلك إلى كون شعر النساء موحّد الغرض، فيهجمن على موضوعاتهن دون مقدّمات، فتجيء قصائدهن قصيرة، وتكثر المقطعات في شعرهن، وبذلك نقبل الحقيقة الماثلة أمامنا وهي أن شعر النساء ـ في مجموعه ـ قصائد ومقطوعات قصيرة، إما لقصر نفسهن، وإما اكتفاءً بالأبيات القليلة لأنهن رأين فيها اكتفاءً بالحاجة.

أما مسألة الطول والقصر في الشعر وعلاقتهما بالشاعرية، فقضية مختلف فيها[1]، فقد عرف القدماء نوعي القصيدة الطويلة والقصيرة، ولمّح بعضهم إلى القصيدة المتوسطة حين طلبوا الشاعر بالتوسط في مقادير الأمداح، خاصة في مدح الملوك، وعرفوا المقطوعة، وخلط بعضهم بينها وبين القصيدة، وهو يتحدّث عن الإطالة والإيجاز[2].

وقد انقسم النقّاد في حجم القصيدة إلى ثلاثة أقسام:

قسم يفضّل القصيدة القصيرة، وقسم يفضّل القصيدة الطويلة، وآخر كان وسطاً بينهما يرى التطويل في محلّه والتقصير في محلّه.

سُئل النابغة الذبياني: «لماذا لا تُطيل القصائد كما أطال صاحبك ابن حجر؟» فأجاب: «من انتحل انتقر»[3]؟ وسألت الحطيئة ابنته: ما بالُ قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: «لأنها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق»[4]. وبمثل هذا أجاب الفرزدق لمّا سُئل عن السبب الذي صيّره إلى القصائد القصار بعد الطوال[5].

---

(1) انظر ابن رشيق: العمدة، ج1، ص: 186 وما بعدها. والدكتور عبد الرؤوف مخلوف: ابن رشيق ونقد الشعر، فصل القطع الطوال، ص: 242 وما بعدها. والدكتور يوسف بكار: بناء القصيدة في النقد العربي القديم، ص: 240 وما بعدها.

(2) الدكتور يوسف بكار: المرجع نفسه، ص: 253.

(3) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص: 174.

(4) أبو هلال العسكري: م. ن.، ص: 174.

(5) أبو هلال العسكري: م. ن.، ص: 174.

وقد يشتهر الشاعر الجاهلي بالقصيدة الواحدة، بل بالأبيات القليلة، بل بالبيت الواحد المفرد، لأنهم يزنون الكلمة بمقدار ما تحرّك من ميزانها الطبيعي الذي هو القلب[1]. كان هذا رأي القسم الأول من النُقّاد.

أما القسم الثاني من النقّاد، فكانوا يفضلون التطويل في القصيدة، فقد كان أصحاب الأعشى يفاخرون بأن شاعرهم كان أكثر طبقته طويلة جيدة[2]، وكان أبو عبيدة يقدم الأعشى على طرفة لأنه كان أكثر عدد طوال جياد[3]. وحُكم للفرزدق بأنه أشعر من جرير والأخطل، لأسباب من بينها قدرته على التطويل[4].

أمّا القسم الثالث والأخير مَن جعل التطويل في محله والتقصير في محله، فقد حدد أصحاب هذا الرأي المواطن التي يُستحَبّ فيها كل من الطول والقصر أو تستوجبهما، فأبو عمرو بن العلاء يرى الطول واجباً إذا أريد التبليغ والسماع، والإيجاز إذا أريد الحفظ[5].

أما حازم القرطاجني، فيرى التوسّط في قصيدة المدح فقط، لأن الإطالة مدعاة إلى السآمة والضجر[6].

إذن، فالطول والقصر في الشعر لا علاقة لهما بالشاعرية، أو بالجودة، فقد تطول القصيدة ويكثر عدد أبياتها، وتكون رديئة لا تخلو من حشو وتكلّف وتكرار وإسفاف، وقد تقصر القصيدة أو القطعة وتكون جيدة لأنها جميلة الصياغة، عذبة المعاني، جزلة الألفاظ، غنية الخيال، فالجودة هي المقياس الفني الذي يجب أن يُتّخذ للتفريق بين الشاعر الكبير والصغير[7].

---

(1) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 43.

(2) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص: 65. تحقيق محمود شاكر.

(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 163.

(4) ابن رشيق: العمدة، ج1، ص: 186.

(5) انظر ابن جني: الخصائص، ج1، ص: 83.

(6) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، ص: 351.

(7) الدكتور يوسف بكار: المرجع السابق، ص: 266، وانظر ما بعدها.

ثانياً: الأوزان والبحور:

1 ـ تعريفها:

لقد جعل النقاد العرب أهم علامة فارقة بين الشعر والنثر هي الوزن والقافية، وإن اختلفت تعاريفهم للوزن وللشعر بحسب ثقافة المعرّفين وعصورهم، ولكننا سنقتصر على بعض التعاريف[1].

ولعلّ أول من عرّف الوزن الفارابي (ت 339 هـ)، قال: إن الوزن إيقاع الألفاظ وقسمتها إلى أجزاء هي: سلاميات وأسباب وأوتاد[2]. أما ابن رشيق (ت 456 هـ) فيعرّفه بقوله: «إن الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية»[3].

وقال حازم القرطاجني في تعريف الشعر: «هو كلام موزون مقفّى»[4]. أو هو «كلام مخيّل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية»[5]. وينحو السجلماسي نحو حازم ومن حذا حذوه، فالشعر ـ عنده ـ «أقوال موزونة متساوية... مقفّاة»[6].

والشيء نفسه تقريباً عند ابن سينا الذي يُعرّف الشعر بما يلي: «إن الشعر هو كلام مخيّل مؤلّف من أقوال موزونة...»[7].

---

(1) انظر أبو حيان التوحيدي ومسكويه: الهوامل والشوامل، ص: 309، نشر أحمد أمين والسيد أحمد صقر، القاهرة، 1951. وانظر أيضاً محمد مفتاح: في سيماء الشعر القديم، ص: 38 وما بعدها.

(2) انظر مرجليوث: نشأة الشعر العربي، ضمن بدوي، دراسات، ص: 87 ـ 91. اقتبسه الدكتور مصطفى الجوزو في كتابه: نظريات الشعر عند العرب، ج1، ص: 21. ولسنا ندري أي شيء يريد الفارابي بالسلاميات.

(3) ابن رشيق: العمدة، ج1، ص: 134.

(4) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، ص: 71.

(5) حازم القرطاجني: م. ن.، ص: 89.

(6) السجلماسي: المنزع البديع، ص: 407.

(7) ابن سينا: فن الشعر، ص: 161.

فالوزن إذن، ركن من أركان الشعر ودعامة من دعائمه الموسيقية[1]. ونعني بموسيقى الشعر أمرين: الموسيقى الخارجية، وهي النغم المنتظم، أي: التفعيلات. وجرْس الألفاظ[2]. وسنتحدّث هنا عن النوع الأول، ونُرجئ الحديث عن الثاني إلى حين نتكلّم عن الأساليب والألفاظ.

وما دامت الأوزان عنصراً مهماً من عناصر الشعر، فيجدر بنا أن نلقي نظرة على البحور التي استعملتها شواعر صدر الإسلام والعصر الأموي، وقد قمنا بإحصاءات للبحور المستعملة لدى الشواعر، ودرسنا كل عصر على حدة، حتى نتمكّن من استخلاص النتائج الكاشفة عن مدى اختيار شواعرنا لبحورنا الشعرية في كل عصر.

2 ـ البحور المستعملة لدى شواعر صدر الإسلام:

تجلّى للباحث بعد إحصاء أوزان شواعر صدر الإسلام، أنهنّ لمْ ينظمن في جميع البحور، حيث إنه لمْ يعثر على ستة بحور كاملة في أشعارهن، وهي: المديد، والمنسرح، والمضارع، والمقتضب، والمجتث، والمتدارك. أما البحور الباقية وهي: الطويل والكامل والرجز والوافر والبسيط والسريع والخفيف والهزج والمتقارب والرمل، فقد وردت في أشعارهن بنسب متفاوتة، وقد قام الدارس بترتيبها حسب تردادها[3].

أ ـ الطويل: هذا البحر من الأبحر التي كثر استعمالها في الشعر العربي، وهو يتسع لكثير من الأغراض، وهو مزدوج التفعيلة، ولم يرد في شعر العرب إلا تاماً[4]. وقد ورد في شعر شواعر صدر الإسلام في اثنتين وثلاثين قصيدة

(1) انظر الدكتور حسين بكار: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص: 330. وانظر كتابه أيضاً: بناء القصيدة في النقد العربي القديم، ص: 158.

(2) الكتور عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مج1، ص: 72. وانظر ما بعدها.

(3) وقد استفدت في هذا المنهج من الأستاذ: محمد الهادي الطرابلسي في كتابه: خصائص الأسلوب في الشوقيات: ص: 21 وما بعدها.

(4) الطرابلسي: المرجع نفسه. ص: 22.

ومقطوعة، إلا أنّ نفسهنّ فيه كان ينزع إلى القصر، فشعرهن من الطويل أغلبه مقطعات، وأكثره في غرض الرثاء.

ب ـ الكامل: أتمّ الأبحر السباعية وقد أحسنوا بتسميته كاملاً لأنه يصلح لكل نوع من أنواع الشعر[1]. وهو موحّد التفعيلة، وقد استخدم في شعر العرب تامّا ومجزوءًا، واستعملته شواعر صدر الإسلام في مظهريه، فنظمن عليه سبعاً وعشرين قصيدة ومقطوعة، وقد استوعب هذا البحر أغلب الموضوعات الشعرية التي قالت فيها الشواعر إلا أن غرض الرثاء كان أكثرها.

ج ـ الرجز: هذا البحر موحّد التفعيلة، وقد ورد في شعر العرب تامًّا ومجزوءًا ومشطوراً ومنهوكاً، وقد استعملته الشواعر في ثماني عشرة قصيدة ومقطوعة بمظهريه، استعمل بحراً عادياً موحّد القافية كبقية البحور، واستعمل أيضاً بحراً خاصاً متنوّع القوافي مصرّع الأبيات على شكل الأراجيز.

د ـ الوافر: هذا البحر موحّد التفعيلة، وقد ورد في شعر العرب تاماً ومجزوءًا، غير أنه لمْ يستعمل لدى شواعر صدر الإسلام إلا تاماً، وقد نظمن عليه خمس عشرة قصيدة ومقطوعة، توزّعت على مختلف الأغراض.

هـ ـ البسيط: ويأتي في المرتبة الثانية من حيث شيوعه في الشعر العربي[2]. وفي المرتبة الخامسة من حيث وروده لدى شواعر صدر الإسلام، ويستعمل تاماً ومجزوءًا ومشطوراً، وهو مزدوج التفعيلة، وقد ورد في شعر شواعر صدر الإسلام البسيط التام دون المخلع، فاستعملنه أربع عشرة مرة، وشعرهن على البسيط أغلبه مقطعات، والملاحظ أن أكثره على هذا البحر في غرض الرثاء والغزل وشعر الصراع السياسي.

---

(1) سليمان البستاني: في مقدمة الإلياذة، اقتبسه ميخائيل صوايا في كتابه: سليمان البستاني «أعلام الفكر العربي» ص: 103. وقد استقيت هذه المعلومات الخاصة بخصائص كل بحر من هذا الكتاب باختصار.

(2) الدكتور إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر: ص: 191.

و ـ **السريع**: وسمي كذلك لأنه يسرع على اللسان، ويأتي تاماً ومشطوراً[1]، «وهو بحر يتدفّق سلاسة وعذوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف»[2]. وهو كذلك مزدوج التفعيلة، وقد بنت عليه شواعر صدر الإسلام عشر قصائد ومقطوعات توزّعت على أغراض الرثاء والفخر والغزل وغيرها.

ز ـ **الخفيف**: هذا البحر مزدوج التفعيلة، وهو قريب إلى النفس، طيّع في المعالجة، حتى يقرب أسلوبه من الأسلوب النثري، ويرد تاماً ومجزوءًا. غير أنه لمْ يستعمل لدى شواعرنا إلا تاماً، ونفسهن فيه كان محدوداً جداً، إذ نظمن عليه ثماني مقطعات فقط، توزّعت على أغراض الرثاء والفخر والغزل والنقائض.

ح ـ **الهزج**: من البحور الموحّدة التفعيلة، ولم يرد في شعر العرب إلا مجزوءًا، وكذلك استعملته الشواعر، أمّا حظ استعماله فلم يتجاوز ست مرات، ونفسهن فيه كان ينزع إلى القصر، فجملة أشعارهن التي منْهُ مقطوعات، توزّعت على أغراض الرثاء والفخر والغزل والمدح.

ط ـ **المتقارب**: سمي المتقارب لتقارب أجزائه، فهي خماسية يشبه بعضها بعضاً، ولذلك نجد فيه رقّة ونغمة مطربة، ويصلح للعنف أكثر منْهُ للرفق[3]، وهو موحّد التفعيلة، ويستعمل تاماً ومجزوءًا ومشطوراً، إلا أن شواعرنا لمْ يستعملنه إلا تاماً، وذلك في قصيدة ومقطوعتين فقط، قصيدة ومقطوعة في الرثاء، ومقطوعة في الشعر السياسي.

ي ـ **الرمل**: هذا بحر موحّد التفعيلة كذلك، ويرد تاماً ومجزوءًا، وقد استعملنه تاماً في مقطوعتين فقط، ونفسهن فيه ينزع إلى القصر.

---

(1) عمر توفيق سفر آغا: علم العروض، ص: 77، وانظر كذلك موسى الأحمدي: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، ص: 222.

(2) ميخائيل صوايا: المرجع السابق، ص: 105.

(3) عمر توفيق آغا: المرجع السابق، ص: 101، وانظر ميخائيل صوايا: المرجع السابق، ص: 105.

3 ـ التواتر في البحور:

وبإمكاننا أن نبيّن سلّم التواتر الذي توزّعت فيه البحور المستخدمة على أشعارهن من خلال الجدول التالي:

1	ـ الطويل يحتلّ المرتبة الأولى بمعدّل	%23,70
2	ـ الكامل يحتلّ المرتبة الثانية بمعدّل	%20
3	ـ يليه الرجز بنسبة	%13,33
4	ـ فالوافر بنسبة	%11،11
5	ـ فالبسيط بنسبة	%10,37
6	ـ فالسريع بنسبة	%7,40
7	ـ فالخفيف بنسبة	%5,92
8	ـ فالهزج بنسبة	%4,44
9	ـ فالمتقارب بنسبة	%2,22
10	ـ فالرمل بنسبة	%1,48

4 ـ البحور المستعملة لدى شواعر عصر بني أمية:

أما البحور المستعملة عند هؤلاء، فهي البحور نفسها المستخدمة لدى شواعر صدر الإسلام، وهي: الطويل، والبسيط، والكامل، والرجز، والوافر، والمتقارب، والخفيف، والسريع، والرمل، والهزج. ولم يعثر على ستة بحور كاملة في أشعارهن، هن أيضاً وهي المديد، والمنسرح، والمضارع، والمقتضب، والمجتث، والمتدارك. وقد وردت هذه البحور في أشعارهن بدرجات متفاوتة، وقد قام الدارس بترتيبها حسب ترددها، فلاحظ تغييراً في النسب ودرجات سلم التواتر ـ بالقياس إلى نسب ورودها ودرجات سلم التواتر لدى شواعر صدر الإسلام ـ على الوجه التالي:

أ ـ الطويل: وقد ورد في شعرهن، في خمس وستين قصيدة ومقطوعة، وكان نفسهن فيه يتراوح بين الطول والقصر، وعليه نظمت أول قصائد النساء على الإطلاق، وهي رائية ليلى الأخيلية التي مطلعها:

نَـظَـرْتُ ورُكْـنٌ مـن ذِقـانَـيْـن دُونَـهُ ... مـفـاوِزُ حـوْضِـي أيّ نـظْـرةِ نـاظِـرِ؟

وبلغ عدد أبياتها ثمانية وأربعين بيتاً.

وأكثر شعرهن على الطويل في الغزل والرثاء والهجاء.

ب ـ البسيط: ويأتي في المرتبة الثانية من حيث شيوعه في الشعر العربي[1]، وفي المرتبة الثانية من حيث وروده لدى شواعر عصر بني أميّة، فاستعملنه سبعة وعشرين مرة، والملاحظ أن شعرهن على هذا البحر في غرض الرثاء والغزل والهجاء.

ج ـ الكامل: وقد استخدم في شعر العرب تاماً ومجزوءًا، وجاء عند شواعر عصر بني أمية في مظهريه، فنظمن عليه اثنين وعشرين قصيدة ومقطوعة، وقد استوعب هذا البحر أغلب الموضوعات الشعرية التي تناولتها المرأة إلا أنّ غرض الرثاء كان أكثرها.

د ـ الوافر: ورد في شعر العرب تاماً ومجزوءًا، غير أنه لمْ يستعمل لدى شواعرنا إلا تاماً، وقد ورد فيه واحد وعشرون قصيدة ومقطوعة، توزّعت على أغراض الغزل والرثاء والهجاء وغيرها.

هـ ـ الرجز: هذا البحر موحّد التفعيلة، وقد ورد في شعر العرب تاماً ومجزوءًا ومشطوراً ومنهوكاً، كما استعمل بحراً عادياً موحّد القافية كبقية البحور، واستعمل أيضاً بحراً خاصاً متنوّع القوافي، مصرّع الأبيات، فسمّيت الأشعار التي على هذا النمط بالأراجيز[2]. وقد استعملته الشواعر في هذين المظهرين إلا أن

---

(1) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص: 191.

(2) الطرابلسي: المرجع السابق، ص: 23.

نفسهن فيه كان محدوداً جداً، ولم يرد في شعرهن إلا ثماني مرات فقط، أربع مرات في الهجاء، وثلاث في الفخر، ومرة واحدة في المدح.

و ـ المتقارب: هذا البحر موحّد التفعيلة، ويرد تاماً ومجزوءًا ومشطوراً إلا أن شواعرنا لمْ يستعملنه إلا تاماً، وذلك في خمس قصائد ومقطوعات فقط: قصيدة في الرثاء، وثلاث مقطوعات في الهجاء، وواحدة في التصوّف.

ز ـ الخفيف: هذا البحر مزدوج التفعيلة، ويرد تاماً ومجزوءًا[1]، وقد استعملنه فقط في أربع مقطوعات واحدة في الرثاء، وثانية في الغزل، وثالثة في التصوّف، ورابعة في توديع الأحبة.

ح ـ الرمل: هذا البحر موحّد التفعيلة، ويرد تاماً ومجزوءًا، واستعمل في وجهيه في ثلاث مقطوعات فقط، ورد مرتين مجزوءًا في الرثاء، ومرة واحدة تاماً في التصوّف.

ط ـ السريع: هذا البحر مزدوج التفعيلة، ويرد تاماً ومشطوراً[2]، وقد بنت عليه شواعر عصر بني أمية ثلاث مقطوعات فقط توزعت على الرثاء والغزل. . . .

ي ـ الهزج: هذا البحر موحّد التفعيلة، ولم يرد في شعر العرب إلا مجزوءًا، وكذلك استعملته الشاعرة المتصوفة ميمونة مرة واحدة في مقطوعة شعرية قصيرة، أما بقية الشواعر فلم يقلن عليه ولو بيتاً واحداً، وهكذا كان حظه من الاستعمال عندهن ضئيلاً جداً.

5 ـ التواتر في البحور لدى شواعر بني أمية:

لقد ثبت من نتائج الإحصاء الذي تتبّعت فيه أوزان شواعر بني أمية، أنّهنّ لمْ

---

(1) الطرابلسي: الأسلوب في الشوقيات، ص: 26، وانظر الدكتور ثامر سلوم، في التشكيل الموسيقي للشعر العربي، ص: 80 وما بعدها:

(2) عمر آغا: علم العروض، ص: 77، وانظر الطرابلسي: المرجع نفسه ص26، فهو يرى أن هذا البحر لا يرد إلا تاماً.

ينظمن في جميع البحور، وأنّ سلّم التواتر الذي توزعت فيه البحور المستخدمة على أشعارهن كالتالي:

1	ـ الطويل يحتل المرتبة الأولى بمعدّل	%40,88
2	ـ يليه البسيط بنسبة	%16,98
3	ـ فالكامل بنسبة	%13,83
4	ـ فالوافر بنسبة	%13,20
5	ـ فالرجز بنسبة	%5,03
6	ـ فالمتقارب بنسبة	%3,14
7	ـ فالخفيف بنسبة	%2,51
8	ـ فالسريع بنسبة	%1,88
9	ـ فالرمل بنسبة	%1,88
10	ـ فالهزج بنسبة	%0,62

6 ـ خصائص البحور لدى الشواعر:

يلاحظ المتأمل في شعر النساء أنهنّ لمْ يخرجن في بناء شعرهنّ عن البحور الخليلية، فنهجْنَ في ذلك نهج القدماء، إلا أنهنّ لمْ يستعملن البحور كلها، فلم يلحظ في شعرهنّ ستة بحور كاملة، وهي: المديد، والمنسرح، والمضارع، والمقتضب، والمجتث، والمتدارك.

ومن يستقرئ شعر النساء يجد أن الشواعر نظمن على أشهر البحور تداوُلاً في الشعر العربي إبّان الجاهلية والإسلام، فالبحر الطويل أكثر بحور الشعر تواتراً في شعرهنَّ في صدر الإسلام فقد نظمن عليه اثنتين وثلاثين قصيدة ومقطوعة من مجموع أشعارهنّ التي بلغت واحداً وأربعين ومائة قصيدة ومقطوعة. وقد تبيّن أن

الرمل عندهنّ هو أقل البحور الشعرية استعمالاً من جُملة البحور العشرة، إذ لمْ ينظمن عليه إلا مقطوعتين من مجموع شعرهن.

وجاء البحر الكامل في المرتبة الثانية،ثم الرجز، فالوافر، فالبسيط، فالسريع، فالخفيف، فالهزج، فالمتقارب.

وكذلك شواعر العصر الأموي، فقد كان البحر الطويل عندهنّ أكثر بحور الشعر تواتراً. فقد بنين عليه خمساً وستين قصيدة ومقطوعة من كامل أشعارهنّ التي بلغت اثنين وستين ومائة قصيدة ومقطوعة، وهو ما يمثّل نسبة أربعين بالمائة (40%) من مجموع البحور المستعملة، بينما اتضح أن الهزج هو أقلّ البحور الشعرية استعمالاً من جملة البحور العشرة، إذ لمْ يبنين عليه إلا مقطوعة واحدة.

وجاء البحر البسيط في المرتبة الثانية، يليه الكامل، فالوافر، فالرجز، فالمتقارب، فالخفيف، فالسريع، فالرمل.

وهكذا يتضح مدى اختيار الشواعر لبحورهن الشعرية بقطع النظر عن عدد الأبيات التي تضمنها كل بحر.

ثالثاً: علاقة الأوزان بالأغراض:

أما عن علاقة الأوزان بالأغراض، ونعني بذلك أيقتضي كل غرض أن يأتي على وزن وفي بحر محدد أم أن الغرض الواحد قد يساق على أكثر من وزن، فقد اختلف النقاد العرب القدماء والمحدثون في هذه المسألة، وهي من القضايا النقدية المعقدة التي لمّا يستقرّ النقد فيها على رأي أو قرار.

وأوّلُ من ربط بين وزن القصيدة وموضوعها من النقاد القدامى، ابن طباطبا العلوي الذي يقول: «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخضَ المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعدَّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من

المعاني...»[1] وتابعه في ذلك أبو هلال العسكري[2]، وحازم القرطاجني[3].

أما النقاد العرب المحدثون، فقد اهتموا ـ هم أيضاً ـ بموسيقى الشعر وعلاقة الوزن بالمعنى، ومن هؤلاء الدكتور إبراهيم أنيس، الذي يقول في الإجابة عن سؤال طرحه: هل كان الشاعر القديم يتخيَّرُ لشعره من الأوزان ما يلائم عاطفته؟ وهل جاءت هذه الأوزان المختلفة تبعاً لاختلاف الشعور عند الناظمين من القدماء؟ يقول: "إنّ استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التخيّر، أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه، فهم كانوا يمدحون، ويفاخرون، ويتغزلون، في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم، ويكفي أن نذكر المعلقات التي قيلت كلها في موضوع واحد تقريباً، ونذكر أنها نظمت من الطويل، والبسيط، والخفيف، والوافر، والكامل. لنعرف أنّ القدماء لمْ يتخيّروا وزناً خاصاً لموضوع خاص، بل حتى ما سمّاه صاحب المفضليات بالمراثي جاءت من الكامل والطويل والبسيط والسريع والخفيف»[4].

وهناك نفرٌ من النقاد المعاصرين يتفقون مع آراء إبراهيم أنيس، نذكر منهم: محمد غنيمي هلال[5]، ومصطفى هدارة[6]، وشكري عياد[7]، وشوقي ضيف[8]، ومحمد مندور[9]، وعز الدين إسماعيل[10]، ويوسف بكار[11].

---

(1) ابن طباطبا: عيار الشعر: ص: 11.

(2) انظر أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص: 139.

(3) انظر حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، ص: 259و267.

(4) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر: ص: 177.

(5) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص: 539.

(6) مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 539.

(7) شكري عياد: موسيقى الشعر العربي، ص: 18و19.

(8) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص: 152.

(9) محمد مندور: الأدب وفنونه، ص: 152.

(10) عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي: ص375.

(11) يوسف بكار: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص: 341و342.

بينما نجد فئة أخرى من المعاصرين تخالف ما ذهب إليه هؤلاء، ومنهم عبدالرؤوف مخلوف الذي يرى أن الشعراء كانوا يلائمون بين الموضوع والوزن، فيقول: «إن الوزن كان مرتبطاً بنوع من العاطفة التي تستولي على الشاعر ساعة ينطلق لسانه بقول الشعر، ونحن نشهد أن لغة الفرد تتأثر بطئاً وسرعة وهدوءًا وعنفاً بحالته الانفعالية التي تسوده عند الكلام. فإذا غضِب كانت لعبارته ثورة وكان فيها إرعادٌ وإبراق، وإذا هدأ واستقرّت نفسه استقرّت لغته عاقلة متزنة يُشيع فيها التمهّل والتروي والهدوء»[1]. ومن هذه الفئة كذلك: سليمان البستاني[2]، وأحمد أمين[3]، وعبد الله الطيّب[4].

ومهما يكن من أمر فإننا لا نستطيع أن نصل إلى نتائج دقيقة في هذا الموضوع بالنسبة إلى الشواعر لأن دراسة شعرهنَّ بيّنت أنهن نظمن على كل بحر أغراضاً متعددة، وأن الدارس لا يكاد يشعر بالربط بين موضوع الشعر ووزنه، إلا في بعض الحالات التي يبدو أنها جاءت عرضاً، وقد تبيّن من الإحصاء ما يلي:

أ ـ أنّ شواعر صدر الإسلام والعصر الأموي طرقن غرض الرثاء في الغالب على بحر الطويل يليه الكامل فالبسيط...

ب ـ ونزعت شواعر بني أمية بالمشرق إلى طرق موضوع الغزل على الطويل يليه الوافر فالبسيط.

ج ـ وطرقن موضوع الهجاء على بحر الطويل يليه البسيط فالرجز فالوافر فالمتقارب.

د ـ ونزعْنَ إلى طرق شعر التصوف على بحر الطويل والكامل ثم الوافر.

هـ ـ وطرقت شواعر صدر الإسلام غرض الغزل على بحر الكامل يليه البسيط فالوافر فالسريع.

---

(1) عبد الرؤوف مخلوف: ابن رشيق ونقد الشعر، ص: 293.

(2) سليمان البستاني: مقدمة الإلياذة، ص: 91 ـ 94.

(3) أحمد أمين: النقد الأدبي، ص: 90.

(4) عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، مج1، ص: 72، وانظر ما بعدها.

ونزعن إلى طرق فن الفخر على بحر الكامل فالبسيط فالوافر فالسريع.

رابعاً: القوافي:

1 ـ تعريف القافية:

القافية ركن آخر من أركان القصيدة العربية في بنائها وموسيقاها في النقد القديم[1]. وقد اختلف القدماء والمحدثون في تعريفها، نذكر أشهر التعاريف، قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن»[2]. وعلّق ابن رشيق على هذا التعريف فقال: «والقافية على هذا المذهب ـ وهو الصحيح ـ تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمتين»[3]. وهذا هو التعريف الثابت في كتب العروض[4]. وقسّم المعرّي القوافي في البسطة الضافية عن علم القوافي، التي قدّم بها لديوان اللزوميات إلى ذُلُلٍ ونُفُرٍ وحُوشٍ: «فالذُّلُلُ ما كثر على الألسن، وهي عليه في القديم والحديث، والنُّفُرُ ما هو أقلّ استعمالاً من غيره كالجيم والزاي ونحو ذلك، والحُوشُ التي تُهجر فلا تُستعمل»[5].

ونذكر من تعاريف المحدثين تعريف الدكتور عبد الرؤوف مخلوف الذي يقول: «إن القافية أصوات وأنغامٌ تأتي في آخر البيت، كما تأتي بقية أصواته في الحشو، غاية ما هنالك أن الشاعر يلزم نفسه بتكرار مثل المقطع الأخير من

---

(1) انظر الدكتور يوسف بكار: بناء القصيدة في النقد العربي القديم، ص: 176.

(2) ابن رشيق: العمدة، ج1، ص: 151، والمعنى اللغوي لكلمة قافية هو التابعة بمعنى أنها تقفو ما سبقها. وذلك كقول ابن دريد «سميت قوافي لأن بعضها يتلو بعضاً» انظر عبد الرؤوف محمد عوني: القافية والأصوات اللغوية . دراسة مقارنة، ص: 15.

(3) ابن رشيق: م. ن.، ج 1. ص: 151.

(4) وهناك تعريف آخر هو أنها حرف الروي، أي الحرف الذي يتكرر في آخر كل بيت من أبيات القصيدة، وهذا التعريف قاله ثعلب، لكنه لمْ ياخذ به علماء العروض بعده (انظر شكري عياد: موسيقى الشعر العربي، ص: 99).

(5) المعرّي: اللزوميات، ج 1 ص: 27.

البيت الأول في أواخر بقية أبيات القصيدة حتى يحقق التشابه في الجرس واللحن..»[1]

وما دام عملنا تطبيقيًا في هذه المسألة فلا نرى داعياً للوقوف طويلاً عندها. فالقافية إذن هي آخر مقطع صوتي وما يشمله من العناصر التي تلتزم في آخر كل أبيات القصيدة.

2 ـ عناصر القافية وحركاتها وعيوبها:

عناصر القافية هي: الرويّ، والوصل، والخروج، والرّدف، والتأسيس، والدخيل. وحركاتها هي: المجرى، والنفاذ، والإشباع، والرّس، والحذو، والتوجيه. وعيوبها هي: الإبطاء، والإقواء، والتضمين، والإصراف، والإكفاء، والإجازة، والسناد[2].

3 ـ أنواع القافية:

القافية نوعان: مقيدة، وهي الساكنة الرويّ. ومطلقة، وهي المتحرّكة الرويّ، وسنبيّن أنواع المجرى في حالة الإطلاق[3].

أ ـ أشكال القافية المستعملة لدى شواعر صدر الإسلام:

ـ القافية المقيّدة:

وردت في شعرهنَّ على ثلاثة أشكال:

1 ـ قافية مقيدة منحصرة في الرويّ، أي خالية من الردف والتأسيس، كقول هند بنت عتبة تبكي أباها:

---

(1) الدكتور عبد الرؤوف مخلوف: ابن رشيق ونقد الشعر، ص305، وانظر ما بعدها، وانظر أيضاً الدكتور أبراهيم أنيس: موسيقى الشعر العربي، ص: 246 وما بعدها.

(2) انظر المرزباني: الموشح، ص: 4 وما بعدها. وثعلب: قواعد الشعر، ص: 64 وما بعدها. وقدامة بن جعفر: نقد الشعر ص: 181 وما بعدها.

(3) استفدت في هذا المنهج من الأستاذ الطرابلسي في كتابه: خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص: 38 وما بعدها.

أعَـيـنَـيّ جُـوداً بِـدَمْـعٍ سَـرِبْ | عـلى خَيْرِ خِنْدِفَ لَمْ يَنْقَلِبْ
تَـداعَـى لَـهُ رَهـطُـهُ غَـدْوَةً | بَـنُـو هـاشِمٍ وبَـنُو الـمطّلِبْ

2 ـ قافية مقيدة متكونة من رويّ يسبقه ردف، كقول أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهي ترقص ولدها عبد الله بن الزبير:

أبيضُ كالسَّيْفِ الحُسامِ الإبْرِيقْ | بَيـنَ الحِواريّ وبين الصّدّيقْ
ظَنّي بِه، ورُبّ ظنّ تَحقِيقْ | واللهُ أهْلُ الفَضْلِ أهْلُ التَوفيقْ

3 ـ قافية مقيدة متكونة من رويّ يسبقه تأسيس بينهما دخيل، كقول هند بنت عتبة يوم أحد تحرّض قومها على قتال المسلمين:

نـحْـنُ بَـنـاتُ طـارِقْ | نـمشِي عـلى النَمـارِقْ
إن تُـقْـبِلوا نُـعـانِـقْ | أو تُـدبِروا نُـفـارِقْ

فِـرَاق غَـيْـرَ وامِـق

وجملة أشعارهنّ التي وردت على القافية المقيدة عشر مقطوعات فقط، مما يدل على أن اتجاه الشواعر إلى المقيد من القوافي كان قليلاً، ونفسهن فيه كان أقل.

أما اختيارهنَّ لأنواع القوافي المقيدة، فكان كالتالي:

ـ قافية مقيدة منحصرة في الرويّ وردت في أشعارهنّ سبع مرات.

ـ قافية مقيدة متكونة من رويّ يسبقه ردف وردت مرّتين فقط.

ـ وقلما يتجهن إلى القافية المقيدة المتكونة من روي يسبقه تأسيس بينهما دخيل، حيث لمْ ترد في شعرهنَّ إلا مرة واحدة.

ونلاحظ أنهن اجتنبن القوافي الصعبة الضيقة[1]. وتخيّرن منها المطلقة، فجاء شعرهنَّ على قوافي الراء والدال والقاف بالدرجة الأولى، والباء واللام والميم والنون بالدرجة الثانية.

---

(1) كالذال، والألف، والثاء، والخاء، والظاء.... (انظر مقدمة الألياذة في كتاب ميخائيل صوايا: سليمان البستاني: ص: 106 وما بعدها).

- **القافية المطلقة:**

- **مجرى الكسرة:** وردت تحته خمسة أنواع هي:

1 - قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف، كقول هند بنت أثاثة ترثي عبيدة ابن الحارث الذي قُتل في بدر، وهي على الشرك حينئذ:

لقَد ضُمّنَ الصفراءَ مَجْداً وسُؤْدَداً وحِلْماً أصيلاً وافِرَ اللُبِّ والعقْلِ

2 - قافية مطلقة متكونة من رويّ يسبقه ردف، كقول صفية بنت عبد المطلب ترثي أخاها حمزة شهيد موقعة أحد:

أسَائِلَة أصْحابَ أُحْدِ مخافةً بناتُ أبي منْ أعْجَمِ وخَبيرِ

3 - قافية مطلقة متكوّنة من رويّ يسبقه تأسيس بينهما دخيل، وموصولة باللين ياء، كقول صفية بنت عبد المطلب تبكي رسول الله ﷺ، حين لحق بالرفيق الأعلى:

لِفَقْدِ رسول اللّهِ إذْ حَانَ يَوْمُهُ فيا عَيْنُ جُودي بالدُّموعِ السَّواجِمِ

4 - قافية مطلقة مردوفة موصولة باللين ياء، كقول أروى بنت عبد المطلب ترثي علياً، رضي الله عنه:

عَيْنَيّ جُوداً بِدَمْعٍ غَيْرِ ممنُوْنِ إنّ انْهِمالاً بِدَمْعِ العَيْنِ يَشْفِينِي

5 - قافية مطلقة مردوفة موصولة بالهاء، كقول أروى بنت عبد المطلب تحضّ ابنها طُليباً على نصرة رسول الله ﷺ:

إنّ طُلَيْباً نَصَرَ ابنَ خَالِهْ وَاسَاهُ في ذي ذِمَّةٍ ومالِهْ

وأشعارهن التي على مجرى الكسرة ثمان وخمسون مقطوعة وقصيدة، واتجاههن إليه، كان عالياً نسبياً وجملة الرويّ الذي اخترنه هو الراء والباء والنون بالدرجة الأولى، والدال والميم بالدرجة الثانية، ثم اللام والجيم....

- **مجرى الضمة:** وتندرج تحته ستة أشكال، هي:

1 - قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف.

2 ـ قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف، موصولة بحرف اللين واو.

3 ـ قافية مطلقة مردوفة موصولة بحرف اللين واو.

4 ـ قافية مطلقة مؤسسة موصولة بحرف اللين واو.

5 ـ قافية مطلقة مؤسسة موصولة بالهاء الساكنة.

6 ـ قافية مطلقة مردوفة موصولة بالهاء الساكنة.

وأشعارهن التي على مجرى الضمة سبع وثلاثون مقطوعة وقصيدة، واتجاههنَّ إلى مجرى الضمة أقل من اتجاههنَّ إلى مجرى الكسرة كما مرَّ معنا.

وورد أغلب شعرهنَّ على رويّ الباء بالدرجة الأولى والدال بالدرجة الثانية ثم الراء والميم...

ـ **مجرى الفتحة**: وتندرج تحته ستة أشكال، هي:

1 ـ قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف موصولة باللين ألف.

2 ـ قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف موصولة بالهاء الساكنة.

3 ـ قافية مطلقة مردوفة موصولة باللين ألف.

4 ـ قافية مطلقة مؤسسة موصولة باللين ألف.

5 ـ قافية مطلقة مؤسسة موصولة بالهاء الساكنة.

6 ـ قافية مطلقة مردوفة موصولة بالهاء الساكنة.

ومجمل الأشعار ذات المجرى المفتوح ست وثلاثون مقطوعة وقصيدة، واتجاههنَّ إلى مجرى الفتحة أقل بقليل من اتجاههنَّ إلى مجرى الضمة، وهو في الغالب من رويّ النون بالدرجة الأولى والباء بالدرجة الثانية ثم الياء والراء والدال والميم والعين...

ـ تواتر قوافي الشواعر:

وإذا قمنا بإحصائية لقوافي شواعر صدر الإسلام حسب تواترها، وجدنا نسبة الأشعار كالتالي:

	القوافي	نسبة الأشعار
1	ذات المجرى المكسور	%41,13
2	ذات المجرى المضموم	%26,24
3	ذات المجرى المفتوح	%25,53
4	المجردة من المجرى (ذات الروي الساكن)	%7,09

ب ـ أشكال القافية المستعملة لدى شواعر عصر بني أمية:

ـ القافية المقيدة

وقد وردت ثلاثة أشكال من القافية المقيدة في شعر الشواعر:

1 ـ قافية مقيدة منحصرة في الروي، وردت في أشعارهنَّ ثلاث مرات.

2 ـ قافية مقيدة متكونة من روي يسبقه ردف، وردت ثلاث مرات أيضاً.

3 ـ قافية مقيدة متكونة من روي يسبقه تأسيس بينهما دخيل، وردت مرة واحدة.

وجملة أشعارهنّ ذات القوافي المقيدة ست مقطوعات وقصيدة واحدة، مما يدل على أن اتجاه الشواعر على المقيد من القوافي كان قليلاً جداً، وأن نفسهنَّ كان أقل.

والملاحظ أن شعرهنَّ هذا من قافيتي الراء بالدرجة الأولى والباء والجيم والميم والحاء بالدرجة الثانية.

ـ القافية المطلقة:

ـ **مجرى الكسرة**: تندرج تحته ثلاثة أشكال، هي:

1 ـ قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف، موصولة بحرف اللين ياء، وردت في أشعارهنّ اثنين وعشرين مرة.

2 ـ قافية مطلقة متكونة من روي يسبقه ردف موصولة باللين ياء. وردت أربعين مرة.

3 ـ قافية مطلقة متكونة من روي يسبقه تأسيس بينهما دخيل، موصولة بحرف اللين ياء، وردت ست مرات.

ومجموع أشعارهنَّ ذات المجرى المكسور ثمان وستون قصيدة ومقطوعة، واتجاههنَّ إليه كان عاليا نسبياً وجملة الروي الذي اخترنه هو الراء بالدرجة الأولى والميم بالدرجة الثانية والعين والباء بالدرجة الثالثة، ثم التاء واللام والدال.

ـ **مجرى الضمة**: وردت تحته خمسة أشكال، هي:

1 ـ قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف، موصولة بحرف اللين واو، وردت اثنتي عشرة مرة.

2 ـ قافية مطلقة مردوفة، موصولة بحرف اللين واو، وردت ثماني عشرة مرة.

3 ـ قافية مطلقة مردوفة، موصولة بالهاء، وردت ثلاث مرات.

4 ـ قافية مطلقة مؤسسة، موصولة بحرف اللين واو، وردت عشر مرات.

5 ـ قافية مطلقة مؤسسة، موصولة بالهاء، وردت خمس مرات.

وعدد الأشعار ذات المجرى المضموم ثمان وأربعون مقطوعة وقصيدة، واتجاههنّ إليه أقل بقليل من اتجاههن إلى مجرى الكسرة، وهو في الغالب من روي اللام فالراء فالباء والدال.

ـ **مجرى الفتحة**: تندرج تحته ستة أشكال، هي:

1 ـ قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف، موصولة بحرف اللين ألف، وردت في أشعارهنّ اثنتي عشرة مرة.

2 ـ قافية مطلقة مجردة من التأسيس والردف، موصولة بالهاء، وردت مرة واحدة.

3 ـ قافية مطلقة مردوفة موصولة باللين ألف، وردت ثلاث عشرة مرة.

4 ـ قافية مطلقة مردوفة موصولة بالهاء، وردت مرة واحدة.

5 ـ قافية مطلقة مؤسسة، موصولة بحرف اللين ألف، وردت سبع مرات.

6 ـ قافية مطلقة مؤسسة، موصولة بالهاء، وردت خمس مرات.

ومجموع أشعارهنّ على مجرى الفتحة تسع وثلاثون مقطوعة وقصيدة، واتجاههنّ إلى مجرى الفتحة أقلّ بقليل من اتجاههنّ إلى مجرى الضمة، وورد أغلب شعرهنَّ على روي الياء بالدرجة الأولى واللام بالدرجة الثانية، فالهاء فالعين فالراء فالميم.

ـ تواتر قوافي الشواعر:

وقد صنّفنا قوافي شواعرنا حسب تواترها، فكانت كالآتي:

	القوافي	نسبة الأشعار
1	ذات المجرى المكسور	%41,97
2	ذات المجرى المضموم	%29,62
3	ذات المجرى المفتوح	%24,07
4	المجردة من المجرى (ذات الروي الساكن)	%04,32

خامساً: علاقة القوافي بالمعاني:

كما نظر الباحثون في علاقة البحور بالأغراض، فقد كانت لهم محاولات أيضاً للكشف عن علاقة القوافي بالمعاني، وقد أبدى هذه الفكرة سليمان البستاني مُعرّب الإلياذة، فقال: إنّ القاف تجود في الشدّة في الحرب، والدال في الفخر والحماسة، والميم واللام في الوصف والخبر، والباء والراء في الغزل والنسيب، وهذه نظرة إجمالية إذا صحّت من باب التغليب فلا تصح من باب الإطلاق[1].

(1) ميخائيل صوايا: سليمان البستاني، مقدمة الإلياذة، ص: 108.

ولاحظ المعرّي في أنّ الرويّ «أثبت حروف البيت، وعليه تبنى المنظومات،وهو يكون من أيّ حروف المعجم وقع...»[1]. ويرى غنيمي هلال أن لَيْس ثمة قاعدة تربط حروف القوافي بموضوع الشعر كما هو الشأن بين بحور الشعر وموضوعاته[2].

ونحن لا نستطيع أن نصل إلى نتائج موضوعية في هذه المسألة، لأن شواعرنا نظمن جميع المعاني على أغلب القوافي، ولم يقيّدن قافية بغرض معيّن،وهكذا كان الشعراء العرب[3]. «وخير للقوافي أن تبقى مطلقة يتخيّر منها الشاعر ما شاء، فتأتيه إرسالاً فإن سلُم ذوقه جاءته منقادة طوعاً فحلّت محلّها وإلاّ فلا يسلم الذوق كرها»[4].

سادساً: تواتر حروف الروي لدى الشواعر:

وهذه الحروف التي استعملنها روياً مرتبةً حسب درجة التواتر:

حروف الروي	عدد حروف الروي عند شواعر صدر الإسلام	نسبتها٪	عدد حروف الروي عند شواعر العصر الأموي	نسبتها	مجموع حروف الروي عند شواعر صدر الإسلام والعصر الأموي	نسبتها العامة٪
الباء	28	19,58	16	87,9	44	52,14
الراء	20	18,14	29	90,17	49	17,16
النون	20	18,14	08	93,4	28	80,2
الدال	16	34,11	10	17,6	24	92,7
الميم	15	63,10	15	25,9	30	9,9
اللام	09	38,6	26	04,16	35	55,11
الياء	06	25,4	12	40,7	18	94,05

(1) مقدمة اللزوميات، ص: 6.

(2) النقد الأدبي الحديث، ص: 477.

(3) انظر ميخائيل صوايا، المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(4) انظر ميخائيل صوايا: المرجع السابق ص: 108.

القاف	04	83,2	04	46,2	08	64,02
الكاف	04	83,2	02	23,1	06	88,01
الجيم	04	83,2	02	23,1	06	88,01
العين	03	12,2	08	93,4	11	45,3
الهمزة	02	41,1	01	61,0	03	94,0
الصاد	02	41,1	-	-	02	62,0
السين	02	41,1	02	23,1	04	25,1
التاء	02	41,1	05	08,3	07	31,1
الحاء	01	70,0	07	32,4	08	51,2
الفاء	01	70,0	05	08,0	06	88,1
الواو	01	70,0	-	-	01	31,0
الهاء	01	70,0	07	32,4	08	51,2
الطاء	-	-	01	61,0	01	31,0
الضاد	-	-	01	61,0	01	31,0
الشين	-	-	01	61,0	01	31,0
المجموع	141		162		303	

فالملاحظ أن هذه الحروف الواردة في رويّ أشعارهنّ هي كثيرة الشيوع أيضاً في أشعار شعراء العرب، حسب ما ورد في نتائج إبراهيم أنيس[1]، أو نتائج ابن الشيخ الخاصة بالشعر القديم[2]، أو نتائج الطرابلسي من دراسة شعر شوقي[3].

فحروف الراء والباء والدال والميم والنون واللام حظيت بأكبر نسبة في الاستخدام روياً عند الشواعر، فوردت في أشعارهنّ 224 مرة أي بنسبة 70,44% من مجموع أشعارهن، وهذه الحروف تحظى بأكبر نسبة في الاستخدام روياً أيضاً

(1) موسيقى الشعر: ص: 248.

(2) جمال الدين بن الشيخ: الإنشائية العربية (Arabe poetique) باللغة الفرنسية، ص: 196 ـ 171.

(3) خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص: 45 و46.

عند شوقي وعند جميع شعراء العرب الذين دُرِست أشعارهم[1].

وربما يعود السر في شيوع هذه الحروف أكثر من غيرها في الشعر العربي إلى ليونتها وطبيعتها، فهذه الحروف ـ اللام والميم والنون والراء على الأقل ـ أكثر الأصوات الساكنة وضوحاً وأقربها إلى طبيعة الحركات[2].

سابعاً: خصائص القوافي لدى الشواعر:

استعمل شواعر العرب في صدر الإسلام والعصر الأموي ـ كما يبدو من خلال الإحصاء ـ القوافي بنسب متفاوتة، ولم يستخدمن الحروف كلها، وهذه أهم النتائج التي قاد إليها الإحصاء في قوافي شعر شواعر صدر الإسلام والعصر الأموي:

1 ـ جاء أغلب شعرهنَّ على القافية المطلقة، وقد حدّدت نسبة اتجاههنّ إلى القافية المقيدة ب 7,09% في صدر الإسلام، و 4,32% في عصر بني أمية، وهي نسب محدودة إذا قيست بنسب القافية المطلقة[3]، وكانت أعلى نسبة من شعرهنَّ على مجرى الكسرة فالضمة فالفتحة.

2 ـ لمْ يخرجن على عادة العرب في استخدام القوافي حيث كان أكثرها شيوعاً ما يسمّى بقوافي الذلل[4]، على تفاوت فيما بينها، وقد حظيت عندهنّ حروف الراء بالدرجة الأولى، تليها الباء، فاللام فالميم فالدال فالنون فالياء.

3 ـ لمْ ينظمن على القوافي الحوش[5] إلا فيما ندر، فلم يصلنا ولو بيتاً واحداً على حروف الثاء، والخاء، والذال، والطاء، والغين، أما الشين فقليلة جداً ولم تأتِ في شعرهنَّ إلا مرتين فقط. يؤيد هذا الاستقراء ما لاحظه عبد الله الطيب حيث قال:

---

(1) الطرابلسي: المرجع نفسه، ص: 46.

(2) الطرابلسي: المرجع نفسه، والصفحة نفسها، وانظر أيضاً إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص: 27.

(3) ابن الشيخ: المرجع نفسه، ص: 172 وانظر الطرابلسي المرجع نفسه، ص: 40.

(4) القوافي الذلل، هي: الباء، والراء، والدال، والنون، والميم، والياء، والعين.

(5) القوافي الحوش، هي: الثاء، والخاء، والذال، والشين، والظاء، والغين.

«وأما الخاء فما دخلت شعراً إلا أفسدته، والذال على قبحها قد استعملها كثير من المحدثين الأوائل، وأحسب أنه جرّهم إلى هذا الخطل حرصهم على استعمال «بغداذ» و «كلواذ» «ونباذ» وشبه ذلك من أسماء المواضع الذالية في قوافي الشعر...»[1]. وكذلك الثاء، والشين، والظاء، والغين، فقليلة جداً، وكلها قد رَكِبَها الشعراء، فلم يجيئوا إلا بالغثّ[2].

4 ـ أما القوافي النفر[3]، فكان اتجاه الشواعر إليها محدوداً أو منعدماً، فالزاي لمْ ينظمن عليها ولو بيتاً واحداً، ولم يستعملن حروف الضاد، والطاء، والواو إلا مرة واحدة. أمّا ما تبقّى من الحروف فبين محدود أو نادر.

5 ـ وقد لاحظت عند بعض الشواعر محاولات تجديدية في القوافي لمْ تجرِ العادة بمثلها عصرئذ كالتحرر من القافية. ومن اللائي تحررن من القوافي الشاعرة ابنة أبي مسافع، في مقطوعتها التي بكت فيها أباها الذي قُتل يوم بدر وهو يحمي جيفة أبي جهل (راجع ص 130).

ويُعرف هذا اللون من الشعر ـ عند المعاصرين ـ بالمرسل، فالأبيات موزونة، ولكنها متحرّرة من القافية، وهذه سمة من سمات الشعر المرسل، أمّا القدماء فيُسمون هذا النوع من الشعر المكفأ، أي: المختلف الروي[4].

6 ـ ومن يستقرئ شعر النساء في هذه المرحلة يقف على بعض العيوب في قافيته، منها الإقواء[5] عند ضباعة بنت عامر في رثائها لزوجها هشام بن المغيرة (راجع ص 132).

---

(1) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج 1، ص: 63.

(2) المرجع نفسه، ج1 ص: 62 ـ 63.

(3) القوافي النفر، هي: الصاد، والزاي والضاد، والطاء، والهاء الأصلية، الواو).

(4) م. ن.، ص: 12 ـ 13، وثعلب: قواعد الشعر، ص: 64.

(5) الإقواء: هو اختلاف المجرى أي: حركة حرف الروي الذي تبنى عليه القصيدة (انظر المرزباني: م. ن.، ص: 11، وثعلب: م. ن.، والصفحة نفسها، وإدريس الناقوري: المصطلح النقدي في نقد الشعر ص: 331 وما بعدها).

وعند هند بنت أثاثة في رثائها للرسول ﷺ، وقد نُسب أيضاً إلى فاطمة بنت النبي ﷺ (راجع ص 141) وإلى صفية بنت عبد المطلب (راجع ص 135).

ونجد الإقواء أيضاً عند شواعر العصر الأموي، فقد وقع منْهُ لمليكة الشيبانية الخارجية مرتين في قصيدة واحدة في رثاء عمها، (راجع ص 252).

فالرويّ في هذه القصيدة مكسور، كما هو واضح، غير أن البيت الأول والأخير جاءت حركة رويّهما ضمة، في حين كان ينبغي أن تأتي كسرة في سائر الأبيات الأخرى، وهو إقواء ظاهر.

كما نجده كذلك عند أم خالد الخثعمية في قصيدتها التي تتغزّل بها في جحوش العقيلي[1]، وعند شقراء ابنة الحباب في شعرها الذي تتغزل به في يحيى[2].

ومن عيوب القافية كذلك الإيطاء[3]، فقد ورد عند أم حكيم بنت قارظ في قصيدتها التي بكت بها ولديْها اللذيْن قتلهما بُسر بن أرطأة[4].

نُبّئتُ بُسراً وما صَدّقتُ ما زَعَموا ... مَن قَولِهم ومِنَ الإفكِ الذي اقترفوا

أنحَى على وُدُجي ابنَيّ مُرهفةً ... مَشحودةً وكذاك الإثم يُقتَرَفُ[5]

فقد كررت كلمة (اقترفوا ـ يُقترف) بالمعنى نفسه في بيتين متتاليين لا فاصل بينهما؛ وهذا من الإيطاء المعيب جداً عند النقاد القدماء لتقاربه[6]، ومع ذلك

---

(1) انظر القالي: الأمالي، ج2، ص: 10، وابن منظور: لسان العرب، مادة: قطم.

(2) انظر طيفور: بلاغات النساء، ص: 273.

(3) الإيطاء: تكرير القافية بمعنى واحد... (انظر ثعلب: قواعد الشعر، ص: 66، والمرزباني الموشح، ص: 18. وإدريس الناقوري: المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص: 401 ـ 102.

(4) انظر خبر قتل ولديها بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث. فن الرثاء..

(5) الأصبهاني: الأغاني، مج 16، ص: 205.

(6) انظر ابن رشيق؛ العمدة ج 1، ص: 169، وما بعدها، والدكتور يوسف بكار، المرجع السابق، ص: 351.

فهذا الإيطاء عند الشاعرة ليس بمكروه موقعه في السمع، بل هو مناسب للمقام، وملائمٌ جدًّا لما سبقه من تكرار أنصاف الأبيات الأولى، فقد كررت صدر البيت الأول ثلاث مرات: «يا منْ أحسّ بُنَيَّ اللذيْنِ هُما...»؛ ومثل هذا التكرار يشكل ضرباً من الولولة أو الندب المثير، مع العلم أن تكرار أنصاف الأبيات الأولى ظاهرة كثيرة الشيوع نظراً لحاجة الشاعر للتبليغ عنه والمبالغة في أمره عند التفجّع أو النذارة بالحرب والانتقام[1].

ونجد الإيطاء عند شاعرة أخرى من العصر الأموي، وهي ليلى الأخيلية، فقد ورد في قصيدتها التي هجت بها النابغة الجعدي، ومدحت قومها تقول:

فجاء به أصحابُهُ يحملونَهُ ... إلى خيرِ حيٍّ آخرين وأوّلا

ثم تعود فتكرر القافية نفسها بعد خمسة أبيات، فتقول:

وما كان مجدٌ في أُناسٍ علمتُهُ ... من الناسِ إلّا كان مجدنا أوّلا[2]

فقد كررت لفظة «أوَّلا» بالمعنى نفسه، وهذا من الإيطاء الأقل عيباً لتباعده، فقد ذكر بعض النقاد القدامى أنه كلما كان الإيطاء بعيداً كان أخفّ[3]. وقال الفرّاء: «إنما يواطئ الشاعر من عِيّ»[4].

كما نجد الإيطاء كذلك عند ابنة عم النعمان بن بشير في قولها:

يقول رجالٌ زوّجوها لعلّها ... تفيقُ وترْضى بعدَهُ ببخيل

وتكرّر لفظة «بخيل» في قافية القصيدة نفسها بعد ستة أبيات، فتقول:

فما كان يشريني خليلي بخُلَّةٍ ... وما كنتُ أشري مالكاً ببخيلِ[5]

وهكذا جاءت قوافي شعرهنَّ تخضع للمشترط فيها غالباً، فلم يخرجن على

---

(1) انظر أحمد محمد الشيخ: مشاهد الشواهد في علم القوافي، ص: 69.

(2) المرزباني: أشعار النساء، ص: 32 وما بعدها.

(3) انظر قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 182، وابن رشيق: العمدة، ج1، ص: 169.

(4) ابن رشيق: م. ن.، ص: 171.

(5) الوشاء: الموشى، ص: 129و130.

عادة الشعراء العرب في استخدامها، إلا فيما ندر[1]، وهنّ يحترمن قواعدها ويكفي دليلاً على ذلك أنني لمْ أعثر في شعرهنَّ إلا على أمثلة قليلة من عيوب القافية كالإيطاء والإقواء.

وباختصار فشعر الشاعرات يخضع في ـ الجملة ـ لقاعدة «الوحدات الثلاث» التي كانت تتحكّم في النظم العربي: وحدة البحر، ووحدة القافية، ووحدة البناء في شكل عمودي.

ثامناً: الأساليب والألفاظ:

1 ـ تعريف الأسلوب:

يقول عبد القاهر الجرجاني في تعريف الأسلوب: «إن الأسلوب هو المذهب من النظم والطريقة فيه[2]، ومثل هذا ذهب إليه أحمد الشايب من بعد فقال: هو طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير أو هو الضرب من النظم والطريقة فيه»[3].

وقال «بيفون» (BUFFON): أما الأسلوب فهو الإنسان عينه، لذلك تعذّر انتزاعه أو تحويله أو سلخه»[4]. أما الدكتور محمد مندور فعرّفه بقوله: «ليس المقصود بالأسلوب طرق الأداء اللغوية فحسب، بل المقصود منحى الكاتب، وطريقته في التأليف والتعبير والتفكير والإحساس على السواء بحيث أننا إذا قلنا: إن لكل كاتب أسلوبه، يكون معنى الأسلوب كل هذه العناصر التي ذكرناها..»[5].

من خلال هذه التعاريف نصل إلى أن الأسلوب هو في أقرب مداه تعامل مع

---

(1) أشرت فيما سبق إلى بعض المحاولات التجديدية عند بعض الشواعر لمْ تَجرِ العادة بمثلها عصرئذ كالتحرر من القافية عند الشاعرة ابنة أبي مسافع..(انظر القافية في هذا الفصل).

(2) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز (تحقيق محمد عبده والشنقيطي)، ص، 361.

(3) أحمد الشايب: الأسلوب، ص: 44.

(4) عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 67.

(5) محمد مندور: في الأدب والنقد، ص: 6.

اللغة، وفي أبعد مداه تعامل من خلال اللغة مع المجتمع والكون.[1]

ومعنى ذلك أننا عندما نحاول دراسة أسلوب أديب ما، يجدر بنا ألا نقف عند حدود اللغة والتعابير التي استعملها، وإنما نتعدّاها إلى الإحساسات التي تنتابنا أثناء قراءتنا لذلك العمل الأدبي، وبذلك نتقرّب من معرفة الجو الفكري والعاطفي للأديب أثناء ممارسته للإبداع، ولا يتأتى لنا ذلك إلا بقراءتنا للنص الأدبي قراءات متعدّدة ومتأنّية.

وسندرس أساليبهن حسب المستويين: المعجمي والبلاغي.

2 ـ المستوى المعجمي لدى شواعر صدر الإسلام:

أ ـ أنواع الأساليب المستخدمة:

يمكن تصنيف معجم الشواعر في هذا العصر إلى أربعة أساليب: الجزل، والسهل، والحوشي، والسوقي[2].

1 ـ الأسلوب الجزل:

نظمت عليه في الغالب، شواعر قريش لأنهنّ حافظن على جزالة الشعر وقوّته

---

(1) توفيق بكار: محاضرات في الأدب الحديث قدّمها لطلبة السنة الأولى ماجستير، الشعبة الأدبية بمعهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة في العام الجامعي: 81/ 1982 وانظر أيضاً عدنان بن ذريد: اللغة والأسلوب، ص: 97.

(2) عرف العرب أربعة أنواع من الأساليب هي: الأسلوب الجزل، والأسلوب السهل، والأسلوب السوقي، والأسلوب الحوشي.

فالأسلوب الجزل: هو القوي الشديد، واللفظ الجزل خلاف الركيك، وهو الكلام الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها.

والأسلوب السهل هو ما خلا من ألفاظ الخاصة وارتفع عن ألفاظ السوقة.

والأسلوب السوقي هو ما كان المعنى فيه صواباً واللفظ بارداً وفاتراً. والفاتر شر من البارد، فمثل هذا الأسلوب يكون مهلهلاً دوناً مستهجناً، ملفوظاً ومذموماً مردوداً.

والأسلوب الحوشي: هو ما تغلب عليه الألفاظ الغريبة الحوشية أو الوحشية، تلك التي تحجب جوهر المعنى وتنزلق به إلى الغموض والإبهام. (الدكتور عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص: 152 وما بعدها.

وجودته، ولم يحاولن خلق أشكال جديدة ترتبط بالإسلام كما فعلت شواعر المسلمين.

ونجد الألفاظ الجزلة عندهنّ في أغلب الأغراض، ولا سيما في غرض الفخر والحرب والتحريض وطلب الثأر، من ذلك قول ضباعة بنت عامر قبل إسلامها وهي تُرقّص ولدها سلمة وتفتخر بنسبه (راجع ص 185).

وقول قَتِيلة بنت النضر بن الحارث في رثاء أبيها الذي قُتل يوم بدر مع المشركين، (راجع ص 128).

قيل: إن الرسول ﷺ لما سمع هذه القصيدة قال: لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته[1].

ونلاحظ أن معظم الألفاظ في هذين النصين جزلة قوية، مثل: (جحاجح ـ خضارم ـ الهامة ـ السنام ، الأثيل ـ مظنة، مسفوحة، بوابلها، تنوشه، رسف المقيد، عان، ضنء، نجيبة)، وهذه كلمات مغرقة في الكلاسيكية وكثيرة الاستعمال في الشعر العربي القديم، وهذا يدلنا على تأثر الشواعر بالشعراء الجاهليين الذي عُرفوا بجزالة الألفاظ.

2 ـ الأسلوب السهل:

أما النوع الثاني من الأساليب التي استعملتها الشواعر، في هذا العصر، فهو الأسلوب السهل السلس، وقد نُظم أغلب شعرهنَّ في الغزل والاستعطاف والرثاء بهذا الأسلوب، وبلغة رقيقة عذبة بعيدة عن الإغراب، ومن ذلك قول فريعة بنت همام الذلفاء تتغزل في نصر بن حجاج (ص: 187).

وذات ليلة بينما كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يطوف في المدينة، فمرّ بباب دارها، فسمعها تنشد تلك الأبيات، فلما أصبح ، استحضر نصر بن حجاج، فإذا هو أحسن الناس وجهاً وشعراً . . . فقال له عمر: والله لا تساكنني ببلدٍ أنا فيه، ثم نفاه إلى البصرة. فخشيت فريعة أن يبدرُ إليها عمر بشيء، فكتبت

---

(1) انظر طيفور: بلاغات النساء، ص: 235، والأصبهاني: الأغاني، مج 1، ص: 30 ـ 31.

إليه تستعطفه (راجع ص 187).

وكان عمر رضي الله عنه، قد سأل عنها، فوصفت له بالعفاف. فبعث إليها: «قد بلغني عنكِ خير، فقرّي، إنّي لمْ أُخْرجهُ من أجْلك، ولكن بلغني أنّه يدخل على النساء، ولستُ آمنهنّ». وبكى عمر، وقال: «الحمد لِلّه الذي قيّد الهوى حتّى أقِرَّ بإلْجَام وإسراجِ».

ونلاحظ أن أغلب ألفاظها في المقطوعتين جاءت سهلة عذبة، لا تحتاجُ في فهمها إلى كبير عناء، وأكثر شعر الغزل من هذا القبيل، من ذلك ما رُوي عن جارية مرّ بها أبو بكر الصدّيق في فترة خلافته، فسمعها تطحن، وهي تنشد أبياتاً غزليةً عبرت فيها عن حُبّها لمحمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، قالت:

وعشِقتُهُ مِنْ قَبْلِ قَطْعِ تَمائِمِي	مُتَمايِساً مِثْلَ القَضيبِ النّاعِمِ
وكأنّ نُورَ البَدْرِ سُنَّةُ وجْهِهِ	يُنْمَى ويَصْعدُ في ذُؤابةِ هاشِمِ
وأنا التي لَعِبَ الغرامُ بِقَلْبِها	فبَكَتْ بِحُبِّ مُحَمّدِ بنِ القاسمِ[1]

ومن أساليبهنّ السهلة الواضحة التي استعملن فيها ألفاظاً لينة قول صفية بنت عبد المطلب في رثاء النبي ﷺ (راجع ص 136).

وهكذا جاءت معظم المصطلحات والألفاظ التي كانت وليدة الإسلام واضحة سهلة وقليلاً ما يأتي منها الغريب.

3 ـ الأسلوب الحوشي:

وهو ما تغلب عليه الألفاظ الغريبة الحوشية أو الوحشية ولم يخلُ شعر النساء مِنْه، فقد استعملت صفية بنت مسافر ألفاظاً حوشية في مرثيتها التي بكت فيها ابن عمها عقبة الذي قتل مشركاً يوم بدر، فتشيد بفضله وشجاعته وقوته، (ص: 127).

ونلاحظ أنّ معظم الألفاظ الموظفة في هذه المقطوعة غريبة وحشية، مثل: (غربي دالج ـ غريف ـ غرثان ـ ذُكران ـ مزبد ـ آن). وهي كلمات مغرقة في

---

(1) ابن قيم الجوزية: أخبار النساء (تحقيق نزار رضا).ص: 219.

الكلاسيكية، وخالية من أية مسحة دينية أو لفظة تشعرنا بأنّها قيلت في ظلال الدين الجديد.

ومن أساليبهنّ الحوشية قول هند بنت عتبة وهي تُرْقِصُ ولدها معاوية (ص: 220).

لقد وظفت الشاعرة لفظين حُوشيّينِ هما: (طُخرُور، ويخيم).

وقد شمل الأسلوب الحوشي جُلَّ الأغراض الشعرية التي نظمت فيها الشواعر. فبالإضافة إلى الأغراض المذكورة نجد ضباعة بنت عامر تبكي زوجها فتعدد مناقبه وتستعمل مجموعة من الألفاظ الحوشية الغريبة، (ص: 131).

4 ـ الأسلوب السوقي:

ولم يخلُ شعرهنّ من الأساليب السوقية، فبعض الشواعر يؤثرن أحياناً المصطلحات والألفاظ المستهجنة الركيكة السوقية، كقول هند بنت أبي سفيان في ترقيص ولدها عبدالله بن نوفل[1]:

وكقولها في هجائها لأبيها[2]:

فلقد استعملت الشاعرة في معجمها ألفاظاً سوقية، ولذلك يحقُّ لنا أنْ نُدرِجَ أسلوبها ضمن الأساليب السوقية.

5 ـ نتائج:

ممّا سبق نصل إلى النتائج التالية:

أ ـ أنّهن نظمن على أربعة أنواع من الأساليب: الجزل، السهل، الحوشي، السوقي.

ب ـ أغلب شعرهنّ في الفخر والمدح نظم بأسلوب جزل وبلغة قوية.

ج ـ أكثر شعرهنّ في الغزل والاستعطاف والرثاء قيل بأسلوب سهل سلس، وبلغة رقيقة عذبة بعيدة عن الإغراب.

---

(1) البصري: الحماسة البصرية، ج 2، ص: 402 ـ 403.

(2) البصري: المصدر نفسه، ج2، ص: 403.

د ـ وقد شمل الأسلوب الحوشي جل الأغراض الشعرية التي نظمن عليها، ولا سيما شواعر قريش اللائي حافظن على استعمال الغريب، ولم يحاولن تحرير أساليبهنّ من الخشونة والتعقيد اللفظي مما درجوا عليه في العصر الجاهلي.

هـ ـ كما أن شعرهنّ لمْ يخلُ من الأساليب السوقية، وقد نظمن أغلب شعرهنّ في الهجاء وترقيص الأطفال بأسلوب سوقي وبلغة ركيكة مستهجنة . . .

غير أنّ السمة الغالبة على أساليبهنّ هي سهولة الألفاظ ورقة العبارات لدى شواعر المسلمين اللائي تأثرنَ بالقرآن الكريم فاستخدمْنَ ألفاظا ومصطلحات جديدة، وتخلين عن المفردات الغريبة الحوشية. أمّا شواعر قريش فقد حافظن في الغالب على الأساليب الجاهلية التي تتميز بالجزالة والحوشية والغرابة ولم يتحرّرنَ منها.

ب ـ المصطلحات:

تنتمي المفردات التي استعملتها الشواعر إلى أودية شتّى، وتتوزع عليها بنسب متفاوتة.

1 ـ المصطلح السياسي: متوفر إلى حدّ كبير يُجَسِّمُهُ عدد وفير من المفردات: من ذلك ما وصل إلينا من شعر الشواعر اللائي ناصرن علياً في حرب صفين، نذكر منهنّ بكارة الهلالية الشيعية التي كانت من أنصار علي بن أبي طالب في صفين، فخطبت خطباً حماسية تحض بها القوم على خوض غمار الحرب، وأنشدت أشعاراً في الغرض نفسه تحرض بها أنصار عليّ على قتال الأمويين، موظفة ألفاظاً سياسية، وذلك في مخاطبتها لأخيها زيد (راجع ص 211).

فالمفردات التي استعملتها الشاعرة تدخل كلها ضمن المصطلحات السياسية، لأن الشعر السياسي قد يكون مديحاً، كما قد يكون هجاءً أو رثاءً أو فخراً أو تحريضاً، وربما كان كلّ ذلك في آن واحد. وإنما الهدف من هذه الأغراض هو دليلنا في التمييز بين ما هو سياسي وغير سياسي.

واعتقدت الشاعرة أن معاوية لا يصلح للخلافة وإنْ أراد ذلك، فوظفت كلمات: (ابن هند ـ للخلافة مالكا ـ منّتْكَ نفسك في الخلاء ضلالة ـ أغراك

عمرو «عمرو بن العاص» وسعيد ـ ارجع بأنكد طائر منحوسة ـ لاقت عليّا أسعدٌ وسعود ـ)، (راجع ص 212).

وشاء القدر وملك ابن هند الخلافة، وساد الظلم وانتفى الحق، وصار بنو أمية يسبّون ويشتمون ويقذفون عليّا وآل البيت من فوق منابر المساجد أيام الجُمُع، وطال عُمر بكارة الهلالية فشهدت هذه التصرفات التي لا تمتُّ بأيّة صلة إلى الإسلام فانتقدتها موظفة مصطلحات سياسية، (راجع ص 212).

وكانت أمُّ البراء بنت صفوان من أنصار علي أيضاً، فآزرتْه في موقعة صفين وحرضت عَمْراً على القتال لمؤازرة الإمام علي، فاستعملت ألفاظاً ومصطلحات سياسية: (دونك صارما ـ عضب المهزة ـ ليْس بالخوّار ـ أسرج جوادك ـ مسرعا ـ مشمرًا للحرب ـ غير معرّد ـ الإمام ـ دب تحت لوائه ـ زافر العدوَّ بصارم ـ بتار ـ عساكر الفجار)، (راجع ص 213).

ومن الشاعرات اللائي وقفن بجانب علي في موقعة صفين كذلك سودة بنت عمارة الهمدانية الشيعية، فكتبت تحرض أخاها ابن عمارة على نصرته، فاستعملت مفردات سياسية (شمّر ـ كفعل أبيك ـ يوم الطعان ـ ملتقى الأقران ـ انصر علياً ـ والحسين ورهطه ـ واقصد لهند وابنها بهوان ـ الإمام ـ أخا النبي محمد ـ قُدِ الجيوش ـ سر أمام لوائه ـ بأبيض صارم وسنان)، (راجع ص 214).

ولسنا نريد أن نستقصي المصطلحات السياسية في شعر النساء، في هذا العصر، وهي كثيرة وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق، وإنّما أوردنا هذه الشواهد للتدليل على مشاركتهنّ السياسية الصريحة، بالرغم من أنّ السياسة موضوع خطرٌ، ومع ذلك فقد طرقن بابها.

2 ـ **المصطلح الديني:** ثري يُجَسّمُه عددٌ كبير من المفردات: (الله ـ النبي ـ الجنّة ـ النار ـ يوم الحشر ـ الرسل ـ صلّى ـ القرآن ـ أمير المؤمنين ـ دين الله ـ أحمد ـ ذو العرش ـ إلّه الحق ـ الإسلام ـ عدن ـ السلام ـ كفور ـ نصير ـ مصحف ـ الإيمان ـ حواري النبي ـ جحيم ـ نصلي ـ نصوم . . .).

والملاحظ أنّ بعض هذه المصطلحات تتكرّر كثيراً في أشعارهنّ. وخير من

يمثل هذا الاتجاه شواعر المسلمين، أمّا شواعر قريش فظلَّ شعرهنَّ خالياً من أية مسحة دينية أو أيّة لفظة تُشعرنا بأنّه قيد قيل في ظلال الإسلام. وهذه نماذج شعرية تتّسمُ في قسم كبير من مادتها اللغوية بسمة إسلامية. من ذلك ما ورد من ألفاظ ومصطلحات إسلامية في شعر صفية بنت عبد المطلب في رثاء حمزة، (ص: 123):

لقد ظهر أثرُ الإسلامِ واضحاً في كثير من ألفاظها وتراكيبها، وذلك مثل: (رسول الله ـ إلّه الحق ـ ذو العرش ـ جنة يحيا بها ـ يوم الحشر ـ خير مصير ـ والله ـ وأسد الله ـ يذود عن الإسلام ـ كفور ـ جزى الله خيراً ـ نصير).

ورثت رسول الله ﷺ، حين لحق بالرفيق الأعلى، فاستعملت الألفاظ: (ربّ الناس ـ نبينا ـ سعدنا ـ عليك من الله السلام ـ تحية ـ جنات ـ راضياً)، (ص: 136).

ورثته ﷺ أيضاً ابنتُه فاطمة الزهراء، فوظّفت بعض الألفاظ والمصطلحات التي كانت وليدة الإسلام، وذلك مثل: (النبيّ ـ خاتم الرسل ـ المبارك صنوه ـ صلى عليك منزّلُ القرآن)، (ص: 140).

أمّا الفتى الذي بعثه عليّ يوم الجمل إلى خصومه يحمل مصحفاً يدعوهم إلى ما فيه، فقتلوه شر قتلة، فقد بكتهُ أمّه محمّلة الخصوم مسؤولية سفك دماء المسلمين، وموظفة مصطلحات إسلامية، مثل: (يا رب ـ مسلما ـ مصحف ـ مولاهم ـ العدل ـ الإيمان ـ يتلو ـ كتاب الله). تقول.

يـا ربِّ إنّ مُـسـلِـمـاً أتـاهُـمُ ... بـمُـصْـحَـفٍ أرْسَلَـهُ مَـوْلا هُـمُ
لِـلـعَـدْلِ والإيـمـانِ قَـدْ دعـاهُـمُ ... يـتـلُـو كـتـابَ الـلّـهِ لا يـخْـشَـاهُـمُ
فـخـضَّـبـوا مِـنْ دمِـهِ ظُـبـاهُـمْ ... وأمُّـهُـمْ واقـفـةٌ تـراهُـمُ
تَـأمُـرُهـمْ بـالـغَـيِّ لا تـنـهـاهُـمُ[1]

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج3، ص: 175.

وكان من بين القتلى يوم الجمل مع عائشة عبد الله بن حكيم بن حزام بن زينب بنت العوّام التي بكته بهذه الأبيات وهجت فيها عليًّا وأصحابه، واتهمتهم بقتل حواري النبي ﷺ، وصِهرِه وصاحبه عثمان بن عفان، وبشّرتهم بجهنم يوم القيامة، وقد استعملت مفردات ومصطلحات إسلامية مثل: (حواري ـ النبي ـ صهره ـ صاحبه ـ استبشروا ـ جحيم ـ الدين ـ نصلي ـ نصوم). (ص: 158).

إذن، اتّسمَتْ أساليبهنَّ في قسم كبيرٍ من مصطلحاتها وألفاظها بسمة إسلامية، أي: أنهنّ اقتبسن كثيراً من ألفاظهنّ من القرآن الكريم ومن العلوم الإسلامية، واتجاههنّ إلى المصطلحات الدينية جاء نتيجة نزعة تديّن عند بعضهنّ كما عند صفية بنت عبد المطلب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله. وجاء عرضاً عند بعضهنّ كما هو لدى أمّ الفتى الذي بعثه علي يوم الجمل إلى خصومه يحمل مصحفاً يدعوهم إلى ما فيه فقتلوه، فاستعملت أمُّه كلمات دينية في الدفاع عن مذهب سياسي، وكذلك فعلت زينب بنت العوام في مرثيّتها لولدها عبد اللّه الذي قتل يوم الجمل.

3 ـ **المصطلح الأخلاقي:** متوفر إلى حدّ ما: (خير ـ شر ـ تقوى ـ كريم ـ مُحبّبٌ ـ حليم ـ خزي ـ فحاش ـ لئيم ـ قليل الوفاء ـ منحوسة ـ أنكد ـ طائر ـ ضلالة ـ الشقاء ـ الأحول ـ المشؤوم طائره . . .).

هناك مفردات ذات صبغة أخلاقية تنتسب إلى معجم الأخلاق الموروثة عن الجاهلية كالشجاعة والمروءة والإقدام والوفاء وكرم الأصل والنسب وحماية الضعيف واليتامى ونجدة الملهوف. وعكسها كالجبن والبخل واللؤم وعدم الوفاء . . . وغيرها من الألفاظ التي بقي أكثرها صالحاً بعد ظهور الإسلام .

بالإضافة إلى وجود كلمات ذات صبغة دينية تنتسب كلُّها إلى معجم الأخلاق الإسلاميّة: (كالتقوى ـ الكفر ـ المسلم ـ الإيمان ـ يتلو كتاب اللّه ـ الغيّ ـ عظيم الكفر . . . إلخ).

ونلاحظ أن الكلمات المتصلة بالجنس قليلة: (فخذي ـ غيور ـ يغار من الحرقوص ـ يدخل تحت الفلق المرصوص ـ كفل ريان ـ كعثب نهد ـ (انظر هند الهمذانية).

غير أن هناك بعض الشاعرات ماجنات نزعن إلى أسلوب التصريح كهند بنت أبي سفيان التي نظمت أبياتًا وهي تُرقص ابنها عبد اللّه بن نوفل، استعملت فيها ألفاظاً نابية نزّهتُ قلمي عن روايتها، فقد تجرأت على ذكر السوءات وبالألفاظ البذيئة التي يخجل الرجل من ذكرها. ويبدو أنّ هنداً هذه كانت ماجنة منحطة الأخلاق فلمْ ينجُ من لسانها حتى والدها الذي هجته هجاء مُرًّا وبألفاظ سوقية.

أمّ هند بنت عتبة الشاعرة المشركة، كانت تعاتب أو تَهْجُو كلَّ من دخل في الإسلام، فقد هجت أخاها أبا حذيفة الذي دخل في الإسلام ودعا أباه يوم بدر للمبارزة، فلما علمت هند بذلك هَجَتْهُ هجاءً مُراً وعيَّرته مستعملة ألفاظ السباب: (الأحول - الأثعلُ - المشؤوم طائره - شر الناس . . .). تقول:

مَنْ يشتري مِنّي شيْخاً خَبَّا ... أخَبُّ مِنْ ضِبٍّ يُداجِي ضِبَّا
كأنّ خِصيْتَيْهِ إذا أكَبّا ... فَروجتانِ تَلْقُطانِ حَبَّا[1]

أما هند بنت أثاثة في نقيضتها التي أجابت بها هند بنت عتبة يوم أحد، فقد اختارت اللفظ المُقذع المفحش حتى أن ابن هشام حذف ثلاثة أبيات منها بسبب ذلك، فاستعملت: (خزيت - بنت وقاع - عظيم الكفر - الطوال - الزهر - قطاع - حسام - يفري - ليثي - صقري - غدري - فخضّبنا - ضواحي النحر - نذرك السوء - شر نذري). (راجع ص 191).

إذن، الأسلوب - من حيثُ المعجم الأخلاقي - مطبوع بطابع الدين الإسلامي الحنيف، وكلماته مأخوذة من قاموس المشاعر الإسلامية، أو تنتسب إلى معجم الأخلاق الموروثة عن الجاهلية، بالإضافة إلى وجود ألفاظ ذات مدلول إباحي تنتمي إلى لغة العواطف الغريزية . . .

4 - **مصطلحات نسوية:** لاحظ العلماء منذ زمن بعيد وجود اختلافات بين الرجال والنساء في استخدام المفردات والتعابير، فأطلقوا على بعضها أنه من ألفاظ الرجال، أو من ألفاظ النساء.

---

(1) البصري: م. ن.، ج2، ص: 403.

ولعلّ أوّلُ من أشار إلى ذلك هو أبو بكر الباقلاني (تـ 403 هـ) في كتابه إعجاز القرآن، حين علّق على قول امرىء القيس في معلقته:

لــكَ الــويْــلاَتُ إنّــكَ مُــرْجــلــي[1]

قال: «وهذا من كلام النساء»[2]. أمّا في العصر الحديث فقد كثر الاهتمام بلغة المرأة، وظهرت دراسات تناولت خصائص المفردات والتعابير في لغة النساء، ومن خلال تلك الدراسات يمكن الوصول إلى النتائج التالية:

1 ـ تفوق المرأة على الرجل في اختيار الألفاظ ودقة الربط في بعض المجالات التي لها علاقة باهتمامها مثل الألوان والزينة والديكور.

2 ـ غلبة الألفاظ التي تدلُّ على تحفّظ المرأة وتردّدها في إصدار الحكم القاطع، مثل: (ربّما ـ لعلّ ـ من المحتمل ـ أحس بكذا ـ أفترض كذا ـ تقريباً ـ نحو ـ حوالي . . . وغيرها).

3 ـ تأدّب المرأة وتجنُّبها الألفاظ السوقية أو الميتذلة، فهي لا تتحمّل استعمال الكلمات المرتبطة بالجنس، وتنتقي المفردات المؤدبة والخالية من الإيحاءات غير المستحبة.

4 ـ تكثر النساء من استخدام صفات الاستحسان، وكذلك الكلمات الفارغة من المعنى: (جذاب ـ فاتن ـ رائع ـ جميل ـ حلو ـ مزعج ـ مؤلم ـ . . . وسواها).

5 ـ كثرة استعمال الألفاظ التي تدل على قوة المشاعر والعواطف والانفعالات[3].

---

(1) أبو زيد القرشي : جمهرة أشعار العرب، ص: 96. وإنّكَ مُرْجلي: فاضحي، أو مصيري راجلة.

(2) الباقلاني : إعجاز القرآن، ص: 81.

(3) باختصار عن الدكتور أحمد مختار عمر : اللغة واختلاف الجنسين، ص: 95، وما بعدها. وانظر أيضاً:

Language, the sexes and society. P 148,by Philip H. Smith, Bosil Black Well,1984.

Male and Female spoken language differences p.616-621, by A. HAAS, in psychological bulletin May, 1979.

ومن خلال دراستنا للشعر النسوي تبيّن لنا أن شعر المرأة يتميز بمصطلحات خاصة وببعض التعبيرات والايحاءات النسوية الواضحة . . . وأنّه يكثر فيه تردد كلمات النواح والبكاء مما لا نظير له في شعر الرجال، لأن هذه الألفاظ ذات صلة بتكوينهن وبمشاعرهنّ أكثر من صلتها بالرجال، وأنّ رثاءهن يغلب عليه الاستهلال بالبكاء، وتكرار مطالع قصائدهن[1].

وأعرض هنا نماذج من أشعارهنّ تبيّن إلى أي حدّ تأثرن بعالمهن الخاص المتميز عن عالم الرجال، وكيف استعملن مصطلحات وتعابير نسوية. من ذلك، نجده عند أم حكيم بنت قارظ في قصيدتها التي رثت بها ولديها عبد الرحمن وقثم اللذين قتلهما بُسر بن أرطأة الذي بعثه معاوية إلى اليمن وأمره بقتل كل من كان من شيعة علي بن أبي طالب، فأرشد على الطفلين فأخذهما وذبحهما وأمّهما تنظر إليهما، وكان ذلك سنة 39 هـ، فجزعت عليهما جزعاً شديداً وصارت لا تعقل ولا تصغي إلى أحد، تهيم على وجهها في كل واد، وتبكيهما بأشعار محزنة، فاستعملت قاموسها الخاص في المصطلحات والعبارات، (راجع ص: 159).

لقد كرّرت الشاعرة صدر البيت الأول (يا من أحسَّ بنيَّي اللذين هما . . .) ثلاث مرات، ومثل هذا التكرار يشكل ضرباً من الولولة أو الندب المثير وهو ما نفتقده في رثائيات الرجال، وقد علّق الرافعي على الأبيات فقال: «ولا أبلغ في البلاغة ولا أحسن حكاية لصوت البكاء والندب من قولها: «بنيّيّ» فهاتان الياءان المُشدّدتان، تعصران الدموع عصراً، وتصوران غصص العبرات مُتردّدة في حلق الباكية أبدع تصوير»[2].

إلى جانب ما نجده في مرثيتها من ألفاظ باكية وكلمات حزينة خاصة بالمرأة مثل: (بُنيّيّ ـ كالدرتين ـ تشظى عنهما الصدف ـ هما سمعي ـ وقلبي ـ مختطف ـ

---

(1) انظر أيضاً عزة محمود : الشعر النسوي المعاصر (صحيفة الأهرام ليوم: 04/ 11/ 1964 م. والدكتورة عائشة عبد الرحمن : الخنساء، ص: 115.

(2) تاريخ آداب العرب، ج3، ص: 71.

هما مخ العظام ـ مخي مزدهف ـ والهة ـ حرّى ـ مدلهة).

وتكثر في شعرها هذه المصطلحات الباكية وهي تتحدث عن الفجيعة التي ألمت بها، فتستعمل: (الشكلى ـ استيأستُ ـ عبرة ـ والهة ـ حرى ـ ولولة ـ مدامع ـ تترى)، (راجع ص 159)

وكثيراً ما نجد في شعر النساء صورة الدموع وهي تسيل فيضا على الخدين على طريقة خولة بنت الأزور وهي تبكي ضراراً لمّا وقع في الأسر، فاستعملت الألفاظ: (مقروح ـ الجفون ـ سأبكي ما حييت ـ قتيلا ـ قضى ضرار ـ يموت ـ مات ـ باكية ـ منسجم ـ هتون ـ بكاك ـ أبكي ـ قطعوا وتيني . . .)، (راجع ص 173).

ومن هذه المصطلحات التي تميّز بها الشعر النسوي حديثهن عن الكحل، كقول قتيلة بنت النضر:

مـا بـالُ عـيـنـي لا تـنـامُ كـأنّـمـا   كُـحـلـت مـآقـيـهـا بِـكـحـل الأرمـدِ

كانت هذه أهم المصطلحات التي يمكن أن نردّ إليها مُجمل ما تركّب منْهُ شعر الشواعر في هذا العصر، ولما كان من الصعوبة بمكان إحصاؤها جميعاً في هذا البحث فقد اكتفيتُ بذكر هذه النماذج.

3 ـ المستوى المعجمي لدى شواعر عصر بني أمية:

أ ـ أنواع الأساليب المستعملة لدى الشواعر:

إذا كنتُ فصّلتُ الحديث عن أساليب شواعر صدر الإسلام فلن أفعل الشيء نفسه مع شواعر العصر الأموي، وذلك خوف التكرار، وتجنب الإطالة والإملال.

لقد نظمنَ هنّ أيضاً على أربعة أنواع من الأساليب: الجزل، والسهل ، والسوقي والحوشي.

1 ـ الأسلوب الجزل:

فمثاله قول ليلى الأخيلية وهي تمدح مروان بن الحكم أيام ولايته لمعاوية على المدينة (راجع ص 298).

وكذلك قد ورد للأخيلية من اللفظ القوي والكلمة الجزلة الشيء الكثير في مديحها للحجاج بن يوسف، وقد جمعت بين الجزالة والسلالة والعذوبة، وابتعدت عن الوحشي من الألفاظ، فاستعملت: (أعطاك ـ غاية ـ يُقصّر ـ مداها ـ لا يُفلل ـ سلاحك ـ تراها ـ مريضة ـ دائها ـ شفاها ـ الداء العضال ـ هزّ ـ القناة ـ سقاها ـ دماء ـ المارقين ـ علها خيف ـ أذاها ـ رِزّ كتيبة ـ أعدّ لها ـ قراها ـ مصقولة ـ فارسية ـ يحلبون ـ صراها ـ العصاة ـ مناها ـ حلاف ـ تقلّد ـ بيعة) (راجع ص 297).

2 ـ الأسلوب السهل:

أغلب شعرهنّ في الغزل والغُربة والحنين إلى الأوطان، نظم بأسلوب سهل سلس وبلغة رقيقة عذبة. ومثاله قول امرأة يزيد بن سنان تحنّ إلى زوجها الذي ذهب في غزو إلى اليمن ومكث فيها سنين، فاستعملت (تطاول الليل ـ العين تدمع ـ أرقني حزني ـ قلبي موجع ـ بتُّ أقاسي الليل ـ أرعى نجومه ـ بات فؤادي عانياً ـ يتفرع ـ غاب كوكب ـ لمحت بعيني ـ آخر ـ يطلع ـ تذكّرتُ ـ فؤادي للهوى ـ يتقطع ـ حبيب ذاكر لحبيبه ـ يرجي لقاءه ـ صبابتي) (راجع ص 267).

وأسلوبها ها هُنا هو من السلاسة والعذوبة بمكان، وإن كان لا يخلو من جزالة بعض الألفاظ، وقد سمع هذه الأبيات عبد الملك بن مروان، فرقَّ قلبُهُ لها، وسأل عن صلة الشاعرة بيزيد، فقيل له: هي زوجته، فسأل: كم تصبر المرأة عن زوجها، فقالوا: ستة أشهر، فأمر ألاّ يمكث العسكر أكثر من ستة أشهر[1].

وهذه عقيلة بنت الضحاك، وهي أيضاً شاعرة من العصر الأموي، أحبّها ابن عمّها عمرو بن كعب وبادلته الحُبّ، ثم فُرّق بينهما، فهام عمرو على وجهه إلى اليمامة، فكابدت ألم الفراق وتباريح الحب، فرقّت كلماتُها وعذبت ألفاظها، ومزجت لغة الغربة بلغة الغزل، فاستعملت: (رقد النيام ـ عمرو تؤرّقه الهموم إلى

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق ـ تراجم النساء، ص: 576.

الصباح ـ تقطّع قلبه الذكرى ـ قلبي ـ لا بالخلي ـ لا بصاح ـ سقى ـ اليمامة ـ دار قوم ـ يحنّ ـ الرّواح)، (راجع ص 268).

كما نجد هذه الرّقة والعذوبة في لغة شقراء ابنة الحباب التي كانت تهوى يحيى ففرّق أهلها بينهما وأبعدوها عنه، فأحسّت بالغربة إلى بلاد المحبوب، فبعثت إليه برسالة ود فاستعملت ألفاظاً تدل على شدة تعلقها به وإصرارها على رعاية الود معه مهما كلفها ذلك من تضحيات، فوظفت كلمات مثل: (خليليَّ ـ هوى نفسي ـ اذكرانيا ـ لامني لائم ـ سخط الواشين ـ تعذرانيا ـ شفّ قلبي ـ طول تجلّدي ـ أحاديث يحيى ـ تشيب النواصيا ـ سأرعى الود ـ هبّت الصبا ـ قطعوا لسانيا)، (راجع ص 271).

3 ـ **الأسلوب الحوشي:** ومن أساليبهن الحوشية قول ليلى الأخيلة في رثائها لتوبة، وقد مرّ ذكره (229 ـ 232).

ونلاحظ أنّ معظم الألفاظ الموظّفة في هذه المقطوعة غريبة حوشية، وقد حجبت جوهر المعنى وانزلقت به إلى الغموض والإبهام، مثل: (ذقانين ـ مفاوز حوضي ـ شأوها ـ عقيرة ـ عاقر ـ زغف ـ أسمر خطّي ـ خوصاء ـ ضامر ـ جرداء ـ السراة ـ سابح ـ درأن ـ شبّاك الحديد ـ زوافر ـ عوابس ـ الثّعلبية ـ ضمّرا ـ شواح ـ الشكيم ـ الشواجر). وهي كلمات مغرقة في الكلاسيكية، ويصعب فهمها إلا بعناء .

4 ـ **الأسلوب السوقي:** ومنهن من يستعملن الأساليب السوقية، فيُؤْتِينَ الألفاظ المستهجنة الركيكة، كقول حميدة بنت النعمان بن بشير تهجو زوجها الحارث بن خالد المخزومي (راجع ص 283)، فقد وظفت الألفاظ المقذعة المستهجنة، فاستعملت في المقطوعتين الكلمات:

(نكحة غاوية ـ الجالية ـ صُنان التيوس ـ أعيا ـ شنئتُ ـ الشيوخ ـ أبغضتُهم ـ قالية ـ عردة ـ عظام استه ـ البالية).

ولذلك يحق لنا أن ندرج أسلوبها ضمن الأساليب السوقية. و هكذا نظم أكثر شعرهنّ في الهجاء بأسلوب سوقي وبلغة ركيكة مستهجنة.

5 ـ نتائج:

مما سبق نصل إلى النتائج التالية:

أ ـ أنّهنّ نظمن على أربعة أنواع من الأساليب ـ كشواعر صدر الإسلام ـ: السهل السلس، والجزل، والحوشي، والسوقي.

ب ـ أغلبُ شعرهنّ في المدح والرثاء و الفخر نظم بأسلوب جزل وبلغة قوية.

ج ـ أكثر شعرهنّ في الغزل والغربة والحنين إلى الأوطان قيل بأسلوب سهل وبلغة رقيقة عذبة.

د ـ أغلب شعرهنّ في الهجاء والغزل الإباحي نظم بأسلوب سوقي وبلغة ركيكة مستهجنة .

هـ ـ وقد شمل الأسلوب الحوشي أكثر الأغراض الشعرية التي نظمن عليها ولا سيما الرثاء والمدح والفخر .

ب ـ المصطلحات: تنتمي الكلمات التي استعملتها الشاعرات إلى مصطلحات شتّى ولكنها تتوزع بينها حسب نسب متفاوتة يمكن تفسيرها إلى حد ما بضغوط البيئة.

1 ـ **المصطلح السياسي**: متوفّر إلى حد كبير: من ذلك ما ورد من مصطلحات سياسية في شعر هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية، وهي من اللائي تشيعّن لعلي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، فكانت ترثي كُلّ من يُقتل من أصحابه، وتحرّض القوم على اتباع خطته، ورثاؤها لحجر بن عُديّ لما قتله معاوية مشهور. (ص 341).

ومعظم المفردات التي وردت فيه تنتمي إلى المصطلح السياسي، من ذلك: (يسير إلى معاوية ـ ليقتله ـ زعم الأمير ـ تجبّرت الجبابر ـ طاب لها الخورنق ـ السدير ـ شيخاً في دمشق ـ له زئير ـ قتل الخيار ـ من شر أمته وزير ـ تهلك ـ زعيم قوم ـ هُلكٍ).

وقد شاركت نساء الخوارج في تحمل العبء السياسي في الدعوة إلى حزب

الشراة والدعاية لمبادئه والمشاركة في ساحات المعارك ، فأم حكيم كانت من أشجع نساء الخوارج، فشاركت في عدة معارك، وكانت تحمل على الأعداء وهي ترتجز:

أحـمـلُ رأساً قَـد سَـئـمـتُ حـمـلَـهُ   وقــد مَـلـلـتُ دهـنَـهُ وغـسـلَـهُ

ألا فـتًـى يـحـمِـلُ عـنّـي ثِـقـلَـهُ[1]

هناك رغبة جامحة عند الشاعرة في لقاء المنية، و هذه الرغبة آتية من إيمانها العميق بأنّ كل شي بقضاء، وليست أمّ حكيم وحدها في هذا الميدان، فأغلب شعراء الخوارج يرون أنّ الموت هو الوصول إلى مرحلة جديدة باقية دائمة، توصلهم تقرّبُهُم من ربّهم، وتجمعهم بإخوان لهم سبقوهم «فهناك إذن هذه الغاية التي نستطيع أن نسميها غاية الموت، التي تكيف الحياة عند الخوارج، وتوجّه الشعر والأدب عامة»[2].

ومن تلك المصطلحات السياسية ما ورد في شعر امرأة خارجية أقامت في معسكر الضحاك سنين ثم ارتدت وعادت إلى أحضان زوجها، وقد عقدت مقارنة بين لذة الحياة الجنسية وصعوبة القتال، فاستعملت الكلمات التالية: (رمح ـ قاتل ـ دم ـ سائل ـ مطعون ـ ثاكل ـ ملة ـ الضحاك ـ متروكة ـ باطل . . .)[3].

ومن يتبع شعر الشاريات [4] يجد أغلب كلماته تنتمي إلى المصطلح السياسي. فمليكة الشيبانية الشارية استعملت في مراثيها الكلمات: (النساء الشاريات ـ المآمر ـ آمر ـ النفر ـ الشراة ـ لسان قومك ـ يجتمع المعاشر ـ فارس ـ بطل ـ مغاور ـ يجمع شملنا ـ نسوان الشراة ـ عند الحروب ـ شاري ـ

---

(1) إحسان عباس : شعر الخوارج، ص: 128 ـ 129.

(2) إحسان عباس: المصدر نفسه ص: 15. وانظر أيضاً عبد الرزاق حسين : شعر الخوارج.. ص: 100.

(3) انظر إحسان عباس : المصدر السابق، ص: 206 ـ 207.

(4) الشاريات : واحدها: شارية، وهي المرأة المنتسبة إلى الخوارج، وهم الشراة، أي : الذين باعوا أنفسهم لله.

عشائرهم)[1]، وهي كلها متصلة بالسياسة.

2 ـ **المصطلح الديني:** ثريٌّ يَجسّمُه عدد كبير من تلك المصطلحات التي تكررت كثيراً في شعرهنّ (اللّه ـ الجنة ـ النبي ـ الدين ـ أمير المؤمنين ـ الخليفة ـ الإمام ـ الحشر ـ الإيمان ـ نور . . .). وهذه نماذج شعرية نستدلّ بها عن كثرة الألفاظ الدينية، من ذلك ما وصل إلينا من شعر الرباب زوجة الحسين بن علي قالته في رثائه لما قتل بكربلاء موظفة كلمات إسلامية (نور يستضاء به ـ سبط النبي ـ جزاكَ الله ـ صالحة ـ خسران الموازين ـ الرحم ـ الدين ـ من لليتامى ـ للسائلين ـ يُعفى ـ مسكين ـ والله)[2].

وبكت الحسين ومن معه أيضاً ابنة عمه عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب موظفة بعض الألفاظ والمصطلحات الإسلامية، مثل (آل الرسول ـ قال النبي لكم ـ أنت آخر الأمم . . .)[3].

ولما قتل علي بن أبي طالب بكته أم الهيثم بنت الأسود الخثعمية، وهي من شواعر الشيعة، موظفة بعض الكلمات الإسلامية لتبيّن فضله على الإسلام، فاستعملت: (أمير المؤمنين ـ قرأ المثاني ـ المثينا ـ مولى رسول الله ـ يقيم الدين ـ يقضي بالفرائض ـ مستبينا ـ يدعو للجماعة ـ من عصاه ـ قطع أيدي السارقين ـ عكوفٌ ـ فعل العاكفين ـ شهر الصيام). (راجع ص 224).

3 ـ **مصطلح الكون:** محدود نسبياً: (الليل ـ النهار ـ السماء ـ الشمس ـ النور ـ الظلام ـ الكوكب ـ الريح ـ النجوم ـ الصباح ـ السماك ـ الصّبا ـ الربيع. . .). من ذلك ما ورد في شعر امرأة يزيد بن سنان من مصطلحات الكون، فقد استعملت: (الليل ـ نجومه ـ كوكب ـ يوم). (راجع ص 267).

4 ـ **مصطلح الطبيعة:** متوفر إلى حد ما: (الصحراء ـ الرمل ـ الواحة ـ بلد اليمامة ـ القبور ـ نجد ـ الحيّ ـ الظّل ـ النّدى ـ الغضا ـ الحجاز ـ نجد. . .). فقد وظفت العيوف بنت مسعود ابنة أخي ذي الرمة بعض الألفاظ التي تندرج

---

(1) انظر المزرباني : أشعار النساء، ص: 196 وما بعدها.

(2) الأبيات في الأغاني، مج 16. ص: 92.

(3) انظر الشعر في كتاب كحالة : أعلام النساء، ج3، ص: 324.

ضمن مصطلح الطبيعة،مثل: (أكثبة ـ الدهنا ـ الحي ـ الرمل) راجع (ص 269).

5 ـ مصطلحات نسوية: تساهم بقسط في تكوين مادة الشعر النسوي.

وهناك بعض الألفاظ والصيّغ النسائية التي لا وجود لها في شعر الرجال، وأنّ شعرهنّ يكثر فيه تردد كلمات النواح والبكاء والنحيب لأن هذه الألفاظ ذات صلة بتكوينهن وبمشاعرهنّ أكثر من صلتها بالرجال. من ذلك ما نجده عند كنزة أم شملة، فقد وظفت في شعرها كلمة «لهفي» وهي من كلامِ النساء. (راجع ص 325 ـ 326).

لقد تحسّرت الشاعرة على ما فات علياً وعمْراً مِن ملاقاة القوم المجتمعين بذي السيدِ المتأهبين للقتال. وقد تلهّفت لِما كانت تؤَمّلُ من تأثيرهم فيهم[1].

وكثيرة في مراثيهن صورة الدموع وهي تسيل غزيرة على الخدود على طريقة ليلى الأخيلية التي بكت توبة بن الحمير بكاء حاراً واستبكت معها نساء خفاجة، فاستعملت الكلمات: (عينُ ـ بكي ـ توبة ـ بسح ـ فيض ـ الجدول ـ المتفجر ـ لتبكِ ـ من خفاجة ـ نسوة ـ بماء ـ شؤون ـ العبرة ـ المتحدّر). (راجع ص 234).

وكذا سلامة القس التي بكت الوليد بن يزيد بكاء مُراً، وحزنت عليه حُزناً شديداً، وقد استخدمت الألفاظ: (القبر الغريب ـ صفائح ـ صمّ ـ تُرصّف ـ لَحْد ـ أنينه ـ مغيبه ـ المغيب ـ هاجت ـ لواعج ـ عبرة ـ دائمة ـ الدبيب ـ أسفا ـ مصرع ـ الغريب ـ الموت ـ طبه ـ يعضل ـ الطبيب). راجع (ص 249).

بالإضافة إلى المصطلحات النسوية التي تتسم بحرارة العاطفة وصدق الشعور، وبالكلمات الحزينة، والألفاظ الباكية، نجد مراثيهنّ يغلب عليها الاستهلال بالبكاء وتكرار مطالع القصائد حتى لا يكاد يختلف مطلع عن آخر بأكثر من كلمة تستبدل بأخرى. وهذه نماذج نمثل بها لذلك.

---

(1) المرزوقي : شرح ديوان الحماسة، مج1،ص: 702. وقد استعملت ليلى الأخيلية هذه اللفظة أيضاً. انظر الأصبهاني : الأغاني، مج 11،ص: 222.د.

قالت ليلى الأخيلية تبكي توبة:

يا عينُ بكّي بِدَمْعٍ دائِمِ السَّجمِ ... وابكي لِتوبَةَ عِنْدَ الرَّوْعِ والبُهَمِ[1]

وقالت زوجة الوليد تبكي أخاها عمرو بن سعيد:

أيا عينُ جُودي بالدّموع على عمرٍو ... عشيّةَ أوتينا الخِلافة بالقهْرِ[2]

وقالت عقيلة بنت عقيل تبكي الحسين ومن قُتِلَ معه بكربلاء:

عينِيَ ابكي بِعَبْرَةٍ وعويلِ ... واندُبي إن ندبتِ آلَ الرّسُول[3]

وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حجر بن عدي لما قتله معاوية:

دُمُوعُ عينِي ديمَةٌ تقْطُرُ ... تَبْكي عَلَى حُجْرٍ ولا تَفْتُرُ[4]

وقالت مليكة الشيبانية في رثاء أخيها:

يا عينُ جُودي بالدّموع ... بِواكِفٍ حتَّى المَمَاتِ[5]

وقالت أيضاً تبكي عمّها:

ما بالُ دَمْعِكِ يا مليكةُ جَارِ ... أمْ ما لقَلْبِكِ لا يَقِرُّ قرارُ[6]

وبكت الضحاك زعيم الخوارج، فقالت:

ما بالُ دَمْعِكِ دائِمِ السّجْمِ ... مِثْلِ الجُمَانِ وهْيَ مِنَ النَظْمِ[7]

أمّا أخت الحازوق فقالت ترثيه:

أعينيّ جُودا بالدُّمُوعِ على الصّدْرِ ... على الفارسِ المقْتُولِ بالجبلِ الوعْرِ[8]

وتتكرّر هذه الأنماط بصورة لافتة للنظر في الشعر النسوي. وقد أشار الدكتور علي الهاشمي إلى شيوع هذا النمط في شعر المرأة فقال: «... الإعادة

(1) الأصفهاني: م. ن.، مج 11، ص: 220.
(2) بشير يموت: شاعرات العرب...ص: 195.
(3) كحالة: أعلام النّساء، ج 3، ص: 324.
(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج 3، ص: 232.
(5) المزرياني: أشعار النساء، ص: 197.
(6) المزرياني: م. ن.، ص: 198.
(7) المزرياني: م. ن.، ص: 200.
(8) البلاذري: أنساب الأشراف، ج2، ص: 174. (مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط).

والتكرار هي من أسلحة النساء في التأثير على الرجال»[1]. ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إنّ التكرار في شعر النساء ظاهرة أسلوبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظروفها النفسية[2]. وإلى جانب الاستهلال بالبكاء وتكرار مطالع القصائد، نجد الشواعر يسْتخْدِمْنَ التصريع «وهو جعل العروض مقفاة كالضرب على الوزن»[3]. وهذا ما يلاحظ في النماذج التي من مطالع قصائدهنّ فيما سلف.

كانت هذه أهم المصطلحات التي وردت في شعرهنّ، وقد اكتفيتُ بهذه النماذج خوف الإطالة والإملال، ولعلّ فرصة تتاح فأعود لأفصل الحديث في الموضوع.

المستوى البلاغي أو (الصور والأخيلة):

تمهيد:

المستوى البلاغي مصطلح نقديٌّ حديثٌ يُستعملُ للدلالة على الصور والأخيلة، وتطلق الصورة الشعرية أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات[4] والتصور ينشأ عن الإدراك الحسي[5]، وهو « استحضار صور المدركات الحسية عند غيبتها عن الحواس من غير تصرف فيها بزيادة أو نقصان، أو تغيير أو تبديل »[6].

« والصورة الشعرية مع غيرها من الصور والأدوات الفنية الأخرى تشكل القصيدة التي تكون الموازي الشعري لواقع الشاعر الطبيعي والنفسي والاجتماعي»[7].

---

(1) المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 155.

(2) محمد راوي: شعر النساء في الأدب العربي، ص: 823.

(3) الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص: 302.

(4) الدكتور مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، ص: 3.

(5) الإدراك الحسي : هو أساس العمليات العقلية... وهو إدراك المرئيات، والمسموعات بواسطة الحواس الخمس.. (انظر الدكتور عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص: 68).

(6) الدكتور عبد العزيز عتيق: المرجع نفسه، ص: 69.

(7) مدحت سعد الجبار: الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، ص: 6.

أما الخيال أو التخيل فينشأ عن التصور، والخيال أنواع[1] يهمّنا منها هنا التخيل الإنشائي أو الابتكاري، وذلك لما لَه من علاقة وثيقة بالعمل الأدبي، والتخيل الابتكاري هو في حقيقته إبداع صور لا واقع لها وإنما يُرَكِّبُها الخيال كاستحضار صورة حيوان رأسه رأس طائر وجسمه جسم سمكة، فالجمعُ بين الصورتين هو عملية التخيل، لأنّ الصورة المستحضرة غير مألوفة في عالم الواقع، وهذا التخيل الابتكاري أو الإنشائي أو الاختراعي[2].

أما التخيل بمعناه العام: فيعني استحضار صور ذهنية لمدركات حسية على سبيل الإطلاق، أي: سواء أسبق إدراك هذه الصور إدراكاً حسيًّا في عالم الحقيقة أم لمْ يسبق إدراكها، فالتخيل بمعناه العام ينقسم إلى قسمين: يشمل التخيل الابتكاري السالف الذكر، والتصور: وهو التخيل الاستحضاري ويسمى أيضاً التخيل التذكاري أو التذكري أو التصوري.

وإذن فالصور والأخيلة ما هي إلا تجسيم للأفكار التجريدية، والخواطر النفسية والمشاهد الطبيعية، حسية كانت أم خيالية على أسس من المبادىء الموضحة آنفًا[3].

وما دام عملنا تطبيقيًا في هذه المسألة فلن ندخل في التفاصيل، ونعود إلى الشواعر لِنُبرِز الصور والأخيلة في شعرهنّ.

أ ـ في صدر الإسلام: استعملت الشواعر ـ كالشعراء ـ كلمات المعجم تارة على وجه الحقيقة، وتارة على وجه الخيال، والمتمعن في شعرهنّ يجد تداخلاً بين الحقيقة والخيال الذي تزدحم فيه الصور التي يغلب عليها الطابع النسائي الذي يتسم بالشكوى أو تصوير ضعف المرأة واستسلامها، فإذا هي باكية شاكية في معظم الأحيان حتى في أبعد الموضوعات عن البكاء في شعر الرجال[4].

---

(1) انظر أحمد أمين: النقد الأدبي، ج1، ص: 37 وما بعدها.

(2) الدكتور عبد العزيز عتيق: المرجع نفسه، ص: 72 وما بعدها. وانظر أحمد أمين : المرجع نفسه، ج1، ص: 38.

(3) الدكتور الصادق عفيفي : النقد التطبيقي والموازنات، ص: 150.

(4) الدكتورة مي يوسف خليف : الشعر النسائي في أدبنا القديم، ص: 159.

وهناك نوع آخر من الصور استمددْنَه من خلال مخزونهنَّ الثقافي والمترسب من تقليدهن للشعراء العرب القدماء.

وأكثر ما ترد الصور والأخيلة في الشعر النسوي في منطقة التشبيه والاستعارة بأقسامهما المختلفة «لأنهما وسيلتان من وسائل تزيين المعاني وبهرجتها وتثبيتها في النفوس»[1].

وقد تلجأ المرأة إلى الطبيعة الحية أو الميتة لتستمد منها صورها. ومن أجمل الصور المنتزعة من الطبيعة تلك الصور التي صوّرت بها خزانة بنت خالد بن جعفر جيش الأعداء حين رثت من قُتل من المسلمين في فتوح الحيرة، فشبهت الجيش بالغمام لكثرته، وشبهت شهداء المسلمين بالليوث لدى الهيجاء، قالت:

أيا عينُ جودي بالدّموعِ السّواجمِ ... فقدْ شُرِعتْ فينا سُيوفُ الأعاجِم
حُزناً على سعدٍ وعمرٍو ومالكٍ ... وسعدٌ مُبيدُ الجيشِ مِثل الغمائم
هُم فتيةٌ غُرُّ الوجوهِ أعِزَّةٌ ... لُيُوثٌ لدى الهيْجاء شعثُ الجماجِمِ[2]

لقد خاطبت الشاعرة عينها وسألتها فيضًا من دموعها حزنًا على فتية المسلمين الذين قتلهم الأعداء في فتوح الحيرة، وقد أسعفها في وصفها لِجيش الأعاجم وللفتية التصور والتخيل معاً، فاعتمدت على التصور في قولها: فقد شُرعت فينا سيوف الأعاجم، وفي وصفها للفتية بالشرف وبعزة النفس. واعتمدت على التخيل في تشبيه جيش الأعداء بالغمائم للتدليل على كثرته، وفي تشبيه الفتية بالليوث التي تعبر عن الشجاعة والإقدام والقوة.

ومن الصور الاستعارية النسوية التي تمثل الطبيعة الحية، قول صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة:

فواللّهِ ما أنْسَاكَ ما هبّتِ الصّبا ... بُكاءً وحُزناً مَحْضَري ومسِيرِي
على أسَدِ اللّهِ الذي كان مِدْرَهاً ... يذودُ عن الإسلامِ كلّ كفُورِ[3]

(1) الدكتور يوسف بكار: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري: ص: 398.

(2) ذيل ديوان الخنساء، ص: 146.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص: 167. وابن كثير: السيرة النبوية، ج3، ص: 119. =

لقد استعارت صورة الأسد رمز القوة القاهرة للبطل الشجاع المقدام الذي يذود عن الإسلام، وقد تكرّرت مصطلحات الطبيعة الحية في صورهنّ وأخيلتهنّ. من ذلك ما ورد من صور تشبيهية في شعر هند بنت أثاثة في ردّها على هند بنت عتبة يوم أحد، فقد عمدت إلى تشبيه حمزة بالليث، وعليّ بالصقر لما يمثله هذان الحيوانان من صفات القوة والشجاعة والمضاء، فقالت:

صبّحك اللهُ غداةَ الفجْرِ ... مِلْهاشميّين الطوالِ الزّهْرِ

بكُلِّ قطّاعٍ حُسامٍ يفري ... حمزةُ ليثي وعليٌّ صَقْرِي[1]

بينما وصفت لبانة بنت الحارث الهلالية ابنها خالد بن الوليد بالشجاعة والجود، فجعلته أشجع من ليثٍ وأجودَ من سيلٍ، (راجع ص 176).

ووظفت صفية بنت مسافر أيضاً الليث في صورتها الاستعارية للتدليل عن شجاعة وقوة ابن عمها عقبة الذي قُتل في بدر مُشركا، فقالت:

وما ليْثُ غريفٍ ذو ... أظافيرٍ وأسنانْ

أبو شِبْلينِ وثّابٌ ... شديدُ البطشِ غَرْثانْ[2]

وقد تَجْمعُ الشاعرة مجموعة من الصور الاستعارية والتشبيهية في سياق واحدٍ على أشكالٍ متعدّدة ومتعلقة بشخص واحد، فتخلُقُ جوّا خياليّا خاصّا كما فعلت الإمرأة القريشية يوم فتح مكة تستشفع لقومها لما رأت سعد بن عبادة يلوح براية جنود المسلمين فخافت على قومها فأسرعت إلى رسول الله ﷺ تستعطفه وترجاه أن يمنع قائد المسلمين منْ أنْ يلحقَ بقريش أذًى أو ضرًّا، فاستجاب لها رسول الله. وقد أخذت عناصر صورها من عالم الحيوانات المفترسة لأنها في موقف الخائف من سعد، فوصفته بصور النسر، والعواء، والأسد الأسود، والليث الوالغ في الدماء، والحية الصماء. قالت:

= ومسيري: غيابي. والمدره: الذي يدفع عن القوم. ويذود: يمنع.

(1) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 92. وملهاشِميين: أرادت: من الهاشميين، فحذفت النون من (من) لالتقاء الساكنين، ولا يجوز ذلك إلا في (من) وحدها لكثرة استعمالها. والزُّهر: البيض.

(2) ابن هشام: م. ن.، ج3، ص: 41. والغريف: موضع الأسد، وهي: الأجمة. وغرثان: جائع.

خزرجِيٌّ لو يستطيعُ من الغيْـ ـظِ زماناً بالنَّسرِ والعُوّاءِ
فأنهَيَنْهُ فإنّهُ الأسدُ الأسْـ ـوَدُ والليثُ والغٌ في الدِّماءِ
إنّهُ مُصْلِتٌ يُريدُ لها الرّأ يَ، صمُوتٌ كالحيّةِ الصّمّاء[1]

وإلى جانب هذه الصور والأخيلة المنتزعة في الغالب، من الطبيعة الحية نجد بعض الشواعر يعتمدن في بناء صورهنّ وأخيلتهنّ على الطبيعة الصامتة، فاستعرنَ منها كلمات: (الهلال، السماء، والكوكب، والأرض، والبحر وغيرها) ولا سيما في المدح والغزل والرثاء. من ذلك ما جاء في شعر أم سِنان بنتُ خيثمة الشيعية حين مدحت علي بن أبي طالب، فجعلته كالهلال في السّماء تحفُّه الكواكب.

أمّا هند بنت أثاثة فبكت رسول الله ﷺ فشبّهته بالبدر الساطع يستضيء الناسُ بنوره المجسّد في الوحي، وقد صوّرت رحيله عن أمّته فشبّهته بغياب الغيث وانحباسه عن الأرض، ووردت الأبيات منسوبة إلى غيرها.

واستعارت جارية غزلة أيضاً البدر في شعرها، فقالت تتغزل في محمد بن القاسم:

وكأنَّ نُورَ البدْرِ سُنَّةُ وجْهِهِ يُنْمى ويَصْعدُ في ذُؤابةِ هاشِمِ[2]

أمّا فاطمة بنت النبي ﷺ، فبكت أباها بمرثية ذكرها ابن رشيق وفضّلها على الكميت في رثائه للنبي، فعمدت إلى الطبيعة فاستعارت منها مجموعة كبيرة من الصور وأرادت أنْ تُشركها جو الحزن والاكتئاب الذي يسيطر عليها فأتت بصور تتناسب وحالتها النفسية التي تعاني منها، فالصور لوّنت بالسواد والشحوب، فبعد أن تغير لون السماء وصورتها المعتادة، شاركت الأرضُ باضطرابها وكثرة رجفانها، ثم أوجبت على الناس البكاء، (راجع ص 140).

لقد كانت جلّ الصور والأخيلة في أسلوبهنّ منبثقة من المدارك الحسية،

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية، ج4، ص: 395، والمصلت: الماضي في الأمر.

(2) ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص: 115. اقتبسه الدكتور الخوفي في كتابه المرأة في الشعر الجاهلي، ص: 611.

وكانت حاسة البصر أنشطها في تشكيل الصور، أي: أنهنَّ بصريات اهتمَمْن في أخيلتهنّ بالمرئيات، حيث كان إدراكهنَّ لها واضحاً ودقيقاً ومستوعباً ـ خيال عيني.

أما حاسة السمع فكان لها بعض الحضور في عمل الخيال، كقول عمرة بنت الخنساء في رثاء ولدها الأقيصر بن نشبة (راجع ص 152).

وقد تتعايش حاستان في سياق واحد ، وذلك كتصوير نائلة بنت الفرافصة الركب وهم يحثّون ركابهم نحو المدينة، فشبهت خبيب إبلهم بحثيث الريح الزعزاع في القصب المثقب، وهي تخاطب أخاها ضبّا الذي زوجها عثمان بن عفّان، معبرة بمرارة عن فراق أهلها ووطنها (ص: 217)

لقد جمعت الشاعرة في هذه الصورة المتحركة بين حاستي السمع والبصر، فتشبيه خبيب الإبل وهي تنقل أيامِنَها وأياسِرها في العَدْوُ بزعزاع الرّيح في القصب المثقّب، صورة تُدرك بحاسة السمع على أساس التشابه في الواقع، وتُدرك أيضاً بوسيلة البصر على أساس التشابه في الحركة.

ومن الصور التي تدرك بحاسة الشم ما ورد في شعر امرأة شبّهت النساء بالريّاحين خُلقت للرجال ليشمّوها، وذلك قولها:

إن النّساءَ رياحينٌ خُلِقنَ لكُمْ ... وكُلُّكُم يشتهي شمَّ الريّاحينِ[1]

أما بقية الحواس فتبدو كالمعطلة، إذْ لمْ أعثر على صور تُدرك بحاستي اللّمس والذوق . . .

وإذا انتقلنا إلى علاقة صور المرأة بعالمها، فإننا نجد بين أيدينا شواهد تؤكد تأثرها بعالمها الخاص، كاستعمالها لمصطلحات تدخل في إطار عالم الجواهر والزينة والتنميق، وكذلك توظيفها لصور تتسم بالشكوى والاستعطاف، والندب المثير، ولعل من أكثر الصور إبداعاً والتصاقاً بعالم المرأة ما ورد من صور معبرة في رثاء أمّ حكيم بنت قارظ لولديْها عبد الرحمن وقثم اللّذيْن ذبحهما بسر

(1) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج2، ص: 13.

أرطأة[1] وهي تنظر إليهما، فجزعت عليهما جزعاً شديداً، وصارت لا تعقل ولا تصغي إلى أحد، تطوف في المواسم، وتصف إحساسها ولوعتها وفجيعتها بمصيبتها، (راجع ص 159).

إذ يشكل التكرار ضرباً من الولولة والندب المثير مما لا نظير له في شعر الرجال، بالاضافة إلى ذلك نجد الشاعرة قد وظفت الصور التشبيهية والاستعارية التي اشتقّتها من عالم المرأة توظيفاً حسناً.

ومن هذه الصور التي ترتبط بعالم النّساء تشبيه الدّموع المنحدرة على الخد بالدرّ.

من ذلك ما جاء في الصورة التي رسمتها صفية بنت عبد المطلب لنفسها وهي تذرفُ الدّمعَ على أبيها، فشبّهت دموعها المنهمرة على خدَّيها بمنحَدرِ الفريد، (راجع ص 134).

ونجد للريح الطيبة والمِسكِ والعَنبرِ مكاناً في بناء الصورة الاستعارية، عند شواعر صدر الإسلام، من ذلك ما وجدناه عند أم خالد النميرية حينما بكت ولدها الذي مات غريباً في بعض الغزوات، فصوّرت الريح التي تأتي من ناحيته تحمل معها ريحة العطرة، وتأتي بالمسك والعنبر، وهي من الصور التي تدرك بحاسة الشم، (راجع ص 177).

بالإضافة إلى الصور الشعرية المعتمدة على التشبيه والاستعارة نجد الشواعر يستخدمن الرمز وهو «الكناية التي تتميز بشيئين: قلة الوسائط وخفاء المدلول. فهو درجة من الكناية قصوى ليست بعيدة عن اللغز أحياناً»[2].

وسنُطلق مصطلح الرمز في بحثنا على كل كناية استعملتها الشواعر وقامت على لفظ أو عبارة الرمز بها متعارف أو مصطلح عليه.

ومن كنايات الشواعر التكنية عن الشجاعة والجرأة بنفي رعشة الجَنان ورعشة

---

(1) انظر الخبر بالتفصيل في الأغاني، مج16، ص: 199 وما يتبعها.

(2) محمد الهادي الطرابلسي: خصائص الأسلوب في الشرقيات، ص: 220.

اليد كما في رثاء أسماء بنت أبي بكر لزوجها الزبير بن العوام لّما قتله عمرو بن جرموز وهو منصرف من وقعة الجمل، (راجع ص 175).

أو تُكنّي عن الشجاعة أيضاً بحمّال ألوية، ركّاب أفْراس كما في قول نعم بنت حسّان بن ثابت في بكاء زوجها شمّاس بن عثمان المخزومي الذي استشهد يوم أحد (راجع ص 81).

ومن رموزه كذلك كنايتهنّ عن الرفعة والعلو وعزة النفس بلفظ «العرانين» أي: الأنوف على نحو ما قالته أروى بنت الحارث بن عبد المطلب في رثاء أبيها:

مِن الذين متى ما تغشَ ناديهُمْ تلْقَ الخضارمةَ الشمَّ العرانِينِ[1]

وللشّواعر رموزٌ أخرى متنوعة، منها رمز نائلة بنت الفرافصة إلى فقد زوجها عثمان، لما قُتل، بعبارة «ضياع ثوبي» لأن الزوج سَتْر كالثوب، (راجع ص 95).

أمّا زينب بنت العوام فرمزت إلى الكرم «بِطلْقِ اليَدَيْنِ» حين بكت ولدها عبد لله الذي قتل يوم الجمل، وقد وصفته بالكرم، (راجع ص 94).

ب ـ في عصر بني أمية: أما شواعر بني أمية، فاستعملن هنَّ أيضاً كلمات المعجم تارة على وجه الحقيقة، وتارة على وجه الخيال، لأنّ الأسلوب يتحدّد أدبيًّا بجملة من الأمارات تدل على التجاوز من حدّ الإبلاغ إلى حد البلاغة، أي: من مجرد الإعلام بمألوف القول إلى غرض التأثير بالكلام المفتن[2]، ويدخل هذا التجاوز في نطاق الصور والأخيلة المعتمدة على التشبيه والاستعارة والرمز.

والصور والأخيلة في شعرهنّ تعجّ بالصيغ البيانية المتداولة منذ العصر الجاهلي، ونلاحظ أنّ جُلّ الصور المجازية في أسلوبهنّ منبثقة من المدارك الحسية. وأنّ حاسة البصر أنشطها في تشكيل الصور، وقد بدا ذلك واضحاً في العدد الكثير من التشبيهات، والاستعارات، والكنايات التي تناثرت في ثنايا شعرهنّ. من ذلك ما ورد في مدح ليلى الأخيلية لابن مطرّف وبشير بن عامر من

---

(1) طيفور: بلاغات النساء، ص: 258.

(2) توفيق بكار: محاضرات في الأدب الحديث ألقاها على طلبة الماجستير بجامعة عنابة في العام الجامعي: 81/ 1982، ص: 9.

صور، فقد استعانت في جانب منها ببعض مرئياتها ومشاهداتها، فعينُها وقعت على البرق اللامع فأوحى لها سناؤه بصورة تشبيهية بديعة، إذ شبّهت نار قِرى الممدوحين شتاء وكأنها سنا البرق اللامع يبدو للعيون من بعيد لقوّته ولمعانه. كما جعلتهما غيثاً يفيض نداهما (ص: 232).

وكذلك نلاحظ أنّ ليلى الأخيلية تخاطبُ عينها راجية منها البكاء بغزارة على توْبة، وقد شبّهتْ كثافة دموعها بفيض جدول تفجّرت مياهه حتى فاضت، (راجع ص 234).

وشبهت الحجاج بن يوسف بسنان الحرب في الحدة والمضاء، وجعلته قمراً يضيء للناس الطريق خلال الظلام الحالك، (راجع ص 298).

ومن الصور الطريفة التي تمثل الطبيعة بمظهرها: الحية والصامتة، قول ليلى الأخيلية تصف توبة لمعاوية:

وكان كليْثِ الغَابِ يَحْمي عرِينَهُ وترْضى بِهِ أشْبالُهُ وحلائلُهْ[1]

وهذه الصور والخيالات المنتزعة من الطبيعة بنوعيها كثيراً ما تتكرّر عند الشاعرة، وعند غيرها من الشواعر. من ذلك ما ورد في وصفها لسرعة الخيل، وقد شبّهتها بسرعة الذّئابِ، قالت:

يقودُونَ قُباً كالسّراحين لاحَهَا سُراهُمْ، وسيْرُ الرّاكِبِ المُتَهَجِّرِ[2]

وكذلك الشأن في هذا البيت الذي رثت فيه سلامة القَسّ يزيد بن عبد الملك، فشبهته بالليث. قالت:

وهْوَ كاللَّيْثِ إذا ما عُدَّ أصْحابُ الدّروعِ[3]

وقد عمدنَ إلى التشبيه بالأسد في العديد من المرّات «لِما يُمَثّلُه هذا الحيوان من صفات الحرب مثل الشجاعة والإقدام، ومن الصّفات الأرستقراطية مثل

---

(1) الأصبهاني: الأغاني، مج11، ص: 223.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج11، ص: 218، والقُب: الخيل الدقاق الخصور. والواحد: أقب وقباء. والسراحين: الذئاب، واحدها: سرحان. ولاحها: غيّرها، والسري: سير الليل. والمتهجّر: الذي يسير في الهاجرة وهي نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج8، ص: 348.

الجلالة والقوة والأصل الشريف»[1]. وقد احتلّ الدّرجة الأولى في الشيوع في أخيلتهن المنتزعة من الطبيعة الحية. وإلى جانب تلك الصور التشبيهية المذكورة نجد أم عمران الخارجية تشبه ابنها في المعركة ضد أعدائه بالأسد الشديد الفرس والكسر.

أمّا حميدة بنت النّعمان فهجتْ زوجها الفيض بن محمد، فشبّهته بليث الليوث متهكمة به، فهو يستأسد على زوجته وقت السلم، ولكنّه في الحروب جبانٌ، هيوب الصّدر، روّاغ، قالت:

لَيْثُ اللّيُوثِ عَلَيْنا باسِلٌ شَرِسٌ   وفي الحُروبِ هَيُوبُ الصّدْرِ جَيّاضُ[2]

قد يرِدُ المشبَّهُ به كلباً كما في هذه الصورة التي شبّهت فيها شاعرة أموية زوجها بكلب السّوء حين هجته، فقد كان يحضر طعام الحجّاج ويترك زوجته جائعة، فضيّعها، وسمن هو، قالت:

فَأنتَ كَكَلْبِ السُّوءِ ضَيّع أهْلَهُ   فيهْزَلُ أهْلُ البيْتِ وهْوَ سمِينُ[3]

وأما الطيور فقد ورد ذكرها كمشبّه به أيضاً في شعرهنّ. من ذلك ما نجده في هجاء شاعرة أموية لزوجها الشيخ الذي شبّهت مشيته بمشية الفُروخ، لضعفهِ وتثاقله في مشيته، وقد استمدت صورتها من بيئتها، فقالت:

مَالِي وللشّيوخِ   يمشُون كالفُروخِ[4]

ومن هذا القبيل قول أخت عمرو بن الأشدق، في رثاء أخيها الذي قتله عبد الملك بن مروان، في تشبيه بني أمية بخَشاشِ الطير اجتمعن على صقر:

كأنَّ بني مرْوانَ إذْ يَقْتُلُونهُ   خشاشٌ مِنَ الطّيْرِ اجْتَمَعْنَ على صقْرِ[5]

---

(1) حمدان حجاجي: حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، ص: 307.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج9، ص: 223. والجياض: الرواغ. وفي رواية طيفور: الحياض: من حاضت المرأة إذا سال دمها.

(3) عبد البديع صقر: شاعرات العرب، ص: 409.

(4) الزبيدي : تاج العروس، ج7، ص: 323.

(5) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج3، ص: 449.

ومن أجمل الصور، في شعرهنّ، الصورة الآتية التي شبهّت فيها ريحانة قرّاء القرآن وهم يميلون بأغصان الأشجار وهي تميل من الأرياح، قالت:

يَمِيلُونَ كما مالَ ... مِنَ الأرْياحِ أغْصانُ[1]

ومن تشبيهاتهنّ أيضاً تشبيه حرارة الصّدر بحرارة الجمر، كما في رثاء مليكة الشيبانية للضّحاك بن قيس الخارجي وأصحابه:

ومرارةً في العَيْشِ دائمَةً ... وحرارَةً كحرارَةِ الجَمْرِ[2]

وقد كان للصورة المستوحاة من الطبيعة الحية الحظ الأوفر في شعرهنّ، وكانت أغلب صورهنّ منبثقة من حاسة البَصر، أي: أنهنّ بصريات اهتممن في أخيلتهنّ بالمرئيات.

أمّا حاسة الشمّ فلها بعض الحضور في عمل الخيال، من ذلك ما ورد في هجاء حميدة بنت النعمان لزوجها الحارث بن خالد المخزومي ولأهل الحجاز، فجعلت لهم صُناناً كصُنان التيوس المعروفة بنتانة ريحها، (راجع ص 283).

وهجت ابنة يزيد الحنفي زوجها قتادة بن مغرب، فصورته تصويراً كاريكاتورياً حين عمدت إلى الهجاء الحسي، فرمتهُ بالبَخَر: إنّ فمه بخر ونتن، وقد أفسد عليها آلة الشمّ. كما جعلته لا يفرق بين رائحة جيفة الخنزير ورائحة المسك والغالية، (راجع ص 293).

وقد وردت بعض الصور التشبيهية المعنية بخصائص الأصوات، أي التخيل بوسيلة الأذن على أساس التشابه في الواقع. من ذلك قول ليلى الأخيلية تصف ناقتها، وقد شبّهت دوي صوتها الناجم عن العياء بترنم ذكر النحل الذي يسود النحل:

يظلُّ لأعلاها دويٌّ كأنّهُ ... ترنُّمُ قاري بيْتِ نَحْلٍ مُنَوّبِ[3]

---

(1) النيسابوري: عقلاء المجانين، ص: 166.

(2) المزرباني: أشعار النّساء، ص: 197.

(3) المزرباني: أشعار النساء، ص: 42.

أما بقية الحواس الأخرى فتبدو كالمعطّلة.

وإلى جانب هذه الصور التشبيهية، نجد الشواعر يستعملن أيضاً الصّور الاستعارية. ومن شواهد ذلك قول ليلى الأخيلية تمدح معاوية مستعيرة صورة السحاب الذي يبدو بخيلاً أمام الممدوح:

وكُنتَ المُرتجى وبِكَ استغاثتْ ... لِتُنْعِشَها إذا بَخِلَ السَّحابُ[1]

وجعلت الرّماح تبكي إذا فقدت أكُفّ قومها على سبيل الاستعارة، فوظفّت تلك الصورة الطريفة في مجال الفخر للتّدليل على شجاعتهم، فقالت:

وتَبْكي الرّماحُ إذا فقدْنَ أكُفَّنا ... جزَعاً وتعْرِفُنا الرِّفاقُ بُحُورا[2]

وفي صور أخرى استعارت الندى للتدليل على كرم وجود توبة، فصوّرت كفّه تحلب الندى، فقالت:

أغرَّ خَفاجِيًّا، يرى البُخْلَ سُبّةً ... تحَلَّبُ كفَّاهُ النّدى وأنامِلُهْ[3]

وكذلك استعارت صورة السهم للمنايا، فقالت:

وما نِلْتُ مِنْكَ النّصْفَ حتَّ ارتمتْ بِكَ الْـ ... ـمنايَا بِسَهْمٍ صَائبِ الوَقْعِ أعْجَفِ[4]

أما عائشة العثمانية فصوّرت الزّمان ساقيًا يأتي بالحلو والمُرّ على وجه الاستعارة، فقالت:

إنَّ الزمانَ سَقَانَا مِنْ مَرارَتِهِ ... بعْدَ الحلاوَةِ أنْفاساً فَأرْوانا[5]

بالإضافة إلى الصور التشبيهية والاستعارية نجد الشواعر يعتمدنَ في بعض صورهنّ على الكناية والرّمز كأنْ تُكَنّي الشاعرة عن الكبر بالدبيب على العصا كما في قول ليلى الأخيلية:

---

(1) الحصري: زهر الآداب، ج4، ص: 1002.

(2) الأصبهاني: الأغاني، مج11، ص: 226.

(3) الأصبهاني : م. ن.، مج 11، ص: 223.

(4) الأصبهاني : م. ن.، مج 11، ص: 224.

(5) الدكتورة مي يوسف خليف: الشعر النسائي في أدبنا القديم، ص: 164.

نـحْـنُ الأخـايِـلُ لا يـزالُ غـلامُـنـا　　حتّى يـدِبَّ علَى الـعَصا مَذْكـورا[1]

ومن رموزها كذلك كنايتُها عن الكرم بلفظ «بعيد الثرى» في قولها:

بـعـيـدُ الـثـرى لا يـبـلـغُ الـقـوْمُ قَـعْـرَهُ　　ألـدُّ مُـلِـدٌّ يـغْـلِـبُ الـحـقَّ بـاطِـلُـهْ[2]

وكنَّت عن الغضب والغيظ بعبارة «والموت يحرِقُ نابه»، قالت:

فـأنـقـذتَـهُ والـمـوْتُ يـحـرُقُ نَـابَـهُ　　عـلَـيْـهِ، ولَـمْ يُطْعَـنْ ولَـمْ يُـتَـنَـسَّـفِ[3]

ومن هذا القبيل رمزها إلى قوة وشجاعة توبة بجملة «لا يُسْقِط الرّوْعُ رُمْحَهُ» كما في هذا البيت:

قَـتَـلْـتُـمْ فَـتًـى لا يُـسْـقِـط الـرّوْعُ رُمْـحَـهُ　　إذا الـخـيـلُ جَـالَـتْ في قَـنـاً مُـتَـكَـسِّـرِ[4]

ومن رموزهنّ كذلك كناية مليكة الشيبانية عن الكرم بعبارة «سمح اليدَيْنِ، بسط البنان» في قولها تبكي أخاها:

ويــكُــفُّ الأذى ويَــبْــتَــدِلُ الــمــعْــ　　ـرُوفَ سَمْحَ اليَدَيْنِ، سَبْطَ البَنَانِ[5]

خلاصة: تلك أهم الصور والأخيلة التي تبدو عند قراءة الشعر النسوي في هذه الفترة، وقد حوت كثيراً من الأنماط التشبيهية والاستعارية والرمزية، ولم يتخلّ الشواعر عن الصور والأخيلة القديمة، فجئن بكثير منها، ولاءمْنَ بعضها مع عالمهنَّ الخاص، فاستعملن مصطلحات نسوية تدخل في إطار عالم الجواهر والزينة والتنميق، ووظّفن صوراً تتّسم بالشكوى والاستعطاف والندب المثير.

وتجدر الإشارة أوّلاً أنّنا لا نستطيع أنْ نُحصي كلّ الصور والأخلية التي استعملتها الشواعر، وإنّما أشرنا إلى ما عساه تكون فيه الكفاية، وقد استنتجنا من خلال ذلك ما يأتي:

---

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: مج2، ص: 1609.

(2) الأصبهاني: م. ن.، مج 11، ص: 222.

(3) الأصبهاني: م. ن.، مج 11، ص: 224.

(4) الأصبهاني: م. ن.، مج 11، ص: 219.

(5) الدكتور إحسان عباس: شعر الخوارج، ص: 238، وسبط اليدين: سخي.

1 ـ أنّ صورهنّ على نوعين: واقعية تصور الأمور على حقيقتها، وصور خيالية تمثلها بطريقة المجاز.

2 ـ وأنّ أغلب الصور والأخيلة في شعرهنّ منبثقة من المدارك الحسية، وأنّ حاسة البصر أنشطها في تشكيل الصور، أي أنهنّ بصريات اهتممن في أخيلتهنّ بالمرئيات. وكان لحاستي السمع والشم بعض الحضور.

3 ـ وكان للصور والخيالات المنتزعة من الطبيعة بمظهريها: الحية والصامتة، الحظ الأوفر في تشكيل الصور. وقد احتل الأسد الدرجة الأولى في الشيوع في أخيلتهنّ المنتزعة من الطبيعة الحية . . .

وبعد هذه الإلمامة بالناحية الفنية من حيث الشكل، وبعد أن تعرض هذا الفصل لبناء القصيدة النسوية، وللأوزان والقوافي، والألفاظ والأساليب، والصور والأخيلة. وكان قد تناول هذا البحث بالدّراسة فيما تقدّم من فصول الناحية الموضوعية، يكون قد وصل إلى نهاية المطاف .

الخاتمة

في الختام، يمكن أن نشيرَ في إيجازٍ إلى أهم المحطّات التي تَوَقّفنا عندها خلال البحث، وأهم النتائج التي توصلنا إليها .

فقد تناولنا، في هذا البحث، بالدراسة فيما تقدم من فصولٍ شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي.

وانتهينا من خلال ذلك إلى نتائج مهمة أسفر عنها البحث، ولكنه من غير المتيسر في هذه العجالة الإلمام بمختلف النتائج التي توصلنا إليها، وبجميع المسائل التي عالجناها، فهي متنوعة وكثيرة، ومتناثرة في غضون البحث، ولكننا سنذكر أهمها فيما يلي:

1 ـ كان الشعر النسوي قويًا مزدهراً في صدر الإسلام والعصر الأموي، فقد شاركت المرأة الرجل في قرض الشعر، وسايرته في معظم الأبواب المعروفة آنذاك كالرثاء، والغزل، والفخر، والمدح، والهجاء، وغيرها . وكَمَا نظمت أيضاً عدداً غير قليل من القصائد والمقطوعات في الأحداث السياسية التي وقعت في صدر الأسلام والعصر الأموي .

2 ـ غير أن شعر الرثاء كان أكثر الأغراض تداولاً لدى الشواعر، ومردّ ذلك إلى كون المرأة أسرع إلى إظهار الحزن والتعبير عنه، وتصوير انفعالاتها وجزعها، فالرثاء أقرب إلى نفسية المرأة التي تُعدُّ أرهف إحساساً وأرق عاطفة وشعوراً من الرجل. وينقسم رثاء الشواعر قسمين: قسم يتناول الأشخاص، كرثاء الآباء والأبناء والأخوة والأزواج والأقارب والشهداء والعشيرة والخلفاء والأمراء وغيرهم. وقسم يتناول رثاء المدن، وهو نوع جديد لمْ يألفه العرب من قبل، ومن أروع ما قيل في هذا الباب قصيدة عائشة العثمانية في مكة المكرمة، ترثي سكانها

وعمرانها، وقد سلف ذكرها. ولعل هذه القصيدة أول ما وصلنا من الشعر المشرقي في بكاء المدن، فقد نَظَمتها الشاعرة أثناء الحوادث التي ألمّت بمكة من عام 63 إلى عام 73 للهجرة.

3 ـ لاحظنا أن رثاء الشاعرات المشركات في صدر الإسلام ظل على ما كان عليه في الجاهلية من أفكار ومعان ترتبط بالندب والتأبين والتعزية، فكن يشدن بفضائل المرثي من كرم وشجاعة وحماية الضعاف واليتامى وكرم الأصل والنسب ونجدة الملهوف، إذ نسجن شعرهنَّ على نظام القصيدة الجاهلية، فاستعملن الكثير من الألفاظ الوعرة والمعاني الغامضة لأنَّ شواعر الكفار ما يزلن يعشن جاهليتهنّ، ولم تتأثر حياتهن بمختلف التغيرات الحياتية الجديدة التي أحدثها الإسلام.

4 ـ أما شواعر المسلمين في صدر الإسلام والعصر الأموي، فيبدو في رثائهن بالإضافة إلى التفجع والحزن أثر الإسلام، والصبر على قضاء الله، وقوة الإيمان، والتأثر بالقرآن الكريم، وقد لا يظهر هذا التأثر أحياناً لدى بعض الشواعر لحداثة عهدهن بالإسلام، فظل رثاؤهن ـ هن أيضاً ـ أقرب إلى رثاء الجاهليين. كما أن أساليبهن، في الغالب، قد سلست ورقت بفضل معينين فياضين، وهما: القرآن الكريم والحديث الشريف. وقد بدأ التأثر بهما في صدر الإسلام لكنه كان ضَئِيلاً حينئذٍ لقرب العهد بالعصر الجاهلي.

5 ـ وقد شاعت في رثائهن النزعة السياسية، فكان رثاؤهن أحياناً ذا طابع حزبي سياسي. فقد سبق أن أوضحنا أنه كان للمرأة دور هام في الأحداث السياسية منذ بداية الدعوة الإسلامية، فقد كان منهن المناصرات للإسلام والمسلمين، ومنهن من وقفن في وجهه يهجون المسلمين ويدافعن عن الشرك والمشركين. كما كان من بين المسلمات من تشيعن لعلي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، ومن ناصرن معاوية بن أبي سفيان، ومن وقفن بجانب الخوارج. وكان هؤلاء وأولئك يرثين كل من يقتل من شيعتهن. وقد ابتعدت الشاريات في رثائهن ـ في الغالب ـ عن أسلوب الرثاء في الشعر العربي القديم والذي هو تعبير عن الفاجعة والتحسر واللوعة لفقد قريب أو عزيز أو صاحب فضل، مع ذكر مآثره

ومناقبه، فالشاريات عادة يذكرن في مراثيهن الشراة الذين يتشوقون إلى الموت في ميدان الجهاد ويستهينون بالدنيا المليئة بالشر، ويرغبون في الآخرة الحافلة بالخير.

6 ـ أما الغزل الذي وصل إلينا من شواعر صدر الإسلام، فقليل، ولعل مردُّ ذلك إلى تشدد الخلفاء الراشدين تجاه الشعراء والشواعر خوفاً من فساد الأخلاق. وقد مرت معنا قصة نصر بن الحجاج الذي نفاه عمر بن الخطاب إلى البصرة بمجرد أن لهجت بذكره الشاعرة فريعة بنت همام الذلفاء في أبيات أنشدتها تمنت فيها وصاله. والغزل في هذا العصر، في جملته، غزل عذريّ نقيٌّ طاهر. غير أن الغزل عرف اذدهاراً كبيراً في العصر الأموي، وهو يحتل المرتبة الثانية، بعد الرثاء، في شعر الشواعر، ولا غرابة في ذلك فهن من شواعر هذا العصر الذي كثر فيه الغزل كثرة مفرطة، وتعددت اتجاهاته تعدُّداً لمْ يعرف له مثيل في أي من عصور أدبنا العربي، وكان ذلك كله بسبب تحرر المرأة أكثر، وكذلك بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان لها النصيبُ الأوفر في إفراز تيار الغزل العفيف والماجن. وينضوي غزلهن تحتهما، أي: غزل العفاف والترفع، وغزل المجون والشهوة. ويمثل الاتجاه الأول الشاعرات: ليلى العامرية، وامرأة يزيد بن سنان، وعقيلة بنت الضحاك، وسلامة القس، وغيرهن. ويمثل الاتجاه الثاني: خيرة أم ضيغم البلوية، وأم خالد الخثعمية، وستيرة العصبية، وحمادة الهمذانية، وغيرهن.

وكان الغزل في المؤنث أو الجنسية المثلية كما عند حمادة من أجدّ الموضوعات في العصر الأموي بغضّ النظر عن المعايير الأخلاقية فيه. وهذه الظاهرة لمْ تكن معروفة لدى شاعرات صدر الإسلام والعصر الجاهلي، مما يدل دلالةً واضحة على بداية انحلال المجتمع في عصر بني أمية.

7 ـ أما الهجاء، فلم تقم له سوق رائجة في صدر الإسلام إذا استثنينا ما ورد منْهُ في شكل نقائض بين شواعر المسلمين وشواعر المشركين، أو بين الشعراء والشواعر، وكانت أوّلُ مناقضة بعد موقعة أحد بين هند بنت عتبة، وهند بنت أثاثة، وقد سلف ذكرها. وفيها تتشفى هند بنت عتبة بما أصاب المسلمين

يوم أحد فتردُّ عليها هند بنت أثاثة فتهجوها وتسب أباها الذي قتل في بدر كافراً، وتدعو له بالخزي والعار. غير أن الهجاء عرف رواجاً في العصر الأموي نظراً لضعف الوازع الديني لدى الشواعر، وكذلك كثرة المثالب والفجور والمفاسد وقلة ضوابط الجد في المجتمع الأموي. كل ذلك كان مشجعاً لهنَّ، فكان نصيبهن منْهُ كبيراً، وقد احتل المرتبة الثالثة في شعرهنَّ. والغريب في الأمر أن هجاءهن ـ في الغالب ـ يتسمُ بالبذاءة والفحش والإقذاع والسباب والتهكم والاستهزاء، والتصوير الكاريكاتوري للمهجو، ومن الشواعر اللآئي اشتهرن بهذا النوع من الهجاء: حميدة بنت النعمان بن بشير، وليلى الأخيلية، وميسة بنت جابر، وغيرهن.

8 ـ وقد افتخرت المرأة الشاعرة في صدر الإسلام والعصر الأموي وكان فخرها بقومها تارة، وبشجاعتها تارة أخرى، وتميزت عن الشاعرة الجاهلية التي لمْ يكن فخرها بنفسها، وإنما كان إشادة بقبيلتها وأقاربها. أما الشاريات ففخرن بصفات الإيمان والتقوى والصلاح، والشجاعة النابعة من إيمانهن العميق .

9 ـ وطرقت الشاعرة الأموية الشعر الصوفي، ومن اللآئي اشتهرن به رابعة العدوية التي تُعد من أوائل المتصوفة المسلمين، وإليها ينسب مؤرخو الصوفية البدء بالكلام عن الحب الإلَهي، وهناك شاعرات أخريات متصوفات معاصرات لرابعة، كريحانة، وميمونة، وغيرهما.

10 ـ كانت هذه مميزات أهم الأغراض الشعرية التي غلبت على الشعر النسوي في هذه الفترة، غير أن شعرهنَّ يحتوي على أغراض أخرى وفنون شتى من القول تتفاوتُ أهمية كالمَدْحِ، والحكمة والحنين إلى الأوطان والتحريض على القتال، وغيرها.

11 ـ أمّا من الناحية الفنية، فلاحظْنا أن هناك ظواهر فنية بارزة طبعت الشعر النسوي في صدر الإسلام والعصر الأموي، تتمثل في بناء القصيدة النسوية، وفي الأوزان والقوافي، وفي الأساليب والألفاظ، والصور والأخلية.

12 ـ ففيمَا يتعلقّ ببناء القصيدة النسوية، لاحظنا أن الأغراض في شعر

النساء لَمْ تكن متداخلةً مثلما هو معروف عند الشعراء من اختلاط المديح بالغزل، أو الفخر بالهجاء . . . وهكذا. ولعل ذلك يعود إلى أن أغلب شعرهنَّ قصائد قصيرة ومقطعات وأبيات، ولم يعرف عنهن إلا بعض القصائد الطويلة، ولذلك كُن يدخلن في الموضوع مباشرة دون مقدمات طللية أو غزلية. والمرأة معروفة بقصر نفسها منذ الجاهلية، وبحرصها على الوحدة الموضوعية والنفسية في شعرها. والمطولات في شعر النساء ليست من الكثرة كما هي عند الرجال بعامة. وأطول قصائد النساء على الإطلاق رائية ليلى الأخيلية التي مطلعها:

نَـظَـرْتُ وركْـنٌ مـن ذِقَـانَـيْـنِ دُونَـهُ مَفَاوِزُ حَوْضي أي نظرة ناظرِ؟[1]

فعدَدُ أبياتها بلغ ثمانية وأربعين بَيتاً، بينما أطول قصائد الخنساء قصيدتها التي مطلعها:

قَذًى بِعَيْنيك أمْ بالعَيْنِ عَوَّارُ أمْ ذَرَّفَتْ إذْ خَلَتْ مِنْ أهْلهاَ الدارُ[2]

بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتاً، وبعض أبياتها غير مقطوع بنسبه إليها[3]، ولذلك لَمْ يصدق أحمد الحوفي حين قال: إن الخَنساء زعيمة النساء في طول القصائد[4]. وغلبة المقطعات على شعر النساء لا يطعن في شاعريتهن، لأن مسألة الطول والقصر في الشعر لا علاقة لهما بالشاعرية أو بالجودة، فقد تطول القصيدة وتكون رديئة، وقد تقصر القصيدة أو القطعة وتكون جيدة.

13 ـ أمّا من ناحية الأوزان والبحور، فقد تجلى لنا، بعد الإحصاء، أن الشواعر لَمْ ينظمن في جميع البحور، حيث لَمْ نعثر على شعر لهُنّ في ستة من البحور، تلك هي: المديد، والمنسرح، والمضارع، والمقتضب، والمجتث، والمتدارك. أما بقية البحور التي نَظَمْنَ عليها، فقد وردت في أشعارهنّ بنسب متفاوتة، وقد قمنا بترتيبها حسب تردادها ووضعنا لها جدولاً أوضحنا فيه سلم

(1) انظر القصيدة كاملة في ديوانها، ص: 77 ومابعدها.

(2) انظر القصيدة كاملة في ديوانها، ص: 24 ومابعدها.

(3) الدكتور أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، ص666.

(4) الدكتور أحمد الحوفي: المرجع نفسه، ص: 556.

التردد الذي توزعت فيه. فوجدنا أن الطويل يحتل المرتبة الأولى لدى شواعر صدر الإسلام، يليه الكامل، فالرجز، ثم الوافر، فالبسيط، فالسريع، ثم الخفيف، فالهزج، فالمتقارب، وأخيراً الرمل. أما شاعرات العصر الأموي، فالطويل أيضاً يحتل المرتبة الأولى، يليه البسيط، فالكامل، فالوافر، فالرجز، فالمتقارب، فالخفيف، فالسريع، فالرمل، وأخيراً الهزج.

14 ـ أما عن علاقة الأوزان بالأغراض، ونعني بذلك: أيقتضي كل غرض أنْ يأتي على وزن وفي بحر محدد أمْ أن الغرض الواحد قد يساق على أكثر من وزن؟ فقد اختلف النقاد العرب القدماء والمحدثون في هذه المسألة، وهي من القضايا النقدية المعقدة التي لما يستقرَّ فيها النقد على رأي أو قرار. ومهما يكن من أمر فإنَّ الشواعر قد نظمن على كل بحر أغراضاً متعددةً، وأنَ الدارس لا يكاد يشعر بالربط بين موضوع الشعر ووزنه إلا في بعض الحالات التي يبدو أنها جاءت عرضاً، وقد تبين من الإحصاء ما يلي:

أ ـ أنَّ شواعر صدر الإسلام والعصر الأموي طرقن غرض الرثاء في الغالب على البحر الطويل يليه الكامل فالبسيط .

ب ـ ونَزعت شواعر عصر بني أمية إلى طرق موضوع الغزل على الطويل يليه الوافر فالبسيط.

ج ـ وطرَقْنَ موضوع الهجاء على بحر الطويل يليه البسيط فالرجز فالوافر فالمتقارب.

د ـ ونزعن إلى طرق شعر التصوف على بحر الطويل فالكامل ثم الوافر.

هـ ـ وطرقت شواعر صدر الإسلام الفخر والغزل على بحر الكامل يليه البسيط فالوافر فالسريع.

15 ـ ولما درسنا القوافي بَدَا لنا أن الشاعرات اجتنبن القوافي الحوش والنفر إلا فيما ندر، وتخيرن منها الذلل، فكان أغلب شعرهنَّ على قوافي الراء بالدرجة الأولى، والباء بالدرجة الثانية، ثم اللام، فالميم، فالدال، فالنون، فالياء. وقمنا بإحصائية دقيقة لقوافي الشاعرات حسب تواترها في أشعارهنّ فوجدنا أن أغلب

أشعارهنّ على القافية المطلقة، وكانت أعلى نسبة منها على مجرى الكسرة، ثم الضمة، فالفتحة. وقد عثرنا في شعرهنَّ على بعض العيوب في قافيته، منها الإيطاء والإقواء، وقد أشرنا إلى هذه العيوب في مكانها.

كما لاحظنا عند بعض الشواعر محاولات تجديدية في القوافي لمْ تجر العادةُ بمثلها عَصْرَئذٍ كالتحرر من القافية الذي وجدناه عند الشاعرة ابنة أبي مسافع في مقطوعتها التي بكت فيها أباها الذي قال يوم بدر وهو يحمي جيفة أبي جهل.

16 ـ ثم نظرنا في علاقة القوافي بالمعاني، فوجدنا أن الشاعرات نظمن جميع المعاني على أغلب القوافي، ولم يقيدن قافية بغرض معين، وهكذا كان الشعراء العرب.

17 ـ وقد درسنا أساليبهن حسب المُسْتَوَيَيْن: المعجمي، والبلاغي (الصور والأخيلة):

وأول ما لاحظناه، أن أشعارهنَّ في الجملة تخضع لقاعدة الوحدات الثلاث: وحدة البحر، وحدة القافية، ووحدة البناء في شكل عمودي.

وأنَّهُنَّ نَظَمْنَ على أربعة أنواع من الأساليب، وهي: الجزل، والسهل السلس، والسوقي، والحوشي.

ولاحظنا أنَّ أغلب شعرهنَّ في المدح والفخر والرثاء نظم بأسلوب جزل وبلغة قوية.

وأن أكثر شعرهنَّ في الغزل والاستعطاف والحنين إلى الأوطان قيل بأسلوب سهل سلِس، وبلغةٍ رقيقةٍ عذبةٍ.

وأن أغلب شعرهنَّ في الهجاء والغزل الإباحي، وترقيص الأطفال، نُظم بأسلوب سوقي، وبلغة ركيكة مستهجنة.

وقد شمل الأسلوب الحوشي جلَّ الأغراض الشعرية التي نظمن عليها، ولا سيما أساليب شواعر قريش اللَّائي حافظن على استعمال الغريب، ولم يحاولن تحرير أساليبهن من الخشونة والحوشية والغرابة مما درجوا عليه في العصر الجاهلي .

18 ـ ولما تصدّينَا للمصطلحات والألفاظ وجدناها تنتمي إلى أودية شتى، وتتوزع عليها بنسبٍ مُتفاوتةٍ، وهذه أهم المصطلحات التي استعملتها الشواعر: فقدِ اتَّضَحَ لنا بعد إحصائها أن المصطلح السياسي يأتي في الدرجة الأولى، وهو متوفرٌ إلى حد كبير يجسّمُه عدد وفير من المفردات، ويليه المصطلح الديني، فالمصطلح الأخلاقي، فالمصطلح الاجتماعي الذي تندرج تحته ثلاث مسائل هامة ظلت الشغل الشاغل للشواعر، وهي الحب ومشتقاته، والزواج وتربية الأبناء، والكرم . . .

وهناك مصطلحات وتعابير نسوية ساهمت بقسط في تكوين مادة الشعر النسوي، كاستعمالهن للألفاظ التي تدل على قوة المشاعر والعواطف والانفعالات. كما يكثر في شعرهنَّ تردد كلمات النواح والبكاء مِمَّا لا نظير له في شعر الرجال.

ويغلبُ على رثائهن الاستهلال بالبكاء، وتكرار مطالع قصائدهن، وقد فصلنا الحديث في هذه المسألة في موضعها.

19 ـ وعند تعرضنا إلى المستوى البلاغي أو الصور والأخيلة ، تبين أن الشواعر يستعملن كلمات المعجم تارة على وجه الحقيقة، وتارة على وجه المجاز، وأنهن استخدمن صوراً وأخيلة من القديم، وفي مقدمتها الاستعارة والتشبيه بأقسامها المختلفة.

ومن خلال دراستنا لصورهن وأخيلتهن لاحظنا ما يلي:

أ ـ أن أغلب الصور والأخيلة منبثقة من المدارك الحسية، وأن حاسة البصر أنشطها في تشكيل الصور، أي: أنهن بصريات اهتممن في أخيلتهن بالمرئيات. وكان لحاستي السمع والشم بعض الحضور. أما بقية الحواس، فتبدو كالمعطلة.

ب ـ وكان للصّور والخيالات المنتزعة من الطبيعة الحية والصامتة الحظ الأوفر في تشكيل الصور، وقد احتل الأسد الدرجة الأولى في الشيوع في أخيلتهن المنتزعة من الطبيعة الحية. . .

20 ـ أما الشاعرات فقد أحصينا منهن ما يقرب من ستين شاعرة في صدر

الإسلام، وأربعين شاعرة في العصر الأموي، ولا شك في أن ثمة أخريات لَمْ ينته إلينا خبرهنّ. وكان مِنْهُنَّ الحرائر والقيان، وإن كانت تمثل طبقة القيان في مجال الشعر نسبة محدودة بالنسبة إلى الحرائر.

21 ـ وقد وازنّا بين شعر الحرائر وشعر القيان فوجدنا:

أ ـ أنَّ الحرائر أطول نفساً من القيان، فشعر الحرائر قصائد ومقطوعات، بينما شعر القيان أبيات ومقطوعات، وقلما نعثر على قصيدة لهن.

ب ـ وكذلك من حيث الكمية، فإن شعر الحرائر أوْفر بكثير من شعر القيان الذي لا يمثل إلاَّ نسبة ضئيلة جدًّا من مجموع أشعار النساء.

ج ـ وهكذا كان شعرهنَّ ـ من حيث قيمتُه الفنية ـ في مجمله جيّداً في الرثاء، وموفقاً في المدح والغزل العفيف، وضعيفاً في الهجاء والغزل الماجن.

وفي النهاية يمكنُ القول إن الشعر النسوي ـ في هذه الفترة ـ شعر حيٌّ معبّرٌ، لا يقصر عن شعر الرجال في كثير من الأغراض، وأنَّ التهمة التي توجَّهُ إليه بالضعف والتخلف، هي تهمة باطلة فيها كثير من التجَنّي والظلم لهنَّ ولشعرهن. وإننا لا ننفي أن شعر بعض النساء ضَعيفٌ وركيك.. ولكن يجب ألا ننسى أن في شعر الرجال أيضاً من الفسالة والرَّداءة وضعف التأليف والتعقيد ما يغطي على شعر النساء.

وعلى العموم إنَّ الشاعرات كنَّ يتفوَّقْنَ أحياناً على الشعراء، وقد مرت معنا قصة ليلى الأخيلية مع النابغة الجعدي الذي «غلبت عليه» بشهادة ابن سلام والأصمعي.

وكان بعضهنَّ ناقدات مجيدات، كسكينة بنت الحسين سيدة الناقدات في عصرها، فإليها كان يحتكم أكبر شعراء العصر.

وبعد، فقد بذلت ما استطعتُ، وأرجو أن أكونَ قد وفّقتُ، وما توفيقي إلا باللّهِ عليه توكَّلتُ، وإليه أنيبُ، والحَمْدُ لِلَّهِ أوَّلاً وآخراً .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر المخطوطة :

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت 911 هـ): نزهة الجلساء في أشعار النساء، مخطوط بمكتبة تيمور بالقاهرة، رقم (813) شعر.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت 911 هـ): نواضر الأيك، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم (3068) عربيات.
- السيوطي، جلال الدين (ت 911 هـ): الوشاح، مخطوط دار الكتب الوطنية، باريس رقم (3066) عربيات.
- المزرباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 314 هـ): أشعار النساء (الجزء الثالث)، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة، رقم: 8 أدب، (ش42898).

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم
- الأبشيهي، شهاب الدين أحمد (ت 850 هـ): المستطرف في كل فنّ مستظرف، تحقيق: الدكتور مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1406 هـ ـ 1986م.
- الإبلي، المجد النشابي (ت 657 هـ): المذاكرة في ألقاب الشعراء، تحقيق: شاكر العاشور، نشر مجلة معهد المخطوطات العربية، الكويت، المجلد الحادي والثلاثون، سنة 1408هـ ـ 1987م.
- ابن الأثير، أبو الحسن بن علي الجزري (ت 630 هـ): أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق إبراهيم البناء ومحمد عاشور، دار الشعب، القاهرة، 1970م.
- ابن الأثير، أبو الحسن (ت 630 هـ): الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980.
- الأخيلية، ليلى (ت 135 هـ): ديوانها، جمع وتحقيق: خليل إبراهيم العطية وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، 1386هـ ـ 1967م.
- الأشنانداني، أبو عثمان سعيد بن هارون: كتاب معاني الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت سنة 1408هـ ـ 1988م.
- الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ): الأغاني، دار الثقافة، بيروت، سنة 1404هـ ـ 1983م.
- الأصبهاني: الإماء الشواعر، تحقيق نوري القيسي ويونس السامرائي، نشر عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1404هـ ـ 1984م.
- الأصبهاني: القيان، تحقيق: جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.

- الأصبهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد الصقر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، وطبعة المطبعة الحيدرية بالنجف، 1353هـ
- ابن عثم أبو محمد الكوفي(ت926هـ): الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406هـ ـ 1986م.
- الألوسي، محمود شكري (ت 1342هـ): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق: بهجت الأثري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.
- الأنطاكي، داود بن بصير (ت 1008هـ): تزيين الأسواق في أخبار العشاق، مكتبة الهلال، بيروت، 1406هـ ـ 1986م.
- البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت 284هـ): الحماسة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1387هـ ـ 1967م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ): صحيح البخاري، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، 1407هـ ـ 1987م.
- البغدادي، أبو جعفر محمد بن حبيب (ت 245هـ): المحبر، المكتب التجاري، بيروت.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ): خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1981م.
- البكري، عبدالله بن عبد العزيز (ت 487هـ): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ ـ 1983م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 379هـ): أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، مصر. وتحقيق محمد باقر، دار التعاون للمطبوعات، بيروت 1977.
- البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1957م.
- التبريزي، يحيى بن علي الخطيب (502هـ): شرح ديوان الحماسة، دار القلم، بيروت.
- أبو تمام: الوحشيات (الحماسة الصغرى)، دار المعارف بمصر، ط 2، 1970.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 291هـ): قواعد الشعر، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1995.
- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت 255هـ): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت. وطبعة فوزي عطوي، مكتبة النوري ـ مكتبة الطلاب، بيروت 1968.
- الجاحظ): الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبده والشنقيطي، طبعة المنار بمصر، 1366هز
- الجرجاني، محمد بن علي بن محمد (ت 729هـ): الإشارات والتنبيهات، تحقيق عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1981م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت 392هـ): الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن الجوزي، الإمام الحافظ أبو الفرج (ت 597هـ): أحكام النساء، دار الكتب العلمية، بيروت،

1405هـ ـ 1985م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت 1067): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، 1402هـ ـ 1982م.
- حازم القرطاجني، أبو الحسن (ت684هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- الحافظ الذهبي، شمس الدين (ت748هـ): تذكرة الكتّاب، طبعة المعارف النظامية، حيدر أباد ـ الهند.
- ابن حبيب (محمد): المحبّر، طبعة حيدر آباد 1361هـ ـ 1942م، وطبعة المكتب التجاري، بيروت.
- ابن حجر، العسقلاني (ت852هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد (ت456هـ): جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، 1382هـ ـ 1962م.
- ابن حزم: جوامع السيرة النبوية، دار الشهاب، الجزائر.
- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار صادر، بيروت.
- الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت453هـ): زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت626 هـ): معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ ـ 1984م.
- الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ ـ 1991م.
- الحموي، تقي الدين أبو بكر بن حجة (ت837هـ): ثمرات الأوراق، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1407هـ ـ 1987م.
- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ، ابن العماد (ت1089 هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 370هـ): إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله (ت 300هـ): مختار من كتاب اللهو والملاهي، دار المشرق، بيروت.
- الخرنق بنتُ بدر بن هفان: ديوان الخرنق، رواية أبي عمرو بن العلاء (ت 154 هـ)، تحقيق: يسري عبد الغني عبد اللّه، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808هـ): تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ ـ 1992م.
- ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين (ت681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- الخنساء، تماضر بنت عمرو (ت نحو 26هـ): ديوان الخنساء، دار التراث، بيروت، سنة 1968م.
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت 282هـ): الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار

المسيرة، بيروت.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ - 1985م.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن (ت 456هـ): العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
- ابن الزّبعري، عبد اللّه (ت نحو 15هـ): شعره، تحقيق: الدكتور يحيى الجبّوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ - 1987م.
- الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق (ت 1205هـ): تاج العروس، المطبعة الخيرية، مصر، 1306هـ
- الزبير بن بكار (ت256هـ): جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1381هـ
- الزبيري، أبو عبد الله المُصعب (ت236هـ): نسب قريش، دار المعارف بمصر، 1982م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت528هـ): أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت 1409هـ - 1989م.
- الزمخشري: الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ - 1987م.
- السجستاني، أبو حاتم (ت255 هـ): فحولة الشعراء، تحقيق: الدكتور محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1411هـ - 1991م.
- السراج، أبو محمد جعفر (ت500هـ): مصارع العشاق، دار الصادق، بيروت.
- ابن سعد، محمد (ت 230هـ): الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- ابن سلام، الجمحي (ت 232هـ): طبقات الشعراء، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1974م.
- السجلماسي، أبو محمد القاسم الأنصاري (كان حياً سنة 704هـ): المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علّال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، 1401هـ - 1980م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي (ت458هـ): المخصص، المكتب التجاري للنشر والتوزيع، بيروت.
- ابن سيد الناس (ت732): منح المدح أو شعراء الصحابة ممّن مدح الرسول ﷺ أو رثاه، تحقيق: عفت وصال حمزة، دار الفكر، سوريا، 1987م.
- السيوطي، جلال الدين (ت911هـ): المستظرف من أخبار الجواري، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
- السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة.
- الشريشي، أبو العباس أحمد (ت620هـ): شرح مقامات الحريري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1979م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد (ت548هـ): الملل والنحل على هامش (الفصل لابن حزم)، دار صادر، بيروت.
- الصفدي (ابن أيبك): الوافي بالوفيات، طبعة استانبول 1931.
- الضبيّ، العباس بن بكار (ت 222هـ): أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان، تحقيق: سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ - 1983م.

- الضبيّ، المُفضّل بن محمد (ت178هـ): المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط10، دار المعارف، مصر، 1992م.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد (ت 322هـ): عيار الشعر، المكتبة التجارية، القاهرة، 1956م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ): تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ - 1991م.
- الطبري: تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1408هـ - 1988م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي (ت701هـ): الفخر في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت، 1386هـ - 1966م.
- طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت 280هـ): بلاغات النساء، دار النهضة الحديثة، بيروت، 1972م.
- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت 327هـ) طبائع النساء، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة.
- ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1402هـ - 1982م.
- ابن عربي، القاضي أبو بكر (ت543هـ): العواصم من القواصم، تحقيق: محبُّ الدين الخطيب، المكتبة العلمية، بيروت، 1406هـ - 1986م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت 571هـ): تاريخ مدينة دمشق - تراجم النساء - تحقيق: سكينة الشهابي، دمشق، 1982م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد اللّه (ت395هـ): كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1406هـ - 1986م.
- العسكري: جمهرة الأمثال، على هامش مجمع الأمثال للميداني، المطبعة الخيرية، مصر 1310.
- عبد الملك بن حبيب (ت238هـ): كتاب أدب النساء الموسوم بكتاب الغاية والنهاية، تحقيق: عبد المجيد تركي: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1412هـ - 1992م.
- القالي، أبو علي إسماعيل (ت356هـ): الأمالي، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1407هـ - 1987م.
- ابن قتيبة، عبد اللّه بن مسلم (ت276هـ): الإمامة والسياسة، موفم للنشر، الجزائر، 1989م.
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، 1407هـ - 1987م.
- ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، 1349هـ.
- ابن قتيبة: المعارف، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر.
- قدامة، أبو الفرج بن جعفر (ت 327هـ): نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القرشي، أبو زيد الأنصاري (ت214هـ): جمهرة أشعار العرب، بيروت، 1960.
- القرطبي، المالكي (ت463هـ): الاستيعاب في أسماء الأصحاب (بهامش الإصابة) دار الكتاب العربي، بيروت.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت 821هـ): قلائد الجمان، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1982م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت751هـ): أخبار النساء، تحقيق: نزار رضا، منشورات دار

مكتبة الحياة، بيروت، 1964م.
- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.
- الكتبي، ابن شاكر (ت764هـ): فوات الوفيات، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمرو (ت 774هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1972م.
- ابن الكلبي، أبو منذر هشام بن محمد (ت 204هـ) الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924م.
- المازري، أحمد، أبو عبد الله محمد بن علي (ت536هـ): المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988م.
- المالقي، أبو الحسن علي بن محمد (ت605هـ): الحدائق الغناء في أخبار النساء، تحقيق: الدكتورة عائدة الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1398هـ ـ 1978م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (585هـ): الكامل في اللغة والأدب، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط3، 1405هـ ـ 1985م.
- مجنون ليلى، قيس بن الملوّح (ت65 أو 98هـ): ديوان مجنون ليلى، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، القاهرة.
- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت384هـ): أشعار النساء، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني وهلال ناجي، دار الرسالة للطباعة، بغداد، 1976م.
- المرزباني: الموشح، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر، 1965م.
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد (ت421هـ): شرح ديوان الحماسة، نشرة أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1411هـ ـ 1991م.
- المسعودي، أبو الحسن (ت346هـ): أخبار الزمان، دار الأندلس، بيروت.
- المسعودي، أبو الحسن (ت346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، موفم للنشر، الجزائر، 1989م.
- ابن المعتز، أبو العباس، عبد الله (ت296هـ): طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر.
- المعري، أبو العلاء (ت449هـ): اللزوميات، دار الجيل، بيروت.
- المقري، أحمد بن محمد (ت1041هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1388هـ ـ 1968م.
- ابن منظور، المصري (ت711هـ): لسان العرب، تحقيق: يوسف الخياط، بيروت.
- المنقري، نصر بن مزاحم (ت212هـ) وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، 1401هـ ـ 1981م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (518هـ): مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد

الحميد، دار الفكر، بيروت، 1393هـ ـ 1972م.
- ابن نُباتة، جمال الدين محمد (ت768هـ): سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1377هـ ـ 1957م.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت385هـ): الفهرست، المطبعة الرحمانية بمصر، 1348هـ وطبعة الدار التونسية للنشر، 1406هـ ـ 1985م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 723هـ): نهاية الأرب، طبعة دار الكتب، مصر، 1932م.
- النيسابوري، أبو القاسم بن حبيب (ت406هـ): عقلاء المجانين، تحقيق: مصطفى عاشور، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (218هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، المكتبة العلمية، بيروت.
- الواقدي، أبو عبد اللّه بن عمر (ت 207هـ): فتوح الشام، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، 1404هـ ـ 1984م.
- الواقدي: المغازي، عالم الكتب، بيروت.
- الوشاء، أبو الطيب محمد بن إسحاق (ت325هـ): الموشى أو الظرف والظرفاء، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1400هـ ـ 1980م.
- ابن يزيد، أبو عبد اللّه محمد (ت 240هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1986م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت 280هـ): تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.

ثالثاً: المراجع:

- إبراهيم (محمد أبو الفضل) والبجاوي (علي محمد): أيام العرب في الإسلام، دار الفكر، بيروت، 1974م.
- الأحمدي (موسى بن محمد بن الملياني): المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، بيروت، 1969م.
- آدم (متز): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريد، نشر مكتبة الخانجي القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1389هـ ـ 1967م.
- أرسلان (شكيب): لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟، موفم للنشر، الجزائر، 1990م.
- الأسد (نصر الدين): القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، 1968م.
- إسماعيل (عز الدين): الأسس الجمالية في النقد الأدبي، دار الفكر، بيروت، 1968م.
- إسماعيل (محمود): الحركات السرية في الإسلام، دار القلم، بيروت ، 1973م.
- الأعظمي (وليد): السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر.
- آغا (عمر توفيق سفر) علم العروض، منشورات دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب.
- الأفغاني (سعيد): الإسلام والمرأة، دار الفكر، بيروت، 1970م.

- أمين (أحمد): ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت.
- أمين (أحمد): ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1388هـ ـ 1969م.
- أمين (أحمد): فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م.
- أمين (أحمد): النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط3، 1963م.
- أنيس (إبراهيم): موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981م.
- بدوي (عبد الرحمن): رابعة العدوية شهيدة العشق الإلّهي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م.
- البستاني (بطرس): أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار مارون عبود، بيروت، 1986م.
- البستاني (كرم) النساء العربيات، دار مارون عبود، بيروت، 1979م.
- بكار (يوسف حسين): بناء القصيدة العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م.
- بكار (يوسف حسين): اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت، 1401هـ ـ 1981م.
- بكار (يوسف حسين): شعر ربيعة الرقي، دار الأندلس، بيروت، 1404هـ ـ 1984م.
- بلاشير (رجيس): تاريخ الأدب العربي، ترجمة: الدكتور إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر، تونس ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- بلبع (عيد الحكيم): أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1979م.
- البهبيتي (نجيب محمد): تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، دار الفكر، بيروت.
- البواب (سليمان سليم): مائة أوائل من النساء، دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق، 1404هـ ـ 1984م.
- بوفلاقة (سعد): الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.
- بوفلاقة (سعد): النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى، الشركة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1994م.
- بو ملحم (علي): في الأدب وفنونه، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا ، لبنان.
- بيهم (محمد جميل) المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية، دار الطليعة، بيروت، 1980م.
- بيومي (السباعي): تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي، ط2، مصر، 1935م.
- ترحيني (فايز): الإسلام والشعر، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م.
- ترحيني (محمد): المؤرخون والتاريخ عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التنّير (سليم): الشاعرات من النساء، أعلام وطرائف، دار الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1408هـ ـ 1988م.
- الجبار (مدحت سعد): الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، الدار العربية للكتاب، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- الجّبوري (يحيى): الإسلام والشعر، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1964م.
- الجّبوري (يحيى): الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1993م.

- الجّبوري (يحيى): شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1401هـ - 1981م.
- الجميلي (رشيد عبد الله): تاريخ الدولة العربية الإسلامية، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1983م.
- الجندي (درويش): الرمزية في الأدب العربي، نهضة مصر، القاهرة، 1958م.
- الجوزو (مصطفى): نظريات الشعر عند العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1981م.
- حجاجي (حمدان): حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1983م؟
- حسين (الحاج حسن): نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1985م.
- حسين (طه): الفتنة الكبرى - علي وبنوه - ج2، طبعة مصر، 1953م.
- الحصين (أحمد بن عبد العزيز): المرأة ومكانتها في الإسلام، مطابع المختار الإسلامي، 1401هـ - 1981م.
- حميدة (عبد الحسيب طه): أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1409هـ - 1989م.
- الحوفي (أحمد محمد): الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط A 1961م.
- الحوفي (أحمد محمد): أدب السياسة في العصر الأموي، دار مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- الحوفي (أحمد محمد): القرآن والتفكير، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1955م.
- الحوفي (أحمد محمد): المرأة في الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- خليف (مي يوسف): الشعر النسائي في أدبنا القديم، نشر مكتبة غريب، القاهرة.
- دقة (محمد علي): خولة بنت الأزور بين الحقيقة والخيال، دار معهد للنشر، دمشق، 1992م.
- الدوري (عبد العزيز): مقدمة من تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1961م.
- ابن ذريد (عدنان): اللغة والأسلوب، طبعة دمشق، 1980م.
- الرافعي (مصطفى صادق): تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1394هـ - 1974م.
- رضا (رشيد): الخلافة، موفم للنشر، الجزائر، 1992م.
- الزّركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين ، بيروت، ط5، 1980م.
- زيدان (جرجي): تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1978م.
- زيدان (جرجي): تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال، مصر.
- سلّوم (تامر): في التشكيل الموسيقي للشعر العربي، جامعة تشرين، سوريا، 1985م.
- سوزان (ستيتكيفيتش): القصيدة العربية وطقوس التعبير، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج1، م60، يناير 1985م.
- شامي (يحيى): أروع ما قيل في الفخر، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1992م.
- شامي (يحيى): أروع ما قيل في المدح، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1992م.
- الشايب (أحمد): تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،

ط2، 1962م.
- الشرقاوي (الشيخ عبدالله): تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين (بهامش فتوح الشام للواقدي)، المكتبة الشعبية، بيروت.
- الشيخ (أحمد محمد): مشاهد الشواهد في علم القوافي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، مصراتة، ليبيا، ط1، 1986م.
- شيخاني (سمير): أشهر المغنين عند العرب، المطبعة الكاثولكية، بيروت، 1962م.
- الصالح (صبحي): مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م.
- صقر (عبد البديع): شاعرات العرب، جمع وتحقيق، منشورات المكتب الإسلامي، قطر، ط1، 1967م.
- صمّود (نور الدين): تبسيط العروض، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1986م.
- صوايا (ميخائيل): سليمان البستاني - أعلام الفكر العربي - منشورات دار الشرق الجديدة، بيروت.
- ضيف (شوقي): تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - دار المعارف بمصر.
- ضيف (شوقي): تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي - دار المعارف بمصر.
- ضيف (شوقي): التطوّر والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف بمصر.
- ضيف (شوقي): الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دار المعارف بمصر.
- ضيف (شوقي): فصول في الشعر ونقده، دار المعارف بمصر.
- ضيف (شوقي): الفن ومذاهبه في الشعر، دار المعارف بمصر، 1974.
- الطخرجي (أسعد محمد): القضاء والقدر، دار الفكر، الجزائر.
- الطرابلسي (محمد الهادي): خصائص الأسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، 1981م.
- الطويل (توفيق): الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية - دراسة مقارنة - مكتب التراث الإسلامي، القاهرة.
- الطيب (عبد الله): المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الفكر، بيروت، ط2، 1970م.
- عباس عبد (الهادي): المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها، دار طلاس، دمشق، ط1، 1987م.
- عبد الرحمن (عائشة): الخنساء، سلسلة نوابغ الفكر العربي، دار المعارف، مصر، 1976م.
- عبد الرحمن (عائشة): الشاعرة العربية المعاصرة، دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1965م.
- عتيق (عبد العزيز): الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.
- عتيق (عبد العزيز): في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1972م.
- عصفور (جابر أحمد): مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، المركز العربي للثقافة والعلوم، 1982م.
- عطوان (حسين): مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1970م.
- عطوان (حسين): مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، دار الجيل، بيروت، 1407هـ - 1987م.
- عفيفي (عبدالله): المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها. مكتبة الثقافة، السعودية.
- عفيفي (محمد الصادق): النقد التطبيقي والموازنات، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء،

المغرب، 1972م.
- العقاد (عباس محمود): المرأة في القرآن، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- عمر (أحمد مختار): اللغة واختلاف الجنسين، عالم الكتب، القاهرة ، ط1، 1416هـ - 1996م.
- العمروسي (فايد): الجواري المغنيات، دار المعارف، مصر، 1961م.
- العمري (ياسين الخطيب): الروضة الفيحاء في تواريخ النساء. تحقيق عماد علي حمزة - الدار العالمية.
- عوني (عبد الرؤوف محمد): القافية والأصوات اللغوية، دراسة مقارنة، القاهرة، 1977م.
- عياد (شكري محمد): موسيقى الشعر العربي، مشروع دراسة علمية، دار المعرفة، القاهرة، 1977م.
- غريب (جورج): شاعرات العرب في الإسلام، دار الثقافة، بيروت ط1، 1985م.
- غريب (جورج): شاعرات العرب في الجاهلية، دار الثقافة، بيروت ط1، 1984م.
- غريب (جورج): صدر الإسلام، تاريخ ونماذج محللة، دار الثقافة، بيروت ط3، 1978م.
- غريب (روز): نسمات وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1400هـ - 1980م.
- فايد (عبد الحميد): المرأة وأثرها في الحياة العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1403هـ - 1983م.
- فروخ (عمر): بشار بن برد وفاتحة العصر العباسي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1399هـ - 1979م.
- فروخ (عمر): تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1992م.
- فروخ (عمر): تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986م.
- فروخ (عمر): عبقرية العرب في العلم والفلسفة، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط3، 1389هـ - 1969م.
- فواز (زينب بنت يوسف): الدُّر المنثور في طبقات ربات الخدور، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- فيصل (شكري): تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1982م.
- القليني (روحية): شاعرات عربيات، الدار القومية للطباعة، القاهرة، مصر.
- القماح (خديجة) وأحمد (محمد علي): رابعة العدوية، نشر مكتب رجب، القاهرة، 1983م.
- قنديل (عبد المنعم): رابعة العدوية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، 1983م.
- كحالة (عمر رضا): أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1402هـ - 1982م.
- كحالة (عمر رضا): المرأة في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1402هـ - 1982م.
- كرد علي (محمد): الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959م.
- الكردي (محمود السعيد): مأساة الخلافة في الإسلام، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان،

طرابلس، ليبيا، 1983م.
- الكيلاني (إبراهيم): أدبيات من المغرب، منشورات دار الرواد، دمشق، سوريا.
- كيّال (باسمة): تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1041 - 1981م.
- مبارك (زكي): النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، 1975م.
- محمد (ماهر عبد القادر): التراث والحضارة الإسلامية، دار النهضة، بيروت، (د.ت).
- محمود (علي السيد): الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م.
- مخلوف (عبد الرؤوف): الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978م.
- مخلوف (عبد الرّؤوف): ابن رشيق ونقد الشعر، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973م.
- معبدي (محمد بدر): أدب النساء في الجاهلية والإسلام، النثر، نشر مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، 1983م.
- معبدي (محمد بدر): أشعار النساء في الجاهلية والإسلام، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1986م.
- مفتاح (محمد): في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1409هـ - 1989م.
- المقدسي (أنيس): تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1960م.
- مندور (محمد): في الأدب والنقد، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، القاهرة، 1952م.
- المهدي (صالح): الموسيقى العربية، تاريخها وأدبها، الدار التونسية للنشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.
- ناصف (مصطفى): الصورة الأدبية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1981م.
- نشأت (كمال): في النقد الأدبي، دراسة وتطبيق، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، العراق، 1970م.
- الهادي (صلاح الدين): الأدب في عصر النبوة والراشدين، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط4، 1409هـ - 1988 م.
- الهاشمي (السيد أحمد): جواهر الأدب، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، (د.ت.).
- هدارة (محمد مصطفى): اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت).
- هلال (محمد غنيمي): النقد الأدبي الحديث، دار مطابع الشعب بالقاهرة، 1964م.
- وهبة (مجدي) والمهندس (كامل): معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1972م.
- اليفعي (صلاح البكري): تاريخ حضرموت السياسي، المطبعة السلفية بمصر، 1354هـ.
- يموت (بشير): شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1353هـ

1934م.

رابعاً: الدوريات:

- مجلة: المجمع العلمي العراقي، المجلد السادس عشر، سنة 1941م.
- مجلة: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء 24، يناير، 1969م.
- مجلة: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المجلد 6، الجزء الأول، يناير 1985.
- مجلة: معهد المخطوطات العربية بالكويت، مجلد 31، الجزء الثاني، سنة 1987م.
- مجلة: المناهل المغربية، العدد، 44، يونيو 1994م.

خامساً: المراجع الأجنبية:

1- Bebcheik (Djamel Eddine): *Poetique Arabe*, Paris 1975.

2- Blachere (Regis: *Histoire de la Litterature Arabe*, Paris 1966

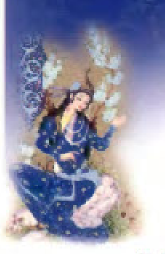
3- F.Frank, F. Amsshen: *Language and The Sexex*, U.S.A. 1983.

4- Philip M. Smith, Bosil Black. Well: *Language: The Sexes and Society*, 1984.

فهرس الشاعرات الوارد ذكرهن في البحث[1]

[1] وقد أوردنا هنا أسماء الشاعرات مرتّبة على حروف المعجم، واعتمدنا على أول الاسم دون المبالاة بأل، وبألفاظ الأب والابن والأم والبنت وأمثالها. فلتطلب مثلاً «أم كلثوم» في حرف الكاف.

فهرس الموضوعات



شعر النساء

في صدر الإسلام والعصر الأموي

لم يحظَ شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي باهتمام الدارسين والباحثين، ولم تُفردْ له دراسة مستقلة، وإن وردت إشارات إليه في بعض الكتب التي تناولت الشعر النسوي بعامّة.

يدرُس هذا الكتاب، شعر النساء في هذين العصرين، دراسة موضوعيّة فنّية مستقلّة، ويتناوله بالدّرس والتحليل والاستنتاج، كاشفاً النقاب عن أغراضه، محدّداً ظواهره الفنية المتميزة على مستوى الأساليب والألفاظ، والصور والأخيلة.

والكتاب في خمسة فصول ترصد مكانة المرأة العربية، والخلفية السياسية والاجتماعية والثقافية لشعرها، وأغراض شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي، والخصائص الفنية التي أكسبت شعرهنّ الجمال والخلود، وجعلته ذا سماتٍ بارزة.

وإلى المنهجين النقدي والوصفي، استخدم الباحث المنهج التاريخي لملاءمته مع طبيعة الدراسة، والذي يعتمد الترتيب الزمني في تتبّع الظواهر الأدبية وتفسيرها.



